أوربا العصور الوسطى

الجزء الأول

التاريخ السياسى

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة التاسعة

١٩٨٣

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)

أوربا العصور الوسطى

الجزء الأول

التاريخ السياسي

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة التاسعة

١٩٨٣

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)

طبعات هـذا الكتـاب

الطبعـة الأولى سنة ١٩٥٧

الطبعـة الثانية سنة ١٩٦١

الطبعـة الثالثة سنة ١٩٦٤

الطبعـة الرابعة سنة ١٩٦٦

الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٢

الطبعـة السادسة سنة ١٩٧٥

الطبعـة السابعة سنة ١٩٧٨

الطبعـة الثامنة سنة ١٩٨١

الطبعـة التاسعة سنة ١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

ظل اصطلاح العصور الوسطى حتى زمن قريب يطلق على القرون العشرة الواقعة بين سـقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وظهور حركة النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر . على أن ازدياد الاهتمام بالتقدم الحضارى الذى أصابته أوربا منـذ القرن الحادى عشر ، أدى الى الاعتراف حديثا بأن ثمة حضارة جديدة قوية شهدتها أوربا فى الجزء الأخير من العصور الوسطى ، مما ساعد على ظهور اتجاه بين الباحثين يرمى الى قصر اسم العصور الوسـطى على القرون الأربعة التى سبقت النهضة الايطالية مباشرة ، أو التى تمخضت عن مولد هذه النهضة ، على أن نعتبر الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والحادى عشر بمثابة دور انتقال طويل من العصور القديمة الى العصور الوسطى .

واذا كان أبناء المدرسـة القديمة من المؤرخين قد أصروا دائما على اتخاذ سنة ٤٧٦ — وهى السنة التى سقطت فيها الامبراطورية فى الغرب — حدا فاصلا بين العصور القديمة والوسطى ، وسنة ١٤٥٣ — وهى السنة التى سقطت فيها القسطنطينية فى أيدى العثمانيين وانتهت فيها حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا — حدا فاصلا بين العصور الوسطى والحديثة ، الا أننا لا نستطيع أن نسايرهم بأطمئنان فى هذا الاتجاه . ذلك أن اختيار سنة بعينها أو حدث بذاته لتحديد نهاية عصر من عصور التاريخ أو بداية عصر آخر ، يبدو فى نظرنا أمرا بعيدا عن الحقيقة والواقع ، لأن التطور التارخى يمتاز دائما بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها فى بعض ، أشبه شىء بنمو الكائن الحى . وكما أننا لا نستطيع اتخاذ لحظة بعينها نقول أن الفرد ينتقل فيها من مرحلة الطفولة الى مرحلة الشباب أو من هذه المرحلة الاخيرة الى مرحلة الشيخوخة ، فكذلك من المبالغة التاريخية أن نختار سنة محدودة لنقول أن العصـور القديمة انتهت فيها بجميع مظاهرها لتحل محلها العصـور الوسطى ، أو أن العصور الوسطى توقفت فيها عن السير تماما لتفسح الطريق للعصور الحديثة . وبعبارة أخرى فاننا نحب ان نؤكد ظاهرة تداخل

العصور التاريخية بعضها فى بعض ، بحيث لا تفصلها حدود ضيقة وسنون معينة ، وان كان من الممكن أن نتلمس العــذر للمؤرخين عندما يصطلحون على اختيار بعض السنوات الهامة أو الاحداث الكبرى لتكون فواصل بين العصور التاريخية ، بأن الغرض من ذلك هو مجرد الرغبة فى تسهيل البحث على أساس أن هذه السنين وما تم فيها من أحداث كبرى هى أخطر الوقائع فى مرحلة الانتقال بين عصر وآخر .

وكل ما هنالك هو أننا نلمس فى القرن الرابع حدوث بعض التطورات العظيمة التى كان لها أثر فى تغيير وجه التاريخ القديم ، وان ظلت معالم هذا التاريخ القديم باقية فى أوربا الى ما بعد القرن الرابع بكثير . من ذلك مــا شهده ذلك القرن من اعتراف الامبراطورية بالديانة المسيحية سنة ٣١٣ ، ونقل عاصمة الامبراطورية الى القسطنطينية ســنة ٣٣٠ ، وازدياد خطر الجرمان على كيان الامبراطورية الرومانية عقب موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ ، واتخاذ المسيحية ديانة رســمية للامبراطورية ســنة ٣٩٢ ، ثم تقســيم الامبراطورية الرومانية الكبرى الى قسمين شرقى وغربى سنة ٣٩٥ . فالقرن الرابع اذا يمثل العصر الذى اجتمعت وتفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التى كيفت تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، وهى الكنيسة المســيحية والجرمان والامبراطورية ، فلا أقل من أن نبدأ دراستنا لتاريخ أوربا فى تلك العصور باستعراض أحوالها عند مستهل القرن الرابع دون أن نرتبط بسنة معينة فى بداية ذلك القرن أو نهايته . كذلك يلمس الباحث فى تاريخ القرن الخامس عشر أن ثمة تطورات هامة أخذت تلم بالمجتمع الاوربى — وبخاصة فى النصــف الاخير من ذلك القرن — لتغير المألوف وتنتقل بذلك المجتمع — تدريجيا — نحو أوضاع أخرى جديدة . ففى سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية عاصمة الامبراطورية العتيدة — فى أيدى العثمانيين ، مما ترتب عليه حدوث انقلاب خطير فى شرق أوربا نتيجة لاتساع نفوذ العثمانيين . حقيقة ان هذه لم تكن المرة الاولى التى تسقط فيها عاصمة الامبراطورية البيزنطية فى أيدى الاعداء ، فقد سبق أن سقطت فى أيدى رجال الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ ، وعندئذ تعرضت الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها لأشد أنواع العبث على أيدى الصليبيين . ولكن على الرغم من العداء المذهبى الشــديد بين الصليبيين الكاثوليك والبيزنطيين الأرثوذكس ، الا أننا يجب أن نذكر أن هؤلاء الصليبيين كانوا مسيحيين غربيين . أما العثمانيون الذين اســتولوا على القسطنطينية ١٤٥٣ ، فلم يكونوا مسيحيين أو غربيين وانما كانوا مسلمين شرقيين ، ممــا يوضح خطورة الانقلاب الذى تعرضت له أوربا وحضارتها نتيجة لذلك الحدث . واذا كانت ســنة ١٤٥٣ تمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ ذلك الجزء الشرقى من أوربا ، فان هذه السنة ذاتها قد تكون عديمة

الأهمية بالنسبة لكثير من بقية بلاد أوربا . حقيقة أنها شهدت أيضا هزيمة الانجليز فى موقعة شتيلون وبذلك وضعت نهاية فعلية لحرب المائة عام ، ولكننا اذا دققنا النظر فى تاريخ انجلترا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وجدنا ان سنة ١٤٨٥ ـ التى شهدت قيام أسرة تيودور فى الحكم ـ أكثر بروزا وأهمية بالنسبة للتاريخ الانجليزى بالذات .

ومثل ذلك يقال عن سنة ١٤٦٦ بالنسبة لبولندا لأن فيها خضع الفرسان التيتون وانضمت بروسيا الى بولندا ، وسنة ١٤٨٠ بالنسبة لروسيا لتحررها وقتئذ من نفوذ المغول ، وسنة (١٤٩١ ـ ١٤٩٢) بالنسبة لأسبانيا لسقوط دولة غرناطة الاسلامية . هذا كله عدا ما شهده النصف الأخير من القرن الخامس عشر من حركة افاقة شاملة سرت فى المجتمع الأوربى ليترتب عليها ما يعرف باسم حركة النهضة ، وهى الحركة التى كانت أهم مظاهرها احياء الآداب والعلوم والفنون وتحرير العقل البشرى من كثير من القيود القديمة ؛ والتى جاءت مصحوبة باختراع الطباعة من جهة ، واستكشاف الطرق البحرية الى أمريكا والهند من جهة ثانية ، ثم الثورة على الكنيسة وأوضاعها من جهة ثالثة . لذلك حاولت أن اتخذ نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر خاتمة لدراسة أحوال أوربا فى العصور الوسطى دون أن أرتبط بسنة معينة أو بحدث محدد لان ما يكون خطيرا بالنسبة لبلد قد لا يكون كذلك بالنسبة لبلد آخر .

والواقع أنه لابد لنا ـ لكى نعى تاريخ أوربا وحضارتها فى العصور الوسطى وعيا صادقا ـ من أن نحرر عقولنا تماما من نظرتنا الحديثة إلى الحياة ، ونضع دائما نصب أعيننا حقيقة هامة هى أن أهالى العصور الوسطى نظروا الى الحياة ومشاكلها الاساسية من زاوية تختلف كلية عن الزاوية التى ننظر منها نحن الى الحياة ومشاكلها . فاذا استطعنا أن ننظر الى العصور الوسطى هذه النظرة الواقعية ، فاننا سنرى تلك العصور على حقيقتها ، وسندرك عندئذ أنها ليست « مظلمة » ومليئة بالعنف والقلاقل وسفك الدماء ، كما صورها الانسانيون من رجال النهضة الايطالية ـ وبخاصة بترارك ـ وهم الذين فتنتهم الحضارة الكلاسيكية فأجحفوا بحق العصور الوسطى ونسوا أن تلك العصور اهتمت بابتكار حضارة جديدة أكثر من اهتمامها بعبادة الحضارة القديمة وتقديسها . وستضح لقارىء هذا الكتاب أن أوربا العصور الوسطى لم تعدم ظهور مفكرين أفذاذ أسهموا فى بناء الحضارة البشرية وقدموا خلاصة تفكيرهم لتستفيد منها العصور الحديثة . وحسبنا ما أسهمت به أوربا فى العصور الوسطى من قوانين ونظم حكومية

واجتماعية مبتكرة ، فضلا عما أبدعته من طرز فنية والحان موسيقية ونظم تعليمية واقتصادية ودينية .

وقد حاولت أن يأتى هذا الكتاب معبرا عن كافة التطورات السياسية والحضارية التى مرت بها أربا بين القرنين الرابع والخامس عشر ، فعالجت — فى الجزء الاول هذا — تاريخ أوربا السياسى فى تلك الفترة مبتدئا بالكلام عن الامبراطورية الرمانية فى عصرها الاخير ، ثم عالجت فى الجزء الثانى تاريخ أوربا الحضارى فى العصور الوسطى حتى قيام النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر .

وليس من حقى أن أشرح للقارىء المجهود الكبير الذى استنفذه منى وضع هذا الكتاب طوال سنوات عديدة ، أو أن أعدد له الصعاب الكثيرة التى يصادفها واضع كتاب باللغة العربية فى موضوع بعيد كل البعد عن العقلية العربية فى العصور الوسطى بله الحديثة ، وحسبى أن أترك للقارىء وحده تقدير ما استهلكه هذا الكتاب من جهد ووقت . ولكن من حقى — وواجبى — أن أقدم شكرى خالصا الى كل من عاوننى بجهده وتشجيعه فى انجاز هذا المؤلف ، وأخص بالذكر السادة الذين ذكرت أسماءهم فى مقدمة الطبعة الأولى .

وسيلمس القارىء فى هذه الطبعة تغيرات كثيرة ، سواء فى تنقيح بعض الأجزاء ، أو اضافة فقرات جديدة . وقد استجبت لما طلبه منى بعض الزملاء من كتابة فصل تمهيدى عن أصول التاريخ الأوربى ، يحوى عرضا موجزا سريعا لتاريخ اليونان والرومان . أما الخرائط فقد غيرتها تغيرا شاملا ، وأكثرت من عددها حتى تكتمل الفائدة المرجوة من الكتاب .

ولا يسعنى ازاء الاقبال الذى لقيته الطبعات السابقة من هذا الكتاب ، ورسائل التقدير العديدة التى تصلنى من زملائى وتلاميذى فى مختلف الجامعات العربية ، سوى أن أرجو أن تعم الفائدة منه وأن نرى قريبا فى المكتبة العربية سلسلة من المراجع العلمية لتسهيل تدريس هذا الجانب الهام من جوانب التاريخ فى جامعاتنا العربية .

والله ولى التوفيق ،

المؤلف

الباب الأول

أصول التاريخ الأوربى

اعتاد كثير من الجغرافيين أن يصفوا أوربا بأنها لا تتعدى واحدة من اشباه الجزر البارزة من قارة آسيا ، فهى امتداد للقارة الآسيوية فى الاتجاه الغربى . واذا كان هذا الرأى له ما يبرره من الاعتبارات الجغرافية فانه ينبغى أن نذكر أن هناك من الاعتبارات التاريخية — وما يرتبط بهذه الاعتبارات من نواح بشرية وجنسية — ما يجعلنا ننظر دائما الى أوربا على أنها قارة مستقلة لها كيانها الخاص .

وكان أول من فرق بين آسيا وأوربا هم أصحاب الحضارات الشرقية فى غرب آسيا ، فنجد فى بعض النقوش الآشورية تعريفا لآسيا بأنها أرض الشروق وتعريفا لاوربا بأنها أرض الظلام أو الغروب . ومع ذلك فانه كان من الصعب دائما تحديد حدود فاصلة بين أوربا وآسيا ، حتى أن الكتاب فى القرن الثالث قبل الميلاد اعتبروا السهول الشمالية فى قارة آسيا جزءاً من القارة الأوربية . وعلى الرغم من أن العوامل الطبيعية والمناخية تدخلت فى نهاية الأمر لاختيار جبال أورال فى شرق أوربا حدا فاصلا بين القارتين ، الا أننا مازلنا نلمس أن منطقة السهول الممتدة من غرب آسيا الى شرق أوربا كانت دائما أبدا منطقة انتقال بين القارتين من النواحى الطبيعية والبشرية وغيرهـــا .

وعلى هذا الأساس نستطيع القول بأن مساحة أوربا تبلغ ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعين الف ميلا مربعا تقريبا ، وذلك اذا استبعدنا الجزر الصغيرة المحيطة بشواطىء القارة ، وغيرها من الاقاليم الواقعة فى الجنوب الشرقى والتى تدخل فى منطقة الانتقال بين أوربا وآسيا . وتتصف شواطىء أوربا بكثرة التعاريج ووجود عدد هام من أشباه الجزر . وثمة ظروف معينة ساعدت على أن تحتل أوربا الحديثة مكانتها فى العالم ، أهمها ملائمة الظروف

المناخية وتنوع الموارد وتشعب السواحل وكثرة الخلجان ، ووجود عــدد كبير من الأنهار التى تصب أما فى المحيط الاطلسى غربا أو فى البحر المتوسط جنوبا أو فى البحر الاسود شرقا .

على أن عظمة أوربا ودورها الحضارى لم يرتبطا بالتاريخ الحديث فحسب ، وأنما نهضهت هذه القارة منذ العصور القديمة بدور فعــال فى الحضارة البشرية . واذا كنا قد خصصنا هذا الكتاب ـــ بجزأيه ـــ للكلام عن تاريخ أوربا وحضارتها فى العصور الوسطى ، فان فهم أوضــاع أوربا فى العصور الوسطى يتطلب منا الاشارة فى أيجاز الى تاريخ أوربا فى العصور القديمة ، والمستوى الحضارى الذى بلغته أوربا فى تلك العصور ، وذلك لان العصور الوسطى كما نعلم انما نبعت من العصور القديمة . والواقع ان الحضارة قامت فى العصور القديمة على أساس دعامتين كبيرتين ، همــا حضارة اليونان وحضارة الرومان .

الحضارة اليونانية :

كانت بلاد اليونان هى المهد الاول للحضارة الاوربية القديمة . ومازال الأوربيون بوجه خاص يفخرون بكبار الأعلام من العلماء والفلاسفة والأدباء والمؤرخون والشعراء والمشرعين الذين أنجبتهم الحضارة اليونانية ، والذين ارتبطت أسماؤهم باسمها . ثم ان تاريخ الحضارة اليونانية لم يرتبط برقعة محدودة من الارض التى عاش داخل حدودها شعب معين ، وانما يرتبط تاريخ هذه الحضارة بالبلاد الواسعة التى انتشر فيها اليونانيون على امتداد سواحل البحر المتوسط وفى جزره .

ذلك أن جغرافية بلاد اليونان وطبيعتها تركت أثرا عميقا فى أحــوال اليونانيين ومعيشتهم ، وبالتالى فى حضارتهم . فهذه البلاد ضيقة الرقعة ، صعبة التضاريس ، معظمها جبلى ، تتخلل جبالها سهول ضيقة ليست على درجة كافية من الخصوبة والثروة . وقد نتج عن هذا كله صعوبة توحيد بلاد اليونان فى كثير من عصور تاريخها فى ظل حكومة واحدة أو حتى نظم سياسة واحدة . وانما نجد هذه البلاد فى العصــور القديمة مســتقرا لجماعات شبه مستقلة بعضها عن بعض ، قد تربط بينها روابط اجتماعية وجنسية ،

ولكن تسودها الروح الانفصالية من الناحية السياسية . وهكذا برزت فى كل اقليم مدينة صارت لها الزعامة على السهول المحيطة بها ، وأصبحت هذه المدينة بمثابة دولة تكفى نفسها بنفسها ، مما جعل الكتاب يطلقون اسم « المدينة الدولة » على هذه الوحدات السياسية التى عرفتها بلاد اليونان فى العصور القديمة .

واذا كانت طبيعة بلاد اليونان من الداخل قد فرضت عليها وعلى أهلها هذه الفرقة ، فان سواحل هذه البلاد تتصف بأنها كثيرة التعاريج والخلجان ، يقع بالقرب منها عديد من الجزر . ونتج عن ذلك أن صعوبة البيئة وفقرها وعدم استطاعتها تحمل زيادة السكان .. كل هذه العوامل طردت الناس نحو السواحل ووجهتهم نحو البحر ، فاشتغلوا ببناء السفن وركوب البحر للقرصنة والصيد أو التجارة . ولم تكف هذه الوسائل لمواجهة المصاعب التى واجهها اهل اليونان فى تلك البيئة الصعبة الطاردة ، فلجئوا الى وسيلتين : الأولى تحديد النسل وامتداح الأسرة ذات الابن الواحد ، حتى لقد كان اليونانيون يعرضون أطفالهم أحيانا للموت بتركهم عرأيا فى البرد فوق الجبال للخلاص منهم ، وهذا الاجراء خولته قوانين البلاد فى العصور القديمة . على أن هذا العلاج لم يكن الحل الانسانى المعقول ، فاتجهوا الى اجراء آخر هو الهجرة ، فهاجروا الى آسيا الصغرى وقبرص وشواطىء مصر وشمال افريقية وايطاليا وغاليا ، فضلا عن جزر البحر المتوسط .. وفى جميع هذه البلاد التى هاجر اليها اليونانيون أسسوا مستعمرات خاصة بهم ، فأصبحت هذه المستعمرات بدورها مراكز للحضارة اليونانية ، كما حافظوا على صلاتهم بالبلاد الأم ، مما ترك أثرا كبيرا فى التطور الحضارى لبلاد حوض البحر المتوسط .

ويرتبط تاريخ اليونان القديم بمدينتين أو دولتين ، هما اسبرطة وأثينا أما اسبرطة فكانت أكبر مدن اقليم لاكونيا ، واتصف تاريخها الاول بالفوضى والضعف حتى ظهر فى القرن التاسع قبل الميلاد مشرع اسبرطى مشهور — وان ظن البعض أنه شخصية وهمية — اسمه ليكرجوس ، خلص اسبرطة من متاعبها الداخلية وبث فيها القوة والعزيمة ، وبالتالى فقد خلقها جديدا . وقد وضع ليكرجوس دستورا لاسبرطة حدد فيه العلاقة بين الأشراف والأحرار

والملكين اللذين كانا يحكمان اسبرطة ، فنظم توزيع السلطات بين هذه الجهات الثلاث ، وجعل لكل من الأشراف والأحرار مجلس له دور معين فى النهوض بالحكم ، وبذلك حقق نوعا من الاستقرار السياسى .

على أن أهمية ليكرجوس فى تـاريخ اسـبرطة لا تنبع من تشريعاته السياسية فحسب ، بل أيضا من نظامه الاجتماعى الذى سنه لاسبرطة والذى عرف باسم نظام التربية الاسبرطية . ذلك ان المجتمع الاسبرطى كان يعيش على الفطرة ، تسوده عادات وتقاليد نابية ، مثل السماح للرجل بخطف خطيبته بالقوة من أبويها ، والسماح للمرأة بأن تجمع أكثر من زوج واحد .. فحاول ليكرجوس تهذيب المجتمع الاسبرطى من هذه المفاسد ، وفى الوقت نفسه وضع نظاما يقوم على أساس التطرف فى الخشونة والتقشف . من ذلك أن ليكرجوس وضع نظاما يحتم على الآباء اخطار ولاة الأمور بأى مولود جديد يولد لهم ، ولولاة الأمور أن يقرروا اذا كان هذا الطفل قوى البدن سليم البنية بتحمل أعباء الحياة ، وعندئذ يسمحون له بالحياة . أما اذا قرروا أنه ضعيف لا ترجى منه فائدة ، فانه يعرض للبرد والجوع فوق الجبل حتى يموت ! ومن ناحية أخرى فانه وضع للأولاد الصغار الذين سمح لهم بالاستمرار فى الحيـاة نظاما قاسيا يضمن خلق رجال أشداء منهم فكان عليهم أن يمشوا حفاة الأقدام مسافات طويلة ، وأن يرتدوا ثوبا واحدا على الجسد فى الشتاء ، وينامو ا على أسرة خشنة من الجريد ، وأن يطعموا أنفسهم بأنفسهم ، وذلك بما يسرقونه أو يخطفونه أو يصطادونه . فاذا ضـبط الولد وهـو يسرق عوقب عقابا شديدا ، لا لأنه سرق وانما لانه لم يسـتطع أن يسرق دون أن يشعر به أحد .

وهكذا نشأ شباب اسبرطة نشأة عسكرية صارمة ، فى حين قام بفلاحة الأرض وتوفير أسباب العيش عدد كبير من العبيد الذين عاشوا عيشة حرمان ولم يتمتعوا بأية حقوق . ولم تلبث اسبرطة أن غدت قـوة حربية كبيرة ، مما مكنها من خوض عدة حروب والانتصار فى معظمها .

أما الدولة الثانية التى نافست اسبرطة وفاقتها فى تاريخ بلاد اليونان الحضارى والفكرى ، فكانت آثينا . وقد ظلت آثينا حتى القرن السادس

قبل الميلاد مدينة من مدن الدرجة الثانية فى الاهمية ، ولكنها ازدهرت فى القرن الخامس قبل الميلاد .، ويرتبط ازدهار آثينا فى هذا الـدور بمشرع فذ اسمه سولون وضع دستورا شاملا لاثينا أصلح به أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ويعتبر المؤرخون دستور سولون الحجر الأساسى فى الحرية الآثينية . وظهر الاتجاه الديمقراطى قويا واضحا فى مجلس العامة أو الاكلزيا ، وهو المجلس الذى صارت له من السلطات وقوة التمثيل الشعبى مما جعل منه رقيبا فعليا على أجهزة الحكومة وموظفيها . كذلك سن سولون تشريعات اجتماعية أخرى تتعلق بنظام الوراثة وعلاقة أفراد المجتمع بعضهم ببعض ، وسلطة الآباء على الأبناء .

وكان أن تمكنت آثينا بفضل هذه القوة من تزعم قوى اليونان المشتتة فى صراعهم ضد الفرس . ذلك أن ملوك الفرس أخذوا يتوسعون توسعا سريعا فى آسيا الصغرى ، فاصطدموا بالمستعمرات اليونانية فيها ، مما جعل أهل هذه المستعمرات يستنجدون بالمدن اليونانية فى الوطن الام ، وعلى رأسها اسبرطة وأثينا . بل أن الملك دارا الاول أعد قوة ضاربة عبر البسفور سنة ٥١٠ وغزا تراقيا ، مما اضطر ملك مقدونيا الى اعلان ولاءه للفرس .

وفى ذلك الصراع الذى نشب بين الفرس واليونان ، أبلت آثينا بلاء حسنا ، فأحرز الآثينيون انتصارا كبيرا على الفرس فى موقعة سهول ماراثون سنة ٤٩١ — ٤٩٠ ق.م .

وسرعان ما دبت الثقة فى قلوب اليونانيين بوجه عام والاثينيين بوجه خاص بعد الانتصار الذى أحرزوه فى ماراثون ، فتكونت جبهة يونانية ضد الخطر الفارسى فى مؤتمر كورنثه ، وقررت الولايات المشتركة فى هذا المؤتمر الاستمرار فى محاربة الفرس حتى النهاية وطلب المعونة من جميع اليونانيين خارج شبه الجزيرة . وفى موقعة سلاميس البحرية انتصر اليونانيون انتصارا كبيرا ، ثم اعقبوا هذا النصر بنصر آخر برى فى موقعة بلاتياى سنة ٤٨٠ ق.م. ونتيجة لهذه الانتصارات أنكمش نفوذ الفرس فى آسيا الصغرى ، كما زال سلطانهم عن كثير من الجزائر اليونانية فى بحر الأرخبيل ، وأهم من هذا وذاك ازداد نفوذ آثينا وارتفع شأنها .

وقد ارتبطت عظمة آثينا فى القرن الرابع قبل الميلاد بعدد من المشرعين والمصلحين ، أولهم كليستنيز وأهمهم بركليز . وكان بركليز هذا رجلا عظيما ، وجه سياسته فى الداخل نحو تدعيم الديمقراطية وتقليم أظافر الارستقراطية ، وفى الخارج نحو تأليف حلف من المدن اليونانية ضد اسبرطة ، وهى التى غدت العدو اللدود لآثينا . ولم تلبث آثينا بفضل هذه الاصلاحات أن بلغت أقصى درجات عظمتها حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد . وفى سلسلة الحروب الطويلة التى خاضتها آثينا بعد ذلك ضد أسبرطة ، منيت آثينا بالفشل والخراب . وقد حاولت اسبرطة فرض سيادتها على بلاد اليونان ولكنها فشلت ، وكذلك مدينة طيبة التى تصدت لاسبرطة ، وبذلك أصبح المسرح معدا لسيادة مقدونيا وبطلها الكبير الأسكندر الأكبر .

الأسكندر الأكبر ونشر الحضارة اليونانية :

كانت أثينا ترجو أن تتاح لها الفرصة من جديد — بعد فشل اسبرطة ثم طيبة — وذلك حتى تعود الى تزعم بلاد اليونان ، ولكن ظهرت قوة جديدة فى الشمال — أى فى مقدونيا — قدر لها أن تكتسح جميع القوى المتنافسة فى تلك البلاد وأن توحد اليونانيين جميعا للقيام بحركة توسعية ضخمة فى الشرق الأوسط ، وهى الحركة التى حملت لواء الحضارة اليونانية بعيدا وراء حدود بلاد اليونان الأصلية .

ويبدو أن الشعب اليونانى نفسه كان ينظر الى المقدونيين نظرة استغراب ، وظل اليونانيون أمدا طويلا لا يعملون حسابا لمقدونيا ، اذ لم يكن أحد يتصور أن مقدونيا هى قوة المستقبل التى ستنحنى أمامها أثينا واسبرطة وطيبة .. وغيرها من كبرى مدن اليونان ذات الماضى العريق والشهرة الذائعة .

وترتبط نهضة مقدونيا الى حد كبير بالملك فيلب الأول (٣٨٢ — ٣٣٦ ق.م) ، وهو الذى بذل جهدا كبيرا فى اصلاح شئون بلاده السياسية والحربية والاجتماعية ، وانشأ جيشا قويا استطاع به أن يقضى على عوامل التفكك والتفرقة التى سادت العالم اليونانى عندئذ . وكان أن خاض فيليب غمار عدة حروب ضد المدن اليونانية التى كونت حلفا ضده ، ولكنه أنزل

الهزيمة بذلك الحلف فى موقعة كرونيا سنة ٣٣٨ ق٠م ثم عقد الملك فيلب مؤتمرا عاما فى كورنثه فى السنة السابقة بقصد تنظيم اليونانيين جميعا على شكل حلف تتولى مقدونيا زعامته ، ولكن الملك فيلب توفى سنة ٣٣٦ قبل الميلاد ، وعندئذ خلفه ابنه العظيم الاسكندر المقدونى أو الأكبر (٣٣٦ — ٣٢٣ ق ٠ م)

والواقع أنه يصعب على العقل أن يتصور كيف استطاع الاسكندر الأكبر فى مدى ثلاث عشرة سنة أن يقوم بالعمل الضخم الذى قام به فعلا ، ولكنه بفضل ما اتصف به من سرعة وذكاء وشجاعة نجح فعلا فى تأديب الولايات والمدن اليونانية ، التى استغلت فرصة وفاة أبيه ورفعت رأسها فى وجهه . وبعد أن فرغ من مشاكله الداخلية ، بدأ الاسكندر يتفرغ للقيام بأضخم حركة توسع خارجية عرفها التاريخ ، وكان فى الثانية والعشرين من عمره عندئذ .

ولا يخفى علينا أن الفرس كانوا ألد أعداء اليونانيين منذ أمد بعيد ، فاتجه الاسكندر لمحاربة دارا الثالث ملك الفرس ، ونجح فى تقويض امبراطورية الفرس بعد أن أنزل بهم عدة هزائم ، فى آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق . بل لقد غزا الاسكندر الفرس فى عقر دارهم ودخل سوسه عاصمتهم ، وبذلك محا دولتهم محوا سريعا من الوجود .

ومن الصعب الآن على المؤرخين أن يحددوا المدى الذى كان سيقف عنده الاسكندر الاكبر فى حركته التوسعية لو أمتد به العمر ، لانه مات صغيرا وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره . ولكن كل الذى نستطيع أن نحدده ونؤكده هو أن سياسة الاسكندر استهدفت نشر الحضارة اليونانية فى الشرق ، وتطعيم الشرق بحضارة اليونان تطعيما قويا ، يضمن نجاح فكرة قيام امبراطورية يونانية آسيوية . لذلك حرص الاسكندر على تشجيع التزواج بين اليونانيين والآسيويين ، واهتم بانشاء المدن الحرة ذات الحكومات المستقلة فى مختلف أجزاء امبراطوريته الفسيحة ، لتكون هذه المدن مراكز اشعاع للحضارة اليونانية فى الشرق . ويقال أن الاسكندر أقام فى الشرق أكثر من عشرين مدينة نسبت اليه وعرفت باسم الاسكندريات ، أشهرها أسكندرية مصر وان كانت توجد اليوم فى الشام والعراق وفارس مدن أخرى تحمل نفس الاسم .

وهكذا أدت سياسة الاسكندر الى انتشار الحضارة اليونانية فى الشرق ، وبخاصة آسيا الصغرى ومصر والشام . اذ كانت الصبغة اليونانية قوية فى هذه البلاد الثلاثة لقربها من مركز الحضارة اليونانية ، فبقيت اللغة اليونانية لغة رسمية فيها أمدا طويلا ، كما قامت فيها المدارس والجامعات — مثل مدرسة الاسكندرية المشهورة — لتصبح مراكز ضخمة ازدهرت فيها علوم اليونانيين وفلسفتهم وحضارتهم .

والحقيقة التى لا يختلف حولها اثنان من المفكرين ، هى أن مجرى التاريخ لكان حتما سيشهد تغيرات عديدة لو عاش الاسكندر عمرا أطول . ومن يدرى أن الاسكندر كان سيتحول الى الغرب بعد أن يتم برنامجه فى الشرق وعندئذ يخضع روما وهى فى المهد ، وبذلك يجرى تاريخ حوض البحر المتوسط فى مجرى غير المجرى الذى جرى فيه فعلا . على أن هناك بعض انتقادات أخذها المفكرون على الاسكندر ، منها انه لم يهتم بانشاء الطرق فى امبراطوريته الواسعة ، وهذه الطرق دون شك تساعد على ربط أنحاء البلاد فضلا عن تأمين خطوات المواصلات . كذلك يؤخذ على الاسكندر أنه لم يضع تخطيطا دقيقا شاملا لادارة امبراطوريته الواسعة ، وبخاصة بعد وفاته . وربما لم يتصور الاسكندر أن يدهمه الموت بتلك السرعة الخاطفة .

على أنه اذا كانت دولة الاسكندر الكبيرة لم تستطع الاحتفاظ بوحدتها السياسية بعد وفاته ، فانها نجحت الى حد كبير فى الاحتفاظ بوحدتها الحضارية وبخاصة فى النواحى الفكرية والثقافية ، فظلت اللغة اليونانية بالذات سائدة فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط ، حتى بعد أن فرضت روما سيادتها على هذا الجزء .

ظهور روما :

واذا كانت أوربا قد استمدت تاريخها وحضارتها القديمة من منهلين قديمين يرتبطان باليونان الرومان ، فان ثمة ملاحظة اساسية هى أن المفكرين والكتاب المعاصرين يربطون دائما تاريخ اليونان وحضارتهم بالشرق مثلما ربطوا تاريخ الرومان بالغرب . فعندما انقسم عالم حوض البحر المتوسط الى امبراطوريتين فى أواخر القرن الرابع صارت امبراطورية القسطنطينية هى

الامبراطورية الشرقية ، وامبراطورية روما هى الامبراطورية الغربية . وعندما انتشرت المسيحية وصـــارت لها السيادة فى العـــالم القديم ، غدت كنيسة القسطنطينية هى الكنيسة الشرقية وكنيسة روما هى الكنيسة الغربية ، وطوال العصور الوسطى ظل أهالى غرب أوربا لا يعرفون حضارة شرق أوربا الا باسم الحضارة الشرقية تمييزا لها عن الحضارة الغربية فى غرب أوربا .

والواقع أننا لا نستطيع بأى حال الاقلال من شأن احدى الحضارتين : الشرقية اليونانية أو الغربية الرومانية فى بناء صرح الحضـــارة الأوربية الكبرى . واذ كانت الحضارة الرومانية أقوى أثرا فى حضارة غرب أوربا فى العصور الوسطى ، فان عصر النهضة الذى مهد للانتقال الى العصور الحديثة شهد حركة احياء تراث اليونان الحضارى والعناية بهذا التراث عناية تركت أثرا بالغا فى التاريخ الحضارى للقارة الأوربية .

ولا نريد هنا أن ندخل فى التفاصيل العديدة الخاصة بتأسيس رومـــا وظهورها ، ولكن تكفى الاشارة الى ان موقع روما فى سهول لا تيوم على ضفاف نهر التيبر بايطاليا ، اتاح لهذه المدينة نموا آمنا سريعا . ذلك أنها كانت سهلة الاتصال بالعالم الخارجى مما مكنها من الاستفادة من الحضارات الخارجية الاكثر تقدما ، وفى الوقت نفسه كانت غير ملاصقة للبحر ممـــا يعرضها لحياة قلقة غير آمنة .

وتجمع الروايات على أن روما بدأت تاريخها بالنظام الملكى ، وفى ذلك العصر — عصر الملكية — استطاعت روما أن تنتصر على أعدائها المجاورين وتستولى على أملاكهم ، وبذلك ازداد عدد سكانها واتسعت مساحتها وقوى نفوذها . ومن بين ملوك روما الكبار يحفظ التاريخ اسم سرفيوس تليوس ، وهو الملك الذى قام باصلاحات هامة ، منها العمل على ازالة — أو تقليل — الفوارق بين البطارقة والعامة ، وكان البطارقة يعتبرون انفسهم ارستقراطية بوصفهم من أبناء روما الحقيقيين . كذلك قام الملك سرفيوس بتوزيع الاعباء على الناس وفق ما يمتلكون من ثروة عقارية .

على أن النظام الجمهورى لم يلبث أن حل محل النظام الملكى فى روما . وقد استمر النظام الجمهورى من سنة ٥٠٨ ق.م. حتى سنة ٣٠ ق.م. أما عماد الدستور الجمهورى فكان اثنين من الموظفين يتجدد انتخابهما سنويا

ويتوليان بالاشتراك السلطة التنفيذية التى كانت للملك من قبل . وهـذان الموظفان أو القنصلان كانا مسئولين عن تصرفاتهما أمام الشعب الرومانى ممثلا فى مجلس السناتو . والى جانب القناصل وجد عدد آخر من كبار الموظفين المسئولين عن الشئون المالية وغيرها . وقد روعى فى هؤلاء الموظفين جميعا أن تكون مدد خدمتهم محددة ، ومعظمهم كان يعين فى وظيفة لمـدة عام . والواقع ان الدستور الرومانى فى العصر الجمهورى نشأ نشـأة تدريجية ، وظلت المجالس والوظائف العامة تتطور وفق الاحداث الداخلية والخارجية التى تعرضت لها روما .

وفى الوقت الذى كانت روما تدعم نظامها السياسى فى الداخل اخذت تتوسع تدريجيا حتى أصبحت سيدة ايطاليا ، وبعد ذلك بدأت حركة توسع خارجية ضخمة انتهت ببسط سيادتها على حوض البحر المتوسط بأكمله . وكانت أكبر عقبة فى طريق توسع روما الخارجى هى قوة قرطاجة فى شمال أفريقية ، حتى انتهى التنافس بين القوتين بقيام حرب طويلة تعرف بالحروب البونية أو البونيقية ، وهى الحروب التى مرت بأدوار عديدة وانتهت بهزيمة قرطاجة فى موقعة زاما ٢٠٢ ق.م. ثم تدميرها سنة ١٤٦ . وبانتصـار روما على قرطاجة ، أصبحت روما أعظم قوة فى حوض البحر المتوسط ، كما صار أسطولها هو الاسطول المتحكم فى مياه البحر ، مما مكن من قيـام الأمبراطورية الرومانية الكبرى .

اتساع الدولة الرومانية :

اضطرت روما أثناء صراعها مع قرطاجة الى تأمين نفسها ، فاستولت على سردينيا وصقلية ، ثم فتحت أسبانيا ١٩٧ ق.م. لأن أسبانيا كانت قد مهدت السبيل أمام هانيبال لغزو ايطاليا اثناء الحروب البونية . أما من ناحية الشرق فقد بدأت روما حركتها التوسـعية على السـاحل الشرقى للبحر الادريانى — أى فى اقليم الليريا — سنة ١٢٩ ق.م. ، وذلك لتضمن القضاء على القرصنة فى ذلك البحر . والمعروف أن خطة هانيبال لغزو ايطاليا اعتمدت فى فكرتها على مساعدة فيلب الخامس ملك مقدونيا ، لذلك رأت روما أن تنتقم لنفسها من مقدونيا وملكها ، فأنزلت الهزيمة بملك مقدونيا سنة ١٩٧ ق.م. ولم يلبث أن حدث احتكاك بين روما والملك أنتوخس الثالث أو الأكبر ملك

سوريا . فأنزلت روما به الهزيمة سنة ١٩٠ ق.م. وبذلك امتد نفوذها بعيدا في آسيا الصغرى . وبانتصار روما على فيلب الخامس ملك مقدونيا ثم على انتوخس الثالث ، استطاعت روما ان تخضع مملكتين كبيرتين من الممالك التي قامت على انقاض امبراطورية الاسكندر الاكبر . اما مصر ، فعلى الرغم من انها كانت مستقلة تحت حكم ملوكها من البطالمة ، الا انها في الواقع غدت لا تعمل الا بايحاء من روما ، وذلك منذ أواخر القرن الثانى قبل الميلاد وبازدياد ضعف البطالمة ، اخذوا يحتمون بروما ، ويستجدون مساعدتها ، حتى انتهى الأمر بضياع استقلال مصر في موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق.م .

وهكذا اتسعت امبراطورية روما حتى شملت حوض البحر المتوسط ، واصبحت البلاد العديدة المطلة على ذلك البحر ولايات تابعة لروما ، حظر عليها ان تكون لها جيوش قائمة وفرضت على كل ولاية منها جزية معينة ، كما وضعت كل ولاية تحت اشراف حاكم رومانى تؤيده حامية رومانية . وكان السناتو في روما يضع لكل ولاية نظام خاص بها يسمى قانون الولاية ، هو بمثابة دستور لها ، يحدد حقوق كل فرد وجماعة وواجبات كل منهم ، كما يوضح الأمور المتعلقة بالقضاء وغير ذلك من النواحى . ويلاحظ أن الرومان جروا على قاعدة الا يعدلوا القوانين القديمة السائدة في كل ولاية الا بالقدر الذى تتطلبه الضرورة ، ومن ثم فان قانون كل ولاية Lex Provincia اختلف عن قوانين غيرها من الولايات تبعا لظروف انضمام كل ولاية الى الامبراطورية الرومانية من ناحية . والنظم التى كانت سائدة في الولاية قبل ضمها من ناحية أخرى .

ومهما يكن من أمر ، فقد ترتب على اتساع نطاق الفتوحات الرومانية ازدياد عدد الولايات زيادة كبيرة ، فازداد عدد الحكام وكبار الموظفين المسئولين عن الجهاز التنفيذى ، مما ادى الى تقسيم السلطة بينهم . وبالتالى قوى نفوذ السناتو وازداد سلطانه .

ولا شك في ان اتساع الامبراطورية الرومانية ترتب عليه ازدياد اتصال الرومان بالحضارة اليونانية . ذلك ان الرومان اقبلوا على اقتباس الحضارة اليونانية وتأثروا الى حد كبير بآداب اليونانيين وعلومهم وفنونهم بل ودياناتهم ، مما ترك اثرا كبيرا في الحضارة الرومانية من جهة وفي وحدة حضارة

الاوربية من جهة اخرى . وثمة ظاهرة اخرى هى ان الرومان اقتبسوا كثيرا من كماليات الحضارة اليونانية ، فأخذوا يتخلون تدريجيا عن حياتهم الأولى التى عرفت بالتقشف والرجولة ، واقبلوا على حياة الترف والاسراف ، مما ادى الى انتشار روح الاستهتار والتهاون ، فضلا عن انتشار الرذائل . وقد ادى ذلك الى سخط بعض شيوخ الرومان — مثل كاتو Cato كما ادى الى سن بعض قوانين اجتماعية للحد من الاستهتار والبذخ مثل قانون اوبيا Lex Oppia الذى صدر ٢١٥ ق.م. للحد من مغالاة النساء الرومانيات فى التحلى بالمجوهرات الثمينة والثياب الفاخرة .. ولكن مثل هذه القوانين الاجتماعية كان من الصعب أن تستمر طويلا ، فلم يلبث ان الغى القانون السابق سنة ١٩٥ ق.م. ، أى بعد عشرين عاما من صدوره ، رغم معارضة كاتو الصارخة .

ومن الواضح ان اتساع الامبراطورية الرومانية ترتب عليه ازدياد الثروة بأيدى الرومان . فالحروب الطويلة التى قامت بها روما ترتب عليها الحصول على قدر وافر من الغنائم والاسلاب ، كما ان الضرائب التى فرضت على الولايات الجديدة انعشت خزانة روما وخفضت العبء على المواطنين الرومان الذين تمتعوا ببعض اعفاءات من الضرائب المباشرة التى كانت مفروضة عليهم . ولم تلبث أن امتلأت الولايات الرومانية بعدد كبير من رجال الاعمال الرومان ، وبخاصة أولئك الذين أطلق عليهم اسم الملتزمين Publicani وهم الذين كانوا يلتزمون بجباية الضرائب من أهل الولاية ، مما عاد عليهم بربح وفير . هذا بالاضافة الى المشتغلين باقراض الاموال Negotiatores وهم الذين اتسعت دائرة نشاطهم فيما بعد ، حتى شملت التجارة على أوسع نطاق . وهكذا نشأت طبقة غنية جديدة فى المجتمع الرومانى ؛ مما زاد من الفوارق الاجتماعية فى ذلك المجتمع . ويبدو أن هؤلاء الاغنياء اقبلوا على شراء الأرض ، فازداد عدد الضياع الكبيرة التى استعمل أصحابها العبيد فى فلاحتها بسبب رخصهم . ولم يلبث أن أصبح هؤلاء العبيد — بعد أن ازدادت أعدادهم — مصدر قلق واضطراب كبير فى الدولة الرومانية بسبب سوء المعاملة التى كانوا يتعرضون لها .

احوال روما فى القرن الأخير من الجمهورية :

وكان ان ظهر الخلل واضحا فى كثير من اجهزة الدولة الرومانية ، وذلك فى القرن الأخير من الجمهورية . ويمكن ان نلخص مظاهر هـذا الخلل فى فساد الجهاز الادارى ، وهو الفساد الذى ظهر فى صورة واضحة فى الولايات الرومانية ، كما امتد الى روما نفسها ، وهى التى كانت بمثابة مركز الجهاز العصبى فى الدولة الرومانية . ثم ان هذا الفساد جاء مصحوبا بانحطاط الأخلاق العامة وضعف الشعور بالواجب . وقد سبق أن اشرنا الى انه نتج عن اتساع الدولة الرومانية ظهور طبقة ثرية جديدة من رجال الأعمال ، وهؤلاء كانوا يرجون أن يستبدلوا بثروتهم وأموالهم نفوذا حكوميا ، ولكن الوظائف العامة كانت مغلقة فى وجوههم لعدم انتمائهم الى طبقة النبلاء . وبذلك وجدت فى المجتمع الرومانى حالة من القلق وعدم الاستقرار لم تلبث ان أدت الى صدام بين الطبقة الغنية الجديدة من ناحية وطبقة النبلاء التى احتكرت الوظائف العامة فى الدولة من ناحية اخرى . وزاد من هذا القلق الاجتماعى ان حلفاء روما كانـوا متذمرين لحرمانهم من الحقوق المدنيـة الرومانية ، وقصر هذه الحقوق على الذين كانوا يتمتعون بها من قبل . فاذا أضفنا الى ذلك كله اضطرب أحوال الدولة الرومانيـة من الناحيـة الاقتصادية بسبب هبوط سعر القمح وانكماش طبقة صغار المزارعين وازدياد الملكيات الزراعية الكبيرة تضخما ونفوذا ، والاكثار من العبيد للاعتماد عليهم فى شئون الزراعة وغيرها من الأعمال الشاقة . . اتضح لنا مدى الخلل الذى كانت تشكو منه الجمهورية الرومانية فى قرنها الأخير .

وكان لابد ان تحرك هذه الأوضاع بغض الغيورين على المصلحة ، فظهرت بعض الحركات الاصلاحية التى استهدف أصحابها علاج تلك الأمراض الخطيرة التى شكت منها الامبراطورية قبل أن يستفحل الداء ، وبخاصة بعد أن اندلع لهيب ثورة العبيد فى صقلية سنة ١٣٤ قم ، فضلا عن الثورات التى نشبت فى اسبانيا وغيرها من أجزاء الدولة الرومانية .

وعلى رأس هؤلاء المصلحين يأتى تبريوس جراكوس الذى تولى أحد المناصب الكبرى — هو منصب التربيونية — سنة ١٣٤ ق.م. وانتهز الفرصة للتقدم بمشروع للاصلاح يتضمن الحد من ملكية الأراضى العـامة بحيث تسترد الدولة الأراضى الزائده عن الحد المقرر وتوزع على المزارعين المعدمين

مقابل ايجار اسمى . وكان من الطبيعى أن يلقى هذا المشروع معارضة شديدة من كبار الملاك والنبلاء ، فوقع تبريوس فى صراع مع السناتو ، وانتهى الصراع بمقتل تبريوس نفسه .

على ان مقتل تبريوس جراكوس لم يضع حدا لمحاولات الاصلاح ، وانما استأنف أخوه جايوس جراكوس — الذى انتخب تربيونا سنة ١٢٣ ق.م. — نفس السياسة الاصلاحية . وتنقسم مشروعات جايوس الاصلاحية الى قسمين كبيرين : الأول يتناول النواحى الاجتماعية ، والثانى هدفه الحد من سلطة السناتو والنبلاء . اما عن الجانب الأول فقد تقدم جايوس جراكوس بمشروع القانون الزراعى الذى يتفق فى جوهره مع مشروع القانون الذى وضعه أخوه تبريوس من قبل ، وكذلك وضع مشروع قانون القمح الذى ينص على أن تقدم الدولة قمحا لكل مواطن رومانى يعيش فى روما بسعر يعادل نصف سعر السوق تقريبا . أما قانون الجيش الذى وضعه جايوس فكان يقضى بجعل سن التجنيد للخدمة العسكرية هو السابعة عشر ، فى حين تقوم الدولة بامداد الجنود بالملابس دون استقطاع شىء من مرتباتهم . وبالاضافة الى ذلك وضع جايوس قانون تأسيس المستعمرات بقصد افساح المجال امام الطبقة الوسطى من التجار والصناع الذين ضاقت أمامهم سبل العيش فى روما . ولما كان الانتعاش الاقتصادى يتوقف دائما على سهولة المواصلات ، فقد وضع جايوس قانون الطرق لانشاء شبكة ضخمة من الطرق تخدم اغراض التجارة . لاسيما وأن معظم الطرق التى كانت موجودة فى الدولة فعلا عندئذ كانت طرقا حربية وليست تجارية . هذا فضلا عن ان هذا المشروع من شأنه ان يساعد على تحقيق الوحدة السياسية لأن سهولة المواصلات تمكن الناخبين فى الأقاليم من الانتقال الى روما فى سهولة ؛ مما يؤدى الى استقرار الحكم الشعبى . أما عن مشكلة الحلفاء والحقوق المدنية . فقد تقدم جايوس باقتراح يقضى بمنح كافة الحقوق المدنية الرومانية للاتين ، ومنح الحقوق اللاتينية لغير اللاتين من حلفاء روما الايطاليين .

هذا عن مشروعات جايوس الاجتماعية للاصلاح سواء ما نفذ منها او مالم يمكن تنفيذه . أما عن مشروعاته التى قصد بها الحد من سلطة السناتو ،

فكان أولها القانون الصادر ضد محاكم السناتو ، بقصد مهاجمة حق السناتو في تشكيل محاكم خاصة تصدر احكاما تمس حياة المواطنين وحقوقهم المدنية ، ومنها كذلك القانون الخاص بتحديد الولايات القنصلية قبل انتخاب القناصل حتى لا يتحكم السناتو في محاباة صديق باعطائه ولاية هامة أو عقاب مناوىء باعطائه ولاية فقيرة ، ثم القانون الخاص بتشكيل المحاكم ، وينص على عدم قصر اختيار القضـــاة الذين يفصلون في القضـــايا الخاصـــة بأمن الدولة واختلاس الأموال العامة على اعضاء السناتو ، وانما جواز اختيار هؤلاء الأعضاء من غير النبلاء واعضاء السناتو . هذا كله بالاضافة الى قانون جباية الضرائب من ولاية آسيا .

على انه من الواضح ان بعض قوانين جايوس جراكوس كانت تحمل طابع الطفرة والعنف ضد السناتو ، في وقت كان النبلاء هم أصحاب القوة الحقيقية فعلا . لذلك تعرض جايوس لمقاومة شديدة حتى انتهى الأمر بمقتله مثل أخيه تبريوس من قبل — وذلك سنة ١٢٢ ق.م. ومع ذلك فان هذه النهاية المؤلمة للأخوين تبريوس وجايوس ليس معناها فشلهما التام ، اذ يكفي أنهما كشف النقاب عن عيوب حكومة السناتو وعن الامراض الكامنة في نظم روما ، وهي الأمراض التي لم تلق علاجا شافيا الا على يد اغسطس . هذا الى أن الهجمات التي شنها الجراكيان على السناتو زعزعت اركانه وانقضت من هيبته بحيث انه لم يفق مطلقا من أثر تلك الصدمة .

وهكذا استمر التدهور بعد أن فشل الاصلاح ، وزاد من سوء الأوضاع الحروب الطويلة التي خاضتها روما لحماية دولتها من خطر الشعوب المجاورة . ومن هذه الحروب حرب جوجورثة في شمال افريقية (١١٦ — ١٠٥ ق.م.) وحرب الكمبرى في جبهة الراين والدانوب (١١٣ — ١٠١) .

وقد أكدت هذه الحروب أهمية قادة الجيش ، حتى أن الجنود المحاربين صاروا لا يقسمون يمين الولاء للدولة وانما للقائد الذى خرجـــوا للحرب تحت لوائه . ومعنى ذلك أن الجنود صاروا لا يتطلعون الى السناتو وانما الى القائد بوصفه القوة القادرة على رعايتهم ومكافأتهم . ولعلاج هذا الخطر اقترح ماركوس ليفيوس دروسوس في بداية القرن الأول قبل الميلاد القيام باصلاح يستهدف تدعيم السناتو وتقويته على اساس اجابة اهم مطالب العامة

والحلفاء ، ولكن انانية النبلاء وقفت مرة اخرى فى وجه الاصلاح . وبذلك استمرت مشاكل روما الداخلية والخارجية تتفاقم دون حل ، فثار الحلفاء فى اوائل سنة ٩١ ق.م. ، ولم تستطع روما القضاء على هذه الثورة الا سنة ٨٨ ق.م. الأمر الذى ادى الى اضطرابات اقتصادية واجتماعية خطيرة . وكان ذلك فى الوقت الذى نشبت الحرب فى آسيا ، مما جعل الموقف معقدا فى الداخل والخارج . وفى وسط تلك الاحداث المتلاحقة المتداخلة ظهـر قنصل قوى اسمه سلا استطاع على راس جيشه أن يقتحم روما ويقر الأمور فيها ، وبذلك كان سلا هو اول من استعمل الجيش فى تحقيق اغـراض سياسية فضلا عن سحق خصومه السياسيين . وبعبارة اخرى فقد اصبح السيف هو الذى يقرر لون حكومة روما . وبعد أن قام سلا بقيادة الحـرب فى آسيا واحرز فيها انتصارات مرموقة عاد ليضع دستورا لروما استهدف اعادة الحياة الدستورية فى البلاد الى ما كانت عليه قبل الجراكيان — تبريوس وجايوس . على أن دستور سلا لم يعش اكثر من تسع سنوات ، وكان السبب فى فشله هو المغالاة فى مجاملة النبلاء وتدعيم السناتو على حساب العامة ، مع اغفال مطالب الحلفاء والايطاليين .

والواقع أن اخطر نتيجة لحكم سلا هى انه اكد فى محيط السياسـة الرومانية نجاح فكرة الحكم الفردى المطلق الذى يعتمد على قوة الجيش ، وهى الفكرة التى لم تفارق خيال كل طموح من الساسة الرومان مثل لبدوس وبمبى وقيصر .... فكل واحد من هؤلاء أخذ يتمنى فى قرارة نفسـه أن يجعل من شخصه سلا آخر ، بل ان بمبى كان كلما واجهته صعوبة يردد عبارة شهيرة « لقد استطاع سلا أن يعمل هذا العمل . الا أسـتطيع أنا عمله ! » وهكذا غدا السيف هو مصدر السلطة فى روما ، وطالما كان قادة الجيش على وفاق مع السناتو ، احتفظ بنفوذه وسلطانه ، لأن الجنود صاروا يدينون بالطاعة لقائدهم لا للسناتو . وهذا هو التطور الخطير الذى ادى الى سقوط الجمهورية وقيام الامبراطورية على يد اوغسطس .

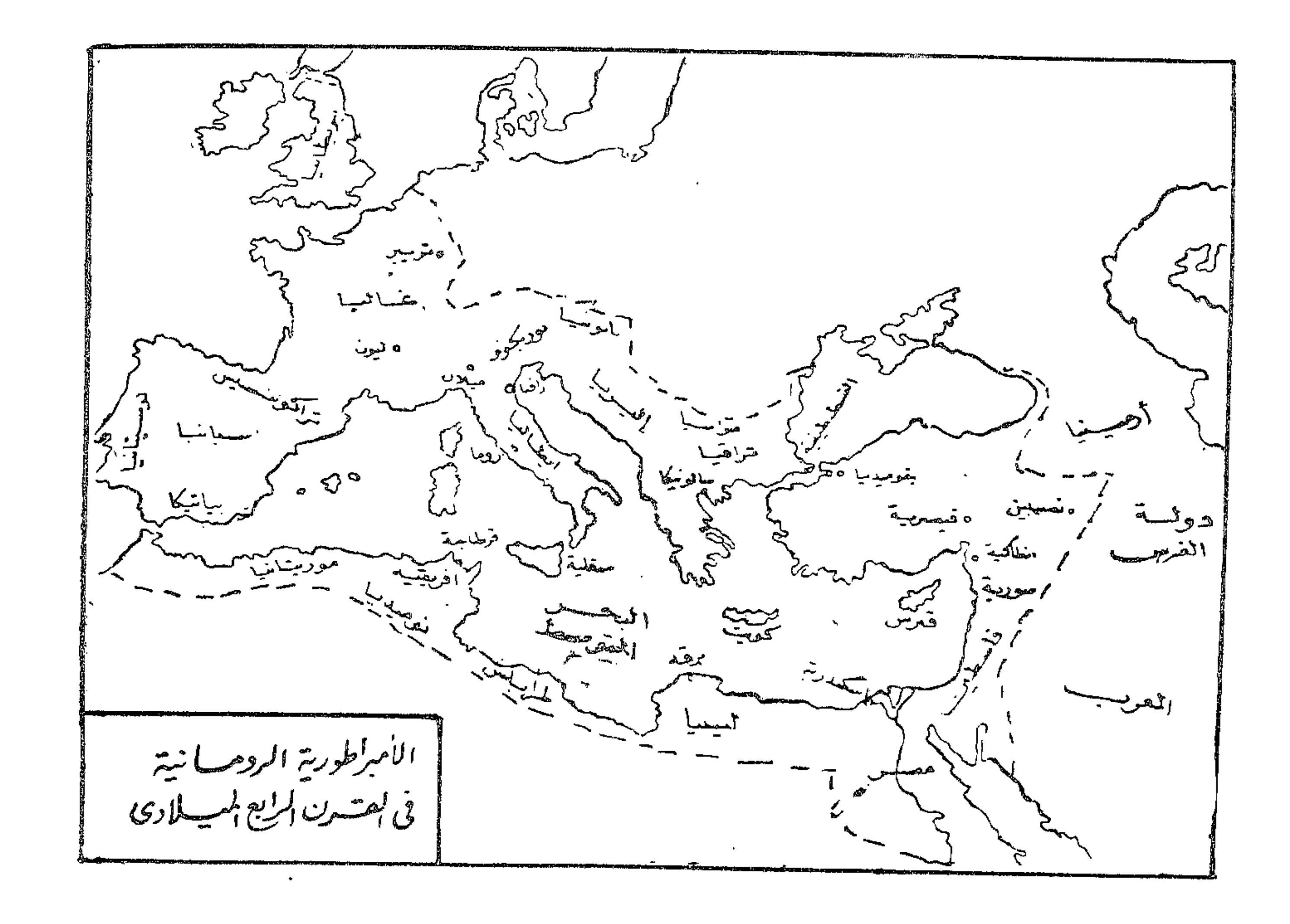
سقوط الجمهورية الرومانية وقيام الامبراطورية :

ونستطيع أن نصور الموقف فى روما منذ سنة ٧٠ ق.م. بأن زمام الأمور صار بيد كل قائد منتصر يعود من ميدان القتال على رأس جنده ليسيطر على أداة

الحكم . وقد حدث سنة ٧١ ق.م. ان عاد الى روما اربعة قواد منتصرين هم ميتلس وبمبى من اسبانيا ولوكولس من مقدونيا وكراسوس من حرب العبيد . وفى معركة التنافس للوصول الى السلطان كان النصر على هؤلاء القادة لبمبى الذى يعتبر مثلا واضحا يعبر عن روح التهاون المتزايد بالتقاليد الجمهورية الرومانية . ذلك ان بمبى اعتمد على قوة جيشه وتوصل الى منصب القنصلية رغم انف السناتو . وفى تلك الأثناء كان قيصر يتقدم الصفوف بخطى سريعة بفضل ما كان له من شعبية . وازاء الانتصارات الكبيرة التى أحرزها كل من بمبى وقيصر اخذت مكانة كل منهما تزداد فى روما وصار لكل واحد عـــدد كبير من الانصار يؤيدونه ، مما جعل المعركة المقبلة تتأكد بين بمبى وقيصر . وقد مر التنافس والصراع بين الرجلين بأدوار طويلة ، انتهى بأن زحف قيصر على روما سنة ٥٠ ق.م. وعندئذ فر من وجهه بمبى وعدد كبير من النبلاء واعضاء السناتو واتجهوا الى بلاد اليونان . وفى مارس سنة ٤٩ ق.م. دخل قيصر روما واصبح سيد ايطاليا .

وبعد ان اخضع قيصر لسلطانه ولايات الغرب — وبخاصة اسبانيا — اتجه الى الشرق لخوض المعركة الفاصلة مع بمبى الذى كان يقوى مركزه فى ابيروس . وعندما حلت الهزيمة بجيوش بمبى فر الى مصر مؤملا ان يجد مســاعدة من ملكها الصغير ، ولكنه قتل ، رغم ذلك فقــد تبعه قيصر الى الاسكندرية سنة ٤٨ ق . م .

وهكذا ظل قيصر ينتقل من نصر الى آخر حتى غدت سلطته مطلقة الأمر الذى اثار حقد السناتو ، فقتل فى المجلس سنة ٤٤ ق . م . ولا شــك فى ان مقتل قيصر ترك فراغا كبــيرا مفاجئا فى الحياة الســياسية فى روما ، ولكن قريبه اكتافيوس كان قادرا على ســد الفراغ فعاد الى روما . على ان الامر لم يتم لأكتافيوس بهذه السهولة ، اذ كان عليه ان يواجه منافسة قوية ، وبخاصة من جانب انطونيوس ولبدوس . وفى المعركة التى دارت بين المتنافسين . اخذ اكتافيوس يحقق نصرا بعد آخر . واخيرا حقق اكتافيوس نصره النهائى على خصمه انطونيوس فى موقعة اكتيوم سنة ٣١ . ق .م ، وبذلك اصـــبح الزعيم الأول والقائد الأعلـــى الذى لاينافســـه منافس فى الامبراطورية الرومانيـــة مشرقها ومغربها . وكان ان انعم عليه السنـــاتور بلقب « اوغسطس » سنة ٢٧ ق . م ، مما اذن بغروب شمس الجمهورية وقيام الامبراطورية الرومانية .


الأمبراطورية الرومانية
فى القرن الرابع الميلادى
تريير
غاليا
ليون
ميلان
رافنا
روما
ايطاليا
اسبانيا
بياتيكا
موريتانيا
افريقية
قرطاجة
صقلية
نوميديا
البحر
المتوسط
كريت
برقة
ليبيا
سالونيكا
تراقيا
نيقوميديا
قيصرية
نصيبين
انطاكية
سورية
قبرص
فلسطين
مصر
أرمينيا
دولة
الفرس
العرب

الباب الثانى

الامبراطورية الرومانية

يبدأ المدخل الطبيعى لدراسة تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى باستعراض أحوال الامبراطورية الرومانية فى اقصى مراحل قوتها وعظمتها . وليس معنى هذا ان تاريخ أووبا فى العصور الوسطى يبدأ بداية دقيقة من هذه المرحلة ، وانما نستهدف من هذا العرض ان يساعدنا على فهم الأسس والعوامل التى كيفت التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى (١) . هذا الى ان حضارة أوربا فى العصور الوسطى ليست فى حقيقة أمرها الا مزيجا من حضارة الرومان من جهة وحضارة العناصر البربرية التى اجتازت الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها واختلطت بأهلها من جهة اخرى (٢) .

والواقع أن الامبراطورية الرومانية كانت اعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ ، اذ لم يقدر لامبراطورية أخرى فى تاريخ البشر القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الامبراطورية الرومانية من قوة واتساع . ذلك ان هذه الامبراطورية ضمت بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة — باستثناء فارس والهند — وذلك عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الامبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧) (٣) . وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسى غربا حتى الفرات شرقا ، فشملت فى الغرب البلاد المعروفة بأسماء بريطانيا وغاليا وايبريا وايطاليا واليريا فضلا عن شمال افريقية من المحيط الأطلسى حتى طرابلس ، فى حين شمل الجزء الشرقى من

---

(1) Stephenson: Med. History. p. 5.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages,p.3.

(3) Cary: A Hist. of Rome down to the Reign of Constantine, pp. 646-647.

الامبراطورية البلقان واسيا الصغرى واعالى بلاد النهرين فضلا عن الشام ومصر وبرقة (١) . هذا مع ملاحظة ان نفوذ روما امتد الى ما وراء حدودها السياسية ، حتى بلغ فارس والهند ، وتطرق الى النوبة والسودان ، ونفذ الى جوف الصحراء الكبرى عبر جبال اطلس ، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة فى مجاهل أوربا شرقى الراين وشمالى الدانوب (٢) .

وترجع عظمة الامبراطورية الرومانية الى ان السلطة المركزية فيها استطاعت ان تحكم سيطرتها على هذه المساحات الجغرافية المترامية الاطراف ، وعلى تلك الشعوب والامم المتباينة الاصول والحضارات ، الأمر الذى تطلب من الحكومة الرومانية اصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التى اختلفت بعضها عن بعض فى تراثها التاريخى وحضاراتها ولغاتها ودياناتها. وليس هذا وحده هو مصدر عظمة الامبراطورية الرومانية ومثار الاعجاب بها،وانما تبدو هذه العظمة واضحة جلية فى مقدرة امبراطورية الرومان على استيعاب شعوب عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونانيين،جنبا الى جنب مع شعوب اخرى حديثة المولد ومازالت فى فجر تاريخها مثل الغاليين والرومان.وهنا نلاحظ أن امتداد الامبراطورية الرومانية على شواطىء البحر المتوسط جعل من هذا البحر شريانا رئيسيا يربط بين مختلف اجزائها ، فى حين ساعدت الانهار الداخلية على الربط بين أطراف الولايات (٣) ، هذا فضلا عن الطرق المعدة التى اشتهرت بها حضارة الرومان ، والتى أقاموا منها شبكة واسعة مترامية ليس لها نظير فى التاريخ (٤)

وكانت الامبراطورية الرومانية فى أزهى عصورها — وهى الفترة الواقعة بين قيام أوغسطس سنة ٢٧ ق.م. ووفاة ماركوس أورليوس ١٨٠م — تمثل بناء اجتماعيا ساميا مترابط البنيان . ذلك انها كانت فى نظر

(1) Chapot: Le Monde Romain, pp.68-71.

(2) Thompson: The Middle Ages, Vol. I. p.4

(3) Rostovtzeff: A Hist. of the Ancient World, Vol. II p. 286.

(4) Chapot: Le Monde Romain. p. 103-105.

الطبقات العليا تعبر عن نظم ادارى امتاز بالكفايه والدقة ، فى حين اعتقدت الطبقات الدنيا ان الحكومة الرومانية تقوم بحمايه الممتلكات والارواح فى ظل قانون عادل دون ان تحاول التدخل فى حياة الناس اليومية او تعمل على تغيير لغاتهم او معتقداتهم او نظمهم الاجتماعية (١) .

اما عن طابع الحكومة الرومانية فى اوائل عصر الامبراطورية — اى حتى الاصلاحات العظيمة التى ادخلها دقلديانوس فى اواخر القرن الثالث — فيلاحظ ان هذه الحكومة كانت ملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهورى السابق (٢) ، أو ربما كان من الأدق القول بأنها ظلت جمهورية مع ظهور راس للدولة وللجيش الرومانى يتمتع بمنصـــبه طوال حياته . وهكذا ظل السناتو يباشر سلطاته الواسعة ؛ واستمرت المناصب العليا فى الدولة بأيدى الأرستقراطية من كبار ملاك الأراضى ، كما بقى المواطنون الرومان يمثلون طبقة ممتازة وان فقدوا كثيرا من أهميتهم السياسية (٣) . ولذلك يبدو من الخطأ ان ننظر الى هذه الحكومة على أنها كانت عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة . حقيقة انها لم تكن ملكية دستورية ، ولكنها امتازت — ولا سيما فى العصر الأول للامبراطورية — بسيادة العرف والتقاليد والقانون ، كما تمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهورى مما أكسب الحكومة الرومانية عنئذ مظهرا دستوريا واضحا (٤) .

والواقع ان النظام السياسى الذى وضعه اوغسطس (٢٧ ق.م. — ١٤ م) يعتبر حلا وســـطا بين النظامين الملكى الاســـتبدادى والجمهورى الدستورى (٥) . ذلك انه كان امام اوغسطس أن يختار بين نظامين للحكم . الأول نظام قيصر الذى قام على اساس حكم عســـكرى اعترف فيه جميع الناس — سواء في ايطاليا أو الولايات — بالطاعه العمياء لسيدهم الأعلى .

---

(1) Thompson: op. cit. pp. 4-5

(2) Cam. Ancient Hist. Vol. 10 : p. 160 .

(3) Stephenson: Mediaeval History, p. 6

(4) Lot: The End of the Ancient World, pp. 6-7

(5) Cam. Ancient History Vol. 10. p. 158-168.

والثانى نظام الحكم الجمهورى الذى يقر اهمية المواطنين الرومان فى ايطاليا والولايات الى جانب الاعتراف بسلطة قائد القوات المسلحة فى الدولة . وهنا لجأ اوغسطس الى التوفيق بين النظامين ، اى بين الزعامة العسكرية التى ورثها عن اسلافه والتى اصبحت ضرورية للمحافظة على سلامة الامبراطورية وأمنها وصالحها العام وبين رغبة المواطنين الرومـــان فى الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة ــ على الأقل فى الميدانين الاجتماعى والاقتصادى ، ان لم يكن فى الميدان السياسى (١) . وهكذا نبذ أوغسطس حكم قيصر المطلق ولكنه ركز فى يد الامبراطور معظم السلطات التى أعتاد ان يباشرها كبار الموظفين فى العصر الجمهورى ، وبخاصة القيادة الحربية التى انتقلت من أيدى القناصل الى يد الامبراطور . واذ كان السناتو قد ظل محتفظا بهيبته ومكانته القديمة فى ظل النظام الجديد ، الا أن سلطاته التشريعية والقضائية والادارية تناقصت بصورة واضحة (٢) ، كما اصبح يتألف من اعضاء يختارهم الامبراطور من مختلف أنحاء الامبراطورية على الاطلاق ، بعد ان كان فى العصر الجمهورى يمثل اقلية ممتازة محدودة ، مما جعل الطبقة السناتورية Senatorial Class تعتمد على أوغسطس اعتمادا تاما (٣) .

وقد عاب بعض المؤرخين على الامبراطورية الرومانية فى أوائل عهدها افتقارها الى وجود قانون وراثى ثابت ينظم وظيفة الامبراطور . ونحن لا ننكر مدى خطورة هذه الثغرة فى النظم الرومانية عندئذ ، ولكننا يجب أن نعترف بأن علاجها لم يكن امرا يسيرا بالدرجة التى قد نتصورها . ذلك ان ثمة حقيقة كبرى ينبغى الا تغيب عن اذهاننا ، هى أن الامبراطـــورية الرومانية فى عصرها الأول لم تكن مجرد امبراطورية فى قالب جمهورى فحسب ، بل استمرارا للنظام الجمهورى السابق وامتدادا له ، مما تعذر معه وضع قانون

---

(1) Rostovtzeff : A Hist. of the Ancient World, Vol. 2. pp. 175-176.

(2) Cam Ancient Hist. Vol. 10 pp. 161-165.

(3) Rostovtzeff : op. cit. p. 191.

وراثى ثابت للحكم دون التخلص من هذا القناع الجمهورى الذى استترت خلفه الامبراطورية الجديدة (١) . وعلى هذا فقد كان من الصواب — بل من الضرورى من الناحية السياسية — أن تحتفظ الامبراطورية الرومانية بهذا المظهر الجمهورى فى عصرها الأول عندما كان انصار التقاليد والمبادىء الجمهورية القديمة مازالوا يمثلون اغلبية ذات نفوذ قوى فى السناتو .

على ان ضعف الامبراطورية الرومانية اخذ يبدو واضحا فى القرن الثالث ، عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية فى عزل الاباطرة واقامة غيرهم بعد ان كان الجيش خادما مخلصا للامبراطور (٢) . ولم تلبث الفرق الامبراطورية فى مختلف الولايات ان اخذت تتحكم فى اختيار قادتها وفق مشيئتها لا وفق رغبة الامبراطور والسناتو ، مما جعل الاباطرة واعضاء السناتو لعوبة فى ايدى رجال الجيش (٣) . ولكن لا ينبغى أن يفهم من ذلك ان جميع اباطرة القرن الثالث كانوا غير اكفاء فقد اظهر اول الاباطرة العسكريين فى ذلك القرن وهو سبتميوس سفروس (١٩٣ — ٢١١) مقدرة كبيرة ، على الرغم من نزعته الاستبدادية ، حتى أن عهده يعتبر مرحلة تحول فى تاريخ الامبراطورية والنظم الرومانية جميعا . وقد استطاع هذا الامبراطور أن يؤسس اسرة قصيرة العمر ظلت فى الحكم حتى سنة ٢٣٥ ، واشتهر من اباطرتها كاراكلا (٢١١ — ٢١٧) بسبب القانون الذى منح به الجنسية الرومانية لجميع أهالى الامبراطورية من الأحرار (٤) . ومهما يكن من أمر ، فان الفضل يرجع الى الامبراطور سبتميوس سفروس فى تأجيل الكارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية . ويتضح نفوذ الجيش الرومانى فى ذلك الوقت ونظرة الاباطرة الى رجال الجيش فى النصيحة التى قدمها هذا الامبراطور

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 8.

(2) Cary: op. cit. pp. 721-723

(3) Rostovtzeff: op. cit. Vol. 2, p. 303.

(4) Stephenson: Med. Hist. p. 33.

الى ابنائه وهو على فراش الموت ، اذ قال « اجذلوا العطاء للجند . ولا تهتموا بالآخرين (١) » .

وبتولى الامبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ — ٢٥١) منصب الامبراطورية ، بدات سلسلة متصلة الحلقات من الاباطرة العسكريين الذين اخذوا يتباعدون عما تبقى من مظاهر الحكم الجمهورى ، حتى جعلوا من الجمهورية نظاما استبداديا يعتمد على الجيش فى تنفيذ مشيئة الامبراطور والضغط على أهالى ألامبراطور . وهكذا امست الحاجة ملحة فى الداخل الى اصلاح النظم الادارية الخاصة بالولايات فضلا عن نظم الضرائب والعملة . أما فى الخارج فقد اخذ يتزايد ضغط الجرمان وبخاصة على جبهتى الراين والدانوب ، فى الوقت الذى ازداد الخطر الفارسى على الولايات الآسيوية (٢) .

وفى وسط الفوضى الشاملة والحروب الأهلية التى عمت الامبراطورية عقب انتهاء حكم اسرة سفروس سنة ٢٣٥ ، ظهر جندى دلماشى من اصل متواضع — هو الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) — ليتدارك الموقف ويعالج مشاكل الامبراطورية فى عزم واصرار ، فأحدث ثورة ضخمة فى نظم الحكومة الرومانية مما جعل عهده من أهم عصور تاريخ الامبراطورية. ذلك أن جميع المتاعب الداخلية والخارجية التى واجهت الامبراطورية فى اواخر ايامها كانت قد أخذت تتبلور لتظهر عندئذ فى صورة خطيرة واضحة . ففى الداخل تفاقمت المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وفى الخارج اشتد خطر الجرمان والفرس وضغطهم على حدود الامبراطورية (٣) . وبعبارة أخرى فان العوامل التى ادت الى اضمحلال الامبراطورية الرومانية ثم سقوطها ظهرت واضحة فى اواخر القرن الثالث (٤) .

---

(1) Lot: op. cit. p. 10.

(2) Ibid.

(3) Cary: op. cit. pp. 723-726

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 12.

ويحسن بنا قبل ان نعالج اصلاحات دقلديانوس ، ان نبدأ أولا باستعراض المشاكل الأساسية الهامة التي شكت منها الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث . وكانت أولى هذه المشاكل هي كيفية احتفاظ الامبراطورية الرومانية بوحدتها سليمة كاملة ، بعد أن اتجهت بعض الولايت — في الشرق والغرب — نحو الانفصال عن جسم الامبراطورية ، وقامت فيها فعلا — وذلك منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ٢٠٠ — حركات ثورية انفصالية (١) . ومن الخطأ وسوء المبالغة ان ننسب هذه الحركات الى مطامع بعض الافراد الطموحين ونتجاهل روح الاستياء والغضب التي عمت أهالي الولايات ، والتي كانت العامل الاساسي في تشجيع هؤلاء الطموحين على الظهور . فاذا دققنا النظر في معظم الثورات التي نشبت في مختلف ولايات الامبراطورية منذ القرن الثالث ، وجدنا من ورائها جميعا عوامل مشتركة — اقتصادية واجتماعية وعنصرية — حركتها وساعدت على سرعة اشتعالها . وهنا نشير الى انه ليس من الصواب الأخذ بالراى القائل بأن ازدياد تركيز السلطة الحكومية في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية هو سبب اضمحلال هذه الامبراطورية لأنه أدى الى كبت الروح العنصرية في الولايات . فالواقع أن الحكومة الرومانية اضطرت الى اتباع سياسة التركيز هذه في أواخر عصر الامبراطورية نتيجة للفساد الذي عم الولايات فعلا ، ولا سيما بعد أن أصبح حكم الولايات على قسط غير كاف من المقدرة مما افقدهم ثقة الحكومة ، في الوقت الذي أصاب مجالس الولايات الانحلال والوهن (٢) . لذلك لجأت الحكومة المركزية الى التدخل لمحاولة اصلاح الأوضاع الادارية في الولايات ، وكان العلاج المألوف عندئذ هو تصغير مساحة الولاية عن طريق تقسيمها أو تفتيتها ، فضلا عن الفصل بين السلطتين المدنية العسكرية في الولاية (٣) وهكذا أخذ عدد الولايات الرومانية في تزايد مستمر نتيجة لهذه السياسة حتى قفز العدد من ست واربعين ولاية سنة ٤١ الى مائة وتسعة عشر ولاية سنة ٣٢٧ . ولم يكن الانحلال في الحكومات البلدية الخاصة بالمدن ذات الادارات المستقلة عن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 24-25.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 25-26.

(3) Chapot : op. cit. p. 127.

ادارة الولاية — أقل وضوحا منه فى حكومات الولايات ، فكثير من المدن أسرفت فى اقامة المنشآت العامة وزخرفتها كالحمامات والمسارح والملاعب ، الأمر الذى تطلب زيادة أعباء الضرائب المحلية (١) وقد دفع ذلك بعض الاباطرة الى تعيين مراجعين ومحاسبين لفحص دفاتر بلديات المدن ، كما دفعهم احيانا الى حرمان بعض البلديات من حرياتها واستقلالها الذاتى وجعلها تابعة لحكومة الولاية (٢) .

أما الناحية الاقتصادية فقد ساءت فى الامبراطورية نتيجة لكثرة الحروب الأهلية التى مزقت وحدة الدولة وجعلت طرق التجارة غير مأمونة فى البر والبحر (٣) وزاد الطين بلة ثقل عبء الضرائب فى القرن الثالث ، سواء تلك التى فرضتها الحكومة المركزية أو التى جمعتها السلطات المحلية . وذلك أن الامبراطورية أصبحت مقسمة الى دوائر جمركية عديدة ، فى حين فرضت الضرائب على جميع السلع التجارية بنسبة تتراوح ٢٪ ، ١٢٪ ، هذا فضلا عما فرضته المدن من ضرائب صغيرة على المأكولات — كالخضر والفواكه والطيور واللحوم — التى ترد اليها من الاقاليم المجاورة (٤) . وكان من المتبع احيانا أن تكون هذه الضرائب عينية ، أى تؤخذ من نوع البضاعة أو الصنف ، بعكس الحال فى الضريبة الذهبية الفضية Chrysargyrum ، وهى الضريبة الرئيسية فى الانتاج الصناعى والتى سميت بهذا الأسم لأنها كانت تدفع نقدا (٥) .

ومهما يكن من أمر ، فان العبء الأكبر للضرائب وقع على الأراضى والمزارعين . واذا كان العالم الرومانى قد اشتهر بالملكيات الزراعية الكبيرة، فان المفروض هو أن تقوم طبقة كبار الملاك بتحمل الجزء الاكبر من أعباء الضرائب . ولكن الواقع العملى لم يطابق هذا الفرض النظرى ، اذ تحرر كبار

(1) Dill : Roman Society from Nero to Marcus Aurelius pp. 245-250.

(2) Chapot : op. cit. pp. 113-125.

(3) Rostovtzeff : op. cit. p. 317.

(4) Charlesworth : The Roman Empire, pp. 70-81.

(5) Lot : The End of the Ancient World. p. 121.

الملاك من هذا العبء الباهظ والقوا به على كواهل المستأجرين ، عن طريق رفع قيمة الايجار او عن طريق اثقالهم بالالتزمات والخدمات التى يتعين عليهم اداؤها المالك (١) . أما المزارع الصغير فكان يلجأ الى رهن أرضه عندما يعجز عن الوفاء بما عليه من ضرائب ، وعندئذ يستولى كبار الملاك المجاورين على الارض ويصبح المزارع الحرقنا ، أو يترك مزرعته لينزح الى أحدى المدن وينضم الى جموع الدهماء التى اخذت تتكاثر فى المدن الرومـانية (٢) . وبالاضافة الى ذلك وجدت فى الامبراطورية الرومانية ضريبة اجبارية يؤديها أهل الولاية نقدا او سخرة لصيانة الطرق والجسور والقنوات وغيرها من المرافق العامة . هذا عدا الضرائب المستحقة على جميع الاحرار ، والتى اقتصرت فى أول الأمر على المواطنين الرومان الذين تمتعوا بالجنسية الرومانية حتى منح كاراكلا هذه الجنسية سنة ٢١٢ لجميع سكان الامبراطورية الأحرار للحصول على ايراد أوفر وأعم ، وان كان هذا الاجراء قد ترتب عليه نتائج خطيرة بالنسبة للامبراطورية ونظمها (٣) .

وهكذا نلاحظ ازديادا مطردا فى الضرائب المباشرة وغير المباشرة داخل الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث . ذلك ان الأمر لم يقتصر على تضاعف عدد الضرائب المفروضة ، بل صحب ذلك ارتفاع نسبة الضريبة الواحدة ارتفاعا مستمرا (٤) . وقد اثر هـذا الوضع تأثيرا خطيرا فى بناء المجتمع الرومانى الذى اختل توازنه نتيجة لأن الأغنياء — وهم الطبقة الارستقراطية المؤلفة من كبار ملاك الأراضى — ازدادوا غنى ، فى الوقت الذى ازداد الفقراء فقرا . اما الطبقة الوسطى فى المدن والأرياف فقد أخذت تتناقص وسارت فى طريق الاضمحلال السريع نتيجة لتحويل أفرادها الى فئة من الأتباع والعبيد

---

(1) Rostovstzeff : op. cit. pp. 313-315.

(2) Katz : The Decline of Rome, p. 37.

(3) Rostovtzeff : op. cit., Vol. 2 p. 317.

ويلاحظ ان الهدف الأساسى الذى توخاه كاراكلا من منح الجنسية الرومانية لجميع اهالى الولايات الاحرار ما زال موضع نقـاش وجدل بين المؤرخين

(4) Chapot : op. cit. pp. 106-111.

فى ميدان الزراعة والصناعة . كذلك ادى هذا الوضع الى تدهور الانتاج وانخفاض قيمة العملة آلتى لم يتردد بعض الاباطرة فى تزييفها والاكثار من سكها . ذلك أن الأباطرة عندما وجدوا انفسهم لا يملكون المعادن الكافية لسك العملة ، لجأوا الى خلط الذهب بالفضة ، والفضة بالنحاس ، والنحاس بالرصاص ، وبذلك انحطت قيمة العملة وافلس من التجار من كان ثريا بسبب التلاعب فى النقد (١) . هذا الى ان تزييف العملة ادى الى اختفاء النقود الجيدة من السوق ، وقصر التداول على النقود الرديئة — وفقا لقانون جريشام الحديث — الامر الذى أدى الى ارتفاع الاسعار ارتفاعا جنونيا (٢) . وفى ضوء هذه الاعتبارات جميعا يمكن تفسير الثورات العديدة التى انتشرت فى مختلف ولايات الامبراطورية فى القرن الثالث ، عندما اخذ المزارعون والفلاحون يهجرون مزارعهم ويهاجمون المدن المجاورة لنهبها ، كما اتسع نطاق أعمال السلب والقرصنة حتى عم الفساد البر والبحر (٣) .

وبالاضافة الى هذه المفاسد والمشاكل الداخلية ، تعرضت الامبراطورية الرومانية لأخطار خارجية جسيمة نتيجة لهجمات أعدائها على حدودها وتوغلهم داخل هذه الحدود فى القرن آلثالث . فالفرنجة اغاروا على اراضى الراين الأدنى سنة ٢٣٥ ثم سنة ٢٥٦ (٤) ، والقوط الذين اجتاحوا اقليم داشيا غزوا مواشيا سنة ٢٥١ ولم يكن طردهم من هذا الاقليم الا بعد أن انتصر عليهم كلوديوس سنة ٢٩٨ (٥) . وفى سنة ٢٧٠ اندفع الألمانى خلال ممرات الألب مهددين شمال ايطاليا . وفى عهد الامبراطور فالريان (٢٥٣ — ٢٦٠) دأب البدو الرحل والبربر الضاربون على الحدود الصحراوية لولاية أفريقية الرومانية على مهاجمة هذه الولاية مرة بعد اخرى لنهب مدنها ومزارعها

---

(1) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 317.

(2) Stephenson : Med. Hist. p. 38.

(3) Katz : op. cit. pp. 36-37.

(4) Cary : op. cit. p. 723.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 204-206.

هذا فى الوقت الذى تطرقت جموع البرابرة المعروفين باسم اللان الى آسيا الصغرى من جهة الشمال الشرقى عبر القوقاز (١) .

وزاد من هذه الأخطار الخارجية التى هددت الامبراطورية الرومانية موقف دولة الفرس الساسانية التى اخذت منذ سنة ٢٣٣ تهدد أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وسوريا تهديدا خطيرا مستمرا ، حتى تمكن الفرس من انزال الهزيمة بالامبراطور فالريان واسره سنة ٢٥٩ (٢) . واذا كان بعض الأباطرة الرومان قد نجحوا بعد ذلك فى احراز شىء من الانتصارات الجزئية على الفرس ، الا أن هذه الانتصارات ليس معناها وقف الخطر الفارسى أو حتى الاقلال منـــه (٣) .

الامبراطور دقلديانوس :

وهكــذا بدت الامبراطورية الرومانية على شفاهاوية عندمــا اعتلى الامبراطور دقلديانوس عرشـــها ٢٨٤ ليقوم بأعظم عملية ترميم فى بنـــاء الامبراطورية المتـــداعى . ويبدو انـــه ليس من الواقع فى شىء أن نعتبر دقلديانوس أول الأباطرة المصلحين الذين عملوا على انقاذ الامبراطورية فى القرن الثالث ، اذ وجد من الأباطرة الذين تعاقبوا على عرش الامبراطورية بين سنتى ٢٥٣ ، ٢٨٢ جماعة أحسوا بخطورة الموقف ورغبوا فى الاصلاح ، ونخص بالذكر الامبراطور اورليان Aurelien (٢٧٠ــ٢٧٥)الذى أطلقت عليه الوثائق المعاصرة لقب « مجدد الامبراطورية » .

ولكن المشكلة كانت اشد تعقيدا من أن تحل فى سهولة ، فاكتفى هؤلاء الأباطرة المصلحون ببعض الاصلاحات الجزئية التى تناولت الضرائب والعملة الزراعية كما سمحوا لبضعة آلاف من العناصر الجرمانية المرابطة على حدود الدولة باجتياز الحدود والاقامة داخلها ، وذلك لتوفير الأيدى العاملة اللازمة

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 16.

(2) Cary : op. cit. p. 724.

(3) Moss : The Birth of the Middle Ages, pp. 6-7.

(4) Vasiliev : Hist. de l'Empire Byzantin ; Tome 1. p. 77.

للزراعة من جهة ولاتقاء شر هذه العناصر وخطرها من جهة الأخرى (١) .

ولكن احدا من اباطرة القرن الثالث لم يستطع ان يقوم بما قام به دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) من اصلاح شامل بعيد الأثر فى مختلف مرافق الامبراطورية . وهنا نجد دقلديانوس يوجه جهوده نحو ثلاثة اهداف كبرى ، هى تقوية نفوذ الحاكم او الامبراطور ، واعادة تنظيم الجهاز الحكومى ، وتجديد نظام الجيش (٢) ولتحقيق هذه الاهداف بدأ هذا الامبراطور باقرار الامن والنظام فى مختلف الولايات الامبراطورية ، فأخضع الثورات المتأججه فى غاليا ومصر وولاية افريقية وبريطانيا ، كما صد البرابرة على امتداد جبهتى الراين والدانوب . ولم يكد دقلديانوس يفرغ من ذلك حتى هاجم الفرس سنة ٢٩٧ واسترد منهم بلاد ما بين النهرين ، وبذلك امتدت الحدود الرومانيه شرقا مرة اخرى حتى نهر دجلة ، كما عادت رقعة الامبراطورية من جديد الى ما كانت عليه سنة ١١٧ باستثناء اقليم او اقليمين (٣) وقد فكر دقلديانوس فى حماية العالم الرومانى من الأخطار الجسيمة التى كانت تهدده ، وذلك بانشاء قوة حربية متنقلة — اى غير مرتبطة بجبهه واحدة — لتتحرك فى اى وقت الى اية جهة حسب الظروف ووفق مشيئه الامبراطور (٤) .

على ان الخدمات الحقيقية التى اداها دقلديانوس للامبراطورية والتى تركت اثرا بالغا فى احوالها ، لم تكن فى ميدان الحرب بقدر ما كانت فى ميدان الاصلاح الادارى . ذلك أنه أعاد تنظيم الجهاز الادارى فى صورة حرمت ايطاليا مما كان لها فى العصور القديمة من مكانة ممتازة ، كما قضت على التفرقة بين الولايات الامبراطورية وولايات السناتو (٥) . وقد ادرك دقلديانوس بثاقب بصره أن المركز الحقيقى لقوة العالم الرومانى لم يعد فى الغرب وانما أصبح فى الشرق ، حيث امتازت الولايات بوفرة الخبرات وكثرة السكان ومهارة

(1) Bloch : l'Empire Romain, pp. 188-194.

(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 320.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 17.

(4) Strphenson : Med. Hist. p. 38.

(5) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 32.

الأيدى العاملة فى الزراعة والصناعة والتجارة . لذلك مهد دقلديانوس لما فعله الامبراطور قسطنطين فيما بعد (١) فاتخذ عاصمة جديدة للامبراطورية فى الشرق ، هى مدينة نيقوميديا فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى على بحر مرمرة (٢) . هذا فضلا عما تطلبته الاعتبارات العسكرية من نقل عاصمة ايطاليا من روما الى ميلان ، وهى المدينة التى تتحكم فى معظم ممرات جبال الألب مما يجعل من السهل انتقال الجيوش الامبراطورية منها الى غاليا أو المانيا لصد هجوم أو اخماد اية فتنة (٣) .

وقد صحب تغيير عاصمة العالم الرومانى اعادة تنظيم الجهاز الادارى تنظيما جوهريا شاملا ذلك أن دقلديانوس أدرك ضرورة ايجاد علاج للخطر الناجم عن تضاعف عدد الولايات ، وما ترتب على هذه الظاهرة من قيادات انفصالية . لهذا فكر فى ربط الولايات الرومانية بعضها ببعض ، فقسم الامبراطورية الى أربعة اقاليم او اقسام ادارية كبرى ، على راس كل قسم منها حاكم ادارى عام يتمتع اما بلقب « أوغسطس »أو بلقب « قيصر » ويعتبر من الناحية العملية شريكا للامبراطور فى حكم الامبراطورية (٤) . أما هذه الاقسام الادارية الاربعة الكبرى فكانت غاليا (وتشمل بريطانيا وغاليا وأسبانيا والجزء المعروف حاليا باسم مراكش) ، وايطاليا (وتشمل الأراضى الواقعة بين الدانوب والبحر الأدرياتى فضلا عن ايطاليا والبلاد المعروفة حاليا بأسماء الجزائر وتونس وطرابلس) ، والبريا (وتشمل داشيا ومقدونيا وبلاد اليونان) ، ثم أخيرا اقليم الشرق ويشمل بقية الامبراطورية اى تراقيا وآسيا الصغرى والشام ومصر (٥) . وقد احتفظ دقلديانوس لنفسه بالقسم الأخير ومركزه نيقوميديا ، هذا فضلا عن احتفاظه بلقب الامبراطورية ووظيفتها .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 24.

(2) Cary : op. cit. p. 195.

(3) Bloch : op. cit. p. 195.

(4) Idem, pp. 194-195.

(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages, pp. 5-6.

وهكذا أصبحت الامبراطورية من الناحية النظرية مقسمة الى أربعة أقسام كبرى يحكمها أربعة حكام ، اثنان منهم أعلى مقاما ويحملان لقب «أوغسطس» والاثنان الباقيان أقل درجة ويحملان لقب « قيصر » ويخلفان الأولين ، فى حالة الوفاة أو العجز(١) . أما الامبراطور نفسه فلم يعد أن يكون أحـــد الحاكمين الأولين ، ولكن كانت بيده السلطة العليا فى الامبراطورية والاشراف العام على جميع شئونها كما كان القائد الأعلى للجيش(٢) . وهنا نلاحظ أنه اذا كانت السلطة الادارية فى الامبراطورية قد قسمت أو وزعت ، الا أن الامبراطورية نفسها ظلت وحدة قائمة لا تتجزأ ، بحيث أن كل أوغسطس كان له حق المرور فى أراضى القيصر التابع له . كذلك يلاحظ أنه اذا كانت السلطة العليا فى النواحى التشريعية والاداريه قد أصبحت نظريا فى أيدى الأوغسطين ، الا أن دقلديانوس ظل من الناحية العملية يقبض على زمام الأمور فى الامبراطورية (٣) . وبعبارة أخرى فانه ليس معنى تقسيم الســـلطة أن الامبراطورية نفسها انقسمت ، اذ ظلت هذه الامبراطورية تمثل وحدة على عهد دقلديانوس(٤) . ثم كان أن قسم دقلديانوس هذه الأقسام الأربعة الكبرى الى سبعة عشر وحدة أصغر Dioceses كل وحدة منها يرأسها نائب Vicarus عن الحاكم العام ، وتشمل عددا من الولايات . أما هذه الولايات فقد أصبح عددها مائة ولاية وولاية ، لكل منها ثلاث ادارات هامة تشرف احداها على العدالة والثانية على المالية والثالثة على الأملاك الخاصـــة بالأباطرة(٥) . وهكذا أصبح حكام الولايات مسئولين أمام نواب الحاكم العام ، والنواب مسئولين أمام الحاكم العام للاقليم ، وهؤلاء الحكام مسئولين أمـــام دقلديانوس الذى كان يتمتع بسلطة تامة فى تعيينهم أو عزلهم . وعن هـــذا الطريق أراد دقلديانوس أن يجعل الاجراءات الادارية تتم بصورة أسرع وأدق ، وفى الوقت نفسه يقضى على عوامل الانفصال والفساد المحلية التى

---

(1) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 78
(2) Rostovtzeff . op. cit. Vol. 2; pp. 321-323.
(3) Lot: The End of the Ancient World, p. 14
(4) Vasiliev, op. cit. Tome, 1, p. 78
(5) Rostovtzeff : op. cit. Vol 2, 325

طالما سببت متاعب جسيمة للامبراطورية فى القرن الثالث • وهكذا رفض دقلديانوس التعلق بأذيال النظم الجمهورية اسطحيه التى لم يبق منها سوى أوهام خيالية ، فتخلص من مظاهر الحكم الجمهورى بحيث بدت الامبراطورية فى عهده ـ كما كانت فعلا فى باطنها ـ ملكية استبدادية مطلقة • وهذا يحاول بعض الكتاب تفسير هذه الاتجاهات فى ضوء النفــــوذ الشرقى ، بحيث لم يقتصر أثر هذا النفوذ على تنظيمات دقلديانوس فحسب ، بل امتد أيضا الى اعلاء كلمة الامبراطور وتمتعه بسلطة مطلقة أشبه بسلطة الأكاسرة(١) •

أما نظام الجيش فقد أقامه دقلديانوس على أساس الاعتماد على الجند الذين يرجع أصلهم الى أكثر شعوب الامبراطورية تخلفا فى الميدان الحضارى ، وبخاصة الجرمان • فبقدر ما قل نصيب الجندى من الحضارة ، بقدر مـــا ازدادت أهميته ومكانته ، وهكذا اعتمد دقلديانوس على الفرق المؤلفـــة من البرابرة المرتزقة فى حماية الامبراطورية ، وجعل مراكزهم قرب عواصـــم كبار الحكام الأربعة حتى يكونوا على أهبة السير الى الحدود فى أى وقت يطلب منهم ذلك(٢) • وليس هناك شك فى أن عدد أفراد الجيش الرومانى ازداد على عهد دقلديانوس ، كما أصبح الطريق مفتوحا أمام الجندى ليرتقى ويصبح ضابط مائة ثم يتدرج فى مختلف درجات القيادة حتى يصل الى مرتبة القائد الأعلى للجيش • وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات فى هذه الحالة هو أن يكون شجاعا خبيرا بفنه مخلصا للامبراطور(٣) •

ثم أتبع دقلديانوس هذه التنظيمات الادارية والحربية باصلاح النظم الماليه والضرائب فقام بعملية واسعة تستهدف حصر الأراضى الزراعية فى الامبراطورية وتحديدها لتقرير الضرائب فى صورة عادلة • واذا كان دقلديانوس لم ينجح فى علاج الأزمة الاقتصادية علاجا ناجحا ، الا أنه نجح فى حماية الفقراء من جشع المستغلين والمتجرين فى أقوات الأهالى(٤) • وكان العلاج

(1) Katz; op. cit. p. 44.
(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 323.
(3) Idem, p. 324.
(4) Chapot : op. cit. p. 111

الذى لجأ اليه دقلديانوس هو سك عملة صحيحة سليمة حازت ثقة التجار والمتعاملين من جهة ، ثم تحديد كميات البضائع المتداولة والتى تعرض للبيع من جهة اخرى . هذا فضلا عن تسعير الحاجيات الأساسية والاجور من جهة ثالثة (١) على ان هذه المقاييس لم تفلح فى علاج ما كان يعانيه اهالى الامبراطورية من ضغط وفاقه بسبب كثرة الضرائب التى وقع الجزء الأكبر من عبئها على الطبقات الدنيا فى حين تمتعت الطبقات العليا بكثير من الاعفاءات المالية (٢) . وهكذا يمكن القول بأن كل ما فعله دقلديانوس لاصلاح الحالة المالية هو انه بسط جهاز الضرائب وحاول منع وقوع ازمة مالية ، ولكنه لم يستطيع بأى حال اعادة الأوضاع المالية فى الدولة الى حالتها الطبيعية نتيجة لتدهور مستوى المعيشة (٣) . هذا الى ان اصلاحات دقلديانوس المختلفة وما تطلبته هذه الاصلاحات من نفقات طائلة ، القت حملا ثقيلا على الاهالى فى وقت كانت مالية الامبراطورية تعانى اجهادا شـديدا منذ اوائل القـرن الثالث ، مما زاد الحال سوءا .

الامبراطور قسطنطين :

ثم كان ان تنحى دقلديانوس عن عرش الامبراطورية سنة ٣٠٥ بعد ان بلغ الستين من عمره واستبد به المرض واحس ان الوقت قد حان ليتخلى عن الحكم لغيره بعد ان أدى واجبه فى انقاذ الامبراطورية وتدعيمها (٤) . وقد أعقب نزول دقلديانوس عن منصب الامبراطورية قيام حرب اهلية استمرت سبع عشرة سنة ، وبرزت خلالها شخصية قسطنطين الذى استطاع ان يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدا بعد آخر حتى تم توحيد الامبراطورية الرومانية مرة اخرى سنة ٣٢٣ ، وعندئذ اخذ هذا الامبراطور على عاتقه مهمة اتمام الاصلاحات التى بداها دقلديانوس (٥) .

---

(1) Lot : op. cit. pp. 18-19.

(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 38-39.

(3) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 327.

(4) Lot : op. cit. pp. 22-23.

(5) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 80.

والواقع ان الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧) يتمتع باهمية خاصة فى التاريخ نظرا للأعمال الهامه التى قام بها . والتى كان لها اثر واضح فى تغيير وجه التاريخ ، وتحقيق الانتقال من العالم القديم الى عالم العصور الوسطى (١) . ذلك ان هذا الامبراطور قام بخطوتين على جانب كبير من الاهمية : الأولى اعترافه رسميا بالديانة المسيحية ، والثانية نقله عاصمة الامبراطورية من روما القديمة على ضفاف التيبر فى ايطاليا الى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور (٢) . وسوف نرجىء الكلام عن الجانب الدينى من اعمال قسطنطين الى الباب الآتى مكتفين فى هذا الباب بالاشارة الى الركن الدينوى من اعماله .

ومن الواضح أن قسطنطين اقتفى فى اصلاحاته الادارية اثر السياسة التى وضع اساسها دقلديانوس . فقام باتمام الأعمال التى بداها هذا الامبراطور بشكل ابعد اثرا (٣) . حتى أننا نجد من الصعب فى كثير من الاحيان الفصل بين اعمال هذين الامبراطورين . وهنا نلاحظ أن الاصلاحات الادارية التى قام بها دقلديانوس وقسطنطين قامت على اساس التفرقة بين السلطتين الحربية والمدنيه (٤) . وظهرت هذه التفرقه واضحه فى حكم الولايات ، اذا اصبح حاكم الولاية مسئولا عن شئونها الاداريه المدنية فحسب . فى حين أختص القائد (dux) بالاشراف على النواحى الحربيه فى ولايه او اكثر من ولايات الامبراطورية (٥) . على أن أهم تغيير ادخله قسطنطين كان ادخال مبدا الحكم الوراثى ، فأصبح المنصب الامبراطورى وراثيا فى أسرته التى اعتمدت على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية الجديدة من جهة أخرى (٦) . أما من الناحية العسكرية فقد اتجهت تنظيمات قسطنطين نحو انقاص عدد

---

(1) Bynes : Constantine the Great and the Christian Church; p. 3.

(2) Vasiliev : op. cit. Vol. 1, p. 54.

(3) Bury : Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1, p. 1.

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 80.

(5) Ostrogosky · op. cit. p. 33.

(6) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 332.

افراد الفرق العسكرية ، كما استمر فى سياسة فتح الباب امام الجرمان للانخراط فى سلك الجيش الرومانى كجند نظاميين .

وعلى الرغم من أن قسطنطين كان مشرعا نشيطا ، الا ان كفايته الادارية ما زالت موضع شك . ذلك أنه ضاعف من الضرائب والخدمات الجمركية ، وانزل طبقة الصناع الى مرتبة العبودية عندما جعل الحرف والاعمال وراثية حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب (١) . هذا فى الوقت الذى شدد فى فرض العقوبات على جامعى الضرائب فى المدن اذا عجزوا عن استيفاء التى قررتها الحكومة . اما بخصوص المزارعين فقد وضع تشريعا مشددا يمنع أولئك الذين يغرقون فى الديون — نتيجة لكثرة الضرائب وارتفاع الاسعار من ترك أراضيهم والانتقال الى ولايات اخرى ، عسى أن تكون الأحوال الاقتصادية فيها اقل قسوة ، الامر الذى عجل بالقضاء على طبقة المزارعين الأحرار وتحويل ابناء هذه الطبقة الى اقنان مربوطين بالأرض (٢) .

على أنه ليس هناك من شك فى ان تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للامبراطورية الرومانية ، يدل على ان قسطنطين أوتى بصيرة سياسية حكمية .. حقيقة أن الفضل فى فكرة نقل عاصمة الامبراطورية الى الشرق لا يرجع الى قسطنطين بقدر ما يرجع الى دقلديانوس ، الذى اقام فى مدينة نيقوميديا على الشاطىء الشرقى لبحر مرمرة واختصها برعايته وانشأ فيها كثيرا من المبانى الجميلة الرائعة . ولكن اصرار قسطنطين على نقل العاصمة رسميا يدل على بعد نظره وعلى حقيقة تفهمه للأوضاع الجديدة التى امست فيها الأمبراطورية الرومانية ، كما يدل على انه امتلك من الشجاعة والعزيمة ما مكنه من تنفيذ رأيه .

(1) Katz : op. cit. p. 50.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 27.

ومهما تكن الأسباب التى دفعت الامبراطور قسطنطين الى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة ، وسواء كان الدافع الأساسى اليها هو أن الامبراطور وجد أن سياسته الدينية واعترافه بالمسيحية لا يمكن أن تستقيم فى روما حصن الوثنية ودرعها الحامى ، ففكر فى نقل عاصمته الى الشرق حيث يزداد عدد المسيحين ، أو كان الدافع غير ذلك من الاسباب الحربية أو السياسية أو الشخصية ، فالمهم هو أن قسطنطين نفذ فكرته فعلا سنة ٣٣٠ فشيد عاصمة جديدة محل بلدة بيزنطة القديمة على ضفاف البسفور (١) . وتمثل المنطقة التى اقيمت عليها هذه العاصمة شبه جزيرة ، اذ تحيط بها من الجنوب مياه بحر مرمرة ومن جهة الشرق مياه مضيق البسفور ، ومن الشمال مياه القرن الذهبى الذى هيأ مرفأ طبيعيا عظيما للمدينة الجديدة (٢) . ومن الواضح ان موقع هذه المدينة على درجة كبيرة من القوة والمناعة لانها تسيطر على المضايق التى تربط البحر الاسود بالبحر المتوسط من جهة ، كما انه يصعب مهاجمتها والاستيلاء عليها من جهة اخرى . هذا الى أن القسطنطينية كانت مركزا تجاريا ممتازا اذاصبحت ملتقى الطرق التجارية العظيمة التى تربط البحر الأسود ببحر ايجه ، وشمال اوربا وغربها بأسيا (٣) . ولم يدخر قسطنطين نفسه وسعا فى أن يجعل هذه المدينة الجديدة التى سميت باسمه روما ثانية ، فأقام بها قصرا امبراطوريا وسوقا ومحاكم للسناتو وحمامات وملعبا عظيما . وسرعان ما اثبتت القسطنطينية انها مصدر قوة وثروة لكل حكومة قامت بها منذ القرن الرابع حتى وقتنا الحالى (٤) .

والواقع أن احدا لا يستطيع ان يقلل من خطورة هذه الخطوة التى اتخذها قسطنطين واثرها فى التاريخ ، لان قيام القسطنطينية فى القرن الرابع غير وجه التاريخ الأوربى الألف سنة التالية . فلولا قيامها لما استطاعت البابوية الوصول الى ما وصلت اليه من مجد وعظمة فى العصور الوسطى ، ولحرم شرق اوربا من تلك القلعة المنيعة التى صمدت فى وجه المسلمين وبالتالى

---

(1) Lot : op. cit. pp. 36-37.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 17.
(3) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental. p. 4.
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 36.

حالت دون غزوهم شرق أوربا (١) . هذا بالاضـــافة الى ان القسطنطينية صارت حصنا للحضارة اليونانية وللدراسات والآداب الهللينية ، ولولاها لأدت غزوات العناصر السلافية لشبه جزيرة البلقان فيما بعد الى اقتلاع جذور هذه الحضارة مما يستتبع تغيير وجه التطور الحضارى لأوربا .

الامبراطورية الرومانية بعد قسطنطين :

ثم حدث بعد وفاة قسطنطين ٣٣٧ أن قسمت الامبراطورية بين ابنائه الثلاثة ، حتى استطاع أحدهم — وهو قسطنطيوس — توحيدها مرة اخرى سنة ٣٥٠ تحت حكمه الذى استمر حتى سنة ٣٦١ (٢) . وعلى الرغم من ذلك فان الامبراطورية الرومانية سرعان ما أخذت تتعرض للانحلال السريع فى النصف الأخير من القرن الرابع عندما اشتدت هجمات الاعداء على حدودها ، دون أن تفلح جهود الاباطرة الذين تولوا الحكم فى هذه الفترة مثل جوليان (٣٦١ — ٣٦٣) وجوفيان (٣٦٣ — ٣٦٤) ، وفالنز (٣٦٤ — ٣٧٨) فى صد ذلك الخطر أو فى وقف تيار الانحلال . ذلك أن جوليان قتل أثناء الحرب مع الفرس سنة ٣٦٣ فى حين لجأ خليفته جوفيان الى شراء السلم من الفرس عن طريق التنازل لهم عن أراضى ما بين النهرين (٣) . أما فالنز فقد عاد مسرعا من الجبهة الفارســية لمواجهة خطر القوط والتقى بهم فى مــوقعة أدرنة (أدريانوبل — اغسطس ٣٧٨) حيث تمكن القوط الغربيون — بمساعدة اخوانهم الشرقيين — من سحق الجيش الرومانى وقتل الامبراطور نفسه فى المعركة (٤) . ويعتبر مقتل هــذا الامبراطور نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية ، اذ اخذت قبائل القوط الغربيين عندئذ داخــل أراضى الامبراطورية تحت ضغط الهون الأسيويين . هذا فى الوقت الذى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 18-19.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome, 1 p. 82.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 85.

(4) Ostrogorsky op. cit. cit. p. 48.

اخذت الكنيسة تظهر على درجة من القوة والثروة حتى اصبحت المسيحية ديانة الامبراطورية الرسمية على عهد الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ — ٣٩٥) وبذلك أمسى مصير الامبراطورية الرومانية معلقا بين أيدى الجرمان من جهة ورجال الكنيسة من جهة أخرى .

وقد انتهى الأمر عند وفاة ثيودسيوس سنة ٣٩٥ بتقسيم الامبراطورية الرومانية الكبرى بين ولديه الى قسمين شرقى وغربى ، فكان القسم الشرقى من نصيب ابنه اركاديوس فى حين صار القسم الغربى من نصيب ابنه هو هوزيوس (١) . ومن الواضح أن هذا التقسيم جاء طبيعيا ، لأن القسم الشرقى اليونانى يختلف اختلافا بينا فى حضارته واتجاهه وميوله وعقليته عن القسم الغربى اللاتينى . على انه لا ينبغى أن يفهم من هـذا التقسـيم انه منح الامبراطورية قوة جديدة ، بل على العكس لا يمكن اعتباره الا مظهرا من مظاهر التفكك والانحلال الذى أصاب الامبراطورية الرومانية ، والذى حاول الأباطرة المصلحون مثل دقلديانوس وقسطنطين تداركه ، ولكن عـوامل الانحلال كانت اقوى من جهودهم التى لم تؤد الا الى تأجيل الكارثة التى حلت بالامبراطورية فيما بعد (٢) .

ذلك أن عوامل الانحلال اشتد خطرها فى النصف الاخير من القرن الرابع عندما ازداد الفساد الادارى وتضاعف عبء الضرائب وتفاقم الخلل الاجتماعى بعد ان تكاثر عدد العبيد المشتغلين بالزراعة والصناعة وتناقص عدد الأحرار ، وانحطت أحوال المدن بوجه عام (٣) . وهكذا سهل على دارس احـوال الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع أن يدرك أنها كانت تعانى عندئذ آلام الموت البطىء ، وبالتالى فان العصور القديمة امست فى طريق الزوال وباتت الأحوال ممهدة لأن تنتقل اوربا الى طور جديد من اطوار تاريخهـا اكثر ارتباطا بالعصور الوسطى (٤) .

(1) Vasiliev : op. cit. Tome. 1 pp. 82-83.

(2) Moss : op. cit. pp. 78-79.

(3) Katz : op. cit. pp. 78-79.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 543-552.

وقد أجهد المفكرون انفسهم فى الوقوف على أسباب انحلال الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، فمنهم من قال بأن السبب فى ذلك هو فشل هذه الامبراطورية فى حل مشكلة العلاقة بين الفرد والدولة ، ومنهم من نادى بأن انهيار نظام المدينة الحرة ذات الحكم الذاتى هو مصدر اضـــمحلال الامبراطورية (١) ، فى حين قال فريق ثالث ان سبب الكارثة هو الافراط فى الاعتماد على المدن والتوسع فى منحها استقلالا ذاتيا ، مما افسد وحدة النظام الادارى فى الولايات واثار البغضاء بين أهالى المدن واهالى الريف ، كما أوجد تعارضا بين الأوضاع الاقتصادية التى سادت المدن من جهة وتلك التى سادت الريف من جهة أخرى . واخيرا يأتى رأى رابع يعلل الكـــارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية بازدياد نفوذ ارستقراطية كبار الملاك الإقطاعيين ونموها على حساب الطبقة الوسطى من الأحرار التى تناقص افرادها فى الريف والمدن وتحولوا الى عبيد (٢) .

ويشبه بعض المؤرخين الامبراطورية الرومانية بشجرة ضخمة امتدت جذورها القوية فى مختلف الاتجاهات ، مما يجعلها اقوى من ان تنهار نتيجة لعامل واحد أو سبب بعينه . لذلك يرجعون انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها الى عدة أسباب تضامنت جميعها لاسقاط الامبراطورية . وسواء كانت هذه الأسباب طبيعية او اجتماعية أو سياسية او اقتصادية او حربية او دينية (٣) ، فان يجب أن نعترف بأنه لم توجد دولة او حكومة فى التاريخ استطاعت الخلود والبقاء على حال واحد من الرفعة أو الحطة ، وان الدول تتفق مع الكائنات الحية فى خضوعها لسنة الموت والبعث .

---

(1) Idem. p. 553.

(2) Thompson. op. cit. Vol. 1 pp. 28-29.

(3) Cary, op. cit. pp. 778-779.

الباب الثالث

الامبراطورية والمسيحية

ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام اثناء عهد الامبراطور اوغسطس (ت ١٤ م) فى بيت لحم بفلسطين ، فى وقت أخذ العالم الرومانى يشعر بنوع من الفراغ أو الجدب الروحى . فالرومان انفسهم بدءوا ينظرون الى عبادة الدولة الرسمية وتقديس الأباطرة ، على أنها أمور شكلية (١) ، مما دفع المتعلمين منهم بوجه خاص الى الاستخفاف بالعقائد الدينية السائدة ــ سواء أكانت يونانية أو رومانية الأصل ــ ومن ثم أخذ بعضهم يتجه نحو الآراء التى نادى بها الرواقيون (٢) . ولكن حتى هذه التعاليم الرواقية أخذت هى الاخرى تبدو تدريجيا أضعف من أن تشبع الحاجة الروحية للمثقفين نظر لما امتازت به من تطرف فى الجمود والمنطق فضلا عن بعدها عن الآفاق السماوية (٣) .

والواقع أن القرنين الثالث والرابع لم يشهدا انتصارا سريعا للمسيحية فحسب ، بل ايضا لكثير من الديانات الأخرى الوثنية . ذلك أن الديانة الرومانية لم يكن لها وقع عاطفى فى نفوس الناس الذين قاموا بتقديم القرابين للآلهة الوثنية لا لشىء سوى قضاء مصالحهم الدنيوية الخاصة . أما الآلهة ذات الاصل الأجنبى التى وجدت فى روما أو غيرها من انحاء الامبراطورية ــ مثل غاليا وبريطانيا ــ فكانت هى الأخرى رموزا شكلية لا تثير حماسة دينية فى نفوس المعاصرين (٤) . وفى وسط هذا الفراغ الدينى الكبير لم يجد أهالى الامبراطورية وسيلة سوى الاتجاه شطر العقائد الدينية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 89.

(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 51-52.

(3) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 345 & Glover. op. cit. p. 155.

(4) Cary : op. cit. p. 531 & 590.

المختلفة المستوردة من الشرق مثل ديانة سيبل (Cybele) من آسيا الصغرى وديانة متراس Mithras من فارس وديانة ايزيس من مصر ، واخيرا المسيحية التى نبتت فى فلسطين (١) .

ومن الواضح انه لا يوجد محل للمقارنة بين المسيحية وغيرها من الديانات التى عرفها الشرق منذ أقدم العصور حتى ذلك الوقت ، لأن قصة المسيح وحياته فاقت فى سموها وجمالها بقية القصص الدينى المعاصر . ويكفى أن تعاليمه مستمدة من كتاب مقدس يمكن أن يفهمه ويتأثر به الخاصة والعامة ، لا من فلسفة اليونان التى لا يمكن أن يتفهمها سوى فئة من خاصة المثقفين . فاذا أضفنا الى ذلك ان المسيحية جاءت دينا سماويا عاما دون ان تختص بطائفة او تميز فريقا على آخر ، أدركنا سر انتشارها السريع وتفوقها فى النهاية على غيرها من العقائد الشرقية المعاصرة (٢) .

ومن المعروف أن معلوماتنا عن تاريخ الكنيسة فى عصرها الأول ، وكذلك عن انتشار المسيحية فى أركان الامبراطورية الرومانية ضئيلة وغير كافية ؛ وان كان من الثابت ان الفضل الاول يرجع الى القديس بولس فى تنظيم المجتمعات المسيحية الاولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط به من فلسفة المسيحية المتعلقة بالاخلاق والاخرويات كالموت والبعث والحساب والخلود ، فضلا عن جهوده فى وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية (٣) . وهكذا اخذت المسيحية تنتشر انتشارا حثيثا بحيث لم يكد ينتهى القرن الاول الا وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر المتوسط تضم بين جوانبها جالية مسيحية ، بل ان المسيحين كونوا جالية ملحوظة فى روما نفسها منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ٦٤ مما عرضهم لنقمة الامبراطور نيرون واضطهاده (٤) . وهنا نشير الى انه ليس من الواقع فى شىء ما يظنه البعض

---

(1) Dill : op. cit. pp. 529-546.

(2) Glover : The Conflict of Religions in the Early Roman Empire pp. 33-74.

(3) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 335.

(4) Painter : op. cit. p. 11.

من ان انتشار المسيحية فى أوائل عهدها اتخذ اتجاها أفقيا فحسب ، أعنى بين الطبقات الفقيرة والمعدمة فى المجتمع الرومانى دون غيرها من الطبقات ، اذ يثبت الواقع ان هذا الانتشار الأفقى صحبه انتشار آخر رأسى تصاعدى ، من الطبقات الدنيا الى الطبقات الراقية العليا التى تمثل الجانب الأرستقراطى فى المجتمع الرومانى (١) . ويبدو هذا بوضوح فى كتابات الرومان المعاصرين فى قبرص وسالوكانيكاوبيثنيا وغيرها من الولايات الرومانية ، فضلا عن رسائل القديس بولس (٢) . حقيقة ان الغالبية العظمى ممن اعتنقوا المسيحية فى اوائل عهدها كانوا من الطبقة العاملة ، وان الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى لم تقبل على اعتناق المسيحية فى اعداد ضخمة الا بعد أن تم الصلح بين الكنيسة والدولة بمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، ولكن ليس معنى ذلك ان المسيحية عدمت انصارا لها بين أفراد الطبقة الأرستقراطية خلال القرون الثلاثة الأولى عن عمرها (٣) .

وهنا نلاحظ ان ظروف الامبراطورية الرومانية والاوضاع التى احاطت بها كانت اكبر مساعد على سرعة انتشار المسيحية بين ربوعها . فهذه الامبراطورية امتازت بشبكة واسعة من الطرق الضخمة التى ربطت مدنها واطرافها برباط وثيق ، فضلا عن الأمن والسلام اللذين سادا ربوعها ، ونشاط التبادل التجارى بين مختلف اجزائها . هذا كله عدا سيادة اللغة اللاتينية فى الأجزاء الغربية من الامبراطورية ، واللغة اليونانية فى أجزائها الشرقية ، مما جعل من اليسير انتقال الآراء والأفكار والمعتقدات فى سهولة بين مختلف انحاء الامبراطورية ، وبالتالى انتشار المسيحية ووصولها الى أقصى البلاد فى سرعة فائقة (٤) .

---

(1) Thompson: op. cit. vol. 1, p. 32

(2) Katz: op. cit., pp. 64-65

ومن ذلك ما جاء فى العهد الجديد « فاقتنع قوم منهم وانحازوا الى بولس وسيلا ، ومن اليونانيين المتعبدين جمهور كثير ومن النساء المتقدمات عدد ليس بقليل » .

(سفر أعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ٤٠) .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 95-96

(4) Duchesne: Hist. Ancienne de L'eglise, Tone 1, p. 9

على أن التعارض لم يلبث أن ظهر حادا بين تعاليم المسيحية وعقائدها من جهة والنظم والقواعد التى قامت عليها الدولة الرومانية من جهة أخرى . هذا الى أن فكرة قيام منظمة دينية أو كنيسة منفصلة عن الدولة جاءت غريبة عن العقلية الرومانية والفكر الرومانى جميعا (١) .

وكان الوضع المعروف فى النظم الرومانية ان فئة واحدة من كبار الموظفين لها ان تمسك بزمام جميع الوظائف الكبرى فى الدولة من سياسية ومدنية وحربية ودينية ، مع ترك حرية العقيدة لكل مواطن رومانى طالما هو يعترف بآلهة الدولة الرسمية من جهة ، وطالما ان عقيدته لا تهدد سلام الامبراطورية من جهة أخرى (٢) . وكل ما هنالك هو انه يجب على الرعايا — مع اختلاف عقائدهم — أن يعترفوا بعبادة الامبراطور القائم ، وهو اجراء يشبه يمين الولاء للحاكم فى أيامنا . ولم يعف من هذا التكليف الأخير داخل حدود الامبراطورية الرومانية سوى اليهود ، فى حين لم يتمتع المسيحيون بهذا القدر من الحرية الدينية (٣) .

ومن الثابت أن المسيحية لم تكن الديانة الأجنبية الوحيدة التى كان على الحكومة الرومانية أن تحدد موقفها منها ؛ لذلك يبدو أن الأمر اختلط على الرومان فى أول الأمر فظنوا ان المسيحية ليست الا فرقة من الديانة الموسوية اليهودية (٤) ، لا سيما أن المسيحيين رفضوا — مثل اليهود — تأليه الامبراطور وعبادته . ولكن لم يكد ينتهى القرن الأول حتى اتضح الأمر وظهرت الفوارق واضحة بين الديانتين ، لأن المسيحيين لم يؤمنوا بأية عقيدة أخرى واخذوا يجتمعون سرا لمباشرة طقوسهم الدينية ، كما رفضوا الخدمة فى الجيش الرومانى ، واتخذوا الاحد أول أيام الأسبوع ليكون ذا صفة دينية بدلا من السبت عند اليهود (٥) . وهكذا أخذت الحكومة الرومانية تغير نظرتها الى

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 52.

(2) Katz. op. cit. p. 58

(3) Stephenson: op. cit. p. 53

(4) Hardy: Studies in Roman History, vol. 1 p. 2

(5) Katz: op. cit. p. 62

المسيحيين وتعتبرهم فئة هدامة تهدد أوضاع الامبراطورية وسلامتها (١) . والمعروف ان اية حكومة تعتبر الاجتماعات السرية الخاصة التى يعقدهـا فريق من رعاياها أمرا يخشى منه على كيانها ، لا سيما اذا كانت هـذه الاجتماعات تضم الطبقـات الفقيرة التى انتمى اليها معظم المسـيحيين الأوائل (٢) . وبعبارة اخرى فان سبب حنق الحكومة الرومانية على المسيحية كان اجتماعيا لا دينيا ، لأن المسيحية بدت فى صورة ثورة اجتماعية خطيرة تنادى بمبادىء من شأنها تقويض الدعائم التى قام عليها المجتمع الرومانى (٣) . وهنا نلاحظ ان نظرة الحكومات الى الطوائف والجماعات الصغيرة تختلف عنها الى الجماعات الكبيرة ، بمعنى أن نظرة الحكومة الرومانية الى المجتمعات المسيحية الصغيرة هى فى أول الأمر كانت لا تعدو الاستخفاف بها والتهوين من أمرها ، بعكس ما اصبح الحال عندما ازداد انتشار المسيحية وكثر أتباعها وعندئذ تحولت نظرة الحكومة الرومانية الى نـوع من الخوف والشـك فى أمرها (٤) .

وكان ان بدأت الحكومة الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جرما فى حق الدولة ، فمنعت اجتماعات المسيحيين واخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم . ولم يقم بهذه الموجة الاضطهادية ضد المسيحيين بعض الحكام المتعسفين المعروفين بجبروتهم مثل نيرون الذى قدم مسيحيى روما طعاما للنار العظيمة التى أشعلها سنة ٦٤ فحسب (٥) ، بل شارك فيها أيضا فئة من خيرة الأباطرة المصلحين المعروفين بحرصهم على تنفيذ القانون مثل تراجان وهـادريان وانطونيوس بيوس وماركوس اورليوس (٦) ومن أولى الوثائق التى تصور لنا بداية عهد المسيحيين بالاضطهاد ، تلك الرسالة التى أرسلها بلينى الصغير حاكم بيثنيا الى الامبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧) يفيده فيها بأنه عفا عن جميع المشكوك فى أمرهم بعد أن قبلوا تقديم القرابين لتمثال الامبراطور ، فى

---

(1) Charlesworth: op. cit. p. 149
(2) Painter: op. cit. p. 15
(3) Hardly: op. cit. vol. 1, p. 34
(4) Idem, p. 37
(5) Cary, op. cit. p. 531
(6) Duchesne, op. cit. Tome I, pp. 110-115 & 359

حين اعدم الذين امتنعوا عن فعل ذلك . وقد أجاب الامبراطور تراجان معبرا عن استحسانه لتصرفه (١) .

على انه يبدو أن هذا الاضطهاد اتى بنتيجة عكسية ، لأن روح الشجاعة والصبر والايمان التى واجه بها شهداء المسيحية مصيرهم اصبحت موضع اعجاب الكثيرين الذين اقبلوا هم الآخرون على اعتناق الديانة الجديدة (٢) . وهكذا لم يكد يحل القرن الثالث الا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة نتيجة لازدياد عدد اتباعها ازديادا مطردا ، مما دفع الامبراطور دقلديانوس الى التطرف فى قمعها فى أوائل القرن الرابع ، لا سيما بعد أن أدى ازدياد نفوذ المسيحية بين رجال الجيش الى التهديد بالقضاء على ولاء الجنــد للامبراطورية (٣) . وقد أصدر هذا الامبراطور عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين وأمر بهدم كنائسهم واحراق كتبهم وحبس قساوستهم وطردهم نهائيا من الوظائف الحكومية ، الى غير ذلك من الاجراءات المشددة التى جعلت المسيحيين يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه « عصر الشهداء » (٤) . ويبدو أن هدف دقلديانوس من هذه السياسة كان محاولة اجبار الكنيسة ــ عن طريق الاضطهاد ــ على الخضوع للدولة ، شأنها شأن بقية الهيئات والمنظمات الاجتماعية فى الدولة الرومانية . ذلك أن قيام الكنيسة كهيئة مستقلة أو كدولة داخل الدولة ، أمر يتعارض مع المبدأ الأول الذى اقام عليه دقلديانوس نظامه وبنى اصلاحاته ، والذى يقضى بخضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة (٥) وهنا نلاحظ أن اضطهاد الأباطرة والحكام لم يكن الخطر الوحيد الذى هدد المسيحية فى ها الدور من تاريخها ، بل كان على الديانة الجديدة أن تواجه عندئذ تهديدا خطيرا من شأنه أن يفقدها طابعها الأساسى ، وذلك من ناحية الأدريين (الغنوصيين Gnosties) الذين حاولوا خلط تعاليم المسيحية

(1) Hardy: op. cit. Vol. 1, pp. 78-94
(2) Katz: op. cit. p. 94
(3) Rostovetzeff op. cit. Vol. 2, p. 346 & Lot, op. p. 24.
(4) Duchesne op. cit. Tome 2, pp. 6-15.
(5) Rostovetzeff : op. cit. Vol. 2, p. 350

بالآراء الميتافيزيقية والأفلاطونية الحديثة ، هذا فضلا عن الهجوم الذى واجهته المسيحية من جانب اليهود (١) .

ومهما يكن من امر فان المسيحية خرجت من جميع هذه المعارك ظافرة مرفوعة الرأس ، لا سيما بعد أن أخذ الامبراطور قسطنطين بسياسة الأمر الواقع فأصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ معترفا بوضع الديانة المسيحية كأحدى الشرائع المصرح باعتناقها داخل الامبراطورية ، بمعنى أن يتمتع المسيحيون فى الامبراطورية بكافة الحقوق التى تمتع بها غيرهم من أتباع الديانات الأخرى (٢) . وهنا يصح أن نتوقف قليلا لنتدبر أهمية هذه الخطوة الجريئة التى اقدم عليها قسطنطين . فاذا تذكرنا أن الامبراطورية الرومانية قامت على أساس الوثنية وفكرة تألية الاباطرة ، واذا تذكرنا ما نزل بالمسيحية فى مختلف الولايات الرومانية من تعذيب واضطهاد ، واذا أدركنا ما ترتب على اعتراف قسطنطين بالمسيحية من انتشار سريع لهذه الديانة الجديدة وازدياد نفوذ رجالها حتى أصبحت الكنيسة اقوى العوامل التى كيف تاريخ أوربا العصور الوسطى ، أمكننا فى النهاية أن نتحقق من أهمية هذه الخطوة التى أقدم عليها قسطنطين . ويمكن أن نضيف الى هذا ما سبق أن اشرنا اليه فى الباب السابق من أن قسطنطين أتبع اعترافه بالمسيحية بنقل عاصمة الامبراطورية من روما الى القسطنطينية ، وأنه هجر روما الخالدة الى عاصمته الجديدة بالشرق ، مما يشير الى أن ثمة تغييرا أساسيا اخذ يعترى وجه العالم القديم ، وأن العالم أصبح على أبواب عصور وسطى جديدة لم تعد فيها روما مركز الامبراطورية من جهة ، وأصبحت المسيحية ورجالها بمثابة القوة الفعالة فى المجتمع الأوربى من جهة اخرى (٣) .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول الحافز الذى دفع قسطنطين الى اصدار مرسوم ميلان السابق ، وهل جاء صدور هذا المرسوم عن عقيدة صادقة

---

(1) Glover: op. cit. p. 173

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 61-63.

(3) Katz: op. cit. p. 52

وايمان بالمسيحية أم هو مجرد اجراء سياسى اتخذه قسطنطين لتحقيق مآرب خاصة . والواقع انه توجد ادلة كثيرة تثبت ايمان قسطنطين بالمسيحية . كما توجد ادلة أخرى عديدة توضح استمرار اعتقاده فى الوثنية (١) . ذلك ان عدد المسيحيين عندئذ لم يتجاوز عشر مجموع سكان الامبراطورية ، الأمر الذى يؤيد الراى الأول بأن قسطنطين اتخذ قراره عن شعور دينى لا بدافع المصلحة السياسية (٢) . على اننا اذا تأملنا الموقف قليلا وجدنا ان المسيحية كانت أوسع انتشارا واشد تركيزا فى الشرق منها فى الغرب ، بحيث أن آسيا الصغرى غدت من المراكز الرئيسية للمسيحية فى القرن الرابع (٣) . هذا فى الوقت الذى كان قسطنطين قد انتصر على خصمه ماكسنتيوس Maxentius فى موقعة جسر ماويان Milvian Bridge بايطاليا سنة ٣١٣ ، وبذلك دان لسلطانه الجزء الغربى من الامبراطورية ولم يبق أمامه سوى اخضاع جزئها الشرقى ، حتى تتحقق له السيادة التامة على الامبراطورية كلها . لذلك لا يستبعد أن يكون قسطنطين قد اصدر مرسوم ميلان غداة انتصاره على ماكسنتيوس فى الغرب ليفتح امامه أبواب الشرق (٤) . وتتوافر فى المراجع التاريخية قصة شهيرة حكاها أيوزيب Eusébe اسقف قيصرية المعاصر نسبها الى قسطنطين نفسه ، وخلاصتها أنه حدث اثناء زحف الامبراطور على روما لمحاربة خصمه أن رأى بعد غروب الشمس هالة من النور مضيئة فى السماء على شكل صليب وتحتها عبارة « ستنتصر بفضل هذا ! » فلما نام الامبراطور رأى فى منامه صورة المسيح ومعه الصليب نفسه وقد أتى ليأمره باتخاذ هذا الصليب شعارا له والزحف على عدوه فورا . فكانت هذه الظاهرة وما تبعها من نصر حققه قسطنطين على خصمه من الدوافع الأساسية لاعترافه بالمسيحية واعتناقه لها (٥) .

ومهما يكن من أمر ، فان مرسوم ميلان سنة ٣١٣ جعل من المسيحية ديانة مرخصة : Religio licitia كما ساوى بينها وبين غيرها من الديانات

---

(1) Ostrograsky: op. cit. pp 42-43
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 56-58.
(3) Idem. p. 57
(4) Cam. Med. Hist. vol. 1, pp. 5-6
(5) Vasiliev : op. cit. Tome 6, p. 61.

الأخرى داخل الامبراطورية الرومانية وتعهد بحماية أرواح المسيحيين وممتلكاتهم ، أسوة ببقية رعايا الامبراطورية . ومن هذا يبدو أن سياسة قسطنطين الدينية تمثل حلقة انتقال ، كما أنها تعبر عن تطور فكرى أكثر منها عن تحول روحى (١) . ذلك انه تسامح مع المسيحيين فى الوقت الذى لم يضطهد الوثنيين ، وعن هذا الطريق حاول ان يمسك العصا من وسطها ليحقق نوعا من التوازن بين المسيحية والوثنية (٢) . والواقع أن عهد الامبراطور قسطنطين يمثل عدة تيارات دينية متضاربة ، اذ لم يقتصر فيه الوضع على التطاحن بين المسيحيين والوثنيين ، بل انقسمت المسيحية الناشئة على نفسها بين اريوسيين واثناسيوسيين ، مما جعل كل فريق يعمل الفوز والحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات على حساب المذهب الآخر وهنا وجد قسطنطين فرصته فحاول أن يرضى الجميع دون أن يغضب فئة أو مذهبا (٣) . وهكذا اعترف قسطنطين بالمسيحية بمذهبيها دون أن يتنكر لديانة الدولةأو يتخلى عن عبادة الامبراطور التى كانت مصدرا اساسيا لقوة الأباطرة ونفوذهم . وبعبارة أخرى فان قسطنطين اختار أن يقيم قوته السياسية على ثلاثة دعائم رئيسية هى العبادة الامبراطورية ، والعقيدة الأريوسية، والعقيدة الأثناسيوسية ، كما يتضح ذلك من سياسة الامبراطور وتصرفاته . ذلك أنه احتفظ بعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها ، كما احتفظ كأسلافه من الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم (٤) Pontifex Mximus أما بلاطه فقد أصبح يغص بالاساقفة والقساوسة من مختلف المذاهب المسيحية ، جنبا الى جنب مع الكهنة والفلاسفة الوثنيين . هذا فى الوقت الذى صارت وظائف الدولة الكبيرة قسمة بين الوثنيين والمسيحيين ، كما نقشت على نقوده شارات المسيحية والوثنية (٥) . أما فى حياته الخاصة فان قتل قسطنطين لزوجته وولده يدل على أنه لم يتأثر اطلاقا بتعاليم المسيحية واخلاقها . وهكذا يمكن القول بأن قسطنطين ظل

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 43.
(2) Lot : op. cit. p. 29.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 35-36.
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 43.
(5) Lot : op. cit. p. 26.

حتى أواخر حياته وثنيا مع الوثنيين وأثناسيوسيا مع الأثناسيوسيين واريوسيا مع الاريوسيين (١) .

وقد شهدت المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية خطيرة كان لها اثر عظيم فى تاريخ الشرق والغرب جميعا . وربما يبدو من الأنسب فى كثير من الأحيان الابتعاد عن الخوض فى هذه الخلافات والمشاكل الدينية فى دراسة تاريخية كالتى تقوم بها ، ولكننا عندما نجد الخلاف المذهبى يتحكم فى توجيه التيارات السياسية بل فى تغيير مجرى الأحداث التاريخية — كما حدث فعلا فى القرنين الرابع والخامس — نرى انفسنا مضطرين الى الاشارة إلى مختلف وجهات النظر الدينية حتى نستطيع فى ضوئها أن نتفهم ما ترتب عليها من أحداث سياسية (٢) . وهنا نلاحظ ان الخوض فى المسائل اللاهوتية لم يقتصر فى القرن الرابع على رجال الدين ، وانما كان أمراً مباحا وموضوعا مفتوحا أمام الجميع . وخير شاهد فى ذلك ما كتبه القديس جريجورى أسقف نيسا Nyssa (٣٤٠ — ٤٠٠) عن القسطنطينية ، اذ يصف العمال والعبيد فى هذه المدينة بأنهم جميعا من المشتغلين باللاهوت ، فاذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود أوقفك ليروى لك أوجه الخلاف بين المسيح الابن والاله الأب ، واذا ذهبت لشراء رغيف خبز أخبرك صاحب المخبز بأن الابن يجب أن يكون دون الأب ، اذا طلبت من الحمامى ان يعد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شىء (٣) .

أما المشكلة الكبرى التى قسمت المسيحيين وبالتالى العالم الرومانى الى معسكرين وأثارت البغضاء الدينية والسياسية بينهما لمدة قرنين من الزمن ، فكانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والاله الأب . ذلك أنه حدث خلاف بين اثنين من رجال الكنيسة باسكندرية حول تحديد هذه العلاقة ، فقال أريوس — وهو كاهن سكندرى مثقف — بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل

---

(1) Cam. Med. Hist. 1 p. 10.

(2) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental pp. 21-2.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 37.

الابن ، ولما كان المسيح الابن مخلوق للاله الاب فهو اذن دونه ولا يمكن بأى حال ان يعادل الابن الاله الأب فى المستوى والقدرة (١) . وبعبارة اخرى فان المسيح مخلوق لا اله بمعنى هذه الكلمة المطلق ، والا فان المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة الهين (٢) . أما أثناسيوس فقال بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن الابن مساويا للاله الاب تماما فى كل شىء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه ، هذا وان كانا شخصين متميزين . ويبدو أن الاثناسيوسيين أدركوا أن المسيحية تعتمد فى دعوتها على مكانة المسيح ، وان أى اتجاه نحو التقليل من مركزه يؤدى الى اضعاف الدعوة المسيحية . وهكذا كان انصار اريوس من الموحدين . ومن الواضح أن المذهب الأريوسى كان يتفق ومنطق المثقفين لانه اراد ان يقيم العقائد المسيحية على أساس من المنطق والتعقل ، فى حين كان المذهب الأثناسيوسى يستقيم وتفكير عامة الناس من البسطاء الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم (٣) . وهنا نلمس اثر الفوارق الحضارية بين الشرق والغرب ، اذ لم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسى فى بلاد الغرب اللاتينى فى حين اصبحت الغلبة فى الشرق الهللينى للمذهب الأريوسى . هذا فضلا عما نلحظه من أن معظم المفكرين والفلاسفة والأدباء كانوا أريوسيين موحدين ، فى حين كانت معظم الطبقات الوسطى والدنيا التى انتمى اليها رجال الدين من الأثناسيوسيين .

وعندما اشتد الجدل وتفاقم النزاع بين الطرفين ، خشى الامبراطور قسطنطين ان يؤثر لك فى وحدة الامبراطورية . فحاول ان يوفق بين المذهبين ، وارسل مبعوثا « هوسيوس Hossius) الى الاسكندرية لهذا الغرض ، ولكن جهود الامبراطور لم تكلل بالنجاح (٤) . لذلك دعا قسطنطين الى عقد مجمع دينى فى نيقية سنة ٣٢٥ لحسم الخلاف (٥) . وكان هذا المجمع أول مجمع

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1p. 199.

(2) Lot : op. cit. pp. 43-44.

(3) Painter : op. cit. p. 16.

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1. p. 68.

(5) Bynes : Constantine and the Christian Church. pp. 19-22.

مسكونى عالمى فى تاريخ الكنيسة . اذ حضره نحو ثلاثمائة من رجال الدين فى الشرق والغرب ، ورأسه الامبراطور قسطنطين نفسه ، على الرغم من انه لم يكن معمدا . وقد أدان مجمع نيقية هذا أريوس . وبالتالى تقرر نفيه الى اليريا واعدام كتاباته وتحريم تداولها واضطهاد اتباعه من الأريوسيين (١) . ومع ذلك فقد ظلت الأريوسية قائمة فى الاجزاء الشرقية من الامبراطورية ، وعن هذا الطريق انتقلت الى الامم الجرمانية بواسطة المبشرين ورجال الدين (٢) .

ولعل بقاء المذهب الاريوسى قويا فى الشرق كان من العوامل التى ادت بالامبراطور قسطنطين الى تغير رايه ، فاستدعى أريوس من منفاه سنة ٣٢٧ . ونستطيع ان نعلل هذا التغيير الذى طرا على مسلك قسطنطين بما كان يعتزمه الامبراطور من نقل عاصمته الى القسطنطينية ، وهو الامر الذى تم فعلا سنة ٣٣٠ مما استلزم استرضاء اهالى الجزء الشرقى من الامبراطورية (٣) . وتؤكد هذه الخطوة من جانب قسطنطين الراى القائل بأنه كان على استعداد تام لتغيير ميوله المذهبية — بل الدينية — وفق ما تتطلبه مصالحه السياسية . ذلك أنه ظل يؤيد المذهب الأثناسيوسى طالما كانت عاصمته فى الغرب وطالما اعتمد على الغرب فى قوته ، ولكنه عندما شرع فى نقل عاصمته الى الشرق واحس بالحاجة الى استرضاء سكان القسم الشرقى من الإمبراطورية ، لم يجد غضاضة فى تغيير عقيدته أو ميوله نحو المذهب الاريوسى (٤) . وهكذا تم عقد مجمع دينى جديد فى صور سنة ٣٣٤ الغى قرارات مجمع نيقية السابق ، وقرر العفو عن أريوس وأتباعه ، وبذلك دارت الدوائر على أثناسيوس الذى عزل فى العام التالى ونفى الى تريف فى غاليا حيث ظل حتى أطلق سراحه الامبراطور جوليان (٣٦١ — ٣٦٣) ، الذى كان بحكم وثنيته لا يهتم بأمر الأريوسيين أو الأثناسيوسيين (٥) . على ان اريوس لم يلبث أن توفى فجأة

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 122-123.

(2) Stephenson. op. cit. p. 83.

(3) Bynes : op. cit. pp. 26-30.

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 70-71.

(5) Lot : op. cit. p. 45.

فى القسطنطينية سنة ٣٣٦ مما جعل اتباعه يهمسون بأنه مات مسموما ، فى حين هلل خصومه واعتبروا ذلك حكم الله العادل . ولم يلبث أن لحق بـه الامبراطور قسطنطين فتوفى هو الاخر سنة ٣٣٧ بعد أن تم تعميده على فراش الموت وفق مبادىء المذهب الأريوسى .

وكان قسطنطين قد قسم الامبراطورية قبل وفاته بين ابنائه الثلاثة ، فأخذ قسطنطين الثانى الغرب وأخذ قنسطنطيوس الشرق فى حين كانت اليريا والجزء الاوسط من شمال افريقية من نصيب قنسطانز (١) . وهنا نجد كل حاكم من هؤلاء الحكام الثلاثة يعمل على توطيد نفوذه عن طريق المذهب السائد فى بلاده ، فاتجه قنسطنطيوس نحو تشجيع الأريوسية ، فى حين داب اخواه على تأييد الأثناسيوسية ، مما جعل الخلاف المذهبى يتطور الى انقسام فى الكنيسة بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى (٢) . وعندما توفى قسطنطين الثانى اصبحت مهمة الزود عن العقيدة الاثناسيوسية تقع على عاتق البابوية ورجال الدين فى الغرب ، فصار عليهم أن يتكاتفوا لا سيما بعد مقتل قنسطانز وتوحيد الامبراطورية الرومانية تحت حكم قنسطنطيوس (٣٥٣ — ٣٦١) (٣) . ذلك أن الامبراطور قنسطنطيوس عرف بولائه للمذهب الأريوسى ولاء دفعه الى العمل على فرض هذا المذهب على اجزاء الامبراطورية الغربية ، مما جعل كفة الاريوسية ترجح فى الامبراطورية الرومانية عند وفاته سنة ٣٦١ . على أن هذا الرجحان كان مؤقتا ، اذ لم يلبث الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٩— ٣٩٥) أن أعلن نهائيا عدم شرعية المذهب الاريوسى فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ كما فرض عقوبات مشددة على اتباع المذهب الاريوسى فى جميع انحاء الامبراطورية (٤) .

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 40.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 84.

(3) Katz : op. cit. pp. 87-88.

(4) Bury : Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1 p. 349.

صحوة الوثنية :

اما عن موقف الوثنية المتداعية فى هـــذه الحقبة فقد راينا كيف ظل قنسطنطين الاول حتى وفاته سنة ٣٣٧ يتخذ موقفا وسطا بين المسيحية بمذهبيها من جهة والوثنية من جهة اخرى . ولكن حدث ان ابناء هذا الامبراطور خالفوا اباهم واختاروا عدم الاستقرار فى مجاملة الوثنية واهلها ، بل شنوا عليها موجة عنيفة من الاضطهاد ، فصادروا ما لمعابدها من اراض وممتلكات ، حتى اذا ما حلت سنة ٣٤٠ منع الأباطرة الثلاثة تقديم القرابين لآلهة الوثنية ، ثم أغلقت معابدها بعد ذلك بعدة سنوات (١) .

على أن الوثينة لم تستسلم فى سهولة مطلقة ، اذ ابت الا ان تصحو من جديد ، وذلك عندما تولى حكم الامبراطورية جوليان المرتد (٣٦١ — ٣٦٣) الذى كان متمسكا بأهداب الحضارة اليونانية الوثنية ، فتخلى عن المسيحية سرا قبل ان يتولى منصب الامبراطورية . ولم يكد يتولى هذا المنصب عقب وفاة الامبراطور قنسطنطيوس الثانى ســـنة ٣٦١ ، حتى أعلن ارتداده عن المسيحية ، واخذ يعمل على تخليص الوثنية من المحنة التى تعرضت لها نتيجة لطغيان المسيحية عليها ، ولذلك أمر بفتح معابد الوثنية التى أغلقت وفقـــا لمرســـوم قنسطنطيوس (٢) . ويبدو لنا من واقع الحقائق التاريخية أن الامبراطور جوليان لم يكن متعصبا ضد المسيحية ، وانما أراد فقط أن يرفع عن الوثنية وأهلها الحيف الذى انزله بهم أنصار الديانة الجديدة ، او بعبارة اخرى أراد جوليان ن يحقق نوعا من المساواة والتوازن بين المسيحية والوثنية وفقا للغرض الذى أملى أصدار مرسوم ميلان سنة ٣١٣ (٣) ويمكننا أن نحكم على جوليان حكما أكثر عـــدالة واتزانا اذا علمنا انه امتدح بعض المبادىء الكريمة التى نادت بها المسيحية مثل الاحسان والرحمة والعطف على الفقراء

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 85.

(2) Pury : op. cit. Vol. 1, p. 367.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 103.

والمرضى ، حتى انه كتب الى احد الكهنة الوثنيين يخبره فى صراحة تامة بأن الوثنية تفتقر الى مثل هذه الخلال الحميدة (١) .

على ان هذا الشعور لم يمنع الامبراطور جوليان من العمل على رفع شأن الوثنية حتى لا تبدو فى مستواها دون المسيحية ، فاعاد تنظيم رجال الدين الوثنيين وفق النظام المعمول به فى الكنيســـة ، وعنى بالمعابد الوثنية وزينتها حتى لا تبدو اقل جمالا من الكنائس (٢) . وفى الوقت نفسه منع جوليان رجال الكنيســـة من السفر مجانا على حســـاب الحكومة صحبة البريـــد الامبراطورى ، كما اخذ يستبعد المسيحيين تدريجيا من وظائف الجيش والادارة ليحل الوثنيون محلهم (٣) .

ولكن يبدو ان هذه الصحوة التى مرت بها الوثنية على عهد الامبراطور جوليان لم تكن الا صحوة الموت . اذ لم يلبث المسيحيون ان استردوا فى عهد جوفيان — الذى حكم مدة لا تتجاوز سبعة أشهر — مكانتهم وامتيازاتهم التى حرمهم منها جوليان . ثم جاء الامبراطور جراشيان (٣٧٥ — ٣٨٣) فتخلى عن لقب « الكاهن الأعظم » الذى تمسك به جميع الأباطرة السابقين ، بل ان هذا الامبراطور سرعان ما استأنف سنة ٣٨٢ سياسة مصادرة ممتلكات المعابد الوثنية (٤) . حقيقة أن هذه الاجراءات لا تعنى القضاء على الوثنية قضاء تاما مبرما ، اذ ظلت الوثنية قوية — وبصفة خاصة فى الغرب وروما — حيث استمرت تشيد لها المعابد حتى أواخر القرن الرابع . ولكن تشييد المعابد الوثنية فى هذه الفترة المتأخرة اصبح لا يتم على نفقة الحكومة كما كان الحال من قبل (٥) . ثم كانت بداية التطرف فى استخدام القوة والعنف ضد الوثنية

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 44.

(2) Duchesne : op. cit. Tome 2 pp. 326-332.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 90-92.

(٤) احتفظ جراشـــيان لنفســـه بحـكم الأجـــزاء الغربيـــة من الأمبراطورية — وبصفة خاصة اقليم غاليا — فى حين كان الجزء الشرقى من الامبراطورية تحـــت حكم عمه فالنز . وعندما لقى فالنز حتفه على أيدى القـــوط الغربيين فى موقعـــة أدرنة سنة ٣٧٨ ، انتقل حـــكم الجزء الشرقى من الامبراطورية الى جراشـــــيان الذى خشى بأس القـــوط فتنازل عن حـــكم الجزء الشرقى من الامبراطورية لثيودسيوس . وهـــذا هو السبب فى تداخـــل سنوات حـــكم جراشيان وفالنز وثيودسيوس .

(5) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 44-45.

واهلها على عهد الامبراطور ثيودسيوس الاول الذى نجح فى توحيد العالم الرومانى تحت حكمه سنة ٣٩٤ . وقد استمرت الحرب التى بدأها ثيودسيوس الأول ضد الوثنية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة هذا الامبراطور ، اقفلت فيها معابد الوثنيين وأعدمت كتبهم ومنعوا من مباشرة طقوسهم الدينية حتى داخل منازلهم ، بل أن الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ — ٤٠٨) أصدر مرسوما بتحطيم معابد الوثنية — لا اغلاقها فحسب — واستغلال احجارها وموادها فى اقامة منشآت عامة (١) . وعندئذ ادركت الوثنية قرب مصيرها المحتوم فلم تجد بدا من الفرار والالتجاء الى مناطق العزلة النائية فى ايطاليا وغاليا . وهكذا ظل الحال حتى القرن السادس عندما أقام القديس بندكت ديره الشهير سنة ٥٢٩ على انقاض آخر ما تبقى من معابد أبولو فى مونت كاسينو . وفى السنة السابقة نفسها اغلق جستنيان مدارس الفلسفة فى أثينا بوصفها ركنا من أركان الوثنية (٢) .

على أن انتصار المسيحية استلزم قيام تنظيم جديد للعلاقة بين الكنيسة من جهة والدولة والمجتمع من جهة أخرى . ذلك أن الامبراطورية الرومانية كان لها دين رسمى وكهنة يتمتعون بمساندة الحكومة وتأييدها . ولكن رجال الدين فى العصر الوثنى لم يحاولوا اطلاقا التدخل فى شئون السلطة الزمنية ، بعكس الكنيسة التى أخذت تكسب شيئا فشيئا صفة سلطة جديدة منافسة للسلطة العلمانية ، مما أوجد نفورا بين السلطتين الزمنية والروحية (٣) . وهنا نلاحظ أن تدخل الكنيسة فى شئون السلطة الزمنية أخذ يستفحل بازدياد ضعف الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، حتى انتهى الامر بأن حلت الكنيسة محل الامبراطورية عندما غربت شمس الأخيرة فى غرب أوربا . ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك انها حذت حذو الامبراطورية الرومانية فى تنظيماتها حتى أصبح الاساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الادارى فى اقاليم الامبراطورية فضلا عن نهوضهم بمهام التنظيم الكنسى (٤) .

---

(1) Bury : p. cit. Vol. 1 p. 371.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 113-114.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 46.

(4) Deanesly : A Hist. of Early Med. Europ, p. 165.

والواقع أن الاعتراف بالمسيحية دينا رسميا للامبراطورية كانت له نتائج بعيدة الاثر بالنسبة للكنيسة ونظمها . ذلك أن التنظيم الكنسى امتاز بالبساطة المطلقة فى العصر المسيحى الاول ، اذ لم يتعد الرابطة الدينية بين مجتمعات مسيحية مستقلة بعضها عن بعض ، لكل مجتمع منها أسقف يساعده فريق من القساوسة والشمامسة (١) . حقيقة أن بعض هؤلاء الاساقفة امتازوا عن زملائهم بحكم ما لكراسيهم من أهمية قديمة أو ثروة عظيمة أو مساحة واسعة ، ولكن مع ذلك لم توجد هيئة كنسية تمثل سلطة دينية ذات نفوذ فعال فى الحياة العامة . وقد ظهر على رأس الكنيسة عندئذ خمسة بطاركة فى روما والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، وهؤلاء يمكن تشبيههم بكبار الرؤساء الاداريين فى الامبراطورية الرومانية . وكان يتبع كل واحد من هؤلاء البطاركة مجموعة من رؤساء الاساقفة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدة أسقفيات ، ثم الاساقفة الذين يشرف كل منهم على شئون كرسيه الاسقفى ، وأخيرا يأتى قس الابرشية فى القرية . وهكذا ظهر كهنوتى متدرج يشبه الى حد كبير سلم الوظائف الادارية فى الامبراطورية الرومانية (٢) .

ثم كان ان أخذت الكنيسة المسيحية تحصل — بصفتها راعية الديانة الرسمية للدولة — على امتيازات خاصة من الحكومة الامبراطورية . وأهم هذه الامتيازات حق الحصول على الهبات والاعفاء من الضرائب فضلا عن قيام الاساقفة بالفصل فى المنازعات التى تنشأ بين المسيحيين (٣) . ولم يلبث ان ازداد نفوذ الاساقفة تدريجيا فى اقاليمهم بفضل مكانتهم الدينية من جهة وما جمعوه من صدقات وهبات من جهة أخرى ، لا سيما وان الصدقات التى جاد بها الخيرون كان يتم توزيعها على الفقراء والمحتاجين عن طريق الاسقف نفسه ، مما أوجد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين (٤) . وهكذا أخذت تزداد ثروة الكنيسة ، حتى امتلكت الاراضى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 143.

(2) Idem, Vol. 1 p. 147.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 65.

(٤) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٤٣ .

والضياع الواسعة التى قام العبيد والاقنان بفلاحتها ، هذا فضلا عن الهبات التى أغدقها الاباطرة بسخاء من جهة ، والتبرعات التى قدمها الاهالى عن طيب خاطر من جهة أخرى (١) .

ولكن يلاحظ أنه اذا كان هذا التطور الذى مرت به الكنيسة فى القرن الرابع امتاز بعمقه وسرعته ، حتى أدى الى تحويلها من منظمة بسيطة ديمقراطية الى هيئة وراثية ذات ادارة بيروقراطية مركزة ، الا ان الكنيسة دفعت ثمنا باهظا مقابل ما أحرزته من عظمة ، كلفتها التخلى عن سياسة التسامح من جهة ، وانتشار الفساد — من رشوة وسرقة ومحاباة — فى جهازها من جهة أخرى . ذلك أن النعمة الكبيرة التى أصبحت فيها الكنيسة أدت الى اتساع الفجوة بين رجالها وجمهور المسيحيين . وبعبارة أخرى فان ازدياد ثروة رجال الدين أدى الى اختفاء روح الاخوة والبساطة والمساواة — وهى الروح التى ميزت الكنيسة فى عصرها الاول ، وحلت محلها مسحة من القسوة والتعالى والتباعد — هى النتيجة الطبيعية للغنى المفرط المفاجىء . وهكذا أخذ الاساقفة يتباعدون شيئا فشيئا عن رعاياهم ، وصار الواحد منهم يجلس على عرشه الأسقفى كما كان يفعل الحاكم الرومانى من قبل . ولم يلبث أن تضاءل قصر حاكم الولاية أمام القصر الأسقفى بعد أن تشبه الأساقفة بالامراء وأحاطوا أنفسهم بالحشم والاتباع والموظفين (٢) .

على أن القرن الرابع لم يشهد قيام التنظيم الكهنوتى للكنيسة وازدياد نفوذها السياسى فحسب ، بل شهدا أيضا تطور اللاهوت المسيحى وتقدمه . ذلك أن المسيح وضع للناس أسلوبا جديدا للحياة ، ولكنه لم يقم بأية محاولة لوضع لاهوت علمى منظم . وطالما كان أتباعه ورسله يقومون بتقديم مواعظهم ونشر دعوتهم بين أناس غير مثقفين فان الحاجة لم تكن ماسة لمثل هذا اللاهوت ، لانه كان يكفى هؤلاء البسطاء أن يستمعوا الى قصة المسيح

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 561.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 49.

وحياته ليتفهموا أسلوب المسيحية فى الحياة . ولكن انتشار المسيحية بين المثقفين — الذين ألفوا التفكير الكلاسيكى ومرنوا طوق الجدل وأساليب المنطق والفلسفة — أدى الى تطور جديد فى الدراسات اللاهوتية (١) . ذلك أن هؤلاء المتعلمين أخذوا يتساءلون عن العلاقة بين الله والمسيح ويحاولون تحديد هذه العلاقة ، كما استفسروا عن طبيعة الملائكة وعن المقصود بأن الخبز والنبيذ تحولا الى لحم المسيح ودمه . وسرعان ما أصبحت هذه المسائل تحتل جانبا كبيرا من تفكير المسيحيين عندما غدت المسيحية دينا رسميا للدولة ، مما استلزم وضع دراسات لاهوتية يقنع بها المثقفون من معتنقى الديانة الجديدة . وقد قام بهذه المهمة مجموعة من كبار مفكرى المسيحية الذين يطلق عليهم عادة لقب آباء الكنيسة ، وأهمهم القديس كلمنت السكندرى فى القرن الثالث ، وأوريجن (١٨٥ — ٢٥٤) وجيروم (٣٣١ — ٤٢٠ تقريبا) وأمبروز (٣٤٠ — ٣٩٧) وأوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) . وكان هؤلاء الآباء على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية — لاسيما آراء الافلاطونية الحديثة — فأفادوا منها فى تبرير آرائهم والتدليل عليها وتقديم العقائد المسيحية فى صورة علمية يتقبلها المثقفون . هذا الى أن هؤلاء الاباء عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية من جهة ومطالب الدولة والكنيسة فى عهدها الجديد من جهة أخرى (٢) .

نشأة البابوية :

على أن التيار الذى انساقت فيه الكنيسة ، ومحاكاتها لنظم الحكومة الامبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها كما كان للامبراطورية امبراطور يتزعمها .. وهنا نلاحظ فارقا واضحا بين الشرق والغرب ، ففى الشرق أسلمت الكنيسة زمامها للأباطرة الذين ازداد تدخلهم فى الشئون الكنسية وبخاصة فيما بين القرنين السادس والثامن بحيث أنشئوا يتدخلون لا فى سياسة الكنيسة الخارجية فحسب بل فى نظمها وسياستها الداخلية

(1) Duchesne : op. cit. Tome III; p. 18.

(2) Painter : op. cit. p. 15.

أيضا . وهكذا أصبح من العسير وقف تدخل الامبراطور البيزنطى فى شئون الكنيسة الشرقية ، حتى غدا امبراطور القسطنطينية يمثل نوعا من القيصرية البابوية Caesaro Papism أى الجمع بين السلطتين السياسية والدينية . ومن الواضح أن هذه السياسة وضع أسسها قنسطنطين نفسه منذ اعترافه بالمسيحية وأنشائه القسطنطينية . هذا الى أنه أستن سنة جديدة اتبعها خلفاؤه من الاباطرة الشرقيين ، هى قيام الامبراطورية بدعوة المجامع الدينية العامة لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والعقيدة المسيحية (١) . أما فى الغرب فان الوضع اختلف عن ذلك كثيرا لان الامبراطورية الغربيـــة أصبحت بعد تقسيم العالم الرومانى ضعيفة لا تستطيع أن تفرض سيطرتها على الكنيسة والدولة جميعا كما حدث فى الشرق (٢) . وسرعان ما وجدت الكنيسة المغربية ضالتها فى شخص أسقف روما الذى تحول كرسيه الى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة فى مختلف بلدان العالم الغربى .

وليس من العسير علينا أن نكشف العوامل التى هيأت لاسقف روما هذه الاهمية والزعامة على غيرها من أسقفيات الغرب . ذلك أنه من المعروف أن أهمية الاسقف تتناسب عادة والاهمية السياسية والاقتصادية للمدينة التى يقوم فيها كرسيه الاسقفى . واذا كان الشرق الرومانى غنيا بمدنه الهامة التى صارت مراكز لكراسى دينية كبرى مثل الاسكندرية وبيت المقدس وقيصرية وأنطاكية والقسطنطينية ، فان الغرب لم يوجد فى هذه المرحلة الاولى من تاريخ المسيحية سوى روما وقرطاجة . ومهما يبلغ أمر هذه الاخيرة ، فانها كانت لا يمكن أن ترقى الى مكانة روما ذات الماضى العريق والشهرة الواســعة والصيت الذائع (٣) لهذا ليس من الغريب أن يتمتع أسقف روما بمكانة خاصة مستمدة من أهمية مدينته ، حتى استغل أساقفة روما هذه الاهمية والمكانة فى تحقيق نوع من السمو أو الزعامة على بقية أسقفيات الغرب . هذا مع ملاحظة أن أساقفة روما لم يتمكنوا من تحقيق هذه السيادة فى سهولة ، اذ تعرضوا

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 63.
(2) Lot : op. cit. p. 53.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 169-173.

لكثير من ألوان المعارضة والمقاومة من بقية أساقفة الغرب لاسيما أساقفة قرطاجة (١) .

أما اذا انتقلنا الى التنافس بين روما والقسطنطينية حول الزعامة الدينية على العالم المسيحى ، فان القسطنطينية اعتمدت على أنها مركز الأباطرة ومحل اقامتهم ، وبالتالى يحق لبطركها أن تكون له الزعامة الدينية على العالم المسيحى ، كما كان لامبراطورها الزعامة السياسية . ولكن هذا الرأى صادف معارضة من القائلين بأن تراث المسيحية انتقل عن طريق الرسل والحواريين وظل محفوظا فى الكنائس التى أسسوها ، وبخاصة فى أنطاكية (٢) والاسكندرية وروما (٣) . وهنا تبدو القسطنطينية مفتقرة الى مثل هذا التشريف ، لان أحدا من الرسل لم يشرفها بالذهاب الى موضعها أو الاستشهاد قربها أو تأسيس كنيسة فى منطقتها ، لان القسطنطينية نفسها لم تؤسس الا فى القرن الرابع (٤) . أما روما فيكفيها فخرا أنها ارتبطت ارتباطا أبديا بذكرى القديس بطرس الذى اتخذ منه المسيح صخرة بنى عليها كنيسته ، فضلا عن أنه أعطاه مفاتيح ملكوت السموات (٥) . واذا كان بطرس — بحكم هذا التشريف — يعتبر زعيم الحواريين ومقدم الرسل ، فان خلفاءه — أساقفة روما — أحق الناس بأن يرثوا زعامة العالم المسيحى (٦) .

على أن تذرع أساقفة روما بهذه الحجج والاسانيد شىء ، ومحاولة

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 51-52.

(٢) ترتبط أنطاكية ارتباطا وثيقا بتاريخ المسيحية فى أدواره الأولى وكانت أول بلد أطلق فيه اسم المسيحيين على تلاميذ المسيح « ودعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولا » (سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦) .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 171.

(4) Deanesly : op. cit. 169.

(٥) انجيل متى : الاضحاح السادس عشر (١٨ - ١٩) . والمعروف أن القديس بطرس اسمه الأصلى سمعان « استدع سمعان الملقب بطرس » سفر أعمال الرسل اصحاح ١١ (١٣) ، وأن المسيح هو الذى أطلق عليه بطرس Petrus بمعنى صخرة (وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى) انجيل متى - الاصحاح السادس عشر ١٨ — ١٩ .

(6) Stephensen : op. cit. p. 84.

فرض سيطرتها على العالم المسيحى شىء آخر . والواقع أننا لا نعرف عن أساقفة روما فى القرنين الاول والثانى أكثر من أسمائهم . ولم يكن ذلك الا بعد عهد قسطنطين عندما أخذت المراجع تشير الى بعض البابوات (١) الذين لعبوا دورا فعالا فى توجيه سياسة الكنيسة . ومن هؤلاء البابا داماسوس الاول (Damasus) (٣٦٦ — ٣٨٤) الذى كتب مؤلفا استعرض فيه مكانة كرسى روما الاسقفى وأكد سيادة البابوية وسموها (٢) . كذلك عهد هذا البابا الى جيروم بترجمة الانجيل الى اللاتينية . أما خليفة البابا سيركيوس (Siricius) ٣٨٤ — ٣٩٩ ، فترجع اليه أولى المراسيم البابوية التى وصلتنا ، كما بقيت من عهده بعض خطابات رسمية تناولت مسائل معروضة على أسقف روما للبت فيها . وبعد ذلك اشـــتهر البابا ليو الاول أو العظيم (٤٤٠ — ٤٦١) الذى تم فى عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية فى الغرب .

وفى هذه الاثناء كان الشرق البيزنطى مصرا على عناده ، فاستمر الأباطرة يدعون المجامع الدينية للنظر فى المسائل الدينية المعلقة ، كما أخذوا يساندون مبدأ المساواة المطلقة بين روما والقسطنطينية من حيث المركز الدينى . وقد حاول زعماء الكنيسة الشرقية فى مجمع خلقدونيا ٤٥١ تأكيد هذه المساواة فى المكانة والامتيازات بين كرسى روما وكرسى القسطنطينية ، ولكن مندوب البابا ليو الاول عارض هذا المبدأ واستشهد ببعض قرارات مجمع نيقية على أسبقية كرسى روما (٣) . وهكذا تمسك بابوات روما دائما بفكرة أنهم خلفاء القديس بطرس حتى اعترف بزعامتهم جميع أســقفيات الغرب فى القـــرن الخامس ولم تعارضه سوى الكنيسة الشرقية . وفى ســـنة ٤٥٥ أصدر الامبراطور فالنشيان الثالث امبراطور الغرب مرسوما يقضى بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا (٤) . وهنا نشير الى وجود عوامل أخرى ثانوية ساعدت

---

(١) من الواضح أن لفظ بابا Pope انما هو تحريف للفـظ اللاتينى Papa بمعنى أب ويمكن اطلاق هـذا اللفـظ على أى فـرد من رجـال الكنيسة ، ولـكن العرف جـــرى فى الغرب على أن يختص به أسقف روما وحـده مـــن باب التشريف .

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 171-173.

(2) Idem : Vol. 1 pp. 510-511.

(4) Duchesne : op. cit. pp. 631-632.

على تحقيق سيادة البابوية ، منها ازدياد الالتجاء الى أساقفة روما لاستئناف الاحكام القضائية التى اصدرتها المجامع الاقليمية أو صغار الاساقفة ، مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحكم الاكبر والسيد الاعلى (١). ومن هذه العوامل أيضا عظم ثروة أسقفية روما وتعاقب عدد من ذوى الشخصيات القوية على كرسيها الاسقفى مثل ليو الاول وجريجورى الاول ، هذا فضلا عن أن سقوط الامبراطورية فى الغرب سنة ٤٧٦ ترك البابا وحيدا لا ينافسه سيد سياسى فى الغرب ، فى الوقت الذى كان بعيدا عن سلطان امبراطور القسطنطينية ونفوذه فى الشرق .

وهكذا سارت الامور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية فى صورة عملية عالمية على عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) الذى دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها ، وذلك ، بوصفه خليفة للقديس بطرس (٢) . أما الشرق فقد ظل على عناده مستقلا بامبراطوريته وكنيسته عن الغرب . وهنا نلاحظ أن الخلاف حول تفسير بعض المسائل الدينية كان دائما من العوامل التى زادت من اتساع الفجوة بين الكنيستين الشرقية والغربية . ومن امثلة ذلك الخلاف الذى قام حول تفسير طبيعة المسيح ، اذ أدان مجمع افسوس سنة ٤٣١ الرأى القائل بفصل طبيعة المسيح الالهية عن طبيعته البشرية (٣) . ومنذ ذلك الوقت ظهرت جماعة من رجال الكنيسة يتزعمهم أقطاب الكنيسة المصرية ، تمسكوا بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح ومن ثم أطلق على هذا المذهب « الطبيعة الواحدة Monophysite» . وعلى الرغم من أن مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ أدان مذهب الطبيعة الواحدة وأخذ برأى البابا ليو الأول بأن للمسيح طبيعتين فهو اله من طبيعة أبيه وبشر من طبيعة أمه — وهو المذهب الملكانى — الا أن هذه المشكلة استمرت قائمة لتمثيل سببا جديدا للخلاف الدينى والتباعد بين الشرق والغرب (٤) .

---

(1) Thompson : op. cit. pp. Vol. p. 54.
(2) Deanesly : op. cit. pp. 177-184.
(3) Duchesne : op. cit. pp. 459-463.
(4) Bury : op. cit. Vol. 1, pp. 357-358.

البـاب الرابع

البرابرة وسقوط الامبراطورية فى الغرب

رأينا كيف أخذت الظواهر تدل منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع على أن أوجه التاريخ القديم بدأ يتعرض لكثير من المسخ والتغيير . ذلك أن اعتراف قسطنطين بالمسيحية يعتبر خطوة خطيرة ، بل أنه الحقيقة التاريخية فى تاريخ عالم البحر المتوسط فى الفترة الواقعة بين ظهور رومـا وتحقيق زعامتها من جهة وبين ظهور الاسلام وانتشاره من جهة أخرى (١) . ويكفى أن هذا الاعتراف وما تبعه من انتشار المسيحية انتشارا آمنا سريعا يدل على أن دعامة كبرى من الدعائم التى قامت عليها الامبراطورية الرومانية أخذت تترنح لتنهار أمام عقيدة جديدة ومبادىء جديدة وآراء جديدة ، تستهدف جميعها تنظيم العلاقات بين الله والبشر ، وبين الحكام ورعاياهم ، وبين الناس بعضهم وبعض ، على أسس تختلف كلية عما عرفه العالم القديم .
أما نقل عاصمة الامبراطورية الرومانية من روما الى القسطنطينية فكان لا يقل أثرا فى مسخ وجه العالم القديم ، اذ أحس المعاصرون بأن القديم المألوف أخذ يتداعى ليدخل العالم المحيط بهم فى طور جديد تختلف مظاهره عما اعتاده الناس من قبل (٢) . ذلك أن الناس تلفتوا حولهم ليجدوا رومـا — وهى المدينة الخالدة الجبارة مهد الاباطرة العظام والتى سادت الشرق والغرب حتى أصبحت شعارا للمدينة والحضارة وصـار كل ما عداها رمـزا للبربرية والتأخر — هذه المدينة أصبحت فجأة مهددة بالذبول بعد أن هجرها الاباطرة وتركوها تنعى من بناها وتأسف على مجدها السالف ، فى حين أقام الاباطرة على شاطىء البسفور حيث بنوا القسطنطينية ليجعلوا منها روما جديدة ترث

---

(1) Lot : op. cit. p. 39.

(2) Katz : op. cit. pp. 50-51.

روما القديمة فى مجدها وعظمتها (١) . ويرتبط بهذه الاحداث ما اتصفت به حكومة الامبراطور قسطنطين من طابع وراثى بحيث أصبحت الامبراطورية فى هذا العهد الجديد تعتمد على حق الوراثة فضلا عن تأييد الله ورجال الكنيسة . كذلك شهدت هذه المرحلة بعينها اندثارة فكرة أساسية طالما ميزت الحضارة اليونانية — الرومانية ، هى فكرة المواطنة ، اذ لم يعد هناك مجال فى العصر الذى أعقب قسطنطين للمواطنين الذين أكتظت بهم المدن الحرة فى العالمين اليونانى والرومانى ، وحلت محل ذلك فكرة الرعوية بمعنى أن جميع رعايا الامبراطور أصبحوا متساوين فى تبعيتهم له (٢) .

هذه الظواهر وغيرها من التيارات والاحداث التى أخذت تبدو على مسرح العالم الرومانى فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، تجعلنا نعتقد أن أوربا كانت تمر عندئذ بمرحلة انتقال كبرى ، تحملها من العصور القديمة الى العصور الوسطى . ولعل هذا التطور هو الذى دفع مؤرخا مثل بيورى الى القول بأن حكم قسطنطين العظيم بالذات يمثل بداية عهد جديد ، بالضبط كما هو الحال بالنسبة لحكم أوغسطس مؤسس الامبراطورية (٣) . والمعروف أن العصور الوسطى استمدت حضارتها وكيانها من ثلاثة أصول ضخمة : أولها التراث الكلاسيكى بوجه عام والرومانى بوجه خاص ، وثانيها المسيحية وكنيستها وثالثها الجرمان (٤) . أما هؤلاء الجرمان فكانوا جزءا من العالم البربرى الواسع الذى أحاط بالامبراطورية الرومانية من معظم نواحيها ، والذين لم يلبثوا أن أثروا فى تغيير مصائر هذه الامبراطورية عندما أخـذوا يهاجمونها منذ منتصف القرن الثانى . والواقع أنه كان من الممكن أن تعيش الامبراطورية الرومانية فى الغرب عمرا أطول وأن تموت موتا أبطأ رغم الانحلال الاقتصادى والاجتماعى والسياسى التى تعرضت له ، لولا هجمات البرابرة

---

(1) Charlesworth : op. cit. pp. 180-181.
(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. p. 11, p. 333.
(3) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 1.
(4) Thompson : op. cit. 1, p. 56.

التى أسرعت بالامبراطورية نحو مصيرها المحتوم (١) .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن لفظ « بربرية » بالمعنى الذى نستعمله لا يرادف لفظ « همجية »أو لفظ « وحشية » بأى حال ، لأن المقصود بالبربرية مرحلة من التنظيم الاجتماعى القبلى ، الذى لم يرق بعد الى مرحلة الاستقرار المدنى واقامة الدول ذات الحدود الثابتة . فالمجتمع البربرى يعتمد على أساس رابطة الدم أكثر من اعتماده على رابطة المواطنة بين أفراده ، ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نتهم الشعوب البربرية التى أحاطت بالدولة الرومانية بأنها عاشت سلبية مفتقرة الى أسس ودعائم حضارية ، لأن هذه العناصر تمتعت فى الواقع بتقاليد حضارية خاصة تزداد أمامنا كلما ازداد البحث فى أصول هذه العناصر التى تمتد الى ما قبل التاريخ (٢) .

أما هذه الشعوب التى أحاطت بالعالم الرومانى فكانت كثيرة ومتباينة ، ففى الجنوب كان البربر فى غرب افريقية ، وفى الجنوب الشرقى كان العرب ، وفى الشرق وجد الفرس ، وفى الشمال الشرقى — بين جبال أورال والطاى — ربضت شعوب آسيوية رعوية مثل السكيثيين Scythians والسارماشيين Sarmatians والهون والبلغار والآفار والمجريين والمغول والاتراك ، والى الغرب من هذه الشعوب — أى داخل الحدود الأوربية — وجد السلاف والجرمان والكلت .

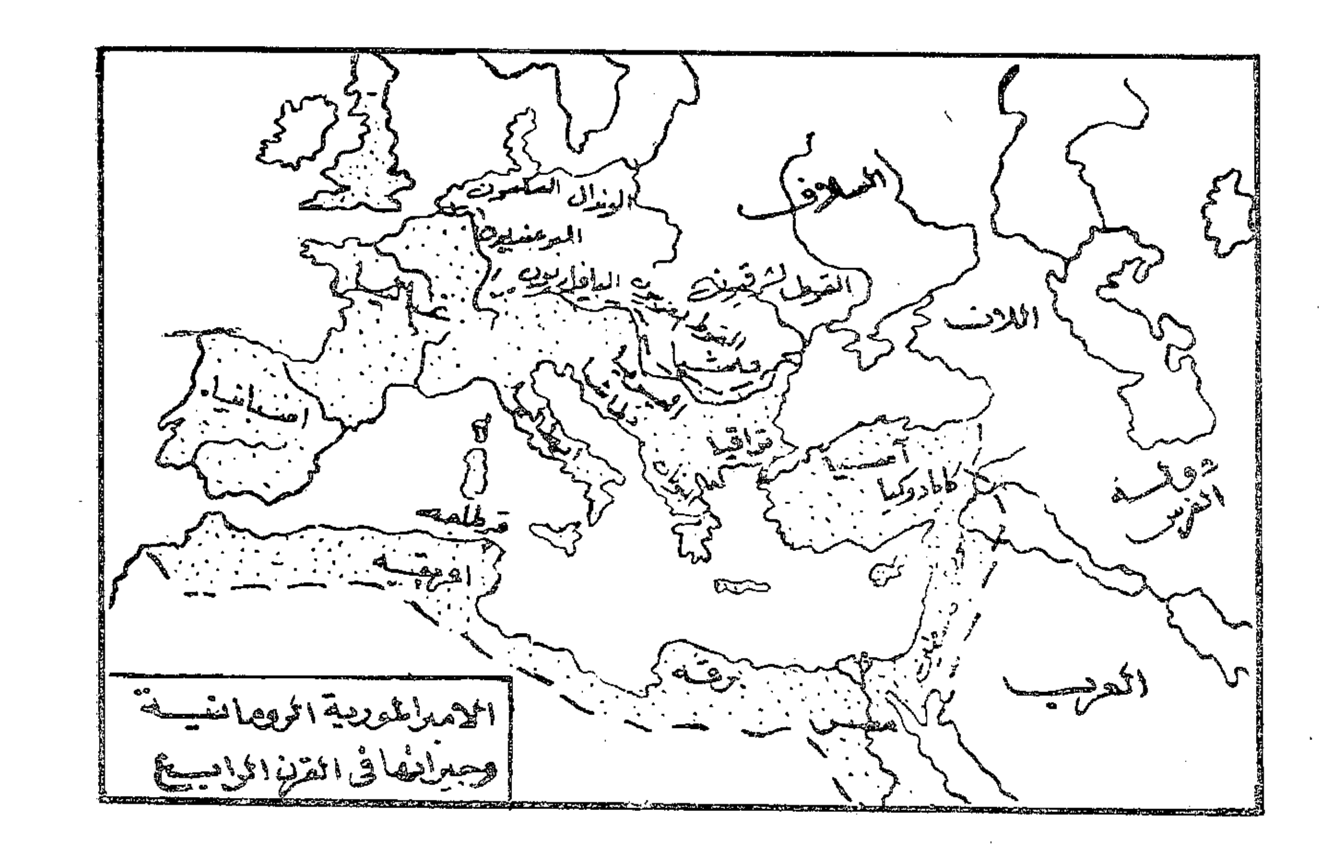
أما مجموعة الشعوب الآسيوية الرعوية ، فكانت فى أول الأمر تبدو بعيدا جدا عن حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ ظلت تعيش فى سهول آسيا معتمدة على قطعان الخيل والماشية ، وتنتقل وراءها من مرعى الى آخر تبعا لظروف الأمطار والمناخ (٣) . على أن قسوة هذه الظروف اضطرت بعض

---

(1) Lot : op. cit. p. 187.

(2) Dawson : The Making of Europe, p. 68.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 323-330.



الامبراطورية الرومانية
وجيرانها في القرن الرابع

الشعوب الآسيوية الى القيام باغارات مدمرة للسلب والنهب . ولم تك أوربا بمنجاة من هذه الاغارات ، لان السهول الواقعة شمال بحر قزوين فتحت بابا أمام القبائل الرعوية الآسيوية — وبخاصة قبائل الهول — نفذت منه الى أوربا ، وبالتالى أثارت جوا من الرعب والفزع بين الشعوب الرابضة على حدود الامبراطورية الرومانية (١) .

وكانت أولى ضحايا هذه العناصر الاسيوية الرعوية — وبخاصة الهون — هم السلاف الذين استقروا فى المناطق المعروفة الان بأواسط روسيا . ويبدو أن هؤلاء السلاف تعرضوا لكثير من المتاعب فى أوائل العصور الوسطى بسبب ضغط بقية العناصر الاسيوية عليهم من الجنوب والشرق وضغط العناصر الجرمانية عليهم من الشمال ، مما عرض كثيرين منهم للاستعباد ، حتى أشتقت كلمة عبد فى كثير من اللغات الاوربية Slave من اسم السلاف . ومع ذلك فقد عكف السلاف على فلاحة الارض وأخذوا ينتشرون تدريجيا فى الاجزاء الشرقية من أوربا حتى حولوها الى كتلة سلافية (٢) .

أما الكلت Celts — وهم الذين عرفهم الرومان باسم الغاليين Gauls فكانوا يحتلون فى أول الامر الغابات الواقعة فى شمال أوربا حتى نهر الالب شرقا ثم قاموا بعد ذلك بحركة توسعية ضخمة هددوا فيها جمهورية روما الناشئة بالزوال ، اذ تدفقوا عبر جبال الالب فى ايطاليا وعبر نهر الراين فى الاراضى التى عرفت بعد ذلك باسمهم (غاليا) ، كما غزوا الجزر البريطانية ، وبذلك أصبح الكلت فى القرون الخمسة السابقة للميلاد يحكمون بلادا واسعة امتدت من جوف ألمانيا حتى البلقان والمحيط الاطلسى (٣) . وفى الوقت الذى غزا قيصر غاليا كان الجرمان قد طردوا الكلت من الجهات الواقعة شرقى الراين ، ولم يحل دون غزو الجرمان لغاليا عندئذ سوى فتح الرومان

(1) Stephenson : op. cit. p. 59 & Deanesly, op. cit. p. 22.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 349-355.

(3) Idem; Vol. 1, pp. 186-187.

لها . ثم كان أن فتح الرومان بريطانيا فى القرن الاول الميلادى ، وبذلك لم يبق للكلت مأوى مستقل سوى أيرلندا (١) .

الجرمـــــان :

والواقع أن الجرمان أو التيتون كانوا أقرب عناصر البرابرة الى حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ انتشروا فى القرنين الاول والثانى فى أواسط أوربا وشرقيها عبر نهرى الراين والدانوب . أما الموطن الاول للعناصر الجرمانية فكان البلاد المحيطة بالبحر البلطى (٢) . ومن هناك أخذوا يتحركون جنوبا ليحلوا محل الكلت حتى استقروا فى المناطق الواقعة بين نهرى الالب والراين ، حيث حالت استحكامات الامبراطورية الرومانية دون تقدمهم بعد ذلك (٣) . ويمكن الوقوف على كثير من أحوال الجرمان فى هذه المرحلة المبكـــرة من تاريخهم بالرجوع الى كتابات قيصر وتاكيتوس Tacitus ، ومنها يتضح أنهم احتفظوا بكثير من التقاليد والنظم التى كانت تتعارض الى حد كبير مع ما الفته العقلية الرومانية (٤) . ذلك أن الجرمان توخوا الناحية الفردية فى كل شىء ، فالفرد هو محور الحياة ، وعلى أساس قوته الشخصية وسطوته كانت أهميته ونفوذه . واذا كان الجرمانى قد تمسك بطاعة زعيمه فان هذا الشعور بالطاعة انبثق عن احساس باطنى لا تنفيذ لامر أو قانون . أما أخلاق الجرمان الاوائل فكانت مزيجا من الفضائل والنقائص التى عرفت بها الشـــعوب البدائية (٥) . ذلك أنهم جمعوا بين الشجاعة والقسوة وبين الكرم وعدم مراعاة أصول الجيرة ، هذا فضلا عما عرفوا به من احترام للعهد وترابط بين أفراد الاسرة الواحدة ورعاية للمراة ، وهى الصفات التى ظلوا عليها

---

(1) Painter : op. cit. p. 19
(2) Deanesly : op. cit. p. 25.
(3) Hubert : Les Germains. pp. 16-17.
(4) Painter : op. cit. pp. 20-21. &
ابراهيم طرخان : تاكيتوس والشعوب الجرمانية .
(5) Katz : op. cit. pp. 100-101.

والتى لم يفسدها سوى اختلاطهم بالرومان وتأثرهم بهم (١) . كذلك أولع الجرمان بالمسير والمقامرة حتى بلغ الأمر بالشخص الذى يفقد ماله أن يقامر على حريته . وكان أهم ما امتدحه تاكيتوس فى الجرمان هو كرمهم المطلق ومراعاتهم الشديدة لرباط الزوجية المقدس (٢) . والمرجح أن القاعدة السائدة بينهم هى أن يكتفى الزوج بزوجة واحدة ، وان كان بعض النبلاء قد خرجوا عن هذا المبدأ بعد أن ازدادت ثروتهم . أما ديانة الجرمان فكانت خليطا من الأساطير وعبادة القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والرعد وغيرها ، ولكنهم لم يقيموا معابد أو تماثيل لآلهتهم ، كما أن الكهنة لم يؤلفوا طبقة خاصة ممتازة فى مجتمعهم (٣) .

وكانت الأسرة تمثل وحدة النظام الجرمانى فى أول الأمر ، بحيث تمتع الأب بسلطة مطلقة على زوجته وأولاده بلغت حقه فى سلبهم الحرية . ومن مجموعة الأسر التى تربطها قرابة الدم تألفت العشيرة ، ثم تكونت الدولة أخيرا من مجموعة عشائر (٤) . ولم يتمتع بحق ملكية الارض سوى الأحرار والنبلاء فقط ، فى حين كان جميع أفراد الأسرة مسئولين مسئولية مشتركة عما يرتكبه أحد أفرادها من جرائم . وفى حالة القتل كان لابد لأهل القتيل من الأخذ بثأره الا اذا دفع القاتل أو أهله فدية مرضية .

وقد انقسم الجرمان من حيث البناء الاجتماعى الى ثلاث طبقات : النبلاء والأحرار والعبيد (٥) . وكان النبلاء يكونون الطبقة المحاربة التى تمتعت بنوع خاص من التشريف ، فلا يشتغل أفرادها بالفلاحة وانما يقضون وقت السلم فى الأكل والنوم والصيد والتسكع ، فى حين تقع بقية أعباء المجتمع —وأهمها الفلاحة وأعمال المنزل — على غير المحاربين من النساء والأولاد

(1) Lavisse : Hist. de France; Tome II, Première Partie, p. 46.

(2) Tacitus : Germania, p. 11.

(3) Thompson : op. cit. Vol. I, p. 63.

(4) Eyre : European Civilisation. Vol. III, p. 13.

(5) Lavisse, op. cit. pp. 48-49.

والعبيد . ولم يقم هؤلاء العبيد بدور هام فى الخدمة المنزلية — مثل عبيد الرومان — وانما اقتصر عملهم على الزراعة حيث وزعت عليهم حصصا من الارض يدفعون جزءا من غلتها فى نهاية الموسم (١) . أما الأحرار — من غير النبلاء — فلم يكونوا أحسن حالا بكثير من العبيد (٢) . وهنا نلاحظ أمرين : أولهما أن الحرية وملكية الارض كانا أمرين متلازمين سارا جنبا الى جنب فى المجتمع الجرمانى ، وثانيهما أن النبالة ارتبطت بشرف المولد والوراثة لا بملكية الارض . ولم يعرف الجرمان حياة المدن فى عصورهم الأولى . وانما عاشوا فى قرى متناثرة وسط الأضحال والغابات ، فى حين كانت منازلهم عبارة عن أكواخ مشيدة من الأغصان والطمى (٣) . واعتاد الجرمان أن يرتدوا ملابس بسيطة من جلود الحيوانات ويطلقون شعر رؤوسهم ولحاهم ، وربما ربط الرجال شعرهم على هيئة ضفائر معقودة فوق رؤوسهم . أما طعامهم فكان بسيطا يتألف من اللبن والفاكهة ولحوم الصيد والحبوب (٤) . ولم يعرف الجرمان النبيذ الا عندما استقروا على الحدود الرومانية ، أما شرابهم الأساسى فكانوا يصنعونه من الحنطة أو الشعير ، أى انه كان أقرب الى الجعة منه الى النبيذ . وكان لكل قرية جمعية أو مجلس moot يتكون من رجالها الأحرار ، فى حين أن القرى لم تك فى عزلة عن بعضها البعض ، وانما وجد اتصال دائم بينها عن طريق الأنهار أو الممرات التى تتخلل الغابات (٥) . والمعروف أن الثروة عند الجرمان قومت بالخيل والماشية وغيرها من الحيوانات الأليفة النافعة . حقيقة أن الجرمان عرفوا النقود الرومانية كما عرفوا الاوانى الذهبية والفضية ، ولكن الحيوانات السابقة حلت عندهم محل النقود فى التبادل والمعاملة (٦) .

(1) Tacitus : Germania; p. 15.

(2) Stephenson : op. cit. p. 61.

(3) Katz : op. p. 99 & Tacitus : Germania; p. 10.

(4) Tacitus : Germania, p. 11.

(5) Thompson, op. cit. Vol. I, p. 64.

(٦) ابراهيم طرخان : تاكيتوس ص ٥١ .

أما التنظيم السياسى فكان بسيطا ، وحدته القرية أو المارك Mark ، ومن بعدها تأتى المائة hundred وهى وحدة عسكرية تكبر القرية (١) ، ثم تأتى المقاطعة أو المديرية (Gau) وتتألف من عدة مئات ، ومن مجموع المقاطعات تتألف الدولة القبلية التى أطلق عليها فيما بعد مملكة أورايخ Reich عندما تقدم النظام الملكى بين الجرمان (٢) . وكانت للدولة الجرمانية جمعية عمومية تضم جميع أفرادها المحاربين ولا تنعقد الا فى حالة الحرب أو الهجرة . كذلك وجدت جمعيات أو مجالس للمقاطعة وللمائة على مقياس أصغر ، تتألف من النبلاء والاحرار ولكنها تجتمع فى وقت السلم أيضا لبحث المسائل المدنية . وعلى رأس كل أمة من الامم الجرمانية وجد بعض الرؤســاء أو القــادة Principes الذين لم يكونوا ملوكا أو نبلاء ، وانما كانوا زعماء منتخبين اختارهم شعبهم لما تحلوا به من صفات تؤهلهم للزعامة وأهمها الشجاعة . وفى وقت الحرب كان يتولى القيادة قائد معروف بالشجاعة والاقــدام ، فيتمتع بسلطات استثنائية واسعة تنتهى بانتهاء الحرب (٣) على أنه لما كانت الحروب طويلة وشبه مستمرة ، فان هذا القائد أصبح يتكرر انتخابه حينا بعد آخر . ثم تطور الامر فصار يختار ابنه بعد وفاته ، مما أدى تدريجيا الى قيام نظام ملكى وراثى فى الدول والجماعات الجرمانية (٤) . على أن ملوك الجرمان لم يكونوا فى هذه المرحلة المبكرة أكثر من قادة حربيين ، دون أن يتمتعوا بسلطة مطلقة فى التشريع أو فرض العقوبات ، وهى المسائل التى حددتها التقاليد السائدة بين الجرمان والعرف المتوارث دون أن يمتلك فرد أو زعيم حق تغيير الاوضاع المألوفة (٥) . واذا كان بعض المؤرخين يميلون

---

(١) يرجع اصطلاح المائة الى الجرمان الأوائل الذين انتشروا فى شـمال أوربا ووسطها • ويرجح أن هذا الاصطلاح كان يعنى عندئذ جماعة من المحاربين عـددهم مائة فرد • وكما أن أفراد هذه الوحدة حاربوا سويا فكذلك اختاروا عند الاستقرار أن يجتمعوا سويا • ومن هنا أطلق هذا الاصطلاح على الوحدة السياسية التى تتوسط القرية والمقاطعة •

(Karsten : Les Anciens Germains, p. 178) :

(2) Moss : op. cit. pp. 40-41.

(3) Tacitus : Germania, p. 9.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 65.

(5) Stephenson : op. cit. p. 62.

الى وصف المجتمعات الجرمانية الأولى بأنها كانت ديمقراطية ، فانه لا ينبغى ان يفهم من ذلك انها اتبعت نظاما ديمقراطيا فى الحكم ، لأننا سبق ان راينا ان المجتمع الجرمانى قام على أساس التفرقة الاجتماعية بين مختلف طبقاته . وانما المقصود من لصق هذه الصفة بالجرمان هو وجود بعض المبادىء التى تنم عن اتجاهات ديمقراطية فى المجتمع الجرمانى مثل انتخاب الزعماء ، والفصل فى القضايا فى محاكمات عامة (١) .

هذه هى خلاصة أحوال الجرمان الذين استقروا على حدود الامبراطورية الرومانية من جهتى الشمال والغرب . وهنا نلاحظ عدم وجود أى عداء بين الرومان والجرمان فى اول الأمر ، كما انه لم توجد مطامع للجرمان فى اراضى الامبراطورية ، وانما كل ما اراده الطرفان هو الحياة الآمنة المستقرة فى بلاده . وعلى هذا ليست من الواقع فى شىء تلك النظرية التى تقول بأن روما ظلت منذ بداية عهدها تعيش فى رعب من الخطر الجرمانى ، وان الجرمان اخذوا منذ أول امرهم يمنون انفسهم بغزو الامبراطورية الرومانية والقضاء عليها (٢) . وهناك من الدلائل ما يثبت ان السنوات الواقعة بين قيصر وماركوس أورليوس (٥٠ ق.م. — ١٨٠ م) شهدت بوجه عام جوا من السلام ساد العلاقات بين الرومان والجرمان ، كما أن القبائل الجرمانية المرابطة على حدود الامبراطورية عاشت حينئذ فى حالة واضحة من الهدوء والاستقرار . على أن هذا الوضع أخذ يتغير فى أواخر القرن الثانى ، عندما تعرض المجتمع الجرمانى لنوع من الضغط والقلق سبب له شيئا من الحركة (٣) . ذلك ان السلاف وغيرهم من العناصر الشرقية أخذوا يضغطون على الجرمان من جهة الشرق ، فى الوقت الذى ازدادت أعداد الجرمان وضاقت امامهم سبل العيش . وهناك تلفت هؤلاء الجرمان حولهم فلم يجدوا الا ارضا فقيرة مجدبة تغطيها الغابات وتكتنفها المستنقعات ، فضلا عن تأخرهم

---

(1) Painter : op. cit. p. 23.

(2) Katz : op. cit. p. 103.

(3) Cam. Med. Vol. I, p. 188.

ووقوعهم تحت رحمة الطبيعة وظروفها القاسية من فيضانات خطيرة الى قحط ومجاعات ، مما جعلهم فى حالة من الشدة ونقص فى الاقواتدفعتهم الى الحركة . وهكذا اخذ الجرمان يتطلعون الى اراضى الامبراطورية الرومانية التى جذبتهم اليها بنظامها المستقر وخيراتها الوفيرة وحضارتها الزاهرة (١) .

وقد بدا موقف الجرمان السلبى من الامبراطورية الرومانية يتغير منذ عهد الامبراطور ماركوس اورليوس (١٦١ — ١٨٠) ، عندما تحالفت بعض الطوائف الجرمانية المعروفة باسم الماركومانى Marcomanni والقواضى Quadi لمهاجمة جبهة اعالى الدانوب عند بانونيا (٢) . وعلى الرغم من أن الأزمة انتهت بالقضاء على خطر هؤلاء المهاجمين وتدمير قوتهم ، الا أن تهديد الجرمان لحدود الامبراطورية لم ينقطع بعد ذلك ، اذ لم يلبث أن ظهر خطرهم على الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث على عهد الامبراطور كاراكالا (٢١١ — ٢١٧) عندما تقدم القوط جنوبا من شواطىء البحر البلطى فسحقوا السارماشيين وهاجموا اقليم داشيا على الدانوب ، حيث ظلوا خمسين سنة يعيثون فسادا فى البلقان حتى هزمهم الامبراطور كلوديوس الثانى (٢٦٨ — ٢٧٠) فى نيسوس Naissus سنة ٢٦٩ (٣) .

ويهمنا فى أمر هذا الدور المبكر من أدوار الحرب بين القوط والرومان أن اباطرة الرومان اختاروا أ يسالموا القوط على الرغم من تفوق الرومان ، فتنازلوا لهم عن اقليم داشيا وسحبوا منه الجيوش الرومانية والموظفين على عهد الامبراطور اورليان (٢٧٠ — ٢٧٥) ، وعندئذ استقر القوط واعرضوا عن أعمال السلب والنهب وبدءوا يتأثرون بالمسيحية وغيرها من التيارات الحضارية ، مما مهد لقيام أول مملكة جرمانية داخل حدود الامبراطورية الرومانية (٤) . أن الخطر الذى هدد الامبراطورية الرومانية فى هذا الدور لم

---

(1) Katz : op. cit. pp. 101-102.

(2) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 29.

(3) Thompson, op. cit. Vol. 1, p. 72.

(4) Cary : op. cit. p. 728.

يأت من جانب القـوط وحدهم ، انمـا قام الألمان والفرنجـة والبافريون والسكسون والثورنجيون والفريزيون بعدة هجمات أخرى متفرقة ، حتى انتهى الدور الأول من حركة الهجرة الجرمانية سنة ٣٠٠ لتبدأ فترة اخرى جديدة من العلاقات السليمة الهادئة بين الرومان والجرمان (١) . على أن توغل الجرمان داخل حدود الامبراطورية لم يتوقف فى هـذا الدور السلمى الجديد ، وانما استمر بعد أن غير طابعه من الهجمات الحربية العنيفة الى الزحف البطىء والتسلل السلمى الهادىء . وهنا نجد الامبراطورية تفتح صدرها لهؤلاء الوافدين من الجرمان ، فتسـتخدمهم جنودا فى بعض الفرق وتمنحهم مستعمرات واراضى يقيمون فيها داخل الحدود الرومانية ، بل ان بعض ضباط الجيش الرومانى البارزين فى تلك الفترة جرت فى عروقهم دماء جرمانية (٢) . حقيقة أن استخدام الجرمان فى الجيش الرومانى والسماح لهم بالاقامة السلمية لم يك أمرا جديدا ، اذ ترجع جذور هذه الظاهرة الى أيام الامبراطور أوغسطس نفسه ، ولكنها اخذت تتخذ مظهرا شاملا واسع النطاق فى القرنين الثالث والرابع ، عندما بدأت العلاقة بين الرومان من جهة والجرمان المقيمين وسطهم من جهة اخـرى تمتد الى التزاوج والتفـاعل الاجتماعى ، مما ترك أثرا بعيد المدى فى مستقبل الحوادث . وهكذا لا يمكن القول بأن الحدود السياسية للامبراطورية الرومانية كانت فى القرن الرابع تفصل بين العالمين الرومانى والبربرى لأن كلا من الطرفين أحد يتأثر بالآخر ويؤثر فيه (٣) .

ثم كان أن تجددت الهجمات الجرمانية على حـدود الدولة الرومانية مرة اخرى منذ سـنة ٣٧٥ متخذة طابعا جديدا . فحتى هـذا التاريـخ كانت تلك الهجمات عبارة عن عمليات حربية متقطعة لا تربطها رابطة ولاتوحد بينها خطة جامعة . وكان يكفى أن تتعرض قبيلة لضـغط قبيلة اخرى ، أو تصـاب

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 207.

(2) Painter : op. cit. p. 19.

(3) Eyre : op. cit. p. 15.

منطقة من مناطق الجرمان بقحط او نقص فى الاقوات ، أو يستكشــف احد زعمائهم الطموحين نقطة ضعف فى الحدود الرومانية ، للقيام بهجوم جزئى محلى على اراضى الامبراطورية . ولكن هجمات البرابرة أخذت تتخذ شكل اغارات عامة ضــخمة منذ سـنة ٣٧٥ (١) وقد امتدت هذه الحركة الواسـعة حتى سـنة ٥٦٨ اى نحـو قرنين من الزمان استطاع فيها كثير من الجمـوع الجرمانية اجتياح اقاليم رومانية هامة وتأسيس ممالك جديدة داخل هذه الأقاليم ، مما غير وجه العالم القديم تغييرا تاما وجعل صـورة اوربا العصـور الوسـطى تبدو أقرب وضوحا(٢) . وهنا يحسن قبل أن نتناول كل عنصر من عناصر الجرمان المختلفة بالبحث ، أن نشـير الى ان هذه العناصر تألفت من جماعات تفيض بالحيوية والقوة ،فطعمت حضارة العالم القديم المتداعية بماجلبته معها من دماء جديدة ونظم جديدة . وليس من الصواب فى شىء القول بأن الجرمان كانوا معادين للحضـارة الرومانية ، وانهم مسؤلون عن تدمير هذه الحضـارة لأن الحضـارة الرومانية كانت تترنح قبل الغزوات الجرمانية ، واخذت تتدهور فعلا فى طريق الانحلال عندما بدأ الجرمان يتطرقون الى جسم الامبراطورية الرومانية عن طريق الغزو المفاجىء السريع أو عن طريق التسلل الهادىء البطىء(٣) . وربما كان من الأصوب عندما نتحدث عن الاثر المباشر الذى أحدثته غـزوات الجـرمان فى جسـم الامبراطورية الرومانية وكيانها ، ان نذكر دائما اهمية هؤلاء الجرمان فى تاريخ غرب أوربا وحضـارتها .

وثمة ملاحظة اخرى هى أن شدة التباين بين جمـوع البرابرة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية فيما بين القرنين الرابع والسـادس تجعل من الضرورى التفرقة بين الجماعات التى اخـذت تجتاح البلاد لتسـلب كل ما يصـادفها دون أن تحاول الاقامة والاسـتقرار فى تلك البلاد او تترك أثرا فى تاريخها سـوى الخراب والتدمير ، وبين الجماعات المترابطة التى غزت اقليما من اقاليم الامبراطورية لتسـتقر فيه وتختلط بالأهالى الأصليين

(1) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 59.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 79.

(3) Stephenson : op. cit. p. 68.

اختلاطا جنســيا وحضــاريا مما ترك اثرا عميقا فى تاريخها . ومن أمثلة النوع الأول اتباع راداجيسوس Radagaisus وهم خليط من البرابرة الذين انتهى الأمر بتحطيمهم فى ايطاليا ســنة ٤٠٥(١) . وكذلك أتباع اتيلا من الهون وغير الهون الذين قدموا من سهول آسيا الغربية لغزو أراضى الامبراطورية بدون ضابط . اما النوع الثانى فمن أمثلته القوط والفرنجة والبرجنديون والوندال والانجلوسكســون واللمبارديون(٢) .

القـوط والغربيـون :

أما القوط فيبدو انهم عبروا البحر البلطى من سكندناوة قبل حلول القرن الرابع قبل الميلاد حتى وصلوا مصب الفستولا . وقـرب منتصف القرن الثانى الميلادى بدات قبائل القوط رحلة طويلة نحو الجنوب الشرقى حيث اســتقروا شــمالى البحر الأســود . وهناك انقسم القوط الى قسمين شرقيين وغــربيين (٣) . فانتشر الشرقيون فــوق سهول روسيا الجنوبية فى حين اتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان حيث سمح لهم بالاستقرار فى هذه الجهات (٢٧٥ ـ ٣٧٥) (٤) .

وكان أن ترتب على احتكاك القوط بالعالم الرومانى ان افادوا من حضارة

---

(1) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 33.

(2) Fliche : La Chretienté Medlévale, pp. 10-14.

(٣) يلاحظ انه لا توجد علاقة بين الموقع الجغرافى وتقسـيم القـوط الى شرقين وغربيين . ويبدو أن هذه التسمية التى أطلقت على شعبتى القوط لا تعدو أن يـكون نوعا من الخطأ التاريخى الذى اكتسب صيغة الحقيقة بحكم تواتره فى المراجـع التاريخية . ذلك أن المدلول الأصلى للفظ Ostrogoths وهو اللفظ الذى جرى العـرف على ترجمته فى المراجع الى القوط الشرقيين ـ هو فى الحقيقة القوط الساطعون أو الزاهرون (auster) لا الشرقيون ، كما أن المدلول الأصــلى للفظ .Visigoths ـ الذى تعبر عنه المراجع بالقوط الغربيين ، هو القوط الأذكياء Wise . واذا كانت الظـروف شاءت أن يتجه القـوط الغربيون غربا وأن يستقر القـوط الشرقيون شرقيهم ، فان هذا كان من محض المصادفات التاريخية .

(Lot : The End of the Ancient World. p. 191).

(4) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 44.

الرومان وتأثروا بها تأثرا ظهر بجلاء فى اعتناقهم المسيحية عن طريق مبشر منهم اسمه ولفلاس Wulfilas (٣١١ — ٣٦١) تلقى تعليمه بالقسطنطينية . وعندما عين ولفلاس هذا أسقفا على القوط حوالى سنة ٣٤١ قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القوطية ، وتعتبر هذه الترجمة — التى مازال جزء منها باقيا حتى اليوم — اقدم آثار اللغة الجرمانية(١) . على أن المهم فى أمر اعتناق، القوط للمسيحية هو انهم تلقوها فى مذهبهم الاريوسى، ولأن ولفلاس نفسه كان أريوسيا ، الأمر الذى ادى الى انتشار الأريوسية بين القوط ثم بين غيرهم من طوائف الجرمان مثل الوندال والبرجنديين واللمبارديين ، مما كان له أبعد الأثر فى مستقبل الحوادث التاريخية فى أوربا العصور الوسطى(٢) .

ثم حدث فى النصف الثانى من القرن الرابع أن اندفع الهون الآسيويون خلال المنفذ الواقع بين جبال اورال وبحر قزوين نحو جنوب روسيا ، بالتالى انقضوا على القوط(٣) . ويبدو أن هجوم الهون جاء على درجة من العنف والشدة جعلت الرومان يتآزرون جميعا لصد هذا الخطر المشترك . على أن ضغط الهون احدث رد فعل عنيف بين الجرمان ، مما اثر بالتالى فى أوضاع الامبراطورية الرومانية تأثيرا خطيرا . ذلك أن القوط الغربيين لم يجدوا بدا من الفرار من وجه الهون فطلبوا من الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ — ٣٧٨) السماح لهم بعبور الدانوب ليسلموا من خطر الهون . واذا كان الامبراطور قد وافق على طلبهم ليتخذ منهم ستارا يحمى الحدود الرومانية من خطر الهون(٤) ، الا أن عبور ما يقرب من مليون ومائة الف محارب ن القوط الغربيين لنهر الدانوب سنة ٣٧٦ — حيث سمحت لهم الحكومة الرومانية بالاقامة فى مواشيا وتراقيا — أحدث هزة عنيفة فى جسم الامبراطورية . ذلك أن هؤلاء الدخلاء لم يلبثوا أن ثاروا

---

(1) Bradley : The Goths, p. 61.

(2) Moss : op. cit. p. 44.

(3) Lot : Les Invasions Germaniques. pp. 56-57.

(4) Painter : op. cit. p. 24.

على الامبراطورية ، وانزلوا الهزيمة بالامبراطور فالنز وذبحوه فى ادرنة سنة ٣٧٨(١) ، مما دفع خليفته الامبراطور ثيودسيوس العظيم (٣٧٨ — ٣٩٥) الى العمل على اتقاء شر القوط ، فعقد معهم اتفاقية اصبحوا بمقتضاها معاهدين Foederati للامبراطور ، كما سمح للقوط الشرقيين بالاقامة فى اقليم بانونيا والقوط الغربيين بالاقامة فى شمال تراقيا . وقد تمتع القوط بسلطة مطلقة فى هذه الأقاليم التى احتلوها ، فأعفوا من الضراب مقابل الخدمة العسكرية التى تعهدوا بتقديمها الى الامبراطورية(٢) . وتعتبر هذه الاتفاقية التى عقدها ثيودسيوس مع القوط سنة ٣٨٢ نقطة تحول كبرى فى سياسة الامبراطورية الرومانية تجاه الجرمان ، الذين أخذوا منذ ذلك الوقت يتجهون نحو تأسيس ممالك لهم داخل حدود الامبراطورية بعد أن اقتصر الأمر من قبل على مجرد السماح لهم بالاقامة السلبية فى ظل الادارة والنظم الرومانية . على أن القوط الغربيين ظلوا محتفظين بطابعهم . فضلا عن نظمهم وقوانينهم ومذهبهم الأريوسى مع التزامهم فقط بتقديم الخدمة العسكرية للامبراطورية وحراسة حدودها . واستمر هذا الوضع سائدا حتى وفاة الامبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩٥ وعندئذ ثار القوط الغربيون من جديد (٣) .

ذلك أنه حدث عند وفاة ثيودسيوس أن قسمت الامبراطورية بين ولديه ، فكان الشرق من نصيب اركاديوس والغرب من نصب هنريوس(٤) . وهنا أخذ نفوذ الجرمان السياسى والحربى يزداد قوة داخل الامبراطورية فاعتمد هنريوس فى الغرب على قائد وندالى قدير هو ستليكو ومنحه تفويضا تاما من الناحية الحربية ، فى حين اعتمد أركاديوس فى الشرق على روفينوس

---

(1) Wallace-Hadrill : The Barbarian West. p. 21.

(2) Ostrogorsky : Hist, of the Byzantine State, p. 48.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 90.

(4) Lot & Pfister & Ganshof : Les Destinees de l'Empire- En Occident, p. 24.

Rufinus وهو وزير قوطى عرف بالانانية والقسوة وعدم الاخلاص(١) ويبدو أن القوط الغربيين كانوا فى حالة استياء منذ اتفاقهم مع الامبراطورية سنة ٣٨٢ لانهم لم يلبثوا ان تبرموا بما القته عليهم هذه الاتفاقية من التزامات وخدمات عسكرية يؤدونها للامبراطورية فى الوقت الذى كانوا ينشدون حياة الاستقرار والهدوء . لذلك ثاروا سنة ٣٩٥ تحت زعامة ملكهم الرك فغزوا مقدونيا وتسااليا واقتحموا آثينا ونهبوا كورنثه حتى اقتربوا من القسطنطينية(٣) . وكانت حكومة الامبراطورية الشرقية عندئذ فى حالة تبلد وجمود فلم تتحرك لدفع خطر القوط الغربيين ، مما جعل ستليكو قائد الامبراطورية الغربية يقوم بهذه المهمة ، فعبر البحر الادرياتى وحصر القوط فى الركن الشمالى من شبه جزيرة المورة (مقاطعة اليس Elis) وان كان ملكهم الرك قد استطاع الفرار (سنة ٣٩٦) .

واخيرا راى اركاديوس امبراطور الدولة الشرقية ان يمنح الرك اقليم اليريا سنة ٣٩٨ ، حيث ظل القوط الغربيون قابعين اربع سنوات ، فى حين عاد ستليكو الى غاليا وجبهة الدانو بمحاربة الوندال(٣) . وفى سنة ٤٠٢ حاول الرك غزو ايطاليا لأول مرة ، ولكن ستليكو رده على أعقابه . ولم تلبث ايطاليا ان تعرضت مرة اخرى سنة٤٠٥ لغزو جماعات من الوندال والسويفى والبرجنديين واللان الذين اضطروا الى الاتجاه نحو ايطاليا أمام ضغط الهون ، ولكن ستليكو أنزل بهم الهزيمة واسر زعيمهم راداجيسوس واعدمه سنة ٤٠٦ ، وبذلك نجت ايطاليا مرة اخرى من غزو البرابرة (٤) . على أن ستليكو اضطر فى سبيل الدفاع عن ايطاليا فى هذه المرة الأخيرة الى سحب بعض الفرق الحربية التى تقوم بحراسة جبهة الراين ، مما أتاح الفرصة لجماعات من الوندال واللان والسويفى لعبور الحدود الرومانية سنة ٤٠٦ ، ومن ثم قضوا ثلاث سنوات فى غاليا اجتاحوا فيها البلاد

---

(1) Cam Med, Hist. Vol. 1, p. 260.
(2) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 110.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome, 1, p. 116.
(4) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 28.
(5) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 168.

ونهبوها ثم اندفعوا منها الى اسـبانيا سنة ٤٠٩(١) . وقد افزعت هذه الأحداث الامبراطور هنريوس الذى رأى فيها فرصة طيبة للتخلص من قائدة ستليكو بعد ان ازداد نفوذه ازديادا خطيرا حتى اوشـك ان يصبح الحاكم الفعلى فى الدولة — مما اثار حقد الامبراطور — فوجه اليه تهمة الاهمال فى حماية حدود الامبراطورية والتآمر ضد سـلامتها وسلامة الامبراطور نفسه ، وبالتالى تم اعدامه سنة ٤٠٨(٢) .

ويبدو أن الامبراطور تطرف فى التخلص من اتباع سـتليكو عن طريق القتل ، مما جعل بعضـهم يفرون نحو الرك ملك القوط الغربيين حيث زينوا له غزو ايطاليا(٣) . وقد وجد الرك فرصـته سانحة بعد مقتل ستليكو — الرجل الوحيد الذى اسـتطاع انزال الهزيمة به — فزحف على راس رجاله من القوط الغربيين الى روما لتى تعرضت لأول مرة منذ عهد هانيبال لحصار جيوش اجنبية معادية . وعندما فشلت المفاوضات بين الرك والامبراطور هنريوس — الذى كان عندئذ آمنا فى عاصـمته الجديدة رافنا — اقتحم القوط الغربيون روما سـنة ٤١٠ (٤) ، فنهبوا بيوت نبلائها واحرقوها ولكنهم لم يحدثوا مذبحة بين الأهالى ؛ كما احترموا الكنائس على الرغم من اريوسيتهم . اما الرك فقد توفى قرب نهاية ٤١٠ حيث تذكر الأساطير انه دفن فى قاع أحد الأنهار بجنوب ايطاليا(٥) .

واخيرا لم يجد الامبراطور وسيلة لاخراج القوط الغربيين من ايطاليا سوى اعطائهم اقليم اكوتين من اللوار حتى البرانس(٦) . والواقع انه كان على القوط الغربيين أن يبذلوا جهدا جديدا لاستخلاص هذه الهبة من جمـوع الوندال واللان والسويفى الذين كانوا قد تطرقوا الى هذه الاقاليم الغالية

---

(1) Cam. Med. Hist, Vol. 1, pp. 266-268.
(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 202-204.
(3) Lot : Incasions Germaniques, pp. 74-75.
(4) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 180.
(5) Deanesly : op. cit. pp. 27-38.
(6) Bradley : The Goths, pp. 106-107.

كما سبق . وقد استطاع واليا ملك القوط الغربيين الجديد أن يطرد السويفى الى الجزء الشمالى الغربى من اسبانيا وان يزيح الوندال الى جنوبى نهر ابرو ، وبذلك تمكن القوط الغربيون من الاستقرار سنة ٤١٨ فى الجزء الجنوبى من غاليا — اى فى اقليم اكوتين وحول تولوز — بعد أن قضوا زهاء اربعين عاما فى التنقل والترحال(١) . وكانت المنطقة التى انتشر فيها القوط الغربيون عندئذ تمتد من تولوز على نهر الجارون الى اسبانيا ، التى طردوا الوندال منها سنة ٤٢٩ .

وعندما توفى واليا خلفه ثيودريك الأول (٤١٩ — ٤٥١) الذى عمل على تثبيت اركان مملكة القوط الغربيين وتوسيع رقعتها . وكان أهم ما قام به فى سبيل تحقيق ذلك انتزاعه عدة مدن فى جنوب غاليا من الرومان سنة ٤٣٦(٢) . وقد حاول الرومان الوقوف فى وجهه ولكنه أنزل بهم الهزيمة سنة ٤٣٩ ، ومن ثم ساد السلام بين الطرفين . اخيرا مات ثيودريك الأول سنة ٤٥١ اثناء حربه مع الهون ، فخلفه فى حكم القوط الغربيين ثيودريك الثانى (٤٥١ — ٤٦٥) الذى حارب السويفى فى شمال غرب أسبانيا وغزا ناربون قرب الحدود الغالية الأسبانية كما مد مملكته حتى نهر اللوار . على أن ثيودريك الثانى لم يلبث أن قتل سنة ٤٦٥ بواسطة أخيه ايورك(٤٦٥ — ٤٨٤) الذى يعتبر أقدر ملوك القوط الغربيين(٣) . ذلك أنه قضى على ما تبقى من النفوذ الرومانى فى أسبانيا ، واخضع السويفى كما وضع أول مجموعة للقانون الجرمانى عرفها التاريخ (Antiqua) والحق أن مملكة القوط الغربيين — التى ظلت قائمة فى أسبانيا حتى الفتح العربى فى أوائل القرن الثامن — تعتبر أقوى الممالك الجرمانية فى الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦ من جهة ، وقيام مملكة الفرنجة فى شمال غاليا ومملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من جهة اخرى(٤) .

---

(1) Lot : The End ofthe Ancient World, p. 205.

(2) Cam. Med. Hist, Vol. 1, p. 279.

(3) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 341.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 94.

الوندال :

اما الوندال فقد ظلوا يقاومون القوط الغربيين فى اسبانيا طوال اربع عشرة سنة اضطروا بعدها الى عبور البحر الى شمال افريقية سنة ٤٢٩ تحت زعامة ملكهم جزريك Gaiseric (١) . وصادف عندئذ قيام حرب أهلية فى ولاية شمال افريقية ، وقيام امبراطور قاصر هو فالنشيان الثالث (٤٢٥ — ٤٥٥) على عرش الامبراطورية ، مما سهل على الوندال مهمتهم . وسرعان ما أثبت جزريك — ذلك الرجل القصير الأعرج — أنه على جانب كبير من المقدرة والكفاية (٢) ، إذ استولى على البلاد من طنجة حتى طرابلس ، كما سقطت قرطاجة — أهم مدينة فى الغرب بعد روما — فى ايدى الوندال سنة ٤٣٩ ، وبذلك ضاعت ولاية شمال افريقية فخسرت الامبراطورية الرومانية بضياعها جزءا آخرا من أهم اجزائها التى كانت تمونها بالغلال (٣) . ولم يستطع اهالى شمال افريقية سوى الامتثال لحكم القدر ، لأن عدد الغزاة من الوندال بلغ نحوا من ثمانين الفا من رجال ونساء واطفال . وزاد من سوء احوال الأهالى ان جزريك نهج فى حكم مملكته الجديدة نهجا استبداديا عنيفا فصادر الضياع وانتزع الاراضى من اصحابها ، كما تعسف فى جميع الاموال والضرائب من الأهالى وعاملهم فى قسوة بالغة (٤) . هذا الى أنه اثار حق أهالى البلاد الاصليين بصورة بالغة عندما اتبع سياسة دينية متطرفة ، فصادر — وهو الملك الأريوسى — ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى شمال افريقية ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك اضطهادا بالغا أثار سخط الراى العام ، حتى اصبح لفظ الوندالية Vandalism فى اللغات الأوربية الحديثة يستخدم مرادفا للهمجية والوحشية (٥) .

---

(1) Wallace-Hadrill : op. cit. pp. 38-39.

(2) Oman : The Dark Ages, p. 7.

(3) Lot & Pfistor & Ganshof : op. cit. p. 63.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 95.

(5) Oman : The Dark Ages, pp. 7-9.

على أن أخطر الوندال لم يقف عند هذا الحد ، اذ لم يلبثوا أن أصبحوا قوية بحرية خطيرة فى البحر المتوسط ، فأغاروا على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية ، فضلا عن ايطاليا حتى هاجموا روما نفسها سنة ٤٥٥ (١) . ومهما يكن من أمر فان عظمة دولة الوندال فى شمال افريقية سرعان ماولت عقب وفاة جزريك سنة ٤٧٧ ، هذا على الرغم من انه ترك بعده اسطولا قويا وثروة طائلة وقصرا ذاخرا بالمنهوبات . وكان ذلك سنة ٥٣٤ عندما استطاع بلزاريوس قائد جيوش الامبراطور البيزنطى جستنيان أن يسترد ولاية شمال افريقية من الوندال ، بعد ان عمرت دولتهم خمسا وتسعين سنة منذ استيلاء جزريك على قرطاجة سنة ٤٣٩ (٢) .

الهـــون :

اما اليهود الأسيويون فكانوا قد اجتاحوا اقليم الدانوب الأدنى بعد أن تغلغل القوط الغربيون داخل جسم الامبراطورية سنة ٣٧٥ (٣) . ثم ظل الهون مقيمين على شواطىء البحر الأسود حتى سنة ٤٢٥ عندما نفذوا الى تراقيا واخذوا يهددون القسطنطينية نفسها . ويبدو انه أشتد عبث الهون — تحت زعامة اتيلا بالولايات الرومانية الواقعة فى حوض الدانوب الأدنى بين سنتى ٤٣٠ و ٤٣٣ ، مما اضطر ثيودوسيوس الثانى امبراطور الدولة الشرقية (٤٠٨ — ٤٥٠) الى دفع جزية مالية سنوية لهم مقابل عدم إعتدائهم على اراضى دولته ، ومن ثم أخذوا يوجهون نشاطهم تجاه الغرب . وكان أن تقدم اتيلا غربا بحذاء الدانوب سنة ٤٤٧ فخرب مواشيا وتراقيا واليريا وبانونيا حتى عبر الراين وهاجم غاليا سنة ٤٥١ (٤) . وقد نهب الهون كثيرا من مدن

---

(1) Cam. Med. Hist, Vol. 1, pp. 306-308.

(2) Deanesly : op. cit. p. 77.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 215.

(4) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 66.

غاليا مثل تريف وميتز وتروى وشالون وغيرها من المدن المهمة التى فر أهلها من وجه الهون طلبا للنجاة ، بعد ما شاع عنهم من قصص طويل يعبر عن بطشهم وقسوتهم (١) . ولم يكن منتظرا من الامبراطور الغربى عندئذ — وهو فالنشيان الثالث — أن يقوم بعمل ايجابى ضد هذا الخطر الجاثم ، ولكن قائده ايتيوس Aetius برز فى هذه الظروف ليحمل عبء الدفاع عن غاليا . وهنا حدثت ظاهرة جديرة بالاهتمام ، وهى أن القوط الغربيين تحالفوا مع الجيوش الرومانية لدفع خطر الهون المشترك حتى أنزل الحلفاء الهزيمة بجموع اتيلا قرب شالون سنة ٤٥١ (٢) . ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الموقعة تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ ، اذ انقذت غرب أوربا من وحشية الهون الذين ارتدوا عبر الراين ليقوموا تحت قيادة اتيلا بغزوة مفاجئة لايطاليا فى العام التالى (٤٥٢) (٣) . ولم تلبث روما ان وجدت نفسها أمام خطر ساحق جديد ، مما جعل اسقفها البابا ليو العظيم يخرج بنفسه لمفاوضة اتيلا (٤) وهنا تجمع الأساطير المعاصرة على أن طيف القديس بطرس أفزع اتيلا فأسرع بالاياب ، وان كان الواقع هو ان اتيلا احس باقتراب الجيوش الرومانية بقيادة القائد الرومانى الشهير ايتيوس ، مما جعله يسرع باخلاء ايطاليا فى يوليو سنة ٤٥٢ بعد ان اخذ وعدا بتسلم جزية سنوية . ولم يلبث ان توفى اتيلا العام التالى (٤٥٣) فى بانونيا وعندئذ حاول ابناؤه اقتسام امبراطوريته الواسعة (٥) ، ولكن الشعوب الخاضعة للهون انتهزت الفرصة وثارت وأنزلت بهم الهزيمة فى موقعة نديو Nedeo سنة ٤٥٤ . وبذلك انهارت امبراطورية الهون قبل ان تمضى على وفاة اتيلا عشرون عاما (٦) .

---

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, pp. 291-293.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp 280-281.

(3) Bury : op. cit. Vol. 1, 294.

(4) Fliche : La Chretiente Medievale. p. 24.

(5 Lot : The End of the Ancient World. pp. 209-215.

(6) Lot : The End of the Ancient World. 288.

البرجنديون :

اما البرجنديون فكانوا قد ذاقوا من ضغط الهون اضعاف ما ذاقته بقية قبائل الجرمان فى الغرب ، كما أنهم كانوا اول من استفاد من تفكك امبراطورية الهون . وقد ظهر البرجنديون لاول مرة على مسرح الحوادث الاوربية فى النصف الثانى من القرن الثالث عندما تحركت جموعهم عند الجزء الأوسط من حوض الراين سنة ٢٧٧ (١) . وفى القرن الرابع استخدمتهم الامبراطورية الرومانية فى جيوشها كما كان الحال مع غيرهم من طوائف الجرمان . وعلى الرغم من أن البرجنديين كانوا أكثر قبائل الجرمان مسالمة الا انهم اضطروا الى استخدام العنف فى شق طريقهم الى غاليا عبر الراين ، وذلك تحت ضغط الهون (٢) ؛ حتى سمح لهم القائد الرومانى ايتوس بالاقامة أخيرا فى المنطقة الواقعة قرب نهر الساؤون . وقد استغل البرجنديون فرصة اشتراكهم مع الرومان والقوط الغربيين ضد الهون فى موقعة شالون سنة ٤٥١ ، واخذوا يتوسعون سلميا حتى انتشروا سنة ٤٦٨ فى جميع الجهات الواقعة بين جبال الألب والرون ، ولم يحل دون وصولهم الى شاطىء البحر المتوسط سوى غزو أيورك ملك القوط الغربيين لاقليم بروفانس (٣) .

سقوط الامبراطورية الغربية :

وهكذا يبدو من العرض السابق لغزوات الجرمان انه لم يكد ينتصف القرن الخامس حتى كانت الامبراطورية الرومانية فى الغرب قد مزقت اربا بضياع معظم أجزائها . ذلك أن الجيوش الرومانية انسحبت من بريطانيا سنة ٤٤٢ ، فى حين انتزع الوندال ولاية افريقية ، واحتل القوط الغربيون والبرجنديون أسبانيا فضلا عن جنوب غاليا والأجزاء الشرقية منها .. هذا فى

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 98.

(2) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 249.

(3) Deanesly : op. cit. p. 30.

الوقت الذى عبر الالمان الراين الاعلى واستقروا فى الالزاس ، كما عبر الفرنجة الراين الأدنى ووصلوا السوم والميز ، وبذلك فقدت الامبراطورية الغربية معظم اعضائها مما آذن بسقوط هذه الامبراطورية وضياع البقية الباقية منها (١) .

والواقع ان عوامل الاضمحلال التى اخذت تنخر ببطء فى عظام الامبراطورية الغربية على عهد الامبراطور هنريوس (٣٩٥ — ٤٢٣) والامبراطور فالنشيان الثالث (٤٢٥ — ٤٥٥) ازدادت خطورة بعد ذلك لا سيما بعد ان كافأ فالنشيان الثالث قائده أيتيوس بقتله سنة ٤٥٣ ،وهو الرجل الوحيد الذى كان يستطيع صد هجمات الوندال التى تعرضت لها روما بعد ذلك بعامين (٢) . ذلك أن الوندال اصبحوا بعد احتلالهم ولاية افريقية قوة بحرية كبرى هددت جميع بلاد النصف الغربى من حوض البحر المتوسط . ولم يلبث ان ظهر اسطول وندالى عند مصب نهر التيبر فى صيف سنة ٤٥٥ ؛ وعندئذ حاول البابا ليو العظيم انقاذ روما من الوندال ، كما سبق أن انقذها منذ سنوات قليلة من أيدى الهون ، ولكنه فشل فى هذه المرة (٣) وهكذا اقتحم الوندال روما وقضوا فيها اربعة عشر يوما سلبوا خلالها المدينة كنوزها ، فنهبوا ما فى القصر الامبراطورى والمعابد والكنائس والبيوت من نفائس ، فضلا عن عدة آلاف من الأهالى حملوهم معهم عبيدا عند انصرافهم (٤) . ولعلنا نلمس فى هذه الاغارة دليلا واضحا على أن مجد روما السياسى والحربى أدبر وتولى ، وبالتالى أضحى مستقبلها ومصيرها رهينا بمقدرة الكنيسة البابوية . والواقع ان الفترة الواقعة بين سنتى ٤٥٥ ، ٤٧٦ اى بين مقتل الامبراطور فالنشيان الثالث وسقوط الامبراطورية فى الغرب ، تعتبر من أظلم عصور تاريخ الامبراطورية الغربية ، بعد ان فقدت هذه الامبراطورية معظم أراضيها (٥)

---

(1) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. pp. 77-94.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 418-420.

(3) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 78.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 100-101.

(5) Lot : The End of the Ancient World. pp. 209-215.

واصبحت القوة الفعلية فى ايطاليا بأيدى فئة من قـادة الفرق الجرمـانية المأجورة ، الذين ازدادوا تطرفا وقسوة لعـدم وجود قوة أخرى تقف فى طريقهم وتحد من بطشـهم . اما الأباطرة فقد اصبحوا العوبة فى ايدى الجند ، يولونهم ويعزلونهم وفق ارادتهم ، حتى انتهى الأمر بأن ثـار أودواكر — زعيم بعض جموع الجرمان — ودخل رافنا سنة ٤٧٦ ، حيث كان الامبراطور عندئذ وهو رومولس اوغسطولس Romulus Augustulus فى الثانية عشر من عمره ، فاكتفى اودواكر بنفيه الى جنـوب ايطاليا مع تخصيص معاش كاف له (١) .

وعلى هذا الوجه انتهت الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، واصبحت ايطاليا من الوجهة القانونية تابعة للامبراطورية الرومانية التى لم يبق غيرها على قيد الحياة وهى الامبراطورية البيزنطية . وحتى هذه الامبراطورية لم يكن لها عندئذ نفوذ فعلى ملموس فى ايطاليا ، مما ترك البابوية القوة الوحيدة القائمة التى التف حولها الايطاليون طوال القرون التالية ، وراوا فيها الزعامة والسند الكفيلين بحمايتهم .

واذا كان بعض المؤرخين قد اعتادوا أن يبالغوا فى أهمية الأحداث التى جرت سنة ٤٧٦ ، ويتخذون هذه السنة التى سـقطت فيها الامبراطورية الغربية حدا فاصلا بين عصرين ، فاننا يجب الا ننساق معهم فى تفكيرهم وتيارهم . ذلك أن الامبراطور الغربى كان لا يمتلك فعلا شيئا من مظاهر القوة ، فى الوقت الذى سقطت امبراطوريته ، هذا فضلا عن ان ايطاليا كانت منذ أمد بعيد مسرحا لعبث كثير من الطوائف الجرمانية التى تطرقت اليها . ومن هذا يبدو أن عزل الامبراطور الطفل رومولس أوغسطولس على يـد أودواكر سنة ٤٧٦ لم يؤد الى تغيير كبير فى الحالة القائمة فعلا (٢) . وهنا ينبغى أن نسجل ايضا أن أودواكر نفسه لم يقصد بعمله ان يبدأ عهدا جديدا أويحدث انقلابا من نوع غير معروف ، وانما كل ما كان يطمع فيه هو أن يحظى به فعلا غيره من زعماء الجرمان داخل الامبراطورية ، كما يتضح ذلك من

---

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 406.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 430-433.

البعثين اللتين ارسلهما الى زينون امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٤٧٧ ، ٤٧٨ (١) . حقيقة أن العالم الغربى ظل بدون امبراطور منذ سنة ٤٧٦ حتى تتويج شارلمان سنة ٨٠٠ . الأمر الذى ظهر اثره واضحا فى تطور الممالك الجرمانية الناشئة من جهة وفى تطور البابوية من جهة اخرى ، ولكن عدم وجود اباطرة فى الغرب طوال هذه القرون الثلاثة لا يعنى بأى حال زوال فكرة الامبراطورية ، تلك الفكرة التى ظلت تتصور الامبراطورية طوال العصور الوسطى على انها وحدة لا تتجزأ (٢) . هذا وان كان بعض الكتاب — مثل أومان — يعترفون بالآراء السابقة ، ولكنهم يصرون على أن سنة ٤٧٦ لها اهمية خاصة كخط فاصل بين التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى (٣) .

ومهما يكن من أمر فالمهم هو ان سنة ٤٧٦ لم تكد تنتهى حتى كانت هناك ست ممالك جرمانية قد قامت فى غرب اوربا على انقاض الامبراطورية الرومانية . وهذه الممالك هى مملكة اودوكار فى ايطاليا ، ومملكة الوندال فى شمال افريقية ، ومملكة القوط الغربيين التى امتدت من اللوار حتى مضيق جبل طارق ، ومملكة البرجنديين فى وادى الرون ووادى الساؤون ، ودولة الفرنجة على الميز والموزل والراين الأدنى ، واخيرا تأتى صغرى هذه الممالك الجرمانية وهى مملكة السويفى Suevi فى الجهات المعروفة حاليا باسم البرتغال وغاليسيا (٤) .

الفرنجة :

كان أهم حدث فى تاريخ الغزوات الجرمانية هو قيام دولة الفرنجة ، وهى الدولة الجرمانية الوحيدة التى استطاعت البقاء والاستمرار داخل

---

(1) Eyre : op. cit. p. 23.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 431.

(3) Oman : The Dark Ages, p. 3.

(4) Idem, p. 5.

حــدود الامبراطورية . ذلك أن قبائل الفــرنجة المتقلبة التى كونت فيما بينها حلفا مائعا فى القــرن الثالث ، اخذت تظهر عند بداية القــرن الخامس فى هيئة كتلة متراصة اهم عناصرها الفرنجة البحريون Francs Ripuaires والفــرنجة البريون Francs Saliens وكان كل من هذين الفــرعين قد استقر فعلا فى القــرن الرابع داخل حــدود الامبراطورية الرومانية ، فامتد الفرنجة البحريون بين الــراين الأدنى والميــز والشلد ، فى حــين امتد الفرنجة البريون على امتداد الموزل الأدنى (١) .

ويعتبر كلوفس (٤٨٦ — ٥١١) المؤسس الحقيقى لدولة الفرنجــة البحــريين ، اذ استطاع أن يــنزل الهزيمة فى سواسون ســنة ٤٨٦ــ بسياجــريوس Syagrius ، وهو الذى ظــل يمثل آخر بقــايا الادارة الرومانية فى حــوض السين على الرغم من ســقوط الامبراطــورية فى الغرب قبل ذلك بعشر سنوات (٢) . وقــد اخذ كلوفس يعمــل بسرعة — بعد انتصاره فى سواسون — على مــد نفوذ الفرنجة على الجهــات الشمالية من غاليــا . وكان من الطبيعى أن يقابل اهالى البــلاد الاصليين هذا التغيير بقليــل من الدهشــة وكثير من الفتــور بعد أن اعتــادوا الخضوع لفئة جــديدة من عزاة الجرمان الفينــة بعد الفينة . وهــكذا جــاء وقت عــلى غاليا الرومانية أصبحت مقســمة بين القوط الغربيين والبرجنديين والفرنجة (٣) .

عــلى أن حــركة الفرنجة اختلفت كثيرا فى طابعها عن الحــركات التى قامت بهــا بقية الشعوب الجــرمانية لأنها كانت توسعية اكــثر منها هجرة تتصــف بطابع الغزو . ومن هنــا يميل بعض المؤرخــين الى عدم اعتبــار كلوفس فاتحــا بكل معانى الــكلمة ، والى وصــف نضاله ضــد سياجريوس بأنه صــدام بين زعيمين طموحين اكثر منــه بــين قوميتين متعــادلتين (٤) . ذلك أن بقيــة الشعوب الجرمانيــة

(1) Fliche : La Chretinté Mediévale, p. 30.
(2) Deanesly : op. cit. p. 58. & Gregory of Tours; The Hist. of the Franks 11-27.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 108.
(4) Lot : The End of the Ancient World, p. 249.

كالقوط والوندال والبرجنديين تخلت عن مراكزها الاولى ومواطنها الأصلية ، واخذت تجوس خلال الاقاليم الاوربية عدة سنوات ، حتى استقر كل منها اخيرا وسط جزء من المحيط اللاتينى الغربى بعيدا عن موطنها الاول . اما الفرنجة فانهم لم يهاجروا ولم يتركوا موطنهم الأول عند الراين الأدنى ، وانما اخذوا ينتشرون منه ويضيفون اليه اقليما بعد آخر ، دون أن يتخلوا عن مركزهم الاساسى أو يقطعوا صلتهم به (١) . وقد ترتب على هذه الظاهرة احتفاظ الفرنجة بأصولهم وحضارتهم وحيويتهم الجرمانية ، فى الوقت الذى ذابت بقية الشعوب الجرمانية فى المحيط اللاتينى الذى استقرت وسطه بعد أن قطعت صلتها بمواطنها الأولى . كذلك خالف الفرنجة بقية العناصر الجرمانية فى سياستهم الحكيمة التى امتازت بعدم الافراط فى العنف والاساءة الى أهالى البلاد الأصليين . ولا يوجد لدينا أى سند تاريخى يثبت أن الفرنجة حاكوا البرجنديين أو القوط الغربيين فى اغتصابهم الأراضى والضياع من أصحابها وتقسيمها بين الغزاة ، بل على العكس عمل الفرنجة دائما على احترام شعور أهالى غاليا ولم يؤذوهم فى أملاكهم وأرواحهم (٢) ، هذا فضلا عن احتفاظهم بحسن العلاقات مع الامبراطورية الرومانية فى معظم الحالات (٣) . ولا شك فى أن هذا المسلك من جانب الفرنجة ساعد على التقريب بينهم وبين أهالى البلاد الاصليين ، وهو تقارب توثقت روابطه عندما اعتنق كلوفس الديانة المسيحية سنة ٤٩٦(٤). وليس المهم فى هذه الخطوة الهامة هو ما ترتب عليها من انتشار الديانة الجديدة بين أتباع كلوفس وشعبه من الفرنجة ، وانما المهم هو أن كلوفس اعتنق المسيحية على مذهبها الأثناسيوسى أو الغربى مخالفا فى ذلك بقية الشعوب الجرمانية التى ظلت ممقوتة فى الغرب بسبب

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. I, p. 108.
(2) Dill : Roman Society in Gaul, p. 89.
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 249.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. I, p. 285.

اريوسيتها (١) . والواقع ان رجال الكنيسة الكاثوليكية فى جنوب غاليا كانوا يرقبون توسع الفرنجة فى الشمال باهتمام بالغ من اول الأمر ، لأنهم راوا فى كلوفس واتباعه الوثنيين مادة خاما يسهل تشكيلها وفق مبادىء الكنيسة الغربية ، لا سيما أن مسلكهم تجاه اهالى البلاد الأصليين جاء مقرونا بكثير من مظاهر الرحمة والاعتدال بعكس الحال مع البرجنديين او القوط الأريوسيين . لذلك اخذ رجال الكنيسة فى غاليا يترقبون اليوم الذى اعتنق فيه كلوفس المسيحية فى صورتها الأثناسيوسية ، لا سيما بعد أن تزوج من كلوتيدا ، وهى أميرة برجندية دانت بالعقيدة الكاثوليكية (٢) . ويقال ان الظروف التى احاطت بكلوفس أثناء حربه مع الألمانى فى الألزاس جعلته يتعهد باعتناق المسيحية فى حالة انتصاره ، وكان ان اوفى بعهده فتم تعميده سنة ٤٩٦ (٣) .

وهنا نستطيع ان نقول ان كلوفس استطاع بهذه الخطوة ان يحدد مصير الفرنجة ومستقبل دولتهم لأن اعتناق الفرنجة لمذهب الكنيسة الغربية جعلهم يكتسبون عطف الكاثوليك وتأييدهم ، ليس فقط فى غاليا وانما فى جميع ارجاء غرب اوربا (٤) ومعنى ذلك قيام نوع من التعاون والارتباط بل التآلف والامتزاج بين الفرنجة والرومان ، وهو امر كان لا يمكن تحقيقه بين الرومان الأثناسيوس من جهة والبرجنديين او القوط الأريوسيين من جهة اخرى (٥) . ويكفى ان الملكية الفرنجية كانت الوحيدة بين الملكيات الجرمانية التى أكتسبت عطف رجال الكنيسة وتأييدهم فى غرب أوربا ، حتى اصبح كلوفس قسطنطينيا آخر (٦) فى حين ظهر ملوك الفرنجة فى ثوب حماة المسيحية ورجالها فى الغرب مما مهد لايجاد نوع من التحالف بين البابوية وملوك الفرنجة ،

---

(1) Dill : Roman Society in Gaul, pp. 86-89.
(2) Deanesly : op. cit. p. 59.
(3) Gregory of Tours : The Hist of the Franks, p. 2-30.
(4) Fliche : La Chretiente Medievale, p. 33.
(5) Lavisse : Hist de France. Tome, p. 11, Premiere, Partie. p. 99.
(6) Lot : The End of the Ancient World p. 317-318.

وهو التحـــالف الذى كان لـــه أثر بعيد فى مستقبـــل أوربا فى العصـــور الوسطى .

وهكذا ظهر عامل جديد ساعد الفرنجة على التوسع عقب ســـنة ٤٩٦ ، بعد أن أخـــذ الأهالى من الرومان الـــكاثوليك فى بقيـــة أنحاء غاليا يتمنون الدخـــول تحت حـــكم كلوفس ـــ الملك الجرمانى الذى يتفق معهم فى المذهب (١) . على أنـــه يلاحظ أن توســـع الفرنجة فى هـــذه المرحلة لم يقتصر على الجهـــات الغربية والجنوبية وانما امتـــد أيضا فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى . وقـــد حدث سنة ٤٩٦ أن أخـــذ الألمـــانى يباشرون ضغطهم من أعالى الراين على الفرنجـــة البريين الذين انتشروا الى الجنوب منهم ، فاستنجد هـــؤلاء الأخيرون بكلوفـــس الذى أسرع لنجـــدة أقاربه فشن هجومـــين على الألمانى أحدهما ســـنة ٤٩٦ والثانى ٥٠١ ، حتى انتهى الأمـــر بانزال هزيمة ساحقة بالألمـــانى الذين اضطروا الى الدخول تحت حماية ملك القوط الشرقيين لحمـــاية أنفسهم من الفرنجة (٢) وتعتبر هـــذه الحرب بين الفرنجة والألمـــانى على جانب كبير من الأهميـــة حيث أنها ادت الى توســـع الفرنجة فى الاتجاهـــين الشرقى والشـــمالى الشرقى ، كما أنـــه ترتب على نجـــاح الفرنجة فى صد الألمـــانى عدم قطع الصـــلة بين الفرنجة من جهـــة ووطنهم الجرمانى الأول فيمـــا وراء الراين من جهة أخرى ، فضلا عن نجـــاح الفرنجة فى وقف التيار التوسعى لبقية العناصر الجرمانية مثل البافاريين والثورنجيين والسكسون (٣) .

على أن اعتناق الفرنجة للمذهب الـــكاثوليكى لم يلبث أن أثار روح البغضاء والـــكراهية بينهم وبين غيرهم من طوائف الجرمان الأريوسيين فى غاليا . مثل البرجنديين والقوط الغربيين . أما البرجنديون فقد استطاع

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 60.

(2) Lot : The End of the Ancient World, p. 317.

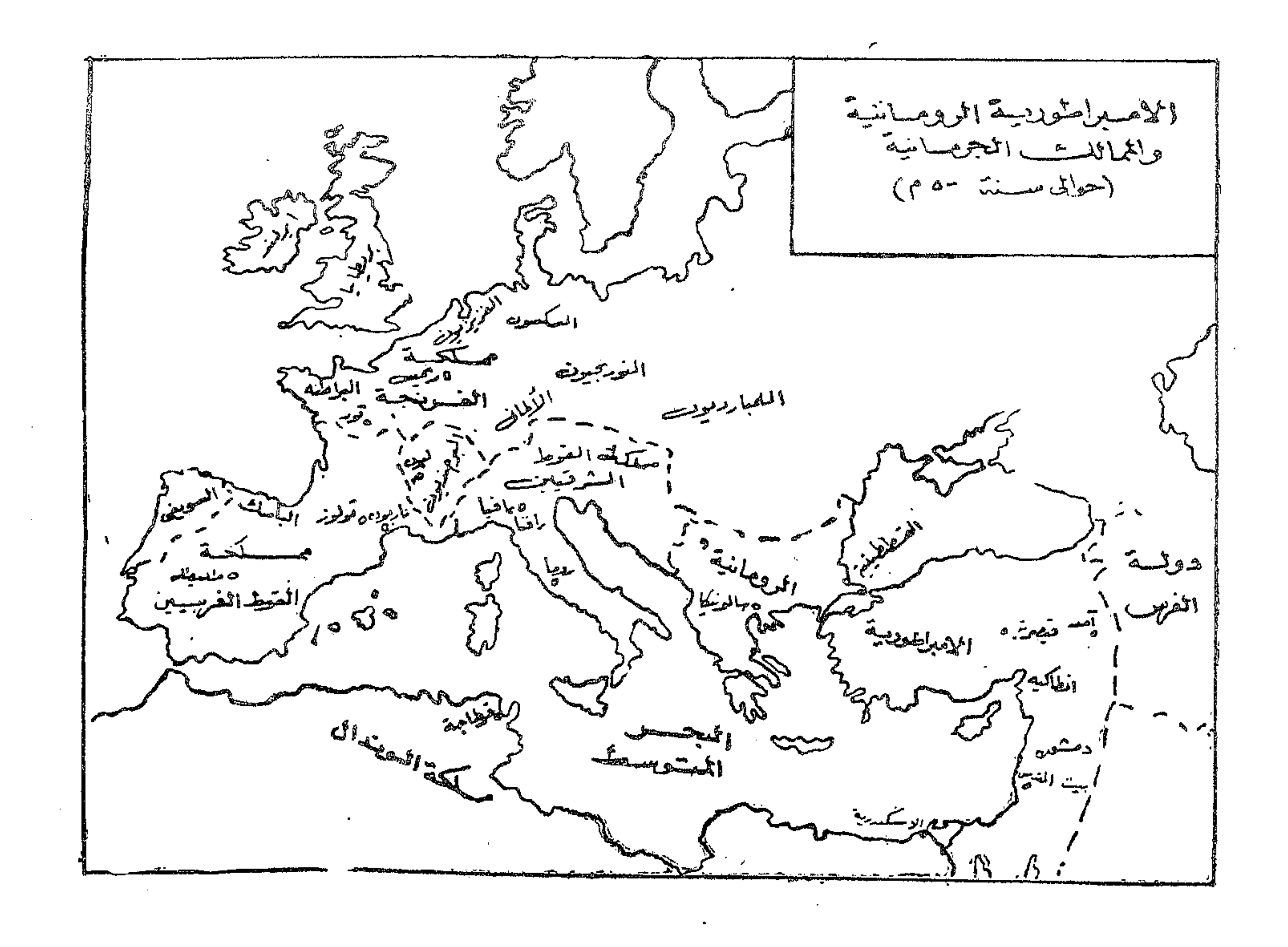
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 109.

كلوفس ان يجبرهم سنة ٥٠٠ على دفع الجزية رمزا للتبعية (١) . وأما القوط الغربيون فان كلوفس شن الحرب عليهم سنة ٥٠٧ وقتل ملكهم الرك الثانى بعد أن هزمه فى فوجليه Vougle كما استولى على تولوز سنة ٥٠٨ . ولم ينقذ القوط الغربيين من ايدى الفرنجة عندئذ سوى تدخل ثيودريك ملك القوط الشرقيين الذى أسرع لنجدة اقربائه (٢) . واخيرا حل الموقف بين الفرنجة والقوط سنة ٥١٠ بعد أن تم الاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين يمتد حتى نهر الجارون – بما فيه مدينة تولوز – فى حين احتفظ ثيودريك بأقليمى بروفانس وناربونس (سبتمانيا) (٣) .

وعندما توفى كلوفس سنة ٥١١ كانت دولة الفرنجة تمتد على جانبى الراين ، وتشمل جميع غاليا ما عدا ارموريكا (بريتانى) وجاسكونى وبروفانس . على أن هناك حقيقة هامة اثرت فى تاريخ الفرنجة ومستقبل دولتهم تأثيرا عميقا ، هى أنهم ظلوا يعتبرون الملك ارثا يقسم بين سائر ابناء الملك أسوة بسائر أنواع الارث ، ووفقا لهذا المبدأ قسم كلوفس مملكته الواسعة ذات السكان المتباينين فى الأصل والجنس بين أبنائه الأربعة (٤) . ومع ذلك فان توسع الفرنجة لم يتوقف نتيجة لهذا التقسيم أو نتيجة لما قام بين كلوفس من نزاع وخلاف . ففى سنة ٥٣٠ استولى الفرنجة على ثورنجيا ، كما استولى على اقليم ناربونيس (سبتمانيا) سنة ٥٣١ وأوفرن سنة ٥٣٢ ، وبرجنديا سنة ٥٣٤ ، وبافاريا سنة ٥٥٤ – ٥٥٥ ، وجاسكونى سنة ٥٦٧ . وساعد على هذه الفتوحات وازدياد نفوذ الفرنجة ، ان لوثر الأول (كلوتير) استطاع توحيد مملكة الفرنجة سنة ٥٥٨ بعد وفاة اخوته الثلاثة ، اى انه حكم جميع مملكة كلوفس فضلا عن برجنديا وثورنجيا وبروفانس وبافاريا (٥) .

---

(1) Dill : Roman Society in Gaul. p. 91.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 484.
(3) Lot : The End of the Ancient World pp. 318-319.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 484.
(5) Deanesly : op. cit. p. 67.


الامبراطورية الرومانية
والممالك الجرمانية
(حوالي سنة ٥٠٠ م)
السكسون
الفرنجيون
مملكة
ريمس
الفرنجة
البلطة
الألمان
البورجنديون
اللمبارديون
مملكة القوط
الشرقيين
رافنا
روما
مملكة
القوط الغربيين
الباسك
السويفيون
طليطلة
تولوز
الرومانية
القسطنطينية
الامبراطورية
قيصرية
انطاكيه
دولة
الفرس
دمشق
بيت المقدس
الاسكندرية
البحر
المتوسط
قرطاجنة
مملكة الوندال

على ان مملـكة الفرنجة لم تلبث ان انقسمت مرة أخرى بين أبناء لوثر الأول عند وفاته سـنة ٥٦١ (١) . وقـد ظهرت الخلافات التاريخية والجنسية واضحة هـذه المرة بين الأقسام التى انقسمت اليهـا مملـكة الفرنجة وهى أوستراسيا ونستريا ، فى حين كان الطابع اللاتينى هـو الغالب على برجنديا وأكوتين . ومهما يكن من أمـر فان العصر الأول لتاريخ الفرنجة — وهو عصر البطولة الذى امتـاز بالتوسع والغزو — انتهى سـنة ٥٦١ (٢) ، ليبدأ عصر آخر سنعود اليه بعد قليل .

القـوط الشرقيـون :

رأينا ما كان من أمـر سقوط الامبراطـورية الغربية فى ايطاليـا سـنة ٤٧٦ ، وهو الأمر الذى جعـل لأباطرة الدولة الشرقية نوع من السيادة الاسمية على ايطاليـا بحكم ما لأباطرة هذه الدولة من حق فى وراثة أباطرة الغـرب . ولـكن حدث سـنة ٤٨٩ — أى بعـد موقعة سواسون بثلاث سنوات — أن انتهى ما كان لأباطـرة الدولة الشرقية من سلطة اسمية فى ايطاليـا وذلك عندما غزاها القـوط الشرقيون تحت زعامة ثيودريك (٣) .

وكان القـوط الشرقيون قـد تعرضوا سـنة ٣٧٥ لخطر الهـون ولـكنهم لم يستطيعوا الفرار عـبر الدانوب كما فعل أقرباؤهم القـوط الغربيون ، ومن ثم ظلوا تحت سيطرة الهون ما يقرب من سبع وسبعين سـنة ، أى حتى سـنة ٤٥٢ عندما توفى أتيلا وتفـككت امبراطوريته وأخـذت الشعوب الخاضعة للهون تتحـرر من سيطرتهم (٤) . على أن القوط الشرقيين وجـدوا أنفسهم غداة تحررهم من سيطرة الهـون فى

---

(1) Lavisse : Hist. de France, Tome 11, Premiere Partie, p. 132.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 114.

(3) Oman : The Dark Ages. p. 16.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 365.

حال لا يحسدون عليها نظرا لما لحق اقاليم الدانوب فى ذلك الوقت من دمار وخراب شامل حتى اصبحت الاقامة فيها أمرا متعذرا . لذلك اتجه القوط الشرقيون جنوبا داخل حدود الامبراطورية حيث أخذوا يسببون لها مضايقات شتى (١) . وعلى الرغم من أن قوات الامبراطورية الشرقية أسرت ثيودريك — ابن ملك القوط الشرقيين — وارسلته رهينة الى القطنطينية ، الا أن المناصب والالقاب البراقة التى خلعها عليه البيزانطيون ، ومظاهر العظمة التى حفلت بها القسطنطينية ، لم تنس ثيودريك اهله وعشيرته الذين كانوا يقاسون آلام الفاقة والحرمان فى بيئتهم الفقيرة ، ففر اليهم سنة ٤٧٤ واخذ يتجول بهم عدة سنوات فى أقاليم البلقان (٢) . واخيرا راى الامبراطور زينون أن خير وسيلة ينقذ بها أقاليم الدولة الشرقية من عبث القوط الشرقيين هى أن يلهيهم بايطاليا ، فألقاها لهم لقمة سائغة سنة ٤٨٨ . وكان أن نفذ القوط الشرقيون الى ايطاليا سنة ٤٨٩ فأنزلوا عدة هزائم بأودواكر عند ايسونزو Isonzo وفيرونا ، حتى اعتصم اودواكر برافنا فحاصره القوط الشرقيون حتى استسلم سنة ٤٩٣ . ولم يلبث أن دخل ثودريك رافنا ليقتل أودواكر ويصبح سيد ايطاليا (٣) ، **والواقع أن ثيودريك كان من الوجهة القانونية نائبا عن امبراطور** الدولة الشرقية فى ايطاليا ، حتى أنه سك اسم الامبراطور البينزنطى على العملة (٤) ، ولكنه أصبح من الناحية العملية ملكا مستقلا على مملكة القوط الشرقيين التى شملت ايطاليا وصقلية وغيرها من الأقاليم المجاورة مثل بانونيا ودلماشيا واليريا وبروفانس ، فى حين ظلت كورسيكا وسردينيا فى أيدى الوندال .

وقد اتخذت غزوة القوط الشرقيين لايطاليا شكل هجرة عامة ،

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 115.

(2) Deanesly : op. cit. p. 35.

(3) Eyre : op. cit. p. 25.

(4) Lot · The End of the Ancient World, p. 240.

اذ اصطحبوا معهم نساءهم وماشيتهم (١) . أما زعيمهم ثيودريك فكان أعظم شخصية سياسية فى عصره ، بل انه يكاد يكون الشخص الوحيد المعاصر الذى اجتمعت فيه مظاهر العصور القديمة والوسطى . ذلك انه دخل الامبراطورية صديقا لا عدوا ، كما اراد أن يعتبره المعاصرون حاكما رومانيا لا زعيما بربريا . ويكفى أن ايطاليا تمتعت فى عهده بحكومة قوية حازمة سارت وفق الأساليب والنظم الرومانية (٢) . من ذلك أن ثيودريك العظيم لم يدخل سوى تعديلات قليلة نسبيا فى النظم القائمة بايطاليا ، وذلك فى خلال حكمه الطويل الذى امتد من سنة ٤٨٩ حتى سنة ٥٢٦ ، فاتخذ قصره فى رافنا مركزا لحكومة بيروقراطية تشبه فى طابعها النظام الامبراطورى القديم . كما احتفظ بالسناتو والوظائف العمومية والنظام الادارى والمدارس ، فضلا عن انه ابقى ملكية الارض الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى . واذا كان القوط الشرقيون قد احتفظوا لأنفسهم من الناحية الشكلية بقوانينهم الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى حتى أنها لم تلبث أن فقدت طابعها الأصلى بعد عدة أجيال (٤) . أما الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة فان ثيودريك لم يكتف باختيار مجموعة من الموظفين الايطاليين الكفاة لها فحسب ، بل حرص على أن يكون هؤلاء الموظفون من سلالة النبلاء وطبقة السناتو الذين كانوا يديرون شئون الامبراطورية الرومانية فى سابق مجدها . ومن أمثلة الرجال الذين استعان بهم ثيودريك كاسيدورس Cassiodorus وانوديوس Ennodius وسناريوس Senarius واجابيتوس Agapitus وبيوثيوس Boethius وغيرهم (٥) . كذلك خالف ثيودريك بقية الجرمان فى أنه حافظ على المبدأ الرومانى القديم الخاص بالفصل بين الوظائف المدنية والحربية ،

---

(1) Eyre : op. cit. p. 25.
(2) Idem : pp. 25-27.
(3) Lot : The End of the Ancient World. p. 241.
(4) Oman : The Dark Ages. pp. 22-24.
(5) Eyre : op. cit. p. 6.

الأمر الذى زاد من الحقد المتبادل بين الموظفين المدنيين الرومانيين وقادة القوط العسكريين .

وعلى الرغم مما عرف عن ثيودريك العظيم من تسامح ورغبة صادقة فى التوفيق بين أهالى ايطاليا الاثناسيويين والقوط الاريوسيين ، الا أن الخلاف المذهبى ظل يحول دون حسن التفاهم بين الطرفين . حقيقة ان ثيودريك عنى بالمحافظة على آثار الحضارة الرومانية ، فضلا عن عنايته بجمع القوانين الرومانية معتمدا على مجموعة ثيودسيوس ، مما جعل من ثيودريك العظيم أحد بناة الحضارة فى أوائل العصور الوسطى (١) . ولكن على الرغم من كل ذلك فان هذا البناء الكبير الذى أجهد ثيودريك نفسه فى اقامته كان لا يمكن أن يدوم أو يستمر طويلا . فالقوط الشرقيون الذين لم يتجاوز عددهم مائتين وخمسين الفا اقاموا وسط مجتمع كبير من أهالى ايطاليا الاصليين الذين زاد عددهم عندئذ على تسعة ملايين . هذا فضلا عن ان القوط الشرقيين قطعوا صلتهم بصميم الوطن الجرمانى فيما وراء الدانوب والراين — بعكس الحال مع الفرنجة — مما ترتب عليه انقطاع الشريان الرئيسى الذى يحيى فيهم روحهم ويذكرهم بأصولهم ومبادئهم الجرمانية (٢) لذلك نجد انه على الرغم من نفوذ ثيودريك الواسع وعظمة بلاطة فى قيرونا أو رافنا ، وتسامحه الدينى والسياسى ، ورعايته للآداب والفنون ، وحرصه على اقامة كثير من الجسور والطرق والحمامات وغيرها من المنشآت العامة ، الا أن البناء الذى أقامه لم يكن قوى الأساس وبالتالى لم يقدر له البقاء طويلا (٣) . ذلك ان ذكرى روما القديمة ، وموقف الامبراطورية البيزنطية التى استعادت سطوتها على عهد جستنيان ، والخلافات المذهبية بين القوط الشرقيين وأهالى ايطاليا الاصليين ، كل هذه العوامل تجمعت فى النهاية لتقضى على أمل ثيودريك فى اقامة ملكية قوطية ثابتة الأركان فى ايطاليا .

---

(1) Idem : op. 27.

(2) Thompson : op. cit. Vol. p. 188.

(3) Lot & Pfister, Ganshof : op. cit. pp. 113-116.

وقد اتضحت هذه الحقيقة المؤلمة لثيودريك فى اواخر أيامه لا سيما عندما قام جستين الأول — امبراطور الدولة البيزنطية (٥١٨ — ٥٢٧) بحركة اضطهاد واسعة ضـد الاريوسيين ادت الى تعذيبهم ومصادرة كنائسهم ، الأمر الذى جعل ثيودريك يرسـل بعثة البابا حنا الأول سـنة ٥٢٥ الى الامبراطور البيزنطى للعدول عن سياسته (١) . ويبدو أن فشل هذه البعثة فى تحقيق أغراضها جعل ثيودريك يتشكك فى جميع من حوله ، حتى قـام بحركة اضطهاد مماثلة ضد الكنيسة الكاثوليكية فى ايطاليا . ولم ينج من هذه الموجة الجارفة الفيلسوف بيوثيوس الذى أعدم بلا ذنب سنة ٥٢٥ ثم لحق به فى السجن البابا حنا الأول فى العام التالى . وأخيرا لم يلبث ثيودريك نفسه أن مات فى العالم نفسه (٥٢٦) بعد أن سلم جميع الكنائس الكاثوليكية فى ايطاليا للأريوسـيين (٢) .

ولم تكـد تمضى سـنوات قليلة على وفاة ثيودريك حتى ارسـل جستنيان — امبراطور الدولة الشرقية — جيشا الى ايطاليا سـنة ٥٣٦ لاستردادها من القوط واعادتها الى احضان الامبراطورية . وعلى الرغم من مقاومة القوط الباسلة ألا أن قوتهم انهارت بعد سـنوات قليلة (٥٥٢) . وبذلك اختفى القوط الشرقيون كأمة قائمة بذاتها من صفحة التاريخ (٣) .

الانجاز وبريطانيـا :

صـورت لنا الحـوادث السـابقة الخاصـة بتسلسـل الغـزوات الجرمانية كيف تفككت الامبراطورية الغربية فى القـرن الخامس بعـد أن استولى الجرمان عـلى غاليا وأسبانيا وافريقية واقاموا فيها ممالك جرمانية مستقلة . أما بريطانيا التى أشرنا الى ان الفرق الرومانية انسـحبت منها فى أوائل القرن الخامس (٤) فلم تلبث الأحداث التى تلاحقت عليها فى المائة

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 454.
(2) Deanesly : op. cit. pp. 43-44.
(3) Cam. Med Hist. Vol. 2. p. 18.
(4) Hodgkin Tbe Hist. of England, pp. 72-73.

والخمسين سنة التالية أن جعلتها تتوارى تماما من فوق مسرح التاريخ . حتى اذا ما ظهرت على المسرح مرة أخرى كانت قد اتخذت صبغة جديدة واصبحت انجلترا لا بريطانيا .

ذلك أن عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطىء بحر الشمال وفى شبه جزيرة جتلاند - مثل الأنجلز والسكسون والجوت - أخذت تواصل اغاراتها على بريطانيا منذ القرن الرابع (١) . وقد جددت هذه العناصر اغاراتها بعد انسحاب الجيوش الرومانية سنة ٤٤٢ ، ولكنهم اغاروا فى هذه المرة على بريطانيا مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم بقصد الاقامة ، حتى تم لهم - عند نهاية القرن السادس - اجتياح معظم البلاد المعروفة حديثا باسم انجلترا . ما عدا اقليم كورنوول فى الجنوب الغربى (٢) . ولكن اذا كان أمر الجرمان فى صلب القارة قد انتهى باستقرارهم نهائيا وسط الشعب الرومانى المغلوب على أمره ، والتأثر بأوضاع هذا الشعب من النواحى اللغوية والدينية والحضارية ، الا أن الموقف اختلف فى بريطانيا حيث طرد الغزاة أمامهم أهالى البلاد الاصليين من الكلت ، مما جعل المسيحية تختفى مؤقتا من البلاد

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم ، وانما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت بالممالك السبع Heptarchy (٣) ، وهى مملكة كنت التى تألفت من الجوت ، وممالك اسكس Essex . وسسكس Sussex ، ووسكس Wessex التى كان أهلها من السكسون ، ثم ممالك انجليا الشرقية ومرسيا Mercia ونورثمبرلاند ، وكان أهلها من الأنجلز . وقد استمرت الحروب والمنازعات بين هذه الممالك السبع حتى استطاع اثلبرت ملك كنت (٥٦٠ - ٦١٦) أن يفرض سيادته عليها جميعا . وكان هذا الملك قد تزوج برتا Bertha وهى أميرة فرنجية مسيحية - فى الوقت الذى وصل انجلترا القديس

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 378-381.

(2) Hadgkin : The Hist of England. p. 108.

(3) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 95.

اوغسطين الصغير مبعوثا من البابا جريجورى العظيم . وكان وصول اوغسطين الى كنت سنة ٥٩٧ واعتناق ملكها أثلبرت المسيحية بشيرا بازدياد عدد البعثات التبشيرية من جهة وسرعة انتشار المسيحية فى انجلترا من جهة أخرى ، الامر الذى ادى الى خروج أهالى بريطانيا من عزلتهم وارتباطهم من جديد بمؤثرات الحضارة الغربية (١) . وهنا نلاحظ أن دخول بريطانيا دائرة الكنيسة الغربية عوض جزءا من الخسارة التى أصابت هذه الكنيسة فيما بعد باستيلاء المسلمين على أسبانيا . هذا الى أن البابوية احتفظت بالسيطرة العليا على الكنيسة فى انجلترا ، فظل الانجلوسكسون لا يعرفون شيئا عن الكنيسة الشرقية أو عن الامبراطورية وصاروا أينما ولوا وجوههم لا يجدون امامهم سوى روما والبابوية (٢) .

والواقع ان القديس اوغسطين — الذى أصبح أول أساقفة كانتربورى (٥٩٧ — ٦٠٥) لم يصادف صعوبة فى نشر المسيحية فى كنت ، ولكن مبعوثيه صادفوا عنادا شديدا فى بقية أنحاء الجزيرة . وعلى الرغم من ذلك فان المسيحية أخذت تتقدم تقدما حثيثا فى تلك البلاد حتى غدت الكنيسة أكبر قوة حضارية تعمل على نشر المدنية والوحدة القومية بين ربوعها . حقيقة أن الكنيسة فى انجلترا صادفت عدة صعاب اعترضت سبيل تنظيمها وربطها بالبابوية ، ولكنها استطاعت أن تتخطى هذه الصعاب فى القرن السابع مما أتاح لانجلترا نصيبا عن تراث الحضارة الكلاسيكية . ومن ابرز أساقفة كانتربورى فى هذا القرن ثيودور الطرسوسى Theodore of Tarsus (٦٦٩ — ٦٩٠) الذى نظم الأسقفيات فى انجلترا وزاد منها ، كما جعل من يورك كرسيا لرئيس أساقفة ، وعقد اولى المجامع الدينية التى عرفتها الكنيسة الانجليزية (٣) . وهكذا ليست هناك مبالغة فيما يصر عليه بعض الكتاب من اعتبار ثيودور هذا مؤسس الأمة الانجليزية التى كانت

(1) Idem. p. 96.

(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 303-304.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3. p. 540.

حتى ذلك الوقت مفتتة الى قبائل صــغيرة . كما اعتبروه واضــع دعائم الحيــاة العلمية فى انجلترا وهى الحيــاة التى بلغت ذروتها عــلى عصر (٦٧٥ — ٧٣٥) (١) .

أمــا فى الجانب الســياسى فقد ظلت انجلترا تعانى الكثير بســبب الانقســـامات وعــدم الوحدة حتى استطاع اجبرت Egbert ملك وسكس (٨٠٢ — ٨٣٩) أن يغزو الجــزء الجنوبى الغربى من شـــبه الجزيرة ســنة ٨١٥ ، وان يهزم مرســيا ســنة ٨١٩ وبذلك أصبح ســيد انجلترا وصارت وسكس اكبر قوة سياسية عندما بدات تشــتد اغــارات الفيكنج فى القرن التاسع (٢) .

* * *

وبعــد ، فعله من الواضح الآن ان الغزوات التى قام بها البرابرة — من جرمان وغير جرمان — تركت اثرا واضــحا فى المجتمع الرومــانى . ذلك أن هــذه الغــزوات أدت الى تحطيم الامبراطورية الرومــانية فى الغرب وضياع معظم اقاليمها غنيمة فى ايدى الغزاة . حقيقة ان جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية (٥٢٧ — ٥٦٥) بذل جهدا كبيرا فى استرداد هذه الأقاليم التى فقدتها الامبراطورية الرومانية فى شمال أفريقية وايطاليا واسبانيا ، ولكن نجاحه كــان مؤقتا سريع الزوال (٣) . أما فى الناحيــة الإقتصادية ، فقد رأينا ان الامبراطورية الرومــانية كانت تشــكو أعراض التدهور الاقتصادى قبل أن تقوم جموع الجرمان بغــزو أراضيها ، ولكن هذه الغزوات جاءت لتزيد الطين بلة لأن التدمير الشمال الذى نتج عنها وما صحبها من حروب بين الغزاة بعضــهم وبعض ، أو بينهم وبين الجيوش الرومانية ادت الى توقف التجارة والزراعة والصــناعة بل الى تدهــور مستوى المعيشـــة بوجه عام . ولا شك فى ان الأثر النفسى الذى تركته غزوات البرابرة وســقوط الامبراطورية الغربية فى نفوس المعاصرين كان عظيما حتى اعتبر البعض هــذه الأحداث نذيرا بنهاية العالم (٤) .

(1) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 195-209.
(2) Idem : pp. 263-265.
(3) Eyre : op. cit. pp. 31-32.
(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 36.

واذا كـــانت هناك ثمة ناحية من نواحى الحياة فى الامبراطورية قدر لها البقـــاء والاستمرار فى ظل التطورات الجديدة ، فانها كـــانت الكنيسة الكاثوليكية التى احترمها الجرمان ولم يمسوها بسوء حتى ازدادت فى ذلك العصر قـــوة ونفوذاً . والواقع أن الاخطار التى ألمت بالعالم الرومـــانى من جهة ، وسقوط الامبراطورية الغربية من جهة أخرى ، جعلت الكنيسة الغربية تبدو فى صـــورة القوة الوحيدة التى يمكنها انقاذ ما يمكن انقاذه من تراث الماضى ، كما أصبح القساوسة بمثابة الزعماء الطبيعيين الذين التف حولهم الناس وســـط الأزمة الحادة التى أحاطت بهم (١) .

(1) Painter : op. cit. p. 28.

الباب الخامس

الامبراطورية البيزنطيـــة

(٣٣٠ ـ ٨٠٢)

أن المتتبع لتاريخ أوربا فى العصـــور الوسطى تواجهه حقيقة هامة تســترعى الانتباه ، هى أنــه اذا كـــانت الامبراطورية الرومـــانية الكبرى قد انقسمت الى قســمين شرقى وغربى فى أواخر القرن الرابع ، فان القســـم الشرقى أو البيزنطى قدر له البقـــاء والاستمرار فى حين لم تلبث الامبراطورية الغربية أن سقطت قبل أن يمضى قرن على هــذا التقســـيم (١) . فاذا حاول الباحث تعليل هذه الظاهرة فانه لن يجــد ســببا معقولا لهــذا التفاوت الكبير فى العمر بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية ســوى أن الاولى لم تتأثر بشــكل خطير بالغزوات الجرمانية فى الوقت الذى وقعت الولايات الغربية من الامبراطورية تحت ســيطرة الأنجلز والسكســون والبرنجديين والقوط والوندال وغيرهم . حقيقة ان ولايات الامبراطورية الشرقية الواقعة جنوبى الدانوب قاســت كثيراً من التدمير بسبب اغارات البرابرة ، ولكن الجرمان لم يســتقروا فى القــرن الخامس فى هذه الولايات بسبب السياسة التى اتبعها الاباطرة البيزنطيون ، وهى السياسة الخاصة باغراء المغيرين على الاتجاه غربا (٢) . هذا فضلا عما حبت به الطبيعة عاصمة الامبراطورية البيزنطية من منــاعة وموقع حصين ، جعلها بعيدة عن منال الأعداء ، وطالما كـــانت القسطنطينية نفسها رافعة رأسها فالامبراطورية قائمة لم تسقط (٣) .

ومهما يكن من أمــر فان تقسيم ثيودســيوس العظيم للامبراطورية

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 122-123.

(2) Painter : op. cit. p. 33.

(3) Katz : op. cit. p. 113.

سنة ٣٩٥ جعل هناك امبراطوريتين احـداهما شرقية الطابع والكنيسـة يونانية الحضارة واللغة والتراث ، والثانية غربية الطابع ، لاتينية اللغة والحضارة ، كاثوليكية المذهب . والواقع أن تاريخ الامبراطورية البيزنطية ظل تـاريخ القسـطنطينية بحضـارتها الهللينية ، فى حين أمسى تـاريخ الامبراطورية الغربية فى العصـور الوسطى مزيجا من حضارة الشـعب الرومانى والشعوب الجرمانية التى غزت الغرب واستقرت فيه .

وقد خلف الامبراطور ثيودسيوس فى حكم الامبراطورية الشرقية ابنه أردكـايوس (٣٩٥ — ٤٠٨) ثم ثيودسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠) . وليست هناك أهمية خاصة لهذه الفترة سوى ما قام به ثيودسيوس الثانى من جمع القانون الرومانى وتبويبه ، مما نتج عنه صدور المجموعـة التى عرفت بمجموعة ثيودسيوس سنة ٤٣٩ (١) . وترجع أهمية هذا العمل الى ان الشـعوب الجرمانية — وبخاصـة القوط — تأثرت بمجموعـة ثيودسيوس أكثر من تأثرها بأى مصدر رومانى آخر ، حتى أصبحت هذه المجموعة أساس التشريع الادارى فى كل من أسبانيا وايطاليا .

ويبدو أن الامبراطورية البيزنطية شهدت تقدما ملموسـا بعد وفـاة ثيودسيوس الثانى سـنة ٤٥٠ ، لأن خلفـاءه الذين اقبلوا عـلى عرش الامبراطورية فى السبع والسبعين سنة التالية كانوا على درجة كافية من المهارة (٢) . ومن أشهر الأباطرة فى هذه الفترة الامبراطور زينون Zeno (٤٧٤ — ٤٩١) الذى خلص الامبراطورية الشرقية من خطر القوط كمـا ذكرنا ، وكذلك الامبراطور أنسطسيوس (٤٩١ — ٥١٨) الذى استن بعض تشريعات مالية لا تخلو فى طابعها العام من التعسف ولكنها نجحت على أى حال فى اشباع خزانة الدولة بالمال (٣) . هذا فضلا عن انه حصن حدود الدولة على امتداد جبهة الشام باقامة عدد كبير من القلاع كما دعم تحصينات

---

(1) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental, p. 10.

(2) Stephenson : op. cit. p. 67.

(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 60.

القسطنطينية وجبهةالدانوب ، وحارب الفرس (١) . ثم كان أن أدت وفاة انسطسيوس ســـنة ٥١٨ دون وريث الى شيء من عدم الاستقرار ، انتهى بقيام جســـتين الأول فى الحكم (٥١٨ — ٥٢٧) بعـــد أن كـــان يشـــغل وظيفة قائد الحرس الامبراطورى . وقد تبنى الامبراطور جستين هـــذا ابن أخته — الـــذى عرف فيمـــا بعـــد باســـم جستنيان — وجعله قائدا للجيش ثم شريكا له فى حكم الامبراطورية (٢) . وأخيرا تولى جستنيان عرش الامبراطورية البيزنطية ســـنة ٥٢٧ ليبدأ صـــفحة هامة فى تاريخها .

جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) :

والواقع أن جستنيان كـــــان من أبـــــرز الشــــــــخصيات التى تولت عرش الامـــبراطورية ، كما استطاع تخليد اسمه فى التـــاريخ بفضل الأعمال الواسعة التى قام بها فى الداخل والخارج . والى جـــانب جستنيان يحفظ لنا التاريخ اسم زوجته الامبراطورة ثيودورا التى لعبت دورا هاما فى حياة زوجها ، حتى أن الفضل يرجع اليها فى انقاذه من الســـــقوط عندما شبت ثورة خطيرة فى القسطنطينية ســـنة ٥٣٢ وهم الامبراطور بالفرار ، ولولا تشجيع ثيودورا وحثها له على الثبات (٣) .

وكـــانت الامبراطورية الرومانية تمـــر بمحنـــة قاســـية عندمـــــا اعتلى جســـــــتنيان عرشـــــها ، اذ انتـــزع الجرمـــان معظم ولاياتها فى الغرب فى حين أخـــذ خطر الفرس يتفاقم فى الشرق مـــــرة أخـــــرى ، ولا ســـيما عندما تولى حكمهم كسرى الأول أبو شروان (٥٣١ — ٥٧٩) أعظم ملوك بنى ساسان . أما عن السياسة الحربية التى أتبعها جستنيان لدفع هذه الأخطار فيمكن تلخيصها فى أنها قامت على أساس الدفـــاع فى الشرق والهجوم فى الغرب . ذلك أن جستنيان لم يستنكف من شراء مسالمة الفرس بالمال فى سبيل محاولة استرداد الامبراطورية التى انتزعها الجرمان

---

(1) Bury : op. cit. Vol. 2, pp. 10-15.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. I, p. 2.
(3) Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin, Tome. 1, pp. 172-173.

فى الغرب حتى تعود الامبراطورية الرومانية كما كانت قديما وحدة متماسكة ويعود البحر المتوسط بحيرة رومانية مرة أخرى (١) . وهنا نلاحظ أن بعض المؤرخين انتقدوا جستنيان لانه ضحى بكثير من الدماء والاموال فى حروبه بالغرب ضد الجرمان ، فى الوقت الذى كان هؤلاء الجرمان — باستثناء الوندال — لا يؤذون الامبراطورية أو يهددونها . ويرى هؤلاء الناقدون أنه كان أحرى بجستنيان أن يوجه كل جهوده الحربية ضد الفرس حيث كان يكمن الخطر الحقيقى على الدولة البيزنطية . ولكننا يجب أن ندرك أنه لو فعل جستنيان ذلك وتغاضى عن أمر الغرب موجها كل جهوده نحو الشرق ، لأدت هذه السياسة الى تخليه عن تراث الامبراطورية الرومانية وروحها (٢) . فسياسة جستنيان الحربية حافظت على العلاقات بين الدولة البيزنطية من جهة والعالم الرومانى الغربى من جهة أخرى ، وحالت دون جعل هذه الامبراطورية قوة شرقية بحتة ، الأمر الذى دفع بعض المؤرخين الى اعتباره آخر امبراطور « رومانى » بمعنى الكلمة ، أو الوحيد الذى يستحق لقب امبراطور رومانى بعد دقلديانوس وقسطنطين وجوليان وفالنشيان وثيودسيوس (٣) .

وقد بدأ جستنيان بحرب قصيرة ضد الفرس (٥٢٧ — ٥٣٢) انتهت بصلح سريع بين الطرفين سنة ٥٣٢ ، وبذلك اطمأن الامبراطور من جهة الجبهة الشرقية وأخذ يحول قواته ضد الغرب (٤) . وقبل أن نعالج حروب جستنيان فى الغرب يصح أن نشير الى أن حسن الحظ هيأ له قائدين ماهرين هما بلزاريوس ونارسيس ، اللذان رجع اليهما الفضل فى الانتصارات العظيمة التى أحرزتها الجيوش البيزنطية على عهد جستنيان (٥) . وكانت القوة الحربية للامبراطورية البيزنطية على عهد جستنيان تبلغ مائة وعشرين ألف رجل ، وان كان عدد

---

(1) Stephenson : op. cit. p. 107.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 186-187.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 162.
(4) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 131.
(5) Bury : op. cit. Vol. 2, pp. 79-88.
(6) Painte: : op. cit. p. 33.

المقاتلين الذين اشتركوا فى أية موقعة لم يتجاوز خمسة وعشرين الفا . على أن عـدد أفراد هذه القـوة لا يهمنا - من ناحية الأثر - بقـدر ما يهمنا أن هذه القـوة كانت مؤلفة من الخيالة الثقيـلة Cataphracti المزودين بالسـهام والسيوف والحـراب ، فضلا عن الدروع الحـديدية السميكة (١) . والواقع أن اتبـاع هذا الأسلوب فى الحرب يعتـبر ثورة فى التاريخ الحـربى لأوربا فى العصـور الوسطى (٢) . أما فيما يتعلق بمشروعات جستنيان الحربية بالذات ، فانه لم يكن فى استطاعة أى ملك من ملوك الجرمان فى الغـرب أن يصمد فى وجـه هذا النوع من الخيالة الثقيـلة ، مما مكن جستنيان من الحصـول على انتصارات سريعـة الحـروب التى قام بهـا لاسترداد أراضى الامـبراطورية المفقـودة فى الغرب .

وكانت أولى حـروب جستنيـان فى الغـرب ضد الوندال ، الذين اغتصبوا ولاية شمال افريقية - كما سبق أن ذكرنا - وأسسوا فيها مملـكة خاصـة بهم . وكان الوندال قـد اعتراهم الذبول والفتـور فى وطنهم الجديد نتيجة لاثر الجو الافريقى الذى لم يعتادوه من جهة ، ولاختلاطهم مع أهالى البـلاد الأصليين من جهة أخرى (٣) . لذلك لم يتمكن الوندال من اقامة بنـاء حضارى فى افريقية ، وانما أقاموا دولة اعتمـدت على السلب والنهب وأعمـال القرصنة فى البحر المتوسط ، مما جعل حمـلة جستنيان ضدهم تصـادف توفيقا كبيرا . وقـد أتيحت الفرصـة لتدخل جستنيان عندما استنجد به فـريق من الوندال سنة ٥٣١ أثناء المنازعات الداخلية التى دعمـت دولتهم عندئذ (٤) . لذلك لم يكد جسـتنيان يفرغ من الحـرب الفارسية سـنة ٥٣٢ حتى عهـد الى قائـده بلزاريوس بغزو ولاية افريقية بعـد أن زوده بقوة لم تتجـاوز ستة عشر ألفـا من المحاربين حملتهم خمسمائة سفينة . وشـاء حسن حظ بلزاريوس عندئذ أن جليمار Gelimar - مغتصب عـرش الوندال - كان قـد أرسل أسطوله وجـزءا من جيشـه لاخماد ثورة فى جزيرة سردينيا ، ممـا

(1) Cam, Med, Hist, Vol. 2, p. 11.
(2) Stephenson : op. cit. pp. 107-108.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, 127.
(4) Bury : op. cit. Vol. 2, p. 126.

مكن بلزاريوس من الوصول بســلام الى شاطىء أفريقيـة حيث أنزل قـواته الى البر وأخـذ يزحف فـورا على قرطاجة سـنة ٥٣٣ (١) .
وقد تمـكن بلزاريوس من تحطيم قـوة الوندال بعـد أن أنزل بهم الهزيمة في موقعتين ، وذلك بفضـل مساعدة أهالى البـلاد الأصليين من العنصر الرومانى الـكاثوليكى . وهكذا لم يمض على وصول القـوات البيزنطية الى أراضى ولاية أفريقيـة ستة أشهر الا وكانت دولة الوندال قـد دالت واختفت الى حيث لا رجعـة ، من صفحة التاريـخ . وسرعان ما عادت الادارة الرومانية الى شمال أفريقية وعـاد الرومان الى تمـلك الأراضى التى سـبق أن اغتصبها منهـم الوندال ، فى حـين حمل قادة الوندال وزعمائهم الى القسـطنطينية ليصبحوا عبيـدا (٢) . واذا كانت حكومة جستنيان قـد أخذت تعمل فى سرعة على ازالـة كل أثر تركه الوندال فى شمال أفريقية ، الا أن البربر — الذين ظلوا فى حالة ثورة منـذ الفتح الرومانى ضـد أى حكم أجنبى — أثاروا عقبة قـوية فى سبيل الادارة البيزنطية ، بحيث لم يتم اخضاعهم الا بعـد سقوط دولة الوندال باثنتى عشرة سـنة ، وان ظل مركز البيزنطيين ضعيفـا بعد ذلك (٣) .

ولم يكد الامـبراطور جستنيان يفرغ من أمـر شمال أفريقية حتى بدأ يوجه نظره نحو ايطاليـا التى اغتصبها القوط الشرقيون . وقـد بدأ جستنيان بأن طلب من القـوط عدة مطالب باهظـة أهمها دفـع جزية سنوية ضخمة ، وتقـديم ثلاث آلاف من الرجال القـوط للعمل فى جيوش الامبراطورية ، وتحرير الـكنيسة من سيطرة القـوط ، هذا فضلا عن اعتراف القوط بحق الامبراطورية فى السيادة العليا على ايطاليـا . ولم ينتظر جستنيان نتيجة المفـاوضات الدائرة بينـه وبين القوط الشرقيين حول المطالب السابقة ، وانما انتهز فرصة مقتل صاحب الحـق الشرعى فى عرشـهم للتدخل فى شـئونهم الداخلية ، فتقـدم جزء من الجيـوش الامبراطورية الى ايطاليـا عن طريق دالماشيا ، فى حين قام جـزء آخر باحتلال صقلية تحت قيادة بلزاريوس (٤) .

---

(1) Lot : The End of the Ancient World, pp. 258-259.
(2) Cam Med. Hist. Vol. 2, p. 13.
(3) Stephenson : op. cit. p. 109.
(4) Lot : The End of the Ancient World. p. 266.

وفى سنة ٥٣٦ عـــبر بلزاريوس البحـــر من صقلية الى ايطاليـــا فاستولى على نابلى ثم رومـــا دون أن يشتبك مع القـــوط الشرقيين فى معركة فاصـــلة (١) . وقد ظن جستنيان أن أمـــر ايطاليا والقوط انتهى بهذه السهولة عند ذاك الحد ، فاستدعى قائـــده بلزاريوس ، فى الوقت الذى أعاد القوط توحيـــد صفوفهم تحت زعامة توتيلا Totila وبذلك تمكنوا من بسط سيطرتهم على ايطاليا بأكملها مـــرة أخرى ، فضلا عن صقلية وسردينيا وكورسيكا . وهكذا تطلبت الظروف ان يعود بلزاريوس الى المسرح الايطالى مـــرة أخرى ، ولـــكن يبدو أن الجيوش البيزنطية لم تـــكن كافية للقيام بعمل حـــربى واسع ، وذلك بسبب تجدد الحرب بين الامبراطورية والفرس من جهة ، ولحاجة الامبراطورية الى الاحتفاظ ببعض قواتهـــا فى شمال أفريقية من جهـــة ثانية ، هذا فضلا عن انتشار الوباء فى القسطنطينية نفســـها من جهة ثالثة (٢) . وقـــد رفض القوط الشرقيون الاستسلام فى سهولة ، فاستمرت الحرب فى ايطاليـــا سنوات طويلة ، أظهر فيها القوط عنادا شديدا ، على الرغم من الهزائم المتلاحقة التى حلت بهم . وأخيرا حـــل نارسيس Narses محـــل بلزاريوس فى قيادة الجيوش الامبـــراطورية فى ايطاليا ، فانهارت أمامه قـــوة القـــوط الشرقيين نهائيا ســـنة ٥٥٢ عندما أنزل بهم هزيمـــة ساحقة فى موقعة تادينوى Tadinoe وقتـــل آخر ملوكهم توتيـــلا (٣) . وكان أن أرسلت بقايا القـــوط الى نارسيس يعترفون بأن اللـــه لم يكن فى جانبهم وأنهم مستعدون للتسليم نهائيـــا على أن يسمح لهم بمغادرة ايطاليـــا ليعيشوا فى أى بلد آخـــر من بلاد البرابرة ، فوافـــق نارسيس على هذا العرض ســـنة ٥٥٣ . وهكذا انسحب القوط الشرقيون من ايطاليـــا حيث اختفوا بعد ذلك نتيجة اندماجهم فى بعض الشعوب البربرية الأخرى مثل الجيبداى أو الســـلاف ، وبذلك انتهى دورهم على مسرح التـــاريخ (٤) . وهنـــا نلاحظ أن هذه الحرب لم تـــكد تنتهى حتى كانت ايطاليـــا فى حالة يرثى لها بسبب الخراب المـــادى والانحلال الاجتماعى والضـــعف الاقتصادى وقلة

---

(1) Hodgkin : Italy and Her, Invaders, Vol. 4. 41-84.
(2) Idem : p. 444.
(3) Lot : The End of the Ancient World. pp. 262-263.
(4) Hodgkin : Ital tnd Her Invaders. Vol. 4, pp.

السكان نتيجة للحروب وانتشار المجاعات والأوبئة ، حتى أخذت قطعان الذئاب تهاجم المـدن بعد أن وجـدت الريف أمامها مجدبا . وقـد لجأ بعض أهالى المدن فى الشمال الشرقى مثـل بادوا وأكويليا وغيرهما الى الفرار عندئذ نحـو الضحلة الواقعة على قمة البحـر الأدرياتى ، وهى الجهة التى أصبحت ملاذا للـكثيرين منذ غزوات ألرك وأتيلا ، مما يعتبر نواة لنشأة مدينة البندقية (١) .

وبعـد أن فرغ جستنيان من أمر ايطاليـا ، أخذ يوجه جهـوده نحو استرداد أسبانيا من القوط الغربيين ، وذلك اتماما لمشروعه الخاص باعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية . وعلى الرغم من أن دولة القـوط الغربيين أضحت فى حالة يرثى لها بعد هزيمة ملـكها ألرك الثانى أمام كلوفس سـنة ٥٠٨ (٢) ، الا أنه يبدو أن طبيعة البـلاد الأسبانية من جهة ، وانشـغال جستنيان بنواحى أخرى من جهة ثانيـة ، وتماسك القوط الغربيين فى وجه هذا الخطر الجـديد من جهد ثالثة ، كل هـذه العوامل حالت دون تمكين جيوش الامبراطورية من الاستيلاء على أسبانيا استيلاءا تاما ، فاكتفت سـنة ٥٥٤ بالسيطرة على بعض المـدن الهامة فى الركن الجنوبى الشرقى مثل أشبيلية ومالقـة وقرطاجنة وقرطبة فضلا عن جزائر البليار (٣) .

على أن الـكوارث التى حلت بالامـبراطورية البيزطيـة عندئذ فى الشرق ، أضعفت من بريق انتصارات جستنيان فى الغرب . ذلك أن سياسة هذا الامبراطور أدت الى تعريض مصالح الامبراطورية فى الشرق للخطـر بل التضحية بها فى سبيل تحقيق أحلامه الغربية (٤) . فعلى الرغم من أن بلزاريوس أحرز نصرا على الفرس عند دارا سنة ٥٣٠ الا أن جستنيان لم يشأ أن يستغل فرصة هذا النصر لملاحقة الفـرس ، وانما فضـل أن يدفع جزية لكسرى سـنة ٥٣٢ لشراء مسالمته وسـكوته (٥) . عـلى

---

(1) Thompson : op. cit. 1. p. 130.
(2) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. pp. 169-171.
(3) Bury : op. cit. Vol. 2, p. 287.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 187.
(5) Diehl & Marcais : op. cit. p. 69.

أن كسرى أنوشروان لم يلبث أن جـدد الحرب ضـد الامبراطورية سـنة ٥٤٠ واستولى فيما بين هـذه السـنة وسنة ٥٥٥ عـلى دارا ، كما اجتاح بلاد الشـام واحتلت جيوشه انطاكية . كل ذلك وجستنيان يطأطىء منهم الرأس للفرس فى سـبيل اتمام مشروعاته الغربية ، حتى أنه عـاد فاشترى الصلح منهم مرتين الأولى سـنة ٥٤٥ والثانية سـنة ٥٦١ . وكان المال الذى دفعه جسـتنيان للفرس كـان الثمن الذى اشترى بـه انتصاراته فى الغرب (١) .

وفى هذه الأثناء كان على جستنيان أيضـا أن يعمل لحماية حـدود امبراطوريته فى شبه جزيرة البلقان من أخطار جماعات جديدة من البرابرة مثل السلاف والبلغار والآفار (٢) . والواقع أن سلامة البلقان كـانت أكثر أهمية للامبراطورية الشرقية من استرداد افريقية وايطاليا وأسبانيا ، كما كانت لا تقل أهمية عن حرب الفرس بالنسبة لمستقبل الامبراطورية وحماية حدودها . لذلك أقام جستنيان سلسلة من القلاع يبلغ عددها ثمانين ، امتدت من مصب السافا حتى الدانوب ، كما أقام خطا آخر من التحصينات خلال ابيروس وتساليا وتراقيا ومقدونيا (٣) . أما فى آسيا فقد حصن الحـدود من طرابيزون حتى الفرات ، كما وحـد بعض الأقاليم الشرقية فى آسـيا الصغرى توحيدا اداريا مثل بونطس Pontus وبافلاجونيا Paphlagonia وأرمينيا وكابادوكيا وجلاتيا Glatia ، فأصبحت جميعا خاضعة لحاكم واحد يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية . ومن الواضـح أن الغرض من هذا الاجراء كان تحقيق الترابط بين أجزاء آسـيا الصغرى من جهة ، وضمان الاتصال المباشر مع بلاد الشام من جهة أخرى (٤) .

على أنه اذا كانت أعمال جسـتنيان الحربية لم تعش طويلا لتخلـد اسمه بعد وفاته فان أعماله السـلمية كـانت من العظمة والأهمية بحيث ضمنت لجستنيان الخلود بين عظماء التاريخ (٥) . وعلى رأس هذه الأعمال

---

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 270.
(2) Ostrogorsky : op. cit, p. 66.
(3) Bury : op. cit. Vol. 2, pp. 308-310.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 38-39.
(5) Fliche : La Chritiente, : p. 50.

جميعا تأتى مجموعة القوانين Corpus Juris التى تمت تحت اشراف جستنيان وبفضل تشجيعه ، مما جعلها ترتبط باسمه على مر العصور . ذلك أن الامبراطور جمع نخبة من كبار رجال القانون تحت رآسة تريبونيان وكلفهم جمع القوانين الرومانية وتبويبها بعـد أن أصبحت مهددة بالاندثار والضياع (١) . وبعد مرور أربعة عشر شهرا من الجهد المتواصل أصدرت هذه اللجنة سـنة ٥٢٩ مجموعة الدساتير الامبراطورية التى نسبت الى جستنيان Codex Justinianus ، وهى تشمل جميع الدساتير والمراسيم التى أصدرها الاباطرة فضلا عن تشريعات السناتو (٢) . وفى سـنة ٥٣٣ صدر موجز يحوى المبادىء الأسـاسية للتشريع الرومانى حتى يكون مرجعا لطلاب القانون . وبعد ذلك بأيـام ـ فى نفس السـنة السابقة ـ صدرت الموسوعة Digesta التى تقع فى خمسين كتابا ينقسم كل منها الى فقرات ، على رأس كل فقرة بيان يتضمن اسـم الفقيه الذى أخذت عنه وعنوان الكتاب والموضوع (٣) . أما بقية تشريعات جستنيان الخاصة فكانت تصـدر بين حين وآخر تبـاعا ، وأطلق عليها المتجددات Novellae Contitiones ، وقـد نشرت جميعها باليونانية سـنة ٥٦٥ (٤) .

أمـا سـياسة جستنيان فكانت ترمى الى السـيطرة عـلى شئون الدولة والكنيسة جميعا ، بحيث يصبح جستنيان بمثابة أمبراطور وبابا شرقى فى نفس الوقت . ويبدو أن جهود جستنيان اتجهت نحو توحيد جميع رعايا العالم الرومانى فى ظل كنيسة واحدة يسيطر هو عليها . ولما كـان تحقيق هذه الغاية يتطلب القضـاء على الوثنيين والهراطقة قضاءا تاما ، فـان جستنيان تمسـك المراسيم التى أصدرها أسلافه فى هذه الشأن ، كمـا أقصى عن مهنة التدريس كل من يدين بتعاليم الهيللنية وفلسـفتها (٥) . وهكذا أغلقت مدارس آثينا الفلسفية ذات الماضى المجيد الذى يرجع الى

(1) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, pp. 187-189.
(2) Bury : op. cit. Vol. 2, pp. 397-398.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 59-60.
(4) Eyre : op. cit. pp. 40-42.
(5) Bury : op. cit. Vol. 2, pp. 364-372.

القرن الرابع قبل الميلاد ، كما روعى أن يكون الأساتذة فى القسطنطينية وغيرها من أنحاء الامبراطورية بعيدين عن الشبهات الفكرية . أما اليهود فقد أبعدوا عن كافة مناصب الدولة ، ومثلهم كل من لم يستطع اثبات صدق عقيدته ، فى حين حرم الهراطقة من كافة الحقوق المدنية فضلا عن العقوبات الرادعة التى تعرضوا لها (١) .

على أن جستنيان لم يستطع أن يتخذ موقفا حازما أو سياسة ثابتة من مشكلة المونوفيزيتية ، وهى المشكلة التى هددت باتساع فجوة الانشقاق الدينى بين روما والقسطنطينية منذ الامبراطور زينون ثم الامبراطور أنسطسيوس من بعده ، حتى جاء الامبراطور جستين فعمل على ازالة هذا الشقاق عن طريق العودة الى مراسيم مجمع خلقدونيا (سنة ٤٥١) وموافقة البابوية على رأيها (٢) . وقد أراد جستنيان فى أول الأمر أن يتبع سياسة سلفه جستين فى النزول على رأى البابوية والقول بمذهب الطبيعتين ، وبالتالى تسفيه المونوفيزيتية واضطهاد أتباعها ، لا سيما وان هذه السياسة تتفق مع مطامع جستنيان فى ايطاليا (٣) . لكن جستنيان لم يستطع المضى فى هذه السياسة لأن زوجته ثيودورا — صاحبة الرأى المسموع لديه — كانت تميل الى المذهب المونوفيزيتى ، مما جعل الامبراطور يتأرجح بين المذهبين . وأخيرا أدى انتصار جستنيان فى ايطاليا الى تشجيعه على اتخاذ رأى حاسم فى الموضوع — هو رأى زوجته ثيودورا طبعا — فاستغل فرصة دخول جيوشه روما ، وحاول فرض رأيه على البابوية والغرب (٤) . وعندما عارضت البابوية هذا الرأى ، قبضت الجنود على البابا فجليوس Vigilius وسيق الى القسطنطينية حيث عقد المجمع المسكونى الخامس سنة ٥٥٣ بحضور الامبراطور ، وانتهى باقرار سياسته الدينية (٥) . ولكن اذا كان جستنيان قد ظن أنه خرج منتصرا من هذه الجولة ، فان الواقع سرعان ما اثبتنا أنه زاد من حدة

(1) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, pp. 197-198.
(2) Duchesne : op. cit. pp. 515-518.
(3) Diehl & Marcais : op. cit. p. 107.
(4) Vasiliev : p. cit. Tome. 1, p. 199.
(5) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, pp. 190-198.

الخلاف بين المذهبين ، اذ شجع موقفه المونوفيزيتين على اقامة كنيسة منفصلة لا تزال قائمة حتى اليــوم ، وتعرف باسم الكنيســة اليعقوبية أو كنيسة اليعاقبة نسبة الى مؤسســها يعقوب برادايوس أسقف الرهــا فى القرن السادس (١) . أما فى الغرب فان سياسة جستنيان لم تؤد الا الى ازدياد عداء البابوية للامبراطورية الشرقية ، وبالتالى اضعاف نفوذ الأباطرة البيزنطيين فى ايطاليا ، الأمر الذى شجع البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) فيما بعد على اتخاذ موقف صلب حازم من الامبراطورية البيزنطية وسياستها الدينية (٢) . وقد ظل النفور سائدا بين القسطنطينية وروما بســبب الخلاف حول طبيعة المســيح ، حتى استولى المســلمون فى القرن السابع على الشــام ومصر وهى المراكز الرئيسيــة للمــذهب المونوفيزيتى ، ومن ثم لم يعد الأباطرة البيزنطيون فى حاجة الى استرضاء أهل الشام ومصر ، فعمل الامبراطور قسطنطين الرابع على استرضــاء البابا أجاثــون Agathon (٦٧٨ — ٦٨١) حتى تم عقــد مجمع مسكونى فى القسطنطينية ســنة ٦٨١ أصدر قــرارا بادانة المونوفيزيتية واعدامها (٣) .

وقد نشطت تجارة القسطنطينية وصناعتها نشاطا كبيرا على عهــد جستنيان حتى نافست الاسكندرية بل تفوقت عليها . ذلك أن القسطنطينية أصبحت فى ذلك العصر من أهم مراكز التجارة بين الشرق والغرب ، فكانت ترد اليها من الصين والهند الحرير والأحجار الثمينة والبخــور والعطــور والتوابل ، ومن روســيا الرقيق والخيل والفراء والجلود والقمح . هذا فى الوقت الذى استمرت أرض البلقان فى انتــاج خيراتها المعدنية والنباتية ، كما ساد الرخاء ولايات آسيا الصغرى وازداد ســكانها (٥) . وكــان جستنيان ـ مثل أسلافه العظام ـ بناءا كبيرا فأكثر من شق الطرق وبناء الجسور

---

(1) Stephenson : op. cit. pp. 111-112.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 202.

(3) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 221.

(4) Ostrogorsky : op. cit. pp. 68-69.

والقصور والمستشفيات والقلاع والمسارح والحمامات . وعلى رأس هذه المنشآت جميعا تأتى كنيسة أيا صوفيا بفنها الرائع وقبتها الفريدة ، مما جعلها من أعظم التحف الفنية الخالدة التى خلقتها العصور الوسطى (١) .

الامبراطورية البيزنطية بعد جستنيان :

على أننا اذا تركنا المظاهر السطحية البراقة لذلك العصر ، الفينا أن شعب جستنيان قاسى الكثير من البؤس والضغط نتيجة لسياسته . ذلك أن حروب هذا الامبراطور الواسعة ومشروعاته الضخمة أجهدت خزانة الدولة وتطلبت زيادة الضرائب ، بحيث أننا لا نبالغ عندما نقرر أن جستنيان ترك الامبراطورية أشد انهاكا مما وجدها عليه (٢) . هذا فضلا عن أن البناء الامبراطورى الذى أجهد جستنيان نفسه فى اقامته سرعان ما أخذ يتداعى ، فلم تمض على وفاته ثلاث سنوات الا كان اللمبارديون قد دخلوا ايطاليا فى حين طرد القوط الغربيون القوات الامبراطورية من أسبانيا (٣) . وقد ظهرت أعراض الانهاك الشديد واضحة على الامبراطورية البيزنطية بعد وفاة جستنيان مباشرة سنة ٥٦٥ ، اذ أخذت تتدهور تدهورا سريعا فى الوقت الذى تجددت اغارات اعدائها فى عهد جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) وطبريوس (٥٧٨ — ٥٨٢) وموريس (٥٨٢ — ٦٠٢) وفوقاس (٦٠٢ — ٦١٠) .

وأول من يستحق الذكر من هؤلاء الأباطرة هو الامبراطور موريس الذى ركز خطته السياسية فى اقرار السلام مع الفرس وتكريس كل موارد الدولة للاحتفاظ بالبلقان وآسيا الصغرى ، حتى لو أدى به الأمر الى التضحية بايطاليا (٤) . ولهذا الغرض عقد موريس اتفاقية مع الفرس سنة ٥٩٢ ، قضت بضم أرمينيا وجزء من أعالى بلاد النهرين ومدينة دارا الى الامبراطورية

---

(1) Fliche : La Chretiente Med. p. 58.

(2) Diehl & Marcais : op. cit. p. 56.

(3) Painter : op. cit. p. 34.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 137.

التى تعهدت بدفع جزية سنوية للفرس (١) . على أنه اذا كانت الامبراطورية قد استطاعت وقف خطر الفرس مؤقتا ، الا أن تفكك امبراطورية المغول فى القرن الخامس سرعان ما فتح الطريق أمام شعب آسيوى جديد هم الآفار الذين ظلوا حتى ذلك الوقت يرابطون فيما بين الدون والفولجا . وفى الوقت الذى كان موريس مشغولا بحربه المستمرة ضد الفرس التى استمرت حتى سنة ٥٩٢ ، اذا بالسلاف والآفار يستغلون الفرصة ويتوغلون داخل تراقيا ومقدونيا (٢) . لذلك لم يكد موريس يفرغ من عقد الصلح مع الفرس فى هذه السنة السابقة ، حتى نقل كل قواته الى جبهة الدانوب ضد الآفار (٣) . وقد أحرز موريس نجاحا كبيرا فى أول الأمر ، اذ سيطرت جيوشه سنة ٦٠٢ على جبهة الدانوب بل تقدمت الى ما وراء هذا النهر . وهنا أصدر الامبراطور أوامره بأن تقضى جيوشه فصل الشتاء على الحدود الشمالية بدلا من العودة الى العاصمة ، الأمر الذى أدى الى ثورة الجند فزحفوا على العاصمة وأسقطوا الحكومة وقتلوا الامبراطور موريس نفسه ، فى حين أعلن فوقاس — زعيم الانقلاب — نفسه امبراطورا (٤) .

ولكن يبدو أن هذا الانقلاب كان وخيم العواقب بالنسبة للامبراطورية ، لان الامبراطور الجديد أخفق فى الحصول على رضاء الرأى العام ، فى الوقت الذى ظهر عجزه عن حماية حدود الامبراطورية . ولم يكد فوقاس يعتلى العرش حتى عجل الفرس بشن الحرب من جديد فاستولوا على دارا واخترقوا آسيا الصغرى حتى وصلوا الى خلقدونيا على البسفور فحاصروها ، هذا فى الوقت الذى اشتد ضغط الآفار على الجبهة البلقانية (٥) . وكان فوقاس أضعف من أن يواجه الموقف فى شجاعة ، فلجأ سنة ٦٠٤ الى شراء مسالمة الآفار عن طريق رفع قيمة الجزية التى تدفعها

(1) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, p. 223.
(2) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 130-123.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 280.
(4) Stephenson : op. cit. pp. 115-116.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 385.

لهم الامبراطورية . ولكن هــذه المحــاولة لم توقف تيار الآفار والســلاف فاجتاحوا شبه جزيرة البلقان بأكملها حتى بدت الامبراطورية على شفاهاوية سحيقة (١) . وفى هــذا الموقف أخذ فوقــاس يتشكك فى كل من حــوله بالقسطنطينية فبدأ موجة من الارهاب وسفك الدماء جعلت كل أحــد من اشد المقربين اليه لا يأمن عاقبة غدره . وفى وســط هذا الجو المشحــون بالأخطار الخارجية والمخــاوف الداخلية تخلى خيرة قادة الجيش البيزنطى عن العمل فى خدمة ذلك الامبراطور الضعيف ، بل ان بعضهم اتصل سرا بالفرس طالبين معونتهم للاطاحة بهذا الطاغية المتعطش للدماء . وكــان ان انتهى الأمر بتدبير مؤامرة داخلية بالاتفاق مع هرقل حــاكم قرطاجة الذى ارسل ابنه ــ المسمى هرقل أيضا ــ فأتى بسفنه ورجاله الى القسطنطينية ســنة ٦١٠ حيث تم الانقلاب دون حــرب ، فعزل فوقاس وقتل بأيدى وزرائه فى نفس اليوم الذى اعتلى فيه هرقل عرش الامبراطورية (٢) .

هــرقل :

على أن هرقل تولى حكم الامبراطورية فى هذه الظروف ليجد نفسه فى مركز لا يحسد عليه حاكم : فالخزانة خاوية ، وولايات الامبراطور تعانى انهاكا شديدا وفوضى شاملة ، وخطر الفرس على الامبراطورية لا يزال قائما بل ازداد وضوحا وعنفا عندما اجتاح الفرس بلاد الشام سنة ٦١٤ واستولوا على بيت المقدس ثم على مصر بعد ذلك بعامين (٣) . وهكذا أتى على الامبراطورية البيزنطية حين من الدهر فقدت جميع أراضيها الآسيوية ما عدا شريطا ضيقا فى غرب آسيا الصغرى ، فضلا عن ضياع مصر ، وهى المخزن الرئيسى الذى كان يمد الامبراطورية بالقمح حينذاك . أما فى الجبهة الغربية فقد تقدم الآفار جنوبى الدانوب حتى وصلوا بلاد اليونان نفسها ، بحيث لم يبق للامبراطورية سوى القسطنطينية وجزر بحر ايجة وجنوب

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 78.

(2) Stephenson : op. cit. p. 116.

(3) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 143-144.

ايطاليا وولاية شمال افريقية حول قرطاجة ، فضلا عن جزء محـــدود من آسيا الصغرى (١) .

وهنا لم يشأ أن يستسلم لهذه الظروف القاسية وانمـــا قضى اثنتى عشر سنة فى تنظيم الأداة الحكومية ومراقبة حركات اعدائه . وفى هـــذه الأثناء حصل على المال اللازم من الكنيســـة التى أظهرت شـــعورا طيبا وتضامنا قويا ، فقدمت للامبراطور ما لديها من حلى وذهب وفضة لتصهر وتسبك نقودا ، وعندئذ تيسر لهرقل استئجار الجند اللازمين ، كمـــا أمن ظهره من جانب الآفار فاشترى مسالمتهم مقابل مبلغ كبير من المال (٢) . وأخيرا أبحر هرقل فى ربيع ســـنة ٦٢٢ الى خليج أسوس — عند الركن الجنوبى لآسيا الصغرى — حيث أنزل هزيمة بالفرس واستعاد منهم كابادوكيا وأرمينيا كما أجبرهم على الانسحاب من آسيا الصغرى (٣) . ولم تمض ثلاث سنوات أخرى حتى كان هرقل قد اضطر الفرس الى الجلاء أيضا عن بلاد الشام ومصر واعادة هذه البلاد الى حظيرة الدولة . ويبدو أن حروب هرقل ضد الفرس فى تلك المرحلة اتخذت طابعا دينيا صليبيا ، اذ أقبل كثير من المسيحيين المخلصين على المشاركة فيها من أجل استرداد الصليب الأعظم أو صليب الصلبوت الـــذى اســـتولى عليه الفرس عنـــد غزوهم بيت المقدس (٤) . ومهما يكن الأمر فان هذه العوامل مكنت هرقل من انـــزال ضربة قاصمة بالفرس ، فتقدم سنة ٦٢٦ عبر سهول دجلة والفرات نحو قلب الامبراطورية الفارسية حيث أنـــزل بكسرى الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨) هزيمة ساحقة فى ديسمبر سنة ٦٢٧ قرب أطلال نينوى . وعندما فر كسرى الثانى من ميدان المعركة لحق به هرقل الى المدائن عاصمة الفرس ، حتى

---

(1) Oman : The Dark Ages. pp. 204-205.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, p. 260.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 293.

(٤) تروى الأساطير أن القديســـة هلينا — أم قسطنطين — اكتشـــفت فى بيت المقدس الصـــليب الأعظم أو الحقيقى Vraie Croix الذى صـــلب عليه السيد المسيح . وعلى الرغم من أن بعض أجزاء هذا الصليب نقلت الى روما والقسطنطينية من باب التبرك ، الا أن الجزء الرئيسى منه ظل فى بيت المقدس ، وهو الذى استولى عليه الفرس واسترده هرقل .

أنظر : (Vasiliev : op. cit. Tome p. 1, p. 66)

انتهى آلامر بقيام ثورة فى فارس أطاحت بكسرى الثانى وجعلت خليفته يعقد صلحا مع الامبراطور البيزنطى (١) . وبمقضى هذا الصلح وافق الفرس على اخلاء جميع الأراضى التى انتزعوها من الامبراطورية البيزنطية ، ورد صليب الصلبوت واطلاق سراح الأسرى ، على أن تعود الحدود بين الدولتين كما كانت فى عهد موريس (٢) . على أن أحوال الدولة الفارسية لم تستقر بعد ذلك ، اذ تكاثرت الثورات والانقلابات الداخلية حتى تعاقب على عرش فارس فى تسع السنوات التالية أربعة عشر حاكما ، مما مزق أوصال دولة الفرس وجعلها مسرحا للفتن الداخلية . وفى ذلك الوقت تعرضت الدولة الفارسية لخطر خارجى جديد غير خطر الروم ، هو خطر العرب المسلمين الذين أجهزوا على بنى ساسان فى موقعة نهاوند سنة ٦٤١ وبذلك دالت دولة الفرس المستقلة لتصبح جزءا من الدولة العربية الاسلامية (٣) .

أما البلقان فقد حدث فى هذه الأثناء أن أوغلت جماعات من الصرب والكرواتيين فى تراقيا ومقدونيا تحت تأثير ضغط الآفار (٤) . ولم يقف أثر هذه الموجة عند توغل هؤلاء الأعداء فى اليريا واليونان والمورة ، وانما أصبح مصير الامبراطورية البيزنطية كلها معلقا فى كفة القدر عندما حاصروا القسطنطينية سنة ٦٢٦ (٥) . وهكذا ساد الاضطراب الامبراطورية البيزنطية منذ وفاة هرقل سنة ٦٤١ حتى نهاية أسرته سنة ٧١٧ . وفى خلال هذه المدة بذلت الامبراطورية جهودا يائسة لوقف الخطر الجديد الذى واجهها من جانب العرب ، ولكن هذه الجهود لم تنجح فى وقف حركة التوسع الاسلامية على حساب الروم . وسرعان ما استولى العرب على الشام ومصر ثم على قبرص (٦٤٨ — ٦٤٩) ورودس (٦٥٣) بل هاجموا القسطنطينية نفسها سنة ٦٦٧ ثم سنة ٦٧٢ — ٦٧٣ ، فى حين انتهوا من

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 92-93.

(2) Diehl & Marcais : op. cit. p. 150.

(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 95-96.

(4) Idem : p. 94.

(5) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 151-152.

غزو شمال افريقية بأكمله سنة ٧٠٩ (١) . وبالاضافة الى هذه الكوارث التى نزلت تترى على الامبراطورية البيزطنية ، نشبت اضطرابات فى أطراف البلقان أثارتها العناصر السلافية . هذا فضلا عن ظهور عنصر جديد من البرابرة الآسيويين الذين يرجعون الى أصل فنى ، وهم البلغار الذين تركوا مقرهم على الفولجا وعبر الدانوب سنة ٦٧٩ ليتوغلوا فى أراضى الدولة البيزنطية فى البلقان (٢) .

واذا كان عهد هرقل يتمتع بأهمية خاصة فى التاريخ السياسى للامبراطورية البيزنطية ، فان هذا العهد لا يقل أهمية فى الميدان الحضارى . فهذا العهد يمثل البداية الحقيقية للعصر البيزنطى ، بعد أن تخلت الامبراطورية عن التعلق بأهداب الحضارة الغربية واللغة اللاتينية وأخذت تتحول تدريجيا نحو الطابع اليونانى البحت . وقد جاء وقت على الامبراطورية الشرقية عاشت فيه اللغتان جنبا الى جنب ، فاللاتينية استخدمت لغة رسمية فى دوائر الحكومة ، واليونانية أصبحت لغة شعبية وأداة التفاهم بين الناس والكنيسة . لذلك وضع هرقل حداً لهذه الأوضاع وجعل اليونانية لغة الدولة الرسمية ، مما ظهر أثره فى انعاش الحضارة الهللينية . وأمام تأثير هذا التيار الهلينى تخلى هرقل عن الألقاب اللاتينية المعقدة التى تمسك بها أسلافه فاستخدم لقب باسليوس Basileus اليونانى بمعنى ملك ، وهو اللقب الذى استعمله من بعده أباطرة الدولة البيزنطية ، والذى حل محل ألقاب الرومان مثل امبراطور Imperator وقيصر Ceasar وأوغسطس Augustus .

ليو الثالث الأيسورى :

وفى وسط الفوضى والأخطار الداخلية والخارجية التى أحدقت بالدولة الشرقية عقب وفاة هرقل سنة ٦٤١ ، وجدت الامبراطورية حاكما

(1) Painter : op. cit. p. 44 & Orton : op. cit. pp. 80-81.
(2) Ostrogorsky : op. cit. pp. 112-114.
(3) Idem. pp. 95-96.

رشيدا شجاعا فى شخص الامبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ — ٧٤١) .
ويرجع أصل هذا الامبراطور — كما يتضح من لقبه — الى اقليم أيسوريا عند طوروس فى الطرف الشرقى لآسـيا الصـغرى ، ثم انتقل الى تراقيا فالتحق بالجيش البيزنطى حيث ظهرت مواهبه وشجاعته فضلا عن مقدرته على التنظيم . وقد حدث فى السنة نفسها التى اعتلى فيها ليو الأيسورى عرش الامبراطورية أن أرسل الخليفة الأموى سليمان ابن عبد الملك جيشا يبلغ ثمانين ألفا ، يسانده أسطول من ألف وثمانمائة سفينة للاستيلاء على مدينة القسطنطينية ، فحاصرها المسلمون بقيادة مسلمة بن عبد الملك سنة كاملة ارتدوا بعدها سنة ٧١٨ دون أن يحققوا غرضهم بفضل مهارة ليـو الأيسورى التى حالت دون احكام الحصار الاسلامى حول القسطنطينية ، فظلت العاصمة تتلقى الامدادات من اقليم البحر الأسود (٢) . ويعتبر صمود ليو الثالث فى وجه المسلمين أمرا على جانب كبير من الأهمية نظرا لضخامة الحملة الاسـلامية وقوتها من جهة ولقرب القسطنطينية من قلب العـالم الاسلامى من جهة أخرى ، مما أنذر بتغيير وجه شرق أوربا بأكمله فى حالة استيلاء المسلمين على هذه القلعة المنيعة (٣) . وهنا ينبغى أن نذكر أن شرق أوربا كانت تسـوده فى تلك الفترة عناصر وثنية كالآفار والسـلاف والبلغار ، وهى بحكم وثنيتها كان من المحتمل جدا أن تتأثر بالديانة الاسلامية اذا سقطت القسطنطينية فى أيدى المسلمين ، وفى هذه الحالة يمكن أن نتصور مدى التغيير الذى كان يعترى التطور التاريخى لشرق أوربا (٤) . وبعد أن فرغ ليو الثالث من أمر المسلمين أتيحت له فرصة قصيرة لتنظيم قواته ، ثم استأنف القتال من جديد لحماية الامبراطورية فأخضع ثورة فى صقلية سنة ٧١٨ ، كما رد هجوما للبلغار على البلقان سنة ٧٢٠ وهجوما رابعا قام به المسلمون على القسطنطينية سنة ٧٢٦ . وأخيرا اختتم ليو الثالث سلسلة انتصاراته الحربية بانزال هزيمة برية بالجيوش الاسلامية التى حاولت

---

(1) Diehl : Hist. to the Byzanine Empire. pp. 52-53.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome. I, pp. 313-314.
(3) Thompson : op. cit. Vol. I, p. 142.
(4) Oman : The Dark Ages. pp. 303-304.

غزو آسيا الصغرى سنة ٧٤١ . وقد ساعدت ليو الأيسورى على تحقيق هذا الانتصار المساعدة الكبيرة التى تلقاها من مملكة الخزر ، وهى المملكة التى ارتبطت حينئذ بالدولة البيزنطية لمواجهة الخطر المشترك من جانب المسلمين ، الأمر الذى أثار فى وجههم عقبات جمة وبخاصـــة فى القوقاز وأرمينيا . وليس أدل على قوة الارتباط بين الامبراطورية البيزنطية ومملكة الخـــزر عندئذ من زواج قسطنطين بن ليو الثالث ووريثه فى العرش من ابنة خان الخزر سنة ٧٣٣ (١) .

ولم تكن اصلاحات ليو الثالث المدنية أقل أهمية من جهوده الحربية . ذلك أن الامبراطورية البيزنطية كانت فى حـــاجة شـــديدة الى كثير مـــن الاصلاحات الداخلية بعد عوامل الضعف والانحلال التى تعرضت لها منذ منتصف القرن السادس ، وبعد حروب جستنيان التى أفســـدت امكانيات الامبراطورية ، فضلا عن اغارات الفـــرس والعرب والبلغار والسلاف وما ترتب عليها من اختلال الحياة الاقتصادية (٢) . لذلك قام ليو الثالث بحركة اصلاحية واسعة النطاق ، فأعاد تنظيم الجيش وأدخل كثيرا من التحسينات الادارية ، ونظم الشئون المالية والضرائب ، كما أصلح بعض النظم الكنسية ، وحد من نفوذ كبار ملاك الاراضى ، هذا كله عدا عنايته بترقية الزراعة والتجارة والصناعة (٣) . أما فى ميدان التشريع فقد أصدر ليو الثالث سنة ٧٢٦ مرجعا قانونيا يعرف باسم الاكلوجا Ecloga (المختار) . ويعتبر هذا المرجع على جانب كبير من الأهمية فى تاريخ القانون البيزنطى لأنه يشتمل على مختارات من أهم قواعد القانون المدنى والجنائى مع العناية بالنواحى المتعلقة بالأسرة والميراث والملكية . وكان الغرض من اصدار هذا الكتاب امداد القضاة بمرجع واف مركز يغنيهم عن بقية المراجع المطولة التى كان من الصعب الرجوع اليها (٤) .

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 129.

(2) Oman : The Dark Ages, pp. 504-507.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 3-4.

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 141.

على ان هناك مشكلة دينية كبرى ظهرت فى ذلك العصر واستمر أثرها طوال عدة قرون فى تاريخ غرب أوربا فضلا عن شرقها . أما هذه المشكلة فقد قامت حول عبادة الصور والأيقونات ، اذ ظهر رأى ينادى بتحريم هذه العبادة بعد أن انتشرت وشاعت ، حتى أخذ المسلمون — بسببها — يعيبون على المسيحيين انهم يعبدون الأصنام ، فى حين رأى المؤيدون أن عبادة الصور الدينية أمر طبيعى يقتضيه احترام صاحب الصورة (١) . على أنه يبدو أن عبادة الأيقونات جاءت مصحوبة بكثير من البدع والخرافات ، الأمر الذى استنكره المثقفون فى الامبراطورية ، ومن بينهم ليو الثالث نفسه الذى انحدر من أسرة على قسط من الثراء ، كما كان على جانب من الثقافة مكنه من تفهم حقيقة الوضع (٢) . وهنا نلاحظ أمرين : أولهما أن عبادة الصور والأيقونات لم تكن بأمر الجديد فى المسيحية ، وانما ترجع بدايتها الى القرن الرابع نفسه ، أى الى العصر الذى تم فيه الاعتراف بالمسيحية رسميا ، وحينذاك بدأ تزيين الكنائس بالصور والتماثيل الدينية وبدأت هذه الأيقونات تحتل مكانة خاصة فى قلوب كثير من أتباع الكنيسة . وثانيهما أن الاعتراض على عبادة الايقونات لم يكن وليد القرن الثامن وانما امتدت جذوره الى ما قبل ذلك بكثير عندما استاء بعض المسيحيين المخلصين من تصوير الانسان بالفسيفساء أو النقوش الجصية البارزة (الفرسكو) أو نحتها فى الحجر ، واعتبروا ذلك ضربا من الوثنية ، حتى أن مجمع الوير Elvire فى أسبانيا نادى فى أوائل القرن السادس بتحريم وضع الصور والتماثيل فى الكنائس (٣) .

ومهما يكن الأمر فانه يبدو أن عبادة الأيقونات انتشرت انتشارا واسعا فى القرن الثامن ، مما تطلب من الامبراطور ليو الأيسورى علاجا سريعا لهذه المشكلة . وهناك رأى يقول أن الامبراطور ليو استغل هذه المشكلة فى القضاء على نفوذ الأديرة اليونانية ، بعد أن تضخمت ثروتها وتضاعفت ممتلكاتها المعفاة من الضرائب وازدادت حقوقها وامتيازاتها

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 6.
(2) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 259-263.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 337-338.

ومسموحاتها ، مما جعلها خطرا كبيرا على الدولة (١) . ولما كان الرهبان من أشد المنتفعين من عبادة الايقونات فانهم عارضوا الامبراطور فى تحريمها ، وأخذوا يبذرون بذور الفتنة والشقاق فى كل مكان ، ووجدوا مؤيدين كثيرين لهم فى كل جهة وبخاصة بين كبار النبلاء الذين تطلبت مصالحهم الخاصة معارضة الامبراطور والوقوف فى وجهه . وهكذا أنقسم الناس — داخل الكنيسة وخارجها — الى معسكرين : أيقونيين ولا أيقونيين (٢) .

والغريب أن الحرب على الايقونية بدأت فى الدولة الاسلامية عندما أصدر الخليفة يزيد بن عبد الملك أمرا سنة ٧٢٣ بازالة جميع الأيقونات من الكنائس الواقعة داخل حدود الدولة العربية (٣) . ثم انتقلت الفكرة بعد ذلك الى الدولة البيزنطية فبدأ الامبراطور ليو الثالث حملة ضد الأيقونات وعبادتها سنة ٧٢٦ أى بعد مرور تسع سنوات على تخليصه القسطنطينية من حصار المسلمين ، وعندئذ وجد الامبراطور تشجيعا قويا وتأييدا لسياسته اللاأيقونية من بعض كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين فضلا عن المثقفين من رجال الدين . ولم تلبث جموع الجند أن سايرت الامبراطور فى سياسته ، كما شايعت هذه السياسة الأجزاء الشرقية من الامبراطورية . وهنا لا نستطيع أن نجد تفسيرا لقوة الحركة اللاأيقونية فى الشرق عنها فى الغرب الا فى أثر العقيدة الاسلامية التى قاومت الأصنام وعبادتها ، فضلا عن تأثير اليهود الذين حرموا عبادة الصور وتقديسها (٤) . أما المعارضون لسياسة الامبراطور الدينية فكان على رأسهم الديريون الذين وجدوا فى عبادة الأيقونات مصلحة خاصة لهم ، كما تمسكت بهذه العبادة الطبقات الدنيا من الناس نتيجة لجهل أفرادها وانتشار البدع والمعتقدات الباطلة بينهم (٥) . واذا كانت الأجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية قد أظهرت تمسكها بشعورها اللاايقونى ، فان الأجزاء الغربية — وبخاصة ايطاليا والبابوية — عارضت الامبراطور ليو معارضة شديدة وتمسكت بسياستها الأيقونية (٦) .

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 144.
(2) Cam Med. Hist. Vol. 4, p. 10.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 143.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 338.
(5) Oman : The Dark Ages pp. 309-310.
(6) Eyre : op. cit. p. 82.

وكـان المرسوم الذى أصدره ليو الثالث سنة ٧٢٦ بتحريم عبـادة الأيقونات حازما وشديدا ، اذ قضى بازالة جميع التماثيل والصور الدينية من الكنائس والأديرة ، وبدأ رجال الامبراطور فعلا فى ازالة الصليب الكبير المقام فوق بوابة القصر الامبراطورى فى القسطنطينية ، الامر الذى أثار عامة الناس ، ولكن الامبراطور أخضع ثورتهم فى سهولة . ولم تلبث هذه الأعمال أن استفزت رجال الكنيسة لا سيما فى الغرب — حيث وقف البابا جريجورى الثانى ثم البابا جريجورى الثالث موقفا عنيداً من سياسـة الامبراطور اللاأيقونية ، حتى أصـدر البابا جريجورى الثالث قرار الحرمـان ضـد الامبراطور سنة ٧٣١ (١) . على أن هذا القرار لم ينه المشكلة اذ استمر الخلاف عدة قرون حتى انتهى بفوز الأيقونية وأنصارها ، وعلى الرغم من الانتصارات المؤقتة التى أحرزها ليو الثالث .

ويهمنا فى هذا المقام أن النـزاع اللاأيقونى كـان له أثـره الخطير بالنسبة لايطاليا والبابوية وعلاقتهما بالدولة البيزنطية . ذلك أن أواسط ايطاليا وروما ورافنا وقفت جميعا الى جانب البابوية فى المعسكر الأيقونى ، فى حين كانت صقلية وجنوب ايطاليا فى جانب الامبراطور اللاأيقونى (٢) . وقد رد الامبراطور ليو الثالث على قرار البابا بحرمانه من الكنيسة بـأن حـرم البابوية من حقوقها وأملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا ، وفصـل الكراسى الأسقفية فى هذه الجهات عن سلطان البابا الدينى والقضـائى وجعلها تحت سـلطان بطريرق القسطنطينية (٣) . وهكذا جاء النـزاع اللاأيقونى ليزيد من حدة الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، مما كان له أثر واضح فى مستقبل الحوادث التاريخية . أما من الناحية السياسية فقد ساعدت هذه الخلافات على أنتجعل البابا حاكما ايطاليا لا يدين بالتبعية للامبراطورية البيزنطية . وهنا أخذت البابوية تبحث عن قبلة أخرى تتجه نحوها لطلب المعونة السياسـية والحربية ضـد اللمبارديين حتى وجدت

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 144.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 10.

(3) Diehl & Marcais : op. cit. p. 267.

ضالتها أخيراً فى دولة الفرنجة بغاليا (١) . أما ايطاليا نفسها فقد غــدت مقسمة سياسيا وحضاريا الى ثلاثة أقسام ، فالوسط لا تينى يظهر فيه نفوذ البابا ، والجنوب يونانى يتبع الامبراطور البيزنطى ، والشمال جرمــانى يخضع للومبارديين . وقد زاد من صبغة جنوب ايطاليا وصقلية بالطابع اليونانى فى الســنوات التالية ما حدث من هجرة آلاف الملاك والرهبــان والقســاوسة فضلا عن عــامة الناس من البلقان الى صقلية وجنوب ايطاليا ، تحت ضغط السلاف والبلغار (٢) .

قسطنطين الخامس :

وعلى الرغم مما كانت عليه الدولة البيزنطية عند وفاة ليــو الثالث سنة ٧٤١ من انقسام بسبب النزاع السياسى والدينى فى الداخل ، والأخطار الناجمة عن غزو البرابرة والعرب لأراضيها فى الخارج ، الا أنها استمرت تقوم بدورها كاملا على مسرح التاريخ ., ولا غــرابة فى ذلك ، فان أهم ما امتازت به الامبراطورية البيزنطية فى تارخها الطويل كان — كما سبق أن أشرنا — احتفاظها بطابع الحيوية والاستمرار .

وقــد خلف ليـــو الثالث قســطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) الذى ورث عن ابيه نشاطه ومثابرته ، وان اختلف عنه فى تطرفه وحبــه لمظاهر الترف والمرح . وكانت المشكلة الداخلية الكبــرى التى ورثهـــا قسطنطين الخامس عن والده هى الخلاف بين الأيقونيين واللاأيقونيين ، وهو الخلاف الذى دفع الفريق الأول الى المناداة بسقوط قسطنطين الخامس واشعال نار الثورة فى البلقان . ولكن الامبراطور اعتمد على مقدرته من جهة وعلى مساعدة الأقاليم الآسيوية من جهة أخرى حتى استطاع اخماد هذه الثورة سنة ٧٤٢ . ويبدو أن موقف قسطنطين الحازم من الأيقونيين ، وما اتصف به هذا الموقف من عنف وصرامة ، جعلهم لا يفكرون فى اشعال نار الفتنة مرة أخرى طوال حكمه الذى امتد سنوات عديدة (٣) . وعندما وجد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 691-695.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 144-155.
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 147-148.

الامبراطور أن طريقة العنف وحدها غير كافية لتحقيق سياسته اللاأيقونية ، وأن كثيرا من الناس استمروا يباشرون عبادة الصور والأيقونات الدينية سرا ، لجأ الى عقد مجمع دينى فى القسطنطينية سنة ٧٥٣ — ٧٥٤ لتبرير سياسته (١) . على أن هذا المجمع لم يكن مسكونيا الا من الناحية الاسمية فقط ، لأن البابوية ردت على الدعوة لحضور هذا المجمع بانزال اللعنة على كل من يحضره ، فى حين اعتذر عن حضوره بطارقة أنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، الذين كانوا فى حماية المسلمين ، وبذلك لم يحضر المجمع سوى نحو ثلاثمائة وأربعين أسقفا برآسة بطريرق القسطنطينية (٢) . وكان أن قرر هذا المجمع تحريم تصوير المسيح فى أى شكل من الاشكال لأن هذه الصور والتماثيل تعبر عن طبيعته الانسانية والالهية فى طابع بشرى مجسد وبذلك تطمس صفته الالهية . أما صور القديسين فقد حرم المجمع عبادتها هى الأخرى بدعوى أن هذه العبادة ضرب من الوثنية وعبادة البشر (٣) . وهكذا اتخذ قسطنطين من قرارات مجمع القسطنطينية سلاحا قويا ساعده على التطرف فى اضطهاد الأيقونيين والتنكيل بالديريين بوصفهم أشد أنصار الأيقونية ، بل انه عمل على هدم الحياة الديرية فى بلاده بمختلف الطرق والوسائل ، وان لم يتمكن من تحقيق هدفه (٤) .

أما فى الميدان الخارجى فان عهد قسطنطين الخامس البالغ قرابة خمس وثلاثين سنة كان عهد نشاط حربى كبير ، توجته سلسلة من الانتصارات التى أحرزها الامبراطور على أعداء بلاده فى الشرق والغرب . ذلك أنه استغل ما كان هناك من خلافات داخل الدول الأموية واسترد سنة ٧٤٦ بعض الجهات الواقعة على أطراف آسيا الصغرى وأعالى النهرين من المسلمين ، كما صد سنة ٧٤٨ هجوما اسلاميا وقع على جزيرة قبرص واستولى على ملطية عند أعالى الفرات سنة ٧٥١ — ٧٥٢ لمدة قصيرة .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 13-14.

(2) Diehl & Marcais : op. cit. p. 271.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1. p. 345.

(4) Oman : The Dark Ages. pp. 313-315.

ولم يكن قسطنطين الخامس أقل حماسة فى الدفاع عن ولايات البلقان ضد البلغار ، فأصلح الحصون الواقعة على الحدود وحصن القلاع المطلة على ممرات البلقان (١) . وهكذا استطاعت الامبراطورية الصمود فى وجه البلغار عندما هاجموها سنة ٧٥٥ فقاومت سالونيكا الحصار بعناد حتى تمكن الامبراطور من انزال الهزيمة بهم فى ستريمون ، وعندئذ أسكن بضعة آلاف من البلغار فى بيثنيا . وقد قام قسطنطين الخامس بعدة حملات بعد ذلك (٧٥٩ — ٧٧٥) أدب فيها البلغار وأوغل داخل أراضيهم . (٢)

ويبدو أن الانتصارات الخارجية التى أحرزها قسطنطين الخامس مكنته من القيام بعدة اصلاحات داخلية أدت الى انعاش أحوال الامبراطورية (٣) . من ذلك أنه أقام عدة مستعمرات فى الأراضى البور على الحدود الغربية للامبراطورية ، وأنزل فيها المسيحيين المهاجرين من أرمينيا وتراقيا ، وذلك لطبع هذه الجهات بالطابع الهللينى . هذا الى أن الزراعة تقدمت فى عهده كما نشطت التجارة بعد أن أمن الطرق وقضى على قطاعها . أما القسطنطينية فقد اهتم بها وعمل على تزويدها بالمياه العذبة اللازمة وامدادها بالسكان الكافين لتعميرها ، بعد أن أدى انتشار الوباء فيها (٧٤٦ — ٧٤٧) الى موت بضعة آلاف من سكانها . وأخيراً مات قسطنطين الخامس سنة ٧٧٥ وهو فى السابعة والخمسين من عمره ، تاركا خلفه دولة منظمة ، وجيشا يدين بالولاء للامبراطور ، وخزانة عامرة بالمال (٤) .

نهاية البيت الأيسورى :

خلف قسطنطين الخامس أكبر أبنائه ليو الرابع الشهير فى التاريخ باسم ليو الخزرى لأن أمه كانت ابنة ملك الخزر كما تقدم . واذا كان ليو

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 149.
(2) Idem : pp. 149-151.
(3) Diehl & Marcais op. cit. p. 259.
(4) Oman : The Dark Ages. pp. 316-317.

الرابع قد أظهر شيئا من التسامح تجاه الايقونيين فى بداية عهده ، الا أنه لم يلبث أن تحول الى سياسة أبيه عندما وجد أنهم رفعوا رؤوسهم ليعاكسوا الدولة من جديد (١) . كذلك هاجم ليو الرابع المسلمين شرقى الأناضول سنة ٧٧٨ ، فرد عليه الخليفة المهدى العباسى بمهاجمة أراضى البيزنطيين فى العام التالى . على أن ليو الرابع لم يلبث أن توفى سنة ٧٨٠ بعد حكم قصير لم يتجاوز خمس سنوات (٧٧٥ — ٧٨٠) . والواقع أن هذه الوفاة المبكرة لم يكن لها من أهمية سوى أنها جعلت السلطة الفعلية فى الدولة البيزنطية تنتقل الى أيدى أرملته ايرين ، التى قامت بالوصاية عدة سنوات على ابنها الصغير قسطنطين السادس (٧٨٠ — ٧٩٧) والتى أثبت أنها من أمهر النساء الشهيرات فى التاريخ وأكثر عنفا وميلا للشر (٢) .

ذلك أنها تخلت عن الاصلاحات اللاأيقونية التى تبناها الأباطرة الايسوريون فى الستين سنة السابقة ، ولم تلبث بمجرد أن آلت اليها مصائر الأمور أن أعلنت الحقيقة التى أخفتها عن زوجها فى حياته وهى أنها من أشد أنصار الايقونية .. وقد بدأت ايرين وصايتها باخماد مؤامرة حاول القيام بها أنصار الاصلاح من اللاأيقونيين ، كما عنيت فى منصب بطريرق القسطنطينية طرسيوس — وهو أحد دعاة الأيقونية المتحمسين . وكان من الطبيعى أن تهلل البابوية والكنيسة الغربية لايرين ، التى تشجعت فعقدت مجمعا دينيا فى نيقية سنة ٧٨٧ أقربقاء الصور والأيقونات على أساس احترامها وتبجيلها ، لا عبادتها لذاتها (٣) .

على أن قيام امرأة من هذا النوع على رأس الامبراطورية عاد بنتائج وخيمة على الدولة فى تلك الظروف ، عندما أمست الحاجة واضحة الى وجود امبراطور قوى محارب يستطيع دفع الأخطار الخارجية التى هددت الامبراطورية . ذلك أن جيوش الخليفة العباسى هارون الرشيد اجتاحت

---

(1) Cam. Med. HiSt. Vol. 4, p. 21.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 312-313.

(3) Idem : pp. 349-350.

آسيا الصغرى سنة ٧٨٦ حتى وصلت البسفور ، فى حين عجزت ايرين عن مواجهة الخطر فرضيت أن تشترى الصلح من المسلمين مقابل مبلغ ضخم تعهدت بدفعه سنويا . وفى ذلك الوقت نشط البلغار فى البلقان فاجتاحوا تراقيا بعد أن أنزلوا الهزيمة بجيوش الامبراطورية (١) . وفى وسط هذه الظروف بلغ قسطنطين السادس سن الرشد ، ولكنه لم يستغن عن أمه ، التى حقدت على ابنها وكرهت أن يشاركها الحكم بعد أن تذوقت طعم السلطان . ويبدو أن الانتصارات التى أحرزها قسطنطين السادس فى هذه المرحلة ، وبخاصة عندما انتصر على العرب عند ايطاليا — على الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى — الحقد أن أعمى بصيرتها فدبرت مؤامرة فى القصر سنة ٧٩٧ انتهت بالقبض على ابنها وسمل عينيه ، وبالتالى عزله وارساله الى أحد الأديرة ليقضى عشرين سنة محروما من نعمة البصر (٢) .

على أنه اذا كانت ايرين قد أقدمت على هذه الجريمة الشنيعة ضد ولدها ليخلو لها الجو ، الا أن الفترة القصيرة التى قضتها فى الحكم بعد ذلك — وهى لا تتجاوز خمس سنوات (٧٩٧ — ٨٠٢) جاءت مليئة بالكوارث الداخلية والخارجية (٣) . ذلك أن سياسة هذه الامبراطورة ومسلكها الفظ ، أثار روح المعارضة والحنق عند فريقين من أهم عناصر الامبراطورية ، أولهما الجيش حيث كان الشعور اللاأيقونى لا يزال قويا لاسيما بين رجال الفرق الآسيوية ، وثانيهما كبار ملاك الأرض (dunatoi) أما فى الخارج فقد عادت جيوش هارون الرشيد الى تهديد الأقاليم الآسيوية للامبراطورية حتى وصلت افسوس غربا . ولم تستطع الامبراطورة أن تتخلص من هذا الخطر الا عن طريق تجديد العهد بدفع جزية سنوية ضخمة للمسلمين سنة ٧٩٨ (٤) . وفى وسط هذه الظروف القاسية لم تتورع ايرين عن الدخول فى مفاوضات مع شارلمان — امبراطور الغرب

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 22-24.

(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 161.

(3) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire. p. 67.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 24.

الجديد — بقصد الزواج منه وتوحيد الشرق والغرب داخل اطار امبراطورية رومانية جديدة (١) .

وأخيرا أدرك كبار رجال الدولة أن الكيل قد طفح ، فدبروا مؤامرة سنة ٨٠٢ — بزعامة نقفور أمين الخزانة — ونجحت هذه المؤامرة فى القبض عليها وحبسها فى أحد الأديرة . وفى وسط هذه الأزمة لم تجد ايرين فردا واحدا يعطف عليها أو يدافع عنها — حتى من الأيقونيين — بعد أن أثار سلوكها الخاصة والعامة من الناس (٢) .

وعلى هذا الوجه انتهى البيت الأيسورى بعد أن ظل فى حكم الدولة البيزنطية خمسا وثمانين سنة . واذا كانت ايرين قد اختتمت تاريخ هذا البيت بصفحة سوداء لطختها الأنانية والقسوة ، الا أن الخدمات التى اداها الأباطرة الأيسوريون للدولة — وبخاصة ليو الثالث وقسطنطين الخامس — لا يمكن اغفالها . ويكفى أن هؤلاء الأباطرة أمنوا الامبراطورية وحموها من الأخطار الخارجية الجسيمة التى أحاطت بها وهددتها ، كما فعلوا الكثير من أجل مضاعفة ثروة الامبراطورية وزيادة سكانها وتقوية جيوشها (٣) .

---

(1) Bryce : The Holy Roman Empire. p. 61 & Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 624. & Vol. 9, pp. 24-26.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 313.
(3) Oman : The Dark Ages, pp. 320-321.

الباب السادس

الاســـــلام

على الــرغم من أن الاســـــلام يعتبر ظاهرة شرقية من الناحيتين الدينية والحضارية الا أن أثره فى أوربا العصـــور الوســطى كان خطيرا بحيث لا يمكن تتبع تاريخ أوربا فى تلك العصور دون الاشـــارة الى هــذا الأثر . حقيقة أن الدولة الاســـلامية فى أقصى اتساعها لم تضم أجــزاء محــدودة من أوربا مثل أسبانيا وصقلية ، فضلا عن بعض جزائر أخرى معروفة فى البحر المتوسط ، ولكن يجب أن نذكر أن هــذه الدولة ضـــمت جميع البلاد المطلة على الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط أى بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، فى الوقت الذى كانت حضارة أوربا لا تزال ترتبط الى حد كبير بذلك البحر . وبعبارة أخرى فان حركة التوسع الاسلامية ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط مما جعل مؤرخا مثل بيرين يختار هذه الحركة بداية حقيقة للعصور الوسطى وحدا فاصلا بينها وبين العصور القديمة . هذا فضلا عن أن الدولة الاسلامية غدت بحكم موقعها الجغـــرافى بمثابة الحلقة التى ربطت القـــارات الثلاث أوربا وآســـيا وأفريقية ، وبالتالى انتقل عن طريقها التراث الحضـــارى للشرق الى أوربا العصور الوسطى (١) .

وتختلف الغزوات التى تعرضت لها أوربا من جـــانب العرب منـــذ القـــرن الســـابع فى طابعها العام وهدفها ونتائجها عن تلك التى تعرضت لها أوربا قبل ذلك من جانب الجرمان . فهذه الغزوات الأخيرة قامت بهـــا شعوب قديمة قدم الامبراطورية الرومانية نفسها ، وربطتها بالامبراطورية

---

(1) Deanesly : op. cit. pp. 185-187.

صلات تحالف وولاء أو حرب وعداء قبل أن تقوم بحركتها الشـــاملة التى أدت الى غـــزو أراضى الامبراطورية والاستقرار داخل حدودها . أمـــا العرب الذين غزوا الامبراطورية فى القرن السابع ، فلم تربطهم بها صلات ســـابقة عـــلى شىء من الأهمية ، وكل ما هنالك هـــو أن الامبراطورية الرومانية اكتفت باتخاذ بعض اجراءات لحماية أطراف الشام من خطـــر القبائل الرحل الضاربة فى الصحارى المجاورة ، هذا فضلا عن اقامة دولة الغساسنة على حدود الشام لحمايتها من الهجمات المعادية من جانب الفرس أو غيرهم . وفيما عدا ذلك كان آخر ما يتوقعه الرومان هـــو أن تخـــرج جيوش من جوف البلاد العربية لتهديد العالم الرومانى ، بل ابتلاع أجزاء واسعة من ذلك العالم (١) .

وقد سبق أن رأينا كيف كان الفرس والروم فى شغل شـــاغل بالنزاع والحروب المستمرة فيما بينهم عن الاهتمام بما كان يجرى فى شبه الجزيرة العربية من مولد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧٠ وهجرته الى المدينة سنة ٦٢٢ ، ثم ما تبع ذلك من انهاء حالة الفوضى والتفكك السياسى والنزاع القبلى التى عاش عليها عرب الشمال قـــرونا طويلة . وبعبارة أخرى فان انتصار رسالة خاتم النبيين أدت الى جعل العرب أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة ويدنون بدين واحد شعارة لا اله الا الله محمد رسول الله . على أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم ، لأن الله أرسل محمدا شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ليهدى الناس كافة الى دين الحق ، ومن ثم غدت مهمة الرسول بعد أن تم نشر الاسلام فى بلاد العرب أن يدعو الامم المجاورة لاعتناق ديانته والايمان برسالته . ويبدو أن بعض الرســـل الذين أوفدهم النبى الى ملوك الدول المجاورة وحكامها صـــادفوا اعراضا بل امتهانا ، مما جعل النبى يعد العدة للغزو والجهاد ، وان كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد وتتسع الا بعد وفاة النبى نفسه سنة ٦٣٢ .

وليس العجيب فى أمر الغزوات هو أن العرب تجاسروا على مهاجمة

---

(1) Pirenne : Hohammed and Charlemagne. p. 147.

الفرس والروم ، وهما أكبر امبراطوريتين عرفهما العالم عند مستهل القرن السابع ، وانما العجيب هو ان العرب غزوا فارس فى الوقت نفسه الذى غزوا دولة الروم ، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين فى وقت واحد . ذلك أن الاحتكاك بين المسلمين والروم بدأ فعلا فى بادية الشام سنة ٦٢٩ ، أى فى العام التالى مباشرة لانتهاء الحرب بين الروم والفرس (١) . وكانت دولة الروم — أو الدولة البيزنطية — تعانى حينئذ الأمرين من جراء ما تطلبته حروبها ضد فارس من جهة وضد البرابرة المهاجمين لاراضيها فى البلقان من جهة أخرى ، زيادة على النزعة الانفصالية التى أخذت تقوى عند أقباط مصر والأراميين فى سوريا والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى ، مما هدد كيان الدولة ووحدتها تهديدا خطيرا (٢) . ومهما يكن من أمر فان موجة الفتوح العربية لم تتخذ شكلها الكاسح ألا عقب وفاة الرسول ، أى منذ خلافة أبى بكر الذى بادر بايفاد جيشين لغزو الروم والفرس سنة ٦٣٣ . وهكذا أخذت الجيوش العربية — بقيادة أبى عبيدة الجراح — تعمل فى الشام ضد الروم ، فى حين كان القسم الثانى من هذه الجيوش — بقيادة خالد بن الوليد — يعمل فى العراق ضد الفرس (٣) . وقد حاول هرقل — امبراطور الروم — أرسال قوة بقيادة أخيه تيودور لانقاذ الموقف فى فلسطين ، ولكن القائد العربى — خالد بن الوليد — أتى مسرعا من العراق لنجدة اخوانه بالشام ، وبذلك أمكن انزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية فى موقعة أجنادين سنة ٦٣٤ (٤) . وعندما توفى الخليفة أبو بكر فى هذه السنة السابقة ، خلفه عمر (٦٣٤ — ٦٤٤) الذى اتسعت الفتوح الاسلامية فى عصره ، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل ، وعندئذ ثار هرقل وحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب ، ولكن خالد أنزل هزيمة جديدة ساحقة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ . وقد خيل لهرقل فى هذه المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطى بنفسه ضد المسلمين ،

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 216.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 231.

(3) Idem. pp. 338-339.

(4) Idem. p. 341.

ولكنه سرعان ما استكشف أنه لم يعد يقوى على مثل هذا الجهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره وأخذ المرض يدب في جسده . واذا كان هرقل قد أمضى سنتى ٦٣٥ ، ٦٣٦ فى جبهة الشام ، الا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب فترك بيت المقدس تقع فى أيديهم (٦٣٧ — ٦٣٨) (١) . ويروى القلقشندى أن هرقل عندما أيس من أمر الشام خرج الى الرها ، حيث وقف على مرتفع والتفت الى الشام وقال « السلام عليك يا سوريا ، سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك رومى بعدها الا خائفا » . ثم عاد الى القسطنطينية (٢) .

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة وأثر من انتصاراتهم على الروم . ففى سنة ٦٣٧ كان العرب قد فتحوا العراق ، وفى سنة ٦٤١ احرز العرب انتصارا عظيما على الفرس عند نهاوند مما فتح أمامهم الطريق الى قلب بلاد فارس (٣) . ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة فى وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان سنة ٦٥٢ وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس (٤) .

وفى هذه الأثناء استمرت القوات العربية التى اجتاحت بلاد النهرين تهاجم الأطراف الشرقية للدولة الرومانية من جهة الجنوب ، فضلا عن مهاجمتها من شمال الشام . وقد بذل الامبراطور هرقل محاولة يائسة لانقاذ شمال الشام والعراق من أيدى المسلمين ، فأرسل بعض جيوشه لهذا الغرض ، ولكنها منيت بالهزيمة ، واضطرت الى الانسحاب ، وبذلك سقطت المدن والمعاقل المهمة الموجودة فى شمال العراق والشام مثل ماردين والرها وميافارقين (٦٣٨ — ٦٣٩) . وباستيلاء العرب على قيصرية سنة ٦٤٠ فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس وبذلك جاء دور مصر وشمال افريقية (٥) . ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١ أى قبل

---

(1) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 190-192.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٩٧ .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 247.

(4) Crton : op. cit. pp. 80-81

(5) Oman : The Dark Ages. p. 220.

أن ينتهوا من فتح فارس . ويعتبر فتح مصر بالذات مثلا واضحا على عظم الخسارة التى منيت بها المسيحية ، كما يتخذ دليلا قويا على مدى ضعف الامبراطورية البيزنطية وانحلالها السياسى (١) . وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام فى جوف الدول الاسلامية الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠ ، ومن ثم استأنف العرب فتوحهم بنفس القوة والنشاط . وكان أن أخذ العرب فى فتح ولاية أفريقية سنة ٦٦٤ ، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد (٢) . وكانت حروب المسلمين فى شمال أفريقية طويلة وشاقة ، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب ، بل كان عليهم أيضا أن يتغلبوا على مقاومة البربر المعروفين بقوة المراس . ومهما يكن من أمر فان قرطاجة سقطت أخيرا فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧ ، وان كان نفوذ الخلافة الاسلامية لم يستقر تماما فى شمال افريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير .

وهكذا تحول شمال أفريقية بأكمله من الحضارة اللاتينية الى الحضارة العربية ومن الديانة المسيحية الى الديانة الاسلامية ، حتى البربر الدين طالما أظهروا عنادا يسترعى الانتباه ضد الغزاة السابقين ، سرعان ما اندمجوا فى تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين . وبذلك مرت سبعمائة السنة التى سيطرت فيها أوربا على شمال أفريقية دون أن تترك أثرا فى تلك البلاد سوى الأساطير والأطلال ، فالمسيحية اندثرت ، والحياة الرومانية ذبلت ، والمدن تركها الرومان ليعودوا أدراجهم الى أوربا (٣) .

على أن المسلمين لم يقتنعوا بفتح شمال أفريقية حتى المحيط الأطلسى وانما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا ٧١١ ، كما عبر طارق بن زياد

---

(1) Eyre : op. Cit. p. 63.

(2) Orton : op. cit p. 81.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, p. 237.

المضيق المعروف باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتى ٧١١ ، ٧١٣ (١) . وبفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية ، اذ فقدت بلادا ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر ، فضلا عن بلاد أخرى بمثابة أجزاء أساسية من الوطن المسيحى مثل شمال أفريقية وأسبانيا . وفى جميع هذه البلاد أقبلت نسبة كبيرة من الأهالى على اعتناق الاسلام « عن اختيار وارادة حرة » (٢) . وهنا نجد أنفسنا أمـــام ظاهرة جديرة باهتمام المشـــتغل بالتاريخ . فالعرب الذين غزوا العـــالم الرومانى فى القرن السابع وأوائل الثامن كانوا أقل عددا بكثير من الجرمان الذين تدفقوا على قلب ذلك العالم من قبل . ومع ذلك فان الحضـــــارة الرومانية والكنيسة المســـيحية تغلبت فى النهاية على هـــؤلاء الجرمـــان واستوعبتهم ، فى حين كانت الغلبة فى الجهات التى انتزعها العرب واستقروا فيها — مثل الشام ومصر وشمال أفريقية والأندلس — لحضـــارة العرب وديانتهم . ونحن لا نجد لهذه الظاهرة الهامة البارزة سوى تفسير تاريخى واحد ، هو أن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الرومانى ، فى حين ظهر العرب مزودين بعقيدة جديدة وديانة سماوية أدت الى تماسكهم وحالت دون ذوبانهم فى المجتمع الجديد (٣) .

والواقع أن أسباب حركة الفتوح العربية ، والسرعة الفائقة التى تمت بها هذه الحركة ، والنجاح السريع الذى أحرزته ، كانت من الموضوعات التى احتلت جزءا كبيرا من تفكير المؤرخين المحدثين .. ذلك أنه لم تكد تمض على وفاة الرسول سبعون سنة حتى كان الاسلام قد امتد من المحيط الهندى حتى المحيط الأطلسى . حقيقة أن ضعف الفرس والروم كان من العوامل المساعدة التى سهلت مهمة الفتوح العربية ، ولكن لابد من وجود قـــوى دافعة أدت بالعرب الى الصبر على الجهاد طوعا لا كرها ، حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة فى تاريخ العالم . وهنا حاول بعض الباحثين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة ، فالأستاذ بيكر Becker يريد أن يثبت أن حركة الفتح العربى فى القرن السابع لم تكن مفاجئة — كما

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 163-164.

(٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٥١ .

(3) Pierenne : Mohammed and Charlemagne. p. 150.

تبدو — وانما هى حلقـــة أخيرة من سلسلة طويلة بدأت قبل ذلك بعـــدة قرون وأدت الى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شبه الجزيرة العربية ، نتيجة لتقلب الاحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضـــعف وتدهور يدل على انهيار سد مأرب فى القرن السادس (١) . وبعبارة أخرى فان تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هـــو الذى دفع شعوبها السامية الى الهجرة ، ولا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الأراميون والكنعانيون ، أو الهجرات اللاحقة التى قام العرب بها قبل ظهور الاسلام (٢) . ويميل برناردلويس الى مشاركة بيكر هذا الرأى ، فيقول ان بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفاف مستمر ، مما أدى الى زحف الصحراء على حساب الاراضى الخضراء ، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم (٣) . أما توماس أرنولد فيعبر عن الفكرة تعبيرا أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : ان حركة التوســـع العربى كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع والحرمان الى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلادا أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا .

ومن الواضح أن هـــذا الرأى يحـــوى كثيرا من المبالغة والبعد عن الحقيقة ، لأنـــه يغفل أثر العامل الدينى والرغبة الصـــادقة فى الجهـــاد والاستشهاد ، وهى الروح التى تثبت الوقائع التاريخية أنها سيطرت على جيوش العرب فى الدور الأول من أدوار حركة التوسع . حقيقة ان مؤرخا محدثا مثل توماس أرنولد يقول « ان الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسربت الا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية » (٤) ، ولكن هل نصدق توماس أرنولد فى القرن العشرين أو نصدق حاكما رومانيا معاصرا فى

---

(١) القرآن الـكريم سورة سبأ (١٥ — ١٧) .
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 331 (C.H. Becker).
(٣) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ص ٢٨ ، ٥٧ .
(٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٧ .

القرن السابع وقد أرسل اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين، فرد عليه الحاكم المسيحى قائلا « انهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجـالنا . ذلك أنهم لا يطمعون فى شىء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق وصلهم الى الجنة ، فى حين نتعلق نحن بأهداب الحيـاة ونخشى الموت ، يا سيدى الامبراطور ! » (١) . أما بيرين Pirenne فيؤكد أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت الى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية ، ويقول ان الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشا رغيدا ، وبين العرب الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع ينادون بأنه لا اله الا الله محمد رسول الله ، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم . حقيقة ان حركة الفتح الاسلامى أعقبتها حركة أخرى للهجرة والاستقرار فى الولايات العربية الجديدة التى تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ الا بعد أن انتهت الاولى بنحو قرنين من الزمان تغيرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءا من الوطن العربى الكبير (٢) .

أما عن نشاط المسلمين البحرى فى البحر المتوسط فيلاحظ أن وصول العرب الى شواطىء هذا البحر واستيلاءهم على موانى الشـام ومصر ، جعلهم يهتمون بأمر الأسطول لدفع خطر الروم الذين حاولوا اسـترداد الاسكندرية سنة ٦٤٢ — ٦٤٣ ثم سنة ٦٥٢ كما استمروا يهددون الغرب بحريـا فى فتوحهم الجديدة (٣) . والواقع أن العرب لم يجهلوا البحـر فى جاهلتهم ، فقد عرف أهل الجنوب بناء السفن ، وباشروا نوعا من التجارة البحرية النشيطة قبل الاسلام ، ولكن عـرب الشمال ظلوا بعيدين عن

---

(1) Eyre : op. cit. pp. 63-64.

(2) Pirenne : A. Hist. of Europe. p. 47.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 160.

ممارسة ركوب البحر حتى كانت الفتوح الاسلامية ، وحينئذ أخذوا يكيفون أنفسهم فى وضعهم الجديد كقوة من قوى البحر المتوسط . ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية خطيرة فغزوا قبرس سنة ٦٤٨ ، وأغاروا على الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى أنزلوا أخيرا هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات الصوارى سنة ٦٥٥ (Phoenix) وهى الموقعة التى تعتبر أعظم معركة بحرية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة اكتيوم سنة ٣١ قم (١) . واذا كانت الظروف التى تعرضت لها الدولة الاسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بحصار القسطنطينية عقب هذه الموقعة ، فان الأمويين لم يلبثوا أن أستأنفوا سياسة مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا على نطاق واسع حتى وصلت اغاراتهم الى بحر ايجة سنة ٦٦٥ . ويبدوا أن المسلمين كانوا قد أحرزوا خبرة كافية بفنون البحر جعلتهم يعبرون الى تراقيا (٦٦٨ — ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها . كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرس وروdس وغيرهما من المواقع البحرية الحصينة فى بحر ايجة ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ — ٦٧٨) (٢) . ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية من السقوط فى أيدى المسلمين عندئذ سوى اختراع النار الاغريقية الذى توصل اليه مهندس سورى الأصل يدعى كالينيقوس Callinicus أما هذا الاختراع فعبارة عن عدة مركبات تشتعل عندما تصيب الهدف ، مما انزل بالسفن الاسلامية خسائر جسيمة (٣) .

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا ، حتى كانت أوائل القرن الثامن ، عندئذ اعتقد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ — ٧١٧) أن الوقت قد حان للقيام بحملة كبرى تستولى على القسطنطينية وتطيح بالامبراطورية البيزنطية . واختار الخليفة أخاه

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 239.
(2) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 44.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, p. 283.

مسلمة ليكون على رأس هذه الحملة التى شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته الى الشاطئ الأوربى سنة ٧١٧ (١) . وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، اذا بالأسطول الاسلامى يهاجمها من ناحية البحر ، حتى كـادت المدينة تقع فى أيدى المسلمين لولا النار الاغريقية التى لعبت دورها فى تشتيت سـفنهم ، فى الوقت الـذى أغرى الامبراطور ليو الأيسورى (٧١٧ — ٧٤١) البلغار بمهاجمة المسلمين من الخلف (٢) . وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف المسلمين أمرهم بالانسحاب سنة ٧١٨ بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (٣) . وهكذا تم تجنيب الامبراطورية البيزنطية ، بل أوربـا بأجمعها تغئيرا خطيرا كان من الثابت أن يترك أثرا بعيدا فى التاريخ لو أن العرب نجحوا فى تحقيق هـدفهم بالاستيلاء عـلى القسطنطينية ، مفتاح أوربا من جهة الشرق .

وبعد أن فشـل المسلمون فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القـرن الثامن تشـجع البيزنطيون وأخذوا يدفعـون ضغط المسـلمين تدريجيا عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سـنة ٧٤٥ منتهزا فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية فى أواخر عمرها . وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصرا بحريا على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرص (٤) . ولم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سـقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية فى بغداد . وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزا لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والاراضى البيزنطية بحيث كان الضغط الاسلامى عـلى الدولة البيزنطية شديدا وملموسا فى العصر الأموى . ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل مراكزهم أكثر بعدا عن الدولة البيزنطية وأراضيها ،

---

(1) Idem : pp. 313-314.
(2) Ostrogorsky. op. cit. p. 139.
(3) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, 54.
(4) Cam. Med Hist. Vol. 4, pp. 121-122.

ومن ثم قل الضغط الاسلامى على حدود هذه الدولة بصورة واضحة فى العصر العباسى (١) . ولكن ليس معنى ذلك أن العباسيين لم يهددوا الدولة البيزنطية ، اذ كثيرا ما أوغلت الجيوش العباسية داخل آسيا الصغرى ، حتى وصلت سنة ٧٨٢ الى البسفور ، مما أضطر الامبراطورة ايرين الى شراء مسالمة المسلمين بالمال (٢) . هذا فى الوقت الذى استمرت اغارات العرب البحرية على شاطىء الدولة البيزنطية وثغورها ، حتى استولى المسلمون سنة ٩٠٤ على سالونيكا ونهبوها وأسروا بضعة آلاف من أهلها .

ويلاحظ أن صمود الدولة البيزنطية ونجاحها فى صد المسلمين ، فى الوقت الذى نجح الفرنجة فى صد مسلمى الأندلس عن غاليا وغرب أوربا ، كان له أثر كبير فى مستقبل تاريخ القارة الأوربية . ذلك أن الدولة البيزنطية ظلت حتى الفتوح الاسلامية تمثل المركز الأساسى للحضارة الأوربية فى العصور الوسطى ، ولكن هذه الصفة أخذت تزول عنها عقب حركة التوسع الاسلامى لتقوم الدولة البيزنطية بوظيفة الحد الشرقى للحضارة الأوربية لا مركزها الأساسى . هكذا أخذ التاريخ البيزنطى منذ اتساع الفتوح الاسلامية يفقد أهميته العامة ، بعد أن صارت الدولة البيزنطية لا تعدو أن تكون درعا يحمى أوربا من خطر آسيا ، فى حين انتقل مركز الثقل للحضارة الأوربية الى الغرب (٣) .

على أن أثر العرب والاسلام فى تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند التغييرات السياسية التى أحدثوها فى أوضاع العالم المعروف ، وانما يبدو هذا الاثر أشد ما يكون وضوحا فى الميدان الحضارى . وهنا نجد الحضارة العربية الاسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين هما اللغة العربية والديانة الاسلامية (٤) . ومازالت السرعة التى انتشرت بها اللغة

---

(1) Painter : op. cit. p. 44.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, p. 317.
(3) Eyre : op. cit. p. 64.
(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48.

العربية والديانة الاسلامية تعتبر لغزا يثير حيرة المفكرين . فاللغة العربية ليست باللغة السهلة القليلة التعقيد حتى يقال أن سهولتها أدت الى سرعة انتشارها من المحيط الأطلسى حتى الخليج العربى ، ومع ذلك فقد نجحت اللغة العربية فى أن تبسط سيادتها على جميع البلاد التى فتحها العرب وحكموها زمنا طويلا — باستثناء فارس . لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية الا فى ضوء انتشار العقيدة الاسلامية نفسها وما تطلبته هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين . ويقول بيكر أن أوربا العصور الوسطى نظرت الى انتشار الاسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية . وكأن الكنيسة قد أفزعها والمها ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال العراق ترتبط جميعها بأصول المسيحية ونشأتها ، فراحت تفسر انتشار الاسلام فى هذه البلاد على أنه لم يتم الا بحد السيف (١) . ولكن بيكر يؤكد أن هذه النظرة — التى ما زال بعض المتعلمين فى أوربا حتى اليوم يعتقدون فى صحتها — بعيدة عن الواقع ، لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة ، وانما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير . فسيطرة العرب السياسية هى التى انتشرت بقوة السلاح ، أما الديانة الاسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من أهالى البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود سواء ، وهو تسامح لم يحظوا به فى ظل حكامهم السابقين (٢) .

وقد أجمع الباحثون أن الحضارة الاسلامية كانت أعظم حضارة شهدها العالم فى العصور الوسطى . فالعرب لم يكونوا مثل غيرهم من العناصر البربرية من جرمان ، وغير جرمان الذين انسابوا داخل الامبراطورية الرومانية ، والذين لا تقترن أسماؤهم فى التاريخ غالبا الا بالهدم والتخريب (٣) . وفى الوقت الذى نسمع بما أحدثته اغارات الهون والوندال والقوط من تخريب شامل لكثير من أقاليم أوربا وأفريقية ، اذا بالبلاد التى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 330.
(2) Ibid.
(3) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 46.

فتحها العرب واستقروا فيها تتحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف للتزود والاستنارة . وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل أسبانيا وصقلية ، قبل فتح العرب لها وأحوالها بعد استقرارهم بها ، اذ تبدلت أوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب الى نشاط فكرى وتقدم اقتصادى وعمران شامل وازدياد مطرد فى السكان والأموال (١) .

حقيقة أن العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضارى شامل بمعنى الكلمة . ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها . وبفضل هذا استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات فى غرب آسيا وشمال افريقية ، وهى الدراسات اليونانية التى ترجمها الأراميون والكنعانيون الى لغاتهم السامية حتى جاء العرب لينقلوها الى العربية (٢) . وهكذا أثبتت الابحاث الاخيرة فساد النظرية القائلة بأن العرب قضوا على الحضارة القديمة فى منطقة الشرق الأدنى وأقاموا بدلا منها حضارة جديدة ، لأن التطور التاريخى ثابت ومستمر . وبعبارة أخرى فان الاسلام ورث الحضارة الشرقية الهللينيستية وتعهد هذه الحضارة بالحفظ لعناية والتغذية المستمرة . ولكن حدث عندما نقل الخلفاء العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد أن أخذ الأثر الهللينستى يضعف — الى حد ما — فى الحضارة الاسلامية ليزداد فيها أثر الحضارات الشرقية كالفارسية والهندية والصينية . وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى أخذ غرب أوربا يزداد — هو الآخر — تباعدا عن الحضارة الهللينستية بعد قيام الممالك الجرمانية ، مما أدى الى التباعد واتساع الفجوة بين الحضارتين الاسلامية والغربية (٣) . وهكذا غدت الحضارة الاسلامية مجمع العلوم اليونانية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 432-435.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 330.

(3) Ibid.

والفارسية والسريانية والهندية والصينية ، فى حين غدت اللغة العـربية الواسطة الأساسية للترجمة والربط بين هذه العلوم مما جعل الطابع العربى يبدو مميزا لهذه النهضة الحضـارية الشاملة (١) .

وكان أن أفاقت أوربا من وحشة العصـور المظلمة فى أواخر القرن الحـادى عشر لتجد نفسها أمام حضارة اسلامية شامخة البناء ، فأخذت أوربا تقبل على هذه الحضـارة الزاهرة ، وأسرع الأوربيون الى مراكـز الحضـارة الاسلامية يرتشفون من معينها الفياض ويرتوون من منهلها العذب . وازداد تدفق طلاب العلم الأوربيين بوجه خاص على الاندلس وصقلية حيث أخذوا يترجمون الى اللاتينية كل ما استطاعوا ترجمته فى الفلسفة والعلوم والرياضيات وغيرها من ألوان النشاط الفكرى (٢) . حقيقة أن بعض هذه المعلومات التى ترجمها الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل أخـذها العرب عن التراث اليونانى القديم ، ولكن الفضل يرجع اليهم فى المحافظة عليها وتصحيحها وشرحها ، حتى اذا ما اندثر التراث اليونانى — أو كـاد يضيع — فى الفترة المظلمة التى أعقبت سقوط الامبراطورية فى الغرب ، لم يبق التـراث اليونانى الفكـرى قائما فى كثير من الحـالات الا فى التراجم العربية (٣) . وحسبنا ما أحدثته شروح ابن رشيد لفلسفة أرسطو من ثورة ضخمة فى أوربا العصور الوسطى (٤) ، ومـا سببته معـارف العرب فى الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات من انقلاب شامل فى تطـور التفكير الرياضى الأوربى ، وما يترتب على انتقال معلومات العرب فى الفلك والجغرافيا الى الأوربيين من تطور شامل ؛ وما اعترف به الأوربيون أنفسهم من تقدم العرب فى الطبيعة والكيمياء والطب ، حتى استمرت الجامعـات الأوربية منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر تعتمد على كثير من مؤلفات المسلمين فى هذه العلوم (٥) . هذا كله فضلا عن تفوق المسلمين

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 270 & Pirenne : A Hist. of Europe. p. 48.
(2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century. p. 287.
(3) Eyre : op. cit. pp. 273-279.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 296.
(5) Eyre : op. cit. pp. 793-294.

فى الفنون الكبرى والصغرى ، مما جعل الأوربيين يقبلون فى شغف عـلى محاكاة النماذج العربية ويتأثرون بها بدرجة لا تزال واضحة فيما خلفته العصـور الوسطى من مخلفات وآثار متنوعة (١) . وهكذا أصبح نفوذ العرب وتأثيرهم الحضارى على غرب أوربا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر يفوق نفوذ الامبراطورية البيزنطية فى أثره وقوته (٢) .

ولا حاجة بنا الى القول بأن روح التسـامح السـامية التى عـرف بها العرب والتى لا يوجد لها أى نظير فى الشرق أو فى الغرب فى العصـور الوسطى ، كان لها أكبر الاثر فى تفهمهم للحضـارات الأخرى السابقة تفهما واضـحا صحيحا وفى تفهم الأوربيين لحضارتهم تفهما مفيدا واقعيا (٣) . ذلك أن العرب لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين ، وسمحوا للمسيحيين واليهـود بالتلمذ عليهم والاستفادة منهم ، فـأقبل الأوربيون فى الأندلس وصقلية والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها مما ساعد على نهضة أوربا فى العصور الوسطى (٤) .

---

(1) Lehaby : The Lagacy of the Middle Ages, p. 61.

(2) Orton : op. cit. p. 91.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 287.

(4) Thompson : op. Vol. 1, pp. 92-93.

الباب السابع

ايطاليا بين ثلاث قوى

اللمبارديون ـ البابوية ـ الدولة البيزنطية

لم تكد تمض سنوات قليلة على استسلام آخر القوات القوطية فى شمال ايطاليا للقائد البيزنطى نارسيس ، أو على وفاة الامبراطور جستنيان العظيم سنة ٥٦٥ بعد أن أطمأن الى سيطرة قواته على شبه الجزيرة الايطالية ، حتى تعرضت ايطاليا لغزو اللمبارديين الذين تركوا أثرا واضحا فى كيانها السياسى ونظمها الاجتماعية وقوانينها العامة والخاصة (١) .

أما هؤلاء اللمارديون فكانوا آخر الشعوب الجرمانية التى اقتحمت الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها . وقد أقاموا فى القرن الاول عند وادى نهر الاودر والجزء الادنى من نهر الالب ، حتى تحركوا جنوبا بعد قليل . ثم كان أن ظهروا فى بانونيا فى أوائل القرن السادس حيث دخلوا فى صراع رهيب مع جيرانهم من الشعوب الجرمانية مثل الجبداى ، وخرجوا منتصرين من هذا الصراع سنة ٥٦٧ بفضل تحالفهم مع عنصر الأفار الذين خلفوا الهون فى الأجزاء الشرقية والوسطى من أوربا (٢) . على أنه يبدو أن اللمبارديون لم يشكلوا فى هذه المرحلة خطرا على الامبراطورية ، بل عملوا كجند مرتزقة فى جيوش جستنيان حتى أن الجزء الأكبر من الجيش البيزنطى الذى عمل تحت قيادة نارسيس فى ايطاليا لطرد القوط الشرقيين كان مؤلفا من اللمبارديين (٣) . ولم تلبث الظروف أن جعلت من اللمبارديين قوة خطيرة تهدد الامبراطورية ، وذلك عندما اتحدت قبائلهم

---

(1) Lot : The End of the Ancient World. p. 289.
(2) Wallace — Hadrill : The Barbarian West. p. 45.
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 289.

تحت زعامة ملك واحد . وكان ذلك فى الوقت الذى اضطروا تحت ضغط الآفار الى الجلاء عن بانونيا . وهنا تلفت اللمبارديون حولهم فلم يجدوا بلدا أصلح لهم وأقرب اليهم من ايطاليا .

وهكذا أخذت جموع اللماردين تتدفق على ايطاليا فى ربيع سنة ٥٦٨ تحت زعامة ملكهم ألبوين Alboin فى وقت كانت الامبراطورية البيزنطية — تحت حكم جستنين الثانى — فى حالة لا تسمح لها بارسال جيوش لصد هذا الخطر الداهم ، لذلك تركز الدفاع عن ايطاليا ضد الخطر اللمباردى فى المدن المحصنة ذات الأسوار المنيعة . ولكن حتى هذه المدن لم تستطع الصمود ، فلم يكد يمض عام حتى انتشر اللمبارديون فوق سهول نهر البو ، واستولوا على فيرونا وميلان دون أن يصادفوا مقاومة جدية من الأهالى أو من الحامية البيزنطية . ثم استطاع اللمبارديون اخضاع بافيا بعد حصار دام ثلاث سنوات فاتخذوها عاصمة مملكتهم الجديدة التى أخذت منذ ذلك الوقت فى الاتساع السريع (١) . ذلك أن مقتل البوين أثناء حركة توسع اللمبارديين لم يؤثر فى موقفهم وقوتهم ، اذ استطاع أشراف اللمبارديين وزعماء قبائلهم التفوق على القوات البيزنطية الضعيفة ، بل انزال الهزيمة بها ، حتى استولوا على تسكانيا والاجزاء الوسطى من ايطاليا حتى بنفنتوم ، فضلا عن السهول الشمالية التى لصق بها اسم اللمبارديين حتى اليوم (٢) .

ولم تكن هذه أول مرة تتعرض فيها ايطاليا لمحنة الغزو الجرمانى كما سبق أن رأينا ، ولكن الفارق هو أن الشعوب الجرمانية التى غزت ايطاليا من قبل لم تنتزع كل الاراضى من أصحابها الرومان ، وانما اكتفت باغتصاب مساحة تتراوح بين ثلث الاراضى ونصفها ، وتركت الباقى لأصحاب البلاد الأصليين (٣) . أما اللمبارديون ، فقد وضعوا أيديهم على جميع الاراضى المفتوحة وأنزلوا الملاك الأصليين الى مرتبة التبعية ، كما أذاقوا الفلاحين كثيرا من الضغط والجور . وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يدل

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 196.
(2) Oman : The Dark Ages. p. 187.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 170.

على استمرار هذا الضغط ، الا أنه من الثابت أن اللمبارديين كانوا أعنف العناصر الجرمانية التى غزت ايطاليا وأشدها قسوة (١) . هذا الى ان اللمبارديين امتازوا عن غيرهم من الشعوب الجرمانية بشدة تعصبهم لنظمهم وتقاليدهم الجرمانية وتمسكهم بها . وربما كان من أسباب هذه الظاهرة أنهم دخلوا ايطاليا فاتحين لا حلفاء معاهدين (foederati) للامبراطورية وأنه لم توجد روابط قوية تربطهم بالحضارة الرومانية مثلما كان الحال مع القوط من قبل . هذا زيادة على اعتناقهم للمذهب الأريوسى من جهة وقلة عددهم بالنسبة لأهالى البلاد من جهة أخرى ، مما جعلهم شديدى التعصب لأصلهم الجرمانى ونظمهم الجرمانية . ومن أمثلة هذا التعصب الواضحة أن الملكية اللمباردية ظلت انتخابية فى حين أصبحت وراثية فى جميع ما عداها من الممالك الجرمانية (٢) .

وقد وجد موريس امبراطور الدولة البيزنطية (٥٨٢ — ٦٠٢) أن مقاومة الغزو اللمباردى لايطاليا غير مجدية ، فلجأ الى وسيلة أكثر نفعا من الناحية العملية وهى اعادة تنظيم الادارة الامبراطورية فى ايطاليا ، على أساس اقامة نظام الدوقيات فى روما وبيروجيا ونابلى وكالبريا وليجوريا ، بحيث تخضع كلها للنائب الامبراطورى فى رافنا . وكان النائب الامبراطورى يجمع فى يده السلطتين الحربية والمدنية وكذلك كان الدوقات كل فى دوقيته ، حتى يتمكن الجميع من مواجهة تهديد اللمبارديين (٣) . على أن أهم ما يلاحظ على الاملاك البيزنطية فى ايطاليا عندئذ هو تناثرها وعدم ارتباطها ، مما جعل أباطرة القسطنطينية يشعرون بعجزهم عن مواجهة الموقف ويطلبون مساعدة الفرنجة ضد اللمبارديين (٤) . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ أوثارى Autheri ملك اللمبارديين (٥٨٤ — ٥٩٠) يعمل على توحيد قواهم تحت سيادته ، حتى اذا ما تم له ذلك بدأ

---

(1) Orton : op. cit. p. 103.

(2) Wallace — Hadrill : op. cit. p. 45.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 178.

(4) Oman : The Dark Ages, pp. 190-191.

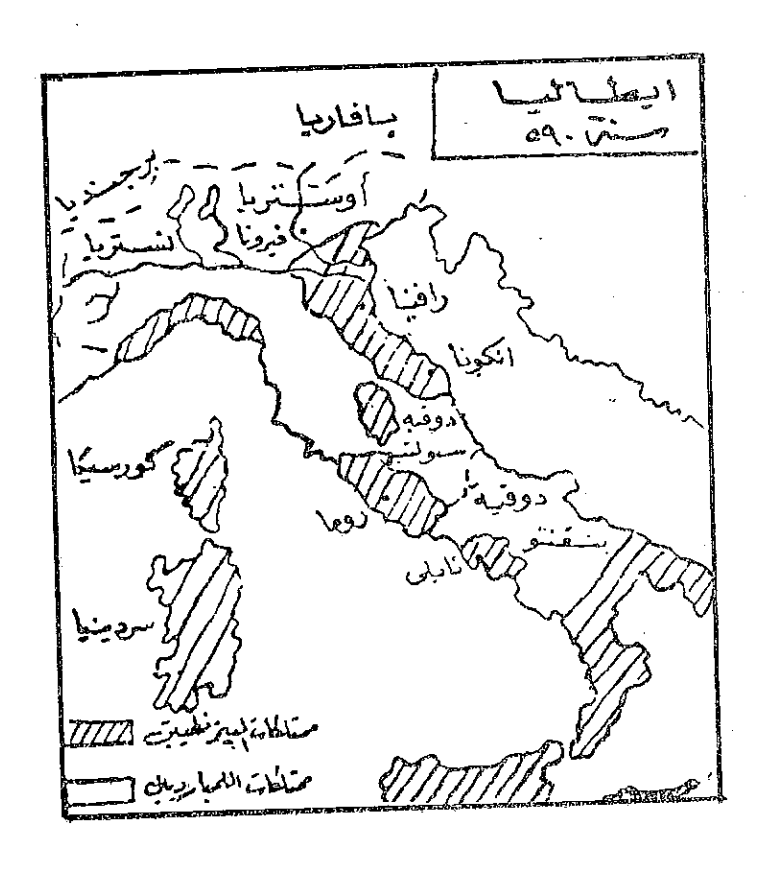
يوجه كل جهوده نحو حرب الفرنجة وصــد خطرهم (١) . وثمة تطور آخر هام حدث فى عهــد أوثارى هــو زواجه من ابنة دوق بافاريا ، وهى أميرة كاثوليكية ، الأمر الذى نشأ عنه اعتناق زواجها للمذهب الكاثوليكى الذى أخذ ينتشر بين اللمبارديين فى القرن السابع (١) .

وبعد أوثارى جــاء أجيلولف Agilulf فى حكم اللمبارديين (٥٩٠ — ٦١٦) وقد شــاء حسن حظ هذا الملك الجديد أن الفرنجة شغلوا بالمنازعات الداخلية فيما بينهم عن اللمبارديين ، مما مكن الملك اللمباردى من انتزاع أجــزاء جديدة من أمــلاك الدولة البيزنطية فى ايطاليا ، حتى توســـط البابا جريجــورى العظيم فى عقــد اتفاقية بــين اللمبارديين والامبراطورية البيزنطية ســنة ٥٦٨ (٣) . على أن نقض النائب الامبراطورى فى ايطاليا لهـــذه الاتفاقية جعل اللمبارديين ينزلون خســارة جســيمة بالامبراطورية ، اذ انتزعوا بادوا سنة ٦٠٢ ثم مانتوا — آخر المعـــاقل البيزنطية فى حوض ألبو — فى السنة نفسها . وهنا لجأ الامبراطور فوقاس — ازاء الأخطار الجسيمة التى تهدد دولته عندئذ ، وبخاصة من جانب الفرس — الى شراء مسالمة اللمبارديين مقابل تعهده بدفع جزية سنوية ضخمة لهم . وقد تعرض اللمبارديون فى عهد ملكهم أجيلولف لبعض المتاعب والثورات الداخلية ، فضلا عن التهديدات الخارجية التى واجهت دولتهم من جانب الآفار والسلاف على الحدود الشمالية الشرقية . ولكن على الرغم من كل ذلك فان هذا العصر يمثل دور النضج بالنسبة للمبارديين وحضـــارتهم فى ايطاليا ، اذ أخذوا بعد استقرارهم فى وطنهم الجــديد واعتناقهم المسيحية الغربية يهتمــون ببناء الكنائس وينصرفون نحــو كثير من المشروعـــات السلمية (٤) .

على أن أشــهر ملــوك اللمبارديين وأهمهم فى التـــاريخ كـــان روثارى Rothari (٦٣٦ — ٦٥٢) الذى شــهد عصره اتمام غزو

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 190-200.
(2) Oman : op. cit. p. 193.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 201.
(4) Oman : The Dark Ages, p. 195.



ايطاليا
سنة ٥٩٠
بافاريا
برجنديا
اوستريا
نستريا
فيرونا
رافنا
انكونا
دوقية
سبولتو
كورسيكا
روما
دوقية
بنفنتو
نابلى
سردينيا
ممتلكات البيزنطيين
ممتلكات اللمبارديين

شـــمال ايطاليا وانتزاع المنطقتين اللتين كانتا لا تزالان تحت ســـــيطرة البيزنطيين ، وهما منطقة ليجوريا الممتدة من نيس الى لونا — بما فيها مدينة جنوا العظيمة — ، والمنطقة المحيطة بمدينة أودرزو Oderzo على شاطىء البندقية . ولم يحصل روثارى على هذه الجهات الا بعد جهاد عنيف وقتال شـــاق ضـــد البيزنطيين ، انتهى بانتصاره عليهم بعـــد أن حملهم خســـــارة فادحة (١) . ولا ترجع أهمية روثارى فى التاريخ الى انتصاراته السابقة فحسب ، بل يرجع جانب كبير من شهرته الى انه شكل القـــانون اللمباردى ونظمه ، فأصدر سنة ٦٤٣ مجموعة القوانين العرفية الخاصة بالشعب اللمباردى والتى لم يسبق تدوينها أبدا من قبل . حقيقة ان القوانين والتشريعات التى أصدرها روثارى (Edictum Rotharis) لا تعدو أن تكون مجموعة بدائية تصور أحـــوال شعب جرمانى يعيش على الفطرة وسط الأحراش والغابات ، أكثر من تصويرها لشعب أصبح يحيا فى قلب ايطاليا . ولكنها على الرغم من ذلك وعلى الرغم من أن الشطر الأكبر منها يتناول المسائل المتعلقة بالفدية والتزامات الاتباع نحو سادتهم وتنظيم حقوق الوراثة ، دون أن تحوى شيئا عن حياة الحضر والكنيسة ، فان أهمية هذه المجموعة عظيمة من حيث دلالتها التاريخية وقيمتها فى تصوير أوضــــاع الشعوب الجرمانية ، فضلا عن كونها أول قانون مدون للمبارديين (٢) .

وبعد أن فرغ البيزنطيون من حروب هرقل ضـــد الفـــرس ثم العرب ، حاولوا فى عهد الامبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ — ٦٦٨) أن يقفوا موقفا قويا تجاه اللمبارديين فى ايطاليا ، ليستغلوا حالة التفكك والانقسام والفوضى التى أمسى فيها اللمبارديون عقب وفاة ملكهم روثـــارى ســـنة ٦٥٢ فى احيـــاء النفوذ الامبراطورى واسترداد ما فقدته الامبراطورية فى شبه الجزيرة الايطالية (٣) . ولذلك هجم البيزنطيون على بنفنتوم (٦٥٠ — ٦٦٣) ولكن اللمبارديين اتحدوا وختاروا جريمولد دوق بنفنتوم ملكا عليهم (٦٦٢ — ٦٧١) وبذلك تمكنوا من مقاومة البيزنطيين (٤) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 203.
(2) Lot : The End of the Ancient World. pp. 289-290.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 9-293.
(4) Diehl & Marcais : op. cit. p. 239.

وهكذا نجح الغزو اللمباردى فى القضاء على الوحدة الايطالية التى اجهد الامبراطور جستنيان نفسه فى احيائها ، فظلت ايطاليا حتى القرن التاسع عشر مجرد اصطلاح جغرافى دون أن تقوم لها وحدة سياسية تنظم أمورها . والواقع أن ايطاليا غدت فى القرن السابع مقسمة بين ثلاث قوى : اللمبارديون والدولة البيزنطية والبابوية . وان نظرة عابرة يلقيها الباحث على خريطة ايطاليا عندئذ لتوضح له ما كانت عليه من انقسام وبعثرة سياسية حتى صار من الصعب فى كثير من الحالات أن تتصل الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا بعضها ببعض الا عن طريق البحر (١) .

ازدياد نفوذ البابوية :

أما الأهمية القصوى لعصر استقرار اللمبارديين فى ايطاليا فترجع قبل كل شىء الى ما شهده ذلك العصر من ازدياد نفوذ البابوية وسلطانها السياسى ، حتى غدت تمثل احدى القوى الحاكمة فى ايطاليا الى جانب اللمبارديين والدولة البيزنطية . وخير ما يوضح ازدياد نفوذ البابوية فى هذه الفترة هو تضاعف ممتلكات الكنيسة فى ايطاليا ، وهى الأملاك التى لم تضمن للبابوية موردا ماليا ضخما فحسب بل حققت لها نوعا من النفوذ المعنوى والمادى فى البلاد (٢) . ذلك أن أساقفة ايطاليا استغلوا فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية التى سادت ايطاليا فى ذلك العصر وأخذوا يمتلكون الاراضى ويتخذون لأنفسهم صفة الحكام العلمانيين ، فيعينون موظفى البلديات فى المدن ويشرفون على الأعمال العامة ويجمعون الضرائب ، وغير ذلك من الاعمال التى هى فى الواقع من صميم اختصاص الحكام العلمانيين (٣) . وقد ساعد رجال الكنيسة على تحقيق أغراضهم ومطامعهم فى الاستيلاء على الاراضى ، أن صغار ملاك الاراضى فى ايطاليا بحثوا عن سلطة قوية يدخلون تحت حمايتها ، فلم يجدوا وسط الفوضى الناجمة عن النزاع بين اللمبارديين والبيزنطيين سوى الكنيسة ، فسلموها أراضيهم

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 172-173.

(2) Moss : op. cit. p. 132.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 229.

مختارين واصبحوا شبه مستأجرين مقابل حصولهم على نوع من الحماية والأمان (١) . أما البابا فكان لا يختلف — من الوجهة النظرية — عن غيره من الرعايا البيزنطيين ، وذلك من حيث تبعيته للنائب الامبراطورى . ولكن نفوذ هذا النائب الامبراطورى أخذ يخبو ويتضاءل تدريجيا حتى أصبح غير ملموس ، ولا سيما أن نواب الامبراطور البيزنطى لم يحاولوا أن يتخذوا روما مركزا للدفاع ضد الخطر اللمباردى ، وانما آثروا الاقامة فى رافنا وبذلك تركوا روما وليس فيها الا سيد واحد هو البابا (٢) . وهنا نلاحظ أنه اذا كان البابا قد أصبح أعظم ملاك الاراضى فى ايطاليا فان الممتلكات البابوية لم تقتصر على المنطقة المحيطة بروما ، وانما انتشرت فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة الايطالية ، وازدادت عن طريق الهبات والعطايا حتى امتدت الى صقلية فضلا عن ممتلكات البابا خارج ايطاليا ، بحيث أنه يمكن القول بأن الموارد الاقتصادية الواسعة التى نعمت بها البابوية كانت السر فى القوة الزمنية التى تمتعت بها (٣) . وقد تعرضت البابوية فى عهد البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) لخطر اللمبارديين الذين استولوا على الأملاك البابوية فى شمال ايطاليا ، كما أدى توسعهم فى ايطاليا الى تهديد الاراضى البابوية فى تلك الجهات . وربما كان الخطر اللمباردى هو الذى جعل البابوية تحافظ على علاقاتها الودية مع الدولة البيزنطية فى ذلك الدور حتى تعثر على نصير آخر يحميها من أخطار الدولة البيزنطية واللمبارديين جميعا (٤) .

والواقع أن البابوية اتخذت صيغتها العالمية القوية التى ميزتها طوال العصور الوسطى فى عهد البابا جريجورى الاول أو العظيم . وقد ولد هذا الرجل فى روما سنة ٥٤٠ فى أسرة عريقة من النبلاء ، ولكنه أظهر منذ حداثته نزعة دينية قوية فاستغل الثروة الطائلة التى ورثها عن أهله فى تأسيس ستة أديرة فى صقلية ودير سابع فى روما . ولم يلبث أن استقال

---

(1) Moss : op. cit. p. 132

(2) Oman : The Dark Ages, pp. 198—199.

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 305.

(5) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 174.

من المنصب الكبير الذى عينه فيه الامبراطور جستين الثانى ، ووزع ما تبقى لديه من مال على الفقراء والمحتاجين مفضلا الانقطاع للحيساة الديرية (١) . وعندما أجمع رجال الدين على اختياره لمنصب البابوية ســـنة ٥٩٠ — على الرغم من تمنعه الشـــديد — أخذت تظهر شخصية هذا البـــابا الجديد على حقيقتها، لتعبر عن كثير من الصفات التىامتاز بها أهالى العصور الوسطى، مثل ولعه باللاهوت واعتقـــاده فى المعجزات وبغضـــه للتراث الكلاســـيكى وحمـــاسته للديريـــة (٢) . والى جانب كل ذلك اتصف جريجورى العظيم بالتواضع الجم ، حتى اتخذ لنفســـــه وهو البابا لقب « خـــادم الله » «Servue Servorum Dei» زيادة على بساطته المتناهية . ولكنه فى مباشرته وظيفته البابوية اتصف بالكبرياء والاعتزاز بنفسه وسلطته العليا كما يتضح من رسائله العديدة الى معاصريه من الاساقفة والملوك لينهاهم فيها عن المفاسد ويأمرهم بالخير والاستقامة (٣) .

وتبدو عظمة جريجورى الاول أشـــد ما تكون وضوحـــا فى النواحى السياسية والادارية والتبشيرية، فحكومته فى روما كانت أقرب الىالحكومة الدنيوية منها الى الحكومة الدينية . ذلك انه أخذ ينظم وسائل الدفـــاع ضد اللمبارييين كاعداد الجند وتحصين الاسوار وشحن القلاع، بل توجيه الهجمات . وفى حالات أخرى كان هو الذى يفاوض اللمبارديين باسم الشعب الرومانى حتى عقد معهم هدنة سنة ٥٩٢ ، كما عقد صلحا نهائيا مع ملكهم أجيولف سنة ٥٩٨ أنهى الحروب المتواصلة التى استمرت ثلاثين سنة منذ الغـــزو اللمباردى لايطاليا (٤) . وتشهد رسائل جريجورى الاول — التى دونت عند نهاية القرن السادس — على مدى دقة هذا البابا وكفايته الادارية . ذلك أن هذه الرسائل تمدنا بمعلومات بالغة الاهمية عن كيفية ادارة جريجورى لأملاك البابوية الواسعة ، وعن جهوده فى تنمية مواردها والاشراف اشرافا دقيقا على ايراداتها ومشروعاتها (٥) . وقد أراد جريجورى الاول أن يستغل ايراد

---

(1) Dudden : Gregory the Great ; vol. 1, p. 106.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 236—237.
(3) Oman : the Dark Ages, p. 201.
(4) Dudden : op. cit. vol. 1, p. 246.
(5) Moss : op. cit. p. 132.

البابوية الضخم فى مختلف الاغراض التى تعـــود على أبناء العالم المسيحى بالخير ، مثل فدية أسرى المســيحيين ، وتخفيف آلام المجاعــات وانشــاء المستشفيات للعناية بالمرضى والجرحى ، وتدعيم الكنائس أو اصلاحها بعد أن تعرض كثير منها لعبث اللمبارديين (١) . وهنا نلاحظ أن أفق جريجورى العظيم لم يقف عند الحدود الايطالية ! لأن هذا البابا أحرص على أن يشعر جميع أبناء العالم المسيحى بأهميته بوصفه أباً روحيا للجميع ، فاذا ســمع بحدوث أزمة اقتصادية فى القسطنطينية أسرع بارســال السفن اليها من صقلية محملة بالقمح ، واذا علم بحاجة قبط مصر الى الأخشــاب أرسل لهم حاجتهم من سردينيا .. وهكذا (٢) .

وعلى الرغم من ان اختيــار جريجورى العظيم لمنصب البابوية تطلب موافقة الامبراطور البيزنطى وقبــول البابا الجديد لجميع قرارات المجامع الدينية السابقة ، الا ان جريجورى أظهر دائما تمسكا بسيادة كرسى روما على بقية الكراسى الأسقفية فى الشرق والغرب(٣) ، حتى أنه حاول — دون جدوى — فرض سيادة البابوية — فى الناحية القضائية — على الأســاقفة الشرقيين بما فيهم بطريرق القسطنطينية. ويبدو أن ضعف النائب الامبراطورى فى ايطاليا ، وافتقاره فى معظم الحالات الى المال والرجال ، ساعد على ازدياد نفوذ البابوية المدنى فى بقية انحاء ايطاليا، فضلا عما فعله جريجورى من مد نفوذ البابوية الفعلى الى افريقيا وغاليا وأسبانيا وانجلترا (٤) . ذلك أنه عمل على نشر المذهب الكاثوليكى بين القوط الغربيين ، وبذلك ادخل أسبانيا فى حظيرة الكنيسة الغربية ، كما أرسل بعثة القديس أوغســطين الصغير الى انجلترا ، الأمر الذى أدى الى انتشار المسيحية فيها من جهة والى ســيطرة البابا على كنيستها من جهة أخرى . أما فى ايطاليا فقد استطاع جريجورى العظيم أن يدعم الكنيسة الكاثوليكية بين اللمبــارديين عن طريق تأثيره على

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 180 & Moss : op. cit. p. 132.

(2) Thompson : op. cit. vol. 1, p. 178.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 1, p. 246.

(4) Dudden : op. cit. Vol. 2 pp. 201—237

زوجة ملكهم اجيلولف (١) . وفى غاليا كانت رغبات جريجورى العظيم تقابل بالترحاب والقبول من ملوك الفرنجة ، حتى أصبح لهذا البابا كلمة مسموعة فى جميع أنحــاء غاليا . حقيقة أن جريجورى لم يتردد فى طلب معــونة الامبراطورية البيزنطية لاخضاع أساقفة اليريا أو تأديب هراطقة الدوناتيين فى شمال افريقية (٢) ولكنه بلغ بهذا البابا أنه فى الوقت الذى كان أحوج ما يكون الى مساعدة الامبراطورية البيزنطية ، لم يتراجع عن تهديد الامبراطور موريس عندما لجأ الأخير الى تقييد نفوذ الأديرة وتحريم دخولها على الرجال القادرين على الخدمة العسكرية ، وهكذا اســتطاع جريجورى — بفضل تمسكه بحقوق البابوية وهيبتها — أن يضرب مثلا عاليا احتذاه خلفــاؤه من البابوات (٣) ويكفى أنه ترك لخلفائه — عندما توفى سنة ٦٠٤ — بناء بابويا شامخا ونفوذا روحيا واسعا وســلطة زمنية قويـــة ، كما حقق للمنصب البابوى قسطا من السمو لم يسبق أن حظت به البابوية من قبل (٤) .

على أن هذه المكانة السامية التى أضحت فيها البابــوية منذ عهد جريجورى الأول، سرعان ما أدت الى نوع من التنافس بينها وبين الامبراطورية نتيجة لاعتزاز كل من الطرفين بسمو مركزه ، وهو تنافس أدى الى الصدام أكثر من مرة فى العصور الوســطى . وقد بدأ الاحتكـــاك أول مرة بين الامبراطور قنسطانز الثانى (قنسطنطيوس) ٦٤١ — ٦٦٨ ، والبابا مارتن الأول (٦٤٩ — ٦٥٥) وكان هذا البابا قد عقد مجمعا فى روما ســنة ٦٤٩ أعلن بطلان المرسوم الذى أصدره الامبراطور بخصوص تحريم أى نقاش حول المونوفيزيتية ، فى الوقت الذى كانت البابوية تطمع فى تحريم المونوفيزيتية نفسها واضطهاد أتباعها . ولم يستطع الامبراطور أن يغفر للبابا هــذه اللطمة فأمر نائبه فى ايطاليا بانتهاز الفرصة للقبض على البـــابا ، فتم ذلك وأرسل البابا الى القسطنطينية حيث حوكم ونفى الى القرم ليموت ٦٥٥ (١).

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 202.
(2) Moss : op. cit. p. 133.
(3) Dudden : op. cit. vol. 2, pp. 238—239.
(4) Oman : The Dark Ages, p. 203.

ويبدو أن حرص الامبراطور قنسطانز على تحقيق سيطرته شجعه على الانتقال الى ايطاليا سنة ٦٦٣ حيث اشتبك مع اللمبارديين فى بعض مواقع فى الجنوب (١) ، ثم قصد روما بعد ذلك حيث قدم له البابا فيتاليان Vitalian (٦٥٧ — ٦٧٢) فروض الولاء والتبعية (٢) . على أن هذه الزيارات أضرت فى الواقع بالامبراطور وسمعته أكثرمما أفادته ، نظرا لأنه لم يتورع عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة التى وجدها فى روما ، هذا فى الوقت الذى لم يغفر الايطاليون للامبراطور قنسطانز ما فعله بالبابا مارتن الذى اعتبروه شهيدا . ويبدو أن قنسطانز أحس عندئذ بخطورة ازدياد نفوذ البابوية ، بدليل أنه حاول أن يقلم أظفارها ، فمنح رئيس أساقفة رافنا حق الاستقلال عن البابوية وعدم الخضوع لسلطانها الروحى . وقد استمر هذا الانشقاق بين روما وأسقفية رافنا زهاء عشرين سنة ، حتى انتهى الأمر بعودة الأخيرة الى حظيرة البابوية .

ومن الواضح أنه لو كان هناك رجل قوى على رأس الكنيسة الغربية لاستطاع أن يقف من الامبراطور قنسطانز موقفا صلبا عنيدا ، ولتطور الأمر عندئذ الى نزاع خطير بين البابوية والامبراطور . ولكن البابا فيتاليان كان ضعيفا ، فخشى أن يتعرض للمصير الذى تعرض له مارتن من قبل وآثر الاستسلام والخضوع ، الأمر الذى أجل وقوع الصدام بين روما والقسطنطينية ، ولكن الى حين (٤) . ذلك أن قنسطنطين الثالث (٦٦٨ — ٦٨٥) حرص على علاقته الودية مع البابوية ، ولكن هذه العلاقات الطيبة لم تستمر فى عهد خليفته جستنيان الثانى (٦٨٥ — ٦٩٥) الذى عاد فحرض نائبه فى ايطاليا على القبض على البابا سرجيوس (٦٨٧ — ٧٠١) وارساله الى القسطنطينية . ولكن النائب الامبراطورى تعرض — عند محاولة تنفيذ هذا الأمر — لمعارضة الحامية البيزنطية نفسها ، فضلا عن أهل روما ، حتى انتهى الأمر بانتصار البابا فى الوقت الذى أدت سياسة الامبراطور جستنيان

---

(1) Diehl & Marcais : op. cit. p. 231.
(2) Idem : p. 239.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 2, p. 394.
(4) Oman : The Dark Ages, pp. 277—278.

الثانى الى عزله (١) . وقد ساعدت الفوضى التى تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية فى الاثنتين والعشرين سـنة التـالية (٦٩٥ — ٧١٧) على ضعف نفوذها فى ايطاليا ، وهو الأمر الذى أعطى البابوية فرصة للظهور والتمتع بسلطات زمنية واسعة ، حتى أن البابا حنا السادس (٧٠١ — ٧٠٥) باشر جمع الضرائب فى روما كما عقد المعاهدات مع دوق بنفنتو اللمباردى .

ثم كان أن ساءت العلاقات الى حد كبير بين روما والقسطنطينية على عهد البابا جريجورى الثانى (٧١٥ — ٧٣١) عندمـا أخذ الامبراطـور ليو الأيسورى يباشر سياسته اللاأيقونية . ويبدو أن جريجورى الثانى استغل هذه الأزمة من جهة ، كما استغل نفوذ الامبراطـور فى ايطـاليا — ماعدا الجنوب — من جهة أخرى ، ليتحرر من سلطة الامبراطورية تحررا تـاما ، ويجعل سلطة البابا الزمنية فى أواسط ايطاليا حقيقة ملموسة . لذلك استحوذ جريجورى الثانى على السلطات الامبراطورية مثل جمع الضرائب فى ايطاليا سنة ٧٣٥ ، كما أصدر قرار الحرمـان ضد النائب الامبراطورى مما يعتبر خروجا على الامبراطور (٢) . وفى الوقت الذى اشتد الخلاف والقتـال بين اتباع الامبراطور واتباع البابا فى ايطاليا ، أعاد اللمبـارديون توحيد جبهتهم تحت زعامة ليتوبراند (٧١٢ — ٧٤٣) الذى يعتبر هو الآخر من أعظم ملوك اللمباريين . وقد عرف عن ليتوبراند تحمسه للكنيسة حتى أنه أسس عددا كبيرا من الأديـرة ، فى الوقت الذى اختـار ألا يتخذ سـياسة معـادية للامبراطوريـة . وكل ما هنالك هو أنه صمم على بسـط سـيادة الملكية اللمباردية على جميع أنحاء ايطاليا ، مما أوقعه فى صراع مع غيره من زعماء اللمبارديين فضـلا عن الامبراطوريـة والبـابوية جميعا (٣) . وهكذا أخذ اللمبارديون يهاجمون الممتلكات الامبراطورية ويستولـون على المدن التابعة للامبراطور البيزنطى واحدة بعد أخرى مثل بولونيا وأوزيمو Osimo وريميى Rimini ويبدو أن ليتوبراند لم يشأ أن يلتحم بالبابوية عندئذ ،

(1) Cam. Med. Hist. vol. 2, pp. 408—409.

(2) Deanesly : op. cit., p. 411.

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 290.

فنزل عند رغبة البابا وسلمه قلعة سوترى Sutri التى انتزعها اللمباريون من البزنطيين قرب روما (١) .

وفى ذلك الوقت استمر جريجورى الثانى يرد على الامبراطور ليو الثالث فى لهجة عنيفة ، مقبحا رأيه فى تحريم عبادة الأيقونات ، مهددا اياه بالاحتماء باللمبارديين اذا جرؤ الامبراطور على ارسال جيش ضد روما (سنة ٧٢٩) (٢) . ومن الواضح أن الاحتماء باللمبارديين كان آخر ما يمكن أن تلجأ اليه البابوية ، لأن وقوع روما فى قبضة ملك قوى مثل ليتوبراند معناه القضاء التام على ما تطمع فى تحقيقه البابوية من سلطة زمنية . ثم أنه ليس من المعقول أن تعمل البابوية على تخليص نفسها من سيطرة الامبراطور البيزنطى لتلقى بنفسها تحت رحمة الملك اللمباردى . وهكذا يبدو أن جريجورى الثانى — عندما هدد الامبراطور البيزنطى بالاحتماء باللمبارديين — لم يكن جادا فى تهديده ، بدليل أنه قام عندئذ ببذر بذور الفرقة بين ليتوبراند فى الشمال ودوقتى بنفنتو وسبليتو فى الجنوب (٣) وسرعان ما أدركت البابوية أنها نجحت فى القضاء على النفوذ البيزنطى فى أواسط أيطاليا ، ولكنها أصبحت وحيدة وجها لوجه أمام خصم آخر أقرب وأشد خطرا وهم اللمبارديون .

وقد حدث ذلك فى الوقت الذى أن توفى البابا جريجورى الثانى وخلفه البابا جريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) ، الذى كان هو الآخر من كبار المتحمسين للأيقونية ، مما أوقعه فى عداء مرير مع الامبراطور البيزنطى . وكان أن رد الامبراطور ليو الأيسورى على موقف البابا الجديد باصدار مرسوم لتحديد اختصاص البابوية القضائى وفصل أسقفيات اليريا وجنوب ايطاليا عن البابوية وسلطاتها (٤) .. وفى العام التالى (سنة ٧٣٢) أعد

---

(1) Thompson : op. cit., vol. 1, p. 181.
(2) Oman : The Dark Ages, pp. 282—283.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 2, pp. 691—695.
(4) Diehl & Marçais : op. cit., p. 267.

الامبراطور ليو الثالث أسطولا وحملة لاسترداد أملاك الامبراطورية من اللمبارديين ، والقبض على جريجورى الثالث . ولكن الطبيعة أبت الا أن تعاكس الامبراطور ، فهبت زوبعة فى البحر الأدرياتى حطمت الاسطول الامبراطورى وقضت على المشرع البيزنطى . وتعتبر هذه آخر محاولة جدية بذلتها الامبراطورية البيزنطية لاسترداد نفوذها المفقود فى ايطاليا ، اذ اضطر الأباطرة الشرقيون بعد ذلك الى ترك البابوات وشأنهم فى حين لم يعد للنائب الامبراطورى نفوذ يذكر (١) .

التحالف بين البابوية والفرنجة :

أما عن الموقف فى ايطاليا فقد عمل الملك ليتوبراند على نشر السلام فى أنحاء البلاد طوال ثمانية الأعوام التى أعقبت اتفاقيته مع البابوية سنة ٧٣٠ . وتدل الشواهد التاريخية على أن ليتوبراند كان رجلا تقيا ، احترم البابوية وناصر المسيحين ضد أعدائهم . من ذلك أنه عندما غزا المسلمون اقليم بروفانس (٧٣٦ — ٧٣٧) طلب شارل مارتل مساعدة ليتوبراند ضد مسلمى الأندلس ، أسهم اللمبارديون فى طردهم من غاليا (٢) . على أن جو السلام الذى ساد ايطاليا حتى سنة ٧٣٨ ، لم تلبث أن أفسدته ثورة دوق سبولتيو ضد ليتوبراند (٣) . والمهم من أمر هذه الثورة هو أن فشلها أدى الى فرار الأمير الثائر الى روما محتميا بالبابوية مما أثار ليتوبراند وجعله يزحف الى روما ويحاصرها . وفى هذه الأزمة لم يستطع جريجورى الثالث أن يعتمد على مساعدة امبراطور القسطنطينية ، فلم يجد البابا أمامه سوى شارل مارتل رئيس بلاط الفرنجة وصاحب النفوذ الفعلى فى الدولة ، فأرسل اليه طالبا المساعدة ضد اللمبارديين (٧٣٩) (٤) . على أن الظروف تجمعت عندئذ لتجعل مساعدة شارل مارتل للبابا أمرا متعذرا ، اذ كان الاول مازال مشغولا بأمر المسلمين الذين لم تنقطع اغاراتهم على غاليا ،

---

(1) Oman : The Dark Ages, pp. 284—285.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 2, p. 129.
(3) Oman : The Dark Ages, p. 285.
(4) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 132.

فضلا عن أن شارل مارتل كان لايزال يذكر فضل ملك اللمبارديين فى مساعدته منذ عدة سنوات ضد المسلمين . وهكذا لم يصادف طلب البـــابا جريجورى الثالث قبولا من شارل مارتل ، ولاســـيما أن رجال الدين الفرنجة كانـــوا معادين لشارل مارتل بسبب استيلائه على أراضى الكنيســـة . واذا كان ليتوبراند قد استغل هذه الظروف فى الاســـتيلاء على دوقية ســـبوليتو ثم مهاجمة المناطق المجاورة لروما (١) ، الا أن الأوضــــاع أخذت تتغير عندما توفى البابا جريجورى الثالث وشارل مارتل جميعا ســـنة ٧٤١ ، فى الوقت الذى عـــاد النائب الامبراطورى الى رافنا ليجدد جهوده ضد اللمبارديين . وهنا أدرك ليتوبراند أن مصالحه تتطلب الاتفاق مع البـــابا الجديد زكريـــا (٧٥١ — ٧٥٢) ، فتعهد له بالمحافظة على السلام لمدة عشرين سنة ، ورد كافة المدن والممتلكات التى انتزعها اللمبارديون من البابوية . ومع ذلك فان هذه الحلول لم تنجح فى اطفاء ثورة الغضب والكراهية التى أثارتها أعمال اللمبارديين فى نفوس البابوات . لذلك من الخطأ الظن بأن البابـــوية هدأت بالاً بعد أن استرضى ليتوبراند البابا زكريا سنة ٧٤٢ ، فكل ما هنالك هو أنها أخذت تتربص الدوائر باللمبـــاريين وتترقب الوقت المناسب للايقـــــاع بهم (٢) .

ثم كان أن مات ليتوبراند سنة ٧٤٣ قبل أن يتمكن من مهاجمة النائب الامبراطورى ، فتعاقب فى حكم اللمبارديين الملك هلدبراند (٧٤٣ — ٧٤٤) . ثم راتشيس Ratchis (٧٤٤ — ٧٤٩) ثم اســـتولف (٧٤٩ — ٧٥٦) . وقد أظهر استولف هذا تمسكا شـــديدا بســـياسة ليتوبـــراند الخاصة بتوحيد ايطـــاليا ، مما جعل اللمبـــارديين يعودون من جديد الى تهديد الممتلكـــات البيزنطية والبـــابوية جميعا . وكان أن وصلت مملكة اللمبـــارديين فى عهد استولف هذا الى أقصى درجات الاتساع بعد أن نجح فى الاســـتيلاء على رافنا سنة ٧٥١ (٣) ، دون أن يلقى مقاومة تذكر ، أو حتى معارضـــة من الامبراطور البيزنطى قنسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) الذى كان مشغولا فى

---

(1) Thompson : op. cit., Vol. 1, pp. 182—183.
(2) Oman : The Dark Ages, p. 287.
(3) Ostrogorsky : op. cit., p. 151.

بلاده بالحركة اللاأيقونية من جهة وبمحاربة البلغار والفرس والمسلمين من جهة أخرى (١) . وبعد ذلك اتجه استولف نحو اخضاع الممتلكات البابوية ، بل البابوية نفسها ، فطلب من البابا ستفن الثانى (الثالث) (٧٥٢ — ٧٥٧) أن تعترف روما بالتبعية للملك اللمبارديين فضلا عن قيام البابوية بدفع جزية سنوية . وقد حاول البابا أن يخيف استولف بتوقيع عقوبة الحرمـــان عليه أو أن يهدده بطلب معونـــة الامبراطـــور البيزنطى ، ولكن هذه التهديـــدات وأشباهها لم تنجح فى تحويل الملك اللمباردى عن قصده . وفى هذا الموقف الحرج وجد البابا ستفن نفسه مضطرا الى العمل بسرعة للخروج من ذلك المأزق . وشاءت الظروف أن يكون ذلك فى الوقت الذى أعلن بيبين القصير — ابن شارل مارتل — نفسه ملكا ســـنة ٧٥٢ بعد عزل آخر ملوك البيت الميروفنجى . وكان أن تم الاتصـــال سرا فى اوائل ســـنة ٧٥٣ بين البـــابا ستفن الثانى من جهة وبيبين القصير من جهة اخرى ، وترتب على ذلك فرار البابا فى اكتوبر ٧٥٣ الى غاليا حيث تم الاتفاق بينه وبين بيبين . وفى يوليو ٧٥٤ أعـــاد البابا تتويج بيبين بيده وأضفى عليه لقب البطريقية من باب التشريف (٢) .

أما أستولف فقد أفزعه نبأ التحالف بين البابـــوية والملكية الفرنجية ، وحـــاول اصـــلاح الأمـــور ولكن بعد فوات الأوان ، اذ لم تلبث أن غزت جيوش الفرنجة شمال ايطاليا فى ربيع سنة ٧٥٤ . وهنا لم يستطع أستولف المقاومة فحلت به هزيمة جعلته يفر مدحورا الى بافيـــا ، حتى حضر بيبين القصير بنفسه وحاصر أستولف فى معقله . وقد عرض أستولف الصلح فى هذه المرحـــلة على أساس أن يقدم فروض التبعية الشخصية لملك الفرنجة وأن يرد للبابا حقوقه المسلوبة . وبعد توقيع هذه الاتفاقية عاد البابا ظافرا الى روما كما رجع بيبين الى بلاده . ولكن لم يكد أستولف يعلم بعودة بيبين حتى أخذ يماطل فى تنفيذ اتفاقية الصلح ، فامتنع عن رد المدن التى ســـبق أن انتزعها من البابوية ٧٥٣ ، بل عـــاد الى محاصرة رومـــا فى شـــتاء

---

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 302.

(2) Cam. Meed. Hist. Vol. 2, pp. 584—585.

٧٥٥ – ٧٥٦ ، مما تطلب عودة بيبين القصير الى ايطاليا للمرة الثانية لينزل هزيمة أخرى باللمبارديين (١) وفي هذه المرة كانت الشروط التي عرضت على أستولف أشد قسوة ، اذ ألزمه بيبين بتقديم ثلث دخله الملكي بمثابة جزية سنوية عن مدينة رافنا وعدد آخر من المدن التي أخلاها اللمبارديون ، في حين توفى أستولف سنة ٧٥٦ . ومن ثم أخذت دولة اللمبارديين في الذبول والانحلال ولم تعد تمثل خطرا على البابوية أو تسبب ازعاجا لدولة الفرنجة (٢) .

أما البابوية فقد غدت أملاكها أقوى وحدة مترابطة في ايطاليا ، اذ امتدت من البحر الأدرياتي ورافنا شرقا حتى روما غربا عبر الأبنين ، في حين فشلت المملكة اللمباردية في محاولتها توحيد ايطاليا . وهكذا اكتسبت البابوية سلطانا زمنيا الى جانب سلطانها الروحي ، حتى ظلت عقبة كأداء في سبيل الوحدة الايطالية حتى القرن التاسع عشر . ومع أن حوادث سنة ٧٥٦ لم تؤد الى اتخاذ خطوة نهائية فاصلة لتحرير البابوية من روابطها الرسمية بالامبراطورية البيزنطية ، الا أنه من الواضح أن البابوية تحررت فعلا — وبطريقة عملية — من تبعيتها للقسطنطينية .

---

(1) Idem, pp. 589—590.
(2) Thompson : op. cit Vol. 1, p. 186.

الباب الثامن

ظهـــور الديرية

شهد العصر الذى أخـذ فيه نفوذ المســـيحية يزداد تدريجيـــا فى الامبراطورية الرومانية ، نشأة حركة دينية كانت فى أول أمرها مستقلة عن الكنيسة ولكنها لم تلبث أن أصبحت جزءا أساســيا من النظــام الكنسى . والواقع أنه يمكن القول بأن بذور حياة الزهد والرهبانية وجدت فى أصـــول المسيحية الاولى ، فالعهد الجديد لم يخل من اشـــارات عن تحريض الناس على الانصراف للعبادة متى استطاعوا ذلك (١)، هذا فضلا عما جاء فى اقوال القديس بولس من حث على حياة العزوبة (٢) التى تعتبر ركنـــا مهمـا من أركان حياة الزهد والرهبانية (٣) . واذا كنا نســـــمع عن أمثـلة لبعض المخلصين الذين آثروا الانقطاع للحياة الدينية فى أوائل عهد المسيحية (٤) ، الا أن هذا اللون من الوان الحياة الدينية لم يصبح شيئا مألــوفا فى الشرق المسيحى قبل القرن الرابع ، فى حين لم ينتشر فى الغرب قبل القرن الخامس ولم يصبح شائعا قبل القرن السادس . ويفهم من هذا أن الحيـــاة الديرية شرقية الأصل ، بل انها أقوى أثر تركه الشرق فى المسيحية (٥) .

والواقع أن الزهد والعزلة — وهما من الدعائم الاولى للحياة الديرية — مهدا فى أول الأمر لنوع من حياة الرهبانية الانفرادية التى تحولت فيما بعد الى حياة ديرية اجتماعية . وهنا نستطيع تفسير الرغبة فى العزلة والتقشف

---

(١) « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملـكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل » . (انجيل متى ـ الاصحاح التاسع عشر ١٢) .

(٢) « وأما من جهة الأمـــور التى كتبتم لى عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة » (العهد الجديد ـ رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس ـ الاصحاح السابع ـ ١) .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 521.

(4) Bury : Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1, p. 383.

(5) Thompson : Vol. 1, p. 219.

بأنها كانت ثورة نفسية ضد ما ساد المجتمع الرومـــانى فى القرن الرابع من فساد . فالفرق الكبير بين تعاليم العهد الجديد وبساطة الكنيسة من جهة ، وبين فساد المجتمع الخارجى من جهة أخرى ، دفع كثيرا من المخلصين الى الفرار نحـــو الاماكن النائية ينشدون راحة الفكر والضمير (١) . هذا فضلا عن أن الاضطهاد الوحشى الذى لقيه المســـيحيون ، والذى بلغ أشـــده فى أواخـــر عهد دقلديـــــانوس جعل الكثيرين يفكرون فى الفرار بعقيدتهم الى الأماكن البعيدة . وهكذا أصبح نبذ الممتلكـــات والاهل والوطن نوعـــا من أنواع الرياضة النفسية التى تستهدف خدمـــة الدين ، فالفقر والحرمـــان يؤديان الى طهـــارة النفس ، والعزلة فى جو تكتنفه المصاعب من شأنها أن تمحو الذنوب وتزيل الآثام .

والمعروف أن حياة الرهبـــانية ظهرت لأول مرة فى المســـيحية فى مصر ، حيث ساعدت طبيعة البلاد وجوها على نشأة هذه الحياة وتطورهـــا (٢) . ويعتبر القديس بولس الطيبى (حوالى ٢٥١ـــ٣٥٦) والقديس أنطون ـــ المعاصر له ـــ أول مثلين نعرفهما عن الرهبانية فى المسيحية . ويبدو أننا لا نستطيع الكلام بالتفصيل عن حياة القديس بولس نظرا لأن المتـــأخرين أضفوا عليه هالة واسعة من النور يصعب فى ضوئها المصطنع تمييز الحقيقة من الخيال ، حتى قيل أنه قضى سبعة وتسعين عاما وحيدا منفردا فى أحد كهـــوف طيبة بمصر العليا . أما القديس أنطون فقد نظم كثيرا من مستعمرات الرهبـــان فى مصر العليا ، خصص فيها لكل راهب خلية يتعبد فيها منفردا ولا يشترك رهبان المستعمرة الا فى انتاج ما يلزمهم من طعام وملبس ، فالحياة الدينية المثلى فى نظر القديس أنطون قامت على أساس الانفرادية (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فان الرهبانية الانفرادية تعتبر نوعا من التطرف البعيد عن الحكمة وطبيعة الانسان الاجتماعية . فليس من الدين فى شىء

---

(1) Ibid.

(2) Workman : The Evolution of the Monastic Ideal, p. 86.

(3) Painter, op. cit., p. 17.

أن يبتعد الفرد عن اخوانه من بنى الانسان ليعيش وحيـدا وسط الهوام ، يقضى أيامه فى جوع وحرمان ، أو يأكل ما تيسر له من طعـام فاسـد دون أن يرتدى شيئا سوى أسـمال بالية ، ويحـرم نفسـه حتى من نظـافة الجسد (١) . لذلك كان لابد للعقلاء من الراغبين فى الانقطاع للعبـادة من ابتكـار نظـام آخر يتفق وطبيعة البشر . ومن هنا نشـأ النظـام الديرى الذى يجمع بين الرغبة فى الانقطـاع للعبـادة من جهة وبين طبيعة البشر الاجتمـاعية من جهة اخرى . وكانت أولى الأديرة التى عرفتها المسـيحية هى تلك التى شيدها القديس باخوم قرب دندرة وأخميم بصعيد مصر (٣) .

أما القديس باخوم هذا فيبدو أنه كان من أهالى الوجه البحرى ، ولد فى أسرة ثرية من أبوين وثنيين ، ثم اشتغل جنديا فى جيش قنسطنطين ، حتى اهتدى الى المسيحية فانسحب الى الصحراء ليباشر حياة الرهبـانية الانفراديـة متبعا مذهب « العزلة عبادة » . ولم يلبث أن ضاق باخوم ذرعا بهذه الحياة التى لا تتفق وطبيعة البشر بحكم أن الانسان اجتماعى بالطبع ، ولذلك شيد أول دير عرفته المسـيحية قرب دندرة حوالى ٣١٥ — ٣٢٠ (٤) . وهنا يلاحظ ان باخوم تأثر عند اقامة ديره الجديد بما شاهده فى الجيش الرومانى من نظم ، فجـاء الدير فى تصميمه وخلواته أشبه شىء بما هو معروف عن المخيمات الرومانية ، كما أن القديس باخـوم استن لديره بعض التنظيمات شبه العسكرية المعروفة فى الجيش الرومانى ، ففرض على أعضـاء الدير الطـاعة والهدوء والنظام والعمل اليومى ، زيـادة على مباشرة الطقوس الدينية . وسرعان ما تكشفت للمعاصرين مزايا هذا النوع الجديد من حياة التعبد ، فأقبلوا على الديرية اقبـالا شـديدا ، حتى أن المؤرخ المعـاصر بلاديوس Palladius الذى زار مصر حوالى سـنة ٣٩٠ قدر أتبـاع باخوم بثلاثة آلاف راهب ، فضـلا عن سـبعة آلاف كانت تضـمهم بعض المؤسسات الديرية الأخرى (١) . على أنه يلاحظ أيضـا بخصـوص هذه

---

(1) Thompson : op. cit., Vol. 1, pp. 219—220.

(2) Bury : op. cit., p. Vol. 1, p. 338.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 524.

الآديرة الباخـومية ، أنها كانت منفصـلة بعضـها عن بعض ، ولكل منها ادارته المستقلة (٢) ، كما أن الحياة الاجتماعية فيها كانت محدودة بل ان الطـابع الغالب على الحيـاة داخل هذه الآديـرة كان يميل الى العزلة والانفرادية لأن كل راهب عاش شبه مسـتقل فى خليته أو قليته مع الزامه بالاجتماع مع أخوانه للقيام بالصلوات المشتركة (٣) .

ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت حياة الرهبـانية والديرية خارج حدود مصر فى الجزء الشرقى من العالم الرومانى ، أى فى بلاد الشام وقبرس وما بين النهرين وآسيا الصغرى (٤) . ففى بلاد الشام نسمع عن القديس سيمون العمودى (ت ٤٥٩) الذى اتخذ مقامه فوق عمود لمدة ثلاثين عاما ، مكتفيا بأن يدلى سلة صغيرة بواسطة حبل ليحصل فيها على ما يحتاج اليه من لوازم أساسية (٥) . أما فى آسيا الصغرى فقد أسست أخت القديس باسل ديرا للراهبات سنة ٣٥٨ فى اقليم بونطس (Pontus) أما القديس باسـل نفسـه (٣٢٩ — ٣٧٩) فقد درس الأنظمة الأنطونية والباخـومية وام تعجبه ، فأسس مؤسسة ديرية فى قيصيرية الجديدة (Neocaesarea) بآسيا الصغرى أيضا حوالى سنة ٣٦٠ . وسرعان ما أصبحت التنظيمـات التى وضعها القديس باسل لمؤسساته الديرية بمثابة دستور للاديرة الباسلية التى انتشرت فى الشام وفلسطين وبلاد اليونان حتى صـارت هذه الأديرة تتزعم الحياة الديرية فى الامبراطورية البيزنطية بقية العصور الوسطى (٦) .

والواقع أن نظـام القديس باسل هذا جاء مزيجا من المثالية والواقع العملى ، اذ قضى على ما كان هناك من أثر للعزلة والحياة الانفرادية داخل

---

(1) Thompson : op. cit., Vol. 1, p. 220.
(2) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 37.
(3) Painter : op. cit., pp. 17—18.
(4) Workman : op. cit., pp. 111—113.
(5) Stephenson : op. cit., p. 87.
(66) Workman : op. cit., pp. 113—115

الدير ، وجعل الرهبان يشتركون اشتراكا فعليا فى الحياة العامة والطعام والعمل والعبادة ، كما نبذ فكرة اقـامة الأديرة فى الصحراوات والمنـاطق المتطرفة وفضل اقامتها على مقربة من المدن ان لم يكن فى المدن نفسها (١). كذلك حرم القديس باسل تعذيب النفس واهمال الجسد وحث على العناية بالنظافة والعمل ، فبدلا من أن يترك الرهبان أجسادهم تذبل وتبلى بدعوة التقشف والزهد ، جعلهم القديس باسل يوجهون نشاطهم نحو أعمال نافعة ليس الغرض منها سد حاجة الدير ومطالبه فحسب بل مساعدة الفقراء والمحتـاجين من أهل المنطقة التى يقع فيها الديـر (٢) . وهكذا لم تهمل الأديرة الباسلية العمل النافع المفيد داخل الدير ، مثل الفلاحة والنسـيج وصناعة الجلـود والأخشاب والبناء ، مع تحريـم الملكية الخاصة على أعضاء الدير ، بحيث لا يمتلك الراهب الا ثوبه ونعليه . وكان يراعى فى ثياب البساطة والرخص والنظافة ، أما طعامه فكان كافيا مغذيا دون اسراف . ومن هذا كله مكن القول بأن القديس باسل هو المؤسس الحقيقى للحيـاة الديرية فى المسيحية (٣) .

ولكن على الرغـم من أن الديريـة احتلت مكانة ملحوظة فى الحياتين الدينية والاقتصادية منذ القرن الرابع، الا أنها لم تخل من مساوىء وعيوب. ذلك أن الديرية قامت فى أساسها على شعور الأنانية المستتر خلف حجاب التدين ، فكل راهب يفكر فى انقاذ نفسه وتجنيبها الضلال دون أن يفكر فى غيره بالقدر الذى يفكر به فى نفسه ، بل ربما أوقعته عزلته عن المجتمع البشرى الكبير فى كثير من الأخطاء (٤) . واذا كان الراهب يقوم بشىء من أعمال البر والاحسان فانه لا يقوم بها رحمة بأخيه الانسان وانما رحمة بنفسه ووسيلة يتقرب بها الى الله . وهو يعمل داخل الدير لا لأن العمل نشاط نافع لنفسه وللمجتمع أو وسيلة لمساعدة غيره ، وانما يتخذ من العمل منفذا لتصريف طاقة الحماسة المكبوتة فى نفسه . فالراهب يهجر العالم ويلوذ بديره لانه فى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 527—528.
(2) Thompson : Vol. 1, p. 221.
(3) Painter : op. cit., p. 18.
(4) Taylor : The Mediaeval Mind. Vol. 1, pp. 373—374.

حقيقة الأمر أجبن من أن يواجه مصاعب الحياة ويعمل على تعديل ما بها من انحراف . وتقويم ما فيها من آثام وشرور(١) . وهكذا يبدو أنه على الرغم من اتجاه بعض كبار رجال الكنيسة — مثل حنا فم الذهب — الى اعلاء شأن الحركة الديرية ، الا أن ذلك لا يخفى الحقيقة الهامة ، وهى أن هذه الحركة أصبحت عاملا من عوامل التفكك والانحلال التى أخذت تنخر فى جسم المجتمع . ويبدو أن هذه الحقيقة اتضحت للمعاصرين منذ وقت مبكر يرجع الى النصف الثانى من القرن الرابع عندما شكا مجمع جانجرا Gangra سنة ٣٦٢ من أن نشاط الحركة الديرية أدى فعلا الى تمزيق كيان الأسرة وشل كثير من مرافق الحياة العامة (٢) . هذا فى الوقت الذى انتاب الفزع الحكومة الرومانية لكثرة الأفراد الذين هجروا متاجرهم وحقولهم لينخرطوا فى سلك الديرية ، فاستنت قانونا يقضى بتحريم دخول الأديرة على اللائقين للخدمة العسكرية . وربما كان من العوامل التى دفعت الدولة الى اتخاذ مثل هذا القرار هو أن الديريين أخذوا يشتبكون أحيانا مع الكنيسة والدولة ويبعثون أتباعهم المسلحين بالعصى الغليظة لفرض آرائهم على المجامع الدينية (٣) . هذا فضلا عن أن الرهبان فاقوا غيرهم من الطوائف المسيحية فى شدة تعصبهم ، الأمر الذى جعلهم يحرضون جموع الناس على التطرف فى العنف ضد الوثنيين والهراطقة . وقد اتضح تعصب الرهبان الشديد ضد كل ما له علاقة بتقاليد الوثنية وحضارتها فى أن مولد الحركة الديرية جاء مصحوبا من الناحية الزمنية بآخر حلقات الصراع بين المسيحية والوثنية المتداعية (٤) . وهنا يجب أن نتذكر أن التراث الكلاسيكى فى النواحى الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية يرتبط ارتباطا شديدا بالوثنية وتقاليدها ، مما جعل الديريين يعملون على هدم هذا التراث والقضاء عليه دون أن يفرقوا بين عقائد الوثنية وحضارتها . وحسبنا أن كثيرا من الأعمال الهدامة البشعة

---

(1) Thompson : op. cit., Vol. 1, pp. 221—222.
(2) Workman : op. cit., p. 56.
(3) Moss : op. cit., p. 37.
(4) Thompson : op. cit., Vol. 1, pp. 221—222.

التى اقترفت ضد التراث الوثنى قام بها الديريون ، مثل تحطيم المعابد الوثنية وما بها من مخلفات فنية ، وحرق المكتبات وخاصة مكتبة الاسكندرية الثانية، واضطهاد رجال الفكر والفلاسفة والأبرياء بل تحريض الغوغاء على سفك دمائهم ، كما حدث للفيلسوفة هيباشيا Hypatia (١) .

ومهما يكن من أمر فان انتشار الحياة الديرية أدى الى وجود فئتين من رجال الدين ، الأولى تشمل رجال الدين النظاميين Regula أى رجال الأديرة من الرهبان الخاضعين لنظم ديرية محدودة ، وهؤلاء اختلفوا فى وضعهم القانونى والتاريخى والاجتماعى عن الفئة الثانية من رجال الدين « الدنيويين » أو « العلمانيين » (Saecula) ، أى رجال الكنيسة من أساقفة وشمامسة وقساوسة الذين سموا بذلك لأنهم على العكس من الديريين كانوا أكثر تدخلا فى الحياة الدنيوية وأكثر امتزاجا بعامة الناس (٢) . وبقدر ما كان الفارق واضحا بين هاتين الفئتين وبقدر ما كان التنافس شديدا بينهما حول النفوذ والثروة، بقدر ما تأثرت احداهما بالأخرى وأثرت فيها . من ذلك أن الهبات والعطايا — من أرض وعقار ورقيق وغيرها — أخذت تنهال على مقدمى الأديرة فى القرن السابع مثلما انهالت على الأساقفة فى القرن السادس . ومن جهة أخرى أصرت الكنيسة فى بعض العصور على تطبيق مبدأ عدم زواج رجالها أسوة بما كان عليه الديريون (٣) . حقيقة أن فكرة عدم زواج رجال الدين بوجه عام اكثر قدما من الديرية نفسها ، ولكن هذه الفكرة لم تقو وتشتد وتصبح مجالا للبحث والنقاش فى المجامع الدينية الا بعد انتشار الحياة الديرية .

الديرية فى غرب أوربا :

وصلت الحياة الديرية الى غاليا وايطاليا وشمال افريقية قبل قيام

---

(1) Ibid.

(2) Stephenson : op. cit., p. 92.

(3) Eyre : op. cit., p. 215.

الدولة الميروفنجية (١) ، وكان النظــام الديــــرى الذى انتشر فى الغرب الأوربى قبل نهاية القرن الرابع شديد الشبه بالنظام الباخومى الذى عرفته مصر (٢) . ذلك أن كثيرا من الحجاج الغربين الوافدين من روما وغاليـــا وأسبانيا زاروا الاديرة الباخومية فى مصر ونقلوا معهم فكرتها الى الغرب (٣). هذا الى أن جيروم ترجم سنة ٤٠٤ نظام باخــوم الديــرى الى اللاتينية ، وبذلك وضع أمام الغربين صورة منظمة لهذا النوع من الحياة الدينية التى عرفتهـــا مصر (٤) .

على أن تاريخ الديرية فى غرب أوروبا يرتبط بأربعة أسماء لامعة هم القديس كاسيان (حوالى ٣٦٠ – ٤٣٥) والقديس مارتن التورى (حوالى ٣١٦ – ٣٩٧) والقـــديس قيصر الآرلى (ت ٥٤٢) والقديس بنـــدكت (حوالى ٤٨٠ – ٥٤٣) . ويعتبر أول هؤلاء – وهو القديس كاســيان – المؤسس الحقيقى للديرية الغربية على الرغم من وجود بعض رهبـــان فى الغرب – وبخاصة فى غاليا – قبل عصر كاسيان . وقد امتاز نظام كاسيان بروح الابتكار لأنه لم تسبق له رؤية الأديرة الباخومية ، ومن ثم جاء نظامه وليد خبرته (٥) . أما القديس مارتن فقد فاق كاسيان فى اتســـاع نفوذه لأن الأول نجح فى اكتساب تأييد الرأى العام الشــــعبى وعطفه فى حين فشل الثانى فى ذلك . وكان مارتن قد انتخب بالاجماع أســقفا لتور سنة ٣٧٢ ، وعلى مقربة منها أسس ديره الشهير (مارمــوتيه Marmoutier) (٦) . ومع ذلك فان القديس مارتن لم يترك أثرا واضحا فى تنظيم الحياة الديرية ، اذ قضى معظم حيــاته فى محـــاربة الوثنية فى غاليا ، ولاســـيما المنـــاطق الريفية ، مما جعل الوثنية وأنصارها يفرون الى الغـــابات والمســـتنقعات حيث استمروا عدة سنوات . أما القديس قيصر الارلى فاختلف عن زميليه

---

(1) Deanesly : op. cit., p. 70.
(2) Stephenson : op. cit., p. 88.
(3) Moss : op. cit., pp. 36—37.
(4) Workman : op. cit., p. 117.
(5) Idem : p. 231.
(66) Deeanesly : op. cit., p. 71.

السابقين فى أنه عاش فى الوقت الذى كان الفرنجة قد غزوا غاليا فعلا ، ولذلك نجد اسمه مقحما فى كثير من الأحداث السياسية والدينية المعاصرة . وقد وضع نظاما للرهبان الراهبات يتضح فيه تأثره بآراء كل من كاسيان والقديس أوغسطين . كذلك وضعت شقيقة قيصر ، وهى القديسة قيصرية Caesaria نظاما لدير الراهبات فى آرل Arles بمعاونة أخيها ، وينص هذا النظام على أن تشتغل الراهبات وقتهن بالغزل والطهى فضلا عن نسخ الكتب (٣) . وهكذا أخذت الأديرة تنتشر فى غاليا فى عهد خلفاء كلوفس ، ولاسيما أن الملوك والأفراد أسسوا عددا كبيراً منها (٣) .

أما ايطاليا فيلاحظ أن الحركة الديرية لم تتقدم فيها حتى القرن السادس لعدم ظهور أحد أعلام الديرية ومؤسسيها فى تلك البلاد ، كما كان الحال بالنسبة لباخوم فى مصر وباسل فى آسيا الصغرى وكاسيان فى غاليا (٣) . وهكذا يمكن القول بأنه حتى بداية القرن السادس كانت غاليا هى البلد الوحيد فى غرب أوربا الذى كانت به مجتمعات ديرية منظمة ، وذلك على الرغم من وجود رهبان متفرقين أو جماعات غير منظمة من عشاق حياة الزهد فى كثير من بلاد الغرب . ولكن الوضع أخذ يتغير فى القرن السادس نتيجة لجهود ثلاثة رجال نفخوا فى الحركة الديرية بايطاليا روحا جديدة وأعطوها طابعا غربيا ، وهؤلاء الرجال هم بندكت وكاسيدور وجريجورى (٤) . أما القديس بندكت فهو صاحب الفضل فى تأسيس النظام الديرى الذى عرف باسمه والذى جعل الديرية الايطالية تحتل مكان الصدارة فى الغرب بعد أن حل النظام البندكتى محل كثير من الانظمة الديرية السائدة كما تمتع — لأول مرة فى تاريخ المنظمات الديرية — بتأييد البابوية وعطفها . ولايمكن أن نصف هذا النظام البندكتى — الذى أحرز النصر النهائى

(1) Idem. p. 74.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 147.

(3) Dudden : Gregory the Great, Vol. 2, p. 160.

(4) Ideme. p. 161.

فى غرب أوربا — بأنه باخومى أو باسيلى ، لان له طابعه الخاص الذى لا يوصف الا بأنه بندكتى (١) .

وقد ولد القديس بندكت هذا حوالى سنة ٤٨٠ فى أسرة ايطالية معروفة بالثراء والأرستقراطية ، فأرسل الى روما ليتلقى تعليمه ، ولكنه ضاق ذرعا بما لمسه من مظاهر الفساد الخلقى وآثر الفرار الى مكان جبلى منعزل ، حيث عاش فى كهف بعيد معتمدا على ما يمده به المقربون من مأكل ولوازم ضرورية (٢) . ولم تلبث أن ذاعت شهرة هذا الرجل التقى ، فقصده الناس طلبا للبركة حتى تجمع حوله عدد من المريدين ، وعندئذ فكر بندكت — حوالى سنة ٥٢٠ — فى الانتقال الى مكان بعيد عن روما وأرسل بعض أتباعه للبحث عن موضع اكثر ملاءمة . وكان أن عاد هؤلاء ليخبروا كبيرهم بأنهم عثروا على مكان مناسب فى منتصف الطريق بين روما ونابلى عند مونت كاسينو ، حيث يوجد معبد قديم للاله أبولو مازال يتردد عليه بعض الفلاحين من المناطق المجاورة (٣) . وهكذا اختار بندكت ذلك الموضع لاقامة ديره الأول مستخدما فى ذلك أحجار المعبد الوثنى القديم . ثم أخذ رهبان الدير الجديد يعملون فى تطهير المنطقة المجاورة من الغابات والمستنقعات واستصلاح أراضيها للزراعة ، حتى استطاع دير مونت كاسينو أن يمد أهالى المناطق القريبة بالغلات والمحصولات المختلفة خلال أوقات الشدة (٤) .

على أن المهم فى دير مونت كاسينو هو أنه أصبح مركزا وأبا روحيا لشبكة واسعة من الأديرة التى تأسست فى غرب أوربا وفق النظام الأساسى الذى وضعه القديس بندكت لهذه المنظمة (٥) . ذلك أن بندكت كان على علم تام بمساوىء الديرية الشرقية وعيوبها ، كما أنه أحاط بنظام الأديرة

---

(1) Stephenson : op. cit. p. 88.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 536
(3) Workman : op. cit. p. 142.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 226-227.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 551.

الباسلية بعد أن ترجمت مبادىء هذا النظام من اليونانية الى اللاتينية ، مما دفع القديس بندكت الى تلافى هذه العيوب فى نظـــامه الجديد الذى أصبح من أعظم التنظيمات الدينية فى العصور الوســطى ، كما صــار أســاسا لجميع التنظيمات الديرية التالية (١) . وكان النظام البندكتى يقوم على ثلاثة أركان أساسية هى أنكار الذات والطاعة والعمل . وهكذا ســاد الاديرة البندكتية جو من التعبدوالهدوء والنظام والعمل اليدوى،بحيث لم يترك هذاكله مجـالا للأنانية والكبرياء واللغو والخمول (٢) . وكان ينبغىعلى من يريـد الانضمام الى الدير البندكتى أن يقضى أولا فترة تحت الاختبـار حتى تثبت صلاحيته واخلاصه ، وبعد ذلك يقسم يمين الولاء لنظـام الدير ، وعلى أن يظل عزبا فقيرا مطيعا ، وعندئذ يتخلى عن ارادته ليخضع خضـوعا تاما لمقدم الدير — وهو رئيسه المنتخب — فلا يمكنه أن يخرج خـارج أسـوار الدير الا بتصريح من ذلك المقدم (٤) . ومن هذا يتضـــح أن مقدم الديــر البندكتى كان يتحمل مسئولية جسيمة لأنه هو المســئول أمـام الله لا عن تصرفاته فحسب ، بل عن تصرفات بقية أعضاء الدير . لذلك خول القديس بندكت مقدم الدير سلطة عليـا فى كل شىء ، فرأيه هو النهـــائى فى جميع المســائل ، ولا يجـوز الالتجـــاء الى أية جهة أخرى لنقض قراراتـه ، هذا وان كان على هذا المقـدم أن يســتشير بقية رهبـــان الدير قبل أن يبت فى أمـــر هـــام (٤) .

أما عن الحياة داخل الدير البندكتى فامتازت بالمســاواة التـامة بين أعضـــائه ، فالحر والعبد والشريف والوضـــيع كلهم ســواء دون أن يكون هناك فضــل لعضـــو على آخر الا بالعمل الطيب . وكانت روح الاعتدال تسيطر على حيــاة الرهبـــان ، فيأكلون طعـــاما كافيـــا ، وينامـــون ما يقرب من ثمان ساعات ليلا ، كل منهم فى فراشـه الخاص ، مع عدم حرمانهم من قدر معلوم من النبيذ . واذا كانت العبادة هى الركن الأول من أركـــان الحياة الديرية ، اذ يجتمع الرهبـــان للاشتراك فى الصلاة والترتيل ثمان

---

(1) Idem : Vol. 5. p. 658

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 227.

(3) Painter : op. cit. pp. 74-75.

(4) Workman : op. cit. p. 146.

مرات يوميا (١) ، الا أن القديس بندكت فرض أن يكون العمل هو الركن الثانى من أركـان هذه الحياة ، فقال بأن العمل عادة Laborare est orare وخصص لرهبان الدير ما يقرب من سبع ساعات يوميا يقضونها فى فلاحة الأرض . أما كبار السن من أعضـاء الدير الذين لا يحتملون مشقة العمل فى الحقل ، فكانوا يكلفون أعمالا تتفق ومقدرتهم ، كبعض الصناعات الخفيفة أو طهى الطعام واعداده ، أو نسخ الكتب الدينية ، أو تعليم الرهبان الجدد أو الأطفـال الذين يبعث بهم آباؤهم ليتعلموا فى مدرسة الدير (٢) .

أما الرجل الثانى الذى ترك أثرا واضحا فى ظهور الديرية فى ايطاليا ، بل فى الغرب الأوربى فهو كاسيدور الذى اعتزل خدمة الملكية القوطية فى ايطاليـا بعد حيـاة سياسية حافـلة بالعمل الكثير ، وآثر الانقطـاع لحيـاة الرهبانية ، وذلك قبل وفـاة القديس بندكت بأربـع سـنوات أو خمس . وقد أسس كاسيدور ديرين فى كالبريا موطن آبـائه وأجداده (٣) . وهنا نلاحظ أنه آمن بأن الحيـاة الديريـة لا تسـتلزم كراهية الطبيعة وجمالها أو ضرورة حرمـان الفرد من الضروريـات التى تحقق له السعادة والراحة ، مما جعله يعمل على ادخـال قسط من البهجة والجاذبية على الحياة الديرية . على أن أهم ما عنى به كاسيدور هو أن يجعل من الديـر مدرسة للعلم والمعرفة ، لا معرفة اللاهوت والعـلوم الدينية فحسب ، بل العلوم الدنيوية أيضا « لأن عقولنـا تتدرب على فهم الانجيل والكتـابات الدينية وعن طريق دراسة الأدب الدنيوى » . لذلك تحمل كاسيدور كثيرا فى سبيل تزويد أديرته بمكتبات غنية تحوى مجموعة نادرة من المخطوطات التى تناسب كل طبقة من طبقات المتعلمين ، فرجـال اللاهوت يجدون فيها نسخا مصححة مقارنة من الانجيل زيادة على كتابات آباء الكنيسة الشرقيين والغربيين . أما طلاب الدراسات غير الدينية فقد جمع لهم كاسيدور مجموعة من انتاج رجال الأدب والبلاغة — شـعرا ونثرا — فوق ما جمع من كتب

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538.
(2) Stephenson : op. cit. pp. 91-92.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538.

التاريخ والجغرافيا والموسيقى والعلوم . وهكذا يرجع الفضل الى كاسيدور فى زيادة القيمة العلمية للأديرة ، وهى الناحية التى ظهر أثرهــا فيما بعد عندما أصبحت الأديرة تمثل المراكز الأســـاسية للحيــاة العلمية فى غرب اوربـــا (١) .

وأخيرا يأتى جريجورى الاول ، وهو الديرى الذى أصبح بابا ليقوم بدور المنظم للحيــاة الديرية فى غرب أوربا .. فالفـــارق بينه وبين بندكت وكاسيدور هو أنه لم يسهم مثلهما بنواح مبتكرة فى نظم الحياة الديرية ومثلها ، ولكن جهوده ظهرت فى تقوية هذه الحياة ونشر النظام الذى أتى به القديس بندكت فضلا عن تحديد العلاقة بين الديرين من جهة والأســاقفة ورجــال الدين العلمانيين من جهة أخرى . وهكذا نتج عن جهــود جريجورى الأول التقريب بين الحياة الديرية من جانب والكنيسة والبابوية من جانب آخــر ، وهو أمر لا نجد له شبيها فى الشرق البيزنطى حيث ظل التباعد واضحا بين هيئة الكنيسة من رجال الكهنوت المتزوجين وبين الديريين العزاب (٢) .

والواقع ان البـــابا جريجورى العظيم استغل الديريــة كأداة فعالة تساعده فى تنفيذ سياسته ونشر المسيحية . ولا عجب فى ذلك ، فقد كان هذا البابا راهبا بندكتيا شديد التحمس للديرية ، حتى أنه استغل ثروته الموروثة الطائـــلة فى تأسيس عدد كبير من الأديرة ، منها ستة فى صقلية وواحــد فى رومـــا (٣) . كذلك اختار جريجورى العظيم معظم أعضـــاء البعثات التبشيرية التى أرسلها الى مختلف الجهات من الرهبـــان البندكتيين (٤) . ومن هذه الارساليات بعثة القديس أوغسطين الصغير — مقدم الدير الذى أنشأه جريجورى فى روما — وقد أوفده البـــابا الى انجلترا سنة ٥٩٦ على رأس بعثة من تسعة وثلاثين راهبا ليعيدوها الى حظيرة المســيحية بعد أن ظلت خارجها ما يقرب من قرنين نتيجة لغزوات الجوت والانجلز والسكسون

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2, pp. 169-173.
(2) Workman : op. cit. p. 152.
(3) Dudden : op. cit. Vol. 1, p. 207.
(4) Workman : op. cit. p. 169-172.

وهى الغزوات التى أدت الى تحطيم الحضـــارة الرومانية وذبول المسيحية فى بريطانيا . وفى سنة ٦٠١ طلب أوغسطين من البابا امداده بعدد آخـــر من الرهبـــان لمســـاعدته فى جهوده التبشيرية ، فأمـــده البـــابا بمجموعة أخرى من المبشرين البندكتيين(١) وقد نجحت بعثة القديس أوغسطين نجاحا كبيرا فى تحقيق أهدافهـــا ، فأســـس ديرا فى كانتربورى ، وهو المكان الذى شيدت عليه الكتدرائية الشهيرة ، فيما بعد ، واتخذ الرهبـــان هذا الدير مركزا لنشاطهم التبشيرى الذى قام على أساس تحويل المعابد الوثنية القديمة الى كنائس بدلا من هدمها (٢) . ولم يلبث أثلبرت — ملك كنت — أن اعتنق المسيحية وتبعه كثيرون من رعاياه ، كما أنعم الملك على رجـــال الكنيســـة الجديدة بكثير من المنح والأراضى (٣) .

الأديـــرة الأيرلندية :

على أن الارساليات البندكتية التى قصدت انجلترا وغاليا الفرنجية ، صادفت فى طريقها نوعـــا من الأديرة الكلتية التى انتشرت من أيرلندا الى انجلترا وغاليا وألمانيا . وكانت أيرلند هى البلد الوحيد من البلاد المعروفة القدماء فى غرب أوربا الذى لم يفتحه الرومـــــان ، مما ترك القراصـــــنة الأيرلنديين — من عنصر الكلت — أحرارا فى مواصلة اغاراتهم العنيفة على بريطانيا ، وبخاصة فى أوائل القرن الخامس ، أى فى أواخر حكم الرومـــان لبريطـــــــانيا .

وفى احدى هذه الغـــارات — حوالى ســـنة ٤٠٠ — أسر الأيرلنديون شابا اسمه سوكات Succat ، قدر له أن يصبح فيما بعد القديس باتريك (ت ٤٦١) مؤسس الكنيسة الأيرلندية (٤) . ذلك أن سوكـــات قضى ست سنوات أسيرا فى أيرلند ، فر بعدها الى غاليا حيث قضى بعض الوقت فى التعلم ، حتى فكر بعد ذلك فى العودة الى أيرلند ليقوم بنشر المســـيحية بين

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2, p. 123.
(2) Workman : pp. 172-174.
(3) Hodgkinn : The Hist. of England. pp. 177-119.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 533.

ربوعها . وعلى الرغم من أن المسيحية كانت معروفة فى أيرلنــد قبل ذلك الوقت ، بدليل أن البــابا كالستين الأول أرســل سنة ٤٣١ مبعوثا اسمه بلاديوس الى ايرلند ليكون أول أسقف لها (١) ، الا أن القديس باتريك يعتبر صاحب الفضل الحقيقى فى تحويل أيرلند الى المســـيحية الغربية ، كما أن الفضل يرجع اليه فى تأسيس أسقفية أرمـــاغ فى الشـــمال الشرقى من أيرلند ســــنة ٤٤٥ (٢) .

ويبدو أن تطرف أيرلند وعزلتها ســاعدت على احتفــاظ الكنيسة الأيرلندية ببعض الأوضـــاع الكنســــية القديمة ، بعد أن درست هذه الأوضـــاع واختفت من صلب القارة . وكان من المستحيل أن تقبل الكنيسة الرومانية هذه الأوضـــاع ، لذلك بدأ الخلاف بين الايرلنديين والبابويـــة منذ عهد البابا جريجـــورى العظيم ، ولم ينته هذا الخــلاف حتى سنة ٧٣٣ عندما قبل الأيرلنديون مسايرة الأوضاع المعمول بها فى الكنيسة الرومانية .

وقد اتجه الأيرلنديون فى القرن السادس نحو ارسال بعثات تبشيرية من الرهبان الى سكتلند وبريطانيا وغاليا ، مدفوعين فى ذلك بحبهم للتجـــوال والسياحة من جهة وبحماستهم الدينية من جهة اخرى . وكان رائـــد هذه الحركة القديس كولمبا St. Columba الذى اتجه سنة ٥٦٣ على رأس اثنى عشر من أتباعه لتأسيس دير فى مدينة أيونـــا Iona غربى البـــلاد المعروفة الآن باسم سكتلند (٣) . ومن هذا الدير اتجـــه المبشرون لتحويل البكتيين Picts — وهم العناصر القديمة التى سكنت سكتلند الحالية — الى المسيحية (٤) . ولم يلبث المبشرون الأيرلنديون أن مدوا نشـــاطهم الى انجلترا نفسها ، حيث التقوا بالبعثات التبشيرية التى أرســـلتها روما . وهكذا تم القضاء فى القرن الســـــابع على وثنية الأنجلوســـكسون بعد أن

---

(1) Idem : Vol. 2, pp. 503-505.

(2) Deanesly : op. cit. p. 468.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 533.

(4) Workman : op. cit. pp. 199-200.

تعرضت بلادهم لغزو المبشرين الايرلنديين من الشمال والمبشرين الرومان من الجنـــــــوب (١) .

وفى ذلك الوقت نفسه ، قـــام المبشرون الايرلنديون بغزو القـــارة . وأول هؤلاء المبشرين وأعظمهم كان القديس كولمبـــانوس Columbanus (٥٤٣ — ٦١٥) ، الذى نزح مع أربعين من أعوانـــــه — حوالى ســـنة ٥٨٥ — الى بريطانيـــا ومنها الى غاليـــا ، حيث أسس ديـــرا شـــهيرا عند أناجريت Angrates فى برجنديا ســـنة ٥٩١ . ولم يلبث هذا الدير أن اجتذب كثيرا من الراغبين فى الحيـــاة الديريـــة ، ممـــا شـــجع القديس كولمبـــانوس على تأسيس دير جديد جنـــوبى الأول بثمانية أميـــــال عند لوكســـــويل Luxeuil (٢) . ويلاحظ أن القديس كولمبـــانوس أهمل عند تأسيسه هذه الأديرة احدى القواعد المعمول بها فى القـــارة ، وهى أنه يتعين على مقدم الدير أن يحصل أولا على موافقة الأسقف الذى يقع الدير داخل دائـــرة أسقفيته ، مما أدى الى اصطدام بين الطرفين . ولم يلبث دير لوكسويل أن نما هو الآخر بسرعة ، مما شجع ، على اقامة أديرة أخرى لكل منها مقـــــدم ، أهمها دير فونتين Fontaines (٣) . أمـــا القديس كولمبـــانوس فقد ظل يعمل عشرين عـــاما فى دير لوكســـويل حتى استفزت سياسته الصارمة الخاصة بنقد البلاط والكنيسة عداء الطرفين ، مما جعله ينزح الى ســـويسرا حيث أخذ يواصل جهوده فترة قصيرة حول بحيرة زيورخ وبحيرة كونســـتانس (٤) . ولم يلبث أن اضـــطر القديس كولمبـــانوس الى مغادرة سويسرا مع اعوانه ، فعبر جبال الألب الى ايطاليا حيث أحسن ملك اللمبارديين اســـتقباله وسمح له بتأسيس دير بوبيو Bobbio شـــمالى جنوا . وفى هذا الدير — الذى أصبح من أعظم أديرة أوربا فى العصـــور الوسطى وأوفرهـــا ثروة فى المخطوطـــات — قضى القديس كولمبـــانوس الثلاث السنوات الأخيرة من حيـــاته حتى توفى ســـنة ٦١٥ (٥) . على أن

(1) Tompson : op. cit. Vol. 1, p. 232.
(2) Cam. : Med Hist. Vol. 1, pp. 533-534.
(3) Workman : op. cit. p. 207.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 148.
(5) Workman : op. cit. p. 208.

نظام الاديرة الذى وضعه القديس كولمبانوس ، لم يقدر له البقاء طويلا ، لأنه لم يقرر وسيلة للربط بين هذه الاديرة بعضها ببعض ، كما أنه اصطدم فى سرعة بالنظام البندكتى . ولما كانت الأديرة البندكتية ذات صبغة عملية أوضح ، فضلا عن تمتعها بعطف البابوية ورعايتها ، فان نظام القديس كولمبانوس لم يستطع الثبات طويلا أمامها (١) .

ولم يقتصر نفوذ الأديرة الأيرلندية على هذه الجهات السابقة ، وانما امتد أيضا الى جهات أخرى فى وسط أوربا لم تكن المسيحية قد وصلت اليها بعد ، ففى جنوب ألمانيا قامت عدة أديرة أيرلندية أشهرها ورزبرج ورجنسبرج وسانت جال St. Gall وغيرها من الأديرة التى ظلت تحتفظ بذكرى أصلها الكلتى الأيرلندى على الرغم من تأثرها فيما بعد بالنظام البندكتى . ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثامن الا كانت جميع الأديرة الأيرلندية قد أصبحت من الوجهة العملية خاضعة لاشراف البابوية ، كما انتهى استقلال الكنيسة الأيرلندية . على أن الأديرة الأيرلندية — بوجه خاص — تركت أثرا عميقا فى الحياة الدينية وغير الدينية فى غرب أوربا . ويكفى أنها أصبحت مراكز رئيسية للثقافة الكلاسيكية ، كما أن كثيرا منها — مثل بوبيو وسانت جال وغيرها من الأديرة الأيرلندية بأيرلند نفسها وانجلترا — امتازت بغنى مكتباتها بالمخطوطات الكلاسيكية النادرة (٢) . هذا الى أن حمية البعثات الأيرلندية وحماستها أشعلت حركة التبشير فى أوربا العصور الوسطى . وكان الأيرلنديون هم أول من تمسك بالمبدأ الخاص باستقلال الأديرة عن نفوذ الأساقفة ، وهو المبدأ الذى لم يعترف به غرب أوربا الا فى القرن الحادى عشر .

المبشرون الانجليز فى غاليا والمانيا :

ازداد عدد البعثات التبشيرية الانجليزية فى الخارج زيادة كبيرة منذ أواخر القرن السابع . ففى سنة ٦٧٧ جنحت سفينة ولفرد أسقف يورك

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 232-233.

(2) Eyre : op. cit. pp. 266-267.

الأنجلوسكسونى على شاطىء فريزيا وهو فى طريقه الى رومـا فقضى الشتاء فى هذه البلاد . وفى سنة ٦٩١ عبر وليبرورد Willibrord — وهو أحـد رجال الدين الانجليز — البحر الى فريزيا حيث ساعده بيبين هرستال على تأسيس أسقفية أوترخت ، ومن ثم استمر يعمل على نشر المسـيحية فى تلك الجهـات ما يقرب من خمسين سنة (١) . على أن أعظم رجـال الكنيسة ورهبان المسيحية فى القرن الثـامن كان بدون شك القديس بونيفيس الذى تلقى تعليمه فى اكستر ثم عبر البحر سنة ٧١٥ الى فريزيـا . وعندما وجـد الحرب متأججة بين الفريزيين وشارل مارتل ، عاد الى انجلترا ومنها الى رومـا سنة ٧١٨ حيث زودته البابوية بالنفوذ والسـلطة الـلازمين للقيـام بجهوده التبشيرية فى ألمانيا (٢) . وقد استمر بونيفيس يباشر مهمته خمس سنوات فى هس حتى عينه البابا رئيسا لأسـاقفة مينز ، الكرسى الأسـقفى الرئيسى فى ألمانيا (٣) . وهناك فاقت جهوده ما قام به الرهبـان الأيرلنـديون من ادخـال الحضـارة اللاتينية وتنظيمهـا . واليه كذلك يرجع الفضـل فى تأسيس كثير من الاسقفيات والاديرة فى الاراضى الالمانية مثل أسـقفيات ورزبرج وماربورج وأرفرت ، وأديرة فولد وهرسفلد وأورثرف وأمونبرخ . هذا الى أن القديس بونيفيس تبعته بعض النساء الانجليزيات الى ألمانيا مثل والبورجا Walburga وليوبا Lioba وثكلا Thekla وهـؤلاء أسهمن فى تأسـيس كثير من الأديرة البندكتية الخاصـة بالنساء فى ألمانيـا (٤) كذلك كان للقديس بونيفيس دور أساسى فى دعـوة مجمعى لفتناس Liftinas (سـنة ٧٤٣) وسواسـون (سـنة ٧٤٤) وفى القرارات التى أصدرها هذان المجمعان (٥) . أما جهوده السياسية فكانت لا تقل أهمية عن جهوده الدينية ، اذ يرجع اليه الفضل فى التوفيق بين الكنيسـة الفرنجية وشارل مارتل ، كما أنه تولى المفاوضات بين بيبين القيصر والبابوية،

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 541 & Vol. 2, p. 535.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 236.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540.
(4) Workman : op cit. p. 176.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540.

وهى المفاوضات التى انتهت بعزل آخر الملوك الميروفنجيين واعتلاء عرش دولة الفرنجة ، وما ترتب على ذلك من تحالف بين البابوية والدولة الكارولنجية (١).

ويبدو أن هذه الأعمال والمشاغل العديدة صرفت بونيفيس فيما بين سنتى ٧١٨ ، ٧٥٢ عن الهدف الذى كرس نفسه له فى شبابه ، وهو تحويل الفريزيين الى المسيحية . وقد أدرك بعد سنة ٧٥٢ أنه أتم أعماله السياسية والادارية ، فعزم على العودة الى فريزيا — التى كانت لاتزال على وثنيتها — لمباشرة نشاطه التبشيرى . ولكن الفريزيين الوثنيين أحاطوا به هذه المرة وقتلوه سنة ٧٥٥ ، وبذلك انتهت صفحة علم من أعلام المسيحية الغربية فى العصور الوسطى (٢) .

وبعد ، فانه يتضح لنا مما سبق كيف قام الديريون بدور فعال فى نشر المسيحية وحفظ الحضارة فى عصر مضطرب امتاز بالفتن والحروب . أما فى الميدان الاقتصادى فان نشاطهم أدى الى أصلاح كثير من الاراضى والنهوض بالزراعة ، زيادة على جهودهم العملية فى النسيج والصباغة ودبغ الجلود وصناعتها الأمر الذى تبعه نبوغهم فى زخرفة المخطوطات وتزييفها على أنه يتضح لنا بالموازنة بين الديرية فى الشرق والغرب أن القديس بندكت هو صاحب الفضل فى جعل الديرية أداة روحية بحتة بعيدة كل البعد عن الميدان الحضارى والمجتمع الانسانى . أما فى الغرب فان الأديرة البندكتية أصبحت مراكز الحضارة والتعليم ، فيها تنسخ الكتب وفى مدارسها يتعلم الصغار والكبار (٣) . هذا الى أن عظمة الديرية البندكتية لا تتمثل فى الموازنة بينها وبين الديرية الشرقية ، بقدر ما تتمثل فى الأثر الذى تركه النظام البندكتى فى حياة العصور الوسطى وتفكيرها .

---

(1) Deanesly : op. cit. pp. 289-290.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 237.

(3) Workman : op. cit. pp. 152-254.

ففى الوقت الذى كان العالم الرومانى يحتقر من شــأن العمل اليدوى ، ويعتبر هذا النوع من الأعمال وقفا على العبيــد ، اذا بالنظـــام البندكتى يضع العمل اليومى فى منزلة العبادة ، ويجعـــله جزءا أســـاسيا من حيـــاة الديريين ، وبذلك أصبحت الديرية عاملا ايجابيا منتجا فى المجتمع ولم تعــد — كما اتهمها البعض قديما — مأوى للمتعطلين وملاذا للكســالى الهــاربين من أعبـــاء الحياة وتبعاتها (١) .

---

(1) Idem : pp. 153-158.

الباب التاسع

شارلمان وامبراطورية الفرنجة

رؤســـــاء البــــلاط :

لم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانـــون عاما حتى كفت عن التوسع والنمو فجأة ، ودخلت دورا من الفوضى والحروب الأهلية استمر قرابة قرن ونصف . وسرعان ما ظهر فى هـــذا الدور ضعف ملوك البيت الميروفنجى من سلالة كلوفس (١) ، فى الوقت الذى انقسمت دولة الفرنجة الى ثلاث ممالك صغرى هى أوستراسيا فى وادى الميز والراين الأدنى ، ونستريا فى الجزء الغربى بما فيه (نورمنديـــا) واكوتين ، وأخيرا برجنديـــا فى المنطقة بين الرون وجبـــال الألب (٢) . ومن مظاهر ضعف ملـــوك الفرنجة فى هذه الأقســـام الثلاثة تغلب نفوذ النبلاء ورجـــال الدين ، فوافق الملوك على أن يتنازلـــوا عن تعيين الأساقفة ليقوم رجال الأسقفية بانتخابهم ، كما وافقوا على عـــدم محـــاكمة رجال الدين أمـــام محـــاكم الدولة ، مما جعل الكنيســـة الفرنجية شبه مستقلة عن التاج . أما النبلاء العلمانيون فقد حصلوا على ضمان بملكية ما تحت أيـــديهم من أراض ، كما حيل بين التـــاج وبين فرض أيـــة ضرائب اضـــــافية (٣) .

ثم كان أن اختار نبلاء أوستراسيا زعيمهم ليتولى وظيفة رئيس البـــلاط فى القصر الملكى ، ولذلك ضمانا لامتيازاتهم ومصالحهم . وكانت هذه الوظيفة فى أول أمرها متواضعة يقوم صـــاحبها بالاشراف على خدم القصر وموظفيه ،

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 158.

(2) Davis : Charlemagne, p. 25.

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 332.

ولكنها اخذت تسمو تدريجيا حتى أصبح صاحبها بمثابة الوزير الأول فى الدولة ، الذى يشرف على جمع ايرادات الأراضى الملكية فضلا عن توزيع الهبات والوظائف (١) . وقد تعاقب فى هذا المنصب منذ سنة ٦١٤ سلسلة من النبلاء بطريق الوراثة ، حتى أصبحت السلطة الفعلية فى أيديهم . وهكذا لم يعد تاريخ الميروفنجيين بعد وفاة الملك داجوبرت سنة ٦٣٩ مرتبطا بالملوك ، وانما برؤساء البلاط فى الأقسام الثلاثة التى انقسمت اليها الدولة الميروفنجية (٢) . وكان النصر فى النزاع بين هذه الأقسام الثلاثة لاوستراسيا التى برز رئيس بلاطها بيبين الثانى أو بيبين هرستال فى أواخر القرن السابع ، ثم خلفه فى منصبه ابنه غير الشرعى شارل مارتل سنة ٧١٤ (٣) وقد استطاع شارل مارتل أن يدعم نفوذه حتى غدت السلطة الفعلية فى يده سنة ٧١٩ ، وعندئذ وجد دولة الفرنجة فى حالة يرثى لها بسبب التنافس الطويل بين رؤساء البلاط فى نستريا وأوستراسيا من جهة ، والأخطار الخارجية التى أحاطت بدولة الفرنجة عندئذ من جهة أخرى . وهنا أسرع شارل مارتل فى القيام بسلسلة من الحروب لتأمين دولة الفرنجة من ناحية الشرق ، فقام بخمس حملات ضد السكسون بين سنتى ٧١٨ ، ٧٣٨ وبحملتين ضد الفريزيين (سنة ٧١٩ ، ٨٣٨) وحملة ضد الألمانى (سنة ٧٣٠) وحملتين ضد البافاريين (سنة ٧٢٥ ، ٧٢٨) (٤) على أن الخطر الأكبر الذى هدد دولة الفرنجة فى ذلك العصر جاء من ناحية الجنوب ، أى من جانب المسلمين الذين زحفوا من الأندلس حتى استولوا على ناربون سنة ٧٢٠ ثم أوغلوا فى برجنديا . وقد وجد شارل مارتل نفسه أمام خطر جسيم يستلزم تعبئة كل قواه ، فحشد قوى أتباعه من النبلاء ، واستعان باللمباريين فى ايطاليا كما استولى على بعض أراضى الكنيسة ، هذا كله فى الوقت الذى كان المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقى قد استولوا على بوردو سنة ٧٣٢ وأخذوا بعد ذلك يزحفون

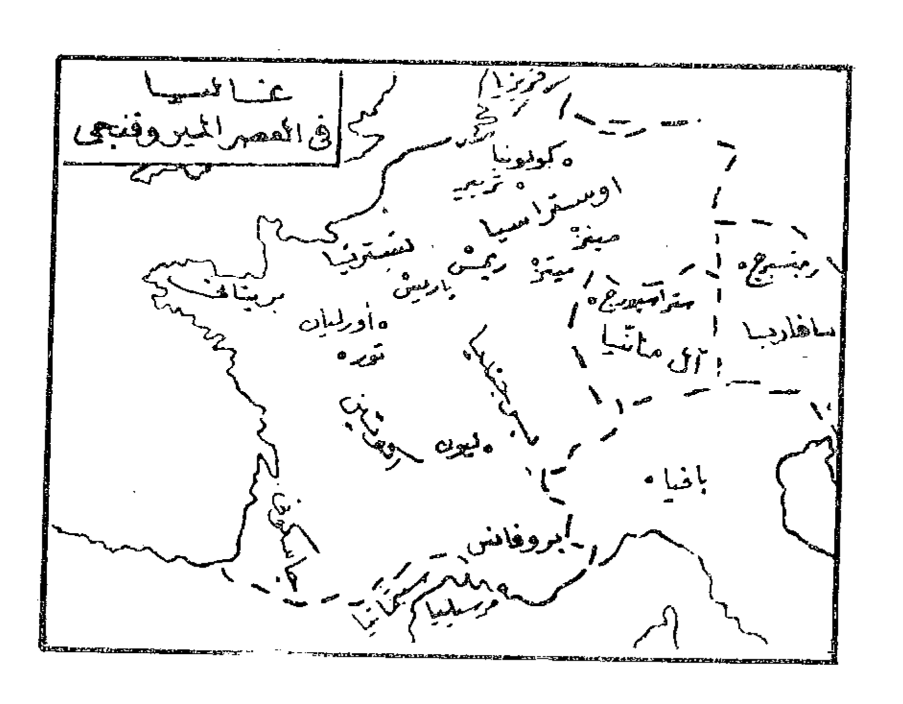
(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 136.
(2) Lot : The End o fthe Ancient World, p. 337.
(3) Idem : pp. 341-342.
(4) Deaneslv : op. cit. p. 285.

شـــمالا . وأخيرا دارت الموقعة بين الطرفين بين بواتيه وتور ، واســـتمرت سبعة أيام قتل فيها عبد الرحمن وارتد أتبـــاعه من المسلمين سنة ٧٣٢ (١) .

أما شـــارل فقد أضفى عليه هذا النصر قوة ومكانة اكسبته لقب مارتل Martel أى المطرقة ، بعد أن بدا فى نظر العالم الغربى بطل المسيحية الأول الذى حمى غرب أوربا من الغزو الاسلامى (٢) . وقد اعتـــاد المؤرخون أن يبالغوا فى قيمة هذا النصر الذى أحرزه شـــارل مارتل على المسلمين سنة ٧٣٢ ، على اساس أنه حمى غرب أوربا بأجمعه من غزو المسلمين وسيطرتهم ولكن نظرة دقيقة الى الحوادث المعاصرة تثبت لنـــا أن الواقع يخالف ذلك . فالمسلمون لم يلبثوا أن عادوا فى العـــام التـــالى الى تهديـــد آرل وأفينـــون وغيرهما من المدن وبخاصة فى اقليم بروفانس (٣) . ثم انه لم يكن هناك ثمة خطر واضح يهدد غرب أوربا بأجمعه من جانب المسلمين الذين بوصـــــولهم الى الأندلس كانوا قد قاربوا نهـــاية الشوط فى حركتهم التوســـعية الكبرى . لذلك كان من الصعب ، بل من المتعذر على المسلمين أن يقومـــوا بجهد حربى ضخم جديد لاخضاع غرب أوربا لنفوذهم ، بعد أن طالت خطوط مواصـــلاتهم وبعدوا كثيرا عن المركز الأول لحركتهم التوســـــــعية . هذا الى أن الدولة الاسلامية كانت قرب منتصف القرن الثـــامن قد أخذت تتعرض فعـــلا لنتائج الانقسامات المذهبية والسياسية مما يحـــول دون تكاتف المسلمين فى المشرق والمغرب للقيام بجهد عظيم مشترك لغزو أوربا . ولذلك لا نبـــــالغ اذا قلنا أن غزوة عبد الرحمـــن فى جنوب غاليـــا لا تعدو أن تكـــون حمـــــلة محلية محدودة الهدف والنتـــائج . وربمـــا كانت حمـــلة مســـلمة بن عبد الملك عن القسطنطينية قبل ذلك بخمس عشرة سنة اشـــد خطـــرا على مصير أوربـــا ومستقبلها ، نظرا لقرب القسطنطينية من مركـــز الخلافـــة الاســـلامية فى دمشق من جهة ولعظم الجهود والامكانيات التى سخرت فى هذه الحمـــلة من جهـــة اخـــرى .

على أن اســـتيلاء شـــارل مارتل على بعض أراضى الكنيســـة فضـــلا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 129.
(2) Stephenson, op. cit. p. 171.
(3) Fichenau : The Carolingian Empire, pp. 12-13.


غـاليـا
في العصر الميروفنجي
كولونيا
اوستراسيا
نستريا
ريمس
باريس
ميتز
بريتانيا
أورليان
تور
ستراسبورج
ألمانيا
ليون
بافاريا
بروفانس
مرسيليا

عن رفضه مساعدة البابوية ضد اللمباريين ، أثار وحشة بينه وبين الكنيسة (١) . ومهما يكن من أمر فان هذه الوحشة لم تستمر طويلا اذ توفى شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بيبين القصير فى رئاسة البلاد (٧٤١ ــ ٧٦٨) . وقد عمل بيبين هذا على اصلاح ذات البين مع الكنيسة ، فعقدت أربعة مجامع دينية تحت اشراف القديس بونيفيس ، وفى هذه المجامع تقرر فرض النظام البندكتى على الأديرة الفرنجية ، وتعيين أسقف لكل مدينة ورئيس أساقفة لكل مجموعة من الأساقفة ، على أن يمتد سلطان البابوية على الجميع (٢) .

وسرعان ما أيقن المعاصرون أن الوضع السياسى القائم فى دولة الفرنجة غير صحيح فى ظل حكم رئيس بلاط هو الحاكم الفعلى للبلاد ، وملك شرعى مستضعف لا حول له ولا قوة . لذلك اجتمع المجلس العام لشعب الفرنجة سنة ٧٥١ وقرر عزل شلدريك الثالث (شلدبرت) آخر ملوك استراسيا ، وأحلال بيبين القصير محله فى العرش . وهنا أراد بيبين القصير أن يصبغ هذه الخطوة صبغة شرعية فأرسل بعثة الى البابا زكريا فى روما لاستشارته وأخذ رأيه . ولسنا فى حاجة الى القول بأن البابوية كانت لاتزال تطمع عندئذ فى مساعدة دولة الفرنجة ، بوصفها القوة الوحيدة التى يمكنها مساندة البابوية ضد اللمبارديين . لذلك جاء رد البابا زكريا واضحا ، وهو انه من الأفضل أن يكون الملك لمن بيده السلطة الفعلية فى البلاد . وهكذا تشجع بيبين فأعلن عزل شلدريك الثالث ونفاه الى أحد الاديرة ليقضى فيه بقية حياته ، فى حين اعتلى هو عرش الفرنجة (٧٥٢ ــ ٧٦٨) ، وبذلك انتهت الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس وبدأت الأسرة الكارولنجية من سلالة رؤساء بلاط أوستراسيا (٣) .

ولم تلبث ظروف الموقف بين البابوية واللمباريين أن أدت الى سفر البابا ستفن الثانى سنة ٧٥٣ الى غاليا لطلب المساعدة من بيبين القصير .

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 207.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 539-540.
(3) Oman : The Dark Ages, pp. 325-326.

وكان أن تعهد بيبين بمساعدة البابا واقسم على أن يحقق للباباكل ما يريد ، ويعطيه رافنا ، فضلا عن بقية المدن التى يستـــــتردها من اللمبـــــارديين أو البيزنطيين . وفى مقابل ذلك توج البابا بيبين بيده كما توج زوجته وولديه شارل وكارلومان ، وأنزل اللعنة على كل من يحاول اغتصاب عــرش الفرنجة من بيت بيبين القصير (١) وبذلك دخلت دولـــــــة الفرنجـــة دورا كبيرا من تاريخها لتصبح أعظم قوة سياسية فى غرب أوربا ، بفضـــل تحالفها مع البابوية ، وهو التحالف الذى كان له أبعد الأثر بالنسبة لمستقبل غرب أوربـــا فى العصــــــور الوســطى (٢) .

حضـــــــارة الدولـــة الميروفنجية :

أخذت نظم الفرنجة تتعدل عقب استقرارهم فى غاليا نتيجة لاتصـــالهم المستمر بالمواطنين الرومان ، وما نجم عن هذا الاتصـــال من تأثر الفرنجـــة بالأوضـــاع الرومانية . ويلاحظ أن الفرنجة احترمـــوا ملكية الأرض فى غاليا ولم يغتصبوها من أصحابها ، كما أنهم لم يحاكـــوا غيرهم من الجرمـــان فى استخدام العنف مع أهالى البلاد الأصليين (٣) . ولكن كبريـــاء الفرنجة أبت عليهم الاعتراف بالمســــاواة التامة المطلقة بينهم وبين أهالى غاليا الأصليين من الرومان ، فجعلوا الديـــة التى تدفع تعويضـــا عن مقتل رجل من الفرنجة تفوق تلك التى تدفع عن مقتل أحد الرومان ، كما أعفوا أنفسهم من الضرائب الرومانية المباشرة ، وجعلوا هذا النوع من الضرائب وقفا على أهـــالى غاليا من الرومان وحدهم (٤) وعلى الرغم من ذلك لم يحدث شـــقاق عنصرى بين الفرنجة والرومان فى غاليا اذ تزاوج الطرفان بعضـــهما من بعض فى حريـــة وســـهولة ، وأصبحت جميع المناصب الكنسية والحكومية مفتوحـــة أمـــام الجميع دون تمييز أو تفرقة (٥) . وســـاعد على هذا التقـــارب بين الفرنجة

---

(1) Moss : op. cit. p. 200.
(2) Eyre : op. cit. p. 89 & Moss : op. cit. p. 200.
(3) Dill : Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, p. 114.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 212.
(5) Lot : The End of the Ancient World, p. 358.

والرومان اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكى واستخدامهم اللغة اللاتينية ، مما أدى الى التداخل الحضارى وتأثر كل طرف بالآخر . وهكذا أخذ الملوك الميرفنجيون يحاكون مظاهر البلاط الرومانى الامبراطورى ، فأضفوا على موظفى البلاط القابا رومانية وأصدروا مراسيمهم وفق النمط الرومانى .

أما فيما يختص بنظم الحكم عند الفرنجة فى العصر الميروفنجى ، فنلاحظ أن الملكية ظلت وراثية فى سلالة كلافس ، فلم يعرف الفرنجة المبدأ الانتخابى . وكانت السلطة الملكية تعتبر ارثا يقسم بين الابناء الذكور بالتساوى مع استبعاد الاناث (١) . وقد تمتع ملوك الفرنجة بسلطة مطلقة فى النواحى الادارية والمالية والقضائية والحربية ، وكانت أية مخالفة أو عصيان للملك يعاقب صاحبها بالاعدام (٢) .

وقد اعتبر الفرنجة — شأنهم شأن غيرهم من الجرمان — معظم الجرائم نوعا من المخالفات الشخصية الخاصة لا العامة ، فيترك لعائلة المجنى عليه مهمة معاقبة الجانى والاقتصاص منه . وفى بعض الحالات كانت الأسرة صاحبة الحق تكتفى بأخذ تعويض من المذنب أو أهله ، وفى حالات أخرى كانت تقتص لنفسها بطريقة عنيفة تدل على الخشونة والوحشية . على أن قسوة قانون الفرنجة وتطرفه سرعان ما خفت حدتهما نتيجة لجهود رجال الكنيسة وانتشار تعاليم الديانة المسيحية ومبادئها (٣) .

أما عن الناحية المالية والاقتصادية فيلاحظ أن ملوك الفرنجة لم يحاولوا تغيير النظم المالية السائدة فى غاليا ، فتركوا جميع الضرائب القائمة كما هى ، سواء فى ذلك ضريبة الأرض أو الضريبة الشخصية أو ضرائب الأسواق أو الضرائب غير المباشرة (٤) . وكان الدخل الملكى يتألف من ايراد الضياع الملكية فضلا عن الهبات والهدايا والخدمات الخاصة والمحلية التى كان على

---

(1) Dill : Roman Society in the Merovingian Age, p. 113.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 133-134.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 213.
(4) Lot : The End of the Ancient World, p. 351.

الرعـــايا أن يقدموهـــا . ثم أخذت تختفى تدريجيـــا الضرائب الرومـــــانية المباشرة التى كانت معروفـــة أيـــــام الرومـــــان مثل ضريبة الرأس وضريبة الأرض ، وأصبح الكونتـــات وحكام الأقاليم يدفعون للملك ثلثى الضرائب والأموال التى يجمعونها من الأهـــالى على أن يحتفظوا لأنفسهم بالثلث (١) . أما الهدايا السنوية التى يقدمها النبلاء للملك كل ربيع فقد أصبحت اجبارية ، ولم تعف منها جهة من الجهـــات ذات الايراد ، حتى الأديـــرة والمؤســـسات الدينية . وكانت هذه الهدايا تشمل الذهب والفضة والأحجار الثمينة والخيول وما شابهها . ومن هذا يبـــدو أن جميع الايرادات الســـابقة كانت تقدم للملك بصفته الشخصية ليصرف منها على بلاطه دون أن يكون للمنشآت العامة فيها نصيب (٢) . أما هذه المنشـــــآت فكانت تقوم بها الادارة المحليـــة ، كما أن المجندين الأحرار كانوا يدخلون الخدمة العســـكرية مزودين بأســـلحتهم على نفقتهم الخاصة (٣) .

وقد نشطت التجـــارة فى عهـــد الدولة الميروفنجية حيث وجـــدت طبقة نشيطة من التجـــار استخدمت طرق التجـــارة الرومانية القديمة . ويبدو أن نسبة التجـــار اليهود واليونانيين كانت كبيرة ، لا سيما فى المدن والموانى ذات الأهمية التجـــارية مثل مرسيليا وآرل وناربون (٤) . وكانت لغاليا علاقـــات تجـــارية مهمة مع موانى الشرق فى البحر المتوسط حتى سنة ٦٠٠ ، أى حتى زمن جريجورى التورى أول مؤرخى الفرنجة . ولكن هذه العلاقـــات أخذت تذبل تدريجيـــا نتيجة لنمو قوة المســـلمين البحرية فى القرن الســـابع ، مما جعل تجـــارة الفرنجة تصبح شبه محلية . أما الطـــــابع الغالب على دولـــة الفرنجة فكان الطابع الزراعى نتيجة لاضمحلال المدن وهجراتها وتلاشى الحياة المدنية من جهة ، ولازدياد عدد الضـــياع الزراعية الكبيرة التى تكفى نفســـها

---

(1) Dill : Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, 126-127.

(2) Thompson : Vol. 1, pp. 215-216.

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 353.

(4) Lot, Pfister, Ganshof : op. cit. p. 355.

بنفسها وما صحب ذلك من تناقص عدد الأحرار وصغار الملاك وازدياد عــدد الأقنان من جهة أخرى (١) .

الدولــة الكارولنجيــة :

وبتتويج بيبين القصير رئيس البــلاط ملكا على دولة الفرنجة سنة ٧٥٢ تكــون الأسرة الميروفنجية من ســلالة كلوفس قد انتهت وحلت محلها الأسرة الكارولنجية فى حكم دولة الفرنجة . وقد اســـتمر بيبين القصــير فى الحكم حتى وفاته سنة ٨٦٨ وعندئذ قسمت مملكته — وفقا لتقاليــد الفرنجة — بين ولديه ، فخص شارل أوستراسيا وجزء من أكوتين ، واختص كارلومـــان بنستريا وبقية أكوتين (٢) . ولا يهمنا كثيرا أمر النزاع الذى نشـــب بين الأخوين والذى هدد بالقضــاء على وحدة مملكة الفرنجــة ، ما دام النزاع قد انتهى بوفــاة كارلومان سنة ٧٧١ ، مما أتاح لأخيه شارل فرصــة توحيــد جميع مملكة الفرنجة تحت سيادته ، من مصب الراين حتى مصـــب الرون ومن نهر المين حتى خليج بســـكاى (٣) . على أن الذى يهمنا هو أن جربرجـــا Gerbrega — أرمــلة كارلــومان — اســـتاءت لاغفـــال حقوق ولديها القاصرين فى ملك أبيهما ، ففرت الى بلاط دســـدريوس ملك اللمبـــارديين فى بافيـــا . وكان شـــارل قد سبق أن تزوج من ابنة دسدريوس ولكنه عاد فطلقها بالسرعة التى تزوجها بها ، الأمر الذى زاد الموقف توترا بين شـــارل ودسدريوس . ولم يكن منتظرا من الملك اللمباردى أن يتأخر فى مساعدة أرمـــلة كارلومان (٤) ، فطلب من البابا تتويج ابنى كارلومان ، ولما رفض البـــابا ذلك لجأ دسدريوس الى مهاجمة الأملاك والأراضى البابوية ، مما دفع البابا ستفن الثالث (الرابع) (٧٦٨ — ٧٧٢) الى الاســـتنجاد بشـــارل ملك الفرنجة (٥) . وقد حاول شارل مفاوضة دسدريوس فى أول الأمــر فأرســـل اليه يطلب

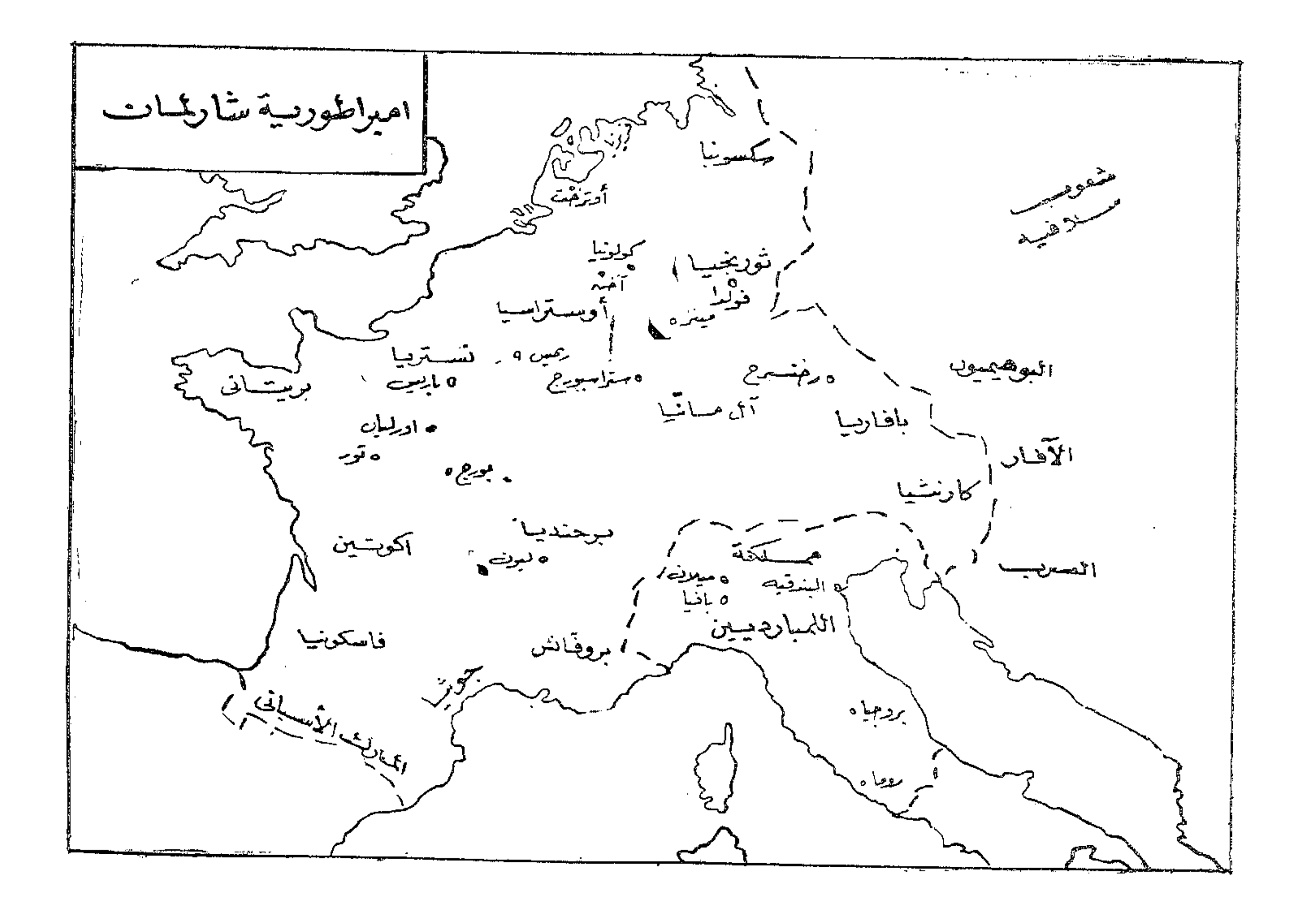
(1) Idem : p. 350.

(2) Oman : The Dark Ages, p. 336.

(3) Kleinclausz : Charlemagne, pp. 12-13.

(4) Moss : op. cit. p. 218.

(5) Lot, Pfister, Ganshof : op. cit. p. 421.


امبراطورية شارلمان
سكسونيا
شعوب سلوفية
ثورنجيا
فولدا
كولونيا
آخن
أوستراسيا
نستريا
ريمس
باريس
بريتاني
ستراسبورج
رغنسبرج
آل مانيا
البوهيميون
بافاريا
الآفار
اورليان
تور
بورج
كارنثيا
برجنديا
اكويتين
ليون
مملكة
ميلان
بافيا
البندقية
اللمبارديين
الصرب
فاسكونيا
بروفانس
جوثيا
المارك الأسباني
برورجيا
روما

تسليم جميع المدن التى استولى عليها من البابــوية بدون وجـــه حق ، ولكن دسدريوس غضب لتدخل شارل بينه وبين البابوية وأصر على موقفه فى عدم أعطاء البابوية مدنها . وعندما غزا شارل ايطاليـــا ســـنة ٧٧٣ حـــاول دسدريوس أن يسد منافذ الألب فى وجهه ، ولكنه غلب على أمـــره وفـــر الى بافيا حيث لحقت به قوات شارل وحاصرته (١) . وفى هذه الاثناء أخذ ابن دسدريوس يجمع قوات اللمبارديين قرب فيرونا ، مما جعل شارل يترك جزءا من قواته فى حصـــار بافيا ، ويسرع بالجزء الباقى لمطاردة هذا الابن الذى فر الى القسطنطينية تاركا شارل يستولى على فيروتا وبرجامو وغيرهما من المدن المهمة (٢) . وعندما طال حصـــار بافيا قرر شارل أن يقضى عيد الفصح سنة ٧٧٤) فى رومـــا حيث جدد للبـــابا هدريان (أدريـــان) الأول (٧٧٢ — ٧٩٥) هبة بيبين القصير للبابوية من قبل . ثم كان أن سقطت بافيا أخيرا بعد حصار عشرة أشهر ، فحمل دسدريوس الى دير كوربى فى نستريا حيث قضى بقية حيـــاته بعد أن قسمت ثروته بين جنود الفرنجة ، فى حين اتخذ شـــارل لنفسه لقب « ملك اللمبارديين » . ويلاحظ أن شارل لم يشأ فى أول الامر أن يدمج اللمبارديين ضمن مملكته ، وآثر أن يتركهم يعيشون فى ظل نظمهم الخاصة . ولكن عندما ثار اللمبارديون ضـــده من جديد ، ودبـــروا مؤامـــرة لاستدعاء ابن دسدريوس الهارب فى القسطنطينية واعلانـــه ملكا ، عاد اليهم ونجح فى اخضاعهم سنة ٧٧٦ ، وعندئذ أرغم اللمبارديون على أتباع قوانين الفرنجـــة ونظمهم .

على أن حروب شارل العظيم ضد اللمبارديين لم تكن سوى الحلقة الأولى فى سلسلة طويلة من الحروب قام بها شارل ضد السكسون ومسلمى أسبانيا والعناصر الســـلافية الرابضـــة على نهرى الالب والدراف (٤) . وقد حققت

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 220.

(2) Cman : The Dark Ages. p. 347.

(3) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 228.

(4) Eginhard : The Life of Charlemagne, pp. 15-26 & The Monk of St. Gall : Thee Life of Charlemagne : p. 105.

هذه الحروب الواسعة التى قـــام بها شارل قسطا كبيرا من النجـــاح ، وأدت الى حماية غرب أوربا من العناصر الوثنية المجـــاورة فضلا عن نشر المسيحية بين هذه العناصر . ففى سنة ٧٧٨ قام شارل العظيم بأولى حمـــلاته الكبيرة ضد المسلمين فى أسبانيا فاجتمعت جيوشه أمام سرقسطة واعترف له حكـــام برشلونة وجيرونا بالولاء . على أن جيوش شارل عجزت عن الاســـتيلاء على سرقسطة فعادت أدراجهـــا دون أن تحقق نتائج ظاهرة (١) . وفى أثناء عودة شارل هاجمت عناصر الباسك (البسقاوية) فى شمال أســـبانيا مؤخـــرة جيشه ، فقتل رولان وأصبح هذا الحادث محورا لأنشودة مشهورة ظهرت بعد ذلك بعدة قرون وصورت شارل العظيم فى صورة الصليبى الأول (٢) . وبعد أن قام شارل بعدة هجمات ضد السكسون ، أخضـــع البافـــاريين سنة ٧٨٨ وعزل ملكهم وجعل بلاده دوقية تسير وفق نظم الادارة الفرنجية (٣) . وفى ذلك الحين كان الآفار قد قدموا المساعدة لملك البافاريين ، الأمر الذى أثـــار شـــارل ضدهم ، فغزوا أراضيهم فى حوض الطونة الأوســـط ست مرات بين سنتى ٧٨٨ ، ٨٠٥ حتى حطم قوتهم نهائيا وأخضعهم تماما . وعندئذ اختار شارل أحدهم ليتولى حكمهم ، على أن يدفع جزيـــة ســـنوية للفرنجة (٤) . كذلك قام شارل العظيم بحروب متفرقة أخضع فيها عناصر السلاف الشماليين بين نهرى الالب والاودر سنة ٧٨٩ ، والسلاف الجنوبيين فى بوهيميا سنة ٨٠٥ . ٨٠٦

على أن أعنف حروب شارل وأطولها كانت ضد السكسون ، الذين سبق أن قاتلهم شارل مارتل وبيبين القصير . وقد قام شارل العظيم بثمان عشرة حملة ضدهم ، كان غرضه الأول منها حمـــاية حدود بلاده من خطـــرهم ، ثم لم يلبث أن أصبح هذا الغرض تحويلهم الى المسيحية واخضاعهم بالقوة (٥) . وكان مصدر المتاعب الكبرى التى واجهت شارل فى حروبـــه ضد السكسون

---

(1) Lavisse : Hist. de France. Tome 2, Première Partie pp. 293-294.

(2) Davis : op. cit. pp. 110-114.

(3) Deanesly : op. cit. pp. 368-369.

(4) Oman : The Dark Ages. p. 362.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 609-611.

نابعا من صعوبة بلادهم ذات الغابات والأحراش ، وعدم وجود مدن أو معاقل محصنة للسكسون يمكنه أن يحاصرها ويقضى على قوة اعدائه بالاستيلاء عليها ، فضلا عن عدم وجود طرق ومسالك يمكن أن تسلكها الجيوش الغازية . وهكذا ساعدت هذه الظروف السكسون فأظهروا عنادا شديدا وتمسكا قويا بعقائدهم وتقاليدهم ونظمهم ، بحيث أنه كان يخضعهم فى كل مرة ويأخذ منهم عددا ضخما من الأسرى والرهائن زيادة على غرامة مالية فادحة ، وعندئذ يتظاهرون بالخضوع ويعتنقون المسيحية بالجملة ، ولكنهم لا يلبثوا أن يرتدوا الى أسلوبهم وعقائدهم بعد أن ينصرف عنهم شارل (١). وعندما تجددت ثورة السكسون سنة ٧٨٢ أعدم شارل العظيم منهم أربعة آلاف وخمسمائة أسير جملة واحدة فى مذبحة فردن Verden (٢) . وهكذا ظل شارل يكافح السكسون ويحاول كسر شوكتهم والقضاء على عصبيتهم حتى خربت بلادهم فهدات العلاقات بينه وبينهم قليلا ، وان استمرت ثورات السكسون حتى سنة ٨٠٤ (٣) . وفى هذه الاثناء أسس شارل ثمان أسقفيات فى سكسونيا وأرسل كثيرا من البعثات التبشيرية اليها ، حتى آمن السكسون أخيرا بالمسيحية ، وعندئذ حرض شارل على تعليم بعضهم ليصبحوا قساوسة فى بلادهم (٤) .

على ان حروب شارل الطويلة ضد السكسون بوجه خاص ، لم تصرفه عن العمل على تأمين شواطيء أوربا الجنوبية وجزرها من خطر قراصنة المسلمين ، بعد أن اشتدت اغاراتهم عليها . لذلك بدأ شارل العظيم بتأمين حدوده الجنوبية من ناحيتهم فأنشأ وحدة ادارية على الحدود الأسبانية سميت ماركية أسبانيا (March of Spain) سنة ٧٩٥ حول مدن جيرونا وجاردونا وأورجل وأوزونه ثم ضم اليها برشلونة سنة ٧٩٧ ، هى أعظم مدن اقليم قطالونيا بعد أن سلمها له حاكمها الخائن نكاية فى سيده خليفة

(1) Halphen : Etudes Critiques sur L'Hist. de Charlemagne, p. 146.

(2) Kleinclausz : Charlemagne, p. 134.

(3) Dearesly : op. cit. 358-365.

(4) Klemclausz : op. cit. pp. 138-139.

قرطبة (١) . أما فى الجانب البحرى فقد استولى الفرنجة على كورسيكا وسردينيا ، كما استولوا على جزر البليار سنة ٧٩٩ لحرمان مسلمى الأندلس من اتخاذها قواعد للاغارة على شواطىء ايطاليا وغاليا الجنوبية (٢). على أن الصراع البحرى لم يلبث أن اشتد فى الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط عندما ظهرت قوة الأغالبة البحرية ، الأمر الذى أزعج البابا ليو الثالث وشارل العظيم فضلا عن الدولة البيزنطية . وهنا لم يتأخر شارل فى ارسال النجدات الى البابا للدفاع عن شواطىء ايطاليا وصقلية ، وان كانت هذه الجهود لم تفلح فى وقف ذلك الخطر الذى تعرضت له شواطىء أوربا الجنوبية بشكل واضح فى اوائل القرن التاسع (٣) .

وهكذا قضى شارل العظيم معظم حكمه فى حروب مستمرة ، حتى قدر عدد حملاته بأربع وخمسين حملة مكنته من فرض سيطرته على ما كان للامبراطورية الرومانية القديمة من أملاك فى الغرب ، اذا استثنينا ولاية افريقية وبريطانيا وجنوب ايطاليا ومعظم أسبانيا ، هذا فضلا عما نتج عن هذه الحروب من نشر المسيحية فى بلاد وبين شعوب لم يسبق أن وصل اليها الرومان من قبل (٤) .

تتويج شارل العظيم امبراطورا :

يتضح مما سبق أنه لم يكد ينته القرن الثامن الا كان شارل العظيم قد قام بأعمال لم يستطع القيام بها أحد غيره من المعاصرين . ذلك أنه لم ينجح فى تكوين دولة ضخمة فى غرب أوربا فحسب ، بل نجح أيضا فى حماية البابوية ونشر المسيحية ، واحياء كثير من مظاهر الحضارة الرومانية فى الغرب (٥) . قد أثارت هذه الأعمال فى عقول المعاصرين ذكرى روما

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 365.
(2) Eginhard : Life of Charlemagne, p. 31.
(3) Deanesly : op. cit. pp. 375-376.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 259.
(5) Kleinclausz : op. cit. p. 287.

ومجدها القديم ، فأخذوا يتغنون بهذه الذكرى ويشعرون بالرغبة في احياء هذا المجد . على أن المعاصرين لم يقصدوا أحياء مجد الامبراطورية الرومانية في حضارتها وقوتها فقط ، بل أيضا في شخص الامبراطور بعد أن ظل الغرب يشعر بفراغ سياسى كبير منذ سقوط الامبراطورية الغربية في القرن الخامس . حقيقة كانت هناك امبراطورية رومانية وامبراطور قائم في القسطنطينية ، ولكن أهالى غرب أوربا بوجه عام وايطاليا بوجه خاص نظروا الى هذا الامبراطور البيزنطى نظرة ملؤها الاستياء والكراهية بسبب موقف الاباطرة البيزنطيين من عبادة الايقونات من جهة وسياستهم المعادية للبابوية من جهة أخرى ، حتى اصبح هؤلاء الأباطرة — في نظر الايطاليين — مجرد جباة أموال مبغوضين (١) .

كان هذا هو شعور المعاصرين اذن نحو الماضى والحاضر في الوقت الذى قضى شارل العظيم على قوة اللمبارديين السياسية ، وحمى البابوية من خطرهم ، وحارب السكسون وغيرهم من العناصر الوثنية لينشر المسيحية بينهم ، كما حارب المسلمين في أسبانيا والبحر المتوسط لدفع خطرهم ، هذا كله مع شدة رعايته للعلوم وجهوده في انعاش الحضارة في الغرب . ولاشك في أن هذه الاعمال أوضحت للمعاصرين أن شارل العظيم كان أكبر قوة في عصره تحمى البابوية والكنيسة بل الحضارة الغربية ، وأنه جدير بلقب الامبراطور بعد أن قام بأعمال لا تقل عن تلك التى قام بها أعاظم الأباطرة الرومان .

ومن الواضح أنه كان في استطاعة شارل أن يضفى على شخصه هذا اللقب أو أن يوحى الى الكنيسة الفرنجة بفعل ذلك ، ولكنه كان يطمع فيما هو أكثر ، اى في أن تخلع عليه البابوية نفسها لقب الامبراطورية حتى يكون أوقع أثرا في العالم المسيحى أجمع (٢) . وكان أن أتيحت الفرصة لتحقيق هذا الحلم الجميل سنة ٧٩٩ عندما تآمر خصوم البابا ليو الثالث ضده

---

(1) Moss : op. cit. p. 219.

(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 232.

ووضعوا خطة ترمى الى سمل عينية وقطع لسانه لابعـــاده عن منصبه (١) . ولم يلبث أن سمع شارل بأمر هذه الاحداث التى جرت فى رومـــا وبـــأن البابا لم ينج من المؤامرة الا بصعوبة ، فأرسل الى البابا الهارب يستدعيه اليه واستقبله فى ترحاب خفف عنه ما يعانيه من آلام (٢) . وبعد ذلك قام شارل بأرسال البابا مخفورا الى روما حيث لحق به بعد قليل . وفى روما عقد مجمع برأ ليو الثالث من جميع التهم التى الصقها به خصومه ، وبذلك عاد البابا الى مباشرة مهام منصبه فى حين أمر شارل بمعاقبة المتآمرين (٣) . وهنا أخذ البابا يفكر فى وسيلة يرد بها الجميل للملك الفرنجى الذى أنقـــذ البابوية وأثبت فى كل مناسبة أنه أخلص حليف لها وأقوى دعامة للكنيسة الغربية . حقيقة أن منح لقب الامبراطور لملك من ملوك البرابرة أمر ليست له سابقة ، وربما بدا غريبا فى نظر المعاصرين ، ولكن حياة شـــارل العظيم أثبتت أنه لم يكن كغيره من ملوك البرابرة . واذا قورن بمعاصرته الامبراطورة ايرين — وهى المرأة الشريرة التى أخـــذت تعبث بمصـــير الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت — فانه لا يوجد أى وجه للمقارنة أو الموازنة (٤) . وهكذا يبدو أن شبح هذه المرأة العابثة التى تحكمت فى مصائر الامبراطورية البيزنطية (٧٩٧ — ٨٠٢) كان من العـــوامل التى شـــجعت البابوية والغرب على قطع آخر الخيـــوط التى ربطتهم بالامبراطورية الشرقية (٥) .

وكان أن نفذ البابا فكرته فى الاحتفال الكبير الذى أقيم بكنيســـة القديس بطرس تمجيدا لعيد رأس السنة (٨٠٠) . فعندما انتهت الصلاة ، تقدم البابا ليـــو الثالث بخطى وئيدة ممســـكا تاجا ذهبيا فى يـــده ووضـــعه على رأس شـــارل — الذى كان لا يزال راكعا أمام المذبح وقـــال — « اللهم امنح الحيـــاة والنصر لشـــارل العظيم الـــذى تـــوج بفضل الله

(1) Cam. Med, Hist. Vol. 2, p. 619.

(2) Deanesly, op. cit. p. 381.

(3) The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne, p. 92.

(4) Lot, Pfister, Ganshof : op. cit. p. 457.

(5) Oman : The Dark Ages, p. 372.

امبراطورا عظيما على الرومان » . (١) ولم يلبث أن علا صياح الحاضرين من محاربى الفرنجة ورجال الدين الايطاليين . وأخذ الجميع يحيون شارلمان بالطريقة التى كانت متبعة مع الأباطرة الرومان (٢) .

ولا شك فى أن هذا الحدث لم يكن خطيرا بالنسبة لشارلمان فحسب ، بل أيضا بالنسبة للبابوية والغرب الأوربى فضلا عن الشرق البيزنطى (٣) . أما عن شارلمان فيقال أنه فوجىء بهذا الاجراء الذى اتخذه البابا ليو الثالث ، ولم يكن يعلم به أو يتوقعه وان كان يرجوه ويحلم به . وقدذكر اينهارت — المؤرخ المعاصر الذائع الصيت الذى ترجم لشارلمان — أن سيده لو عرف بما أعده البابا فى يوم رأس السنة لما دخل كنيسة القديس بطرس فى ذلك اليوم (٤) . ومهما يكن من أمر فقد قدر لشارلمان أن يحيى الامبراطورية الرومانية فى الغرب بعد أن ظل العالم الغربى بلا امبراطور منذ أواخر القرن الخامس ، وأن يكون مؤسس الامبراطورية الرومانية المقدسة التى لعبت دورا عظيما فى أحداث العصور الوسطى . وأما البابوية فقد قطعت — بتتويج شارلمان امبراطورا — الرباط الواهى الذى كان يربطها بالامبراطورية البيزنطية ، وفى الوقت نفسه قوت الرباط الذى كان يربطها بمملكة الفرنجة وأكسبت هذا الرباط طابعا دينيا مقدسا . هذا فضلا عن أن الطريقة التى تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج الامبراطورى يبدو فى صورة منحة من البابا ، وهى العقيدة التى أصبح لها شأن كبير فى النزاع بين الامبراطورية والبابوية فيما بعد (٥) .

أما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية فان اعلان شارلمان امبراطورا فى الغرب جاء صدمة عنيفة لها (٦) . فمنذ سقوط الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس ، والعالم الرومانى لا يعرف الا امبراطورا واحدا هو

---

(1) Bryce : The Holy Roman Empire, p. 49.
(2) Kleinclausz : op. cit. p. 304.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 351.
(4) Eginhard : The Life of Charlemagne : p. 44.
(5) Moss : op. cit. pp. 222-223.
(6) Eyre : op. cit. p. 173.

الامبراطور البيزنطى الذى تمتع بسيادة — ولو أسمية — على الغرب بوصفه وريث الأباطرة الرومان . ولكن قيام شارلمان امبراطور سنة ٨٠٠ أوجد منافسا خطيرا للامبراطور البيزنطى وحرم الامبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدعيها على البابوية والعالم الغربى . هذا الى أن تتويج شارلمان لم يجعل منه « الامبراطور » الأساسى فى الدولة الرومانية ، لأن الامبراطورية — من وجهة النظر السياسية فى العصور الوسطى — لا تحتمل رأسين ، مثلها مثل البابوية ، وفى هذه الحالة يصبح شارلمان صاحب الكفة الراجحة لأنه امبراطور الكنيسة الرومانية ، وهى الكنيسة العالمية التى تتخذ روما مركزها (١) . ولعل هذه الصدمة التى أصابت الامبراطورية الشرقية ، وهى التى جعلتها لا تعترف بامبراطورية شارلمان الا عندما أفاقت ، بعد مرور اثنتى عشرة سنة على تتويجه (فى يناير سنة ٨١٢) (٢) .

اصلاحات شارلمان :

على أن أهمية شارلمان فى التاريخ لا تبدو فى حروبه الطويلة أو تتويجه امبراطورا لأول مرة بين ملوك الجرمان فحسب ، بل تبدو هذه الأهمية أيضا فى اصلاحاته الواسعة التى تناولت مختلف المرافق والاتجاهات حتى أدت الى ما يعرف فى التاريخ باسم النهضة الكارولنجية .

ففى ميدان الثقافة أظهر شارلمان اهتماما كبيرا بالدراسات العلمية ، فشجع الأدباء والعلماء الذين وفدوا على بلاطه من مختلف أنحاء أوربا ، ولا سيما أيرلند وانجلترا وايطاليا (٣) . واشتهر من هؤلاء العلماء مجموعة ضخمة من أعلام النهضة الكارولنجية مثل بطرس البيزى وبولينوس وبولس الشماس وغيرهم . وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى الكوين ، وهو رجل انجليزى الأصل احتضنه شارلمان ، فتعهد النهضة الفكرية فى الامبراطورية الكارولنجية فى أواخر القرن الثامن ، وبذل جهودا جبارة فى خدمة العلم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 620-621.
(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 233.
(3) Foligno : Latin Tbought, p. 68 & Tawlor : Med. Mind Vol. 1, p. 214.

والتعليم (١) . ومن ذلك أنه قام على تصحيح المخطوطات القديمة واهتم باصلاح نظم المدارس الدينية ونشر التعليم ورفع مستوى رجال الدين الثقافى . كذلك تولى الكوين رئاسة مدرسة القصر التى كان شارلمان نفسه أحد تلاميذها (٢) . وهكذا أضحى بلاط شارلمان مركزا ثقافيا علميا كبيرا ذاخرا بالمعلمين — مثل الكوين — والمؤرخين مثل اينهارت الذى وضع ترجمة معروفة لشارلمان ، والشعراء مثل ثيودلف (٣) . لذلك لا عجب اذا انتشر التعليم وارتفع مستواه بفضل جهود شارلمان ومساعديه ، فضلا عن العناية بالمكتبات ونسخ الكتب وتصحيحها ورعاية اللغة اللاتينية وأسلوبها ، مما أدى الى نهضة علمية شاملة تناولت كثيرا من ضروب العلم والمعرفة (٤) .

أما اصلاحات شارلمان فى ميادين التشريع والقضاء والادارة ، فكانت هى الأخرى على جانب كبير من الأهمية . من ذلك أن شارلمان استحدث كثيرا من التشريعات لاقرار النظام الادارى وتنظيم العدالة والمحاكم عن طريق تقوية العنصر الشعبى فى دور القضاء . كذلك أمر شارلمان سنة ٨٠١ بتدوين التراث التشريعى القومى لمختلف العناصر التى تألفت منها امبراطوريته (٥) . وقد قسم شارلمان امبراطوريته الواسعة الى أقسام ادارية يشرف على كل منها كونت يعتبر نائبا عن شارلمان نفسه فى منطقته ، ويتمتع تبعا لذلك باختصاصات وسلطات واسعة سواء فى النواحى المالية أو القضائية أو الادارية . فالكونت مسئول عن تسليم ما يجمعه من أموال الضرائب والمخالفات ، كذلك عن اعلان المراسيم والأوامر الملكية على الناس ، فضلا عن الاشراف على الأعمال العامة وجمع المجندين اللازمين للسلطة المركزية . وكان للكونت أن يختار مساعدين ونوابا يساعدونه فى مهام منصبه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 574.

(2) Syre, op. cit. p. 268.

(3) Kleinclausz : op. cit. pp. 197-202.

(٤) يمكن الوقوف على مظاهر النهضة الكارولنجية فى شىء من التفصيل بالرجوع الى كتاب « النهضات الأوروبية » للمؤلف .

(5) Egnihard : The Life of Charlemagne, p. 45.

بشرط موافقة شارلمان على هؤلاء المساعدين . وفى نهاية العام يذهب الكونتات من مختلف أنحاء الامبراطورية الى القصر الملكى فى العاصمة (اكس لا شابل) حيث يقضون بضعة أسابيع فى تسليم ما فى عهدتهم من أموال فضلا عن حضور المجلس العام لدولة الفرنجة(١) . أما هذا المجلس L'assemblée générale فكان بمثابة مجلس استشارى ينعقد وفق ارادة شارلمان ويتألف من مندوبين عن مختلف أنحاء الامبراطورية وشعوبها — لا الفرنجة فحسب — فضلا عن الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات (٢) . ولما كان لابد لحكام الأقسام الادارية الواقعة على الحدود من سلطات استثنائية لمواجهة الأخطار الخارجية الطارئة ، فان هذه الأقسام — التى أطلق عليها ماركيات — عين على كل منها حاكم يسمى ماركيز ويتمتع فى وحدته بسلطة تفوق سلطة الكونت فى كونتيته (٣) . على أن أهم اصلاح ادارى أدخله شارلمان كان زيادة نفوذ المبعوثين الملكيين Missi . وكان هؤلاء المبعوثين يوفدون من القصر ليحملوا تعليمات الملك وأوامره الى حكام الأقاليم ويفتشون على هؤلاء الحكام لضمان حسن سير الادارة (٤) . واعتاد شارلمان أن يرسل الى كل جهة اثنين من هؤلاء المبعوثين احدهما من رجال الادارة والثانى من رجال الدين ليضمن انتظام الجهازين الادارى والكنسى فى الدولة (٥) . كذلك حرص شارلمان على عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين فى دوائرهم وانما ينقلهم بين حين وآخر قبل أن يوطدوا علاقات مصلحية أو شخصية مع أهالى الأقاليم (٦) .

ولم يغفل شارلمان الناحية الاقتصادية فى امبراطوريته فاهتم بالزراعة ونهض بها حتى أصبحت ضياعه بمثابة مزارع نموذجية تفيض بالخيرات ، كما شجع كبار الملاك فى الامبراطورية على العناية بزراعة أراضيهم ومعاونة

---

(1) Deanesly : op. cti. p. 403.

(2) Kleinclausz : op. cit. pp. 82-88.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 680.

(4) Lavisse : op. cit. Tome 2, Première partie, p. 319.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 682-683.

(6) Davis : op. cit. pp. 155-157.

الحكومة فى تقوية جسور الأنهـار (١) . أما الصناعة فكانت مـراكزها الاسـاسية فى الاديرة التى اشـتهرت بانتاج خير المصنوعـات المعدنية والجلدية والخشـبية وغيرها . عـلى أن الصناعة لم تقتصر فى العصر الكارولنجى على الأديرة وانما انتشرت فى الضياع والقرى حيث بدأت تظهر بذور النقابات لتنظيم مصالح أفراد الحرفة الواحدة وحمايتهم من المنافسة الخارجية (٢) . كذلك بدت جهود شـارلمان واضحة فى ميدان التجارة حيث أهتم بتنظيم التجارة الداخلية والخارجية وتشجيعها . من ذلك أنـه نظم الموازين والمقاييس والمكاييل والعملة المتداولة ، هذا فضلا عن عنايته بالطرق التجارية والمحافظة عليها وتأمينها ومنع المستغلين من فـرض رسـوم باهظة على سالكيها أو عابرى الجسـور . وقـد أقيمت الفنـادق والوكالات على امتـداد الطرق الرئيسـية لايواء التجار ودوابهم وحفظ بضائعهم (٣) . على أن التجار فى ذلك العصر فضلوا دائما استخدام الطرق النهرية والبحرية لسـهولتها وقلة تكاليفها ، فكانت التجـارة الداخلية فى الامبراطورية تعتمد على أنهار الراين والدانوب والسين والرون وفروعها ، فى حين أعتمدت التجارة الخارجية على البحر المتوسـط وبحر الشمال ، وسـاعد هـذا النشـاط التجـارى عـلى ظهور أهمية بعض المدن بحكم موقعها مثل مينز التى كـانت مركزا رئيسـيا للتجارة بين المـانيا وغاليا ، ومثل نيم Nimes وماجلون وآرل وناربون التى كـانت جميعها مراكز أساسية لتجارة الشرق (٤) .

شـارلمان والكنيسة :

يبدو لنا من دراسـة تـاريخ الامبراطورية الكارولجنية أن الطابع الدينى كـان غالبا عليها . فالعامل الأسـاسى فى نجاح دولة الفرنجة دون غيرها من الـدول الجرمانية التى قامت فى غـرب أوربا فى العصـور الوسطى كـان العـامل الدينى ، وهو العامل نفسـه الـذى أدى الى

---

(1) Boissonnade : Life and Work in Med. Europe, p. 71.

(2) Lavisse : op. cit. Tome 2, Première Partie, p. 336

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 657.

(4) Lavisse : op. cit. Tome 2, Première Partie, pp. 338-340.

نجاح شارلمان فى أقامة امبراطوريته ، وفى المزج بين شعوب هذه الامبراطورية على أساس أنهم خاضعون جميعا لحاكم يتمتع برضاء الكنيسة ، بل يسيطر عليها وعلى رجالها .

ذلك أننا رأينا كيف كانت البابوية متلهفة دائما على محالفة الملوك الكارولنجيين لحمايتها من نفوذ الامبراطورية البيزنطية من جهة ومن خطر اللمبارديين من جهة أخرى . واذا كان ملوك البيت الكارولنجى لم يتقاعسوا عن مساعدة البابوية ، فان الأخيرة ردت اليهم الجميل بتتويج بيبين القصير ملكا سنة ٧٥٣ ثم بتتويج شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ . وهكذا قامت الامبراطورية الكارولنجية على أساس دينى سياسى ، فأخذ شارلمان يستغل مكانته بوصفه حامى البابوية فى فرض سيطرته على الكنيسة داخل امبراطوريته ، فهو الذى يعين الأساقفة ويدعو الى عقد المجامع الدينية بل يتولى رئاسة هذه المجامع لبحث المشاكل المتعلقة بالعقيدة (١) ، كما أنه يشرع القوانين اللازمة للكنيسة ويحدد حقوق رجال الدين من كنسيين وديريين وواجباتهم (٢) . « وبذلك أصبح شارلمان رأس الكنيسة والدولة جميعا ، ورئيسا للأساقفة والكونتات دون تمييز لأنه لم يفرق بين الكنيسة والدولة » (٣) . حتى الموسيقى الدينية ، والمواعظ التى يلقيها رجال الكنيسة فى مختلف المناسبات والأعياد لم تسلم من تدخل شارلمان وتعديله (٤) . وهكذا وجدت الكنيسة نفسها خاضعة خضوعا تاما لحكومة شارلمان كما صار رجلها بمثابة أتباع مخلصين له ، يخضعون لأوامره ونواهيه خضوعا تاما (٥) . وقد حدث عندما حاولت البابوية أن تتحرر من قبضة شارلمان القوية أن أرسل شارلمان رسالة الى البابا ليو الثالث سنة ٧٩٦ ، يفهمه أن اختصاص البابوية لا ينبغى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 616.

(2) Kleinclausz : op. cit. p. 225.

(3) Lavisse : op. cit. Tome 2, Première Partie : p. 316.

(4) The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne. p. 72.

(5) Fichtenna : The Carolingian Empire, pp. 132-133.

أن يتعدى الجانب الدينى بأى حال « وأن واجبك أيها الأب المقدس هـو أن تسـاعدنا برفع يـديك الى السـماء والدعـاء لنا مثلما فعل موسى (١) » .

وهكذا ظلت الأمور على وفاق بين الكنيسة والدولة طالما كـان شارلمان يجمع فى قبضته القوية بين زمام السلطتين الدينية والزمنية ، ولكن الموقف أخذ يتغير بعـد شـارلمان ، عندما عجز خلفاؤه عن فرض سـيطرتهم على الكنيسـة ورجالها مما آذن باصـطدام السـلطتين كما سـنرى فيما بعد (٢) .

تقسيم الامبراطورية الكارولنجية :

أشرنا فيما سـبق الى تمسـك الفرنجة بنظرتهم القديمة الى الملك على أنه ارث يقسم بين أبناء الملك . وطبيعى أن يؤدى استمرار تطبيق هذا المبدأ الى تفتيت الدولة ثم الى زوالها نتيجة لتقسيمها بين الأبناء ثم تقسيم كل قسم بين بنـاء الأبناء وهكذا . ومن الغريب أن شـارلمان — وهو السياسى البعيد النظـر ، لم يحاول الخـروج على هـذه القاعـدة أو تعديلها ، فقسم امبراطوريته الواسعة فى حياته بين أبنائه الثلاثة (٣) . على أن وفاة اثنين من هؤلاء الابناء وبقـاء واحد — هو لويس التقى — أخر الى حد ما تقسيم الامبراطورية (٤) . وقد احتفل شـارلمان قبل وفاته سـنة ٨١٤ بتتويج ابنه لويس التقى الـذى خلفه فى حكم الامبراطورية ، والـذى لم يلبث أن أعيـد تتويجه بواسـطة البابا سـتفن الـرابع (الخامس) سنة ٨١٦ (٥) .

والواقع أن لـويس التقى لم يكن بالشـخص الذى يسـتطع حكم

---

(1) Oliver Thatcher : A Source Book .... p. 107. &
سفر الخروج ـ اصحاح ١٧ ـ ١١ .
(2) Davis : op. cit. pp. 276-277.
(3) Deanesly, op. cit. p. 392.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 624.
(5) Oman : The Dark Ages. p. 387.

امبراطورية شـــارلمان . ذلك أنه لم يمتلك من صفات القيادة الحربية أو الزعامة السياسية أو الكفاية الادارية ، أو حتى قوة الشخصية ما يضمن له سيطرة كافية على الجيش والادارة والكنيسة . هذا فى الوقت الــذى تزايد الخطر الخارجى بعــد وفاة شـــــارلمان ســـواء من ناحية السلاف والآفار على حدود الامبراطورية الشرقية ، أو من ناحية المسلمين عـــلى الحدود الجنوبية ، أو من ناحية الفيكنج على الحدود الشمالية والغربية (١) . وزاد الطين بلة تمســك لويس التقى — وخلفائه من بعده — بسياســـة تقسيم الملك بين الأبناء ، حتى أن لويس وضع مشروعا سنة ٨١٧ لتقسيم امبراطوريته الواسعة بين أبنائه الثلاثة لوثر وبيبين ولويس ، ليضمن عــدم قيام خلاف بينهم بعد وفاته (٢) . على أن لويس التقى تزوج بعد ذلك وأنجب ابنا جديدا أسمه شـــارل ، ومن ثم أراد اعادة توزيع المملكة توزيعا جديدا يضمن لهــذا الابن الرابع حقوقه أسوة باخوته . ويبدو أن هذا التصرف لم يرض الاخوة الثلاثة الأوائل فقامت حرب أهلية عنيفة بين الاخوة بعضهم وبعض من جهة ، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى (٣) . وكان أن توفى بيبين ، ثم لحق به أبوه سنة ٨٤٠ فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين حتى تم الاتفاق فيما بينهم فى اتفاقية فردون الشهيرة سنة ٨٤٣ على تقســــيم الامبراطورية تقسيما يرضيهم جميعا (٤) . ذلك أن شـــارل الأصلع أخذ نستريا واكوتين والماركية الأسبانية على الحدود الجنوبية ، وأخذ لويس الألمانى الجزء الواقع شرقى الراين من أوستراسيا فضلا عن بافاريا وسوابيا وسكسونيا ، فى حين أخذ لوثر الجزء الأوسط بين المملكتين السابقتين ، أى فريزلاند (الأراضى المنخفضة) والجزء الباقى من أوستراسيا غربى الراين زيادة على برجنديا وبروفانس وايطاليا . على أن أهمية اتفاقية فردون لا تقتصر على أنها وضعت نهاية لامبراطورية الفرنجة الموحدة فحسب ، بل

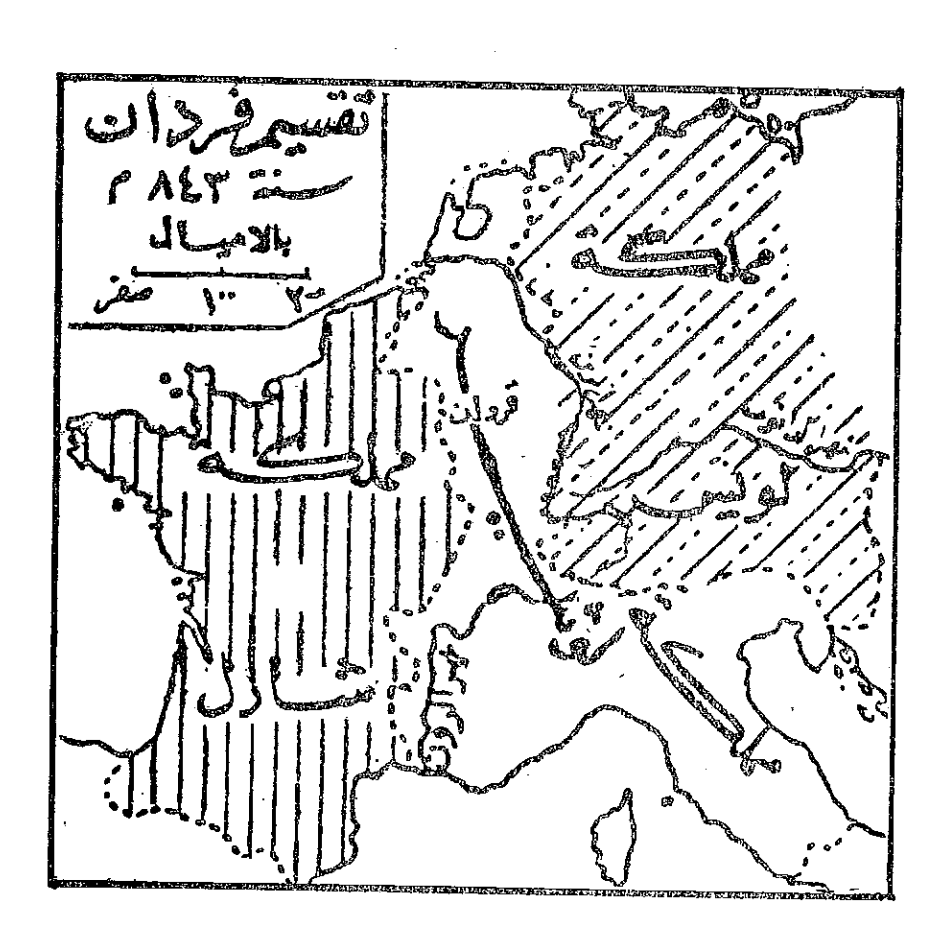
---

(1) The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne. p. 130.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 pp. 10-11.

(3) Lavisse : op. cit. Tome. 2 Première Partie, pp. 362-363.

(4) Oman : The Dark Ages; p. 409.


تقسيم فردان
سنة ٨٤٣ م
بالاميال
٢٠٠ ١٠٠ صفر

لأنها توضح أيضا بداية مولد بعض الدول العظمى الحديثة (١) . ذلك أن التقسيم السابق قام — الى حد ما — على أساس لغوى ، فكان شارل الأصلع يحكم الجزء الغربى الذى تسوده اللغة الرومانية — المحرفة عن اللاتينية — ومن ثم سنستخدم من الآن لفظ فرنسا للاشارة الى هذا الجزء الغربى من الامبراطورية الفرنجية . وحكم لويس الألمانى الجزء الشرقى الذى تسوده اللغة الألمانية ، ومن ثم سنشير الى هذا الجزء بألمانيا . أما لوثر فكان يحكم منطقة انتقال بين اللغتين الألمانية والفرنسية ، وقد سميت بلاده لوثرنجيا — أى مملكة لوثر — ثم حرف الاسم الى اللورين ، وهى المنطقة التى ما زالت حتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية (٢)

ولم يلبث لوثر — صاحب المملكة الوسطى — أن توفى سنة ٨٥٥ ، وبذلك قسمت مملكته الى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه (٣) . وهكذا أخذت تتكاثر الأجزاء التى انقسمت اليها الامبراطورية الكارولنجية ، كما كثرت الحروب بين أبناء البيت الكارولنجى ، بحيث أنه لم يوجد من الأبناء الشرعيين لهذا البيت سنة ٨٨٤ سوى شارل البسيط فى فرنسا وشارل السمين فى المانيا . وعلى الرغم من أن الأخير استطاع أن يوحد بين ألمانيا وايطاليا وفرنسا توحيدا اسميا لمدة ثلاث سنوات ، الا أنه عزل سنة ٨٨٧ ثم توفى فى العام التالى (٤) . أما فى فرنسا فان شارل البسيط كان طفلا فى الثامنة من عمره ، مما سهل انتقال السلطة الفعلية الى أيدى أودو كونت باريس ، الذى استطاع أن ينتزع الملك ويؤسس أسرة جديدة هى أسرة كابية سنة ٨٨٨ (٥) .

وعلى هذا الوجه انهارت الامبراطورية الكارولنجية ، وان ظلت ذكرى شارلمان — مؤسس هذه الامبراطورية — باقية فى التاريخ

---

(1) Eyre : op. cit. p. 99.
(2) Orton : op. cit. pp. 149-150.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 34.
(4) Deanesly, op. cit. p. 560.
(5) Idem, p. 561.

لتخلد اسمه الى جانب قيصر والاسكندر وغيرهما من الشخصيات العظيمة التى استطاعت أن تكيف التاريخ الأوربى . واذا كان المعاصرون فى القرن التاسع قد رفضوا أن يشبهوا شارلمان بالاسكندر ورومولوس وهانيبال وغيرهم من أعلام العصر الوثنى ، فان البابوات وصفوه بأنه قنسطنطين الجديد ، كما رسمت صورته فى قصر أنجلهايم الى جوار قنسطنطين وثيودسيوس (1) .

---

(1) Kleinclausz, op. cit. pp. 355-556 & Fichtenau, op. cit. p. 83.

الباب العاشر

الفيــــكنـج

نقصد بالفيكنج العناصر الشمالية التى سكنت شبه جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة الدانمارك ، والتى اتخذت اغاراتها على أوربا شـــكلا خطيرا فى القرن التاسع . وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها — واطلق عليها المعاصرون — اسم الفيكنج Vikings — بمعنى ســكان الفيوردات أو الخاجان ، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطىء الجهات الشمالية الغربية من أوربا (١) .

واذا كان الفيكنج يرجعــون فى الناحية الجنســية الى الأصـــل التيتونى أو الجرمانى ، الا أننا نفرق بينهم وبين العناصر الجرمـانية الأولى التى اغـــارت على أوربا فى أواخر العصـــور القديمة وأوائل العصـــور الوسطى . ذلك أن الفيكنج ظلوا برابرة خالصين محافظين عـــلى أوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحــكم والبناء الاجتماعى والديانة ، واستمروا حتى القـــرن التاسع يعيشـــون فى هـــذه العزلة بعيدين عن العالم الرومانى والبحر المتوســـط ، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السابقة التى اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحية قبل اقتحامها حـــدود الامبراطورية بعـــدة قرون . ولم تحـــاول الامبراطورية الرومانية أو امبراطورية الفرنجة مد ســـيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القـــرن التاسع ، وعندئذ بدأت هـــذه العناصر تغير على العالم الأوربى الجنوبى ممـــا جعل بعض الكتـــاب يقـــول بأن الفيكنج هم الـــذين استكشفوا أوربا وليست أوربا هى التى كشفت عن الفيكنج (٢) .

ولم يختلف الفيكنج عن غيرهم من العنـــاصر البربرية الجرمانية فى نظمهم وعاداتهم وأســـلوب حياتهم ، اللهم الا أن طبيعة بلادهم الجبلية ذات

---

(1) Mawer : The Vikings, p. 1.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 306.

الغابات والأحـراش والمستنقعات ، لم تترك لهم مجالا يعيشـون فيه سـوى السـهول السـاحلية ، وهى لا تعدو فى معظم الاحيـان أشرطة ضيقة من الارض الصعبة . وهكذا دفعت الطبيعة الفيكنج نحـو البحر ، فبرعوا فى بناء السـفن الصغيرة المكشـوفة التى اتصفت بطولها وقلـة عرضها وسـارت بالمجداف أو الشراع ، وجابوا بها شـواطىء أوربا من البحر البلطى حتى البحر المتوسـط ، بل قاموا برحلات بعيـدة فى المحيط الأطلسى حتى أصبحوا أعظم الشـعوب البحرية التى عرفتها أوربـا بالعصـور الوسـطى (١) . لذلك اتخذت اغـارات الفيكنج شـكلا بحريا أقرب الى القرصنة منه الى الزحف البرى الـذى أتصـفت بـه هجمات بقية الشـعوب التيتونية قبل ذلك بأربعة قـرون أو خمسـة . كذلك عـرف عن الفيكنج مهارتهم فى القتال وقـوة تسلحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربة طويلة ، زيـادة عـلى درع واق وخـوذة من الحـديد .

أما الأسـباب التى دفعت الفيكنج الى الخـروج من بلادهم والقيام بهـذه الحركة التوسعية الهائلة ، فيمكن تفسـيرها عـلى أسـس نفسية واقتصادية واجتماعية وسياسية . فمن الناحية النفسية أثبت التاريخ دائما أن الشـعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسـد والطمع فى البـلاد المتحضرة القريبة منها ، والرغبة فى الاغارة عليها لنهب ثروتها أو عـلى الأقل مشاركتها حضارتها . وهـذا الشـعور كان أحد العـوامل التى حركت الجرمان نحو أراضى الامبراطورية الرومانية من قبل ، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الكامنة خلف حركة الفيكنج فى القرن التاسع (٢) . ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفيكنج كـانوا عملاء تجاريين قـدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا (٣) . لذلك أهتز الفيكنج عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرا لما ترتب عـلى هـذا الغزو من شل نشـاطهم التجارى ، وبالتالى مضايقتهم اقتصاديا ومن الناحية الاجتماعية

---

(1) Stephenson, op. cit. p. 201.
(2) Eyre : op. cit. p. 106.
(3) Lot, Pfister, Ganshof : op. cit. p. 465.

يقال ان أعداد الفيكنج تزايدت فى القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطىء سكندناوة ودانمارك ، مما دفعهم الى الهجرة الى أرض الله الواسعة والاغارة على البلاد القريبة بغية الحصول على ما يمسك رمقهم ويسد حاجتهم (١) . هذا وان كانت لا توجد فى الواقع أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا أساسيا لهجرة الفيكنج فى القرن التاسع (٢) . وأخيرا يأتى العامل السياسى ممثلا فى نشأة الملكية بين الفيكنج وبخاصة فى النرويج حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع فى يدى هارولد الأشقر (Fairhair Harold) ، الأمر الذى جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة الى أوطان جديدة عن الخضوع فى ظل نظام لم يألفوه . وهناك من الدلائل ما يشير الى أن السويد والدانمرك شهدتا أيضا تطورات سياسية داخلية أدت بكثير من جموع الفيكنج الى الهجرة (٣) . وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية فى شمال غرب أوربا ، حتى أن قوتهم كانت عقبة فى سبيل توسع الفيكنج جنوبا . ولكن حدث عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على أيدى شارل مارتل سنة ٧٣٤ ثم شارلمان سنة ٧٨٥ ، أن زالت هذه العقبة من طريق الفيكنج وأصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم (٤) .

واذا كنا فى حديثنا عن الفيكنج نقسمهم الى نرويجيين وسويديين ودانيين فاننا يجب أن نشير الى أن هذا التقسيم لا يعنى وجود فوارق بين هذه الفئات الثلاث ، وانما كل ما يقصد به هو الاشارة الى جماعات الفيكنج التى سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندناوة أو شبه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 311.

(2) Eyre : op. cit. p. 106.

(3) Mawer, op. cit. pp. 7-8.

(4) Eyre : op. cit. p. 106.

جزيرة الدانمرك ، وبعبارة أخرى فان العصر الكارولنجى لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج أو السويد أو الدانمرك (١) .

وهنا نلاحظ أثر التوجيه الجغرافى فى توزيع غزوات الفيكنج ، فالسويديون الذين يواجهون شرق أوربا عبروا البلطيق وسلكوا الطرق الطبيعية التى هيأتها وديان الأنهار للوصول الى سهول شرق أوربا والبحر الأسود . أما النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا انجلترا وأيرلند والجزر القريبة ، فضلا عن الجزر الشمالية فى المحيط الأطلسى . هذا فى حين اتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب فهددوا شواطىء الامبراطورية الكارولنجية فى ألمانيا وفرنسا ، فضلا عن انجلترا وأيرلند والجزر القريبة .

ويمكن تقسيم الأدوار التى مرت بها علاقة الفيكنج بغرب أوربا الى ثلاثة أدوار ، الأول دور الهجوم والثانى دور الاستقرار والثالث دور الدفاع ، أما دور الهجوم فقد بدأ فى أواخر القرن الثامن — أى منذ سنة ٧٨٩ — عندما أخذ الفيكنج يهددون شواطىء انجلترا واسكتلندا وأيرلند . وفى ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض امبراطوريته لهجمات الفيكنج ، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا الا بعد وفاة شارلمان ، ثم بوجه خاص بعد وفاة لويس التقى (٢) . وقد اتخذ نشاط الفيكنج فى ذلك الدور شكل غزوات صيفية

---

(1) Stephenson. op. cit. p. 200.

وقد جاء فى موسوعة تاريخ كامبردج أن المقصود بالفيكنج « جموع الشماليين والدانيين والسويديين » ومن هذا التعريف نفهم أن الشماليين هم النرويجيون وحدهم ، فى حين أن لفظ الفيكنج أكثر شمولا لأنه يعنى جميع سكان سكندناوة والدانمرك فى القرن التاسع · والواقع أن معظم حوليات العصور الوسطى لم تحاول التفرقة بين الدانيين — سكان دانمرك — والنرويجيين ، وعبرت عنهم جميعا باسم الشماليين Nordmanni ، على أننا نجد هذه التفرقة واضحة بين الفئتين فى كتابات الأيرلنديين المعاصرة · أما الكتاب الذى دونوا حولية أنجلو سكسون فقد حرصوا على استخدام لفظ الشماليين Noromenn للدلالة على النرويجيين فقط ، وكذلك فعل ألفرد فى ترجمته لكتاب المؤرخ أوروزيوس ·

أنظر : (Mawer, op. cit. pp. 9-10).

(2) Oman : The Dark Ages, p. 415.

فيخرجون من بلادهم صيفا عندما يعتدل الجو يعودون اليها فى الخريف وقد اكتظت سفنهم بالغنائم والأسلاب . على أن حركة توسع الفيكنج لم تلبث أن دخلت دورا جديدا عند منتصف القرن التاسع ، عندما أخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم فى معسكرات حصينة أو فى الجزر المنيعة الواقعة قرب شواطىء البلاد التى يغيرون عليها أو عند مصبات أنهارها . وبعد أن كانوا فى الدور الأول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا فى هذا الدور الثانى يغيرون على بلاد غرب أوربا فى هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم بغية الاستقرار فى البلاد التى يغزونها . هكذا أقام الفيكنج مستعمرة قصيرة العمر فى أيرلند سنة ٨٤٣ كما قضوا الشتاء لأول مرة فى أنجلترا سنة ٨٥١ (١) ، وكذلك أخذوا يستقرون حوالى ذلك الوقت فى الجزء الغربى من فرنسا الذى عرف فيما بعد باسم نورمنديا (٢) . ولكنهم أخذوا يوغلون تدريجيا داخل البلاد ، وكلما هجر الأهالى الأجزاء القريبة الى الداخل تبعهم الفيكنج . وأخيرا يأتى الدور الثالث فى أواخر القرن التاسع ، وهو الدور الذى امتاز بمقاومة أهالى البلاد وحكامها للفيكنج فى حين التزم هؤلاء الأخيرون جانب الدفاع . وقد بدأت هذه المقاومة من جانب الكونت أودو حاكم باريس مما أدى الى فشل حصار الفيكنج لباريس (٨٨٥ — ٨٨٧) ، وقبل ذلك بقليل كان ألفرد ملك وسكس بانجلترا قد أنزل بالدانيين هزيمة كبرى فى أدنجتون سنة ٨٧٨ (٣) . وفى سنة ٨٩١ استطاع أرنولف — أحد ملوك البيت الكارولنجى فى المملكة الوسطى — أن ينزل هزيمة بالفيكنج فى موقعة ديل Dyle فى برابانت Brabant (٤) .

---

(1) Hodgkin : The Hist. of England, p. 267.
(2) Evre, op. cit, p. 107.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 315.
(4) Eyre : op. cit. pp. 109-110.

اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية :

بدأت اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية فى حياة شارلمان الذى أدى توسعه شمالا الى ايجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانيين . ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم العلاقات بين الطرفين عندما دخل بعض السكسون الهاربين من وجه شارلمان تحت حماية الدانيين (١) ، هذا الوقت الذى أخذت بعض سفنهم تغير على اقليم أكوتين (٢) . ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع اغارات الفيكنج على شواطئ الامبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يدهموا احدى القرى أو المراكز الساحلية . ويبدو أن هذه الاغارات أفزعت شارلمان فأعد أسطولا قويا فى موانئ نستريا لحماية شواطئ امبراطوريته من هجمات الفيكنج ، ومع ذلك فقد استمر جودفريد ملك الدانيين يسبب متاعب خطيرة لشارلمان فى جنوب البحر البلطى وشواطئ فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم سنتى ٨٠٤ ، ٨٠٩ كوسيلة لدفع شرهم (٣) . ثم حدث فى عهد لويس التقى — خليفة شارلمان — أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التى قامت حول تقسيم الامبراطورية ، وأنزلوا قوات ضخمة على شواطئ فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبوا أوترخت مركز رئيس أساقفة فريزيا ، ودورشتد Duurstede أكبر موانى الاقليم . وفى العام التالى أغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة أنتورب ثم عادوا سنة ٨٣٧ الى مهاجمة والشرن عند مصب الراين وأوغلوا حتى وصلوا الى نموجن Nimuegen ولكنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندما حضر اليهم لويس التقى على رأس جيوشه (٤) . ويبدو أن لويس التقى حاول شراء مسالمة الدانيين بالهدايا والمال ، كما منحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها ويحولو دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب الفيكنج ،

---

(1) Lot, Pfister, Ganshof : op. cit. pp. 465-466.

(2) Mawer : op. cit. p. 17.

(3) Davis : op. cit. pp. 296-297.

(4) Oman : The Dark Ages. p. 400.

وان كانت هـذه الاجراءات وأشباهها لم تـؤد فى الواقع الا الى زيـادة مطامعهم فى أراضى الامبراطورية (١) .

ويلاحظ أن أنهار فرنسا الغربية مثل السين واللوار والجارون كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفيكنج السبيل الى جـوف البلاد ، فأوغلوا فى نهر اللوار حتى تور حيث كتدرائيتها ، ودخلوا فى الجارون حتى تولوز ، فى حين أوصلهم الســوم الى اميان ، والسين الى باريس . وقد ســاعد الفيكنج على التوغل فى الامبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التى أمست فيها هـذه الامبراطورية فى القـرن التاسع من نزاع وحـروب أهلية بين الأمراء والحكام (٢) . ومهما يكن من أمر فان اغارات الفيكنج أخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس التقى سنة ٨٤٠ ، اذ أوغلوا فى نهر السين لأول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان . وربما شجع الفيكنج فى سياستهم الهجومية عندئذ ما لجأ اليه لوثر بالذات من تحريض لهم على مهاجمة أراضى منافسيه ، وذلك أثناء النزاع الـذى قام حول تقســيم الامبراطورية عقب وفاة لويس التقى (٣) . وهكذا أوغل الفيكنج فى اللوار قبيل عقد اتفاقية فردون مباشرة وأحرقوا ميناء نانت (٦) . ولم تلبث أن ازدادت اغارات الفيكنج حدة وعنفا عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣ ، حتى أصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للأخوة الثلاثة الذين اقتسموا الامبراطورية . وكان لويس الالمانى أوفر اخوته حظا لأن قبائل الســكسون القائمة على حدود دولته هيأت درعا قويا يحمى هذه الدولة من خطر الفيكنج . ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الألمانى حرق مدينة هامبرج سنة ٨٤٥ ففر أسقفها الى برمن (٥) ، كما أن قوة كبيرة من الفيكنج أوغلت فى نهر الالب سنة ٨٥١ وهزمت أمراء السكســون ، ثم عادت ظافرة الى الدانمرك بعد أن نهبت جزءا كبيرا من سكســونيا .

---

(1) Mawer : op. cit. pp. 18-19.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 312.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 315.
(4) Oman : The Dark Ages. p. 418.
(5) Mawer : op. cit. p. 20.

أما الأخ الثانى لوثر فكانت خسارته فادحة ، اذ أخذ الفيكنج يغيرون على شواطىء فريزيا سنويا ، وعندئذ حاول لوثر أن يمنح جزيرة والشرن عند مصب الراين لزعيم الدانيين المسمى روريك Rorik ليسترضيه ويتفادى شره . ولكن هذا الحل لم يجد اذ سرعان ما أصبحت شواطىء فريزيا (الأراضى المنخفضة) قلاعا للفيكنج ، استغلوا فى التوغل داخل البلاد حتى غدا لوثر فى قصره بمدينة آخن (اكس لا شابل) لا يأمن على نفسه من خطرهم .

وأما الأخ الثالث - وهو شارل الأصلع - فكان أسوأ الثلاثة حظا ، لأن مملكته امتازت بشاطىء طويل مكشوف ، وعدد كبير من الانهار التى ساعدت الفيكنج على التوغل داخل البلاد . وقد استغل الفيكنج فرصة انشغال شارل فى حرب أهلية مع ابن أخيه بيبين أمير أكوتين ، وجددوا هجماتهم على الأجزاء الشمالية من مملكته . وكان أن تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لأول مرة فى نستريا ، بعد أن استولوا على دير نوار موتييه ، واتخذوه قاعدة لمهاجمة الأجزاء الجنوبية من فرنسا (١) . ولم يلبث أن ساعد النزاع بين بيبين وعمه شارل على ازدياد نفوذ الفيكنج ، اذ استعان بهم الأول وساعدهم على التوغل فى حوض الجارون حتى وصلوا الى مدينة تولوز . وفى ذلك الوقت كان الفيكنج قد عادوا الى تهديد حوض السين من جديد ، فأغاروا على مدينة روان ونهبوها للمرة الثانية سنة ٨٤٥ ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا فى وجههم فحصن نفسه فى مرتفعات مونتمارتر Montemartre ، وفى دير سانت دنيس ، وترك باريس ليدخلها الفيكنج وينهبوها .

ولم تقف اغارات الفيكنج على فرنسا عند هذا الحد ، بل انهم أغاروا على بوردو - كبرى مدن الجنوب - ونهبوها سنة ٨٤٧ ، ثم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 316.

(2) Mawer : op. cit. pp. 20-21.

استولوا عليها تماما بعد قليل فظلت بأيديهم عـــدة سنوات . ومن الواضح أن استيلاء الفيكنج على مثل هذه المدن الضخمة كان يعود عليهم بأرباح طائلة وغنائم وفيرة ، أغرتهم على مواصلة نشاطهم التدميرى بأعداد أكبر حتى وصلت مملكة شـــارل الأصلع الى درجـــة يرثى لها من الخـــراب والانحلال . وقد حدث عندما تجددت هجمات الفيكنج على حـــوض السين سنة ٨٥٢ ، أن أتى لوثر على رأس جنده لمساعدة أخيه شـــارل الأصلع ، ولكن الأخير لم يلبث أن عقد صلحا مع زعيم الدانيين ومنحه مبلغا طيبا من المال ، وأجاز له الاستقرار فى منطقة قرب مصب اللوار ، ومن ثم انسحب لوثر عائدا الى بلاده (١) . ولم تلبث أن تجددت الحروب الاهلية بين لويس الالمانى وأخيه شـــارل الاصلع سنة ٨٥٤ فأتاحت فرصة طيبة للدانيين الذين أوغلوا فى مملكة شـــارل وحرقوا نانت وتور ونهبوا المناطق المحيطة بأنجرز وبلوا ، وبذلك لم تقـــاومهم ســـــوى مدينة أورليـــان (٨٥٣ — ٨٥٤) (٢) .

وخير ما يوضح لنا عجز ملوك البيت الكارولنجى عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفيكنج أنهم لجئوا الى شراء مسالمتهم بالمال . من ذلك ما فعله شـــارل الأصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند أحـــد زعماء الفيكنج تعهد فيها الملك بدفع مبلغ ضخم من المال ليقوم الأخير باخلاء نستريا من الغزاة . ولكى يحصل الملك الكارولنجى على هذا المبلغ الذى تعهد بدفعه للفيكنج فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة ، بحيث لم تعف منهـــا الكنائس والأديرة والنبلاء والتجار بل فقراء الفلاحين (٣) . وهكذا جاءت هذه الضريبة لتضيف حملا جديدا الى الأثقال التى كان يتحملها أهالى دولة الفرنجة ، فى الوقت الذى اتضح عجـــز ملوكهم عن الدفـــاع عنهم وعن حريتهم (٤) .

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 2, Première Partie; p. 379.

(2) Oman : The Dark Ages p. 422.

(3) Mawer : op. cit. p. 45.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 313.

والواقع أن الفترة الواقعة بين سنتى ٨٥٥ ، ٨٨٧ تعتبر أحلك عصور التاريخ الغربى . ففى سنة ٨٥٥ توفى لوثر ، فكان ذلك نذيرا لحرب أهلية جديدة بين أبنائه وأخوته حول اقتسام مملكته . وفى هذه الظروف لم يتوقف خطر الفيكنج ، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الأصلع الى أصدار مرسوم بيستر Pistres سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة ، ولعمل جسور وعقبات فى مجارى الأنهار لتعوق تقدم سفن الفيكنج من جهة أخرى . على أن وفاة لويس الالمانى سنة ٨٧٦ ، ثم شارل الأصلع سنة ٨٧٧ زادت من انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، بل من ضعفها وعجزها عن مقاومة أخطار الفيكنج (١) . ففى سنة ٨٧٩ دخلت جموعهم نهر الشلد وأقاموا معسكراتهم عند غنت ليجتاحوا وادى السوم بأكمله بما فيه من مدن وأديرة مهمة مثل كوربى وسانت روكويير وغيرهما . كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز لنفس المصير ، اذ هيأت أنهار الراين والميز والشلد وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفيكنج حتى وصلوا آخن وهددوا كولونيا . حقيقة أن لويس الثالث ملك فرنسا استطاع أن يحرز نصرا على الفيكنج فى موقعة سوكورت Saucourt سنة ٨٨١ ، حتى أنه ذبح منهم ثمانية آلاف وطردهم خارج حدود مملكته ، ولكن هذا النصر لم يكن كافيا للقضاء على خطرهم (٢) . وفى سنة ٨٨٢ لجأ شارل السمين الى مصالحة جودفريد أحد زعماء الفيكنج فعقد معه معاهدة السلو Elsloo التى وافق فيها شارل على منح الفيكنج مبلغا ضخما من العملة الفضية ، فضلا عن اقليم فريزيا ليكون دوقية لجودفريد الذى تزوج جزلا ابنة الملك شارل . وفى مقابل كل ذلك ينسحب جودفريد من مملكة شارل السمين ويتعهد باعتناق المسيحية وبأن يظل تابعا للملك شارل .

ولكن هؤلاء الفيكنج الذين غادروا ألمانيا وفقا لمعاهدة السلو

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome. 2, Première Partie, pp. 389-390.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 321.

اتجهوا نحـــو نستريا ، وهو أمر لم يهتم له شارل السمين فى قليل أو كثير ماداموا سيجلون عن مملكته . لذلك كان شتاء سنة ٨٨٢ — ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشمالية من فرنسا ، اذ دهمت المنطقة من ريمس حتى امبان جموع ضخمة من الفيكنج . وهنا لم يحاول الملك كارلومان (٨٧٩ — ٨٨٤) أن يحذى حذو سلفه لويس الثالث ، وانما فضل ان يقتفى سياسة شارل السمين فدفع مبلغا طائلا من المال للغزاة لكى يتركوا بلاده وينقلوا ميدان نشاطهم الى أوستراسيا وانجلترا وأيرلند . وقد اتيحت لشـــارل السمين — بعد مـــوت كارلومان ملك فرنسا — فرصة توحيد معظم أجزاء امبراطورية شارلمان تحت سيادته ، ولكن الفارق كان عظيما بين شخصيتى شارل السمين وشـــارل العظيم (١) . ولذلك امتازت السنوات الثلاث التى وحد فيها شـــارل السمين الامبراطورية (٨٨٤ — ٨٨٧) بضعف السلطة المركزية ، وتحلل الرعايا من آخـــر الروابط التى كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية .

وسرعان ما أثبتت الحوادث أن الاتفاقات التى عقدها ملوك الغرب مع الفيكنج لا قيمة لها مادام هؤلاء الملوك لا يملكون القوة التى يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم . لذلك لم يلبث أن عـــاد الفيكنج ، الى تهديد ألمانيا وفرنسا ، حتى اشتدت اغاراتهم بصفة خاصة فى الســـنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع ، فدمروا فلاندرز ، كما تعرض وادى الجارون الجنوبى الغربى من فرنسا لغارات أخرى خطيرة . ذلك أن الفيكنج استولوا على بوردو مرتين ، ونهبوا بواتيه وتولوز ، بل ان أساطيلهم دارت حول شبه جزيرة أيبريا وأغارت على الموانى المسيحية والاسلامية فى أسبانيا ، كما هددت الجـــزء الغربى من حوض البحر المتوسط وتسلك فى الرون حتى نهبت نيم وأفنيون (٢) واذا كانت بعض المدن المسورة والحصون قـــد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضـــد هجمـــات الفيـــكنج ، فان الأديرة والكنائس لم يكن لها درع يحميها ســـوى حرمتها الدينية ، وهذا ســـلاح لم يعترف به أولئك المغيرون الوثنيون . لذلك شـــدد الفيـــكنج

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 2, première partie, p. 393.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 316.

هجماتهم على الأديرة والكنائس بعد أن خبروها فوجدوها مخبأ الثروات والكنوز ، الأمر الذى نشأ عنه اندثار كثير من هذه المؤسسات الدينية فى ذلك العصر . ولما كانت الأديرة حينذاك هى المراكز الأساسية للنشاط التعليمى والحضارى فى أوربا العصور الوسطى فان الخسارة التى لحقت الحضارة الأوربية بتدمير الأديرة وفرار أهلها أو قتلهم كانت أعظم من أن تقدر (١) .

على أن حوض السن ظل الهدف الأساسى لهجوم الفيكنج فى أواخر القرن التاسع . وقد تعرضت باريس فى أواخر سنة ٨٨٥ لهجوم كبير قام به أربعون ألفا منهم جاءوا فى سبعمائة سفينة ، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدربين على شئون الغزو (٢) . وكان أن استطاعت باريس الصمود عدة أشهر ومقاومة الهجوم والحصار ، بفضل مهارة كرنت أدو حاكمها ، حتى وصل أخيرا (سبتمبر ٨٨٦) الامبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة أخرى ويعقد صلحا مشينا مع الفيكنج تعهد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس ، كما سمح لهم بالاقامة فى برجنديا (٣) . على أن الأهمية التاريخية لهذا الحصار لا ترجع الى ظهور شخصية كونت أودو على مسرح الحوادث فحسب ، بل ترجع أيضا الى ظهور أهمية باريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد .

وكان أن تم اختيار أودو ملكا على فرنسا فى فبراير سنة ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين فى العام السابق (٤) . ولم يلبث أن أحرز أودو انتصارا جديداً على الفيكنج بعد تتويجه بعدة أشهر ليثبت مرة أخرى صلاحيته للحكم (٥) . ولكن الفيكنج لم يتركوه يهنأ بالاستقرار ، اذ عادوا بعد قليل الى محاصرة باريس للمرة الرابعة . وعلى الرغم من أن المدينة استطاعت الصمود مرة أخرى ومقاومة الحصار لعدة أشهرة ، الا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة على الدفاع عن باريس من أودو الكونت ،

---

(1) Haskins : The Normans in European History, p. 35.
(2) Mawer : op. ct. p. 49.
(3) Lavisse : op. cit. Tome, 2. Première Partie, p. 394.
(4) Idem : p. 399.
(5) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 62.

اذ اقتفى هو الآخر سنة شارل السمين واشترى مسالمة الفيكنج بالمال ، وعندئذ انسحبوا الى بريتانى . ولم يلبث أن عاد الفيكنج — كما هى عاداتهم — الى تهديد أواسط فرنسا ، وعندئذ أنزل أودو بهم هزيمة ساحقة عند مونتبنسيه Montpensier وأسر زعيمهم وأعدمه سنة ٨٩٢ .

وهكذا أخذ نبلاء فرنسا يشعرون بتناقص خطر الفيكنج ، الأمر الذى دفعهم الى التآمر ضد ملكهم أودو ، فنظروا اليه على أنه أحدهم وأرسلوا يستدعون شارل البسيط — وريث البيت الكارولنجى — من انجلترا ، ومن ثم بدأت فترة من الحروب الأهلية استمرت ست سنوات بين أودو وشارل البسيط ، ولم تنته الا سنة ٨٩٨ بوفاة أودو (١) . وقد استمر شارل البسيط يحكم الجزء الغربى من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ ، وأظهر فى هذه المدة همة كبيرة فى محاربة الفيكنج على الرغم من صغر سنه . ولم تكن اغارات الفيكنج قد انقطعت حينئذ ، بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب الاهلية بين أودو وشارل البسيط وعادوا الى نستريا ليجتاحوها من جديد . وهنا نلاحظ أن اغارات الفيكنج امتازت — فى هذه المرحلة — بمقاومة الاهالى لها من جهة ، وبقلة الغنائم التى أصبح الفيكنج يحصلون عليها من جهة أخرى ، بعد أن أحاطت المدن والأديرة أنفسها بأسوار منيعة .

وعندما فشل الفيكنج فى تثبيت أقدامهم فى برجنديا نتيجة لمقاومة البرجنديين أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذى نسب اليهم فيما بعد — نورمنديا . وتشير الوثائق المعاصرة الى أن رولو Rollo الذى أصبح فيما بعد دوق نورمنديا أخذ يهاجم بايو فيما بين عامى ٨٩٠ ، ٨٩٢ . ويبدو أن الفيكنج اتخذوا روان عند مصب السين مركزا لهم ، ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد شاطىء هذا الجزء الغربى من فرنسا بين السوم وبريتانى . وعلى الرغم من أنهم فشلوا فى الاستيلاء على شارتر سنة ٩١٢ (٢) ، الا أن شارل البسيط اختار أن يسلك معهم نفس الأسلوب

---

(1) Idem : pp. 65-68.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 318.

الذى اتبعه ألفرد ملك وسكس قبل ذلك بثلاثين سنة ، فعرض على زعيمهم رولو اقليما واسعا يستقر فيه مع اتباعه (١) . وكان أن تمت المقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفيكنج الاقليم الساحلى الممتد من السوم حتى بريتانى ، وهى المنطقة التى نسبت الى الشماليين (أى النورمان) فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نومنديا (٢) .

والواقع ان اتفاقية سانت كلير لم تكن أكثر من اعتراف بالأمر الواقع ، لأن هذه المنطقة صار معظمها بأيدى الفيكنج فعلا ، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة ٨٤١ ، والذين لم تنقطع اغاراتهم عنها الا حوالى سنة ٩٦٦ أى بعد اتفاقية سانت كلير بأكثر من نصف قرن (٣) . ومهما يكن الأمر فان الفيكنج أصبحوا بحكم هذه الاتفاقية يحكمون نورمنديا حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية ، مع اقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا . ومن الواضح أن الدافع الأساسى الذى شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة والقاء نورمنديا للفيكنج لقمة سائغة هو رغبته فى ايجاد خصم قوى يقف فى وجه كونت باريس . وزاد من أهمية الأمر أن رولو دوق نورمنديا سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله ، كما أثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التى أجراها شارل البسيط ، اذ نزحت معظم جماعات الفيكنج المتناثرة فى فرنسا ليعيشوا تحت حكم رولو فى نورمنديا ، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد (٤) . والمعروف عن الفيكنج أنهم كانوا — أينما حلوا — يظهرون مرونة سريعة فى تقبل حضارة وعادات وأوضاع أهالى البلاد الأصليين ، لذلك لم يكد يمر قرن من الزمان على غزو الفيكنج لاقليم نورمنديا حتى تأقلم النورمان وأصبحوا فرنسيين فى لغتهم ونظمهم وثقافتهم ، وان ظلوا محتفظين بكثير

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3. p. 322.

(2) Mawer : op. cit. p. 52.

(3) Haskins : The Normans in European Hist. p. 27.

(4) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 72-77.

من مظاهر الحيوية والحماسة والعنف التى اتصف بها أسلافهم الأوائل ، مما جعلهم يقومون بدور هـــام فى حكومات فرنسا وانجلترا وايطاليا وصقلية ، وهى الجهات التى غزاها النورمان فيما بعد (١) .

اغارات الفيكنج على انجلترا :

كـــانت انجلترا من أولى بلاد غرب أوربا التى تعرضت لاغـــارات الفيكنج ، آذ شهدت هـــذه البلاد غـــارة قامت بها بعض سفنهم التى رست قـــرب دورشستر Dorchester سنة ٧٨٧ على عهد الملك بيوهتريك Beorhtric ملك وسكس (٧٨٦ — ٨٠٢) كما نهبت أسقفية لندسفرين Lindisfrane قرب الشاطىء الشمالى الشرقى لانجلترا سنة ٧٩٣ (٢) . وبعد أن اغار الفيكنج على دير القديس بولس فى جارو Jarrow على الساحل الشرقى سنة ٧٩٤ لم نسمع عن اغارات أخرى قاموا بها على انجلترا حتى ســـــنة ٨٣٥ . ويبدو أنهم فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٩٤ ، ٨٣٥ وجهوا الجزء الأكبر من نشاطهم نحو أيرلند كما سيلى بعد قليل .

وقـــد أطلق أهل انجلترا من الســـكسون اسم « الدانيين » Danes على جماعات الفيكنج آلتى أخذت تهاجم بلادهم منذ أواخر القرن الثامن (٣) ، وعندئذ بدأ هؤلاء السكســـون يشربون نفس الجرعة التى سبق أن سقوها لأهالى بريطانيا — من البراطنة والرومان — فى القرنين الخامس والسادس . ومهما يكن من أمر فانه على الرغم من قســـوة اغارات الفيكنج على انجلترا ، وما لقيته البلاد على أيديهم من تخريب وفوضى ، الا أنـــه من الثابت أن الفائدة التى حصلت عليها انجلترا من وراء هذه الاغارات فاقت الخسارة

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome, 2, Première Partie, p. 402.

(2) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 257-258.

(٣) هذا على الرغم من أن اغارات الفيكنج فى هـــذا الدور الأول على انجلترا قام بها فعلا النرويجيون أو الشماليون من سكان النرويج لا الدانيون من سكان الدانمرك ، وهم الذين لم تبـــدأ هجماتهم بصفة جدية على انجلـــترا وايرلندة الا قرب منتصف القرن التاسع . أنظر :
Mawer : op. cit. p.14.

التى لحقت بها ، ويكفى أنها أدت الى تكتل انجلترا الأنجلوسكسونية فى هيئة مملكة واحدة (١) .

وأما اغارات الفيكنج على انجلترا منذ سنة ٨٣٥ فقد بدأت فى الجنوب والغرب ثم لم تلبث أن أخذت تمتد شرقاً (٢) . ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الأكبر من ضربات الفيكنج فى هذا الدور ، اذ أغاروا على سوثامتون Southampton سنة ٨٤٠ وبورتلاند فى نفس الوقت ، وشارموث Sharmouth سنة ٨٤٣ ، ومصب نهر باريت Pariet سنة ٨٤٨ ، ثم ومبورى Wembury سنة ٨٥٤ . وليس معنى ذلك أن بقية أجزاء البلاد نجت من خطر الفيكنج ، فقد اجتاحوا لندسى Lindsey وانجليا الشرقية وكنت سنة ٨٤١ . وفى سنة ٨٤٤ لقى ردوولف Redwulf ملك نورثمبريا مصرعه على أيديهم (٣) .

ولم تلبث أن دخلت نهر التيمز سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانيين الذى استولوا على كانتربورى ولندن ، ثم عبروا التيمز حيث أنزل بهم اثلوولف Ethelwulf ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند أوكلى Ockley وذبح منهم عددا كبيرا . ومهما تكن قيمة هذا النصر ، فقد قلل من أثره أن الدانيين قضوا الشتاء لأول مرة سنة ٨٥١ فى انجلترا عند ثانت Thanet ، وبذلك أخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة الى دور الاستقرار (٤) .

ثم كان أن لجأ شارل الأصلع الى تخليص أراضى نهر السين من جموع الدانيين عن طريق شراء جلائهم بالمال سنة ٨٦٦ ، وعندئذ لجأت هذه الجموع الى انجلترا حيث أغارات فى العام التالى (٨٦٧) على يورك ، واستولوا عليها دون أن يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حول نورثمبريا (٥) . على أن انتهاء أمر هذا النزاع لم يؤد الى اضعاف

---

(1) Hodgkin : The History of England, p. 262.
(2) Mawer : op. cit. p. 14.
(3) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 266-267.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 312.
(5) Mawer : op. cit. p. 24.

الدانيين أو طردهم ، بل ان مرسيا Mercia دانت لهم بالطاعة ســـنة ٨٦٩ (١) . كما عبروا مرسيا الى انجليا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث أنزلوا هزيمة بملكها ادموند وقتلوه ، ومن ثم اعتبر هـــذا الملك قديسا وشهيدا في نظر العصـــور التالية (٣) .

والواقع أنه لم ينقذ بقية انجلترا من خطر الدانيين وتوســـعهم سوى جهود الفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ — ٨٩٩) ، حتى أن ســـنة ارتقائه العرش صارت ذات أهمية بالغة في تاريخ انجلترا (٣) . ذلك أن الفـــرد العظيم أبلى بلاءا حسنا في الدفاع عن بـــلاده ضـــد الدانيين حتى أنه اشتبك معهم في تسعة مواقع حربية أثناء السنة الأولى من حكمه ، الامر الذى جعل الدانيين يقنعون بعقد الهدنة ويولون أبصارهم شطر مرســـيا . على أن الصراع سرعان ما تجدد بين الفرد والدانيين ســـنة ٨٧٥ ، وعندئذ واجه الفرد كثيرا من الصعاب في هذا الدور ، ولكنه اســـتطاع أن يتغلب عليها جميعا وأنزل بالدانيين هزيمة ساحقة عند ادنجتون Edington سنة ٨٧٨ . وكان أن طلب الدانيون الصلح ، فتم عقد صلح ودمور Wedmore سنة ٨٧٨ على أساس جلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن ، فضلا عما وعـــد به ملكهم من اعتناق المسيحية (٤) . ولكن ملك الدانيين في انجلترا لم يلبث أن خرق شروط الصلح سنة ٨٨٤ ، الأمر الذى جعل الفرد يحاربهم مرة أخرى حتى انتهى الأمر بعقد صلح جديد ســـنة ٨٨٥ حددت بمقتضاه الحدود الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتد من مصب التيمز حتى شستر ، بمعنى أن لندن والجزء الاكبر من مرسيا كانت من نصيب الفرد ، في حين التزم الدانيون الأراضي الواقعة شمال هذا الخط وهي التي سميت مسموح الدانيين (Danelaw) (٥)

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 318.

(2) Mawer : op. cit. p. 25.

(3) Hodgkin The Hist. of England; p. 278.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 319.

(5) Hodgkin : The Hist. of England, p. 287.

وقد تمتعت انجلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات ، قضاها ألفرد فى اعادة تنظيم جيشه وتقوية مملكته بوجه عام ، فى حين وجه الفيكنج جهودهم الى القارة . وفى ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقى الراين من مسلك شارل السمين تجاه الفيكنج ، وهو المسلك المتصف بالضعف وشراء مسالمتهم بالمال ، فاختاروا أرنولف ملكا عليهم سنة ٨٨٧ . ولم يلبث أرنولف هذا أن أحرز نصرا على الفيكنج قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١ ، الأمر الذى جعلهم ينقلون ميدان نشاطهم مرة أخرى الى انجلترا (١) . وهكذا تعرضت انجلترا فى خريف سنة ٨٩٢ لهجوم أسطولين من أساطيل الدانيين أحداهما أرسى عند ليمن Limen (فى الجنوب الشرقى جنوب دوفر) فى حين أرسى الأسطول الثانى عند ملتون Milton فى الجزء الشمالى من كنت . وسرعان ما أبدى الدانيون نشاطا كبيرا فى مهاجمة الجهات القريبة ، ولكن ألفرد واجههم فى قوة وعزيمة وأجبرهم على الانسحاب . وبعد ذلك لم نعد نسمع عن اغارات أخرى خارجية قام بها الدانيون على انجلترا بقية عهد ألفرد ، وان ظل الدانيون المقيمون فى انجليا الشرقية ونورثمبريا يقومون بكثير من أعمال القرصنة ، الأمر الذى دفع ألفرد الى توجيه نشاطه نحو بقاء أسطول قوى استغله فى دفع خطر الدانيين وانزال عدة ضربات بهم (٢) .

وعندما توفى ألفرد سنة ٨٩٩ أخذ خلفاؤه يغزون أراضى الدانيين تدريجيا حتى انتهى الامر سنة ٩٥٤ بتوحيد انجلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذى أصبح يستحق لقب ملك أنجلترا فى التاريخ . على أن ملوك انجلترا فى الخمسين سنة التالية لم يكونوا على شىء من المقدرة والكفاية ، مما عرض البلاد مرة أخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفيكنج . وفى هذه المرة لم يأت الدانيون الى انجلترا على هيئة جماعات متفرقة ، وانما جاءوا فى صورة أمة مترابطة ، حتى أصبح كانوت Canute بن ملك الدانمرك والنرويج ملكا على انجلترا (١٠١٦ — ١٠٣٥) . ولم يستطع أصحاب الحق الشرعى فى عرش انجلترا من البيت السكسونى استرداد عرشهم الا سنة ١٠٤٢ ، عندما تولى ادوارد

(1) Idem : pp. 306-307.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, 325.

الثالث (١٠٤٢ — ١٠٦٦) الذى عـرف بنزعته الدينية القوية حتى أكتسب لقب « المعترف » فى التاريخ . وقد قضى ادوارد المعترف هذا شبابه منفيا فى بلاط قريبه دوق نورمنديا مما جعله يتأثر الى حـد كبير بالآراء والاتجاهات النورمندية (١) . ومهما يكن من أمر فان وليم دوق نورمنديا ادعى أنه صاحب الحق الشرعى فى بلاط انجلترا عند وفاة ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ ، بحكم القرابة بين الطرفين من جهة ، وبحجة أن ادوارد نفسه وعد وليم بأن يرثه فى حكم انجلترا من جهة أخـرى . وهنا نلاحظ أن البابوية سـاندت وليم النورمنـدى فى أطماعه بسبب غضب البابا من السكسـون ، الذين طردوا رئيس أساقفة كانتربورى النورمنـدى على الرغم من انه كان يحمل تفويضا من البابوية (٢) .

وهكذا استطاع وليم النورمندى أن ينزل قواته على الشاطىء الجنوبى الشرقى لانجلترا ، متغلبا على الصعوبات التى اعترضته ، فأوقع الهزيمة بهارولد ملك انجلترا السكسـونى الجـديد — فى موقعة هاسـتنجس ١٠٦٦ (٣) وبذلك نجح وليم فى فتح انجلترا مما أكسبه لقب الفاتح فى التاريخ ، كما استطاع توحيد نورمنديا وانجلترا تحت حكمه .

غزوات الفيكنج لايرلندا :

أما أيرلندا فقد قاست اكثر من غيرها فى المرحلة الأولى من مراحـل اغارات الفيكنج ، اذ عجـز ملوكها عن حماية رعاياهم ، فى الوقت الذى كـانت مـدن الجزيرة وأديرتها مكشـوفة دون أسـوار حجرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين . وهكذا أخذ النرويجيون يواصلون اغاراتهم على أيرلندا فى أواخر القرن الثامن ، حتى تحولت هذه الاغارات الى نـوع من الاستقرار فى الجزيرة فى أوائل القرن التاسع (٤) .

(1) Ibid.

(2) Idem, Vol. 5, p. 497.

(3) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 488-491.

(4) Oman : The Dark Ages, p. 417.

وإذا كـانت أيرلندا قد تعرضت لاغارات الفيكنج فى الوقت نفســه الـذى واجهت انجلترا — هى الأخرى — غزواتهم ، الا أن مصير كل من البلدين اختلف عن الاخر . ذلك أن الفيكنج داروا حول الشاطىء الغربى لاسكتلند وغزوا جزيرة سكاى Skye قرب الشاطىء سنة ٧٩٥ ، كما هاجموا جزيرة مان Man — بين أيرلند وانجلترا — سنة٧٩٨ . أما جزيرة أيونا قرب شاطىء سكتلند الغربى فقد نهبوها سنة ٨٠٢ ثم سنة ٨٠٦ (١) وفى سنة ٨٠٧ ظهر الفيكنج قرب شواطىء أيرلند الشمالية الغربية عند سليجو Sligo ثم شقوا طريقهم داخل البلاد حتى وصلوا روسكومون Roscommon فى أواسط البلاد . وفى سنة ٨١١ هاجموا منستر Munster فى جنوب غرب الجزيرة ، كما نهبوا شــبه جزيرة هوث Howth — بجوار دبلن — وغيرها من الجزر الصغيرة القريبة سنة ٨٢١ (٢) .

وهكذا يبدوا لنا من هذا العرض السريع أن أساطيل الفيكنج أحاطت بأيرلند احاطة تامة فى الربع الأول من القرن التاسع ، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ الا وكان الفيكنج قد أوغلوا داخل الجزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم . وعندئذ لم يعد الفيكنج يكتفون بالغارات الفردية ، وانما أخذوا يهاجمون الجزيرة بأساطيل كبرى ، متخذين من خلجانها وموانيها العديدة مراكز ينفذون منها الى الداخل (٣) .

ويبدو أن المقاومة العنيفة التى أبدتها القبائل الأيرلندية حالت دون استيلاء الفيكنج على الجزيرة كلها ، فقنعوا باقامة مراكز لهم حـول خلجان الجزيرة ومصبات أنهارها . وقد حصن الفيكنج هذه المراكز وأقاموا فيها القلاع ، وعن هذا الطريق ظهرت أهمية دبلن وليميرك Limerick وكورك ووتر فورد Waterford ووكسفورد (٤) . أما المناطق الداخلية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 311.

(2) Mawer : op. cit. p. 12.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 317.

(4) Mawer : op. cit. p. 13.

فقد اكتفى الفيكنج بنهبها ولا سيما الاديرة التى تعرضت لكثير من مظاهر التدمير ، مما جعل كثيرين من رهبانها يؤثرون الفرار الى أديرة فرنسا وفلاندرز وألمانيا .

ومن زعماء الفيكنج فى هذا العصر تورجس Turges الذى ظهر اسمه لأول مرة عند هجومهم على أرماغ سنة ٧٣٢ . وقد بلغت قوة تورجس هذا ذروتها سنة ٨٤١ عندما نفى مقدم دير أرماغ وأصبحت له السيطرة التامة على الجزء الشمالى من أيرلند ، حتى وقع فى قبضة الأيرلنديين بعد ذلك بثلاث سنوات . ومهما يكن من أمر فان تورجس هذا لم يكن الا واحدا من عدد كبير من زعماء الفيكنج الذين غزوا أيرلند فى هذه الحقبة والذين تردد أسماؤهم بكثرة فى الحوليات المعاصرة (١) .

وهنا نكرر القول بأن الاغارات الأولى التى تعرضت لها انجلترا وأيرلند جميعا من جانب الفيكنج فى هذا الدور الأول — أى حتى قرب منتصف القرن التاسع — قامت بها عناصر من الشماليين أى النرويجيين ، لا من الدانيين (٢) . وتحدد الحوليات المعاصرة أول اغارة للدانيين على أيرلند سنة ٨٤٩ ، ومنذ ذلك الوقت أخذت اغاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا فى صراع عنيف مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم الى الجزيرة . من ذلك أن الدانيين اشتبكوا مع النرويجيين فى معركة كبيرة وقتلوا منهم كثيرين ، كما نهبوا قواعد النرويجيين فى دبلن ودوندالك Dundalk سنة ٨٥١ . وهكذا اشتد النزاع فى أيرلند بين الدانيين والنرويجيين الشماليين فى الوقت الذى تدخل الأيرلنديون ليحموا أنفسهم من خطر الفريقين ، مما اوقع الجزيرة فى حالة شاملة من الفوضى . وزاد من حدة هذه الفوضى وصول أولاف Olaf — ابن ملك النرويج — الى ايرلند سنة ٨٥٣ ليخضع الدانيين فى الجزيرة (٣) .

وقد أصبحت دبلن تحت حكم أولاف مركزا قويا لحكم النرويجيين

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 317.

(2) Mawer : op. cit. p. 14.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 317.

الشماليين فى ايرلند ، كما أخذ الوفاق يســود العلاقات بين النرويجيين والدانيين فى الجزيرة . أما الايرلنديون أنفسهم فقد لاقوا كثيرا من المتاعب ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا ، وظهر بينهم زعماء تولوا قيادتهم ضد أعدائهم . ولم يقتصر نشاط أولاف فى هذه الفترة على ايرلند ، وانما امتد خارجهـا فذهب الى سكتلند سنة ٨٦٦ ، كما اسهم بنفسه فى حصـار دمبارتون Dumbarton على شاطىء سكتلند الغربى سنة ٨٧٠ . وعندما عاد أولاف الى النرويج حوالى سنة ٨٧٣ بدأ الدانيون ينتهزون الفرصة للقضاء على سيطرة النرويجيين فى أيرلند ، مما فتح باب النزاع والحرب بين الطرفين من جديد (١) . على أننا نستطيع القول بأن الغلبة فى أيرلند ظلت بوجه عام للنرويجيين الشماليين ، وأن الدانيين لم ينجحوا فى بسط سيطرتهم على الجزيرة (٢) .

ثم كـان أن سـاد السلام فى أيرلند لفترة امتدت نحـو أربعين سنة بدأت سنة ٨٧٧ . ويبدو أن الفيكنج شغلوا فى هذه الفترة بميادين أخـرى أستأثرت بالجزء الاكبر من نشاطهم ، وبخاصة انجلترا وامبراطورية الفرنجة . ولم تلبث أن سقطت دبلن نفسها فى أيدى الأيرلنديين سنة ٩٠٢ . على أن النرويجيين سرعان ما استعادوها سنة ٩١٦ ، وعبثا حـاول الأيرلنديون استعادة مركزهم حتى حلت بهم الهزيمة سنة ٩١٩ ، وهكـذا أضـحت ايرلند طـوال الخمسين سنة التالية فريسة سـهلة لاغارات الشـماليين والدانيين على السواء . واذا كان الشماليون اتخذوا دبلن مركزا أساسيا لهم ، فان الدانيين اتخذوا كورك Cork فى جنوب الجزيرة قاعدة لهم واغاروا منها على الجهات المجاورة حتى اجتاحوا اقليم منستر بأجمعه (٣) .

وفى تلك الأثناء استمر الأيرلنديون يقاومون أعداؤهم فى عزيمة لا تعرف الملل حتى اغاروا على دبلن ودمروها أكثر من مرة . وفى سنة ٩٨٠ نزلت أولى الضربات الكبرى بالشماليين عندما حلت بهم الهزيمة فى تارا Tara واضطروا الى اطلاق سراح جميع ما لديهم من رهائن ، فضـلا عن دفع

---

(1) Mawer : op. cit. p. 58.

(2) Idem, p. 11.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 317-334.

غرامة حربية باهظة . ثم كانت المعركة التالية بين الأيرلنديين وأعدائهم عند كلونتارف Clontarf سنة ١٠١٤ وانتهت هي الاخرى بهزيمة الشماليين هزيمة ساحقة ومقتل زعمائهم . ومع أن الفيكنج ظلوا بعد ذلك محتفظين بمدنهم الكبيرة في أيرلند الا أنهم أخذوا يذوبون تدريجيا في الشعب الأيرلندي على مر السنوات (١) .

الفيكنج في الجزر الشمالية :

على أن توسع الفيكنج في الاتجاه الغربي لم يقتصر على انجلترا وأيرلند وشواطىء سكتلند وامبراطورية الفرنجة ، وانما شمل أيضا الجزر الصغيرة القريبة من تلك البلاد مثل مان وأوركني وشتلندوفاروي Faroes (٢) . هذا فضلا عن أن النرويجيين اتجهوا — بحكم موقعهم الجغرافي — اتجاها شماليا غربيا ، أي نحو ايسلاند وجرينلاد . ويرجح أن النرويجيين عرفوا من اقامتهم في أيرلند بوجود جزيرة أخرى كبيرة تقع بعيدا في شمال المحيط الأطلسي ، لأنه من الثابت أن الرهبان الايرلنديين سبق أن وصلوا أيسلاند وان لم يستقروا فيها . هناك رواية وردت في احدى الساجات تشير الى أن سفينة نرويجية قذفتها العواصف بعيدا عن طريقها حتى رست على شواطىء أيسلاند سنة ٨٦١ (٣) . ومهما يكن من أمر فان استقرار الفيكنج في أيسلاند لم يبدأ الا حوالي سنة ٨٧٠ عندما هاجر اليها كثير من النبلاء النرويجيين ومعهم أتباعهم ليعيشوا فيها أحرارا بعيدين عن سيطرة هارولد الأشقر صاحب السلطة العليا في النرويج عندئذ (٤) .

ولم يلبث أن اتجه الشماليون غربا من أيسلاند حتى وصلوا جرينلاند والشواطىء الشمالية الغربية حوالي سنة ١٠٠٠ . وهكذا أصبحت جرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشماليين الذين نزحوا اليها من النرويج وأيسلاند ، فعمروها وشيدوا بها الكنائس حتى أسست أسقفية جاردار Gardar سنة ١١٢٦ (٥) .

(1) Mawer : op. cit. p. 46.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 325.
(3) Thompson : Vol. 1, p. 332.
(4) Mawer : op. cit. p. 142.
(5) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 324.

توسع السويديين شرقا :

اذا كان هناك جدل طويل فى التاريخ حول نصيب كل من النرويجيين والدانيين فى حركة الفيكنج ، فاننا لا نصادف خلافا فى الرأى عند دراسة حركة توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا . حقيقة انه يفهم من بعض المصادر المعاصرة أن السويدين ترددوا — هم الآخرون — على انجلترا وغيرها من بلاد الغرب ، ولكن هذه الاغارات كانت من النوع الفردى ، ولا تعبر بأى حال عن النشاط الاجتماعى للسويديين . وثمة مظهر آخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا ، وهو أن هذه الحركة قامت على أساس التغلغل السلمى الذى اعتمد على النشاط التجارى ، لا على أساس الغزو الحربى والنهب والتدمير ، وهى الصفات التى امتازت بها غزوات النرويجيين والدانيين فى الغرب (١) .

والواقع أن البحر البلطى كان ميدانا أساسيا لنشاط عناصر الفيكنج ، وان كان السويديون والدانيون هم الذين قاموا بالجزء الأكبر من النشاط فى هذا الميدان ، بعكس النرويجيين الذين اتجهوا غربا بحكم توجيههم الجغرافى .

واذا كان نشاط الدانيين فى حوض البحر البلطى قد اقتصر على شواطىء بومرانيا Pomerania — غربى دانزج — فان نشاط السويديين اتجه الى الجزء الشرقى من حوض ذلك البحر حتى وصلوا الى كورلاند Kurland على خليج ريجا ، ومنها الى أوغلوا شرقا على امتداد نهر دونا Duna داخل البلاد (٢) . ومهما يكن من أمر ، فان الميدان الرئيسى لتوسع السويديين ونشاطهم لم يكن فى حوض البحر البلطى وشمال أوربا بقدر ما كان فى سهولها الجنوبية الشرقية . وفى هذه السهول عرف السويديون باسم « الروس » Rus ، وهو لفظ فنى بمعنى « النوتية أو البحارة » ، أطلقه الفنيون والسلاف على هذه العناصر الشمالية التى تغلغلت فى بلادهم .

---

(2) Mawer : op. cit. p. 9.

(2) Idem, pp. 72-73.

وكان الآفار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية فى شرق أوربا لجلب الرقيق والفراء وبيعها الى تجار المسلمين فى القوقاز أو التجار المسيحيين فى القسطنطينية .. ولكن قوة الآفار كانت قد انهارت فى القرن التاسع ، الأمر الذى مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من السويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا أقدامهم فى حوض نهر الدنيبر حتى وصلوا الى البحر الأسود . وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين الباطى والأسود مما ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم فى هذا الجزء الشرقى من أوربا (١) . ذلك أن الروس أسسوا عدة مدن ، تتحكم كل مدينة منها فى المنطقة القريبة التى تحيط بها والتى تسكنها قبائل مختلف من السلاف ، ولكل مدينة حكومتها الذاتية ومجالسها وموظفوها . وقد فكرت هذه المدن فى حماية أنفسها وحماية تجارتها ، فلجأت الى تأليف جيوش صغيرة ، على رأس كل جيش أمير يقوم أيضا بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الادارية والقضائية (٢) . وكان أن حدث حوالى سنة ٨٨٢ أن استولى أحد الزعماء الروس — ويدعى روريك Rurik — على مدينة كييف ، وبذلك نشأت دوقية كييف العظيمة لتكون مركزا كبيرا للفيكنج فى شرق أوربا ، كما كانت نورمنديا مركزا لهم فى غربها . على أنه اذا كانت دوقية نورمنديا قد صادفت مقاومة عنيفة حالت دون توسعها فى فرنسا (٣) ، فان دوقية كييف استطاعت على العكس من ذلك أن تتسع بسرعة فائقة ، وأن تفرض سيطرتها المباشرة — وغير المباشرة — على كثير من القبائل والشعوب الضاربة فى سهول شرق أوربا .. ويقال أنه بلغ من سرعة اتساع كييف أن أصبح بها فى الربع الأول من القرن الحادى عشر — أى على عهد فلاديمير الأول أو العظيم (ت ١٠١٥) — ثمان أسواق ، كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين والهنغاريين والألمان ، فضلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد (٤) . ومازالت لدينا بعض معاهدات تجارية ترجع الى النصف الاول من القرن

---

(1) Stephonson : op. cit. Ps, 201-211.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 325.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 327.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 325.

العاشر بين الروس من جهة والدولة البيزنطية من جهة أخـــرى ، تثبت أن هـــؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والعبيد الى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصوغات وغيرها من لوازم الترف . وربما كان أوضح ما فى هذه المعاهدات أن الموقعين عليها من الروس يحملون أسماء سويدية (١) .

على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل تجارية سلمية على طول الخط ، فقـــد كانت تغلب عليهم بين حين وآخر نزعتهم نحو الحرب والقتال ، مما دفعهم الى الاغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها . من ذلك أنه حدث سنة ٨٦٥ أن أبحروا فى الدنيبر حتى البحر الأسود واجتازوه الى بحر مرمرة حيث تعرضت سفنهم لعاصفة حطمت معظمها . ثم حدث سنة ٩٠٧ أن أغار أحد زعماء الروس واسمه أولج Oleg على أطراف القسطنطينية ومعه تباعه تحملهم ألف سفينة ، ولم ينسحب الا بعد أن دفعت له الامبراطورية مبلغا كبيرا من المال (٢) .

ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى هجم زعيم روسى آخر اسمه ايجور Igor على عاصمة الدولة البيزنطية ســـنة ٩٤١ ثم ٩٤٤ ، مما دفـــع الامبراطورية الى السعى للتفاهم مع الروس واقامة العلاقة بين الطرفين أسس سلمية (٣) . وكان أن تم التفاهم فملا حـــوالى منتصف القـــرن العاشر ، ومن ثم أخذت الدولة البيزنطية تستخدم هـــؤلاء الروس السويديين فى البحرية الامبراطورية ، حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم (٤) . وهكذا أدرك الروس مرة أخرى أن التجارة أربح لهم من الحـــرب (٥) ، فأخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء والقنب والشمع والقـــار والعنبر والرقيق ، على أن تعود هذه الســـفن من القســـطنطينية محملة

---

(1) Mawer : op. cit. p. 75.
(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 229.
(3) Vasiliv : op. cit. Tome 1, p. 426.
(4) Dichl & Marcais : op. cit. pp. 470-471.
(5) Cam. Meed. Hist. Vol. 3, p. 327.

بحاصـــلات الشرق كالحرير والتوابل والمجوهرات . أما عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على نشـــاطها كثرة المسكوكات العربية التى عثروا عليها فى السويد وفى روسيا والتى يرجع معظم تواريخها الى الفترة الواقعة بين سنتى ٨٥٠ ، ١٠٠٠ (١) . ومهما يكن من أمر فان هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا أن ذابوا وسط المحيط السلافى الكبير الـــذى عاشـــوا وســـطه ، بحيث لم يكـــد ينتصف القـــرن الحـــادى عشر ، الا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافى العام (٢) .

نشاط الفيكنج فى حوض البحر المتوسط :

لم يقتصر نشاط الفيكنج على دائرة البلاد السابق ذكرها ، وانما امتد هـــذا النشاط الى كثير من البلاد المجاورة ، ففى سنة ٨٤٤ أغار الفيكنج على شـــواطىء أسبانيا الاسلامية وتعرضت لشبونة وقـــادس وأشبيلية بوجه خـــاص لعبثهم فضلا عن بعض بلاد المغرب الساحلية (٣) . وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التى أظهرها الاهالى فى صد أولئك الغزاة — الذين أسماهم المسلمون باسم المجوس (٤) . — الا أنه يبدو أن أغارتهم استمرت بشـــكل خطير مما دفع عبـــد الرحمن الثانى الى أرســـال سفارة الى ملك الفيكنج (٥) .

ثم حـــدث سنة ٨٥٩ أن أبحـــر الفيكنج من حـــوض السـيــن وعبروا مضيق جبل طـــارق وأغاروا على بعض بـــلاد المغرب وقراها ، كما أغاروا على شـــواطىء الاندلس الشرقية حتى وصلوا جـــزر البليار . وبعـــد وبعد أن أمضوا فصل الشتاء فى أحدى الجزر الواقعة عند منصب نهر الرون ،

(1) Mawer : op. cit. p. 79.

(2) Idem : p. 80.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 316.

(٤) ويبدو أن اطلاق مســـلمى الأندلس اسم المجوس على الفيكنج جاء نتيجة للحرائق التى كانوا يشعلونها فى البلاد التى يستولون عليها ، أو لمـا اعتاده الفيكنج من اشعال النار ليلا للاستئناس والتدفئة ، الأمر الذى جعل المســـلمين يعتقدون أن هؤلاء القوم من عبدة النار أو المجوس .

(5) Mawer : op. cit. pp. 19-20.

حيث أغاروا على مـدن اقليم بروفـاس ، أبحـروا فى الربيع التالى الى ايطاليا حيث استولوا عـلى بيزاولونا Luna ويبدو أن الهـدف الأساسى من ذهاب الفيكنج الى ايطاليا كان الاستيلاء على روما ، ولكننا لا ندرى السبب فى عدم تقدمهم جنوبا لتحقيق هذا الهدف وان كانت بعض الأسـاطير المعاصرة تعلل ذلك بأن الأمر اختلط عليهم فظنوا أن لونا هى روما . ومهما يكن من أمر فان هؤلاء الفيكنج عادوا سنة ٨٦٢ من حيث أتوا فعبروا مضيق جبل طارق الى بريتانى .

وهكذا استطاع الفيكنج فى النصف الثانى من القرن التاسع الاحاطة بأوربا احاطة شـبه تامة بعـد أن وصـل السـويديون الـروس الى القسطنطينية شرقـا ووصل الفيكنج الغربيون الى شـواطىء ايطاليا من الجهة المقابلة (١) .

حضارة الفيكنج :

لم يكن الفيـكنج برابرة بكل معـانى الكلمة ، لأنهم أظهروا مزيجـا عجيبا من البدائية والنزعة الحضـارية (٢) ، اذ ظلـوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية الأولى من جهة ، فى حين فاقوا كثيرا من شـعوب أوربا المجاورة فى بعض نـواحى النشـاط البشرى ، وبخاصة الحـرب والتجارة والتنظيم الاجتماعى من جهة أخـرى (٣) . على أن الخشـونة والبدائية التى عرف بها الفيـكنج فى أول الأمر لم تلبث أن أخـذت تتعـدل نتيجة لانتشـار المسـيحية تدريجيا بينهم ، ومـا ترتب عـلى ذلك من تهذيب طباعهم .

ويرجح أن أول معـرفة الفيـكنج بالمسـيحية جاءت عن طـريق عـلاقاتهم التجارية مع الفريزيين ، حتى أخذت البعثات التبشيرية تتردد عـلى سكندناوة والدانمرك منـذ أوائل القـرن الثـامن . ومن هـذه البعثات بعثة القديس وليبرورد Willibrord وبعثة ابو Ebbo رئيس أساقفة ريمس سـنة ٨٢٣ (٤) . وبعد ذلك بقليل عمل لويس التقى

(1) Idem : pp. 46-47.
(2) Haskins : The Normans in European History, p. 36.
(3) Mawer : op. cit. p. 83.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 314.

على نشر المسيحية بين الفيكنج بالطرق السلمية ، فأغرى هارولد ملك الفيكنج على اعتناق المسيحية حتى تم تعميده مع عدد كبير من اتباعه سنة ٨٢٦ . وعند عودة هارولد بعد ذلك الى بلاده صحبه القديس انسكار St. Ansker أحد رهبان دير كوربى المعروفين بحماستهم الدينية ، قضى انسكار عامين فى نشر المسيحية فى الدانمرك ، ثم أبحر الى السويد حيث استقبل استقبالا طيبا ونجح فى تحويل عدد كبير من السويديين الى المسيحية ، حتى عاد الى بلاده سنة ٨٣١ ، فعين رئيسا لأسقفية هامبورج التى أصبحت قاعدة لنشر المسيحية فى البلاد الشمالية (١) . وهكذا أخذت المسيحية تنتشر تدريجيا على حساب الوثنية ، ليس بين الدانيين فحسب ، بل بين النرويجيين والسويديين كذلك ، وليس فى بلادهم الأصلية فحسب فى المواطن الجديدة التى هاجروا اليها واستقروا فيها سواء فى غرب أوربا أو شرقها . وليس هناك من شك فى أن انتشار المسيحية بين هذه الشعوب ترك أثرا واضحا فى مستقبل أوربا وتاريخها ، اذ يمكن الوقوف على أهمية هذا الأثر لو تصورنا أن السويديين الروس الذين استقروا فى شرق أوربا فضلوا ديانة جيرانهم المسلمين فى القوقاز على ديانة جيرانهم المسيحيين فى الدولة البيزنطية (٢) .

وقد امتازت حضارة الفيكنج فى الجانب المادى بالثروة والفخامة ، فجمعوا الحلى وأدوات الزينة السيوف ذات المقابض الثمينة ، وغيرها من الأشياء التى فاضت بها مقابرهم . وليس هناك من شك فى أن مصدر هذه الثروة كان النهب والسلب فى اغاراتهم من جهة ، كما كان النشاط التجارى من جهة أخرى (٣) . ومن الواضح أن الفيكنج تركوا أثرا حضاريا واضحا فى كل بلد استقروا فيه وبخاصة أيرلاند وانجلترا وملحقاتهما الطبيعية (٤) . واذا كانت العناصر الاولية لحضارة الفيكنج قد أخذت تتلاشى تدريجيا من البلاد التى نزحوا اليها واستقروا فيها ، فان هذه العناصر قدر لها البقاء فى أقصى الغرب — أى فى ايسلاند وجرينلاد — حيث

(1) Mawer : op. cit. p. 86.
(2) Dawson : The Making of Europe. p. 244.
(3) Haskins : The Normans in European History, p. 36.
(4) Mawer : op. cit. p. 86.

ازدهرت حضارة الفيكنج وأصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن أى تطور حضـــارى آخر فى القـــارة الأوربية (١) . حقيقة ان حضارة الفيكنج فى تلك الجهات لم تكن خالصة ، اذ امتزجت بحضارة أيرلند الكتلية نتيجة لهجرة كثير من الكلت الأيرلنديين اليها ، ولكننا مع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة . وقـــد بلغ التقـــدم الحضـــارى فى جرينلاند — بعد استقرار الشماليين فيها — أن أديرتها فى القرن الثـــانى عشر كـــانت تستخدم أنابيب المياه الدافئة فى تدفئة داخل الأديرة ، فى حين استمدت هذه الأنابيب مياهها من ينبوع دافىء طبيعى . هـــذا فضلا عن النشـــاط التجارى الواســـع الذى قـــام به أهالى جرينلاند وأيسلاند فى الميدان الاقتصادى ، اذ أخذوا يصدرون الأسماك والفراء والزيت الى البـــلاد القريبة (٢) .

أما فى ميـــدان الأدب فان المجموعة الضخمة من أســـاطير الســـاجا Saga وأشعار الادا تعتبر خير ما يـــدل على التقـــدم الأدبى وبخاصة فى ايسلاند . أما الســـاجات فهى نثرية تمتاز بطابعها الواقعى واتزانها واستقـــامة نظرتها الى الحياة والطبيعة الانسانية . وأما الادات Eddas فهى مقطوعات منظومة تمثل نوعا بدائيا من الشعر ولكنها تمتاز أيضا ببروز الجانب الخلقى والنظرة الواقعة الى الحياة . واذا كانت هذه الاشـــعار تنطوى على شىء من الخشونة والبربرية ، الا أنها تعبر تعبيراً ســـاميا عن روح البطولة ، كما تحرص على ابراز الغرض الأسمى الـــذى يسعى اليه البطل . وهكذا يرجع الفضل الى الفيكنج عندما انتجت جـــزر أوربا الشمالية المقفرة حضارة طيبة وأدبا رفيعا من أعظم ما أنتجته أوربا العصور الوسطى (٣) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 339.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 324.

(3) Dawson : op. cit. p. 252.

الباب الحادى عشر

أسرة كابيــه فى فرنســا

من الواضح أن الغــزوات التى تعرضت لها أوربا فى القرنين التاسع والعاشر وما ترتب عليها من أنهيار السلطة الملكية ، وما جرى من منازعات بين الأمراء والحكام ، تمخضت كلها فى النهاية عن حال شديد من الفوضى عمت بلاد غرب أوربا . وقد دفعت هــذه الفوضى صغار الملاك الى البحث عن قــوة تحميهم وتذود عنهم ، فلم يجدوا أثرا لقــوة الملك أو لنفــوذ السلطة المركــزية ، مما اضطرهم الى الارتباط بالكونت أو الأمير المحلى لحمايتهم . وهكذا أخــذ عــامة الناس وصغار الملاك يرتبطون بمن هم أقوى منهم من الأمراء وكبار الملاك فى ظل نظام من الحقــوق والواجبات المتبادلة ، كوسيلة وحيدة لحماية أرواحهم من الاخطار والقلاقل التى هددت المجتمع الغربى (١) . وبعبارة أخرى فان هــؤلاء الضعفاء أو المستضعفون قبلوا أن يعيشــوا فى حال من الهوان والمغارم مقابل قيام كبار الأمــراء الاقطاعيين بحمايتهم والذود عنهم ، فى حين لم تتعــد سلطة الملوك الفعلية دائرة أملاكهم وضياعهم الخاصة ، شأنهم شأن أى أمير آخر من الأمــراء الاقطاعيين .

وســوف نتكلم — فيما بعد — بشىء من التفصيل عن النظام الاقطاعى وخصائصه (٢) ولكن يكفى أن نشير الآن الى أن هذا الوضع من التنظيم السياسى والاجتماعى هو الذى ظلت عليه فرنســا فى القرون العــاشر والحادى عشر والثانى عشر . ففرنســا ذاتها هى الدولة التى بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع ، حتى أصبح من الضرورى الاستعانة بنظام جديد يضمن للناس أرواحهم . وهكذا لم يكد ينتهى القرن العاشر ، الا

(1) Painter : op. cit. pp. 105-106.

(٢) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب الخاص بنظم أوربا وحضارتها فى العصور الوسطى .

كان النظام الاقطاعى قد وطد أقدامه فيها وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا (١) . ومن الثابت أن فرنسا — وهى الجزء الغربى من الامبراطورية الكارولنجية — اختلفت عن المانيا — الجزء الشرقى من هذه الامبراطورية — لأن الأولى كانت فى سالف الزمن جزءا من العالم الرومانى حتى دخلت تحت حكم الجرمان . وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة الى أقسام أدارية — أو كونتات — تتبع حدود الأسقفيات ، ويحكم كلا منها كونت نائبا عن الملك الميروفنجى أو الكارولنجى . وهكذا ظل الوضع حتى تحطمت السلطة الملكية فى فرنسا وعندئذ لم تبق قوة تحل محلها سوى قوة الحكام المحليين من الكونتات وكبار الملاك (٢) .

ولا شك فى أن الحقيقة التاريخية الكبرى التى امتاز بها تاريخ فرنسا فى القرن العاشر هى سقوط البيت الكارولنجى وقيام أسرة كابية فى الحكم . ذلك أنه حدث عندما عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ أن أختير أودو كونت باريس ملكا فى العام التالى ، بعد ما أبداه من شجاعة فى الدفاع عن باريس أثناء حصار الفيكنج لها (٣) . على أنه يبدو أن ذكرى شارلمان وعظمته ظلت تدفع المعاصرين الى الاخلاص للبيت الكارولنجى والتمسك بهذا البيت (٤) ، الأمر الذى أثار نزاعا طويلا — استمر قرنا من الزمان — بين البيت الكارولنجى والبيت الباريسى حول الاستئثار بحكم فرنسا . وهنا نشير الى عدم صحة ما يردده كثير من المؤرخين من أن الكارولنجيين الأواخر امتازوا بالضعف وعدم الكفاية ، الأمر الذى أدى الى ضياع الملك من أيديهم . فالواقع أنهم كانوا على قدر كاف من المقدرة ، وبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بملكهم ، ولكن كان ينقصهم المال اللازم . ذلك أن منبع قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد حوض الراين ، ولم تكن له ضياع فى الجزء الغربى من امبراطوريته سوى القليل ، وهو الذى أصبح من نصيب سلالته ملوك فرنسا . وهذا هو السبب

(1) Orton : op. cit. p. 174.
(2) Painter : op. cit. p. 152.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 62-63.
(4) Fliche; l'Europe Occidentale, p. 60.

فى أن ملوك الجزء الغربى من الامبراطورية — فرنسا — ظلوا دائما فى فقر وحاجة الى المال حتى زوال البيت الكارولنجى (١) .

وقد حدث أثناء حوادث التنافس والنزاع بين البيت الكارولنجى والبيت الباريسى ان أختير أحد أبناء البيت الكارولنجى ملكا — وهو شارل البسيط (٨٩٣ — ٩٢٣) . ولم يعجب ذلك روبرت أخو اودو ووريثه . فثار ضد شارل ثورة لم تنجح بفضل مساعدة لوثرنجيا للاخير . هذا الى ان شارل البسيط اكسب حليفا قويا عندما منح رولو واتباعه من الفيكنج اقليم نورمنديا . ومع ذلك ، فان السنوات الأخيرة من حكم شارل كانت مليئة بالمتاعب الجسام التى سببها له روبرت كونت باريس (٢) . وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢ ، ولكنه قتل فى العام التالى تاركا ابنه الصغير هيو العظيم ليحل محله (٣) . أما شارل البسيط فقد خلفه ابنه لويس الرابع (٩٣٦ — ٩٥٤) ، الذى كان محاربا قويا وسياسيا بارعا ، فتزوج من أخت أوتو العظيم ليضمن مساعدة ألمانيا . ولكن لويس الرابع سرعان ما أستكشف أنه أضعف من أن يقف أمام هيو العظيم (٤) ، فاضطر الى مسالمته مكتفيا بالاقامة فى مدينة لايون Laon . وهكذا نجح هيو العظيم — ومن بعده هيو الملقب كابيه فى السيطرة على معظم أنحاء فرنسا قبل أن تحل سنة ٩٨٦ ، وهى السنة التى توفى فيها لوثر بن لويس الرابع . ولم تلبث أن جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ — ٩٨٧) ابن لوثر — دون أن يترك ابنا يخلفه — بمثابة فصل الختام بالنسبة للبيت الكارولنجى ، فتم تتويج هيو كابيه ملكا على فرنسا (٩٨٧ — ٩٩٦) فى نفس العام الذى شهد وفاة لويس الخامس ، وبذلك بدأ تاريخ أسرة كابيه فى حكم فرنسا .

ومن الواضح أن قيام أسرة كابيه فى حكم فرنسا سنة ٩٨٧ لا يعنى أكثر من قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى ، اذا لم يلبث آل كابيه أن

---

(1) Painter : op. cit. p. 153.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 66.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 74-75.
(4) Orton : op. cit. p. 180.

ورثوا حقوق الكارولنجيين وامتيازاتهم من جهة ، كما أصبحوا السادة الأعلين لجميع الاقطاعيين فى المملكة من جهة الأخـــرى (١) . ولكى ندرك مركز هيو كابيه يجب أن ننظر اليه من ثلاث زوايا مختلفة : أولها أنه توج ملكا على دولة الفرنجة الغربية (فرنسا) ليرث الملوك الكارولنجيين ويحل محلهم ، وثانيهما أنه جاء ممثلا لكبار الاقطاعيين ، وأخيرا أنه هـــو نفسه لا يعدو أن يكـــون أميرا اقطاعيا فى اقطاعه أو فى دوقيته (٢) . واذا كان من أسباب ســـقوط الملكية الكارولنجية هو أنها لم تستطع أن تمثل التطور الاقطاعى وتســـايره فى وقت أصبح لا يوجد محل لسلطة لا تعتمد على دعائم وأسس اقطاعية ، فانه يمكن القول بأن أسرة كابيه الجديدة أنقذت نظام الملكية فى فرنســـا بتزويدها بـــروح وقواعـــد اقطاعية مكنتها من مســـايرة العصر والظروف (٣) .

وقد يبدو من أول نظرة أن انتصار آل كابيه فى الوصـــول الى حكم فرنســـا يعتبر انتصارا للامراء الاقطاعيين على الملكية الكارولنجية ، ولكن اذا دققنا النظر وجدنا أن آل كابيه كانوا أنفسهم فى مركز لا يحســـدون عليه من جراء منافســـة كبار الأمراء الاقطاعيين وخطرهم (٤) . ذلك أن فرنســـا كانت عنـــد قيام أسرة كابيه فى الحكم ســـنة ٩٨٧ عبارة عن حشد ضـــخم من الاقطـــاعيات المتباينة التى ارتبط كل منها بأسرة معينة فى ظل قوانين ونظم خاصة ، حتى أن ستة وخمسين من كبار الأمراء الاقطاعين كانوا يسكون النقود الخاصة بهم ، فضلا عن وجود عشر لهجات رئيسية كبرى فى فرنســـا . ولا أقل من استعراض أهم الامارات أو الاقسام التى انقســـمت اليها فرنســـا عندئذ ، حتى يمكننا متابعة تاريخها منـــذ القرن العـــاشر .

ففى الشمال كانت دوقية برجنديا التى حكمها فرع من أسرة كابية الحاكمة (٥) فى حين تحولت فلاندرز — بين نهر الشـــلد وبحر الشمال —

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome. 2, Deuxième Partie, p. 147.
(2) Painter : op. cit. p. 155.
(3) Tout : The Empire and the Papacy. p. 73.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 341.
(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 88.

الى امارة قوية ، بفضل سياسة أمرائها فى ضم الضياع المجاورة عـلى الحدود الفرنسية من جهة ، وبفضل نشـاطها التجارى وما ترتب عليه من ازدياد الثروة واتساع المدن وكثرة السكان من جهة أخرى . أما فى الغرب فان بريتانى لم يعد لها شأن كبير بسبب أهمالها وتأخرها وجدبها وكثرة الحـروب فيها ، فضلا عن اغارات النورمان عليها (١) . وعلى حـدود بريتانى — على بحر المانش — قامت امارة نورمنديا التى أصبح صاحبها — بمقتضى معاهدة سانت كلير سنة ٩١١ — فصلا للتاج الفرنسى . وسرعان ما غدا أهلها من النورمان جزءا من الوطن الفرنسى بعد أن تأقلموا بظروف البيئة الجديدة واعتنقوا الديانة المسيحية (٢) .

أما جنوب فرنسا فكانت تفصله عن شمالها اختلافات كبيرة ، لأن الأجزاء الجنوبية امتازت بلغتها الخاصة البروفنسالية فضلا عن عاداتها وتقاليدها التى ظلت ترتبط بالتراث الرومـانى أكثر من ارتباطها بالتراث الجرمـانى . واذا كان بارونات الشمال قد اعتادوا التردد على البلاط الملكى وتقديم ما عليهم من واجبات وفروض اقطاعية للملك ، فان أمـراء الجنوب لم تربطهم صلة بآل كابيه سـوى اتخاذ السنة التى تولى فيها الملك الحكم علامة فاصلة فى تاريخ حوادثهم . وأهم هـذه الامـارات الجنوبية كانت دوقية أكوتين وعلى رأسها أمراء بواتييه منذ القـرن العاشر . وقـد امتدت هذه الدوقية من اللوار حتى الجارون ومن خليج بسكاى حتى الرون ، الأمر الذى جعل من المتعذر على فرد واحـد أن يحكمها (٣) . أما الاقليم الواقع بين الجارون والبرانس فكان به الجاسكونيون Gascons يحكمهم أمير منهم حتى انضموا الى كوتين فى أواخر القـرن الحادى عشر وأخيرا وجدت امارتان على البحر المتوسط ، الأولى امـارة تولوز محل سبتمانيا القديمة ، والثانية امارة برشلونة محل المارك الأسبانى الـذى أقامه شـارلمان على الحدود (٤) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 128.

(2) Lavisse : op. cit. Tome 2, Deuxième Partie, pp. 41-44.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 128-130.

(4) Stephenson : op. cit. pp. 231-232.

آل كابيــه الأوائل :

وعــلى الرغم من كثرة مادون عن الملوك الأربعة الأوائل من أسرة كابيه ، الا أن معلوماتنا الحقيقية عنهم لا تعدو أن تكون سطحية . والظاهرة العامة التى تميز عصر هؤلاء الملوك الأربعة (٩٨٧ — ١١٠٨) هــو أن الظــــروف أظهرتهم فى مظهر الضعف أمام كبراء الأمراء الاقطاعيين . وان كان الواقع هو أن فرنسا دخلت فى ذلك العصر دورا جديدا من تاريخها ، بمعنى أنه اذا كان الكارولنجيون الأواخر يمثلون عصر اضمحلال وتدهور ، فان آل كابيه الأوائل يمثلون عصر تقدم وبناء (١) .

وقــد أكسب هيــو كابيه — أول هــؤلاء الملوك (٩٨٧ — ٩٩٦) الأسرة الحاكمة لقبها الذى عرفت به فى التاريخ ، وان كان كل ما فعله هــو أنه توج ابنه فى حياته ، وبذلك وضع أســـاس سابقة اتبعها خلفــاؤه فى القرنين التاليين ، الأمر الذى جعل العرش ينتقل فى سهولة الى ابنه روبرت الثانى (٩٩٦ — ١٠٣١) ، ثم حفيده هنرى الأول (١٠٣١ — ١٠٦٠) ثم ابن حفيده فيليب الاول (١٠٦٠ — ١١٠٨) ، دون أن يكون لاحد هؤلاء الملوك نشــاط خاص يسترعى انتباهنا .

ويبدو أن الظروف كانت لا يمكن أن تساعد أحد هؤلاء الملوك الذين تولوا حكم فرنسا فى القرن الحادى عشر فى فرض سيطرته الفعلية عــلى أنحاء مملكته الاسمية الواسعة . لذلك وجه هؤلاء الملوك الأوائل كل جهودهم نحو انقاذ ما تبقى لهم من نفوذ موروث فى اماراتهم الاقطاعية حول باريس ، وهى المنطقة المعروفة باسم جزيرة فرنسا ile de France حيث وجد بعض صغار الأمراء الاقطاعين الذين لم يعترفوا بالسلطة الملكية وأخذوا يشيدون القلاع والحصون — وبخاصة فى عهد فيليب الأول — تحديا له (٢) .

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 73.

(2) Lavisse : op. cit, Tome 2, Deuxième Partie, p. 176.

وإذا كان عهد فيليب الاول بالذات قد امتاز بأنه العهد الذى وصلت فيه سلطة الملكية الى الحضيض ، الا أن هذا العهد يمثل أيضا نقطة تحول فى تاريخ الأسرة الجديدة الحاكمة نظرا لاتساع أملاك آل كابيه تدريجيا (١) . ذلك أن فيليب الأول استغل حاجة أمير بورج Bourges للمال للمشاركة فى الحملة الصليبية الأولى واشترى منه اقطاعه ، كما استولى على بعض أراضى كونت انجو عن طريق المساومة السياسية . ومن ناحية أخرى أسهم فيليب الأول فى تقوية أسرته بطريقة سلبية عن طريق مقاومة البابا جريجورى السابع عندما أراد منع التقليد العلمانى وحرمان الملك من اختيار الأساقفة وتقليدهم (٢) .

والواقع أن ملوك فرنسا فى تلك الحقبة كانوا لا يستطيعون التخلى عن سيطرتهم على رجال الدين لأنهم اعتمدوا الى حد كبير على المساعدات التى قدمها لهم كبار الأساقفة ومقدمى الأديرة . ففى داخل جزيرة فرنسا — أو على مقربة منها — وجدت أسقفيات وأديرة كبيرة تمتعت بثروة طائلة ودانت بالولاء للملكة . وقد قدم رؤساء هذه الأسقفيات ومقدمى الأديرة مبالغ طائلة للملوك استغلوها فى تنظيم قواهم وتدعيمها . ولكن على الرغم من هذه المساعدات فان آل كابيه الأوائل لم يصبحوا أندادا لكبار الأمراء الاقطاعيين مثل كونت فلاندرز أو دوق برجنديا (٣) . حقيقة ان أسهام كثير من فرسان فرنسا وأمرائها الاقطاعيين فى النشاط الصليبى كان من العوامل التى ساعدت آل كابيه الأوائل ، اذ أدى ذلك الى اتجاه هؤلاء الأمراء الى هذه الحروب الدينية فى الشرق بدلا من النزاع مع الملكية أو مع بعضهم البعض (٤) ، ولكن ذلك ليس معناه أن الفوضى الاقطاعية التى عمت البلاد قل خطرها . وربما كان العزاء الوحيد فى هذه الفوضى أنها ناشئة عن صراع بين الاقطاعيين بعضهم وبعض ، أو بعبارة أخرى بين

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 110.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 161.

(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 244-245.

(4) Orton : op. cit. p. 185.

الفرنسيين بعضهم وبعض ، لا عن هجمـــات أجنبية قام بها مغيرون من الخارج كما كان الحال فى غزوات الفيكنج من قبل (١) .

لويس السـادس :

ولكن اذا كان فيليب الأول قـد ظهر عجـزه عن مقاومة البارونات الاقطاعيين فان خليفته لويس السادس (١١٠٨ — ١١٣٧) كان مثلا طيبا للحاكم القوى (٢) والواقع أن بيت كابيه كان قـد انحدر الى درجة سيئة من الضعف والانحلال عندما أعتلى لويس السادس العرش . وقـد رأى لويس الســادس أنه يتعين عليه أخضـاع أتباعه وأفصاله من الامـراء الاقطاعيين داخل جزيرة فرنســا ذاتها قبل أن يحاول تأكيد سلطان الملكية ونشر هذا السلطان فى بقية أنحاء فرنسا (٣) . وهكذا لم تكـد تحل سنة ١١٢٠ الا كان الملك يستطيع أن يتنقل فى أنحاء أراضيه الاقطاعية دون حاجة الى حراسة أو جيوش ، كما ن أفصاله أخذوا يدفعون الاموال المستحقة عليهم بانتظام . ولم يلبث أن أدى استقرار الاوضاع داخل جزيرة فرنسا الى نشاط الحياة الاقتصادية ، بعد أن أمن التجار عـلى أنفسهم وأموالهم ، مما عاد على الجميع بالخير والرفاهية (٤) .

ولكن اذا كان لويس السادس قـد استطاع تقوية نفوذه داخل أراضيه الاقطاعية ، الا أنه ظل عاجزا أمام كبار الامراء الاقطاعيين فى بقية أنحـاء فرنسا . ذلك أن هؤلاء الامراء الاقوياء استمروا يتصرفون كما يحلو لهم دون أن يقيموا وزنا للملك أو يعترفوا له الا بتبعية اسمية ، فلم يدفعوا له ما يستحق عليهم من ضرائب اقطاعية أو يقدموا له ما يجب عليهم من ضرائب عسكرية وغير عسكرية يفرضها العرف الاقطاعى (٥) . وهنا شاءت الظروف

---

(1) Tout : The Empire and the Papecy, p. 77.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 594-597.

(3) Idem, p. 596.

(4) Stephenson : Med. Hist. p. 398.

(5) Tout : The Empire and Papacy, p. 278.

أن تمد ملك فرنسا بقوة تساعده فى فرض سيطرته على بقية الامـــراء الاقطاعيين فى بلاده . ذلك أن وليم العاشر دوق أكوتين أوصى وهو على فراش الموت (سنة ١١٣٧) بأن تتزوج ابنته ووريثته اليانور من ابن لويس السادس ، الأمر هيأ لملك فرنسا فرصة ضم دوقية قوية غنية زادت من سطوته ونفوذه . هذا فى الوقت الذى استغل لويس الســادس فرصة النزاع بين أبناء وليم الفاتح ليؤكد تبعية هنرى الاول ملك انجلترا لــه بوصفه دوق نورمنديا (١) .

والواقع أن أعظم خطر هــدد الملكية الفرنسية فى القرنين الحــادى عشر والثانى عشر جاء من ناحية ملوك انجلترا ، الذين جمعوا بين العرش الانجليزى ودوقية نورمنديا . ذلك أن حرب الحدود استمرت بين ملوك فرنسا من جهة والنورمان من جهة أخرى حتى جرح وليم الفاتح سنة ١٠٨٧ جرحــا خطيرا أثناء مهاجمته ضواحى باريس . ثم لجأ هنرى الأول ملك انجلترا (١١٠٠ ـــ ١١٣٥) الى تأليف حلف قوى ضد لويس السادس ملك فرنسا ، وضم الى هذا الحلف أفصاله فى بريتانى وأمراء جزيرة فرنســا الحانقين على ازدياد نفوذ الملكية وأهالى المدن الفلمنكية الذين لم يكونوا على مع أمرائهم ، فضلا عن كونت بلوا Blois . وعلى الرغم من أن الهزيمةحلت أكثر من مــرة بلويس الســادس الا أنه ظل محتفظا بثباته ومركزه (٢) .

وثمة تطور هام يستحق الاشارة فى تلك الفترة ، هو نشاط الحركة القومونية فى شمال فرنسا . ومع أنه لا يوجد ما يثبت أن لويس السادس أيد المدن وشجعها ، الى أنه لا يوجد دليل فى الوقت نفسه على أنه عاكس حركة تحرر المدن وقاومها . وربما كان الأقرب الى الصواب أنه منح كثير من المدن الناشئة براءات ساعدت على تحريرها (٣) .

---

(1) Stephenson : Med. Hist. pp. 400-401.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 280.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 515.

وخلاصة القول ان دعائم بيت كابيه تم تثبيتها عند وفاة لويس السادس سنة ١١٣٧ ، الامر الذى مكن خلفاءه من اقامة دولة قوية على هذه الدعائم (١) .

لويس السابع :

أما لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠) فقد كان مركزه قويا بعد أن ضم اليه اكوتين عن طريق الزواج من وريثتها كما سبق . وقد استغل لويس السابع هذه القوة فى القضاء على ثورة ثيوبولد كونت شامبنى الثائر (سنة ١١٤٧) ، وهى الثورة التى جاءت نتيجة نزاعه مع البابا أنوسنت الثانى (٢) . ويقال ان لويس السابع لجأ فى أثناء القضاء على هذه الثورة الى احراق كنيسة فترى Vitry التى كانت مشحونة باللاجئين ، فاحترق فى هذا الحادث ما يقرب من ألف بين رجال ونساء وأطفال . ويبدو أن هذه الجريمة ظلت تستثير ضمير لويس السابع — وهو الرجل التقى — حتى فكر فى القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه . وكان أن أسهم فى الحملة الصليبية الثانية مصطحبا معه زوجته اليانور سنة ١١٤٧ مما تطلب منه بذل كثير من الأرواح والاموال دون ثمرة .

ويدل تاريخ لويس السابع على أنه لم يتمتع بنصيب من المهارة السياسية التى كانت لأبيه بحيث لم ينقذ الأداة الحكومية فى فرنسا من الانهيار فى ذلك العهد سوى مهارة وزيره شوجر Suger (ت ١١٥٢) الذى كان متقدم دير دنيس ، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا ووزيرا خاصا (٣) . ولم يلبث أن تحقق عدم الانسجام بين لويس السابع — الملك التقى الهادىء — وزوجته المرحة الطروب ، وهى اليانور حفيدة وليم التاسع أحد مشاهير التروبادور فى القرن الثانى عشر . وفى ذلك الوقت كان هنرى الأول ملك انجلترا قد زوج ابنته

---

(1) Painter : A Hist. of the Minddle Ages, pp. 163-164.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 607.

(3) Lavisse : op. cit. Tome. III, Première Partie, pp. 20-23.

من كونت أنجو ، وأنجبت هذه الزيجة هنرى الانجوى . وصادف أن طلق لويس السابع زوجته اليانور صاحبه اكوتين لعدم الانسجام بينهما فى الطباع من جهة ، ولأنها لم تنجب له ولدا ذكرا يحفظ الحكم فى بيت كابيه من جهة أخرى (١) ، فتزوجت اليانور من هنرى الأنجوى السابق الذى اعتلى عرش انجلترا سنة ١١٥٤ تحت اسم هنرى الثانى (٢) . وهكذا أصبحت ممتلكات ملك انجلترا فى صلب القارة تمتد من المانش حتى البرانس مما جعل الصدام بين ملكى فرنسا وانجلترا أمرا لا مفر منه (٣) . وكـان المحك بين لويس السـابع وهنرى الثانى هى مدينة تولوز ، اذ منع الأول ملك انجلترا من الاستيلاء عليها مما أثار الحرب بين الطرفين . وقد شاءت الظروف أن يرتكب هنرى الثانى فى ذلك الوقت فعلته الشنيعة الخاصة بقتل توماس بكت رئيس أساقفة كانتربورى ، مما أثار الشعور العام ضد ملك انجلترا وجعل الكثيرين من نبلاء بريتانى وبواتو وجوين يساندون لويس السابع (٤) . هذا فى الوقت الذى اتبع لويس السابع نفسه سياسة حكيمة فى الداخل والخارج . ففى الداخل لجأ الى ربط الملكية فى فرنسا بالطبقة البرجوازية التى أقـام لها المـدن لتتخذها مسرحا لنشـاطها ولتكون عـونا له على كبار الأمـراء الاقطاعيين (٥) . أما فى الخارج فقد نجح لويس السابع فى تحقيق التفاهم مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، وهو تفاهم أو تحالف ظل قائما مدى ثلاثة أجيال . هذا فى الوقت الذى أثار المتاعب فى وجه هنرى الثانى ملك انجلترا عن طريق اثارة أبنائه ضده . وفعلا ثار أبناء هنرى الثانى الثلاثة الـذين كانوا يشرفون على أملاك التاج الانجليزى فى صلب القارة ضد أبيهم مما أنقذ لويس السابع من خطر الملكية الانجليزية (٦) .

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 250.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 609.

(3) Tout : The empire and the Papacy, p. 268

(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 55.

(5) orton : op. cit. pp. 251-252.

(6) Adams : The History of England, p. 304.

فيليب أوغسطس :

ثم كان أن اعتلى عرش فرنسا فيليب أوغسطس « الثانى » (١١٨٠ — ١٢٢٣) الذى تنبأ له المعاصرون منذ طفولته بالقوة والعظمة . ولم يلبث أن استطاع فيلب أوغسطس التخلص من الاخطاء التى وقع فيها والده ، ومن ثم بدأ يستأنف سياسة جـده فى التمكين للملـكية الفرنسية وبسط نفوذها (١) . لذلك امتاز عهده بازدياد قوة الملـكية فى الداخل والتوسع فى الخارج ، وهى النتائج التى توصل اليها بعد سلسلة من الاصـلاحات الداخلية الواسعة التى منحته قـوة جعلته خطرا على خصومه فى انجلترا ونورمنديا وفـلاندرز وألمـانيا وجنوب فرنسا (٢) . هـذا الى أن فيلب أوغسطس حكم مدة قاربت أربعا وأربعين سنة ، وهى مـدة طويلة تبدل خلالها معظم كبار الأمراء الاقطاعيين فى فرنسا ، مما أتاح للملك فرصـة تأكيد حقوقه الاقطاعية قبل الامراء الجدد . وأخير ينبغى أن نذكر ما كان لفيلب من أخلاق ساعدته على النجـاح ، فقد عرف عنه قـوة العزيمة والثبات والصبر ، وزادة على ما هو عليـه من الذكاء وحسن التقدير ، مما مكنه من مواجهة الصعاب التى اعترضته والتغلب عليها واحـدة بعد أخرى (٣) .

وقد بدأ فيلب أوغسطس عهده باسترضاء هنرى الثانى ملك انجلترا ، ليضمن عدم تدخله فى الحركة التى أزمع القيام بها لاخضاع أمراء فلاندرز وشامبنى وبرجنديا (٤) . وكان أن دخل فيلب فعلا فى حرب طويلة مـع هؤلاء الامراء (١١٨١ — ١١٨٥) حتى أخضعهم لسلطان الملك الذى أصبح يسيطر على المنطقة الغنية الممتدة من فرمانـدوا Vermandois حتى أرتـوا Artois (٥) على أن فيلب أوغسطس كان يدرك تمـاما من أول الأمر أنه من المتعذر عليه تحقيق سطرته على الاقطاعتا الـكبرى

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 424.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 284-285.
(3) Thompson : op. cit. Vol. I, p. 520.
(4) Adams : The Hist. of England, p. 338.
(5) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 87.

فى فرنسا ما دامت ممتلكات التاج الانجليزى فى شمالها وغربها تحد من نفوذ الملكية الفرنسية وتمثل خطرا جاثما عليها (١) . لذلك لجأ فيليب الى كل وسيلة ممكنة — سياسية أو حربية — لاضعاف قوة انجلترا فى القارة . من ذلك أنه عقد تحالفا سنة ١١٨٧ مع فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا (١١٥٢ — ١١٩٠) للوقوف فى وجه خصومها من كبار الاقطاعيين ، وبخاصة الانجويين فى فرنسا والجلفيين فى ألمانيا (٢) . وقد استمر هذا التحالف الذى جعل ملوك أسرة كابيه وآل هو هنشتاوفن فى جانب ، وملوك انجلترا والجلفيين فى الجانب الآخر المضاد ، يلعب دورا عظيما فى السياسة الأوربية حتى موقعة بوفان Bouvines سنة ١٢١٤ . على أن جهود فيليب الثانى ضد الملكية الانجليزية لم تقف عند محالفة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، وانما ، استغل ملك فرنسا عقوق هنرى وريتشارد وجيوفرى وحنا — أبناء هنرى الثانى ملك انجلترا ، وأخذ يساعدهم ضد أبيهم ليضعف نفوذ الملكية الانجليزية عن طريق بث الشقاق بين ملك انجلترا وأبنائه (٣) .

وعندما خلف ريتشارد الأول أباه فى حكم انجلترا (١١٨٩ — ١١٩٩) خرج ليسهم مع فردريك بربروسا وفيليب أوغسطس فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠ . ولم تطل اقامة فيليب بالاراضى المقدسة اذ اعتذر بسوء حالته الصحية وعاد الى بلاده سنة ١١٩١ . ومن الواضح أن الحجة التى احتج بها فيليب أوغسطس كانت شكلية واهية ، وأنه عاد بقصد الحصول على نصيب زوجته فى اقليم فلاندرز بعد أن توفى كونت فلاندرز (٤) . هذا الى أنه انتهز فرصة غياب ريتشارد فى الأراضى المقدسة وحاول الهجوم على نورمنديا ، ولكن أمراءه رفضوا الاشتراك معه لأنه لا يجوز الاعتداء على أراضى صليبى يحارب فى الاراضى المقدسة ، فضلا عن أن هذه الأراضى تعتبر طيلة غياب صاحبها تحت وصاية البابا وحمايته . وعندئذ أخذ فيليب أوغسطس يحرض حنا ضد أخيه ريتشارد

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 291-302

(2) Adams : op. cit. p 347.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p 293.

(4) Cam Med. Hist. Vol. 6. p. 304.

ويعده بمساعدته على تتويجه ملـكا على انجلترا (١) . ويبدو أن أخبار هذه المؤامرات بلغت مسامع ريتشارد فعاد من الشرق بعد أن عقد صلح الرملة مع صلاح الدين ، ولـكنه سلك الطريق البرى من ايطاليـا الى بلاده ، فوقع فى يد دوق أوستريا الذى باعه لهنرى السادس امبراطور المـانيا . وقد عرض فيلب أوغسطس مبلغا كبيرا على الامبراطور ليحتفظ بملك انجلترا أسيرا ، ولـكن الامبراطور أفرج عنه سـنة ١١٩٤ (٢) . وهكذا استطاع ريتشارد العودة الى بـلاده ليستعد للذهاب الى نورمنديا حيث تعرضت مصالحه لخطر كبير أمام تهديد فيلب أوغسطس .

وقـد قضى ريتشارد السنوات الخمس الباقية من حكمه على شاطىء فرنسا ولم يعد الى انجلترا حتى مقتله سنة ١١٩٩ . أما الاعمال التى قام بهـا فى نورمنديا فى تلك الفـترة ، فانه بدأ بهجوم مبـاغت على فيلب أوغسطس قرب فريتفال Fréteval وعندئذ لم ستطع فيلب النجاة الا بصعوبة بعد أن فقد خاتم الملك وبعض الوثائق والأمتعة المهمـة (٣) . ويبدو أن الهزيمة كانت أقسى ضربة تعرض لهـا فيلب أوغسطس فى حياته ، ممـا جعله نسحب من نورمنديا ومين وتورين ، ويطلب عقـد الهدنة مع ملك انجلترا سـنة ١١٩٤ . على أن الحرب لم تلبث أن تحـولت الى فلاندرز لحدوث تطور فى السياسة الامبراطورية (٤) .

ذلك أنه حدث عند وفاة الامبراطور هنرى السادس امبراطور المـانيا سنة ١١٩٧ أن رشـح كل من الجلفيين والجبللينيين فردا يتولى عـرش الامبراطورية ، فاختار الفرق الاول أوتو الرابع دوق برنسويك ابن هنرى الأسد وابن أخت ريتشارد ملك انجلترا ؛ فى حين اختـار الفريق الثانى فيليب دوق سوابيا وهو الاخ الاصغر للامبراطور هنرى السادس خصم

---

(1) Painter : A Hist. of the Midlde Ages, p. 252.

(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 112.

(3) Adams : op. cit. p. 378.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. p. 305.

ريتشارد . وكان من الطبيعى أن تؤيد انجلترا أوتو الرابع مرشح الجلفيين نظرا للظروف السابقة من جهة ولمصالحها التجارية فى شمال غرب ألمانيا من جهة أخرى (١) . وقد اتفقت مع انجلترا فى موقفها كل من فلاندرز وبولونيا Boulogne (٢) أما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد دساند المرشح الاخر وهو فيليب دوق سوابيا ، ولهذا الغرض زحف الى فلاندرز حيث لم يصادفه التوفيق (٣) . ثم أعقبت ذلك هدنة بين الطرفين لمدة سنة استغلها ريتشارد فى بناء حصن جيلارد Gaillard فوق ربوة تطل على نهر السين شمالى روان ، وذلك لحراسة عاصمة نورمنديا من أى اعتداء فرنسى . ولم يلبث بناء ذلك الحصن أن أثارا لعداوة بين الطرفين من جديد ، فهجم فيليب أوغسطس على نورمنديا سنة ١١٩٨ ونجا من الأسر للمرة الثانية بصعوبة (٤) . وأخيرا تدخل البابا ونجح سنة ١١٩٩ فى عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمس سنوات (٥) . على أن ريتشارد لم يلبث أن لقى مصرعه فى تلك السنة السابقة نفسها ، وبذلك تخلص فياب أوغسطس من ألد خصومه وأقدرهم .

فقد خلف ريتشارد فى حكم انجلترا أخوه حنا (١١٩٩ — ١٢١٦) الذى كانت تنقصه الكفاية والقدرة الشخصية اللتين امتاز بهما أخوه ، مما أتاح فرصة لفياب الثانى ملك فرنسا حتى يستمر فى سياسة تفتيت أملاك التاج الانجليزى بالقارة . ولتحيق هذا الغرض أخذ فيلب يستعد بتدبير المال اللازم للحرب من جهة وبتأليب آرثر دوق بريتانى ضد عمه حنا ملك انجلترا من جهة أخرى ، وذلك كما سبق أن ألب أبناء هنرى الثانى ضد أبيهم وألب حنا ضد أخيه ريتشارد . وقد تظاهر فيلب باعترافه بسلطة آرثر فى نورمنديا وبريتانى ، وأخذ يحشد قلاع هذين الاقليمين

---

(1) Barraclough : The Origins of Madern Germany, pp. 210-213.

(٢) على بحر المانش جنوبى كاليه .

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 522.

(4) Tout : The Empire and The Papacy, pp. 394-395.

(5) Adams : op. cit. p. 385.

بالجند الفرنسيين تحت ستار مساعدته ضد عمه (١) . وبعد ذلك تخلى فيليب عن مساعدة آرثر مقابل ثمن مرتفع اضطر حنا الى دفعه ، وهو التخلى عن امرى Evreux لفرنسا ، وعن المحالفات التى عقدها ريتشارد فى ألمانيا وفلاندرز ، فضلا عن دفع مبلغ كبير من المال . وفى الوقت الذى كان حنا ملك انجلترا مفتقرا الى المال وولاء الرجال ، كان فيليب متمتعا بكل ما يعوز خصمه ، فأخذ يستولى على مدن نورمنديا واحدة بعد أخرى عن طريق رشوة حامياتها ، فان لم تنفع الرشوة لجأ الى القوة والقتال . وهكذا لم تكد تنته سنة ١٢٠٥ الا كان فيليب أوغسطس قد اغتصب نورمنديا وانجو ومين وتورين ، فى حين دان لل بالطاعة معظم أمراء بواتو ، بذلك تضاعف أملاك التاج الفرنسى وأمدت الأملاك الجديدة ملك فرنسا بقوة عظيمة وثروة طائلة (٢) .

والواقع أن استيلاء آل كابيه على نورمنديا يعتبر نقطة تحول بالغة الأثر فى تاريخ الملكيات الغربية . فعلى الرغم من خسارة انجلترا الفادحة بضياع نورمنديا الا أنها استفادت بعد أن أصبحت مملكة جزرية قائمة بذاتها ، لا مجرد امتداد لممتلكات ملوكها النورمان فى القارة . أما الأمراء النورمان فقد أصبح عليهم أن يختاروا بين ممتلكاتهم واقطاعاتهم فى أحد جانبى المانش ، ليكونوا أتباعا أما لملك انجلترا أو لملك فرنسا ، بعد أن كانت تبعيتهم موزعة بين الجانبين . وهكذا يمكن القول بأن استيلاء الفرنسيين على نورمنديا يعتبر الخطوة الأولى نحو تبلور القومية الانجليزية (٣) . أما من ناحية فرنسا فقد غدا فيليب أوغسطس بعد استيلائه على نورمنديا يفوق فى قوته أى أمير اقطاعى آخر فى البلاد ، اذ صارت أملاكه تشمل بيكاردى ونورمنديا وأنجو وبواتو وأوفرن ، فضلا عن جزيرة فرنسا . بل ان ملك فرنسا أصبح الرجل الثانى فى أوربا بعد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وذلك بعد أن تضاعف أملاكه وموارده فى الرجال والاموال (٤) .

---

(1) Lasvisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 260.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 253.
(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 472-473.
(4) Orton : op. cit. p. 253.

وقد حرص فيلب فى السنوات العشر التاليــة على تدعيم سلطانه فى هذه الممتلــكات الجديدة التى اغتصبها من التاج الانجليزى ، والاستعداد فيها لمواجهة أى هجوم محتمل من جانب انجلتــرا . ولم تلبث أن لاحت الاخطــار التى توقعها فيليب أوغسطس ، عندما عــاد حنا ملك انجلترا الى بلاده ، ليجمع الأموال اللازمة لاسترداد أراضيه المفقودة فى فرنسا ، وليقيم حلفا ضد ملك فرنسا يضم الأمراء الحانقين عليه مثل كونت فلاندرز ، فضلا عن زعيم الولفيين أوتو الرابع امبراطور المــانيا . وأخيرا تم الاتفاق على أن يقوم الحلفاء بغزو فرنسا من الشمال فى حين يهاجم حنــا ملك انجلترا أنجو من الجــزء الذى تبقى له فى اكوتين (١) . وهــكذا أصبح الموقف خطيرا بالنسبة لفيليب أوغسطس ، ولا سيما أن أوتو الرابع حشد سنة ١٢١٤ قــوة ضخمة فى فلاندرز تبلغ ثمانين الف مقــاتل فى حين أخذ حنا يستميل أمــراء أكوتين . أما فيلب أوغسطس فلم يكن أمامه ســوى أن يعتمد على الشعور الوطنى الذى أخذ يستيقظ فى شمال فرنسا من جهة ، وعلى ما عساه أن يقوم به الهوهنشتاوفن أعداء أوتو فى المــانيا — من جهة أخرى . وكان أن تغلب فيلب أوغسطس على أوتو الرابع وبقيــة الحلفاء الذين هاجموا فرنسا من جهة الشرق فى موقعة بوفان Bouvines (يولية سنة ١٢١٤) ، فى الوقت الذى فشل الهجوم الذى قام به حنــا ملك انجلترا على اللوار (٣) . وهكذا جاء هذا الانتصــار الجديد ليحمى ملوك فرنسا من أى خطر أو تهديد من جانب انجلــترا لاسترداد أملاكها المفقودة فى نورمنديا ومين وانجو . أما Poitou فقد ظلت منطقة انتقال بين الطرفين (٣) .

امتداد النفوذ الفرنسى جنوبا — الحملة الألبيجنسية :

وبينما فيلب اغسطس يعمل على نشر نفــوذه فى الشمال والغرب عن طريق الغزو والسياسة ، اذ بحملة صليبية تتجمع فى شــمال فرنسا

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome. 3, Première, Partie. pp. 166-173.

(2) Adams : op. cit. p. 431.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 395-396.

لتغزو جنوبها ، وتبعا لذلك تمد نفوذ أسرة كابيه على الجنوب أيضـــا . ذلك أنه وجدت فى جنوب فرنسا ثلاثة مراكز سياسية وحضارية كبرى ، هى دوقية اكوتين وكونتيه تولوز وكونتيـــه بروفانس . وكانت الاثنتـــان الاولتان ضمن نطاق المـــكية الفرنسية ،فى حين ظلت كونتيـــه بروفانس وراء الرون لا ترتبط بملك فرنسا .

وهكذا استمر جنوب فرنسا فى شبه عزلة عن شمالهـــا ، وهى عزلة زاد من وقعها الاختـــلاف الحضارى بين الجنـــوب والشمال ، اذ بـــقى الجنوب محتفظا بطابعه الرومانى وتراثه اللاتينى القديم أكثر من أى جزء آخر من أجزاء أوربا ، دون أن يحدث ما يغير الوضع الحضارى لهـــذا الاقليم سوى سيطرة العرب على مصب الرون بين سنتى ٧٨٨ ، ٩٧٢ . على أن تخلص جنوب فرنســـا من سيطرة المسلمين ساعد هـــذا الاقليم الفنى بثروته الطبيعية ونشاطه التجارى ومناخه المعتدل على تشييد بنـــاء حضارى امتاز بالتجديد والعظمة . ويكفى أن جنوب فرنســـا شهد مولد الأدب البروفنسالى الذى تجلى بوضوح فى شـــعر التروبادور فضلا عن ظهور جو من التسامح الدينى وحرية الفـــكر (١) .

وقد أدت هـــذه الحرية وذلك التسامح من جهـــة ، وروح الاستياء العامة من الأوضاع التى تردت فيها الـــكنيسة ورجالها من جهة أخرى ، الى انتشار بعض المذاهب الهرطقية فى جنوب فرنســـا . ذلك أن تولوز والمنطقة المحيطة بها اكتظت عند نهاية القرن الثانى عشر بأعداء سافرين للـــكنيسة ورجالها ، فى حين كان الأمـــراء أنفسهم من الهراطقة أو من مشجعى الهرطقة (٢) . وكان أن ظهر عندئذ مذهبان من المذاهب الهرطقية الخارجـــة عن تعاليم العقيـــدة الـــكاثوليكية وأصـــولها ، أولها مذهب الوالدنســـيين (Waldensian) وثانيهما مـــذهب الـــكاتاريين Catharist أما المذهب الأول فينسب الى بطرس والدو (Peter Waldo) وهو أحـــد

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. I, p. 528.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 397.

تجار ليون فى القرن الثانى عشر ، وهب جميع ثروته لأوجه البر والاحسان وأخذ — حوالى سنة ١١٧٧ — يتجول ، واعظنا للناس بالعودة الى سنن القديسين والرسل الأوائل ، مهاجما رجال الدين وما أصبحوا فيه من ثروة وترف مما يتعارض مع تعاليم المسيحية وروحها (١) . ولم يلبث أن التفت حوله عدد كبير من الفقراء وبخاصة فى جنوب فرنسا واقليم بروفانس حيث أخذ الولدانسيون يهاجمون رجال الكنيسة حتى اتهمته الكنيسة بالخروج عليها وبأنه يفسر الانجيل تفسيرات غير صحيحة ، ولا سيما أن القانون الكنسى يحرم على أى فرد مباشرة الوعظ والارشاد الا باذن من الكنيسة (٢) . وعندما لجأ بطرس والدو الى البابا ليشكو اليه موقف الكنيسة منه ، رأى البابا حسن نيته ، فأقر الوالدنسيين على مذهبهم فى التقشف والحياة البسيطة ، ولكنه حرم عليهم الوعظ الا بأذن من الاساقفة التابعين لهم . على أن بطرس والدو وأتباعه استكشفوا فى العهد الجديد ما ينص على أن الوعظ ركن أساسى من أركان المسيحية (٣) ، فرفضوا الامتثال لرغبة البابا سنة ١١٧٩ ، وقالوا أنهم لا يمتثلون لبشر لأن الطاعة تجب عليهم للرب وحده . وهكذا صدر قرار الحرمان ضد الوالدنسيين ١١٨١ — ١١٨٤ وطردوا من منطقة ليون ، فتحولوا الى فرقة هرطقية ، وأخذوا يباشرون طقوسهم الدينية دون وساطة رجال الدين كما تطرفوا فى اعتناق الآراء الغريبة عن الكنيسة (٤) . وقد مات بطرس والدو نفسه سنة ١١٩٧ ، ولكنه ترك أتباعا كثيرين فى بوهيميا واللورين وجنوب فرنسا وأرغونة وشمال ايطاليا . ولم يلبث أن انقسم هؤلاء الأتباع على أنفسهم وتحولوا الى فرق هرطقية عديدة ، مما أثار فى وجه البابوية مشاكل كثيرة لا حصر لها .

أما أتباع المذهب الثانى فقد أطلقوا على أنفسهم اسم الكاتاريين Cathari أى الأطهار ، وكانت تعاليمهم ذات أصل شرقى وعلى صلة

(1) Lavisse : op. cit. Tome. 3, Première Partie, p. 262.

(2) Cam. Med. HiSt. Vol. 6, p. 707.

(٣) « وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله ديانا للأحياء والأموات » (سفر أعمال الرسل — الاصحاح العاشر — ٤٢) .

(4) Stephensn : Med Hist. p. 445.

بتعاليم المانويين . وبينما اختلف الوالدنسيون مع الكنيسة حول أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية دون أن يعترضوا على تعاليمها الدينية ، اذا بالكاتاريين ينادون بتعاليم تتعارض تعارضا كبيراً مع تعاليم الكنيسة مما جعل الموقف بينهم وبينها مسألة حياة أو موت (١) . ذلك أن مذهبهم لم يقم على أساس التوحيد ، وانما كان مذهبا ثنائيا يقول بوجود الهين أحدهما للخير والآخر للشر ، الأول يحكم العالم الروحى والثانى يحكم العالم المادى (٢) . وبعبارة أخرى فان هذا المذهب قام على أساس الثنائية المطلقة ، فهناك روح ومادة وهناك نور وظلام ، وخير وشر ... (٣) . كذلك نادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس ، الى غير ذلك من الآراء الهدامة . ويبدو أن هذه الآراء انتشرت من شرق أوربا الى غربها — عن طريق التجار حتى وصلت فى القرن الحادى عشر الى لمبارديا وشرقى فرنسا ووسطها وحوض الراين وفلاندرز ، مما هدد الكنيسة وأفزعها فزعا شديدا (٤) . ومن الواضح أن آراء الكاتاريين انتشرت فى الجهات التى تنكر فيها رجال الدين لواجباتهم ووظائفهم . وحيث اشتدت الفوارق بين كبار رجال الكنيسة وصغارهم ، الأمر الذى دفع كثيرا من الطبقات الفقيرة الى الانضمام الى هذه الفرقة حتى ازداد عددهم زيادة كبيرة (٥) . ويبدو أنهم بلغوا درجة كبيرة من الكثرة حول مدينة ألبى Albi فى كونتيه تولوز — مما جعلهم ينسبون اليها ويعرفون باسم الألبيجنسيين Albigensians .

ومهما يكن من أمر ، فقد حاول البابا أنوسنت الثالث اقناع الهراطقة فى أول الأمر بالعودة الى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة ، فأرسل بعض الوعاظ — وعلى رأسهم مقدم ديرستو ، ومندوب من قبل البابا نفسه — الى الجهات الجنوبية من فرنسا . ولكن هؤلاء المبعوثين لم

---

(1) Eyre : op. cit. p. 355.
(2) Lavisse : op. cit. Tome. 3, Première Partie, p. 262.
(3) Cam, Med. Hist. Vol. 6, pp. 701-702.
(4) Ibid.
(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 306.

يوفقوا فى مهمتهم ، ولم يلقوا تشجيعا ومساعدة للقيام برسالتهم ، حتى من جانب الأمراء ، وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز ، الذى امتاز بحبه للطرب والمرح فلم يهتم بشئون الدين والكنيسة (١) . وأخيرا يئس أنوسنت الثالث (سنة ١٢٠٤) من القضاء سلميا على هذا الخطر الذى أخذ يستفحل ويهدد الكنيسة تهديدا خطيرا ، فبدأ يفكر فى الالتجاء الى القوة للقضاء على هؤلاء الهراطقة . على أن ريموند السادس رفض أن يمد يد البابوية بالقوة اللازمة لتنفيذ عزمها ، فلجأ البابا الى فيلب أوغسطس ، وطلب منه أن يقود جيشا ضد الهراطقة ، ولكن ملك فرنسا كان هو الآخر مشغولا عندئذ بالحرب ضد حنا ملك انجلترا فلم يلب نداء البابوية الذى تكرر سنة ١٢٠٥ ، ١٢٠٧ . ويبدو أن فيلب أوغسطس لم يرض عن تدخل البابوية فى شئون فرنسا ، وادعاء البابا حق اخضاع بعض المقاطعات الفرنسية ، بحجة أن هذه المقاطعات خارجة عن تعاليم الكنيسة ، فضلا عن أنه وجد نفسه لا يستطيع مهاجمة بعض أفصاله فى الجنوب والاستيلاء على أراضيهم ، مما يعتبر خروجا على أوضاع العرف الاقطاعى (٢) . وأخيرا لجأ المندوب البابوى الى اصدار قرار الحرمان ضد ريموند السادس ١٢٠٧ ، الأمر الذى ترتب عليه مقتل هذا المندوب فى العام التالى بوساطة أحد رجال كونت تولوز . وعلى الرغم من عدم وجود ما يثبت تحريض ريموند السادس على مقتل المندوب البابوى ، الا أن البابا اعتبره مسئولا عن هذه الجريمة ، فأقرت البابوية قرار الحرمان ضد ريموند السادس ، كما أعلنت انه من حق أى مسيحى أن يستولى على أراضى واموال هؤلاء الهراطقة الخارجين عن أصول الدين (٣) .

وقد تحمس كثير من أمراء شمال فرنسا لتلبية دعوة البابا ، وان ظل فيلب أوغسطس نفسه على موقفه . وهكذا نجحت هذه الحملة الصليبية التى أعد لها البابوية ضد الهراطقة (سنة ١٢٠٩) ، وان كانت قد تحولت الى القضاء على الامراء الاقطاعيين فى الجنوب وعلى رأسهم ريموند

(1) Idem : pp. 310-311.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 314.
(3) Stephenson : op. cit. pp. 446-447.

السادس كونت تولوز الذى حلت به الهزيمة فى سبتمبر سنة ١٢١٣ . ولم تستول هذه الحملة الصليبية على تولوز فحسب بل انزلت الهزيمة أيضا بملك أرغونة بطرس الثانى (١١٩٦ — ١٢١٣) فى موريه Moret سنة ١٢١٣ . وبعد ذلك عقد البابا أنوسنت الثالث مجمعا دينيا بابويا سنة ١٢١٥ قرر اعطاء دوقية تولوز ودوقية ناربون وغيرهما من الامارات الاقطاعية المجاورة ، لسيمون دى مونتفورت أحد أمراء جزيرة فرنسا الذى تولى زعامة هذه الحملة .

أما فيلب أوغسطس الذى ظل بعيدا — فى أول الأمر — عن حوادث تلك الحرب الصليبية ، فانه لم يستطع أن يقاوم نفوذ البابا وقرار المجمع البابوى . ولم لبث فيلب أن خرج عن عزلته تدريجيا ، فسمح لابنه لويس سنة ١٢١٣ بالمشاركة فى حرب الهراطقة الجنوبيين ، كما ساعد سيمون دى مونتفورت فى تدمير الحصون والمعاقل الاقطاعية فى الجنوب (١) . وعلى الرغم من أن سيمون اعترف لفيلب أوغسطس بالتبعية ، الا أن الأخير لم يلبث أن استاء من مسلك الأول المشوب بالكبرياء والعنف . لذلك ساعدت قوات ملك فرنسا المحاولة التى قام بها ريموند السادس لاسترداد أملاكه ، مما أدى الى مقتل سيمون سنة ١٢١٨ ، ثم لم يلبث أن لحق به فيلب أوغسطس سنة ١٢٢٣ .

اصلاحات فيلب أوغسطس :

ولم تكن انتصارات فيلب أوغسطس المصدر الوحيد لشهرته وأهميته فى التاريخ ، لأن اصلاحاته لا تقل أهمية عن تلك الانتصارات . وهنا نلاحظ أنه لم يكن عنيفا مع أفصاله وأتباعه الاقطاعيين ، لأن مشاغله فى الحروب والفتوح حالت دون أن يسلك مسلكا عدائيا تجاه هؤلاء الأفصال ، ومع ذلك فانه لم يترك فرصة تمر دون أن يؤكد نفوذه وسلطانه على الامراء الاقطاعيين . أما موقفه من الكنيسة فيلاحظ أن صداقة فيلب أوغسطس مع البابوية لم تمنعه من تشديد قبضته على الكنيسة

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 277.

فى بلاده ، فأخذ يعمل جاهدا للحد من تدخل البابا فى شئون الكنيسة ، كما ألزم رجالها بدفع ما عليهم من ضرائب والتزامات (١) .

أما فى الناحية الادارية فأول ما يبدو لنا هو أن فيلب أوغسطس كان محاربا وسياسيا أكثر منه اداريا ومشرعا . وهكذا أصبح دوره الرئيسى فى تاريخ فرنسا تقوية الملكية ومضاعفة سلطانها ، لا تنظيم المملكة وشئون الحكم . ومع ذلك فان الظروف تطلبت منه أن يسهم بحجر جديد فى البناء الادارى لفرنسا ، وهو البناء الذى اكتمل فى عهد حفيده لويس التاسع (٢) . ذلك أنه قاوم الاتجاه الذى كان يرمى الى جعل الوظائف الكبرى فى الدولة وراثية ، لما فى ذلك من خطر يهدد كيان الملكية ، كما قلل من نفوذ كبار الموظفين . وقد أوجد فيلب أوغسطس طبقتين من الموظفين الاداريين ، تتألف الأولى من الوكلاء الملكيين (biallis) ومهمتهم الاشراف على العدالة وجمع الايرادات الملكية . وكان يراعى فيهم أن يكونوا من أبناء الطبقة الوسطى لضمان اخلاصهم للملك وارتباطهم به ، فضلا عن مراعاة نقلهم من منطقة الى أخرى قبل أن ينشئوا علاقات مع أهالى المناطق العاملين فيها (٣) . أما الطبقة الثانية فكانت من المديرين الذين عهد اليهم الاشراف على المناطق الواقعة على الحدود قرب الأعداء ، ومن ثم اختير هؤلاء المديرون من الفرسان والبارونات ذوى الخبرة بشئون القتال . وفيما عدا مهامهم الحربية ، قام المديرون بوظائف الوكلاء الملكيين فى مناطقهم وساعدهم فى ذلك عدد كبير من الموظفين والمندوبين (٤) . وقد ساعد فيليب أوغسطس فى الناحية الادارية وزيره والتر الاسبتارى Walter the Hospitaler الذى امتد نشاطه الى جميع فروع الادارة الحكومية فضلا عن شئون الجيش والقضاء . والى جانب هذه الفئة من كبار الموظفين ، وجدت مجموعة من المستشارين — العلمانيين والدينيين — روعى فيهم أن يكونوا من أتباع الملك المخلصين حتى يظلوا بمثابة مجلس استشارى . وكان الملك يضيف الى هؤلاء مجموعة

---

(1) Idem : pp. 211-218.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 404.
(3) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 235.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 254.

أخرى من النبلاء والاساقفة فى حالة الضرورة (١) . وعند دعـــوة هـــذا المجلس ، روعى فى الدعـــوة تحديد مكان الاجتماع وزمانه والغرض منه . ويبدو أن هـــذا المجلس كان يناقش المسائل المعروضة عليه ، كما كان بمثابة هيئة تشريعية وقضائية بحيث لا يتعرض للمســـائل التى تدخل فى الروتين الحكومى العادى . وبعبارة أخرى فانه كان يمثل هيئة استشارية بحتة لا يوجد ما يلزم الملك بقبول قرارتها أو تنفيذها ، لأن الملك كان مصدر جميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية . على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا أنه كان حاكما مطلقا بكل معانى الكلمة ، لأن طبيعة النظـــام الاقطاعى وما ارتبط به هذا النظام من حقـــوق وواجبات كانت تحـــد من سلطة الملك المطلقة (٢) .

أما المدن فكان فيليب أوغسطس أعظم نصير لها ، فحالف أهلها وأظهر عطفا كبيرا على آمالهم ، حتى دخل كثير من المدن الفرنسية الخارجية عن أملاكه تحت حمايته . ولم يكتف فيليب أوغسطس باعطاء تلك المدن براءات تضمن حريتها ، وانما ساعدها فى تقوية أسوارها واستحكاماتها وحماية تجارتها وتشجيع صناعاتها . كذلك شجع التجار الاجانب على التردد على الاسواق الفرنسية وشراء حاجاتهم من انتاجها (٣) . أما باريس فقد أضحت على أيام فيليب أوغسطس أول عاصمة حديثة لدولة مركزية فى أوربا . ذلك أنه شيد لها سورا قويا يضم بين جوانبه القصر الملكى والمدارس والكندرائية والأحياء التجارية والصناعية ، كما عنى برصف شوارع المدينة وطرقاتها (٤) . وفى عهد فيليب أوغسطس حصلت جامعة بـــاريس على أول براءة ملكية ضمنت لها امتيازاتها ، بل حققت لها اعترافا رسميا من السلطة الحاكمة . وهكذا لم تلبث أن ظهرت باريس كمركز لاعظم جامعة شـــمالى الألب فى العصور الوسطى ، وكقاعدة للملكية المركزية الوحيدة فى القارة ، فضلا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 326.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 526.

(3) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, pp. 222-232.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 327-330.

عن كونها ضمنت بعض المبانى القوطية الجميلة التى أخذت تنتشر فى بقية أنحاء فرنسا عندئذ (١) .

وخلاصة القول أن فيليب أوغسطس استطاع — عن طريق القوة والسياسة أن يجعل من فرنسا دولة عظمى ، وأن يجعل الملك على جانب من النفوذ والسلطان دونهما نفوذ أى أمير اقطاعى آخر فى فرنسا . ويكفى أنه أول ملك من أسرة كابيه شعر بأن قوته وسطوته بلغتا درجة من الثبات بحيث لم يعد فى حاجة الى تتويج ابنه فى حياته ليضمن له العرش من بعده (٢) .

لويس الثامن :

وقد خلف فيليب أوغسطس ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ — ١٢٢٦) الذى لم يكن على شىء من المقدرة التى امتاز بها أبوه ، وان ظل حريصا على سياسة والده الخاصة بتكتيل فرنسا وبسط نفوذ الملكية على مختلف أنحائها . ولتحقيق هذه الأهداف فرض لويس الثامن سياسته على أكوتين وان بقيت بوردو خارج قبضته ، كما أظهر رغبة صادقة فى ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا . وفى تلك الأثناء كان قائد الحملة الصليبية الألبيجنسية — سيمون دى مونتفورت — قد قتل سنة ١٢١٨ فتنازل ابنه عمورى للويس الثامن ملك فرنسا عن كل الحقوق التى حصل عليها سيمون من البابوية ، مما دفع لويس الثامن الى القيام بحملة صليبية سنة ١٢٢٦ ضد الهراطقة وان كان هدفها الحقيقى ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا . وقد نجح لويس الثامن فعلا فى تحقيق جزء كبير من هدفه قبل وفاته المفاجئة سنة ١٢٢٦ (٣) .

لويس التاسع (١٢٢٦ — ١٢٧٠) :

وعلى الرغم من أن لويس التاسع كان طفلا فى الثانية عشر من عمره عند وفاة أبيه الا أن ذلك لم يعق تقديم الملكية الفرنسية بفضل وصاية أمه

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy. p. 403.
(2) Idem : Ps. 402-405.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 322-324.

بلانش القشتالية (Blanche of Cactile) . ولم يلبث أن فــاق لويس التاسع أمه فى الصلاح والتقوى حتى سمى القديس لويس (١) .

على أن الأمراء والبارونات الاقطاعيين استغلوا فرصة صغر سن الملك ووصاية أمه للحــد من نفوذ الملكية المتزايد . ولتحقيق ذلك دبر البارونات أكثر من مؤامرة ضد الملك الصغير وأمه ، ولعل أهمها تلك المؤامرة التى حيكت سنة ١٢٢٩ التى تزعمها دوق برجنديا وكونتات بريتانى وشامبنى ولامارش ، يؤيدهم هنرى الثالث ملك انجلترا . ولكنها باءت بالفشــل بفضل حــزم بلانش ــ الملكة الوالدة ــ من جهة ، ومساعدة البابوية ــ الحليفة الطبيعية لأعداء الهرطقة الألبيجنسية ــ من جهة أخرى (٢) . وهكذا استمرت الأوضاع حتى انتهت فترة الوصاية سنة ١٢٣٥ .

ولم يحاول لويس التاسع أن يستفيد من الدروس التى تلقاها أسلافه ، فدفعته حماسته الدينية الى القيام بالحملة الصليبية الشــهيرة المعروفة بالسابعة ، على الرغم من معارضة أمه ونصح وزرائه . وقد قضى لويس التاسع عــدة سنوات فى الاستعداد لهذه الحملة حتى أبحر سنة ١٢٤٨ قاصدا مصر ، بعد أن أصبحت العقيدة السائدة عند الصليبيين عندئذ أن مصر هى المفتاح الموصل للسيطرة على بيت المقدس (٣) . وبعد أن اســتولى لويس التاسع على دمياط سنة ١٢٤٩ ، تقدم نحــو القاهرة حيث حلت الهزيمة بجيشه قرب المنصورة نتيجة لجهل الصليبيين بأحوال البلاد وطبيعتها فى حين وقع لويس التاسع نفسه أسيرا فى أيدى المسلمين ولم يطلق سراحه الا بعد أن دفع فدية ضخمة .

واذا كان لويس التاسع ملكا متدينا حى الضمير ، فان ذلك دفعه الى التسليم بحقوق غيره مثلما تمسك هو بحقوقه . وفى ضوء هذا الاعتبار اختار

---

(1) Idem, p. 331.

(2) Orton : op. cit. p. 332.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 357.

لويس التاسع أن يسالم هنرى الثالث ملك انجلترا بدلا من محاولة طـرد الانجليز من جاسكونى (١) .

ويبدو أن هـذه السياسـة لم تـؤد فقط الى اقرار صلح بـاريس بين فرنسا وانجلترا سنة ١٢٥٩ بعد فترة طويلة من الحروب المتقطعة بين الدولتين ، بل دفعت هنرى الثالث أيضا الى التنازل عن كل حقوقه الاسمية فى نورمنديا وأنجلترا ، ومين وتورين وبواتو ، وان أصر على الاحتفاظ بملكية جـوين وجاسكونى وليموسان وكويرسى وبريجورد ، على أن تـؤدى جميعها فروض التبعية لملك فرنسـا وتتعهد بعدم المشاركة فى أية ثـورة ضده (٢) . وهكذا يمكن القول بأنه ـ بصرف النظر عن حماسة لويس التاسع الصليبية ـ فان سياسته الخارجية اتسمت بطابع المسالمة ، فلم يحاول أن يستغل الظروف السيئة التى أحاطت ببيت هوهنشتاوفن ليحقق لنفسـه مكاسب خاصة ، ورفض أن يقحم نفسه فى النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فلم يستجب الى تحريض البابا فى مهاجمة فردريك الثانى ولم يخضع لرأى الأخير ويسلمه البابا انوسنت الرابع (٣) ، وهذا فضلا عن أنه لم يفكر فى استـغلال سـوء أحوال انجلترا ليعتدى على أملاكها فى فرنسـا (٤) . واذا كان لويس التاسع قـد استطاع أن يجعل من فرنسـا فى أواخـر عهده أقوى دولة فى أوربا ، فاننا يجب أن نقدر الظروف الخارجية التى سـاعدت على ابراز هـذه الحقيقة ، وأهمها حـرج مركز الامبراطورية الألمانية من جهة وسـوء أحـوال الملكية الانجليزية من جهة أخرى (٥) .

أما فى الداخل ، فان لويس التاسع حرص كل الحرص على احترام حقوق أفصاله من كبار الأمراء الاقطاعيين ، فى الوقت الذى احتفظ بسلطانه الملكى وحقوقه العليا فى السيادة على الدولة . وفى ذلك الوقت كان كبار الأمراء الذين أتعبوا أسلافه فى القرن الثانى عشر قـد ماتوا ، وخلفهم خلف

---

(1) Painter : A History of the Middle Ages, p. 257.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 358.
(3) Tout : The Empire and the Papacy pp. 420-421.
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 476.
(5) Tout The Empire and the Papacy, p. 241.

ضعيف من الأمراء الذين لم يحاولوا أن يسببوا متاعب كثيرة للملكية (١) . لذلك لا عجب اذا رأينا عهد لويس التاسع وقد امتاز باصلاحات متعددة فى النواحى الادارية والقضائية والمالية ، وأن كان من الملاحظ أن ذلك العهد لم يشهد مولد نظم جديدة بقدر ما شهد تطور النظم القديمة السائدة . وكان محور السلطة المركزية فى ذلك العصر — سواء فى فرنسا أم انجلترا — هو المجلس الاقطاعى للملك Curia Regis الذى تألف فى جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين ، ينضم اليهم أفصال الملك فى حالة الشروع فى اعلان الحرب أو زيادة الضرائب أو غيرها من المسائل المهمة (١) . وعندما ازداد عدد أعضاء هذا المجلس فى القرن الثالث عشر أخذ ينقسم الى عدة لجان لكل منها مهمته ، مثل الهيئة التى اختصت بالايرادات الملكية Chambre des Comptes والهيئة الخاصة بالقضاء أو المحكمة الملكية فى باريس Parlement وغيرهما . أما ممتلكات الخاصة الملكية والاراضى الاقطاعية الخاصة بالملك ، فقد عهد بالاشراف عليها الى وكلاء ملكيين Bailis ولكى يتأكد لويس التاسع من حسن سير الجهاز الحكومى ، دأب على أرسال مندوبين ملكيين (anquêteurs) لسماع شكاوى الأهالى والتحقيق فيها فضلا عن التفتيش على الحكام المحليين ، مما جعلهم شديدى الشبه بالمبعوثين Missi على أيام شارلمان (٣) . وقد تمسك لويس التاسع بحقه فى أن تستأنف أمامه كافة القضايا على أن يكون رأيه نهائيا وملزما حتى لكبار الأمراء الاقطاعيين ، كما حدد عددا معينا من الجرائم يجب أن يكون الفصل فيها من اختصاص القضاة الملكيين وحدهم . أما فى الناحية المالية فقد جعل العملة الملكية صالحة للتداول فى جميع أنحاء فرنسا ، فى حين لا تسرى العملات الخاصة التى أصدرها كبار الأمراء الا فى اقطاعاتهم وحدها ، الأمر الذى ضمن البقاء والفوز النهائى للعملة الملكية (٤) . كذلك اهتم لويس التاسع برعاية

---

(1) Orton : op. cit. pp. 333-334.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 335.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 424.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 336-338 & 351.

التجارة وحماية التمونات ونشر الامن والسلام ،. مما مكن التجار من البيع والشراء فى يسر وطمأنينة ، هذا فضلا عن عدة مدن أقامها لويس التاسع فى الجنوب (١) .

أما سياسة لويس التاسع تجاه الكنيسة فقد قامت على أساس حمايتها من جشع الأمراء الموظفين الملكيين ، واعطائها كل مالها ، وفى الوقت نفسه تمسك بحقوق الملكية تجاه الكنيسة وحرص على استخلاص هذه الحقوق كاملة غير منقوصة ، فلم يسمح لها بالتدخل فى الشئون العلمانية وفرض عليها دفع الأموال المطلوبة منها بانتظام (٢) . وقد حظى رهبان منظمتى الفرانسسكان والدومنيكان بمكانة خاصة عند لويس التاسع على حساب غيرهم من أفراد المنظمات القديمة ، فضلا عن رجال الكنيسة العلمانيين (٣) .

وهكذا أخذ لويس التاسع يعمل على تنظيم الادارة واقرار العدالة والمساواة فى جمع الضرائب ، مما جعل الفترة الاخيرة من حكمه — بعد عودته من الاراضى المقدسة سنة ١٢٥٤ — تمتاز بالسلام الشامل . ولم يحدث فى تلك الفترة ما يعكر صفو السلام والأمن الداخلى ، وانما أخذ الملك ينتقل من اقليم الى آخر ومن مدينة الى أخرى فى ظل ادارته الصالحة ، وما عرف عنه من عطف وبر بالضعفاء والمحتاجين . لذلك لا عجب اذا امتاز ذلك العهد بالتقدم الحضارى الكبير فى ميادين العلوم والفنون ، فأخذت جامعة باريس الناشئة تحظو بالدراسات المتنوعة الى الأمام ، فى حين بلغ الفن القوطى عصره الذهبى ، كما يبدو فى كندرائيات ذلك العصر وعلى رأسها كتدرائيات أميان وبورج وبوفيه (٤) .

على أن افراط لويس التاسع فى التقوى والتدين كانت له نتائج هدامة من بعض الوجوه ، اذ دفعه ذلك الى التطرف فى اضطهاد اليهود والهراطقة ،

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, 76.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 350.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 422-423.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 539-540.

والى السماح باتخاذ أعنف الاجراءات ضد الألبيجنسيين فى الجنوب ، مما أثر فى الحضارة البروفنسالية تأثيرا سيئا للغاية (١) . وعلى الرغم من أن حملة لويس التاسع الصليبية على مصر سنة ١٢٤٩ لم تأت بثمرة سوى الخسارة الفادحة فى الأرواح والأموال (٢) ، فان لويس التاسع سرعان ما نسى الدرس القاسى الذى أخذه قرب المنصورة سنة ١٢٤٩ وأخذ يفكر فى أواخر أيامه فى القيام بحملة صليبية جديدة . وكانت وجهة هذه الحملة تونس فى شمال افريقية ، حيث أرسى أسطول لويس التاسع سنة ١٢٧٠ فى وقت من أسوأ فصول السنة . ومن الواضح أن لويس لم يكن عندئذ فى سن تمكنه حتى من ركوب فرسه ، الامر الذى عجل بوفاته فى السنة السابقة نفسها ، وبذلك فقدت فرنسا أبرز من جمع بين المواهب الخلقية والسياسية فى مسلسلة ملوكها العظام (٣) .

فيليب الثالث :

وبعد لويس التاسع حكم ابنه فيليب الجرىء أو الثالث (١٢٧٠ — ١٢٨٥) الذى يعتبر عهده عديم الأهمية ، اللهم الا من ناحية انه يمثل مرحلة انتقال بين الملكية الاقطاعية التى ميزت عهد سلفه لويس التاسع ، والملكية القومية التى ميزت عهد خلفه فيليب الرابع . وهنا نشير الى أن القومية بمعناها الحديث الذى نعرفه ، لم يكن لها وجود فى العصور الوسطى (٤) ، وكل ما هنالك هو أن انهيار النظام الاقطاعى ونشأة المدن وظهور الآداب واللغات الجديدة ، كل ذلك جعل ملوك أوربا فى أواخر العصور الوسطى يرفضون فكرة خضوع العالم لسلطة امبراطورية عليا ، وهى الفكرة التى طالما هيمنت على العصور الوسطى . وهكذا أخذ كل ملك يباشر سلطانه ويثبت نفوذه على أنه يستمد ذلك السلطان والنفوذ من الله مباشرة مما جعل الملوك يتجهون فى بلادهم اتجاها محليا ، لا عالميا .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 347.
(2) Orton : op. cit. p. 337.
(3) Lodge : The Close of the Middle Ages, p. 46.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 306.

وعلى الرغم من عـــدم كفاية فيليب الثالث ، الا ان الملكية الفرنسية استمرت فى تقدمها بفضل الطاقة التى زودها بها ملوك فرنسا السابقين ، مما جعل عهد فيلب الثالث لا يبدو مظلما على طول الخط . ولعـــل أبرز ما فى هذا العهد أن المـــلكية الفرنسية نجحت فى ضـــم ثلاثة أقاليم مهمة ظل اثنان منها فى حوزة التاج الفرنسى . ذلك أنه كان من جملـــة الذين هلكوا فى حملة لويس التاسع الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠ ألفونس أمير بواتيه وزوجته دون أن يتركا وريثا ، فاستولى التاج الفرنسى على أملاكهما الواسعـــة فى تولوزوبواتو Boitou وأوفـــرن Auvergne وبروفاس (١) . ثم حدث سنة ١٢٧٤ أن توفى هنرى ملك نافارى وكونت شامبنى وبرى Brie تاركا طفلة صغيرة فى الثالثة من عمـــرها ، أخذتها أمها الى البـــلاط الفرنسى طالبة حمـــاية فيلب الثالث . وسرعان ما انتهز ملك فرنسا الفرصة فأسرع باحتلال شامبنى وبرى وضمهما الى التاج الفرنسى ، فى الوقت الذى وافـــق البابا على زواج أرمـــلة هنرى من فيليب ابن ملك فرنســـا الـــذى اعتلى العـــرش تحت اســـم فيليب الرابع (٢) .

فيليب الرابـــع :

أما فيلب الرابع أو الوسيم (١٢٨٥ — ١٣١٤) فقد امتاز ببعد النظر وقوة العزيمة والمهارة السياسية . وقد اتجهت سياسته نحو توحيد فرنسا تحت سيادة الملك ومد حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوربا (٣) . لذلك أعلن منذ اعتلائه العرش أن الحدود الطبيعية لبـــلاده هى الراين والألب والبرانس ، وبناء على ذلك أخذ يعمل على ضم الجهات التى ظلت خارج نفوذه . وقد رأينا أن التاج الفرنسى ضم شامبنى عن طريق زواج فيليب الرابع من صاحبتها . ولما كانت بريتانى فى شبه عزلة ، فان فيليب أخذ يتطلع الى جوين وجاسكونى ، اللتين كانتا لا تزالان مملوكتين لملك انجلترا ، مع اعترافه بالتبعية فيهما لملك فرنســـا . ثم كان أن تصادمت

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 111.
(2) Lodge : The Close of the Middle Ages, pp. 47-48.
(3) Orton : op. cit. pp. 358-359.

المصالح الانجليزية والفرنسية أيضا فى اقليم فلاندرز ، الذى كان من أهم المراكز الصناعية والإتجارية فى غرب أوربا (١) . فانجلترا التى لم يكن قد تم تصنيعها بعد ، اعتادت أن تصدر الصوف الخام من يوركشير الى فلاندرز حيث يتم صنعه وتسويقه ، فى حين تجبى الملكية الانجلزية ايرادها الأساسى من الضريبة المفروضة على الصوف المصدر الى فلاندرز (٢) . وكان دوق فلاندرز تابعا للتاج الفرنسى فى حين كانت مدن ذلك الاقليم حرة من الناحية العملية ، ويميل أهلها الى انجلترا بحكم ارتباطهم بها اقتصاديا . هذا كله فضلا عما كان هناك من تنافس بين الانجليز والفرنسيين حول مصايد الاسماك فى بحر الشمال مما أثار كثيرا من الاشتباكات بين الصيادين الفرنسيين والانجليز فى بحر الشمال وحرك شكوك الملكية فى كل من البلدين (٣) .

وأخيرا حدث سنة ١٢٩٣ أن اعتدى بعض صيادى جاسكونى على الصيادين النورمان ، ورفض الفريق الأول الامتثال لأحكام المحاكم الفرنسية، مما جعل فيليب الرابع ملك فرنسا ينتهز فرصة المتاعب الداخلية التى تعرض لها أدوارد الأول ملك انجلترا (١٢٧٢ — ١٣٠٧) ويستدعيه للحضور أمامه لاستجوابه بشأن اخلاله بتعهداته الاقطاعية (٤) . على أن ادوارد كان مشغولا عندئذ بحرب الاسكتلنديين ، فوعد بالحضور فى وقت آخر قريب ، وأرسل أخاه ادموند بدله ، كما سلم لفيليب بعض القلاع الواقعة على الحدود فى جوين ضمانا لحضوره (٥) . ويبدو أن ادوارد لم يستطع الحضور الى باريس فى الوقت المحدد ، مما أساء الى العلاقة بين الطرفين فلجأ فيليب الرابع الى التمسك بالقلاع التى أخذها ، فى حين رد عليه ادوارد باعلان تحلله من ولائه لملك فرنسا ، كما عمل تحالفا مع بعض الأمراء الألمان والفلمنكيين ضده . أما فيليب الرابع فرد على ذلك

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 320.

(2) Perroy : La Guerre de Cent Ans, pp. 16-18.

(3) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 296.

(4) Lodge : op. cit. p. 51.

(5) Perroy : op. cit. p. 45.

بالتحالف مع سكتلند ضد ملك انجلترا ، ثم احتل جوين وهاجم كونت فلاندرز حليف ادوارد سنة ١٢٩٧ ، حتى انتهى الموقف بصلح مؤقت بين الطرفين سنة ١٢٩٨ بفضل وساطة البابا بونيفيس الثامن ، فتخلى ملك انجلترا عن مساعدة كونت فلاندرز وتخلى ملك فرنسا عن مساعدة سكتلند . ولم يلبث أن ثار أهالى فلاندرز من الفلمنك ضد الحكم الفرنسى فذبحوا كثيرا من الفرنسيين ، كما هزموا القوات الفرنسية سنة ١٣٠٢ عند كورتراى Courtrai وأخيرا اضطر فيلب الرابع الى عقد صلح نهائى مع ادوارد الأول سنة ١٣٠٣ على أساس أن يعود كونت فلاندرز الى حكم بلاده وأن تسترد انجلترا جاسكونى وجوين (١) .

ولكن يبدو أن أطماع فيلب الرابع فى فلاندرز كانت لا يمكن أن تنتهى بهذه السرعة ، فلم يلبث بعد أن اطمأن الى وفاة بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٣ أن عاد الى محاولة اخضاع الفلمنكيين ، ونجح فعلا فى الانتصار عليهم ، ولكنه لم يحرز نصرا حاسما . وسرعان ما استطاع أهالى فلاندرز تعبئة قواهم مما جعل ملك فرنسا يعجل بالصلح سنة ١٣٠٥ .

أما عن العلاقة بين فيلب الرابع والبابوية فكان محورها الأساسى البابا بونيفيس الثامن الذى كان أهم شخصية فى عصره ، حتى لقب بأنه آخر بابوات العصور الوسطى العظام (٢) . كان هذا البابا (١٢٩٤ — ١٣٠٣) قد شب فى أيام سطوة البابوية وقوتها ، ومن ثم لم يستطع أن يتفهم الأوضاع الجديدة التى أخذت تلم بالعالم الأوربى ، وانشأ يباشر سلطاته البابوية على أوسع مدى ، مما جره الى التدخل فى شئون النبلاء والملوك المعاصرين (٣) . وعندما أشرك فيلب الرابع — ملك فرنسا — رجال الكنيسة فى دفع الضرائب التى قررها لمواصلة الحرب ضد انجلترا سنة ١٢٩٤ ، احتج رجال الكنيسة على هذا العمل وشكوا

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 300.

(2) Lodge : op. cit. p. 28.

(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 44-45.

الى البابوية . والواقــع أن أهم مشكلة واجهت الملــكيات الأوربية عند نهاية القــرن الثالث عشر كــانت الحاجة الى المال لمواجهة نفقات الدولة المتزايــدة من جهة ونفقات الادارة وكثرة الموظفين من جهــة أخــرى . وفى حالة فرنسا بالذات جــاء عامل جديد هــو حــرب فلاندرزا الطويلة التى تطلبت من فيليب الرابع الالتجاء الى طرق جديدة — لا تخلو من عنف — فى جمع الأموال ، حتى من الكنيســة (١) .

لذلك أصدر البابا بونيفيس الثامن قرارا ســنة ١٢٩٦ ببطلان حق الملوك فى فرض ضرائب على الممتلكات الكنسية دون اذن البابوية ، وهــدد بتوقيع قرار الحرمان على كل من يخالف هــذا القرار (١) . وقــد استاء ملكــا فرنســا وانجلترا من هذا القرار الذى يعتبر محاولة من البابــوية للعودة الى أوضاع القرن الثانى عشر . وسرعان ما اتخذ استياء ادوارد الأول ملك انجلترا صورة نزاع مع رئيس أســاقفة كانتربورى ، فى حين أدى استياء فيليب الرابع الى صدام مباشر بينه وبين البابا بونيفيس الثامن نفسه (٣) . ذلك أن فيليب الرابع حرم على جميع الأجانب دخول فرنسا ، وبذلك حال دون وصــول المندوبين البابويين ، كما حــرم تصدير الذهب والفضة والنقود خــارج فرنســا مما أدى الى قطع الموارد المالية التى تصل الى البابوية من فرنسا (٤) .

وكان من الطبيعى أن يحتج بونيفيس الثامن على اجــراءات فيليب الرابع فدعــا الى عقد مجمع من رجال الدين لاتخاذ قرار ضــد الملكية الفرنسية (٥) . ولكن فيليب الرابع حال دون خروج أى واحد من رجال الدين الفرنسيين الى روما ، كما دعــا مجلس الطبقات States General لأول مرة فى التاريخ الفرنسى (ابريل سنة ١٣٠٢) . وقــد أقــر النبلاء فى ذلك المجلس السلطة الزمنية للتاج ، فى حين كتب رجال الدين الى البابا

---

(1) Orton : op. cit. pp. 360-361.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, p. 45.
(3) Tout : The Hist. of England. pp. 200-201.
(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 132.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 313.

بونيفيس الثانى ينصحونه بعدم عقد المجمع الذى نادى به (١) . ولكن المجمع البابوى لم يلبث أن عقد سنة ١٣٠٢ ، وحضره بعض رجال الدين الفرنسيين على الرغم من الاجراءات المشددة التى اتخذها فيليب الرابع ، مما عرضهم لمصادرة أملاكهم . وقد أقر ذلك المجمع السيادة الروحية والزمنية للكنيسة الأمر الذى أثار فيليب الرابع وجعله يوجه الى البابا بونيفيس الثامن كثيرا من الاتهامات كما دعـــا الى عقـــد مجمع لمحاكمته (٢) . ثم حدث فى الوقت الذى كان بونيفيس يتأهب لاصدار قرار الحرمان ضد فيلب أن تمكن أتباع الأخير من القبض على البابا واهانته ، بحيث لم يستطع البابا الخلاص الا بصعوبة ، ثم مات فى روما سنة ١٣٠٣ . وبوفاة بونيفيس الثامن انطوت آخر صفحة فى تاريخ البابوية بمعناها العظيم الذى عرفته العصور الوسطى ، لأنه على الرغم من اتهامه بالمحسوبية والمحاباة وعلى الرغم من أن دانتى جعله من أهل الجحيم ، الا أنه كان مشرعا عظيما واداريا كبيرا ، بحيث أن فشله لا يرجع الى نقص فى مواهبه بقدر ما يرجع الى عدم استطاعته تفهم الروح الجديدة التى ســادت المجتمع الأوربى فى أواخر العصـــور الوسطى (٣) . وقـــد جـــاء بعد بونيفيس الثامن البابا بندكت الحـــادى عشر (١٣٠٣ — ١٣٠٤) الذى كان رجلا معتـــدلا فسحب القرارات التى سبق أن صدرت ضد ملك فرنسا (٤) . ثم جاء البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤) فسمح لفيليب الرابع بفرض ضريبة عشرية لمدة خمس ســنوات على ممتلكات الكنيسة الفرنسية . وفى سنة ١٣٠٩ اختار كلمنت الخامس افينون مقرا له يباشر منه مهام منصبه البابوى ، وبذلك بدأت فترة الأسر البابلى التى سنتكلم عنها فيما بعد .

ويتضح مما ســبق أن فيليب الرابع لم يحقق نتائج ناجحة تستحق الذكر فى نشـــاطه الخارجى ، اذ انتهت محاولاته فى ضم اكوتين وفلاندرز

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 149-150.

(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome, 1, pp. 49-50.

(3) Eyre : op. cit. pp. 465-466.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 316.

بالفشل ، ولم ينجح الا فى ضم ليون سنة ١٣١٢ . واذا كان قد حقق انتصارا على البابوية فان هذا الانتصار تم عن طريق وسائل غير مشرفة ، هذا فضلا عن أن اقامة البابوية فى أفينون لم تحقق فوائد ثابتة لفرنسا . وهكذا يبدو أنه اذا كانت ثمة أهمية لعهد فيليب الرابع فى التاريخ ، فان هذه الأهمية تنبع من ارادته الداخلية وجهوده فى تحسين هذه الادارة والتخلص من جميع العقبات التى حالت دون سيطرة الملك على دولته سيطرة تامة (١) . وهنا نلاحظ أن الفارق الأساسى بين الدولتين الانجليزية والفرنسية فى هذه الحقبة هو أن الأولى دانت كلها لملوكها الذين غزوها وفرضوا عليها نظما حربية وقضائية ومالية موحدة ، فى حين تم بناء فرنسا لبنة بعد أخرى ، اذ لم يكن لملوكها فى أول الأمر سوى الجهات المحدودة المعروفة باسم جزيرة فرنسا ، ومن ثم أخذوا يبسطون سيطرتهم تدريجيا على كبار الأمراء فى الجهات المجاورة . ولهذا السبب ظلت فرنسا لا تخضع لقانون عام موحد حتى ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩ (٢) .

ويبدو أن فيليب الرابع اضطر بحكم حاجته المستمرة الى المال اللازم لمواصلة حروبه الى اتخاذ بعض الاجراءات التعسفية . ومن ذلك أنه طرد جميع رجال المال والصيارفة اللمبارديين من فرنسا سنة ١٢٩١ ، كما صادر ممتلكاتهم . أما اليهود فقد قام فيليب الرابع فى أول الأمر بحمايتهم مقابل مقاسمتهم أرباحهم . وكان اليهود فى تلك الحقبة من العصور الوسطى يمثلون طبقة رجال المال فى أوربا والشرق . حقيقة انهم انتشروا فى بلاد واسعة متعددة ، ولكن ربطت بينهم ثلاث روابط هى الدين والدم والمال . وهكذا جمعوا ثروات طائلة عن طريق الاشتغال بالأعمال المالية واقراض الهيئات الكنيسية لاتمام منشآتها الضخمة ، أو اقراض الفرسان والأمراء لتنفيذ مشروعاتهم الصليبية ، وذلك بفوائد مالية باهظة ، منتهزين فرصة تحريم الكنيسة على أتباعها أكل الربا (٣) . وأخير استغل فيليب الرابع الكره

---

(1) Lodge : The Close of the Middle Ages, pp. 49-50.

(2) Stephenson : Med. Hist. p. 495.

(3) Orton : op. cit. pp. 631-632.

الاجماعى لليهود وصادر أملاكهم وطردهم من بلاده سنة ١٣٠٦ (١) . ولكن فيلب الرابع لم يلبث أن أدرك ما ترتب على طرد اليهود من اضطراب أصاب التجـارة الفرنسية ، مما جعله يسـمح لبعضهم بالعودة ، وان كان قـد عاد الى طردهم ثم ارجاعهم أكثر من مرة (٢) . ويبدو من استعراض تاريخ مختلف البلدان الأوربية فى تلك الفترة أن هذه المعاملة السيئة التى لقيهـا اليهود من فيلب الرابع لم تكن أمرا شاذا فريدا من نوعه . ذلك أن جشعهم وحبهم للمال وسيطرتهم على الحياة الاقتصـادية دفعت ادوارد الأول ملك انجلترا الى طردهم أيضا من بلاده ومصادرة أملاكهم سـنة ١٢٩٠ (٣) ، كما لجأ أمراء ألمانيا وملوك أسبانيا والسلطات الحاكمة فى المدن الايطالية الى اتخاذ مثل هذه الاجراءات ضد اليهود (٤) .

ولم ينج الداوية — وهم أفراد أحدى المنظمات التى اسهمت بنصيب واضح فى الحروب الصليبية — من أطمـاع فيلب الرابع . وكانت منظمـة الداوية قد فقدت أهميتها العسكرية منذ سـقوط عكا فى أيدى المـمـالك سـنة ١٢٩١ ، ولكنها ظلت بعد ذلك تقوم بنشـاط مصرفى ومالى واسـع در عليها ثروة طائلة . والواقع أنها أضحت أشبه شىء بتنظيم سرى يحوطه الغموض ، ويعيش أفرادها فى رفاهية ونعيم بعد أن انصراف معظمهم الى المصالح الدنيوية (٥) . وقد اقترح بعض البابوات ضم هذه المنظمـة الى هيئـة أخرى حصلت على صيت ذائع فى عصر الحروب الصـليبية ، وهى الاسـبتارية التى ظل أفرادها يقومون بكثير من أعمال البر والاحسان (٦) . ولكن فرسـان الداوية عارضوا فكرة ادماج الهيئتين بعضهما فى بعض ، بعد أن الفوا حياة الدعة والراحة حتى أتخمتهم الثروة واتصـفوا بالكبرياء

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 74-75.

(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 222-226.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 655.

(4) Tout : The Hist. of England, pp. 175-176.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 316-317.

(6) Stephenson : Med. Hist. pp. 501-502.

والغطرسة . ثم كان أقدم البـــابا كلمنت الخـــامس على التحقيق فى مسلك الداوية لمحاكمتهم ، وعندئذ انتهز فيلب الرابع ملك فرنســـا ســـنة ١٣١٠ فأحرق أربعة وخمسين من فرســـانهم فى باريس ، ثم أصدر أمرا سنة ١٣١٢ بحل هيئة الداوية ومصـــادرة أملاكها . وفى ســـنة ١٣١٤ أحرق مقدمهم جاك دى مولاى Jacques De Molai (١) ، وبذلك انحلت هيئتهم وتفرقوا فى البلاد . ويبدوا أن الاضطهاد الذى حل بالداوية جعلهم يعتنقون بعض المذاهب الهرطقية التى أدانهم بهـــا البابا كلمنت الخامس (٢) .

ثم ان حاجة فيليب الرابع الى الأموال لم تدفعه الى التعســـف فى جمعها فحسب ، بل أيضا الى تغيير العملة والتلاعب فى قيمتها (٣) . كذلك فرض ضرائب على المبيعات مما أدى الى تدهور أهمية أسواق شامبنى العظيمة . هـــذا فضلا عن الضرائب غير المباشرة التى فرضها على الواردات والصادرات بعـــد أن توصل الى حقيقة مهمة ، هى استغلال الضرائب فى تنظيم عملية التجارة . وهكذا لجأ الى فرض ضريبة على الأصواف الانجليزية والفلمنكية لحماية الانتاج المحلى والمســـاعدة على ترقيته . كذلك فـــرض فيليب الرابع ضرائب على الهيئات الخاصة مثل النقابات والأديرة والجامعات وأراضى البارونات والطبقة البورجوازية . أما المدن فقد فرض على كل منها مبلغا معينا كبيرا من المال ، ومنح البلـــديات حـــرية فى جمع الضرائب من الأهالى (٤) .

أما فى الناحية الادارية والتشريعية فان فيليب الرابع فصل من الهيئة القضائية المعروفة باســـم برلمان باريس بقية الاقطاعيين ، وأحل محلهم مجموعة من القانونيين الذين درسوا القانون الرومانى وتشبعوا بما فيه من حب للملكية واعتراف بسيادتها (٥) كذلك أنشأ محكمة أو غرفة مالية

---

(1) Lodge : op. cit. p. 56.

(2) Cam. Meed. Hist. Vol. 7, pp. 318-319.

(3) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxième Parte, p. 233.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 324-325.

(5) Lavisse : op. cit. Tome. 3, Deuxième Partie, p. 330.

الغرض منها الفصل فى المنازعات التى تقوم حول الضرائب وغيرها من الاشكلات المالية . على أن أهم من هذا كله كانت دعوة فيليب الرابع لمجلس طبقات الأمة لأول مرة سنة ١٣٠٢ ، وهو المجلس الذى كان له أثر خطير فيما بعد فى تاريخ فرنسا (١) . ذلك أن فيليب الرابع دعا ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث — رجال الدين والنبلاء والبورجوازيين — وتكررت هذه الدعوة أكثر من مرة ، مثلما حدث سنة (١٣٠٢ — ١٣٠٣) أثناء نزاعه مع البابا بونيفيس الثامن ، وسنة ١٣٠٨ عند حل منظمة الداوية ، وسنة ١٣١٤ عندما احتاج الى أموال للحرب فى فلاندرز (٢) .. ويبدو من التجاء فيلب الرابع الى دعوة هذا المجلس أنه كان يقدر ما للرأى العام من أهمية وقوة . وعلى الرغم من أنه لم يسمح لاعضاء مجلس طبقات الأمة بمناقشة القوانين ، الا أنه سمح لهم برفع آرائهم الى الملك (٣) . وقد حدث أثناء انعقاد المجلس سنة ١٣١٤ أن اعترض الاعضاء على احدى الضرائب ، فاضطر فيلب الرابع الى الغائها والى عدم التلاعب فى العملة بعد ذلك .

نهاية أسرة كابيه :

وعند وفاة فيلب الرابع سنة ١٣١٤ خلفه أكبر أبنائه لويس العاشر لمدة عامين (١٣١٤ — ١٣١٦) وبعد ذلك اعتلى عرش فرنسا ابن آخر لفيلب الرابع هو فيلب الخامس (١٣١٦ — ١٣٢٢) الذى دعا مجلس طبقات الامة الى الانعقاد لاقرار احقيته فى العرش واحباط المحاولة التى قام بها منافسوه لتولية ابنه لويس العاشر . وكان فيلب الخامس حاكما نشيطا ذكيا (٤) ، عمل على تركيز الادارة الملكية فى باريس وتحويل كثير من الضرائب الاقطاعية لصالح الملكية ، ومنع الامراء الاقطاعيين من

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 684.

(2) Lodge : op. cit. pp. 59-60.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 326-327.

(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 330.

الاحتفاظ فى قلاعهم ما لم تكن هذه القلاع على الحدود . كذلك امتاز عهـد فيلب الخامس بكثرة التشريعات التى بلغت بالنظم التى وضعها آل كابيه درجة الكمال . أما مجلس طبقات الأمة فقد بلغ عندئذ درجة كافية من النضج وتعددت اجتماعاته حينا بعد آخر .

وبعد فيلب الخامس تولى الحكم أخوه شـارل الرابع (١٣٢٢ — ١٣٢٨) وهو الابن الأصغر لفيليب الرابع ، فشـابه أباه فى حب فرض الضرائب والتلاعب فى قيمة النقود . أما فى الخارج فقد شغل شـارل الرابع بحرب فلاندرز ، وهى الحـرب التى ظلت منذ أيـام فيلب الرابع لا تخمد نارها الا لتشتعل بعد قليل (٣) . كذلك فتح شارل الرابع باب النزاع مع انجلترا من جديد نتيجة لاستيلائه على معظم جاسكونى . ومهما يكن من أمر ، فان شـارل الرابع هـذا لم يترك وريثا يرثه فى حكم المملكة ، مما أدى الى انتهاء عهد أسرة كابيه (٤) .

وكان أن أجتمع مجلس طبقات الأمة بعـد وفاة شـارل الرابع سنة ١٣٢٨ ، فاختار فيلب فالوا الذى أصبح فيلب السادس ملكا على فرنسا . وليس لهذا الاختيار من أهمية خاصة سـوى أن النزاع حـول وراثة العرش بعـد وفاة شـارل الرابع كان من أسباب قيام حـرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، وهى الحرب التى سنعالجها فى بـاب خاص فيما بعـد .

---

(1) Orton : op. cit. p. 364.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 338.

(3) Lodge : op. cit. p. 65.

الباب الثانى عشر

ألمانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة

اختلف الجزء الشرقى من الامبراطورية الكارولنجية (ألمانيا) عن جزئها الغربى (فرنسا) فى بنائه السياسى وتراثه الحضارى . فالجزء الشرقى لم يكن معظمه فى يوم من الأيام داخل حدود الامبراطورية الرومانية القديمة . واذا كان الملوك الميروفنجيون ثم الكارولنجيون قد أجهدوا أنفسهم فى اخضاع بافاريا وسكسونيا ، الا أن هذه المناطق ظلت مدة طويلة أصعب من أن يتم هضمها وتمثيلها داخل جهاز الحضارة الغربية . وهكذا استمرت ذكرى الماضى القريب ماثلة فى أذهان شعوب الجانب الشرقى من امبراطورية الفرنجة عندما أخذت هذه الامبراطورية تتعرض للتفكك والانهيار قرب منتصف القرن التاسع (١) .

وتتضح هذه الفكرة فى شعوب ألمانيا التى أخذت تتمسك بتراثها القديم وتبحث عن زعامة محلية عندما بدا لها عجز الملكية الكارولنجية عن دفع خطر الفيكنج والمجريين ، فظهر زعماء محليون من كبار الأمراء فى كل سكسونيا وفرانكونيا وسوابيا وبافاريا ، وهى الاجزاء الرئيسية التى تألفت منها مملكة الفرنجة الشرقية أو ألمانيا (٢) . على أنه يلاحظ أن ألمانيا امتازت عن بقية الممالك التى تفرعت عن الامبراطورية الكارولنجية بأن قوة الدولة لم تتناقص فيها بشكل خطير نتيجة لازدياد نفوذ الأمراء الاقطاعيين (٣) . حقيقة أن هناك تشابه واضح فى التطور السياسى بين المملكتين الفرنسية والألمانية فى أن التيار العام فى كل منهما اتجه نحو انتقال السلطة الفعلية

---

(1) Barraclough : The Origins of Modern Germany. pp. 6-11.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages. p. 164.

(3) Orton : op. cit. p. 160.

الى أيدى الأمراء المحليين ، وفى أن زمام الحكم انتقل فى كل من البلدين من أيدى سلالة البيت الكارولنجى الى بيوت أخـرى اقطاعية (١) . ولكن ألمانيا اختلفت عن فرنسا فى أن أراضى الملوك وممتلكاتهم ظلت واسعة فى الأولى ، كما أن نفوذ الأمراء — على الرغم من ازدياده — لم يصل الى درجة تقويض نظم الادارة القديمة كما صار الحال فى فرنسا (٢) .

والواقع أن الخطر الذى هدد الملكية الألمانية لم يأت من ناحية الأمراء الاقطاعيين بقدر ما أتى من ناحية طبيعة البلاد نفسـها . فبينما جغرافية فرنسا الطبيعية سـاعدت على توحيد سكانها — مع اختلاف أصولهم — اذا بألمانيا تظل منقسمة الى اقاليم كبرى تختلف اختلافـا بينا من الناحية الطبيعية ، حتى أصبح لكل اقليم منها اتجاهه السياسى وعصبيته العنصرية . فاذا كان الجزء الشمالى من ألمانيا سهلى منبسط فان الجزء الجنوبى جبلى وعر ، واذا كانت أنهار الشمال ، تتجه لتصب فى بحر الشمال أو البحـر البلطى وبذلك توجه الأهالى نحو الشمال ، فان أنهار الجنوب تجرى شرقا وغربا لتوجيه الأهالى فى هذين الاتجاهين .. هكذا سـاعدت هذه العوامل على بقاء الفوارق بين الشـعوب والقبائل التى تألفت منها ألمانيا فى نهاية القرن التاسع ، وهم السوابيون والبافاريون والسكسـون والثورنجيون والفريزيون (٣) .

أرنولف :

وكان أهم حكام ألمانيا من البيت الكارولنجى فى أواخر القرن التاسع هـو الملك أرنولف (٨٨٧ — ٨٩٩) . وقد امتاز حكم أرنولف هـذا — البالغ اثنى عشرة سنة — بالحيوية والقوة ، حتى استطاعت ألمانيا فى تلك الفترة التغلب على أعدائها فى الشمال والشرق ، فضلا عن حصولها على نـوع من الزعامة بين بقية الدول المسيحية فى غـرب أوربا . وحسـب

(1) Stephenson : Med. Hist. pp. 279-280.
(2) Orton : op. cit. pp. 160-161.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 36-63.

أرنولف أن الملوك الذين حكموا مختلف أجزاء دولة الفرنجة قصدوا ألمانيا للحصول على موافقته ورضائه مما حقق له زعامة فعلية عليهم ، على الرغم من عدم تمتعه بلقب الامبراطورية (١) .

ولعل خير دليل على قوة أرنولف هو نجاحه فى دفع خطر الفيكنج عن بلاده بطريقة جعلت منهم فيما بعد اقل أعداء الدولة الألمانية خطرا عليها . ذلك أنه حدث سنة ٨٩١ أن أخذ الدانيون يتدفقون على أوستراسيا فى قوة وعنف حتى اجتاحوا جميع أراضى الميز والموزل ، وأنزلوا الهزيمة بالقوات المحلية التى واجهتهم فى لوثرنجيا . عندما سمع أرنولف بذلك أتى مسرعا من بافاريا وأخذ يطارد الدانيين حتى معسكرهم عند لوفان Louvain حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة (٢) . وكانت هذه الهزيمة درسا قاسيا تلقاه الدانيون فى الجزء الشرقى من الامبراطورية الكارولنجية ، بحيث لم يحاولوا بعد ذلك التوغل داخل حدود ألمانيا أو اقامة امارة مستقلة فى أراضيها ، وان استمرت اغاراتهم السريعة على شواطىء فريزيا والراين الأدنى (٣) .

وبعد أن أخضع أرنولف بعض الثورات التى قامت بها العناصر السلافية التابعة له فى الشرق — مثل التشك والمورافيين — دفعه طموحه ورغبته فى أن يصبح امبراطورا الى أن يزج بنفسه فى السياسة الايطالية ، مما ترك أسوأ الأثر بالنسبة لتاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى . ذلك أن ايطاليا كانت عندئذ ميدانا للتنافس بين بعض الأمراء ، مما أتاح فرصة لتدخل أرنولف فى شئونها ، وبخاصة عندما اشتد النزاع بين جاى Guy (ويدو Wido) وبرنجار Berengar حول حكم ايطاليا ، مما اثار حربا عنيفة بين الطرفين وقفت فيها لمبارديا فى صف برنجار ، فى حين

(1) Oman : The Dark Ages, pp. 468-469.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 322.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 10.

ظاهرت تسكانيا والبابوية جاى (١) . وكان أن توج البابا ستفن الخامس جاى امبراطورا وملكا على ايطاليا سنة ٨٩١ ، الأمر الذى حقق له النصر النهائى وجعل خصمه برنجار يستنجد بأرنولف ملك ألمانيا (٢) . وهنا رحب أرنولف بهذه الفرصة التى أتاحت له التدخل فى شئون ايطاليا فعبر الألب سنة ٨٩٤ حيث أخضع حوض نهر البو ، فى حين فرجاى نحو الجنوب حيث توفى . وفى العام التالى أغار أرنولف مرة أخرى على ايطاليا ودخل روما حيث رحب به البابا الجديد فورموزس Formosus (٨٩١ — ٨٩٦) وتوجه امبراطورا (٣) .

وهكذا وضع ارنولف أساس سابقة خطيرة أمام حكام ألمانيا الذين وزعوا جهودهم بين ألمانيا وايطاليا دون أن يحصلوا على أية فائدة من وراء التدخل فى شئون ايطاليا سوى اضعاف نفوذهم فى ألمانيا وبعثرة قواهم . فعلى الرغم من الجهود الضخمة التى بذلها ملوك ألمانيا للسيطرة على ايطاليا ، الا أن نفوذهم فيها لم يكن فعليا الا فى حالة وصول الملك الألمانى على رأس جيشه الى ايطاليا ، وفيما عدا ذلك سرعان ما يتقلص ذلك النفوذ ويتلاشى بعودة الألمان الى بلادهم (٤) . ذلك أن البابوية والنبلاء والمدن عارضت جميعها قيام أية سلطة سياسية قوية فى ايطاليا ، ومن ثم فشل الأباطرة الألمان فى الربط بين ألمانيا وايطاليا سياسيا فى ظل تاجهم ، فى الوقت الذى صرفتهم شئون ايطاليا عن تدعيم نفوذهم فى ألمانيا ذاتها . ومهما يكن من أمر فان الانقسامات والأفكار التى تعرضت لها ألمانيا على عهد أرنولف وخلفائه المباشرين أدت الى ترك ايطاليا وشأنها دون تدخل من جانب ألمانيا لمدة ستين سنة (٥) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 64-65.

(2) Oman : The Dark Ages, pp. 463-464.

(3) Deanesly : op. cit. p. 565.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 364-365.

(5) Bryce : The Holy Roman Empire, p. 78.

أما أرنولف فقد عاد من ايطاليا متوجا بالتاج الامبراطورى الذى أضفى عليه نوعا من المهابة أكدت أولويته بين ملوك غرب أوربا المعـــاصرين وزعامته عليهم . على أن المشاكل التى واجهت أرنولف بعد عـــودته من ايطاليا كانت كثيرة وشاقة ، ومن هذه المشاكل ما هو داخلى مرتبط بمسألة الوراثة ، ومنها ما هو خارجى يتمثل فى اغارة المجريين على ألمانيا (١) . أما هؤلاء الهنغاريون أو المجريون فكانوا قبائل رعوية من أصل أسيوى مثل الهون والآفار ، اعتمدوا على الخيل فى حلهم وترحالهم وبرعـــوا فى الحـــروب الخاطفة التى شنوها على خصومهم . وقد ترك هـــؤلاء الهنغاريون مقرهم فى شرق أوربا — على البحر الاسود — وزحفوا سنة ٨٩٦ نحـــو السهول الواقعة بين الكربات والدانوب ، وهى المنطقة التى نسبت اليهم وعرفت باسم هنغاريا أو المجر . ومن هذا الموطن أغار الهنغاريون فى ربيع سنة ٨٩٩ على ايطاليا عن طريق اكويليا وفيرونا حتى وصلوا بافيا . وبعد أن نهبوا سهول ايطاليا الشمالية اضطروا الى العودة عن طريق بانونيا (٢) . على أن أرنولف يعتبر المســئول الأول عن تجرؤ الهنغاريين على أراضى الامبراطورية بعد أن استعان بهم فى حربه ضد مورافيا ، وبذلك دلهم على طريق مورافيا وألمانيا جميعا . ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن خطـــر الهنغاريين على ألمانيا لم يكن جسيما فى حياة أرنولف نفسه ، لانشغالهم بتطهير سهول الدانوب من السلاف ، ولذلك لم يشتد خطرهم على بافاريا وثورنجيا الا عقب وفاة أرنولف فى نهاية سنة ٨٩٩ (٣) .

لويس الطفل (٨٩٩ — ٩١١) :

أجمع أمراء ألمانيا وأساقفتها على اختيار لويس الطفل (Lewis the Child) ملكا عقب وفاة أبيه أرنولف سنة ٨٩٩ . وكان لويس هـــذا فى السادسة من عمره عندئذ ، الأمر الذى جعل الاحدى عشرة سنة التى حكم فيها البلاد

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 67.

(2) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 43-44.

(3) Oman : The Dark Ages, p. 471.

حكما اسميا من أحلك عصور التاريخ الألمانى . ففى تلك الحقبة قويت النزعة الاقطاعية عند الأمراء الألمان ، وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية قوية وعصبية قبلية واضحة ، مما ســاعد على استمرار الحروب والمنازعات فيما بينهم . وربما أدى الى حدة هذه المنازعات أن مناصب الدوقات والكونتات أصبحت وراثية ، مما جعل لكل قسم من الأقسام الأربعة الرئيسية التى تألفت منها ألمانيا — وهى فرانكونيا وسوابيا وبافاريا وسكسونيا — دوقا يرثه ابنه فى منصبه (١) . ولم تكن النزعة الانفصالية أقل وضوحا عنــد الأساقفة الألمان ، الذين بلغوا هم الآخرين درجة كبيرة من الثروة واتســاع الأملاك والنفوذ حتى أصبحت لهم سيطرة على التاج ، كما ناضلوا مع الأمراء لتحقيق أطماع سياسية بحتة (٢) . على أنه يبدو أن هؤلاء الزعماء المحليين — من دينيين وعلمانيين — ظلوا لا يجرؤون على الحركة ما دام هناك ملك قوى رأس الدولة ، فلما توفى أرنولف وخلفه ابنه لويس الطفل أخذوا يتحركون ويشتبكون بعضهم مع بعض فى منازعات طويلة وحروب أهلية دامية أضرت بالبلاد ضررا جسيما .

وزاد الطين بلة اشتداد اغارات الهنغاريين التى لم تنقطع عن ألمانيا منذ وفاة أرنولف سنة ٨٩٦ . وقد بدأ الهنغاريون بالاغارة عــلى بافاريا وكارنثيا ، ثم انتهزوا فرصة الحرب الأهلية فى فرانكونيا وتطرقوا الى سوابيا حتى وصلوا سكسونيا . وكان أن أنزل الهنغاريون هزيمة كبرى بالقوات البافارية سنة ٩٠٧ . كما قتلوا ليتوبولد Luitpold دوق بافاريا وذبحوا رئيس أساقفة سالزبرج واسقفى فريزنج وسبن Seben (٣) . وهكذا تمكن الهنغاريون من اجتياح بافاريا كما دخلوا ثورنجيا فى العام التالى وقتلوا دوقها وأسقف ورزبرج ، الامر الذى دفع لويس الطفل — وكان قد بلغ السادسة عشر من عمره — الى النزول الى الميدان بنفسه لصد خطر الهنغاريين . وفعلا اتحد البافاريون والسوابيون والفرانكونيون تحت قيادة

---

(1) Orton : op. cit. p. 161.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 370.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 69.

الملك الصغير لحرب المجريين ، ولكن الهزيمة حلت بهم جميعا . ولم يلبث أن توفى لويس الطفل عقب هـــذه الكـــارثة ، فى سبتمبر سنة ٩١١ (١) .

كونراد الأول (٩١١ ــ ٩١٨) :

وبوفاة لويس الطفل انتهت سلالة البيت الكارولنجى من الذكور فى ألمانيا ولم يعد هذا البيت ممثلا الا فى شخص شارل البسيط فى فرنسا (٢) . ولم يكن هناك ســـوى أحد طريقين أمام النبلاء الألمان للتغلب على مشكلة ملء العرش ، فاما اختيار ملك من سلالة الفرع الفرنسى للبيت الكارولنجى وأما أن ينتخب النبلاء الألمان أحدهم لشغل هذا المنصب . وبعد كثير من الجدل والتردد تغلب الرأى الاخير ، فاجتمع زعماء فرانكونيا وسكسونيا وسوابيا وبافاريا واختاروا سنة ٩١١ كونراد الأول دوق فرانكونيا ملكـــا عليهم . وهكذا أصبحت الملكية الألمانية انتخابية ، فيشترك فى انتخاب الملك كبار الأمراء فضلا عن رؤساء أساقفة مينزوكولونيا ، مما جعل عملية الانتخاب هذه مصدر خلافات وحزازات لا تنقطع (٣) .

وكانت السنوات السبع التى قضـــاها كونراد الأول فى الحكم مليئة بالمتاعب الداخلية والخارجية ، اذ لم يكن لـــه مجد موروث ــ كما كـــان للكارولنجيين ــ يعتمد عليه فى توطيد سلطانه وفرض كلمته على كبار الأمراء الذين نظروا اليه على أنه واحد منهم ، وازدادوا تباعدا عن السلطة المركزية . وهكذا قويت النزعة الانفصالية فى أقسام ألمانيا المختلفة ، وكثرت الحروب الأهلية والثورات الداخلية فى ذلك العهد (٤) . وقد حاول كونراد الأول ــ يسانده الأســـاقفة ــ القبض على زمام الأمراء ، ولكنه دفع الثمن غاليا ، اذ أثار كره الأمراء للملكية حتى أصبح كبار الأمراء فى أواخر عهده أكثر

---

(1) Oman : The Dark Ages, pp. 472-473.

(2) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 21.

(3) Barraclough : op. cit. p. 18.

(4) Oman : The Dark Ages, pp. 475-476.

شعورا بقوتهم واشد تعصبا ضد الملكية ونفوذها (١) . وهكذا يبدو أنه اذا كان كونراد الأول قد فكر فى بسط سيطرته على جميع أنحــاء المملكة ، فانه سرعان ما اضطر الى التخلى عن هذه الفكرة والاعتراف بأمراء سكسونيا وسوابيا وبافاريا على أنهم أنداد مساوون له . والواقع أنه لم يكن فى وسع كونراد أن يفعل غير ذلك أمام ازدياد شـــعور العصبية المحلية فى الاقاليم السابقة من جهة ، وتجدد خطر الهنغاريين على ألمانيا من جهة أخرى (٢) .

ذلك أنه فى الوقت الذى أخذ السوابيون والبافاريون يقاومون جهود كونراد الأول فى توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية ، اذا بالهنغاريين يوغلون فى ألمانيا حتى بلغوا الراين سنة ٩١٣ ، فأغاروا على مدينة كوبلنز Coblenz بل دهموا بازل وأحرقوها سنة ٩١٧ ، وهى أهم مــدن الركن الجنوبى الغربى من المملكة الألمانية . وهكذا مات كونراد الأول دون أن ينجح فى دفع الأخطار الداخلية أو الخارجية التى أحاطت بدولته (٣) .

هنرى الأول (الصياد) ٩١٩ — ٩٣٦ :

وكان آخر ما فعله كونراد الأول وهو على فراش الموت أن نصح من حوله بضرورة اختيار ملك قوى يخلفه اذا أرادوا انقاذ ألمانيا . ويبدو أن التفكير فى الصالح العام تغلب حينئذ عــلى كونراد لأنه اعترف بضـــعفه وحذرهم من اختيار أحد أفراد أسرته ، بل رشح لمنصب الملكية خصمه العنيد هنرى السكسونى ، لأنه اعتقد أنه أصلح فرد يستطيع انتشال البلاد من الهوة التى ترددت فيها (٤) .

ثم ســـارت الأمور فى الاتجاه الذى أراده كونراد الأول ، فاجتمع كبار الأمراء والأساقفة عقب وفاته وقر رأيهم على اختيار هنرى دوق سكسونيا

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 371-372.

(2) Stephenson : Med. Hist. p. 229.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 33-34.

(4) Oman : The Dark Ages. p. 477.

ملكا على ألمانيا سنة ٩١٩ ، ويقال ان اختيار هنرى لمنصب الملكية تم أثناء انشغاله برياضة الصيد ، ومن ثم لقب فى التاريخ بالصياد (Fowler) (١) .
والواقع أن انتقال الملكية الى البيت السكسونى أمر له دلالته العظمى ، حتى أنه يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الامة الالمانية . حقيقة ان قيام دولة ألمانية مستقلة أصبح حقيقة تاريخية واقعة منذ عهد لويس الألمانى وأرنولف ، ولكن السيادة ظلت لعنصر الفرنجة فى ألمانيا حتى وفاة كونراد الأول ، مما جعل ألمانيا تبدو فى صورة الجزء الشرقى من دولة الفرنجة أكثر منها دولة ألمانية مستقلة . ولكن بانتقال الحكم الى دوق سكسونيا أخذت الملكية تبدو فى طابع ألمانى بحت ، لا سيما وأن السكسون كانوا أقل العنـــاصر التى تألفت منهـــا ألمانيا تأثرا بتقاليد الكارولنجيين وأكثرها تمســـكا بتراثهـــا الجرمانى القديم (٢) .

والمعروف أن الفضل يرجع الى هنرى الأول فى وضع أسس الملكية الألمانية وتثبيت هذه الاسس تثبيتا ظهر أثره واضحا بعد ذلك فى عهد والده وخليفته أوتو (٣) . على أنه يبدو لنا فى أول الامر أن سلطة هنرى الصياد وهو ملك — عندما تولى الحكم — لم تتجاوز سلطته وهو دوق سكسونيا (٤) ، فألمانيا كانت وقتئذ أقرب الى اتحاد بين الدوقات الكبرى ، مع احتفاظ الزعيم أو الدوق الذى يحكم أقوى هذه الدوقيات بلقب الملكية . ومن هنا كانت مهمة هنرى الصياد هى أن يحول هذه السيادة الاسمية الى سلطة فعلية ، ولذلك رفض — من أول الأمر — أن يتوج بيد رئيس أساقفة مينز حتى لا يظهر بمظهر التبعية للكنيسة ، كما عمل على تقوية الروابط بين الدوقيات الالمانية (٥) . أما موقف هنرى الاول من كبار الدوقات ، فقد طلب اليهم اعلان ولائهم له وتقديم فروض التبعية بوصفهم أفصاله الاقطاعيين . كذلك

---

(١) ومن الثابت أن هـــذا اللقب لم يطلق عليه لأول مرة فى التاريخ الا قرب منتصف القرن الثانى عشر . أنظر :

(Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179)

(2) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 13-14.

(3) Bryce : op. cit. p. 117.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179.

(5) Thompson op. cit. Vol. 1, pp. 373-374.

أصر هنرى على الحد من نفوذ هؤلاء الدقات عن طريق حرمانهم من كل سيطرة على الكونتات أو الحكـــام المحليين ، وجعل هؤلاء الموظفين مسئولين أمام الملك مباشرة . أما الاساقفة ومقدمو الاديرة فقد اعاد اليهم أراضيهم التى اغتصبت منهم خـــلال حـــكم لويس الطفل ، وجعلهم يتمتعـــون فى هذه الاراضى بالسلطة التى تمتع بها الكونتات وبذلك أصبحوا يتبعون التاج تبعيـــة مبـــاشرة (١) .

ومن الواضـــح أن هنرى الأول اعتمد فى تنفيذ ســـياسته الداخليـــة والخـــارجية على قوته الحربية التى اســـتمدها من سكســـونيا ، كبرى الدوقيات الألمانيـــة التى عرف أهلهـــا بالشجـــاعة وقوة الشكمية . على أنه كان من العسير أن يتمكن هنرى من تنفيذ جميع أركان هـــذه السيـــاسة قبل أن يؤمن بلاده ضـــد الأخطـــار الخارجية التى سببت له ولأســـلافه كثيرا من الكوارث فى الســـنوات الأخيرة . ذلك أن سكسونيا قاست كثيرا من غزوات الدانيين والونديين (٢) ، فضـــلا عن المجريين الذين أخـــذوا يوجهون حرابهم ســـنة ٩٢٤ نحو سكســـونيا ، بعد أن لمســـوا قـــوة معـــارضة البافاريين . وهكذا تلقت سكســـونيا الضربة وحـــدها فى تلك المرة ، دون أن يلقى هنرى الصيـــاد أية مســـاعدة من ســـوابيا أو بافاريا ، الأمر الذى جعله يقبل الصلح مع الهنغـــاريين على أســـاس أن يدفع لهم جزية ســـنوية . وبذلك اســـتطاع هنرى أن يجنب بلاده خطرهم لمـــدة تســـع ســـنوات استغلها فى القيام بعدة اصلاحات حربية . وكان أهم هـــذه الاصـــلاحات انشـــاء مراكز محصنة Burgwarde فى ثورنجيا وشرق سكســـونيا ، وهى المراكز التى تحولت بسرعة الى مجمعات تجارية نشيطـــة تعيش داخل أســـوار محصنـــة وتقوم بحمـــايتها حاميات مـــن السكســـــون (٤) .

ولم يلبث أن انتهى أجل الهدنة مع الهنغاريين سنة ٩٣٣ ، وعنـــدئذ فضل هنرى القتال على الاســـتمرار فى دفع الجزية ، فأنزل هنرى الأول

---

(1) Painter : A History of the Middle Ages, p. 165.

(٢) قبائل سلافية انتشرت بين البحر البلطى والـكربات .

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 375.

بالمجريين هزيمة قرب مرسبرج (مارس ٩٣٣) وبعد ذلك حارب هنرى الأول الدانيين سنة ٩٣٤ وانتزع منهم منطقة قرب نهر الأيدر جعلها مستعمرة للمستوطنين الألمان ، وبذلك ضمن لألمانيا السيطرة على مصب نهر الألب(١). وهكذا بدأ هنرى الأول حركة توسع الألمان شرقا ، كما حال دون تصدع المملكة وانفصال أجزائها الكبرى الأمر الذى ثبت أقدام الأسرة السكسونية فى الحكم وحقق للملكية الألمانية ما كان ينقصها من مجد وهيبه (٢).

أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ — ٩٧٣) :

أوصى هنرى الأول قبل وفاته فى يولية سنة ٩٣٦ باختيار ابنه أوتو ملكا من بعده . وكان أن اختير أوتو ملكا بعد أبيه وهو فى العشرين من عمره وتم تتويجه فى آخن .

ويعتبر أوتو الاول أو العظيم مؤسس الامبراطورية المقدسة بالمعنى الذى يعبر عنه اسم هذه الامبراطورية والذى يشير الى ارتباط ايطاليا وألمانيا تحت سيادة حاكم واحد يسيطر على شئونهما جميعا (٣) . حقيقة أن تلك الامبراطورية الألمانية تعتبر من الناحية العملية امتدادا لامبراطورية شارلمان ، كما أنها اعتمدت على الآراء التى قامت عليها

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 185.

(2) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 38-39.

(٣) المعروف أن اللقب الأساسى لهذه الامبراطورية هو « الرومانية » فقط ، أما صفة « المقدسة » فقد ظهرت لأول مرة على عهد الامبراطور فردريك الأول حوالى سنة ١١٥٧ عندما استعمله الامبراطور نداء وجهه الى زعماء الامبراطورية طالبا مساعدته ضد المدن اللمباردية وبعد ذلك أكثر هنرى الرابع ثم فردريك الثانى من استعمال لقب « المقدسة » فى وصف الامبراطورية حتى غدا شائعا . على أن استعمال هذا اللقب فى وصف الامبراطورية لا يعنى أى تغيير فى وضعها السياسى ، لأن هذه الامبراطورية بمعناها العالمى الواسع وضع أساسها شارلمان ، وبمعناها الضيق — أى فى حدود ألمانيا وايطاليا — يرجع تأسيسها الى أوتو العظيم .

أنظر : (Bryce : op. cit. pp. 196-197)

امبراطورية شارلمان سنة ٨٠٠ ، ولكن القرن ونصف القرن الذى انقضى منذ تتويج شارلمان ، صحبه تغيير كثير من الأوضاع فى غرب أوربا ، وبخاصة بالنسبة لمركز الامبراطورية وسلطانها وعلاقتها بالكنيسة ، وهو الأمر الذى يجعلنا ننظر الى أوتو فى التاريخ لا على أنه خليفة شارلمان بعد فترة طويلة من الشغور ، وانما على أنه المؤسس الثانى للامبراطورية فى الغرب (١)

وكان أوتو الأول يعتقد فى سمو مركزه ، فأراد أن يجعل من وظيفته الملكية سلطة فعلية ، ولذلك أخذ ينشر نفوذه على مختلف أنحاء ألمانيا ، كما حرص على تعيين أقاربه فى مناصب الدوقيات الشاغرة . وقد أدت سياسة أوتو الى كثير من الثورات والحروب الاهلية ، الامر الذى جعله يتجه نحو الكنيسة ليستخدم رجالها سلاحا يشهره فى وجه الدوقات وكبار الأمراء ذلك أن أوتو الأول أدرك أنه فى حاجة الى أنصار لا يعتمدون على العصبية العنصرية ولا يحرصون على مصالحهم الوراثية ، ولم يجد ضالته الا فى رجال الكنيسة ، فرأى فى قوة الأساقفة اضعافا للنبلاء وللعصبية العنصرية التى هددت الوحدة الألمانية (٢) . وهكذا صار لزاما على الأساقفة ومقدمى الأديرة أن يرسلوا الفصائل اللازمة للجيش الملكى كلما طلب اليهم ذلك ، كما ضاعف أوتو من نفوذهم فى مناطقهم — وفى المناطق القريبة — على حساب الدوقات . وبذلك ضمن أوتو الأول فى حالة ثورة أحد الدوقات ضده — وجود أنصار اقوياء للملكية من رجال الكنيسة داخل أراضى الدوق (٣) .

وقد لجأ أوتو الأول بحكم اتجاهه نحو الاعتماد على الكنيسة ورجالها الى التوسع فى منح الأساقفة ومقدمى الاديرة الاقطاعات الكبيرة ، كما نصب نفسه حاميا للكنيسة وأملاكها . وسرعان ما أصبح كبار رجال الدين فى ألمانيا على درجة واسعة من النفوذ والسلطان ، كما أخذوا يباشرون سلطات واسعة فى النواحى القضائية والمالية والادارية . على أنه يلاحظ

---

(1) Bryce : op. cit. p. 79-80.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 18-21.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 166.

أن الكنيسة دفعت الثمن غاليا لان تحول الأساقفة الى أمراء اقطاعيين يتمتعون بسلطات علمانية واسعة ، جعلهم خاضعين للملك خضوعا مباشرا كما جعل تقليدهم مهام مناصبهم الدينية من حق الملك وحده . وهكذا أخذ أوتو الأول يتحكم فى تعيين الأساقفة وعزلهم ، مما أضر ببناء الكنيسة ونظامها أبلغ الضرر (١)

ويبدو أن تدخل أوتو الاول فى شئون الكنيسة الألمانية ومحاولته العمل دائما على اخضاعها لسيطرته المطلقة ، لم يتم دون معارضة ، اذ لجأ بعض كبار الاساقفة وعلى رأسهم وليم بن أوتو نفسه — الى عرض الأمر على البابا . وعلى الرغم من أن البابوية كانت فى شغل عندئذ عن ألمانيا وكنيستها ، الا أن هذا الحدث جعل أوتو يشعر بأن الكنيسة الألمانية ليست وحدة قائمة بنفسها وانما ترتبط بالبابوية فى روما وتخضع لهيمنتها . ويتبع ذلك أنه اذا أراد أوتو أن يسيطر على الكنيسة الألمانية كوسيلة للسيطرة على ألمانيا ، فانه يجب أن يبدأ باخضاع البابا أو على الاقل اكتسابه الى جانبه . وطالما كان البابا خارجا عن قبضة أوتو الأول ، فان أحلام الأخير فى السيطرة على ألمانيا عن طريق وساطة رجال الدين لن تتحقق بشكل مضمون . وهكذا تحددت الخطوة التالية أمام أوتو ، وهى التدخل فى شئون ايطاليا للسيطرة على البابوية (٢) .

ولم تلبث الظروف نفسها أن هيأت لأوتو الأول فرصة مواتية لتحقيق هذا الغرض ، وذلك عندما توفى لوثر ملك ايطاليا وفرت أرملته الى ملك ألمانيا طالبة مساعدته ضد برنجار الثانى ملك ايطاليا الجديد . لذلك أسرع أوتو الأول الى غزو لمبارديا سنة ٩٥١ حيث تزوج من الأرملة الحسناء ، وأجبر برنجار على الاعتراف بالتبعية له (٣) . وجاء هذا التوفيق الذى صادفه أوتو فى ايطاليا بمثابة نصر ثالث له بعد أن أجبر ملك آرل Arles على الاعتراف له بالتبعية سنة ٩٤٦ ، وبعد أن هزم التشك فى بوهيميا سنة ٩٥٠ وأجبر ملكهم على الاعتراف بسيادة ملك ألمانيا ،

---

(1) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 139-142.

(2) Tout : The Empire and the Papacy. pp. 26-27.

(3) Eryce : op. cit. p. 83.

وبذلك مد أوتو الأول نفوذه حتى الرون غربا وايطاليا جنوبا (١) . على أن الثورة لم تلبث أن تجددت فى ايطاليا سنة ٩٥٣ بسبب كره الايطاليين لسيطرة حكام ألمانيا ، وعندئذ لم يستطع أوتو الذهاب لاخمادها بسبب كثرة مشاكله الداخلية والخارجية .

ذلك أن ابنه ليولف ثار ضده فى سوابيا ، وثار كونراد فى اللورين الاعلى كما ثار فردريك رئيس أساقفة مينز . ومهما يكن من أمر ، فان أوتو لم يتعب كثيرا فى القضاء على هؤلاء الثائرين بسبب كثرة منافسيهم (٢) . وعندما توفى رئيس أساقفة مينز ، عين أوتو ابنه وليم بدله فى كرسيه ، كذلك قسم أوتو اللورين الى قسمين ، فجعل الجزء الأعلى من اللورين لأخيه برونو رئيس أساقفة كولونيا فى حين نشأت تدريجيا فى الجزء الأدنى كونتيه هينو Hainaut وبرابانت Brabant . وهكذا غلب الطابع الاقطاعى على الكنيسة حتى أصبح من غير المستغرب أن يصبح أحد الأساقفة دوقا (٣) .

وفى خلال هذه الاضطرابات غزا الهنغاريون ألمانيا وأوغلوا بعيدا فى بافاريا حتى أوجسبرج . ولكن أوتو العظيم أنزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة ليخفيلد Lechfeld قرب أوجسبرج سنة ٩٥٥ ، مما جعلهم لا يجرءون على غزو ألمانيا مرة أخرى . وقد ترتب على هذه الهزيمة أن أوتو مد نفوذه شرقا على حساب الهنغاريين وأقام فى تلك الاراضى الجديدة ماركية أوستريا (النمسا) (٤) . ولكى يضمن أوتو العرش من بعده لابنه الصغير البالغ من العمر سبع سنوات فانه توجه معه شريكا فى الحكم سنة ٩٦١ ، وجعله تحت رعاية أخوته أسقفى كولونيا ومينز .

ولكن يلاحظ أنه على الرغم من جهود أوتو الأول فى تدعيم نفوذه الملكى والربط بين أجزاء ألمانيا تحت سلطانه ، الا أنه ارتكب خطأ كبيرا فى حق

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 280.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 196-197.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 381.
(4) Orton : op. cit., p. 162.

وحدة الدولة الألمانية عندما قسم سكسونيا ، فجعل وستفاليا وحـدها للتاج وأعطى بقية سكسونيا (استفاليا) ، لهرمان بيلونج Hermann Billung بعد أن منحه لقب دوق (١) . وسرعان ما أصبح دوقات سكسـونيا من سلالة بيلونج خطرا عظيما هدد وحدة ألمانيا فى القرن التالى (٢) .

وهكذا لم تكد تنته سنة ٩٦١ الا كان أوتو الاول قـد فرغ من معظم المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهته ، وعاد من جديد يفكر فى مشروعه الامبراطورى الضخم . ويقال ان الرغبة فى احياء الامبراطورية عندئذ لم تكن وليدة تفكير أوتو وحده ، بل شاركه فى هذه الرغبة كثير من المعاصرين الذين رأوا فى هذا الاحياء منفذا للخلاص من الفوضى والأخطار التى تعرضت لها أوربا حينئذ ، لا سيما وأن لفظ الامبراطورية ارتبط دائما فى أوربا العصور الوسطى بالاستقرار والأمن والنظام (٣) .

وكانت هـذه الفوضى التى شكت منها أوربا فى القرن العاشر أظهر ما تكون فى ايطاليا ، حيث تعاقب على كرسى البابوية سلسلة من البابوات الضعـاف غير الكفاة ، الذين تولوا مناصبهم عن طريق مؤامرات مشينة دبرها نبلاء روما العابثين ، حتى تولى أحد هؤلاء النبلاء منصب البابوية سنة ٩٥٥ تحت اسم البابا حنا الثانى عشر (٤) . على أن هذا البابا الجديد الذى جمع فى شخصه بين السيادتين الدينية والدنيوية فى روما ، سرعان ما وجد فى الملك برنجار الثانى عقبة كؤودا اعترضت سبيل البابوية وحالت دون اتساع نفوذها ، ومن ثم استنجد حنا الثانى عشر بأوتو الأول عدة مرات بين سنتى ٩٥٧ ، ٩٦١ (٥) . وقد سبق أن أشرنا الى المشاكل العديدة التى أحاطت بأوتو الأول فى تلك الفترة والتى حالت دون تلبية نداء البابوية

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 29.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 37-379.

(3) Bryce : op. cit. pp. 83-4.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 161.

(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 31.

على وجه السرعة . وأخيرا عبر أوتو جبال الالب الى ايطاليا ودخل فى سنة ٩٦٢ حيث توجه البابا حنا الثانى عشر امبراطورا فى فبراير من العام نفسه . وفى ذات المكان الذى توج فيه شـــــارلمان امبراطورا من قبل .

ومن الواضح أن تتويج أوتو الاول امبراطورا بيد البابا ، واستمرار تدخل الملوك الألمان فى شئون ايطاليا ، انما يعنى مواصلة هـؤلاء الملوك جهودهم فى سبيل بسط سيطرتهم على جانبى الألب . ويبدو أن أوتو نفسه كان مصمما على فرض ارادته على البابوية كما فعل شارلمان من قبل ، كما أن البابا نفسه لم يمانع فى هذا الاتجاه مـــا دام أوتو يقوم بحمايته ضـــد خصومه (١) . على أن الشرط الذى ضايق البابوية وأفزعها هو أن أوتو أصر على أن يقسم البابا قبل ترسيمه يمين الولاء للامبراطور مما جعل حنا الثانى عشر يدس لأوتو عند الامبراطور البيزنطى بل عند الهنغاريين والمسلمين فضلا عن برنجار نفسه (٢) . لذلك أسرع أوتو بالعودة الى روما ففر البابا منها ، وعندئذ دعا الامبراطور مجمعا كبيرا من الأساقفة والكرادلة ونبلاء روما ودوقات ألمانيا ، وقرر هذا المجمع سنة ٩٦٣ عزل البابا حنا الثانى عشر من منصب البابوية وحرمان أهل روما من المشاركة فى انتخاب البابا فى المستقبل وتعيين موظف امبراطورى فى حكم المدينة . أما المنصب البابوى قد عين فيه أحد القساوسة تحت اسم البابا ليو الثامن (٣) . وقد أثار أهل روما مرتين (٩٦٤ ، ٩٦٥) ضد هذا الوضع الشائن الذى انحدروا اليه ، حتى طردوا ليو الثامن من روما ، ولكن أوتو العظيم عاد اليهم وأخضعهم مرة بعد أخرى . وهنا يصح أن نكرر أن تدخل أوتو العظيم فى شئون الكنيسة البابوية جاء وليد الموقف السياسى ورغبته فى السيطرة على شئون ألمانيا بوجه خاص ، لا وليد الرغبة فى اكساب دولته طابعا ثيوقراطيا (٤) . ومهما

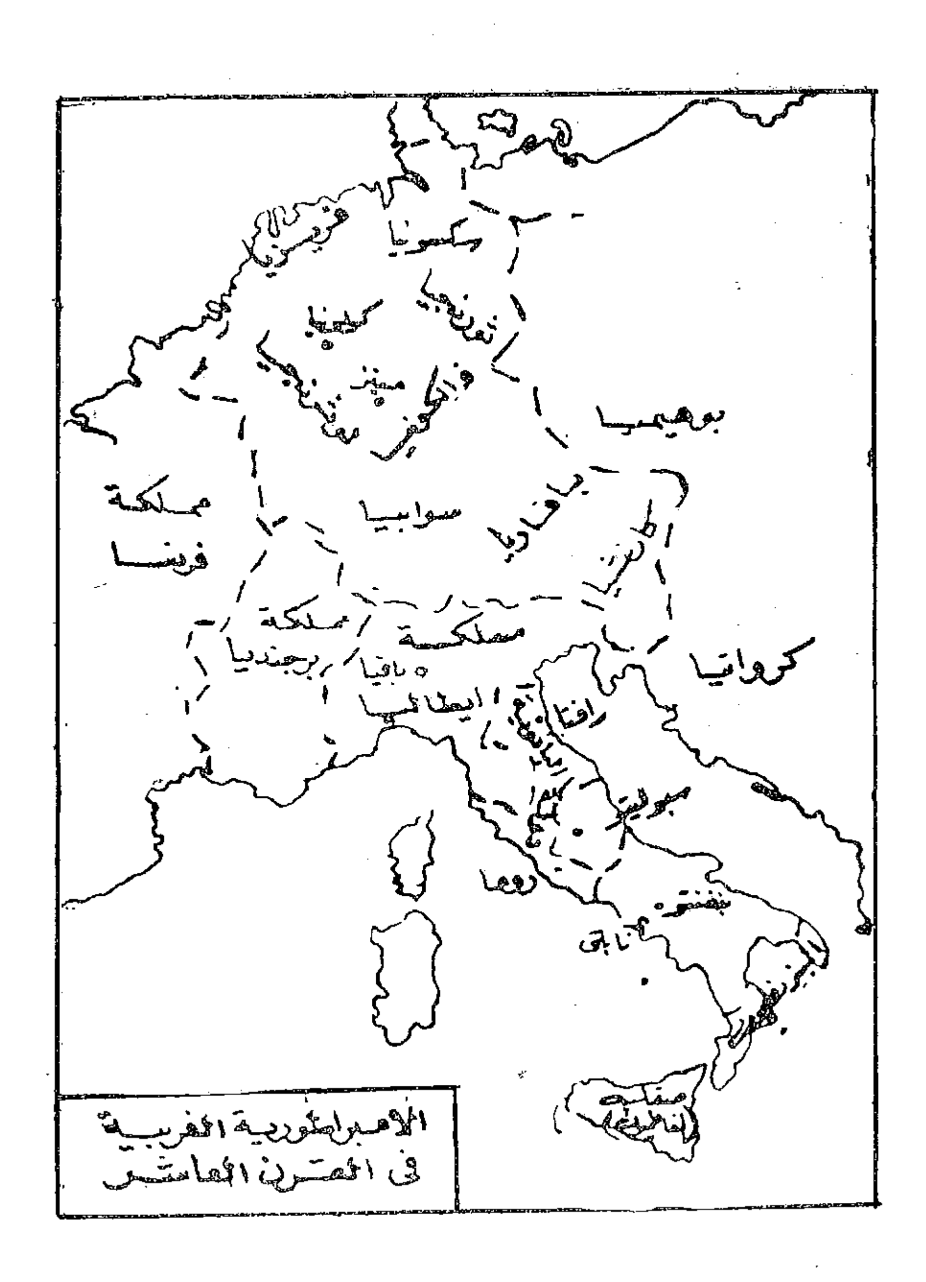
---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, op. 382.

(2) Ullmann : The Growth of the Papal Government, p. 230.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 282.

(4) Barraclough : op. cit. p. 55.


فريزيا
سكسونيا
ثورنجيا
بوهيميا
مملكة
فرنسا
سوابيا
بافاريا
كرواتيا
مملكة
برجنديا
مملكة
ايطاليا
بافيا
روما
سبوليتو
بنفنتو
نابلي
صقلية
الامبراطورية الغربية
في القرن العاشر

يكن من أمر ، فان أوتو الأول قضى عدة سنوات بعد ذلك فى جنوب أيطاليا محاولا بسط سيطرته على هذا الجزء ، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك بسبب معارضة الدولة البيزنطية وعدم اعتراف امبراطورها نقفور فوقاس به (١) .

واذا كان أوتو العظيم قد نجح فى احياء الامبراطورية فى الغرب ، فان امبراطوريته اختلفت اختلافا واضحا عن امبراطورية شارلمان . فالامبراطورية التى أقامها أوتو جاوت وليدة رغبته فى استغلال التقاليد الامبراطورية لتنفيذ سياسته الداخلية والخارجية . هذا الى أن الامبراطورية كانت فى نظر أوتو مسألة ألمانية بحتة ، فلم يكن يعنيه من أمر ايطاليا الا تنفيذ سياسته الداخلية فى ألمانيا نفسها . وهكذا استغل أوتو الأول الكنيسة والبابوية واللقب الامبراطورى الى أبعد مدى ، فى تنفيذ مشروعاته الألمانية لأنه أدرك جيدا أن ألمانيا هى منبع قوته الحقيقية . لذلك نستطيع أن نقرر ان امبراطورية أوتو لم تحظ مطلقا بذلك الطابع العالمى الذى امتازت به امبراطورية شارلمان ، فضلا عن أن هذه الامبراطورية المقدسة التى أقامها أوتو كانت لا يمكن أن تمثل تراث الماضى ، كما كان الحال مع امبراطورية شارلمان (٣) .

واذا كان المؤرخون المحدثون — وبخاصة الألمان — قد وجهوا اللوم الى أوتو العظيم لانه جرى وراء الخيال ، وبذل من الجهد فى سبيل الحصول على الامبراطورية وعلى ايطاليا ما كانت ألمانيا نفسها أحق به ، الا أنه من الواضح أن هذا النقد غير عادل لأن أوتو لم يجر وراء ايطاليا والبابوية والامبراطورية الا لتحقيق أهداف بعيدة ترمى الى السيطرة على ألمانيا ذاتها (٣) . فأوتو الأول نظر الى تتويجه فى روما بعين الاهتمام لا لشىء سوى أن هذا التتويج سيمكنه من اتمام سيطرته على الكنيسة الألمانية بمساعدة البابا ، ثم من اتمام سيطرة الملكية على مختلف أنحاء ألمانيا (٤) .

---

(1) Diehl, Marcais : Le Monde Oriental, p. 469.
(2) Eyre : op. cit. p. 117.
(3) Barraclough : op. cit. p. 54.
(4) Tout : The Empire and the Papacy. p. 32.

ولعل خير شاهد على صحة هذه النظرة أعمـــال أوتو الأول بعـــد تتويجه امبراطوراً ، اذ عكف فى همة ونشاط على اصلاح الكنيسة الألمانية واخضاعها لاشرافه ، كما أنشأ فى مجد برج Magdeburg أسقفية كبرى تشرف على المناطق السلافية شرقى الامبراطورية (١) .

وبعد ، فاننا فى ختـــام كلامنا عن الامبراطور أوتو العظيم ينبغى أن نشير الى أن عهده شهد نهضة فكرية كبرى ، وأن الاحياء الدينى فى ذلك العصر جاء مصحوبا باحياء ثقافى ، حتى غدا القصر الملكى فى ألمانيا — كما كان أيام الكارولنجيين — مركزا للنشاط الفكرى . وقد تزعم تلك النهضة — التى تعرف فى التاريخ باسم النهضة الأوتية أو السكسونية — برونو Bruno الأخ الأصغر للامبراطور أوتو ، كما ظهر من الأدباء كثيرون كتبـــوا فى مختلف ألوان الشعر والنثر باللاتينية . أما الامبراطور أوتو نفسه فقـــد أسهم فى تلك النهضة على الرغم من مشـــاغله الـــكثيرة ، كما تعلم قـــراءة اللاتينية وتفهمها وان صعب عليه الحديث بها (٢) .

وأخيرا توفى أوتو الأول فجأة فى ربيع سنة ٩٧٣ بعد أن وضع أساس تطور جديد فى تاريخ الغرب استمر ما يقرب من ثلاثة قرون ، كما جعل من ألمانيا دولة قوية مستقرة وسط مظاهر الفوضى التى سادت غرب أوربا فى ذلك العصر ، بل انه حقق له مكانة الزعامة فى أوربا المعاصرة .

أوتو الثانى (٩٧٣ — ٩٨٣) :

عندما اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطور حنا الأول (٩٦٩ — ٩٧٦) عرض على معاصرة الامبراطور أوتو الاول تصـــفية الموقف بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية — وبخاصة فى ايطاليا — عن طريق زواج أوتو الصغير ابن أوتو الأول وولى عهده من الأميرة ثيوفانو Theophano

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 281.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 24-25.

ابنة رومانوس الثانى امبراطور الدولة البيزنطية الأسبق ، على أن يكون الصداق الذى تقدمه العروس لزوجها الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا (١) . وكان أن رحب أوتو الاول بهذه الفرصة فتم زواج ولى عهده أوتو من عروسه البيزنطية سنة ٩٧٢ ، وبذلك ظهر عامل جديد للربط بين ايطاليا والمانيا فى ظل الامبراطورية المقدسة ، وان لم يتضح أثر هذا العامل الا فى عهد أوتو الثانى (٢) .

وقد اختلف أوتو الثانى الذى اعتلى عرش الامبراطورية سنة ٩٧٣ اختلافا كبيرا فى اتجاهه وآرائه عن أبيه أوتو الاول . فبينما ألتزم الأب سياسة ألمانية حتى أنه فى احياء الامبراطورية كان يرمى الى خدمة المصلحة الألمانية ، اذا بالابن ينتهج سياسة أوسع أفقا امتدت الى خارج حدود ألمانيا بكثير . فأوتو الثانى نظر الى ايطاليا والامبراطورية نظرة اختلفت الى حد كبير عن أبيه ، لان ايطاليا كانت لا تقل أهمية فى نظره عن ألمانيا . ولذلك أخذ يعمل على الربط بين البلدين برباط الامبراطورية القوى ، وفى الوقت نفسه آمن ايمانا قويا بفكرة الامبراطورية العالمية وبأن سيطرة الامبراطور على العالم يجب أن تصبح حقيقة ملموسة فى كل مكان . وهنا كانت الخطورة الكامنة على ألمانيا والأسرة السكسونية ، لأن سياسة أوتو الثانى — ومن بعده أوتو الثالث — التى اتجهت نحو ايطاليا أكثر من اتجاهها نحو ألمانيا ، لم ينتج عنها الا بعثرة الجهود واضمحلال الأسرة السكسونية بل الامبراطورية الرومانية بوجه عام (٣) .

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت أوتو الثانى هى ازدياد نفوذ بعض الدوقيات ، الأمر الذى جاء مصحوبا بنزعة انفصالية ، على الرغم من جهود أوتو الأول فى سبيل القضاء على هذه النزعة ، وربط البلاد الألمانية برباط الامبراطورية الوثيق . وقد ظهرت تلك النزعة أقوى ما تكون فى بافاريا تحت حكم الأميرة جوديت Judith أرملة هنرى الأولى دوق بافاريا ،

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 433-434.

(2) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 201-202.

(3) Eyre. op. cit. p. 118.

بصفتها وصية علـى ابنها الصغير هنرى الثانى (١) . وزاد الأمر خطورة عندما امتد نفوذ جوديت الى سوابيا عن طريق ابنتها هدويج Hedwig زوجة دوق سوابيا الطاعن فى السن الذى لم يلبث أن توفى بعد قليل . وهكذا رأى أوتو الثانى خطرا جسيما فى ارتباط بافاريا وسوابيا مما أنذر بانفصال الجزء الجنوبى من ألمانيا ، حتى دفعه الخوف الى تعيين ابن أخيه دوقا على سوابيا عند وفاة دوقها العجوز . وكان أن ثارت بافاريا (٩٧٦ ـــ ٩٧٨) واستنجدت أميرتها بأهالى بوهيميا وبولندا ، ولكن أوتو الثانى نجح فى اخماد هذه الثورة ، كما استغل الفرصة لاضعاف بافاريا عن طريق سلخ بعض أجزائها الشرقية والشمالية عنها (٢) . وهكذا أنتصر أوتو الثانى ولم يصادف بعد ذلك متاعب شديدة فى ألمانيا ولكن بعد أن اتبع سياسة أبيه فى الاستعانة بالأساقفة ورجال الكنيسة من جهة ، والعمل على تفتيت ممتلكات كبار الأمراء من جهة أخرى (٣) .

أما فى الناحية الخارجية فقد قام لوثر ملك فرنسا بغزو اللورين سنة ٩٧٨ حتى أضطر أوتو الثانى الى الهرب من آخن ، وعندما رد أوتو الثانى على ملك فرنسا بهجوم مضاد لم يحالفه التوفيق مما عجل باقرار الصلح بين العاهلين سنة ٩٨٠ (٤) على أن المسرح الرئيسى لنشاط أوتو الثانى كانت ايطاليا التى ظلت عندئذ ميدانا للفوضى نتيجة لأطماع الأمراء من جهة واغارات المسلمين من جهة أخرى . وقد حدث أن استنجدت البابوية ـــ كعادتها ـــ بأوتو الثانى ضد كرسكنتيوس ـــ أقوى أمراء روما ، فعبر أوتو جبال الألب سنة ٩٨٠ وأعاد البابا بندكت السابع (٩٧٤ ـــ ٩٨٣) الى روما . وكان أوتو الثانى يطمع دائما فى أن يجعل سلطة الامبراطورية العالمية ملموسة فعلا ، وأن يثبت نفوذه فى ايطاليا بوجه خاص ، ولذلك استغل فرصة وجوده فى ايطاليا وقام بحمـلة على الأجزاء الجنوبية من شـبه الجزيرة لتحقيق

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 204-205.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 37.
(3) Barraclough : op. cit. p. 33.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 385.

غرضين : الأول طرد المسلمين الذى عبروا من صقلية وهددوا بنفنتو ، والثانى تأكيد حقوقه وحقوق زوجته ثيوفانو بعد أن عادت الدولة البيزنطية الى المماطلة فى هذه الحقوق (١) . وقد صادف أوتو الثانى توفيقا فى حربه بجنوب ايطاليا (٩٨١ ـ ٩٨٢) فاستولى على كثير من المدن البيزنطية مثل سالرنو وبارى وتارنتو ، كما أنزل هزيمة بالمسلمين عند قطرون وقتل فى المعركة أبو القاسم أمير صقلية . على أن المسلمين لم يلبثوا أن نصبوا كمينا للقوات الامبراطورية ومزقوها شر ممزق عند خليج كولون Colonne سنة ٩٨٢ ، ولم يستطع الامبراطور نفسه النجاة الا بصعوبة (٢) .

ولا شك فى أن هذه الهزيمة كانت الكارثة الاولى من نوعها فى تاريخ الامبراطورية الأوتية ، اذ يتضح أثرها البعيد فى أنها قضت لمدة قرنين على سيادة الامبراطورية الغربية فى وسط ايطاليا وجنوبها . وزاد من وقع الكارثة أن الاخبار جاءت الى الامبراطورية بتحرك السلاف على نهر الألب وأنهم أعلنوا ارتدادهم الى الوثنية وذبحوا كثيرا من رجال الكنيسة . لذلك عقد أوتو الثانى مجمعا فى فيرونا سنة ٩٨٣ لبحث الموقف من جميع الأوجه ، وهو المجمع الذى اكتسب أهمية خاصة لجلوس مندوبى ألمانيا وايطاليا فيه جنبا الى جنب ، اشارة الى وحدة البلدين داخل اطار الامبراطورية . على أن لهذا المجمع دلالة أخرى خاصة فى التاريخ لأن الروح الصليبية ظهرت فيه واضحة ، فقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الامبراطور لشن حرب دينية مقدسة ضد المسلمين ، وفعلا بدأت الاستعدادات لتنفيذ هذه الفكرة التى يمكن أن تعتبر أساسا للحروب الصليبية فى نهاية القرن التالى . ومهما يكن من أمر فان أوتو الثانى لم يقدر له أن يعيش ليقوم بحربه ضد المسلمين أو السلاف ، فمات فى نهاية سنة ٩٨٣ ودفن جثمانه فى كنيسة القديس بطرس بروما (٣) .

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 38.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 169-170.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 211-213.

أوتو الثالث (٩٨٣ — ١٠٠٢) :

عندما توفى أوتو الثانى كان ابنه الصغير أوتو الثالث فى الرابعة من عمره ولذلك استغلت جميع القوى المعارضة للامبراطورية هـذا الوضع لتحقيق أغراضها الثورية ، فعاد هنرى دوق بافاريا الى التمرد ، بل أنه نازع الامبراطورة الوالدة ثيوفانو حق الوصاية على ولدها الصغير ، حتى بلغ الأمر أن طالب بالتاج لنفسه (١) . وهنا نجد زمام الموقف ينتقل الى أيدى رجال الدين والأساقفة ، الذين أصبح فى استطاعتهم ترجيح كفة على أخرى ، بعد أن جعل منهم أوتو الأول قوة سياسية لها حسابها فى الدولة . وبفضل تأييد رجال الدين انتصرت ثيوفانو وولدها أوتو الثالث ، واضطر هنرى الى التزام سياسة المسالمة فى دوقيته بافاريا . وعندما توفيت ثيوفانو سنة ٩٩١ تألف مجلس وصاية على أوتو الثالث ، تزعمه بعض كبار الأساقفة الذين تعهدوا الملك الصغير بالرعاية الكافية والتعليم الراقى كما بثوا فيه روح الحماسة للكنيسة (٢) . وهكذا نشأ أوتو الثالث نشأة قوية تغلب عليها التقوى والايمان حتى جاوز الخامسة عشرة من عمره فذهب الى ايطاليا سنة ٩٩٥ . وهناك فى ايطاليا وجد أوتو الثالث منصب البابوية شاغرا فعين برونو فى منصب البابوية تحت اسم جريجورى الخامس ، وهو أول ألمانى يتولى هذا المنصب (٣) . ولم يلبث ذلك البابا الجديد أن توج أوتو الثالث امبراطورا فى روما (مايو سنة ٩٩٦) وأخذ يعمل مع الامبراطور على تنفيذ آرائهما الخاصة بمدينة الارض ممثلة فى الامبراطورية يتزعمها الامبراطور والبابا ، لنشر السلام واقرار العدالة .. ثم عاد الامبراطور بعد تتويجه الى ألمانيا ، فحارب السـلاف الذين ثاروا أثناء غيبته وطـردوا أدالبرت من أسقفيته فى براغ وأعلنوا ارتدادهم الى الوثنية (٤) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 209-210.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 41.

(3) Barraclough : op. cit. p. 59.

(4) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 223-224.

وفى ذلك الوقت ثار حنا كرسكنتيوس فى روما ، فعاد الامبراطور الى ايطاليا ليخضع حركته ويعدمه سنة ٩٩٨ ، كذلك توفى البابا جريجورى الخامس فعين الامبراطور بدلا منه معلمه جربرت الذى تسمى باسم البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ — ١٠٠٣) فاستأنف سياسة التحالف مع الامبراطورية لتحقيق أغراضهما المشتركة . ويبدو من آراء أوتو الثالث فى تلك الفترة انه أراد أن يجعل من نفسه ملكا مقدسا (rex-rsacerdos بمعنى السيطرة على الشئون الدينية والسياسية جميعا ، كما أراد أن يجعل من روما قاعدة الحكم وحاضرة العالم وعاصمة المملكة (urbs regia) بعد أن أصبحت كنيستها أم الكنائس الغربية جميعا (١) . وهكذا انصرف أوتو الثالث عن شئون ألمانيا وحاول أن يجعل من نفسه قنسطنطين آخر ، مما عاد بأوخم العواقب على سلطة الامبراطورية (٢) . ذلك أن البابوية أخذت تنهض بفضل تأييد الأباطرة ومساعدتهم لتنتشل نفسها من حـــالة الضعف والفوضى التى غرقت فيها فى القرن العاشر وتصل الى المســتوى الذى أصبحت فيه على عهد جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) وبعبارة أخرى فان الأباطرة أخذوا يــدعمون البابوية ، غير دارين أنهم يبنون لحـــدهم بأيديهم (٣) . هذا الى أن ما حاوله البابا سلفستر الثانى من بث نفوذه فى بولندا وهنغاريا أغضب الشعور القومى فى هذين البلدين ، فضلا عن استياء أساقفة ألمانيا نفسها من سياسة هذا البابا وسيطرته عليهم . أما ايطاليا — وبخاصة روما نفسها — فقد ظلت تسبب المضايقات للبابا سلفستر حتى انتهى الأمر بقيام الثورة فيها ضد الامبراطور والبابا جميعا ، فى وقت لم يجد الامبراطور حوله نصيرا يسانده — حتى فى ألمانيا نفسها . وفى ذلك الموقف توفى الامبراطور أوتو الثالث قرب روما سنة ١٠٠٢ ، ثم لحق بـــه البابا سلفستر الثانى فى العام التالى (٤) .

---

(1) Ullmann : The Growth of Government, pp. 240-241.

(2) Eyre, op. cit. p. 118.

(3) Bryce : op. cit. p. 143.

(4) Fliche : l'Europe Occidentale, 231.

وصفوة القول أن أوتو الثالث كان رجلا نظريا يقضى حكمه غارقا فى أحلام الماضى ، بعيدا عن الوقائع والحقائق التى أحاطت به ، فأقام معظم أيامه فى ايطاليا الأمر الذى أضر بهيبته فى ألمانيا أبلغ الضرر ، حتى فقد مكانته فيها عند وفاته (١) .

هنرى الثانى (١٠٠٢ — ١٠٢٤)

توفى أوتو الثالث دون أن يترك ولدا يرثه فى العرش فانتقل الحكم من السلالة المباشرة لأوتو العظيم الى فرع آخر من نفس البيت السكسونى ، وذلك عندما توالى العرش هنرى الثانى دوق بافاريا . واذ كان حسن الظروف شاء أن يتم هذا التحول فى وراثة العرش بطريقة سلمية الا أن أول ما يلاحظ على الملك الجديد أنه لم يحظ بنصيب من قوة أسلافه الأوتيين أو نشاطهم . ذلك أنه أحس عدم توليه الملك عن طريق الوراثة عن آبائه — وان كان هو أقرب الأفراد الى أوتو الثالث الراحل بحكم كونه حفيد ابنة أوتو الأول (٢) — كما أحس أن الفضل فى اختياره يرجع الى أقطاب الدولة الألمانية من كنسيين وعلمانيين ، ومن ثم لم يحاول أن يتبع سياسة استبدادية مثل أسلافه الملوك السكسون الأوائل ، واختار أن يحكم عن طريق المجامع والمجالس الاستشارية .

وقد تمتع هنرى الثانى بسلطان واسع فوق الكنيسة ، فأحبه رجال الدين لتقواه وتدينه وحبه للخير ، وفى الوقت نفسه استغل الأساقفة ومقدمى الأديرة كأداة له فى تنفيذ سياسته الدنيوية حتى أصبحوا ممثلين للسلطة الامبراطورية فى مناطق نفوذهم . أما رهبان الأديرة الكلونية فقد حظوا بقدر كبير من عطفه وتشجيعه حتى أن الفضل يرجع اليه فيما أحرزه هؤلاء المصلحون من مركز قوى فى ألمانيا (٣) .

---

(1) Eyre : op. cit. p. 118.

(2) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 234-239.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 48.

وقد أتى الخطر الأكبر الـذى هـدد الدولة الألمانية ـ عندما اعتلى هنرى الثانى العرش ـ من ناحية السلاف ، وبخاصة بولندا التى أخـذ حاكمها بولسلاف Boleslav يعمل على توحيد الشعوب السلافية تحت سيطرته ليجعل منها قوة عظمى تطرد الالمان الى ما وراء نهر الالب (١) . وكان أن بدأ بولسلاف فى تنفيذ مشروعه فغزا بوهيميا سنة ١٠٠٣ ، وعندئذ حاول هنرى الثانى تصفية الموقف سلميا مع السلاف ، ولكن دون جدوى ، فقام بحرب طويلة متقطعة ضدهم بدأت بمهاجمة بوهيميا سنة ١٠٠٤ وانتهت بالصلح الأخير معهم سنة ١٠١٨ (٢) . وهكذا استنفدت حروب هنـرى الثانى ضد السلاف بوجه عام والبولنديين بوجه خاص قدرا كبيرا من حكمه وجهده دون أن تؤدى فى النهاية الى نتيجة مشرفة بالنسبة له ، حتى اضطر أخيرا الى التسـليم بمطالب البولنديين الاقليمية وأهمها ماركية لـوزاس (Lusace) (٣) .

على أن خطر البولنديين لم يصرف هنرى الثانى عن شئون ايطاليا ، وان كان من الواضح أن التيار الذى سار فيه أوتو الثالث لم يجرف هنرى الثانى بالقوة ذاتها فى طريقه ، وأن الأخير تخلى عن كثير من مطامع الأول الواسعة واتجه اتجاها ألمانيا قوميا الى حد كبير . ويبدو أن أحداث ايطاليا نفسها واضطراب أحوالها هى التى جذبت ملوك ألمانيا الى التـدخل فى شئونها ، اذ عادت البابوية بعد وفاة سـلفستر الثانى لتقع تحت رحمة أمراء روما من آل كرسكنتى Crescentii فى الوقت الذى نصب أردوين Ardoin نفسه ملكا على ايطاليا (٤) . لذلك ذهب هنرى الثانى الى إيطاليا سنة ١٠٠٤ ثم سنة ١٠١٣ . وفى المرة الأخـيرة

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 222.
(2) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 234-239.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 49.

(٤) وجدت عائلتان كبيرتان تتنازعان السلطة والنفوذ فى رومـا عند مستهل القرن الحادى عشر ، الأولى آل كرسكنتى والثانية كونتات توسكولم Tusculum . ويبدو أن البابوات الثلاثة الذين خلفوا سلفستر الثانى تولوا منصـب البابوية بفضل تأييد الأسرة الأولى .

أنظر : (Hayward : A History of the Popes, p. 142.)

توجه البابا بندكت الثامن امبراطورا فى روما (فبراير سنة ١٠١٤) (١) . ثم كان أن زار البابا نفسه ألمانيا سـنة ١٠٢٠ لتدشين كتدرائية بامبرج Bamberg وفى تلك الزيارة تم الاتفاق بين البابا والامبراطور على أن يقوم الأخير بحملة شاملة على ايطاليا لاقرار الأوضاع فيها . وفعلا قام الامبراطور بحملته سنة ١٠٢١ حتى استطاع اخضاع شمال ايطاليا ووسطها ، ولكن مرضا تفشى بين رجاله فى أبوليا فاضطر الى العودة الى المانيا فى العام التالى قبل أن يستقر الموقف تماما فى ايطاليا . وهكذا ظل الحال مضطربا فى إيطاليا بسبب العداء بين الأسـاقفة والنبلاء من جهة ، وبين كبار النبلاء Capitani وصغارهم Vavassors من جهة أخرى ، وبين المدن بعضها وبعض ، أو بينها وبين السلطات الاقطاعية من جهة ثالثة (٢) .

أما هنرى الثانى فقد شغل سنواته الأخيرة بمؤازرة أنصار حركة الاصـلاح الكلونية . والحق أن هنرى الثانى يعتبر من كبـار المصلحين الديريين ، وبفضل جهوده تم ادخال اصلاحات كثيرة على أديرة بروم Prum وهرسفلد Hersfeld وريخنو Reichenau وفولدا وكوربى وغيرها . كذلك عقد كثيرا من المجامع الكنسية تحت رآسته وتولى هو توجيهها ، هذا فضلا عن أنه منح رجال الدين — وبخاصة الديريين — كثيرا من الامتيازات والحقوق (٣) . على أنه يلاحظ أن عطف هنرى الثانى على رجال الدين الأجانب — غير الألمان — أثار ضغينة الأساقفة الألمان وحقدهم . وقد تزعم حركة المعارضة ضد الامبراطور والبابا بندكت الثامن جميعا أريبو Aribo رئيس أساقفة مينز ، ولكن شاءت الظروف أن يموت البابا بندكت الثامن سنة ١٠٢٤ ثم يلحق به هنرى الثانى فى العام نفسه ، وذلك قبل أن تتأجج نار الفتنة ضد الامبراطور (٤) .

---

(1) Bryce : op. cit. p. 146.

(2) Thomkson : op. cit. Vol. 1, p. 392.

(3) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 247-248.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 50.

وبوفاة هنرى الثانى انتهى البيت السكسونى الذى حكم ألمانيا مدة تزيد على قرن من الزمان استطاع فيها أن يجنبها الفوضى الشاملة التى تردت فيها فرنسا فى القرن العاشر (١) . على أنه يتضح لنا من عرضنا السابق لملوك البيت السكسونى أنهم بدءوا بتشجيع الأساقفة وتزويدهم بالنفوذ القوى كوسيلة للضغط على كبار الأمراء . ولم يكن للديريين فى أول الأمر نصيب من هذا العطف ، لانهم بحكم عزلتهم وانقطاعهم للعبادة كانوا لا يصلحون أداة فى أيدى الملوك يستعينون بها على خصومهم السياسيين ، الأمر الذى جعل الديريين يحقدون على الأساقفة ويحسدونهم على ما هم فيه من قوة ونفوذ (٢) . ثم كان أن اعتلى عرش الامبراطورية هنرى الثانى فأخذ يعطف على الديريين ويشجع حركة الاصلاح الكلونية ، مما أغضب كبار الأساقفة وأخافهم . ذلك أنه كان من مبادىء هذه الحركة الاصلاحية تحقيق استقلال الكنيسة عن السلطة الزمنية ، وفى الوقت نفســـه تركيز نفوذ البابوية ونشر سلطانها الفعلى على الكنيسة الغربية فى مختلف الدول . ومع أن الأساقفة الألمان اعترفوا برآسة روما وزعامتها الروحية ، الا أنهم رأوا فى تحقيق هذه الآراء اضعافا لنفوذهم الدنيوى من ناحية وحرمانهم من بعض نفوذهم الدينى من ناحية أخرى ، لا سيما فيما يتعلق باستئناف الاحكام التى يصدرونها أمام البابا . لذلك وجد الأساقفة الألمان فى الآراء الكلونية التى شجعها الديريون خطرا هددهم ، ومن ثم أخذوا — عقب وفاة هنرى الثانى — يبذلون قصارى جهدهم حتى لا يلى عـــرش الامبراطورية رجل يشايع الديرية وآراءها الاصلاحية (٣) . وهكذا اتخذت مســـألة اختيار خليفة لهنرى الثانى شكل نضال بين الأساقفة من جهة والديرين من جهة أخرى ، حتى انتصر الفريق الأول واختير كونراد دوق سوابيا .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 258.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 393.

(3) Tout : The Empire ad the Papacy, p. 51.

كونراد الثانى (١٠٢٤ — ١٠٣٩) :

انتخب كونراد الثانى دوق سوابيا ملكا على الرغم من معارضة أهالى اللورين حيث كانت الآراء الكلونية قد أحرزت تقدما كبيرا ، وبانتخابه بدأت سلسلة الأباطرة الساليين . وكـان الفارق عظيما بين هنرى الثـانى وخليفته كونراد الثانى ، اذ كان الأخير جنديا ومحاربا قبل أى اعتبار آخر ، فرأى لذته الكبرى فى حياة المعسكرات لا فى المناقشات حول المسائل الدينية ، لأن الحرب كـانت فى نظـره الوسـيلة الوحيدة التى تضمن نفـوذه الامبراطورى (١) .

والواقع أن كونراد الثانى توج ملكا فى مينز سنة ١٠٢٤ ليجد كل شىء مختلا فى الدولة ، ولكن لم يمض على قيامه فى الحكم عامان حتى بث فى دولته روحا جديدة وأصلح كثيراً من مواطن الضعف والخلل فيها . وأتت أول صعوبة واجهت كونراد الثانى من اللورين ، التى لم يكتف أمراؤها بمعارضة اختيار كونراد فحسب بل رفضوا الاعتراف به بعد تتويجه ملكا . ولكن كونراد الثانى قضى على هذه الفتنة وغيرها من القلاقل الداخلية وأعاد الاستقرار الى ألمانيا تحت سيادته (٢) . أما ايطاليا التى بلغت السـلطة الامبراطورية فيها درجة متناهية من الضعف فى أواخر عهد هنرى الثانى ، فقد بقيت خارج نفوذ كونراد من الوجهة العلمية ، ولم ينقذ ما تبقى له من نفوذ سوى موقف الأساقفة اللمبارديين الذين رأوا فى الامبراطور خير درع يقيهم سيطرة الأمراء المحليين . لذلك عبر كونراد الثانى جبال الالب سنة ١٠٢٦ حيث قضى فى شمال ايطاليا عاما كاملا ثبت فيه نفوذه واخضـع خصومه ، ثم قصد روما بعد ذلك فى ربيع سنة ١٠٢٧ حيث توج امبراطورا بيد البابا حنا التاسع عشر . وهكذا يبدو أن الطابع الألمانى الضيق الـذى امتازت به سياسة كونراد لم يحل دون قيامه بالزيارة التقليدية التى اعتاد الأباطرة أن يقوموا بها لايطاليا ، حتى قيل ان كونراد الثانى لم يصـبح

---

(1) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 246-247.

(2) Cam. Med. Hist, Vol. 3, p, 254.

امبراطورا « رومانيا » الا بعد أن توجه البابا فى روما (١) . وبعد أن قام كونراد الثانى بزيارة جنوب ايطاليا لتقوية وسائل الدفاع عنها ضد البيزنطيين فى كالبريا ، عاد الى المانيا مسرعا ليتفرغ لشئونها . وهنا نكرر القول بأن سياسة كونراد الثانى اختلفت عن سياسة سلفه هنرى الثانى فى ان الأول اتجه اتجاها ألمانيا عمليا وتخلى عن الاتجاه العالمى النظرى الذى أدى الى اضعاف نفوذ هنرى الثانى فى ألمانيا (٢) .

ويبدو أن نفوذ كونراد الثانى فى ألمانيا بلغ درجة من القوة عقب عودته من ايطاليا جعلته يعمل على جعل الحكم وراثيا فى أسرته فتوج ابنه هنرى فى حياته سنة ١٠٢٨ . وقد أثار هذا العمل حقد كبار الامراء ، وعلى رأسهم أرنست دوق سوابيا ، ولكن كونراد الثانى لم يتعب كثيرا فى القضاء على هذه الفتنة فأخضع الثورة وحرم أرنست من دوقيته ، بحيث عاد كونراد يسيطر على ألمانيا سيطرة تامة قوية (٣) .

على أنه اذا كانت الأوضاع قد استقرت لكونراد فى الداخل ، فان أعداء الدولة فى الخارج لم يتركوا له فرصة للتمتع بهذا الاستقرار . من ذلك أن كونراد الثانى دخل فى صراع طويل مع البولنديين (١٠٢٨ — ١٠٣١) بسبب اغاراتهم على سكسونيا الشرقية سنة ١٠٢٨ وتدميرهم كثير من القرى واحراق كنائسها . وكان السبب الأساسى لهذه الهجمات التى قام بها البولنديون على ألمانيا هو عدم اعتراف كونراد الثانى بملكهم مسكو الثانى Mesko II ولكن كونراد كان فى موقف لا يساعده على انـــزال ضربة قاصمة بالبولنديين بسبب انشغاله بغيرهم من أعداء الدولة ، ولذلك انتهى الموقف بين الطرفين بالصلح سنة ١٠٣١ (٤) . وفى تلك الاثناء شغل

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 250.

(2) Eyre : op. cit. pp. 130-131.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 54.

(4) Fliche l'Europe Occidentale, pp. 251-252.

كونراد الثانى بأمر بوهيميا التى كانت تربطها علاقة التبعية بالدولة الألمانية .
وقد ساءت للعلاقات بين كونراد الثانى واودارخ Udalrih دوق بوهيميا سنة ١٠٣٢ ، الأمر الذى حدا بالأول الى أرسال حملة الى بوهيميا أخضعت أودلريخ وارسلته أسيرا الى بافاريا ، وان ظلت الفوضى ضارية أطنابها فى بوهيميا حتى سنة ١٠٣٥ (١) . مما الهنغاريون فقد تجمعت عدة عوامل أساءت الى العلاقات بينهم وبين كونراد الثانى أيضا ، مما أضطره الى الهجوم على هنغاريا سنة ١٠٣٠ ، ولكنه لم يصادف توفيقا فى تلك الحرب وذلك بسبب العقبات الطبيعية التى اعترضت سبيله ، كالغابات والأنهار والأحراش ، زيادة على مقاومة الهنغاريين وتفشى المرض بين جنوده ، مما جعله يعود متقهقرا الى ألمانيا ومعه البقية الضئيلة من جنوده (٢) .

على أن أهم نصر أحرزه كونراد الثانى فى سياسته الخارجية كان نجاحه فى ضم مملكة آرل Arles أو برجنديا Burgundy الى ممتلكاته . وكانت هذه المملكة قد وقعت منذ منتصف القرن العاشر فى فوضى شديدة ، حتى توفى ملكها زودلف الثالث سنة ١٠٣٢ دون أن يترك ولدا يرثه فى الملك (٣) . وهنا استغل كونراد الثانى صلة القربى التى تربطه بالملك الراحل وتوج نفسه ملكا على آرل ، مما جعل تلك المملكة جزءا من الامبراطورية ، حتى استمر أمراؤها مدة طويلة يتخذون لانفسهم لقب « أمراء الامبراطورية المقدسة (٤) » . أما أهمية هذه الخطوة فلا ترجع الى أن ضم مملكة آرل أتاح نفوذا جديدا للاباطرة الألمان بقدر ما ترجع الى بضع حقائق أخرى هامة ، أولها أن هذه المملكة الجديدة كانت رومانية الطابع فأدى ضمها الى الامبراطورية الى تخفيف الطابع الألمانى الذى اتصفت به الامبراطورية المقدسة . وثانيها أن هذا الضم حال دون ارتباط آرل بفرنسا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 262.

(2) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 254.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8. p. 309.

(4) Bryce : op. cit. p. 148.

سياسيا فى ذلك العصر ، كما أدى الى تثبيت مبدأ الوراثة فى ألمانيا (١) . فاذا أضفنا الى ذلك أن برجنديا أو آرل كانت مركزا رئيسيا لحركة الاصلاح الكلونية مما ترتب على ضمها للامبراطورية سرعة انتشار تلك الحركة فى ألمانيا ، وأن ضم مملكة آرل الى الامبراطورية حال دون تدخل فرنسا فى شئون ايطاليا ، اذا ذكرنا كل هذا أدركنا فى النهاية مدى خطورة هذه العملية فى التاريخ وهكذا صارت الامبراطورية تضم جميع الاراضى التى تناولتها اتفاقية فردون سنة ٨٤٣ باستثناء الجزء الغربى ، أو فرنسا بمعناها الضيق .

على أن كونراد الثانى أعتقد أن هناك أمرا واحداً ينتقص سلطانه الفعلى ويحول دون سيطرته التامة على داخلية البلاد ، وهذا الامر هو قوة نفوذ كبار الامراء ، وارتباط الافصال بسادتهم الاقطاعيين ، وضعف الروابط التى تربط هؤلاء الافصال وغيرهم من عامة الناس بالامبراطور . لذلك حاول كونراد أن يستميل الى جانبه صغار الافصال ضد كبار الأمراء ، فناصر مبدأ توريث ما بأيديهم من اقطاعات ليهيىء لهم نوعا من الاستقرار والثبات فى وجه سادتهم الاقطاعيين (٣) . هذا الى أن تطبيق مبدأ الوراثة فى الاقطاعات الصغيرة من شأنه أن يدعم مبدأ توريث التاج الامبراطورى ، وهو أمر سعى كونراد لتحقيقه . كذلك لجأ كونراد الثانى الى القضاء على كبار الدوقات وسلبهم مناصبهم الوراثية ، فضلا عن تدعيم نفوذ الاساقفة والتمسك بتقليدهم تقليدا علمانيا واستخدامهم كأداة للحد من بطش كبار الامراء (٤) .

ويبدو أن النجاح العظيم الذى صادفه كونراد الثانى فى تطبيق هذه السياسة فى ألمانيا وبرجنديا دفعة الى تطبيقها فى ايطاليا . على أن روح الاستقلال والانفصال عن الامبراطورية كانت قد أخذت تشتد فى شمال ايطاليا ، حتى بين كبار الاساقفة الذين سبق أن استنجدوا بكونراد ضد كبار

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 55-56.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 259.

(3) Orton : op. cit. p. 170.

(4) Eyre : op. cit. p. 222.

الأمراء العلمانيين . ومن هؤلاء الاساقفة أربرت Aribert رئيس أساقفة ميلان الذى تمتع بمركز مستقل فى أسقفيته ، وأخذ يمنى نفســه بنفوذ سياسى الى جانب نفوذه الدينى (١) . ولكن اذا كان أربرت يستطيع الاعتماد على ولاء أهالى ميلان الذين عرفوا بطاعتهم لأساقفتهم ، فان الامراء المحليين رأوا فى تحقيق أطماعه قضاء على سلطانهم ، فثاروا ضده مما أدى الى حرب أهلية استدعت سفر كونراد الثانى الى ايطاليا لتهدئة الموقف فى شمالها سنة ١٠٣٦ . وهنا وقف أربرت من الامبراطور موقفا عنيدا ، لم يلبث أن تحول الى حرب سافرة بين الطرفين . ولم يتردد كونراد عندئذ فى استمالة صغار النبلاء والاقطاعيين الى جانبه ، فأصدر مرسوما سنة ١٠٣٧ بجعل اقطاعاتهم وراثية فى ايطاليا ، كما وعدهم بعدم ارهاقهم بالضرائب والالتزامات المالية . على أن هذه الاجراءات وأشباهها لم تكن كافية لاخضاع أربرت الذى قوى مركزه فى ميــلان فى الوقت الذى تطلبت شئون الامــبراطورة من كونراد الثانى العودة الى بلاده سنة ١٠٣٨ حيث توفى فجأة فى أوترخت فى العــام التالى (٢) .

ومهما يــكون من أمــر ، فان وفاة الامبراطور كرنراد الثانى قبل أن يتمكن من التغلب على مشكلة أربرت فى ايطاليا لا تقــلل من نجاحه النعام فى القيام بأعباء الوظيفة الامبراطورية . ويكفى أنه ثبت نفوذه الامبراطورى تثبيتا قــويا جعل ابنه يعتلى عرش الامبراطورية من بعده دون أن تعترضه ثورة أو فتــة ، وذلك لأول مــرة فى تاريخ الامبراطــورية الرومانيــة المقدسة .

هــنرى الثــالث (١٠٣٩ — ١٠٥٦) :

بلغت الامبراطورية المقدسة ذروة قوتها على عهد هنرى الثالث(٣)الذى أظهر كفاية فى عهد أبيه عندما عهد اليه بحرب البولنديين والهنغاريين ، فضلا

---

(1) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 258.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 59.

(3) Bryce : op. cit, p. 148.

عن الخبرة السياسية التى اكتسبها بعد أن توجه أبوه وأشركه معه فى الحكم بصورة غير رسمية . وهكذا استطاع هنرى الثالث عندما تولى الحكم أن يتم رسالة أبيه ، وأن يسير وفق الخطوط العريضة التى اتبعها كونراد الثانى فى سياسته ، بل أنه نفخ فى هذه السياسة روحا جديدة جعلت الامبراطورية المقدسة تبدو فى عهده فى صورة القوة الكبرى الفعالة فى توجيه مصائر غرب أوربا (١) .

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت هنرى الثالث هى مشكلة أربرت رئيس أساقفة ميلان ، بعد أن مات كونراد الثانى قبل أن يحلها حلا يرضى كرامة الامبراطورية وهيبتها . على أن هذه المشكلة حلت حلا سلميا ، اذا تغلب العقل على أربرت عندما علم بوفاة الامبراطور كونراد الثانى ، واتجه الى المانيا سنة ١٠٤٠ حيث أعلن ولاءه لهنرى الثالث وطلب عفوه ، وبذلك عاد السلام الى ايطاليا وأصبح فى وسع الملك الجديد أن يتفرغ للمشاكل الأخرى ، وأهمها مشكلة الحدود مع بولندا وبوهيميا وهنغاريا (٢)

والواقع أن بولندا لم تكن مصدر خطر واضح على عصر هنرى الثالث بعد أن مزقتها الحروب الأهلية وتعرضت لهجوم من جانب بوهيميا التى أضحت عندئذ أقوى الدول السلافية ، ولذلك لم يصادف هنرى الثالث صعوبة كبيرة فى اعادة بولندا الى تبعيتها للامبراطورية . ولكن الموقف اختلف بالنسبة لبوهيميا التى أراد دوقها برتسلاف (Bretislav) أن يجعل من نفسه ملكا وأن يرفع أسقف بوهيميا فى براغ الى مرتبة رئيس اساقفة حتى يحقق لبوهيميا الاستقلال السياسى والكنسى (٣) . ولذلك قاوم برتسلاف جهود الامبراطورية فى السيطرة على بوهيميا مقاومة عنيفة، ولكنها لم تجد أمام قوة هنرى الثالث الذى أوغل فى بوهيميا حتى هدد براغ نفسها سنة ١٠٤١ وأخيرا أدرك برتسلاف صعوبة المقاومة فرضى بالخضوع لهنرى الثالث بشروط قاسية أهمها دفع غرامة حربية باهظة ،

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 272-306.
(2) Fliche : l'Europe Occidentale. p. 262.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 300-301.

واطــلاق سراح ما لديه من أسرى ، وهدم جميع التحصينــات المقــامة فى غابات بوهيميا . وبعد ذلك مثل برتسلاف بين يدى هنرى الثالث (أكتوبر سنة ١٠٤١) حيث أعلن تبعيته وخضوعه ، وعندئذ أقطعه هنرى دوقية بوهيميا التى كان الأمير الســلافى يحلم بتحويلها الى مملكة مستقلة (١) .

على أن الصعوبة التى صادفها هنرى الثالث فى هنغاريا كانــت أشــد وأعظم ، اذ قامت فيهــا حركة وثنية أتت بملك جديد اســمه آبا Aba على العرش . وقد أصدر البــابا قــرار الحرمان ضــد ذلك الملك الوثنى ، فحــاول آبا أن يفوز باعتراف هنرى الثــالث به ملكا ، ولما رفض هنرى أغار آبا على المــانيا عن طريق وادى الدانوب ثم عاد الى بلاده فى أوائل ســنة ١٠٤٢ محملا بالأســلاب . لذلك هجم هنرى الثــالث على هنغاريا عدة مرات (١٠٤٢ — ١٠٤٥) حتى انتهى الأمر بقرار آبــا واعتراف خليفته بطرس بالتبعية للامبراطورية (٢) .

أما فى الجبهة الشــمالية فقد أنزل هنرى الثــالث هزيمة بالعنــاصر الســلافية التى أغارت على سكسونيا سنة ١٠٤٥ ، كما عقد الملك اجتماعا فى العــام التالى مع الحــكام الســلاف ، اعترفوا فيه بسيادة الامبراطورية . وهكذا اســتطاع هنرى الثــالث أن يكمل رســالة أبيه فى تحقيق عظمــة ألمانيــا وجعل الامبراطورية المقدســة صاحبة الكلمة العليا فى غرب أوربا(٣) . وربمــا ســاعد على اعلاء كلمة الامبراطورية عندئذ ضعف الملوك الأوائل من أسرة كابيه فى فرنســا ، وانشغــالهم بالحروب المستمرة مع الزعمــاء الاقطــاعيين ، مما جعل الامبراطورية المقدسة لا تجد أمامها منافسا قويا من غرب أوربا ينازعها السيادة العالمية . ولم يحاول هنرى الثــالث أن يستغل ضعف فرنســا فى ذلك العصر فى تحقيق مطــامع سياسية عبر الراين ، بل على العكس حرص على استمرار العــلاقات الودية مع فرنســا ، وأراد أن يؤكد حسن العــلاقات بزواجه ســنة ١٠٤٣ من أميرة فرنسية هى آجنى

---

(1) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 262-263.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 61.
(3) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 264.

Agnes صغرى بنات وليم كونت بواتو . وربما كانت أهم النتـــائج التى ترتبت على هذا الزواج ، هو الأثر القـــوى الذى تركته الأميرة الفرنســـية فى السياســـة الدينية التى اتبعها زوجها هنرى الثـــالث (١) .

وبعد أن خلص هنرى الثـــالث من مشـــكلة الخارجية ، أخذ يوجـــه عنايته نحو مشـــاكل الامبراطورية فى الداخل ، أى فى المانيا وايطـــاليا . والواقع أن هذين البلدين كانا لا يزالان يشكوان الفوضى وعدم الاستقرار على الرغم من الجهود التى بذلها الأباطرة السابقون . وقد أدت سياسة كونراد الثانى — الخـــاصة بتشجيع صغـــار النبلاء الاقطاعيين — الى كثرة الحروب المحلية مما تطلب من هنرى الثالث جهداً كبيراً لحسم ذلك الوضـــع واقرار الأمن والنظـــام . وفى سبيل الوصـــول الى هـــذا الغرض تخلى هنرى الثالث عن سياســـة أسلافه فى الحرص على تركيز الســـلطة فى يدى الملك ، واكتفى بتعيين جماعة من أقاربه وأنصاره فى الدوقيات الكبيرة ، ثم ترك لهم بعد ذلك شيئـــا من التصرف والنفوذ فى دوقياتهم ، بعد أن أدرك أن ألمانيـــا أصعب من أن تحـــكم حكما أوتوقراطيا مركزيا (٢)

على أن الدور الذى قام به هنرى الثـــالث فى ايطـــاليا — وبخـــاصة تجـــاه البابوية يسترعى منا انتبـــاها خاصـــا . ذلك أن مركز البابوية انحط فى ذلك العصر الى الدرجة التى جعلت هنرى الثـــالث يتخذ تدعيم البابوية مفتـــاحا لسياســـته الامبراطورية (٣) . وحسبنا أن البابا أصبح ألعـــوبة فى أيدى أمراء روما ، بل أصبح المنصب البابوى يباع ويشترى بالمـــال ، مما جرح شـــعور كل مسيحى غيور . من ذلك أن أحد هؤلاء الأمراء تولى منصب البابوية تحت اسم بندكت التاســـع سنة ١٠٣٣ على الرغم من حداثة ســـنه . ثم لم يلبث أن بـــاع منصبه لقـــاء حفنة من المال الى بابا آخر هو جريجورى الســـادس فى العـــام التالى . وازاء هـــذه الفوضى والفضائح ، عقد دعاة الاصـــلاح مجمعـــا فى روما واســـتنجدوا بالملك هنرى الثـــالث

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 62.

(2) Bryce : op. cit. p. 148.

(3) Barraclough : op. cit. p. 56.

لمســـاعدتهم فى وضع حد لهذه الفوضى . والواقع هنرى اهتم بحركة الاصلاح الكلونية وأخـــذ يتحمس لانقاذ الكنيسة والبابوية من الهوة التى سقطتا فيها ، حتى ازدادت هذه الســـياسة قوة بعد زواجه من آجنى (١) .

وكان أن عبر هنرى الثـــالث جبال الألب الى ايطاليا سنة ١٠٤٦ حيث عقد مجمعا فى سوترى Sutri قرب روما فى ديسمبر من العـــام نفسه ، ثم مجمعا آخرا فى روما فى الشهر عينه ، عزل فيهما جميع البابوات المتنازعين، وانتهى الأمر بتعيين سويدجار Suidger أسقف بامبرج تحت اسم البابا كلمنت الثـــانى . وفى اليوم الذى احتفل فيه بتعيين البـــابا الجديد قام البابا بتتويج هنرى الثالث وزوجته بالتـــاج الامبراطورى (٢) . وبعد ذلك قـــام الامبراطور وبصحبته البابا — بجولة فى جنوب ايطاليا لاخضـــاعها وإقـــرار الأمور فيها . واذا كان الامبراطور قد اضطر الى العودة بعد ذلك الى المانيا، الا أن سياسته استمرت نافذة فى ايطـــاليا حيث تمتع بنفوذ لم يحظ به غيره من أباطرة الدولة المقدسة (٣) . من ذلك أنه حدث بعد وفاة البـــابا كلمنت الثانى سنة ١٠٤٨ أن ظل رأى الامبراطور معمولا به فى اختيار الشخص الذى يلى منصب البابوية فتعاقب على هذا المنصب البـــابا داماســـوس الثانى Damasus II الذى مات بعد أسابيع فخلفه ليو التاسع — قريب الامبراطور (١٠٤٨ — ١٠٥٤) ، ثم فكتور الثانى (١٠٥٤ — ١٠٥٧) (٤) . وفى عهد البابا الأخير قام هنرى الثـــالث بزيارة ايطاليا مرة أخرى لبعض أغراض ســـياسية ولكنه لم يلبث أن عاد الى المانيا لنشـــوب ثورة فى بافاريا .

وهنا تبدو لنـــا ســـياسة هنرى الثالث الدينية على جانب كبير مـــن الأهمية والتناقض . ذلك أنه عمل اصـــلاح الكنيسة وشرع ضد السيمونية — أى بيع الوظائف الدينية — وغيرها من المفـــاسد الكنسية (٥) . ولكنـــه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 290.
(2) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 265-266.
(3) Bryce : op. cit. pp. 148-149.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 297-298.
(5) Eyre : op. cit. pp. 132-133.

حرص فى الوقت نفسه على السيطرة عليها وعلى البابوية جميعا دون أن يدرى أن هذه السيطرة كانت من الأمراض الخطيرة التى تشكو منها الكنيسة عندئذ . وأبرز مثل لهذه السيطرة تدخل هنرى الثالث فى عزل البابوات وتعيين من يشاء دون الرجوع الى أية مجامع دينية . ومن الواضح أن هدف هنرى الثالث من ذلك كان سلب نبلاء روما سيطرتهم على البابوية ، علاوة على اثبات حقه فى تعيين أساقفة ألمانيا وتقليدهم علمانيا مادام هو الذى يعين البابا نفسه (١) . على أنه اذا كان ليو التاسع ومن بعده فكتور الثانى لم يتجاسرا على معارضة الامبراطور ، فان التطور نحو تحرير الكنيسة من سيطرة السلطة العلمانية بدأ يظهر فى بطء على عهد البابا ستفن التاسع (١٠٥٧ — ١٠٥٨) . ولم يلبث أن اتخذ هذا التطور شكل هجوم على السلطة العلمانية فى عهد البابا نيقولا الثانى (١٠٥٩ — ١٠٦١) (٢) .

وهكذا أدت سيطرة الامبراطورية على الكنيسة ورجالها من جهة ، ومحاولة الكنيسة التحرر من هذه السيطرة من جهة أخرى ، الى نزاع حاد بين الامبراطورية والبابوية ، ظهرت أولى فصوله على مسرح العصور الوسطى بعد وفاة الامبراطور هنرى الثالث ١٠٥٦ .

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 251.

(2) Eyre : op. cit. p. 133.

الباب الثالث عشر

إيطاليـــا والبـــابوية

كانت ايطاليا فى ختـــام القرن العـــاشر مقسمة الى عدد من الوحدات تتنازع النفوذ فيها والسيطرة عليها عدة قوى أوربية كبيرة . فالبيزنطيون امتلكوا أبوليا وكالبريا فى الجنوب ، بعد أن نجحت قوات الامبراطور باسل المقدونى فى طرد المسلمين من تلك الجهـــات واحـــراز نصر بحرى عليهم واسترداد معاقلهم فى الجنوب الشرقى من ايطـــاليا (٨٨٤ — ٨٨٧) (١) . هـــذا وان ظل المســـلمون يسيطرون على بعض المراكز فى جنوب ايطاليا الغربى وجزيرة صقلية ، وذلك بعد أن سقطت سيراكيوز عاصمة الجزيرة فى أيديهم ســـنة ٨٧٧ . ومع أن المســـلمين فشلوا فى اتخـــاذ مقر ثـــابت لهم فى جنوب ايطـــاليا ، الا أنهم استمروا يؤثرون فى توجيه مصائر ذلك الجزء من أوربا ، ولا سيما الشـــاطىء الغربى لشبه الجزيرة (٢) . وبالاضافة الى البيزنطيين والمســـلمين ، وجد عدد من الدوقيات اللمبـــاردية فى بنفنتو وسالرنو وكابوا فى الجنوب (٣) . أما شـــمال ايطاليا ووســـطها فقد أقام فيهمـــا اللمبارديون عدة امارات قوية ، كمـــا ظهرت فى تلك الأجزاء بعض المدن التجـــارية النشـــيطة مثل أمالفى ونابلى . هذا فضلا عن البـــابوية التى أخذت تعمل من جـــانبها على أن يكون لهـــا نفوذ ســـياسى فـــوق نفوذها الدينى . فاذا أضفنا الى هذه القوى المتعددة الامبراطورية الرومانية المقدسة التى شرع أباطرتها يتدخلون فى شئون ايطـــاليا ويطمعون فى الربط بينها وبين ألمانيـــا تحت سيطرتهم ، أمكننـــا أن نكون فـــكرة عن الفوضى الســـياسية التى أضحت فيها ايطاليا فى تلك الحقبة (٤) .

---

(1) Diehl, Marcais : Le Monde Oriental, pp. 440-441.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 399-400.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 103-104.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 167-168.

قيام دولة النورمان فى جنوب ايطاليا :

وقد ساعدت هذه الحالة من الفوضى وعدم الاستقرار على امتداد نفوذ النورمان الى جنوب ايطاليا فى القرن الحادى عشر ، حتى استطاعوا أن يكونوا دولة قوية أسهمت بدور هام فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . ذلك أن النورمان الذين استقروا فى غرب فرنسا سرعان ما اعتنقوا المسيحية وتأثروا بالحضارة الفرنسية ، ولكن دون أن يفقدوا روح المغامرة وحب الغزو . وبعبارة أخرى فانهم أخذوا عن الفرنسيين تقواهم الدينية وورثوا عن أجدادهم حب التنقل والترحال ، حتى قام كثيرون منهم بأسفار بعيدة المدى بقصد زيارة الأماكن المقدسة أو الهجرة . وكثيرا ما انتهت هذه الأسفار بتأسيس دويلات نورمانية كان لها شأن كبير فى العصور الوسطى . من ذلك ما حدث حوالى سنة ١٠١٩ من أن أربعين حاجا نورمانيا مروا بجنوب ايطاليا — قرب مونت جارجانو Monte Gargano على الشاطىء الشرقى — فى طريق عودتهم من الأراضى المقدسة الى وطنهم (١) وفى ذلك الوقت كان ميليس Meles — أحد مواطنى مدينة بارى Bari قد استغل فرصة توغل المسلمون وثار ضد السلطات البيزنطية ، فاستعان بهؤلاء النورمان فى تحقيق غرضه ، واستغلهم كجند مرتزقة. وقد رحب زعيم هؤلاء الحجاج بالفرصة ، كما شجع البابا بندكت الثامن الفكرة ، وبفضل هذه المعونة تمكن ميليس من الانتصار على القوات البيزنطية مما أكسب النورمان شهرة كبيرة فى ايطاليا كجند محاربين شجعان (٢) .

وعندما عاد هؤلاء الحجاج الى نورمنديا نقلوا الى ذويهم ما شاهدوا عليه البلاد الايطالية من فوضى وتفكك ، الأمر الذى أغرى كثيرين من الطموحين على الهجرة من نورمنديا الى جنوب ايطاليا ليعملوا جندا مأجورين . ويقال ان دوق نابلى رحب بهم سنة ١٠٣٠ بعد أن ساعدوه ضد أمير كابوا اللمباردى ، مما جعل هذا الدوق يكافىء رانولف —

---

(1) Haskins : The Normans in European History, p. 198.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 104-105.

زعيم النورمان — بمنحه منطقة غنية يقيم فيها مع قومه بصفة دائمة . وفى هذه المنطقة أسس النورمان مدينة أفرسا Aversa سنة ١٠٣٠ ، التى تعتبر أول مركز دائم لهم فى ايطاليا (١) . وهكذا أخذت جموع النورمان تتكاثر فى جنوب ايطاليا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، حيث وجدوا فى هذا الوطن الجديد ميدانا صالحا لنشاطهم وتحقيق أطماعهم المادية والسياسية . واشتهر من زعماء النورمان فى ايطاليا فى هذه الحقبة ثلاثة أخوة يلقبون بلقب « هوتفيل Hauteville » هم وليم وهمفرى ودروجو ، وقد أحرزوا جميعا صيتا ذائعا فى ميدان الحرب والقتال (٢) وكان أن قدم هؤلاء الاخوة مساعدتهم الى البيزنطيين سنة ١٠٣٨ لطرد المسلمين من صقلية ، حتى أصبح وليم هوتفيل أميرا على النورمان فى أبوليا سنة ١٠٤٢ واتخذ ملفى Melfi مركزا له (٣) . وعندما توفى سنة ١٠٤٦ اعترف الامبراطور الغربى هنرى الثالث بأخيه دروجو أميرا على أبوليا . ولكن حدث حوالى ذلك الوقت أن حضر من نورمنديا أخ رابع لهؤلاء الثلاثة ، هو روبرت جويسكاد الذى لم يلبث أن أصبح زعيما للنورمان فى ايطاليا بعد وفاة همفرى سنة ١٠٥٧ (٤) . وقد اشتهر روبرت جويسكارد هذا (ت١٠٨٥) كسياسى ماهر وقائد شجاع لا يعرف الرحمة أو الوفاء بالعهد فى سبيل الوصول الى هدفه . ومن أعماله أنه وجه كل جهوده نحو غزو جنوب ايطاليا وأراضى الدولة البيزنطية وتقويض نفوذها فى شبه الجزيرة (٥) ، دون أن يدرى أن توسع النورمان فى جنوب ايطاليا ، وما صحب هذا التوسع من أعمال الغصب والعنف ، أثار حنق البابوية ومخاوفها . ذلك أنه على الرغم من ترحيب البابوات والأساقفة الكاثوليك بأولئك النورمان ليكونوا عونا لهم ضد المسلمين من جهة والكنيسة الشرقية من جهة أخرى ، الا أن النورمان أثاروا كره الجميع بعد أن اشتهروا بالنهب والسلب والقسوة (٦) . هذا فضلا عن أنهم أخذوا يعملون لحسابهم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 268.
(2) Stephenson : op. cit. p. 247.
(3) Diehl, Mareais : Le Monde Orientale, p. 560.
(4) Haskins : The Normans in European History, p. 201.
(5) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 474.
(6) Orton : op. cit. p. 188.

الخـــاص ، فتارة يحاربون مع الأمراء اللمبـــارديين وطـــورا فى صف القوات البيزنطية ، دون أن يكون لهم هدف من وراء كل ذلك ســـوى توسيع رقعة أراضيهم الخـــاصة على حســـــاب البيزنطيين واللمبـــارديين والبـــابوية جميعـــا .

وكان أن دفع شـــعور الخوف والاستيـــاء البابا التـــاسع الى أن يوجه جيشـــا — خليطا من الالمان والايطاليين — لمهاجمة النورمان ســـنة ١٠٥٣ . ولكن النورمان انتصروا على هـــذه الحملة البـــابوية فى موقعـــة كيفتياتى Civitate فأثبتوا مرة أخرى كفايتهم الحربية (١) ، حتى استطاع زعيمهم روبرت جويســـكارد أن يغزو كالبريا بأكملها ســـنة ١٠٥٧ (٢) . ويبدوا أن هزيمة البابوية أمام النورمان وقتئذ كانت ذات نتـــائج مهمة ، لأنها أثبتت المعـــاصرين — وبخـــاصة البـــابوية — أنه لا يمكن طرد النورمان من ايطـــاليا ، هـــذا فى الوقت الذى حـــالت تقوى هؤلاء النورمان دون اســـتغلال انتصـــــارهم فى تتبع البـــابوية ومعاقبتها (٣) وفى ذلك الوقـــت بالذات كانت البـــابوية فى حاجة الى حليف قوى ، بعد أن أخـــذت تحس خطر الأباطرة الألمـــان على كيانها وتطمـــع فى التحرر من سيطرتهم ، ممـــا جعلهـــا تغير نظرتها تجـــاه النورمان وتفـــكر فى اتخاذهم حلفـــاء لهـــــا يســـاعدونها فى تحقيق اســـتقلالها والتخلص من خطر الأباطرة من جهـــة ونبـــلاء روما من جهـــة أخرى . وأخيرا تمت هـــذه الصفة الســـياسية بين البابوية والنورمان على عهد البابا نقولا الثانى (١٠٥٨ — ١٠٦١) وتحت تأثير ووســـاطة الكاردينال هلدبراند (٤) ، الذى ذهب بنفســـه سنة ١٠٥٩ الى كابوا ومهد للاتفـــاق النهـــائى الذى أبرم فى ملفى Melfi ، والذى أعترف فيه البـــابوية بشرعية حـــكم النورمان لجنوب ايطـــــاليا مقـــابل اعترافهم بالتبعيـــة للبابا ودفـــع مبلغ معين من المـــال له سنويا (٥) .

ولاشك فى أن هذه الخطوة الحاســـمة كان لهـــا اثر خطير فى تاريخ

(1) Haskins : The Normans in European History, p. 203.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, 403.
(3) Eyre : op. cit. p. 130.
(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 114.
(5) Haskins : the Normans in European History, p. 204.


النورمان في صقلية
وجنوب ايطاليا
دوقية
سبوليتو
دولة البابوية
روما
كابوا
بنفنتو
نابلي
سالرنو
دوقية أبوليه
باري
برنديزي
تارنتو
كالبريا
بالرمو
صقلية
إتنا
قطانية
سيراكيوز
(سرقوسة)

أوربا العصور الوسطى . ذلك أن قيام دوقية أبوليا النورمانية كان الخطوة الأولى نحو قيام مملكة نابولى ، ونشـأ من ذلك أن هذه الخطوة أدت الى فصل جنوب ايطاليا عن شمالها مما كان له بعد الأثر فى تاريخ ايطاليا . هـذا الى أن اتفاقية ملفى هيأت للبابوية حليفا قويا فى الجنوب ، اتجهت اليه عندما تأزم الموقف بينها وبين الامبراطورية نتيجة لحركة الاصلاح الواسعة التى شرعت البابوية فى النهوض بها (١) . وسرعان ما اثبتت الأحداث أن مملكة النورمان التى قامت فى جنوب ايطاليا أثرت تأثيرا خطيرا فى تاريخ ايطاليا بوجه عام والبابوية بوجه خاص . ولم يلبث الكاردينال هلد براند نفسه - عندما أصبح بابا تحت اسم جريجورى السابع سنة ١٠٧٣ - أن استبد به القلق عندما وجد النورمان ابتلعوا جميع الجزء الجنوبى من ايطاليا ، سواء الممتلكات البيزنطية أو امارة بنفنتو التابعة للبابوية . لذلك ادرك جريجورى السابع خطر النورمان على سلطة الكنيسة وأملاك البابوية وحاول أن يحد من ذلك الخطر عن طريق الاستعانة بوليم كونت برجنديا (٢) . على أن محاولات هذا البابا - المعروف بالعنف والصرامة - لم تفلح فى وقف التوسع النورمانى اذ لم يلبث أن غزا روبرت جويسكارد سالرنو وأمالفى (٣) . ثم شاءت الظروف عندئذ أن يدخل البابا جريجورى السابع فى صراعه العنيف ضد الامبراطورية ، مما جعله يتلهف على مساعدة النورمان ، فأقر جويسكارد سنة ١٠٨٠ على ما بيده من أراضى مقابل قيام الأخير بحماية البابوية من خطر الامبراطورية (٤) .

وقد حقق روبرت جويسكارد رغبة البابوية فعلا وقدم لها بعض المساعدات ، ولكن ذلك لم يصرفه عن التوسع فى جنوب ايطاليا حيث كان أخوه الأصغر يعمل منذ سنة ١٠٦١ حتى تم استيلاء النورمان على

---

(1) Eyre : op. cit. p. 138.

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 303-304.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 179.

(4) Orton : op. cit. p. 189.

باری ســنة ١٠٧١ بعد حصــار ثلاث ســنوات ، وبذلك تم طرد البيزنطيين نهــائيا من ايطــاليا (١) ، وأصبحت الخطوة التــالية أمام النورمان هى الاســتيلاء على جزيرة صقلية وانتزاعها من المســلمين . وأخيرا توفى روبرت جويســكارد ســنة ١٠٨٥ قبل أن يحقق بقية أطمــاعه الواسعة فى الشرق، وفى الدولة البيزنطية نفسهــا ، وان كان يكفيه أنه ثبت أقــدام النورمان فى جنــوب ايطــاليا (٢) . وبوفاة روبرت جويســكارد انتهت فترة الغــزو النورمانى فى جنــوب ايطــاليا ، وهى الفترة التى استمرت نصف قرن ، وبدأ دور آخر — اســتمر نصف قرن أيضــا — استحكم فيه النزاع الداخلى بين النورمان أنفسهم ، حتى استطــاع روجر الثــانى توحيد جميــع الأراضى التى فتحهــا النورمان واتخــاذ لقب ملك ســـنة ١١٣٠(٣) . وهــكذا قامت مملكة الصقليتين — التى شملت جنــوب إيطــاليا وجزيرة صقلية — والتى غدت من أبرز ممــالك غرب أوربا وأرفعها حضــارة فى العصــور الوسطى ، وذلك بحــكم مركزها المتوسط بين الشرق والغرب .

شمال ايطاليا ووسطها فى القرن الحادى عشر :

هــذا عن جنوب ايطاليا ، أما شمــالها فقد تعرض منذ القرن الحادى عشر لتطــورات اقتصــادية وســياسية أدت الى نشــأة ما يعرف باسم القومونات — أو المدن ذات الكيــان الاقتصــادى والسياسى المستقل (٤). ففى بداية القرن الحــادى عشر ظهرت البندقية فى صورة جمهورية مستقلة لهــا دوقهــا الذى ينتخبه نبلاؤها ولهــا نفــوذها الســياسى وكيــانها الاقتصــادى الخــاص (٥) . وفى خــلال ذلك القرن أيضــا ظهرت جنــوا

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 117.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 182.

(3) Haskins : The Normans in European History, pp. 206-218-219.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 220.

عن نشأة القومونات وأهميتها ، أنظر الجزء الثانى من هذا الـكتاب .

(5) Stephenson : Med. Hist. pp. 320-321.

وبيزا كقوى مســتقلة أخذت تسهم فى الحروب الصليبية منذ نهــاية القرن الحــادى عشر اسهاما فعليا . ولم تلبث هذه الحركة ــ حركة اســتقلال المدن وتحررها ــ أن امتدت الى ســهول لمبارديا واقليم تسكانيا حيث حصل كثير من المدن على حقهــا فى الحــكم الذاتى . ومن أمثلة هذه المدن Siena وفلورنسا ولوكا وميلان وبافيا وبرسكيا وبولونيا (١) . وســوف نتــكلم عن أهمية نشــأة المدن وظهور القومونات فيمــا بعد فى باب مســتقل ، ولكن الذى يعنينا الآن بالنسبة لتاريخ إيطاليــا هو أن هــذه المــدن أو القومونات أظهرت حرصــا شــديداً فى التمسك باستقلالها السـياسى ، فأخذت تقــاوم كل ســلطة أو هيئــة حاولت حرمانها من ذلك الاستقلال ســواء كانت هــذه الســلطة دينية بابوية أو ســياسية امبراطورية ، ممــا جعلهــا تلعب دورا هاما فى تاريخ ايطــاليا الســياسى منذ أواخر القــرن الحــادى عشر ، وبخــاصة فى حــوادث النزاع بين البــابوية والامبراطورية (٢) . هــذا فضــلا عن الدور الهــام الذى قامت به فى الميدان الحضــارى بوجه عام وفى الجــانبين الاقتصــادى والفكرى بوجه خاص ، ممــا سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد (٣) .

أما وسط ايطــاليا فقد وجدت به بعد الغزو اللمباردى بعض الدوقيات المستقلة وأهمهــا دوقية تســكانيا . ولا تهمنا بقية تلك الدوقيات كثيرا ، لسرعة ما طرأ على وضــعهــا الســياسى من تغيير وتبديل طوال العصــور الوسطى ، على أن أهم قوة وجدت فى ذلك الجزء كانت بدون شك قــوة البــابوية ، التى لم تستمد أهميتهــا التاريخية من أثرها الروحى وزعامتها للكنيســة الغربية فحسب ، بل أيضــا من الدور الســياسى الذى أخذت تقوم به فى عنــاد واصرار لتجعل زعامتهــا على العــالم الغربى حقيقــة واقعة (٤) . وهنا نلاحظ أن البــابوية لم تستطع أن تحقق أطمــاعها فى الزعامة والسمو الا بعد أن مرت الكنيســة الغربية بوجه عام بدور مــن

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 481-482.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 222-223.
(3) Pirenne, Cohen, Focillon : La Civilisation Occidentale au Moyen Ages, pp. 146-153.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. pp. 55-58.

الاصـــلاح والتطور ، الأمر الذى مـــكن البابوية من الوقوف عـــلى رأس الكنيســـة فى وجـــه القوى المعـــارضة حتى خرجت فى النهـــاية مرفوعة الرأس .

البابوية والكنيسة الغربية :

امتاز تطور الكنيسة ونموها فى العصور الوسطى بظاهرتين أساسيتين ، الأولى ازدياد سيطرة البابا على رجال الأكليروس والثانية ازدياد تدخل هؤلاء الآخرين فى الشئون العلمانية . وقـــد رأينـــا كيف قام شـــارلمان بتنظيم الكنيســـة ضمن نواحى الاصـــلاح الأخرى التى تعهدها بعنايته وذلك بوصفه رائدا أو زعيمـــا للشعب المسيحى (Rector Populi Christiani) (١) . ولكن اضمحلال امبراطورية شارلمان حرم البابوية من حليفها القوى وتركها وحيدة فى الميدان وسط مظـــاهر الفوضى الشـــاملة والأخطـــار الخـــارجية التى تعرضت لهـــا منذ منتصف القرن التـــاسع . ولم يقتصر هذا التدهور على البـــابوية وحدها ، بل امتد الى بقيـــة الجهـــاز الكنسى حتى اختلت أحـــوال الكنيسة الغربية بوجه عام فى الفترة الواقعة بين القرن التاســـع ونهـــاية الحـــادى عشر (٢) . فالبابا غدا أقرب الى أن يكون نبيلا رومانيا لا سلطـــان له على كنائس بلدان غرب أوروبا المتعددة فى فرنســـا والمانيا وايطـــاليا وانجلترا وأســـبانيا وغيرها ، وهى الكنائس التى تبـــاين مدى استقلالها عن السلطـــة الزمنية أو تبعيتها لها (٣) . أما الأســـاقفة فكان لهم فى البابوات أســـوة سيئة ، وسرعان ما أصبحوا من رجال الاقطـــاع التـــابعين للملك أو لكبـــار الدوقات ، بل ان وظـــائفهم نفسهـــا غـــدت اقطـــاعية ، كمـــا أدى زواجهم الى انصرافهم نحو جمع الثروة ليورثوها أبناءهم (٤) . وهكذا خرج الأســـاقفة عن دائرة اختصـــاصهم الدينى الى

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 188.
(2) Eyre : op. cit. pp. 124-125.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 454.
(4) Idem : Vol. 5, pp. 5-6.

المشـــاركة فى الحروب وعقد المجـــالس القضـــائية وجمع الضرائب والمكوس الاقطاعية ، لا داخل أراضيهم الخـــاصة فحسب ، بل فى أراضى النبـــلاء المجاورين أيضا (١) . وبعبـــارة أخرى فان كبـــار رجال الدين — من أساقفة ومقدمى أديرة — غدوا أفصـــالا اقطاعيين للملوك وكبار الأمراء ، يؤدون لهم ما جرى عليه العرف الاقطاعى من خدمات والتزامات معروفة (٢) .

على أن هذا الوضع كان لا يمكن أن يسكت عنه المخلصون من رجـــال الدين ، لا ســـيما بعد أن رسم القديس أوغسطين فى القرن الخامس الحدود بين السلطتين الزمنية والدينية ، وقال بأن الأولى قامت على أساس من الشر والغدر لأنهـــا من صنع البشر ، لذلك يجب أن تخضع لسلطة الكنيسة ، وهى الهيئة التى تمثل مدينة الله وتعمل على اقرار رســـالته (٣) . والواقع أن الكنيســـة لم تنس حقوقها فى السمو على الســـلطة الزمنية ، وهى الحقوق التى ســـبق أن أوضحهـــا القديس أوغسطين ، وكل ما هنـــالك هو أن شارلمان نظر دائمـــا الى الامبراطورية نظرة دينية ، واعتقد أن وجـــود دولة قوية وكنيســـة قوية فى قبضته من شأنه أن يحقق نوعا من الوحدة بين بلاد الامبراطورية المختلفة وشعوبها المتباينة (٤) . وما دامت الكنيسة قد رضت بأن يقوم شارلمان بدور حامى حماها ، المدافع عن كيـــانها ، فان عليها أن تقبل — وهى صـــاغرة — تدخله فى كافة شـــئونها الدينية دون أن تجرؤ على المطـــالبة بوضع حدود فاصـــلة بين السلطتين الدينية والعلمانية (٥) . وهكذا ظلت الكنيســـة راضية بالأوضـــاع القائمة ، تخفى رغبتها فى التحرر والسيادة طالما كانت فى قبضة شارلمان القوية . هذا وان استمرت نظرة القديس أوغسطين ماثلة دائما فى أفكـــار ذوى الطموح من رجال الكنيســـة .

على أن وفاة شارلمان وزوال قبضته القوية عن الكنيســـة جعلتهـــا

---

(1) Eyre : op. cit. p. 125.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 125.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 413-414.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 443.

(5) Eyre : op. cit. p. 120.

تعمل على تحرير نفسها من سيطرة السلطة الزمنية ، كما أخذت البابوية تعمل على ابراز أهميتها وتحقيق سموها . من ذلك ما فعله البابا ستفن الرابع (الخامس) (٨١٦ — ٨١٧) من أنكار شرعية تتويج لويس التقى فى حياة أبيه ، وقيامه بتتويجه مرة أخرى بيده فى ريمس سنة ٨١٦ تأكيدا لحق البابوية فى منهج التاج الامبراطورى (١) . ثم جاوت ثورة ابنى لويس التقى ضده سنة ٨٣٣ لتهيىء فرصة للبابا جريجورى الرابع يؤكد فيها سلطان البابوية وسموها باسم الوساطة بين الابنين الثائرين وأبيهما . ذلك أنه حدث عندما طلب بعض الأساقفة المشايعين للامبراطور لويس التقى من البابا الخضوع لأوامر الامبراطور بصفته الرئيس الأعلى للامبراطورية والكنيسة جميعا ، رد عليهم جريجورى الرابع بأنه بصفته بابا لا يعتبر أخا لبقية الأساقفة وانما أبا لهم ، يقدمون له فروض الولاء والطاعة (٢) . كذلك اختار جريجورى الرابع أن يؤكد لهم أن أوامره وآراءه ليست أقل قدسية من الأوامر الامبراطورية « لأن يجب ألا تنسوا أن الحكومة الروحية التى يهيمن عليها البابا أعلى قدرا من السلطة الامبراطورية التى لا تعدو أن تكون زمنية ومؤقتة (٣) » . وقد أكد هذه الفكرة بعد ذلك البابا نيقولا الأول (٨٥٨ — ٨٦٧) الذى تمسك فى آرائه ومسلكه تجاه الامبراطور بمبدأ سمو البابوية على الامبراطورية (٤) ، وهو المبدأ الذى ظلت البابوية تجاهد فى سبيل تحقيقه منذ عهد جريجورى العظيم حتى عهد بونيفيس الثامن (٥) . هذا الى أن نيقولا الأول لم يشأ أن يعترف بأن الامبراطور البيزنطى امبراطور رومانى « لأن الامبراطورية الرومانية لا توجد الا حيث يريد البابا » . وفى ضوء هذه الآراء جميعا يبدو لنا نيقولا الأول فى خطابه لمعاصريه من الحكام العلمانيين فى صورة السيد الآمر الذى تجب طاعته « لأن الحاكم

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 134-144.

(2) Idem, pp. 168-169.

(3) Hayward : A Hist. of the Popes. p. 115.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 453.

(5) Hayward : A Hist. of the Popes, p. 121.

الذى لا يطيع أوامر الكنيسة الرومانية وتعليماتها يعتبر عاصيا ويستحق اللعنة والحرمان (١) » . ثم جاء تتويج شارلمان الثانى أو الأصلع امبراطورا بيد البابا حنا الثامن سنة ٨٧٥ ليؤكد أن الامبراطور صنيع البابوية وربيبها ، وأن البابا عندما توج شارل امبراطورا انما عبر عن ارادة الله والمسيح فى التفضل عليه بهذا التشريف ، «ومنحه» التاج الامبراطورى (٢) .

على أنه اذا كانت الكنيسة قد أخذت تسعى خلال سنوات الفوضى التى عمت أوربا فى القرن التاسع للتحرر من سلطان الدولة ليكون لها كيان خاص مستقل ، الا أن الفصل بين الكنيسة والدولة بدا أمرا غير عملى فى ظل النظام الاقطاعى . هذا فى الوقت الذى لم تجد البابوية أمامها سابقة تستند اليها فى تأكيد سيادتها على الملوك من جهة وعلى بقية رجال الكنيسة من جهة أخرى . وهنا لجأ رجال الكنيسة الى التزييف والتزوير لاختلاق سوابق تستند اليها البابوية فى تحقيق أهدافها . وثمة وثيقتان زيفهما رجال الكنيسة لتحقيق أغراضهم ومبادئهم ، أما الوثيقة الأولى فتسمى « هبة قنسطنطين Donation of Constantine » والغرض منها اثبات سلطة البابوية الزمنية وسيادتها على الغرب الأوربى . وهذه الوثيقة المزورة عبارة عن مرسوم قيل أن الامبراطور قنسطنطين أصدره عندما أنشأ روما الجديدة (القسطنطينية) وتنازل بمقتضاه للبابوية عن روما القديمة، بل عن كل أراضى الامبراطورية الغربية (٣) . ويبدو أن هذه الوثيقة زورت فى القرن الثامن بعد أن منح بيبين الأول (القصير) البابا سلطة زمنية فى أراضى ايطاليا سنة ٧٥٥ ، فأراد رجال الكنيسة عندئذ أن يحيطوا هبة بيبين هذه بجو من الشرعية التقليدية التى تثبت أن حق البابوية فى مباشرة السلطة الزمنية قديم يرجع الى أيام قنسطنطين نفسه(٤).

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 202-203.
(2) Idem : pp. 161-162.
(3) Eyre : op. cit. p. 122.
(4) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 58-60.

ومهما يكن من أمر فقد استمرت البابوية تعتمد على هذه الوثيقة المزورة وتتخذها أساسا لسلطانها الزمنى حتى كشف عن تزويرها حوالى سنة ١٤٣٩ ، أى فى عصر النهضة الايطالية .

أما الوثيقة الثانية فظهرت حوالى ٨٥٠ — ٨٥٧ واسمها الأحكام البابوية المزورة Borged Decretals وهى تنسب الى شخص غامض اسمه ايسيدور ، وان كان لا يمكن القول برأى قاطع فى حقيقة نشأتها(١) . وكل ما هناك أنه يبدو أنها وضعت فى ريمز أو مينز ، ثم أحكمت آياتها بعد ذلك فى روما . وكان الهدف الأساسى من وضعها خدمة مصالح الأساقفة المحليين من جهة والبابوية من جهة أخرى (٢) ، لأنها ترمى الى اضعاف سيطرة رؤساء الأساقفة وفى الوقت نفسه تعمل على اعلاء شأن البابوية وتضخيم نفوذها (٣) .

وهكذا أخذت هذه المبادىء تسود الدوائر الكنسية فى غرب أوربا منذ النصف الثانى من القرن التاسع ، فأنشأ الأساقفة يتجاهلون رؤساءهم ويلجئون الى البابوية لانصافهم ، كما تدخل البابا نيقولا الأول (٨٥٨ — ٨٦٧) فى شئون كنيسة اللورين ، مستندا الى بعض الأحكام المزورة السابقة ، فأصر على حقوق البابوية فى اصدار التعليمات والأوامر الى مختلف الكنائس المحلية (٤) . على أنه من الملاحظ أن الفترة الواقعة بين وفاة نيقولا الأول سنة ٨٦٧ وتتويج أوتو الأول امبراطورا سنة ٩٦٢ ، كانت من أحلك السنوات فى تاريخ غرب أوربا من النواحى السياسية والكنسية جميعا . فبالاضافة الى اضمحلال امبراطورية شارلمان وتفككها ، شهدت هذه الفترة أيضا تدهور البابوية والكنيسة الغربية بوجه عام (٥) . حقيقة ان الكنائس المحلية فى مختلف بلاد غرب أوربا ظلت تنظر الى البابا على أنه زعيمها الروحى ، ولكن نفوذ البابوية على هذه الكنائس لم يعد أن يكون اسميا . فكثير من البابوات فى الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والحادى عشر أهملوا توجيه الكنيسة توجيها فعليا رشيدا ، ولم يفكروا فى دعوة مجامع دينية عامة ، وتركوا مهمة هذا التوجيه

---

(1) Bryce : op. cit. p. 153.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 448.
(3) Oman : The Dark Ages, p. 456.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 421-422.
(5) Eyre : op. cit. pp. 123-124.

ودعوة المجامع الى الملوك فى كل بلد من البلدان حسب مقدرة هؤلاء الملوك ومقدار سيطرتهم على الكنيسة فى بلادهم ، مما أدى الى تفكك الكنيسة وعدم وجود رابطة تربطها فى غرب أوربا . ومن الواضح أن سطرة الحكام العلمانيين على الكنيسة لم تؤد فقط الى تفكك الكنيسة فى تلك الحقبة ، وانما أدت أيضا الى انحطاط المستوى الخلقى لرجال الدين لأن الحكام العلمانيين لم يهتموا عند ملىء الوظائف الدينية باختيار مرشحين على خلق سليم ، مما أدى الى وصول بعض ضعاف النفوس الى أرفع المناصب الكنسية (١) .

حركة الاصلاح الكلونية :

ولم يلبث هذا الفساد الذى عم الكنيسة فى القرنين التاسع والعاشر أن أدى الى ايقاظ بعض الضمائر التى أفزعها ما آل اليه أمر الكنيسة ورجال الدين فى غرب أوربا (٢) . وكان أن انبعثت الدعوة الى الاصلاح فى النصف الأول من القرن العاشر فى منطقة اللورين حول منزوليبيج ، حيث كانت الحياة الديرية قوية وسليمة . وهناك بدأ أحد المصلحين — واسمه جيرارد — تلك الحركة بتأسيس كنيسة قرب نامور سنة ٩١٤ ، ثم ألحق بها ديرا بعد قليل . وسرعان ما سارت تلك الحركة الاصلاحية فى اللورين سيرا طيبا فنادى المصلحون بالعودة الى تعاليم السلف الصالح وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية . ولكن تلك الحركة الاصلاحية ظلت محلية الطابع ، اذ استمر أنصار الفساد خارج المنطقة أقوى نفوذا ، فقاوم كثير من رجال الدين تلك الدعوة بعد أن ألفوا حياة الضعف والانحلال ، وبذلك حالوا دون انتشارها والافادة منها (٣) . ومهما يكن من أمر فان هذه الحركة الاصلاحية التى ظهرت فى اقليم اللورين لم تكن الوحيدة من نوعها ، اذ

---

(1) Idem : p. 126.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 128.

(3) Fliche : l'Eu rope Occidentale, pp. 128-131.

عاصرتها دعـــوة أخرى للاصـــلاح انبعثت فى حـــوض الرون الأعلى حيث اسس وليم التقى دوق اكوتين ديرا جديدا فى كلونى سنة ٩١٠ (١) .

وقد روعى فى نظـــام هذا الدير تجنب الاخطاء والمفـــاسد التى تردت فيهـــا بقية الأديرة المعـــاصرة ، ليصبح رأســـا لحركة اصـــلاحية ديرية شـــاملة . من ذلك أن دير كلونى لم يتقبل أرضـــا من أمير اقطاعى أو حاكم مقابل خدمات أو ارتبـــاطات اقطاعية مع ذلك الأمير أو الحـــاكم . وهكذا جـــاءت جميع المنح التى تلقـــاها دير كلونى — من أراض وغيرها — حرة غير مشروطة ، ولا يتقـــاضى صاحبها عنهـــا ســـوى حسن الثواب من الله والدعوات الطيبـــات من أهل الدير . واذا كان نظـــام الأديرة البندكتية قد تطلب من الديريين القيام بقسط كبير من العمل اليدوى فى الحقـــول الا أنه لوحظ عدم تطبيق هـــذا المبدأ بصـــورة تكفل تحقيق الغرض المنشود ، لأن معظم الأراضى التى كانت تمنح للأديرة عليهـــا أقنانها المرتبطون بها والذين يقومون بفلاحتها ، الأمر الذى وفر على الديريين عنـــاء العمل فى الحقول من جهة وأوجد فراغا كبيرا فى حياتهم من جهـــة أخرى . ولســـد هذا الفراغ وتلافى أخطـــار البطـــالة روعى فى نظـــام كلونى مضاعفة الساعات اليومية المخصصـــة للصـــلاة والعبـــادة (٢) .

وقد قام نظـــام الأديرة الكلونية على أســـاس الطـــاعة المطلقة والتفانى فى خدمة المجموع ، فالفرد لاشىء والمجموع هو كل شىء . كذلك أدرك زعماء الحركة الكلونية أن الأمراض الخطيرة التى تعرضت لهـــا الكنيســـة حينئـــذ انمـــا جاءت وليدة ارتبـــاط الكنيســـة بالدولة ، ولذلك وجدوا فى الفصل بين السلطتين العـــلاج الوحيد الشـــافى من تلك الأمراض (٣) . ولعل هذا هو السبب فى حرصهم على أن يكون نظـــامهم الديرى تابعا للبابوية مباشرة دون أن يكون للحكـــام العلمانيين أو الأســـاقفة المحليين اشراف على الأديرة

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 661.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, pp. 128-129.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 99.

الكلونية التى تقع فى منـاطق نفوذهم (١) . وهكذا أصبحت الأديرة الكلونية تخضـع لاشراف مركزى شـديد ، اذ لا يوجد لها سـوى مقدم واحـد فى الدير الرئيسى بكلونى هو المسـئول الأول عن بقية الأديرة الكلونية التى يشرف عليها رؤسـاء لا يتمتعون باسـتقلال كبير فى أديرتهم ويخضـعون خضـوعا مبـاشرا للمقدم العـام فى كلونى ، الذى له حق التفتيش عليهم بين حين وآخر والذى يخضـع بدوره للبـابا خضـوعا مبـاشرا (٢) . وسرعان ما اشتهر دير كلونى فانتشر هـذا النظـام الديرى فى غرب أوربا انتشـارا واسـعا فى سرعة فائقة ، حتى أن كثيرا من الأديرة البندكتيـة المعروفة فى فرنسـا وألمانيـا تقبلت النظـام الكلونى ودخلت تحت رئاسته. هذا زيادة على الأديرة الأخرى التى اختارت أن تحتفظ باستقلالها ولكنهـا تأثرت فى نظمهـا بمبـادىء الاصـلاح الكلونية (٣) . والذى يهمنـا الآن من أمر هـذه الحركة أنهـا لم تلبث أن تطورت واتسـع أفقها ، فبعد أن كانت تسـتهدف فى أول أمرها اصـلاح الحياة الديرية وحدها ، اذا بهـا فى القرن الحادى عشر تسعى نحو اصـلاح الكنيسـة اصـلاحا شاملا ، معتمدة فى ذلك على ما أصبح للأديرة الكلونية ورجـالها من قوة وعظمـة ونفوذ واسـع عند منتصف القرن الحـادى عشر . حقيقـة أن الدعوة الكلونية تعرضت لمعـارضة قوية من كثير من الأسـاقفة ، بل من بعض المؤسسـات الديرية الأخرى التى ألف أهلها حياة الفسـاد ، ولكن حركة الاصـلاح الكلونية اسـتطاعت أن تستمر فى طريقها السوى دون أن توقفها هـذ المعارضـة (٤) .

وكانت الكنيسة تعـانى عندئذ ثلاثة أمراض خطيرة ، هى السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمـانى . أما السيمونية فالمقصـود بهـا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 664.

(2) Eyre : op. cit. p. 127.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 662.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 427.

شراء الوظائف الدينية بالمـــال (١) ، وهو داء فشـــا فشوا خطيرا بين رجال الدين حتى توصـــل كثير من المجرحين وغير الصـــالحين الى المنـــاصب الدينية الكبرى عن طريق المـــال ، مما أضعف الكنيســـة وشوه سمعتها(٢). ذلك أن ما تمتعت به الأديرة والأسقفيات من ثروة طائلة وراض واسعـــة، جعلهـــا موضـــع أنظـــار الطـــامعين الذين لم يضنوا بتقديم الأموال الكثيرة الى الحـــكام العلمـــانيين أو كبـــار الأســـاقفة ليعينوهم رؤســـاء على تلك والأديرة والأسقفيات (٣) . وقد حاول البابا جريجورى السادس (١٠٤٥ — ١٠٤٦) وكذلك البـــابا ليو التـــاسع (١٠٤٨ — ١٠٥٤) مكافحة السيمونية، وشجعهما فى جهودهما الامبراطور هنرى الثالث ، حتى تم عزل كثير مـــن رجال الدين الذين اشتروا مناصبهم بالمـــال (٤) . هذا الى أن المجامع الدينية التى عقدت سنة ١٠٥٩ وســـنة ١٠٦٠ أصدرت قرارات مشـــددة ضـــد السيمونية والاتجـــار فى المناصب الدينية (٥) .

أما عن زواج رجال الدين فالمعروف أن معظم الأســـاقفة ظلوا عزابا، فى حين اقبل على الزواج معظم القســـاوسة وصغـــار رجال الدين (٦) . والواقع أنه لم يوجد قانون كنسى يفرض حياة العزوبة على رجال الكنيســـة، وان وجدت بعض تشريعات فى أوائل العصر المسيحى تؤيد مبدأ العزوبة (٧)، وهى تشريعات لم يمكن تنفيـــذها فى سهولة على الرغم من جهـــود البـــابا جريجورى العظيم فى سبيل تطبيقهـــا (٨) . وهكذا ظلت الكنيســـة ترى

---

(١) تنسب السيمونية الى سيمون الساحر الذى ورد عنه فى العهد الجديد « ولما رأى سيمون أنه بوضع أيدى الرسل يعطى الروح القدس قدم لهم دراهم ، قائلا أعطيانى أنا أيضا هذا السلطان حتى أى من وضعت عليه يدى يقبل الروح القدس ، فقال له بطرس لتـــكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم » . (سفر أعمال الرسل ، الاصحاح الثامن ، ١٨ — ٢٠) .

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 10.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 122.

(4) Hayward : A Hist. of the Popes, p. 147.

(5) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 343-344.

(٦) نلفت نظر القارىء الى أننا عالجنا موضوع زواج رجال الـــكنيسة بشىء من التفصيل فى الباب الخاص بالنظم الدينية فى الجزء الثانى من هذا الـــكتاب .

(7) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 11-12.

(8) Eyre : op. cit. pp. 215-216.

ضرورة الزام رجال الاكليروس بحياة العزوبة أسوة برهبان الأديرة ، لأنها رأت أن هذه الحياة من شأنها أن تطهر النفس زيادة على تدعيم النظام الكنسى نفسه (١) . والمعروف أن الاتجاه السائد منذ القرن العاشر كان يميل الى توريث الوظائف الاقطاعية ، مما أدى بدوره الى اتجاه رجال الدين المتزوجين نحو توريث وظائفهم الدينية لأبنائهم ، الأمر الذى يجعل منهم طبقة ورانية وينزل أبلغ الضرر بالنظام الكنسى . وعلى ذلك فالكنيسة كانت تقر مبدأ الزواج كتشريع دينى لحفظ السلالة البشرية ولكنها عارضت فى زواج رجال الدين حفظا لكيانها ونظامها . وقد ظهرت هذه المعارضة فى القرارات التى أصدرتها مجامع روما الدينية سنة ١٠٥٠ ، وسنة ١٠٥٩ ، وسنة ١٠٦٣ ، والتى حرمت على عامة الناس التعامل مع القساوسة المتزوجين (٢).

على أنه اذا كانت المسائل المتعلقة بالسيمونية وزواج رجال الدين تعتبر من المشاكل الداخلية بالنسبة للكنيسة ، فان مسألة التقليد العلمانى اختلفت عنها فى كونها تتصل اتصالا مباشرا بسلطة الحكام العلمانيين . والمقصود بالتقليد العلمانى هو أن يقوم الحكام العلمانيون — من أباطرة وملوك وأمراء — بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية . والمعروف أن القانون الكنسى نص منذ القدم على أن يكون تعيين القساوسة بوساطة أساقفتهم ، وأن يقوم القساوسة وغيرهم من رعايا الأسقفية بانتخاب الأسقف ، وأخيرا يعتمد كبير كبار الأساقفة — وهو البابا — هذا الاختيار . ولكن هذه الأوضاع تغيرت على مر الأيام ، فأصبح أصحاب الأراضى من الاقطاعيين يقومون بتعيين القساوسة ، فى حين تولى الأباطرة والملوك والدوقات تعيين الأساقفة ، فيكفى أن يسلم أحدهم خاتم الأسقفية وعكازها الى أحد الأفراد ويقول له « تسلم أسقفية كذا» حتى يصبح أسقفا على تلك الأسقفية (٣) .

---

(1) Thomzson : op. cit. Vol. p. 428.

(2) Eyre : op. cit. p. 216.

(3) Orton : op. cit. pp. 166-167.

ومن الواضـــح أن هذا الوضع أفاد الدولة سياسيا ، اذ جعل كبار رجال الدين تابعين للحكـــام العلمانيين وجعل الوظائف الدينية بمثابة اقطاعات يمنحهـــا هؤلاء الحكـــام لرجال الدين ، ولذلك تمسك أباطرة الدولة المقدسة – بوجه خـــاص – بهـــذا الحق ، واعتبروا تخليهم عنه خســـارة كبرى تحيق بســـلطانهم الســـياسى (١) ولكن الكنيســـة هى التى خسرت خسرانا مبينا من جراء هـــذا الوضـــع الشـــاذ الذى أدى الى تفككها وعدم ارتباطها تحت زعامة البـــابوية ، بعد أن أصبح الأســـاقفة أذنابا الملك أو الامبراطور يعينهم لخدمته وتحقيق أغراضـــه ، لا لخدمة الكنيســـة وتحقيق أغراضها. فالكنيسة كانت تريد من رجـــالها أن يخضعوا للبـــابوية وحدها وينصرفوا لخدمة وظـــائفهم الدينية ، فى حين أراد الحـــكام العلمانيون أن يسيطروا على رجال الدين سيطرة اقطـــاعية وأن يتحكموا فى تعيينهم حتى يكونوا أداة فى أيديهم ، ولا ســـيما أن رجال الكنيســـة كانوا الفئة الوحيدة المتعلمـــة – التى تســـتطيع القراءة والكتابة – ومن ثم اشـــتدت حاجة الحكام العلمانيين اليهم فى الشئون الادارية (٢) .

وليت الأمر وقف عند هـــذا الحد ، بل تعداه الى تدخل الملوك والأمراء فى اختيار البـــابوات أنفسهم ، فأخذ أمراء روما يسيطرون على البابوية – وبوجه خـــاص بعد وفاة بندكت الثـــامن ســـنة ١٠١٤ – واختاروا لهذا المنصب الخطير من يحقق أغراضهم ، حتى ولو كان من غير رجـــال الدين ، ممـــا جعل كثيرا من البـــابوات يستنجدون بالأباطرة الألمان كمـــا سبق أن رأينـــا (٣) . ولكن قيـــام الأباطرة الألمـــان بحمـــاية البـــابوية جعل هـــذه الأخيرة صنيعـــة لهم ، ممـــا ســـاء الكرادلة المصـــلحين ، فانتهزوا فرصـــة وفاة الامبراطور هنرى الثـــالث ســـنة ١٠٥٦ عن طفل صغير – هو هنرى الرابـــع – واختاروا البـــابا ستفن التاســـع عقب

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 237.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 132.

(3) Cam. Meed. Hist. Vol. 5, pp. 14-15.

وفاة البـــابا فكتور الثـــانى ســـنة ١٠٥٧ (١) . ويبدوا أن هـــذا الاختيار لم يرق فى عيون أمراء روما فطردوا البـــابا ستفن التـــاسع وعينو البـــابا بندكت العـــاشر ، وعندئذ تمسك الكرادلة برأيهم ورفضوا الاعتراف بالبابا الجديد حتى تم عزله هو الآخر . ولوضـــع حد لهذه الفوضى دعا البـــابا نيقولا الثـــانى مجمعا دينيا فى روما ســـنة ١٠٥٩ لتنظيم اختيـــار البـــابا وانقـــاذ البـــابوية من الهوة التى غرقت فيهـــا . وكان أن قرر هـــذا المجمع أن يتولى الكرادلة وحدهم — وهم أســـاقفة روما وضواحيها السبع — انتخـــاب البابا ، على أن يســـتدعى الناس ورجال الاكليروس بعد ذلك لمجرد الموافقـــة على هـــذا الاختيـــار (١) . هذا فضلا عن أنه تقرر ضرورة اختيـــار البابا من بين رجال الاكليروس فى روما نفسهـــا ، الا فى حـــالة عـــدم توافر المؤهلات والشروط اللازمة للمنصب البـــابوى فى أحدهم ، فاذا تعـــذر لأى سبب اجراء عملية انتخـــاب البابا فى روما فانه يجـــوز اجراء هـــذه العملية فى أى مكان آخر (٣) . وبذلك استطاعت البابوية أن تتحرر من نفوذ نبـــلاء روما وسيطرة الأباطرة جميعا ، فضـــلا عن أن اختيـــار البـــابا أصبـــح انتخـــابيا فى هيئة مختارة من صفـــوة رجال الكنيســـة . لذلك ليس من المبالغـــة أن نقرر أن هـــذا الاجراء كان الخطـــوة الأولى فى ســـبيل اقامة حكومة مركزية فى الكنيســـة تســـتطيع أن تبـــاشر الاصلاح الكنسى بوجـــه عـــام (٤) .

ومن الشخصيات البارزة التى ظهرت فى ذلك المجمع الدينى الكاردينال هلدبراند ، الذى رأى بثاقب بصره اقتـــاع أعضاء المجمع بعدم المســـاس بحقوق الامبراطور القـــائم وهـــو هنرى الرابع ، على أن يحرم خلفـــاؤه من أى حـــق فى اختيار البـــابوات . ولم تلبث شهرة هلدبراند أن أدت الى المنـــاداة به بالاجمـــاع لتولى منصب البـــابوية ســـنة ١٠٧٣ تحت اسم

---

(1) Hayward : op. cit. p. 153.

(2) Bryce : op. cit. p. 155.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 37.

(4) Eyre : op. cit. p. 134.

جريجورى السابع ، وبذلك بدأت صفحة جديدة فى تاريخ البابوية بل فى تاريخ الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى (١) .

البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) :

والواقع أن البابا جريجورى السابع لم يكن مجددا أو مبتكرا ولم يسهم الا بقسط ضئيل فى نظرية السمو البابوى ، لأن هذه النظرية قديمة ترجع الى أيام جريجورى الأول (٥٩٠ — ٦٠٤) . بل ان البابا جلاسيوس الأول (٤٩٢ — ٤٩٦) حاول أن يطبق هذه الآراء الخاصة بسمو البابوية فى علاقته مع الامبراطور أنسطسيوس (٢) . ولكن اذا كانت نظرية السمو البابوى فى ذاتها ليست وليدة أفكار جريجورى السابع الا أن من حقه أن يفخر بأنه أول من طبق هذه النظرية فى اصرار وعناد (٣) . ذلك أنه كان يقدر ضخامة مهمة البابوية وعظم رسالتها حتى قال « اننى لا أقبل البقاء فى روما يوما واحدا اذا أدركت أننى عديم الجدوى للكنيسة » .

وكان أن عقد جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤ لمعالجة مشاكل الكنيسة فى ذلك الوقت وهى — كما سبق — السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى (٤) . وقد أصدر هذا المجمع عدة قرارات تقضى بفصل كل من توصل الى منصب فى الكنيسة عن طريق الشراء ، وأن لا يسمح فى المستقبل بشراء الحقوق الكنسية وبيعها . كذلك تقرر فصل كل عضو فى الكنيسة اتهم بالتبذل والاستسلام لشهواته . أما عن زواج رجال الدين فقد دعا جريجورى السابع الجمهور المسيحى الى عدم التعاون مع أى قس أو أسقف لا يحرص على التمسك بسنة الرسل وتعاليم البابوية ، كما

---

(1) Byrce : op. cit. p. 155.

(2) Idem, p. 158.

(3) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 271.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 61.

منع القساوسة المتزوجين من الوعظ فى الكنائس وحرم على الناس الاستماع اليهم (١) .

على أنه اذا كان جريجورى السابع قد استطاع مكافحة السيمونية وزواج رجال الدين عن طريق تشريعات داخلية فى الكنيسة ، فانه كان من المتعذر عليه مكافحة مبدأ التقليد العلمانى دون الاصطدام بالحكام العلمانيين ، وعلى رأسهم امبراطور الدولة الرومانية المقدسة صاحب النفوذ السياسى الواسع فى ألمانيا وايطاليا . وتتضح لنا نظرة جريجورى السابع الى الحكام العلمانيين ومكانتهم من رجال الدين فى عبارته الشهيرة « ان قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله ، ان البابا سيد الأباطرة لأنه يستمد قداسته من تراث سلفه القديس بطرس » . أما خير مايلخص آراء البابا جريجورى الخاصة بعظمة الوظيفة وسموها وسلطانها الروحى العالمى ، فهى المجموعة التى تنسب الى ذلك البابا والتى جمعت بعد وفاته بقليل مجمع روما الدينى سنة ١٠٧٥ نحو اتخاذ قرار حاسم بشأن التقليد (حوالى سنة ١٠٨٧) . وتعرف هذه المجموعة باسم الارادة البابوية أو الأوامر البابوية (Dictatus Papae) وأهم موادها (٣) :

- البابا وحده هو الذى يتمتع بسلطة عالمية .
- البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم .
- جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده .
- للبابا الحق فى عزل الأباطرة .
- لا يجوز عقد أى مجمع دينى عام الا بأمر البابا .
- ليس لأى فرد أن يلغى قرارا بابويا ، فى حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس .

---

(1) Eyre : op. cit. p. 135.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 439-400.

- لا يسأل البابا عما يفعل ولا يحاكم على تصرفاته .

- للبابا أن يجيز لرعايا أى حاكم علمانى التحلل من العهود وايمان الولاء التى أقسموها لحاكمهم .

وهكذا يبدو من الآراء السابقة أن جريجورى السابع آمن ايمانا قويا بأن البابا له السلطة العليا فى حكم المجتمع المسيحى Societas Christiani وأنه يعزل الملوك والأباطرة بوصفه نائبا عن القديس بطرس . فاذا امتنع حاكم علمانى عن تنفيذ تعاليم الكنيسة فان لها أن تحاربه بالاسلحة الروحية والمادية **Spiritualibus et Saeclaribus armis** وبعبارة أخرى فان جريجورى السابع رأى أن الطريق الوحيد لاصلاح العالم وتخليصه من الفوضى والشرور ، هو اخضاعه للكنيسة واخضاع الكنيسة للبابوية . لذلك وجه جريجورى السابع مجمع روما الدينى سنة ١٠٧٥ نحو اتخاذ قرار حاسم بشأن التقليد العلمانى هذا نصه :

« ان أى فرد من الآن فصاعدا يتقلد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام العلمانيين ، يعتبر مطرودا من هذه الوظيفة ومحروما من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس . واذا جرؤ امبراطور أو ملك أو دوق أو كونت، أو أى شخص علمانى على تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفته الدينية فانه يحرم من الكنيسة فورا »(٢) .

ومن الواضح أن تطبيق هذا القرار يعنى تحرير كافة رجال الدين فى الأسقفيات والكنائس والأديرة من اشراف الملوك والأمراء فى مختلف البلاد ، كما يعنى جعل البابا فى روما المشرف الوحيد على رجال الدين

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 281.

(2) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 367.

فى العـــالم المسيحى الغربى ، من حيث تعيينهم فى منـــاصبهم والفصـــل فى مشـــاكلهم والاشراف على أعمالهم (١) .

وهكذا أخذت سيـــاسة جريجورى الســـابع تنـــذر بصـــدام عنيف مع الحـــكام العلمانيين ، فرفض وليم الفـــاتح ملك انجلترا الاعتراف بسيادة البابوية والتبعية لهـــا (٢) . فى حين لم يعبـــأ فيلب الأول ملك فرنســـا (١٠٦٠ — ١١٠٨) بآراء البابا وطلباته واســـتمر فى ســـياسته نحـــو الكنيســـة (٣) . أما أبـــاطرة المانيـــا فكان من الطبيعى الا يقبلوا قـــرار جريجورى الســـابع العنيف الذى يمس ســـيادتهم واشرافهم على رجال الدين فى بلادهم ، ولا ســـيما أن نحـــو نصف أراضى ألمانيـــا وثروتها كانت بأيدى رجـــال الدين مـــن أســـاقفة وديريين ، فكان معنى تنفيـــذ قـــرار جريجورى الســـابع خروج هـــذه الأراضى من قبضـــة الامبراطور ودخولها تحت سيطرة البـــابا ، الأمر الذى يجعل الحكومة الامبراطورية ضربا مـــن الشـــكليات أو المســـتحيلات (٤) .

وهكذا أوشكت البـــابوية أن تقـــع فى صـــدام عنيف مع الســـلطة الزمنيـــة ، وهـــو النزاع الذى شـــغل أوربا طوال القرنين التـــاليين ، حتى أصبـــح تاريخها فى تلك الفترة من العصـــور الوسطى يدور حـــول محـــور واحد ، هو البابوية والامبراطورية (٥) .

وهنـــا نشير الى أن جريجورى الســـابع عندما شرع فى تنفيذ سياسته الاصـــلاحية العنيفة لم يعتمد على ســـلاح التشريعات والأوامر البـــابوية التى أصـــدرها فحسب ، وانمـــا اعتمد أيضـــا على ســـلاح قوى ، هم رجـــال الأديرة الكلونية أو « الرهبان الســـود » كما أســـماهم المعاصرون، وهؤلاو كانوا قوة عظمى ســـاندت البابا فى ســـياسته واعتمـــد عليهم فى تنفيذها ، كمـــا اختـــار منهم مندوبيه ورســـله الى الزعمـــاء العلمـــانيين والدينيين (٦) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 64-65.
(2) Adams : The History of England pp. 49-50.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 80.
(4) Bryce : op. cit. p. 156.
(5) Ullmann : Madiaeval Papalism, p. 1.
(6) Hayward : op. cit. pp. 158.

الباب الرابع عشر

الامـبراطورية والبابـوية

عندما توفى هنرى الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة سنة ١٠٥٦ خلفه ابنه هنرى الرابع الذى كان عندئذ فى الســادسة من عمره ، فلبث تحت الوصـــايا مدة تجــاوزت خمس عشرة سنة (١٠٥٦ — ١٠٧٢) (١). ولاشك فى أن قيام صبى قاصر على عرش الامبراطورية تلك السنوات الطويلة كان له تأثير خطير على الامبراطورية وسلطــانها ، فى الوقت الذى نفخت الحركة الكلونية روحا جديدة فى الكنيســة الغربية أدت الى ازدياد نفــوذ البابوية التى وجدت حلفاء أقوياء لهــا فى النورمان بجنــوب ايطاليا مــن جهة وفى كونتية تسكانيا من جهة أخرى (٢) .

ولم يكن منتظرا أن تستطيع آجنى Agnes — أم هنــرى الرابـــع وصـــاحبة الوصـــايا عليه — الوقوف فى وجه كبـــار الدوقات والأمـــراء ، فدبر آنـــون Annon — رئيس أساقفة كولونيا — مؤامرة لخطف الملك الصغير ووضعه تحت وصـــايته سنة ١٠٦٢ (٣) ، الأمر الذى اســـتدعى تنحى الامبراطورة الوالدة عن الوصايا بعد ست سنوات (١٠٥٦ — ١٠٦٢) ثم تسليم مقاليد الحكم لهنرى الرابع ســـنة ١٠٦٥ على الرغم من أنه كان وقتئذ فى الخامسة عشر من عمره (٤) . ويبدو أن السلطة الفعلية فى الدولة أصبحت فى تلك الفترة بأيدى أدالبرت Adalbert رئيس أساقفة برمن الذى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 112.

(2) Eyre : op. cit. p. 137.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 351.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 122.

كان رجــلا طموحا فسيطر على شــئون الكنيسة والدولة جميعا ، واستباح أموال الأديرة وغيرها من المؤسســات الدينيــة وغير الدينية . هــذا فى الوقت الذى اســتطاع أدالبرت أن يحتفظ لهنرى الرابــع بســلطانه على الجزء الشــمالى من ألمانيــا (١) . على أن هــذا الوضع لم يلبث أن أثار حنق الأمراء ، فعقــدوا مؤتمرا فى تريبور Tribur سنة ١٠٦٦ وخيروا الملك الصغير بين عزل أدالبرت أو ترك العرش ، فاختار الملك الحل الأول ، وان ظــل أدالبرت محتفظــا بنفــوذه خــلال فترات متقطعة (٢) . وهكذا لم يتيسر ايجــاد حــل للموقف يكفل للامبراطورية شيئــا من الاستقرار ، فقامت ثورة فى ثورنجيــا ســنة ١٠٦٩ وأخرى فى بافاريا ســنة ١٠٧٠ ، كمــا أخذت ايطــاليا تفلت تدريجيا من قبضة الامبراطوية (٣) .

وبوفاة أدالبرت ســنة ١٠٧٢ يمكن القول بأن هنرى الرابع أخــذ يبــاشر الحــكم فى صــورة عملية . ويبدو أنه كان قليل الثقــة فى ولاء أهــالى الأجزاء الشــمالية من ألمانيا فاختار وزراءه المقربين من مقــاطعة سوابيا الجنوبية التى ينتمى هــو اليها ، وأكثر من تشــييد القــلاع فى سكســونيا وثورنجيا فى الشــمال (٤) ، كما حشــد تلك القــلاع بالجند الذين أتوا كثيرا من أعمــال العبث والاعتداء على الفلاحين . ولم تلبث هــذه السيــاسة التى انتهجهــا هنرى الرابــع أن استثارت غضب أمراء الشــمال ، فثارت سكســونيا وبافاريا ســنة ١٠٧٣ ، واشترك فى هذه الثورة الأمراء ورجال الدين فضــلا عن المزارعين الأحرار (٥) . وعندما نجح هنرى الرابع فى اخمــاد تلك الثورة ســنة ١٠٧٥ صمم على حــكم البــلاد حكمــا استبداديا ، وان كان هــذا الأســلوب لم يؤد الى ما كان يطمع فيه من استقرار الأوضــاع فى ألمانيا ، وخاصــة فى سكســونيا التى

---

(1) Barraclough : op. cit. pp. 93-94.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127-128.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 447-448.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127-128.

(5) Barraclough : op. cit. p. 95.

ظلت تتحين الفرص للثورة ضد الملك ، مما جعلها تلعب دورا مهما في الصراع المقبل بين هنرى والبابوية (١) .

وفى ذلك الوقت كان الكاردينال هلدبراند قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم البابا جريجورى السابع . ويبدو أن الأساقفة الألمان خشوا بأس البابا الجديد لما عرف عنه من شدة وصرامة ، فحرضوا هنرى الرابع على الغاء تعيينه بحجة أنه لم ينتخب بالطريقة الشرعية التى نص عليها مجمع روما الدينى سنة ١٠٥٩ ، وانما أوصى البابا اسكندر الثانى باختياره خليفة له مما جعل جموع المصلين على البابا الراحل تنادى بهلدبراند بابا فى كنيسة القديس بطرس بروما (٢) . ولكن هنرى الرابع اختار ألا يطيع أساقفة ألمانيا فيما ذهبوا اليه ، واكتفى بأن أرسل الى روما مستفسرا عن الظروف التى أحاطت باختيار البابا الجديد . وهنا أظهر جريجورى السابع — هو الآخر — كثيرا من الاعتدال ، فأجل بقية المراسيم الخاصة بتوليه المنصب البابوى حتى تتم موافقة هنرى الرابع على اختياره ، ولم تلبث أن صدرت هذه الموافقة فى يونيو ١٠٧٤ . وليس أدل على حسن التفاهم بين الملك هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع فى تلك المرحلة من أن الأول استقبل البعثة التى أوفدها البابا الى ألمانيا سنة ١٠٧٤ بكل ترحاب ، كما وافق هنرى على فصل خمسة من كبار أعوانه كان البابا اسكندر الثانى قد اتهمهم بالسيمونية وأصدر قرار الحرمان ضدهم (٣) .

على أن جريجورى السابع لم يلبث أن شرع يعالج أمراض الكنيسة فى شدة وحزم . وكان أن استغل البابا فرصة الاضطرابات التى نشبت فى سكسونيا وأصدر فى ديسمبر سنة ١٠٧٤ قرارا بمنع جميع القساوسة المتزوجين فى ألمانيا من مباشرة الطقوس الدينية فى الكنائس ، مما أوجد حالة من الاستياء وعدم الاستقرار (٤) . وبعد عدة أشهر —

---

(1) Eyre : op. cit. p. 137.
(2) Hayward : op. cit. pp. 156-157.
(3) Barraclough : op. cit. p. 108.
(4) Ibid.

أى فى فبراير ١٠٧٥ - أصـدر جريجورى السـابع قراره العنيف ضـد التقليد العلمـانى ، كما سـبق أن أشرنا ، الأمر الذى أزعج هنرى الرابع بوجه خـاص وبقية ملوك الغرب بوجه عام وأثار مخـاوفهم جميعـا (١) . ذلك أن حرمان الملك من حق تعيين رجال الدين معنـاه قلب نظام الحـكم فى الامبراطورية رأسـا على عقب ، مما تطلب من هنرى اتخـاذ موقف حازم تجاه القرار البـابوى السـابق . وكان أن تجمعت عدة عوامل لتساعد هنرى على الصـمود فى وجه البابا ، أهمها فراغه من ثورة سكسـونيا فضلا عن تأييد الأسـاقفة الألمان له لتخوفهم من شـدة البابا الجديد وعنفه (٢). ومهما يكن من أمر فقد أدت سياسة جريجورى السـابع من ناحية وموقف هنرى الرابع من هـذه السياسة من ناحية أخرى ، الى فتح باب النزاع بين البـابوية والامبراطورية فى العصـور الوسطى . والواقع أن هـذا النزاع - الذى بدأ حول مشـكلة التقليد العلمانى - له أهميته البالغة فى التاريخ ، لأنه أعمق من مجرد خـلاف شكلى حول بعض المراسيم الكنسية - كما يظن البعض - وربما كان من الأصـوب أن نتذكر دائما أن تقليد رجـال الدين والنزاع الذى نشـأ حول هذا التقليد ، لم يكن سـوى محورا للحركة الاصـلاحية الكنسية الكبرى ، وهى الحركة التى أكسبت ذلك العصر طابعه العـام (٣) .

وقد مر النزاع بين البابوية والامبراطورية بعدة أدوار ، يحسن أن نعالج كلا منها على حدة ، مع عدم اغفـال بقية التطورات التاريخية التى تعرضت لهـا الامبراطورية المقدسة خـلال حوادث النزاع .

الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

شـاءت الظروف أن يتبلور النزاع بين جريجورى السـابع وهنرى الرابع حـول شغل بعض الأسقفيات الشـاغرة ، وبخاصـة فى شـمال

(1) Bryce : op. cit. p. 156.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 128.
(3) Eyre : op. cit. p. 137.

ايطـــاليا ، اذ أصر كل من البابا والملك على أنه له وحده حق تعيين مـــن يشغلون هذه المنـــاصب ، وتمسك كلاهما برأيه لأنه رأى فى انتصار خصمه تحطيمـــا للمبدأ الذى يسعى هو من أجل تحقيقه . فهنرى الرابع وجد فى تمسكه برأيه محافظة على حقه الذى ورثه عن أســـلافه ، وأن نجـــاحه فى فرض رأيه أمر تتوقف عليـــه هيبتـــه فى ايطـــاليا وغير ايطـــاليا من بلدان الامبراطورية ، ولذلك أسرع بتعيين اثنين من أتبـــاعه فى أسقفيتى فرمـــو Formo وسبوليتو Spoleto على الرغم من أن هاتين الأسقفيتين تقعان فعلا داخل منطقة النفوذ البابوى (١) . أما جريجورى السابع فقد تمسك من جانبه بنظرية السمو البابوى بحـــكم أن البابا خليفة المسيح فى الأرض ووريث القديس بطرس فى الغرب ، كمـــا اعتبر نجـــاحه فى فرض رأيه على الامبراطور أمرا تتوقف عليه هيبته ومستقبل البابوية فضلا عن سياسته فى الاصـــلاح الكنسى ، وهى السياسة التى شرع فعلا فى تنفيذها .

ثم كان أن تأزم الموقف بشكل خطير عندما عين هنرى الرابع أســـقفا جديدا لميلان — هو تدالد Tedald — سنة ١٠٧٥ ، وحينئذ أدرك البابا أنه لابد من العمل السريع (٢) . ويبدو أن جريجورى الســـابع كان مستعدا عندئذ للتحـــدى والنزال ، فأرســـل رســـالة شديدة اللهجـــة الى هنرى الرابع فى أواخر ســـنة ١٠٧٥ أنذره فيها بالعزل وهدده بالويل والثبور ان لم يخضـــع لرأى البـــابوية . وفى ذلك الوقت ثارت ثائرة الملك فعقد مجمعا فى ورمز Worms (يناير ١٠٧٦) قرر بطـــلان انتخـــاب البابا جريجورى الســـابع ثم عزله من منصـــبه (٣) . وعندما سمع جريجورى الســـابع بهذا القرار قابله بشىء من الهدوء ، فدعا هو الآخر مجمعـــا فى الفـــاتيكان (فبراير ١٠٧٦) قرر توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابـــع وعزله من منصـــبه وتحرير جميع رعاياه وأتبـــاعه من أيمان الطـــاعة التى أقسموها له ، وبذلك بدأت الحرب ســـافرة بين العاهلين (٤) .

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 451.
(2) Fliche : l'Europe Occidentale, Vol. 1, p. 370.
(3) Barraclough : op. cit. p. 109.
(4) Hayward : op. cit. p. 160.

ومع أن موقف الطرفين كان حرجا وصعبا ، الا أنه من الواضح أن هنرى الرابع وجد نفسه فى موقف أشد صعوبة من خصمه ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد على عطف كثيرين من أبناء العالم المسيحى بوصفه الأب الروحى للكنيسة ، فى حين كان هنرى الرابع لا يستطيع الاعتماد حتى على ولاء رعاياه بعد أن وقع عليه البابا عقوبتين : الأولى عقوبة الحرمان بوصفه مسيحيا ، والثانية عقوبة العزل بوصفه ملكا (١). وبعبارة أخرى فان كفتى البابوية والامبراطورية لم تكونا متعادلتين مطلقا عند بداية النزاع ، بل طيلة الأدوار التالية التى مر بها ذلك النزاع ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد دائما على أسلحة قوية أهمها شعور المعاصرين وعواطفهم فضلا عن الأسانيد المستقاة من الكتابات الدينية التى تشهد بسمو مركز الكنيسة ورجالها ، فى حين لم يكن للامبراطور سوى سندين : أولهما القانون الرومانى الذى يمجد الامبراطورية وسلطتها وهو مستمد من أصول وثنية يسهل على البابوية الطعن فيها ، وثانيهما الجيش الامبراطورى الذى ثبت عجزه فى أكثر من مناسبة عن اخضاع البابوية(٢). والواقع أن هنرى الرابع لم يجد له نصيرا سوى تلك الفئة القليلة من رجال الدين الألمان الذين عرفوا بالسيمونية وسوء السيرة ، وهؤلاء لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلقية ما يجعل منهم سندا حقيقيا للملك . أما ذوو المكانة من القديسيين وكبار رجال الدين فقد شايعوا جميعا البابوية فى موقفها المعادى للملك (٣) . وسرعان ما انتهز السكسون فرصة قرار البابا بتحرير اتباع هنرى الرابع ورعاياه من أيمانهم وتعهداتهم وثاروا ضده ثورة عنيفة ، حتى طردوا الحاميات الملكية من أراضيهم(٤). وهكذا تلفت هنرى الرابع حوله فلم يجد من يعتمد عليه من الدوقات والأمراء ، اذ كانوا جميعا يخشون نزعته الاستبدادية . وكان أن عقد

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 301.

(2) Ullmann : Medieval Papalism, p. 76.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 68.

(4) Eyre : op. cit. p. 138.

أمـــراء ألمانيا وأســـاقفتها مجمعا فى تريبور Tribur (أكتوبر ١٠٧٦) قرروا فيه الخروج عن طاعة هنرى الرابع وانذاره باختيار ملك غيره على ألمانيا ان لم يغفر له البـــابا فى مدة أقصـــاها فبراير ١٠٧٧ على أن يقضى الفترة بين أكتوبر ١٠٧٦ وفبراير ١٠٧٧ فى أحد الأديرة محروما من جميـــع شـــعائر الملكية وحقوقها (١) .

وكان أن انسحب هنرى الرابع الى ذلك الدير يفكر فى موقفه ، وان كان الموقف فى غير حاجـــة الى تفكير طويل . ذلك أنه وجد نفســـه وحيدا أمام خصم عنيد لا يرحم ، فلابد له من التراجع والاستســـلام اذا أراد انقاذ عرشـــه ، ولا سيما أن الأمراء الألمان وجهوا الدعوة الى البـــابا للحضور الى أوجسبرج ، ممـــا تطلب من هنرى الرابع سرعة العمل قبل أن يجتمع أعداؤه فى ألمانيـــا فيؤدى ذلك الى مظـــاهرة عدائية ضـــد الملك تضعف مركزه وتجعل البـــابا يتشـــدد فى موقفه (٢) . وأخيرا لم يجد هنرى الرابع أمامه حـــلا ســـوى أن يرحل سرا الى البـــابا ، فى الوقت الذى كان الأخير قد بدأ رحلتـــه فعلا الى ألمانيا ، ولكنـــه أسرع بالعودة عندما علم أن خصمه هنرى الرابع عبر الألب اليه ، واحتمى البـــابا فى قلعة كانوسا التـــابعة لحليفته ماتيلدا أميرة تســـكانيا (٣) . وكان البرد قارسا عندما أخذ هنرى الرابع يصعد الطريق الجبلى الوعر الى قلعـــة كانوسا ، حيث بقى ثلاثة أيام واقفـــا على الجليد أمام أبواب القلعة الموصـــدة فى وجهه ، حتى تعطف البـــابا وســـمح له بالمثول بين يديه على شرط التسليم للبابوية بكل ماتطلبه دون قيد (يناير ١٠٧٧)(٤) . ويقال أن هنرى الرابع دخل على البـــابا حافى القدمين ، مرتديا ثوبا من ثيـــاب الرهبان المصنوعة من الصـــوف ، حتى اذا ما وجد نفســـه أمام خصمـــه ارتمى بين قدميـــه وانفجر باكيا وهـــو يصيح « اغفر لى أيها الأب المقدس » ، فغفر له البـــابا بعد أن فرض عليه شروطا قاسية وزوده بالنصـــح والارشـــاد (٥) .

---

(1) Tout : The Empire and The Papacy, p. 130.
(2) Barraclough : op. cit. 110.
(3) Stephenson : Med. Hist. p. 291.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 69.
(6) Hayward : op. cit. p. 161.

وهكذا استطـــاع هنرى الرابع أن يكتسب غفران البابا ويطالب بولاء رعاياه ، ولكن بعد أن دفع ثمنـــا باهظا كلفه كل ما يمتلك من كرامة وهيبة. فهـــا هو حاكم الامبراطورية العظيم يذل نفســـه للبابوية ويعترف بحقهـــا حرمانه من رعاية الكنيســـة وعزله من وظيفته . وها هو خليفة قيصر وشـــارلمان ارتضى أن يقف البـــابا موقف الحـــكم بينه وبين شعبه ، ان شـــاء أمرهم بالخروج عن طاعته وان شـــاء أمرهم بالامتثـــال له . لذلك ليس من المبـــالغة أن نقرر أن الضربة التى أنزلتها البـــابوية بالامبراطورية فى كانوســـا كانت قاصمة ، وأن الأخيرة لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة مطلقـــا بعد ذلك (١) .

والواقع ــ كما يبدو فى ضـــوء التطورات التـــالية ــ أن هنرى الرابع لم يســـتفد كثيرا من مقابلة كانوســـا ، كما أن هـــذه المقـــابلة لم تـــكن مكسبـــا على طول الخط بالنســـبة لجريجورى الســـابع (٢) . حقيقة أن البـــابا خرج من هذه الجولة مرفوع الرأس بعد أن حقق سمو البابوية . ولكن مسلك جريجورى الســـابع العنيف أثار اســـتياء نسبة كبيرة من الرأى العـــام فى العـــالم المسيحى ، فعاب كثيرون على البابا شدته وقسوته ، وهو رجل الدين الرحيم والأب الروحى الذى يجب أن يتحلى بروح التسامح والعفو عند المقدرة . أما هنرى الرابع فسرعان ما استكشف أن خســـارته فى كانوسا فاقت مكســـبه لأن خضوعه للبـــابوية على ذلك الوجه المزرى لم يفده شيئـــا فى استرضاء أعدائه وخصومه الخـــارجين عليه فى ألمانيا ، بل أن أنصـــاره من اللمبارد فى شـــمال ايطـــاليا ســـاءهم أن يريق الملك ماء وجهه على تلك الصورة المشينة فنادوا بخلعه واحـــلال ابنه محله (٣). هذا فى الوقت الذى اعتبر امراء ألمانيا قرار الملك سرا الى كانوسا خروجـــه على العهد الذى أخذه على نفســـه تنفيـــذا لقرارات تريبور التى قضت بانزوائه فى أحد الأديرة حتى يغفر له البـــابا (٤) . ولذلك عقد الأمراء الألمان

---

(1) Orton : op. cit. p. 212.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 132.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 455.
(4) Barraclough : op. cit. p. 110.

مؤتمرا فى فورخهايم Forchheim (مارس سنة ١٠٧٧) قرروا فيه عزل هنرى الرابع عن العرش واختيار رودلف دوق سوابيا ملكا بدله . وهنا حرص الأمراء قبل البدء فى الاجراءات الخاصة بتتويج الملك الجديد على يد أسقف مينز ، على أن يأخذوا عليه موثقا بألا يطالب بأى حق وراثى لأبنائه فى العرش وألا يتدخل فى حرية انتخاب الأساقفة (١) .

على أن شعور العطف على هنرى الرابع أخذ يتزايد فى سرعة حتى بلغ حدا أصبحت عنده معظم ألمانيا فى جانبه ، ما عدا سكسونيا التى ناصرت رودلف . وقد استمرت الحرب الأهلية بين الطرفين قرابة ثلاث سنوات (١٠٧٧ — ١٠٨٠) ، ولا يعنينا من حوادثها الكثيرة المعقدة سوى أنها فتحت باب النزاع من جديد بين هنرى الرابع وجريجورى السابع . ذلك أن البابا اختار أن يقف على الحياد فى المرحلة الأولى من مراحل الحرب بين هنرى ورودلف حتى يحصل من الطرفين على اعتراف بسيادته (٢) . وعندما انتصر رودلف على خصمه فى موقعة فلارخهايم Flarchheim (يناير سنة ١٠٨٠) أعلن البابا رأيه صراحة فى أنه يؤيد رودلف وانصاره من السكسون ، فعقد مجمعا دينيا فى مارس من نفس السنة قرر اعادة توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع واقصائه عن عرش الامبراطورية (٣) .

وهكذا أخذ جريجورى السابع ينادى بأنه قبل أن تحل بداية العام التالى سيكون هنرى الرابع قد فقد عرشه وحياته جميعا ، ولكن شاءت الظروف ألا تحقق له شيئا من أمانيه . ذلك أن هنرى الرابع أدرك انها معركة حياة أو موت فأظهر اصرارا وحماسة بالغين ولا سيما بعد أن آمن بوجود أنصار كثيرين له فى ايطاليا وألمانيا (٤) . لذلك رد هنرى الرابع على البابا بعقد مجمع آخر فى بركسن Brixen (يونية سنة ١٠٨٠)

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 132.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 72.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 409.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 133.

دعا اليه أنصـــاره من أســـاقفة ألمانيا وشـــمال ايطاليا ، وقرر هذا المجمع عزل البـــابا جريجورى الســـابع وحرمانه من الكنيسة وانتخـــاب جيوبرت رئيس أساقفة رافنا ليخلفه فى منصب البابوية (١) . وقد امتاز هذا البابا الجديد ـــ الذى اتخذ اسم كلمنت الثالث ـــ بالخبرة الطويلة والكفاية العظيمة فأسرع عقب مؤتمر بركسن الى رافنـــا ليوجه الأمور فى شمال ايطاليا ضـــد منافســـه جريجورى الســـابع . وهكذا اشـــتد النضـــال وتعقد الموقف ، بعد أن وجد على المسرح اثنـــان من البابوات يتنازعان الكرسى البـــابوى واثنان من الملوك يتجاذبان عرش الامبراطورية(٢) واختار الحظ أن يقف فى جانب هنرى الرابع وكلمنت الثالث فى ألمانيا وايطاليا جميعا ، اذ دارت معركة حامية (أكتوبر سنة ١٠٨٠) على ضفـــاف نهر السنر Elster انتصر فيها حزب رودلف من السكسون ولكن رودلف نفسه قتل وبذلك استراح هنرى الرابع من منافس خطير (٣) . وعندما وجد هنرى الرابع السكسون أضـــاعوا ثمرة انتصـــارهم فى الخـــلاف حول اختيار خليفة لرودلف ، أسرع بعبـــور جبال الألب الى ايطاليا (مارس ١٠٨١) لمواجهة خصمه اللدود جريجورى الســـابع . وكان أن اجتمع هنرى الرابع بنصيره كلمنت الثالث فى رافنا ثم تقدم على رأس قواته صـــوب روما (٤) . وفى تلك المرحلة الحاسمة لم يجد البابا ســـندا يعتمد عليه ســـوى قوة حليفته الأميرة ماتيلدا من جهة وقوة النورمان من جهـــة أخرى . ولكن شـــاء ســـوء حظ جريجورى الســـابع أن تصـــاب قوات الأميرة ماتيلـــدا بهزيمة ســـاحقة عند فـــولتا Volta قرب مانتوا ، فى حين كان روبرت جويسكارد النورمانى مشغولا بمشروعه الخاص بغزو الدولة البيزنطية ، ممـــا جعل الطريق مفتـــوحا أمام هنرى الرابع الى روما (٥) . أما جريجورى الســـابع فلم يفقـــد ثبـــاته فى ذلك الموقف وانمـــا اعتمد على حصـــانة روما ، وبذلك ظـــل هنرى الرابـــع فى

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 351-352.

(2) Barraclough : op. cit. p. 125.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 413.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 78.

(5) Barraclough : op. cit. p. 125.

ايطاليا نحو ثلاث سنوات (١٠٨١ — ١٠٨٤) هاجم خلالها روما عدة مرات دون أن يستطيع الاستيلاء عليها الا بعد رشوة الحراس لفتح أبواب المدينة (مارس ١٠٨٤) . وفى روما أسرع هنرى الرابع الى دعوة مجمع دينى قرر عزل جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة ، وأعقب ذلك اعتلاء كلمنت كرسى البابوية فى روما وتتويج هنرى الرابع امبراطورا فى كنيسة القديس بطرس (١) .

أما جريجورى السابع فكان قد احتمى بسانت أنجيلو — قلعة روما الحصينة — ومن هناك أرسل يستحث حلفاءه النورمان فى جنوب ايطاليا للاسراع الى نجدته . وكان أن تقدم جويسكارد النورمانى نحو روما ، لا حرصا على مساعدة البابا جريجورى السابع ولكن خوفا من ازدياد نفوذ هنرى الرابع فى ايطاليا مما يهدد مصالح النورمان ومطامعهم (٢) . ولم يكن هنرى الرابع على درجة من القوة تمكنه من الوقوف فى وجه النورمان، فآثر مغادرة روما قبل أن يصلوا اليها ، واتجه الى ألمانيا حيث كانت الظروف تستدعى وجوده (٣) . وهنا أسرع أهالى روما الى أغلاق أبواب مدينتهم فى وجه النورمان خوفا من عبثهم ، مما تطلب من جويسكارد استخدام العنف حتى اقتحم المدينة (مايو ١٠٨٤) ، فانساب رجاله فى شوارعها ينهبون ويدمرون ويحرقون كل ما صادفهم حتى احترقت أحياء بأكملها وبيع آلاف من أهل روما فى أسواق الرقيق ، ثم انسحب النورمان بعد ذلك الى جنوب ايطاليا ، تاركين روما تنعى مجدها وحرمتها (٤) . وقد أثارت هذه الأحداث الرأى العام ضد جريجورى السابع الذى تسبب فيما حل بروما على أيدى حلفائه النورمان . لذلك خشى جريجورى السابع أن يبقى وحيدا فى روما وسط مظاهر السخط التى أحاطت به ، وآثر مرافقة حلفائه

---

(1) Hayward : op. cit. p. 162.

(2) Tout : The Empire and The Papacy, p. 135.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 420.

(4) Haskins : The Normans in European History, p. 205.

النورمان الى سالرنو حيث مرض ومات فى مايو سنة ١٠٨٥ (١) . وكانت آخر عبارة فاه بها جريجورى السابع وهو على فراش الموت قوله « لقد أحببت العدالة وكرهت الظلم ولذا أموت مغتربا » (٢) .

على أن وفاة جريجورى السابع لم تضع حلا لمشكلة التقليد العلمانى لأن البابا كلمنت الثالث لم يستطع البقاء فى روما بعد أن حولها النورمان الى حطام ، فغادرها الى رافنا بشمال ايطاليا . وهكذا ظل الكرسى البابوى شاغرا فى روما زهاء سنة بعد وفاة جريجورى السابع حتى اجتمع الكرادلة واختاروا فكتور الثالث لمنصب البابوية (مايو ١٠٨٦) (٣) . وكان هذا البابا الجديد صديقا حميما لجريجورى السابع ومن أنصار مبادئه ، ولكنه كان — بحكم كبر سنه — أضعف من أن يقوم بالدور الذى قام به سلفه العظيم . وعند وفاة فكتور الثالث فى أواخر سنة ١٠٨٧ اختار الكرادلة رجلا أصلب عودا هو البابا أوربان الثانى الذى شابه جريجورى السابع فى تحمسه للاصلاح الكنسى ، ولكنه امتاز عنه بالحرص والمهارة فى انتقاء الوسائل التى ينفذ بها أغراضه ، معتمدا على التحالف بين البابوية من جهة والأميرة ماتيلدا والنورمان من جهة أخرى (٤) . على أن أوربان الثانى لم يستطع الاقامة فى روما طويلا بسبب احتلال قوات البابا الامبراطورى — كلمنت الثالث — لقلاعها ، فاتجه الى جنوب ايطاليا حيث قضى السنوات الأولى من عهده تحت حماية روجر الأول النورمانى (٥) . وكان أهم ما قام به أوربان الثانى فى تلك الفترة العمل على توحيد حركة المقاومة ضد هنرى الرابع فى ألمانيا وايطاليا ، وذلك عن طريق عقد زواج سياسى سنة ١٠٨٩ بين الأميرة ماتيلدا حليفة البابوية وأحد أبناء الأمير ولف Welf الخامس دوق بافاريا ، وهو أقوى منافسى هنرى الرابع (٦) .

---

(1) Hayward : op. cit. p. 162.
(2) Bryce : op. cit. p. 160.
(3) Hayward : op. cit. p. 163.
(4) Barraclough : op. cit. p. 126.
(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 137.
(6) Fliche ; l'Europe Occidentale, p. 435.

وفى ذلك الوقت كانت الأحوال قد هدأت نسبيـــا فى ألمانيا ، فأخذ هنرى الرابع يوجه نشـــاطه نحو ايطاليا وانتقل اليها من جديد سنة ١٠٩٠ (١) . وامتازت الأعمال الحربية التى قام بها هنرى الرابع فى ايطاليـــا بين سنتى ١٠٩٠ — ١٠٩٢ بالنجاح والتوفيق ، فاجتاح أراضى الأميرة ماتيلدا واستولى على مدنها وقلاعها ، ما عدا قلعة كانوسا التى منى بالفشل أمامها لمناعتها(٢) . ويبدو أن عجز هنرى الرابع أمام كانوسا شجع خصومه ، فحرضوا ابنـــه كونراد على الثورة ضد أبيه سنة ١٠٩٣ وانحاز كثير من المدن اللمبـــاردية الى الابن الثائر الذى توج فى ميلان ملكا على ايطاليا فى السنة نفسها ، وقام بتتويجه رئيس أساقفتها انسلم بموافقة ماتيلدا أميرة تســـكانيا وزوجهـــا الولفى (٣) . أما البابا أوربان الثانى فقد شجعته هذه الأحداث على العودة الى روما فى أواخر سنة ١٠٩٣ ، ومن ثم أخذ يجوب البلاد ويعقد المجـــامع الدينية لتقوية جانب الكنيسة . وكان أن أعلن البابا أوربان الثانى الحرب الصليبية ضـــد المسلمين فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ ، وبذلك حقـــق للبابوية نصرا عظيمـــا وجعل منها الزعيمة الفعلية للعالم المسيحى فى صراعه الطويل ضد المســـلمين (٤) .. وقد أدت هذه الأوضاع الجديدة بالامبراطور هنرى الرابع الى مغادرة ايطاليا يائســـا سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ لم يجد أمامه حلا ســـوى تسوية مشاكله فى ألمانيا تسوية هادئة ، فعين الابن الأكبر للامير ولف دوقا على بافاريا فى حين أقنع الابن الأصغر لذلك الأمير بترك عروسه ماتيلدا التى تكبره ســـنا . أما كونراد — ابن الامبراطور — فقد حرمه أبوه من وراثة العرش وأحل محله أخاه الصغير الذى توج فى حياة أبيه (٥) .

ولم ينقطع البابا أوربان الثانى فى تلك الأثناء عن العمل على توطيد مركزه فى ايطاليا وتصفية المشاكل المعلقة بين البـــابوية والنورمان فى الجنوب ،

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 146.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 137.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, pp. 440-441.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 147.

(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 138.

وذلك عندما توفى فجأة فى يوليو ١٠٩٩ ثم لحق به منافسة البابا الامبراطورى كلمنت الثالث فى العـــام التالى . وعلى الرغم من أن هنرى الرابع رغب حينئذ فى الصلح مع البابوية الا أن الشروط التى طلبهـــا أوربان الثـــانى ثم تمسك بهـــا خليفته باسكال الثانى جعلت هذا الصلح أمرا متعذرا (١) . ذلك أن البابا الجديد باسكال الثانى الذى تم انتخابه فى أغسطس سنة ١٠٩٩ كان شـــديد التمسك بمبادىء جريجورى السابع وآرائه ، ومن ثم بدأ أعمـــاله باصدار قرار الحرمان للمرة الثالثة ضد هنرى الرابع ، كما أخـــذ يحرض السكسون ضده حتى ثاروا بزعامة ابنه هنرى الصغير سنة ١١٠٤ (٢) . ويبدو أنه لم يتبق لدى هنرى الرابـــع وقتئذ من الصبر والعزيمة ما يكفى للدخول فى صراع جديد ضـــد البابوية ، فاستسلم لابنه هنرى الخـــامس وتنـــازل عن العرش سنة ١١٠٥ ثم لم يلبث أن توفى الأب فى العام التالى .

وسرعان ما أدرك هنرى الخامس أن خيانته لأبيه لم تفده كثيرا ، وأن البـــابوية التى اعترفت به ملكا فى حياة أبيه أخذت تعكر أمامه الجو داخل ألمانيا وخارجها . هذا فى الوقت الذى استكشفت البابوية أن هنرى الخامس لم يقل عن أبيه تمســـكا بحقوقه فى التقليد العلمانى ، وأنه أخذ — بمجـــرد اعتلائه العرش — يملأ الأسقفيات الشـــاغرة فى الامبراطورية وفق هـــواه دون الرجوع الى رأى البابوية (٣) . وهكذا استمرت مشكلة التقليد العلمانى بدون حل ، اذ تمسك كل من البـــابا والامبراطور بحقوقه فى تقليد الأساقفة . وبعد أن قضى هنرى الخامس سنتين فى حروب ضد هنغاريا وبوهيميا ، عزم على تصفية الموقف مع البابوية . ولكن هنرى الخامس — على النقيض من والده — قرر الاتفاق أولا مع كبار الأمراء ليجعل من ألمانيا جبهة متحـــدة تســـانده فى صراعه المقبل مع البابوية (٤) وهكذا استطاع هنرى الخامس أن يستأنف معركة التقليد العلمانى وهو مطمئن تمـــاما الى مســـاندة أمراء

---

(1) Barraclough : op. cit. pp. 126-127.

(2) Hayward : op. cit. p. 170.

(3) Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 454-455.

(4) Baraolough : op. cit. pp. 128-129.

ألمانيا وأساقفتها ، فرحل الى ايطاليا سنة ١١١٠ على رأس جيش من ثلاثين ألف مقاتل ليتوج امبراطورا فى روما وليثبت حقـوق الامبراطـورية (١) وفى تلك المرة لم يصـادف هنرى الخـامس مقـاومة تذكر فى ايطـاليا بسبب حالة الانقسـام التى كانت تعانيها من جهة وعدم كفاية البابا باسكال الثانى من جهة أخرى . وربما كان من العوامل التى أضعفت مركز البابا فى تلك المرحلة أن ماتيدا — أميرة تسكانيا — وهى الحليفة التقليدية للبـابوية فى نضـالها ضد الامبراطورية ، أسرعت هذه المرة بالخضوع لهنرى الخامس وأعلنته وريثا لها فى اماراتها ، وبذلك نكثت عهدها السابق بمنح أراضيهـا للبابوية (٢) . وفى هذه المحنة لم يبق أمام البابا باسكال الثانى سـوى أن يفكر فى الوصول الى حل سلمى مع هنرى الخامس عندما اقترب الأخير من روما على رأس قواته فى أوائل سنة ١١١١ (٣) .

اما شروط الاتفاقية التى عرضها البابا على هنرى الخامس فجـاءت غريبة فى طابعها جديدة فى نوعها ، اذ تقضى بأن تتنازل الكنيسة عن كل ما لها من أراض وحقوق اقطاعية وقضائية حصلت عليها منذ أيام شارلمان (٤) ، مكتفية بالعشور وبما يتبرع به الخيرون ، وفى مقابل ذلك تنتهى مصـلحة الامبراطور فى التمسك بتقليد الأساقفة ، ويترك هذا الحق للبـابا وحده . ومن هذا العرض يتضح مدى استعداد الكنيسة للتضحيـة بكل ما تمتعت به من حقوق وامتيازات دنيوية مقـابل احتفاظها بحقوقها الروحية ، وعلى رأسـها تقليد الأساقفة والاشراف عليهم (٥) . ومن الطبيعى أن يقبل هنرى الخـامس هذا العرض الذى يعطيه ملكية ضياع الكنيسة الواسعة ، ولكن المشكلة كانت تكمن فى موقف الأسـاقفة ورجال الكنيسة الذين سـيفقدون

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 155.

(2) Barraclorgh : op. cit. p. 129.

(3) Orton : op. cit. p. 216.

(4) Barraclough : op. cit. p. 129.

(5) Thompson ; op. cit. Vol. 1, pp. 460-461.

أملاكهم وحقوقهم وينخفضون فى معيشتهم الى مستوى معين لم يعتادوه فى القرون الأخيرة (١) . وعندما اكتظت كنيسة القديس بطرس فى روما بالجموع التى وفدت لمشاهدة تتويج الامبراطور فى يوم الأحد ٢٢ فبراير سنة ١١١١ ، بدأ البـــابا الحفل بقراءة نص الاتفاقية الجديدة بينه وبين هنرى الخامس ، فثار الأســـاقفة الألمان والايطاليون جميعـــا واشتد ســـخطهم على البـــابا الذى قبل أن يضحى بأملاكهم وحقوقهم مع احتفاظه هو بحقوق البـــابوية وأملاكها سليمة لم تمس (٢) . ولم تلبث أن امتدت الثورة الى طرقات روما حيث أخذ الناس يعملون القتل فيمن يصادفونه من الألمان ، مما جعل البـــابا يعدل عن الاتفاقية ويواجه هنرى الخامس وحيدا دون نصير . وكان أن ألقى ملك ألمانيا القبض على البابا والكرادلة وأجبرهم على الرضوخ له فى مسألة التقليد العلمانى ، فرضى البابا أن يقوم الملك بتعيين الأساقفة وتقليدهم حسبما يرى ، بذلك انتصر هنرى الخامس وثأر لما حل بأبيه فى كانوسا (٣) .

على أن المخلصين من أبناء الكنيســـة لم يرضوا عن هذا الاستســـلام فاشتد حنقهم على البـــابا باســـكال الثانى ، ولم يجد البابا مخرجا من موقفه ســـوى نقض الاتفاقية المعقودة بينه وبين الامبراطور ، على أســـاس أنها تمت تحت تأثير الضغط والارهاب (٤) . وهكذا أخـــذت الصعـــاب تحيط بالامبراطور هنرى الخـــامس لا سيما بعد أن دبرت بعض المؤمرات وقامت عدة ثورات ضـــده فى أنحـــاء متفرقة من ألمانيا (٥) . وفى ذلك الوقت توفيت الأميرة ماتيلدا فى ايطاليا ســـنة ١١١٥ بعد أن أوصت أخيرا بممتلكاتها الواسعة للبابوية ، ولو أن وصية الأميرة ماتيلدا نفذت فعلا واستولت البابوية على ممتلكاتها لأصبح البابا أعظم ســـلطة زمنية فى ايطـــاليا ، ولكن الامبراطور هنرى الخامس أسرع الى ايطاليا فى العـــام التالى لاثبات حق الامبراطورية

---

(1) Cam. Med. Vol. 5, pp. 102-103.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 143.

(3) Barraclough : op. cit. p. 130.

(4) Hayward : op. cit. p. 172.

(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 144.

فى تلك التركة ، واحتل روما سنة ١١١٧ حيث توجت زوجته الانجليزية (١) . أما البابا فقد فر من روما ليحتمى بالنورمان فى الجنوب ولكنه لم يلبث أن مات سنة ١١١٨ قبل أن يبت برأى حاسم فى توقيع عقوبة الحرمان على الامبراطور (٢) . وقد خلف باسكال الثانى البابا جلاسيوس الثانى (١١١٨ — ١١١٩) ثم البابا كالكستس الثانى (١١١٩ — ١١٢٤) . وكان الأخير سياسيا قديرا جمع بين الصفتين الدينية والدنيوية لكونه ابن حاكم برجنديا . لذلك صمم البابا كالكستس الثانى من أول الأمر على فض النزاع مع الامبراطورية ، فعقد مجمعا دينيا لهذا الغرض فى ريمس كما أرسل مندوبين الى الامبراطور للتفاهم معه ، بل ان البابا اتجه بنفسه نحو موزون Mouzon (أكتوبر ١١١٩) لمفاوضة الامبراطور ، لولا أن الأخير حضر على رأس مظاهرة عسكرية ضخمة جعلت البابا يفضل الاسراع بالعودة من حيث أتى (٣) . على أنه يبدو أن الامبراطور هنرى الخامس كان قد مل النزاع هو الآخر فأظهر استعدادا للتفاهم ، وبذلك أخذ الطرفان يبحثان الأشكال لأول مرة فى جو مشبع بروح الاعتدال والرغبة فى التفاهم . وليس معنى ذلك أن طريق التفاهم أصبح ممهدا سهلا ، اذ يبدو أن الجروح القديمة لم تكن قد اندملت بعد ، ومن ثم دفع الشك الجانبين الى الدخول فى تفاصيل صغيرة حتى انتهى الأمر بقطع المفاوضات وتوقيع قرار الحرمان ضد هنرى الخامس سنة ١١٢٠ (٤) .

ولم يلبث هنرى الخامس أن أدرك عاقبة المبالغة فى التشكك والاسراف فى سوء الظن لا سيما بعد أن لمس ازدياد نفوذ كبار الأمراء فى ألمانيا . هذا فى الوقت الذى عاد البابا كالكستس الثانى فأرسل الى الامبراطور موضحا له أن هدف البابوية ليس اضعاف الامبراطورية وتقليل شأنها وانما تعظيم قدرها وتقوية نفوذها (٥) . وهكذا عادت روح الاعتدال

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 104.

(2) Barraclough : op. cit. p. 131.

(3) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 479.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 146.

(5) Barraclough : op. cit. p. 132.

والرغبة فى التفاهم لتمهد لاستئناف المفاوضات التى قدر لها النجاح تلك المرة ، حتى انتهى الأمر بعقد اتفاقية ورمز Worms الشهيرة بين هنرى الخامس وكالكستس الثانى سنة ١١٢٢ (١) وتنص هذه الاتفاقية على أن يكون انتخاب الاساقفة ومقدمى الأديرة خارج ألمانيا وفق القانون الكنسى دون أى تدخل من جانب السلطة العلمانية ، وبعد الاحتفال بتقليد الأسقف دينيا يستطيع الامبراطور أن يكلفه أو يزوده بأية سلطة . أما فى ألمانيا فيكون اختيار الأساقفة عن طريق الانتخاب ، وللامبراطور أو مندوبه حق حضور عملية انتخاب الأسقف « دون الالتجاء الى السيمونية أو العنف » . وبعد أن يتم انتخاب الأسقف قانونيا يقلده الامبراطور تقليدا علمانيا قبل تقليده الدينى (٢).

ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لم تحقق كل ما كانت تصبو اليه الكنيسة لأن حضور الامبراطور أو مندوبه عملية انتخاب الأسقف من شأنه أن يؤثر فى سير الانتخاب ، ولكن يكفى — على أى حال — أن الكنيسة أحرزت نصرا ولو جزئيا بتحديد سلطة الامبراطور فى اختيار رجال الدين مما جعل البابا يظل سيد الموقف فى أوربا . وبعبارة أخرى فاننا نخرج من هذه الاتفاقية بأن الامبراطورية دخلت دائرة النزاع مع البابوية حول التقليد العلمانى وهى فى أوج قوتها وسلطانها ، وخرجت من هذا النزاع مكسورة الجناح بعد ما نزل بها من هزائم نكراء بحيث يظهر الفارق واضحا بين موقف كل من هنرى الخامس وسلفه هنرى الثالث (٣) وقد حاول بعض الكتاب أن يصور الموقف عند عقد اتفاقية ورمز بأن الامبراطور كان أمامه أن يختار بين الاحتفاظ بالرغيف كاملا أو الاكتفاء بنصفه فأجبرته البابوية على الاكتفاء بالنصف ، فى حين كان على البابوية أن تختار بين النصف الثانى للرغيف أو البقاء دون نصيب ففازت بالنصف .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 107.

(2) Fliche : l'Europe Occidentale, p. 483.

(3) Bryce : op. cit. p. 161.

وهكذا لم يستأثر فريق دون آخر بتقليد رجال الدين وبقى الأمر مناصفة بين الطرفين (١) .

ولكن اذا كانت اتفاقية ورمز سنة ١١٢٢ وضعت حدا للنزاع حول التقليد العلماني وأنهت الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية الامبراطورية ، الا أنها لم تضع حدا للصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية (٢) . ذلك أنه يتضح من دراسة شروط هذه الاتفاقية أنها لم تمس جوهر النزاع بين السلطتين ولم تتعرض للمشكلة الأساسية التى كمن فيها الخلاف ، وهى أيهما أسمى وأيهما يجب أن تكون له السيادة العليا: البابوية أم الامبراطورية (٣) ؟ وما دامت هذه المشكلة الكبرى قائمة دون حل فانه فانه لا يمكن القول بأن النزاع بين البابوية والامبراطورية قد وصل نهاية ترضى الطرفين ، لأن مشكلة التقليد العلمانى لم تكن فى حقيقة أمرها الا مظهرا للتنافس بين البابوية والامبراطورية حول سيادة العالم(٤) .

أحوال الامبراطورية بعد اتفاقية ورمز :

أما عن نتائج هذا الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلمانى فمن الواضح أنها كانت على جانب كبير من الخطورة بالنسبة للامبراطورية . ذلك أن محاولة البيت السالى اقامة ملكية قوية باءت بالفشل ، بمعنى أنه ليست البابوية أو الامبراطورية هى التى خرجت فائزة من هذا الصراع ا وانما كان كبار الأمراء فى ألمانيا هم الذين انتهزوا فرصة انصراف ملوكهم الى النزاع مع البابوية ليدعموا قوتهم وسلطانهم (٥) . وهكذا أدى الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى الى ازدياد شدة التيار الاقطاعى فى ألمانيا حتى غدت حصون الأمراء وقلاعهم بمثابة المراكز الأساسية

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 463.

(2) Barraclough : op. cit. p. 133.

(3) Idem : pp. 139-140.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 184.

(5) Barraclough : op. cit. p. 134.

التنظيم السياسى فى البلاد . وقد ظهر أثر هذا التطور بوضوح فى المجتمع الألمانى اذ أصبح ضعاف الأحرار — وبخاصة من المزارعين — أقنانا ، فى حين غدا أقوياءهم فرسانا وأفصالا ا تربطهم روابط عديدة بسادتهم الاقطاعيين ، الأمر الذى يجعلنا نقرر أن النزاع حول التقليد العلمانى ترك أثرا خطيرا فى بناء المجتمع الألمانى فى تلك الحقبة من العصور الوسطى (١). ومن الواضح أن انتشار النظام الاقطاعى وازدياد نفوذ كبار الأمراء جاء على حساب الملكية وسلطانها ، لأن هذا الازدياد وما صحبه من تناقص نسبة الأحرار من السكان معناه أن الملك أو الامبراطور لم يعد له نفوذ مباشر الا على نسبة متناقصة من أهالى البلاد ، فى حين لم تعرف الأغلبية المتزايدة سلطانا مباشرا سوى سلطان سادتهم الاقطاعيين (٢) .

أما البابا كالكستس الثانى والامبراطور هنرى الخامس فلم تقدر لهما الحياة طويلا بعد اتفاقية ورمز ، اذ توفى الأول فى ديسمبر سنة ١١٢٤ ولحق به الثانى فى مايو سنة ١١٢٥ . وقد ساعدت كثير من الظروف المختلفة التى أحاطت بالعرش الألمانى والبابوية على تهدئة الموقف بعد اتفاقية ورمز. ففى ألمانيا أجمع الأمراء عقب وفاة هنرى الخامس على اختيار لوثر الثانى دوق سكسونيا ملكا ، وهو الدوق الذى عارض هنرى الخامس معظم حكمه والذى كان محبوبا من الألمان بسبب بلائه ضد السلاف (٣) . وكان من أشد أنصار لوثر الثانى الأمير هنرى المتكبر دوق بافاريا الذى تزوج ابنة لوثر وأنجبت هذه الزوجية هنرى الأسد وارث دوقيتى بافاريا وسكسونيا(٤). على أنه يبدو أن اختيار لوثر الثانى للعرش سنة ١١٢٥ لم يعجب آل هو

---

(1) Idem : opp. 136-138.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 108, 163 & Barraclough op. cit. p. 139.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 334-335.

(4) Eyre, op. cit. p. 159.

هنشتاوفن أمراء سوابيا ، هذا فضلا عن أن لوثر الثانى لم يكن الرجل القادر على استرداد هيبـة الامبراطورية وعظمتها نتيجـة لضعفه وتقدم سنه.

هذا عن ألمانيا ، أما الشطر الثانى من الامبراطورية وهو ايطاليا ، فان البابوية سرعان ما وجدت نفسهـا فى مأزق خطير أمام توسع النورمان فى جنوب ايطاليا بعد أن تم لهم الاستيلاء على صقلية سـنة ١٠٩١ (١) . ومن ثم وحدوا صقلية وكالبريا أوبوليا تحت سيطرتهم مما أفزع البابوية ، فهبت تدافع عن نفسهـا أمام هذا الخطر العظيم . وكان أن أخذ البـابا هنريوس الثانى (١١٢٤ — ١١٣٠) يجاهد عبثا لتأليف حلف من أمراء ايطاليا ضـد النورمان ، حتى اضطر أخيرا الى الاعتراف سنة ١١٢٨ بمركز روجر الثانى فى أبوليـا وصقليـة . ولم يلبث النورمان أن استصغروا لقبى « كونت » و « دوق » اللذين يلقب بهما أمراؤهم الاوائل فاحتفل فى يوم رأس السـنة عام ١١٣٠ بتتويج روجر الثانى ملكا فى بالرمو (٢) . ثم كان أن نشأ نزاع حول الكرسى البابوى بعد وفاة البابا هنرى الثانى ، ففر البـابا انوسنت الثانى الى ملك ألمانيا مستنجدا به ضد خصومه ، ولما أنجده لوثر الثانى ، كافأه البابا بتتويجه امبراطوريا فى روما سـنة ١١٣٣ . والمهم فى أمر هـذه الزيارة التى قام بها لوثر الثانى لايطاليا سـنة ١١٣٣ هو أنه خالف سياسة سلفه هنرى الخامس واعترف بحق البابوية فى تركة الأميرة ماتيلدا ، على أن يأخذ الملك هذه التركة من البابا كاقطاع مقابل ايجار سنـوى . ومعنى ذلك أن البابوية حصلت على دليل جديد يظهر الامبراطور فى صورة تابع اقطاعى للبابا (٣) .

وعند وفاة الامبراطور لوثر الثانى سنة ١١٣٨ ، كان أقوى رجلين فى ألمانيا هما هنرى المتكبر دوق بافاريا وسكسونيا وعميد البيت الولفى ، وكونراد هو هنشتاوفن دوق سوابيا . وقد خشى كبار النبلاء قوة هنرى وبطشـه ،

(1) Haskins : The Normans in European History p. 209.

(2) Idem, p. 210-211.

(3) Barraclough : op. cit. p. 157.

كما تخوفت الكنيسة من قيام رجـل قوى مثلـه فى عرش الامبراطورية ، ولذلك تم اختيـار كونراد الثالث هوهنشتاوفن ملكا على ألمانيا « ١١٣٨ — ١١٥٢ » (١) . ومنذ ذلك الوقت أخذ يشتد التنافس والعداء بين الولفيين — وهم أمراء سكسونيا — والجبللينين — وهم دوقات أسرة هوهنشتاوفن — نسبة الى قلعة فى اقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم (٢) . وقد تطور اللفظ الأول فى الصيغة الايطالية الى الجلفيين Geulfs وأصبح يطلق على أعداء الامبراطورية بوجه عام فى نزاعها مع البابوية ، فى حين أصبح اسم الجبللينيين يطلق على أنصـار الامبراطورية وأعداء البابوية بوجه عام (٣) .

وكان كونراد الثالث هوهنشتاوفن ضعيفا ، وهو أول ملك من ملوك ألمانيا لا يتوج امبراطورا منذ أوتو العظيم (٤) . وزاد من ضعفه أن تغيير البيت الحاكم أكثر من مرة سـنة ١١٢٥ ثم سنة ١١٣٩ وما تبع ذلك من حروب أهلية ، أدى الى انكماش الأراضى الخاصة بالتاج ، وبالتالى ، الى ضعف الملك الذى استمد قوته فى ظل النظام الاقطاعى من ضياعه الخاصة . وهكذا وجد كونراد الثالث نفسـه لا يمتلك قوة مادية — لا سيما فى شمال ألمانيا — تمكنه من الوقوف موقفا قويا من أعدائه فى الداخل والخارج . وقـد جاء ضعف الملكية الألمانية فى تلك الحقبة مصحوبا بظاهرة واضحة هى أزدياد نفوذ كبار الأمراء فى انتخاب الملك ، وهى الظـاهرة التى غدت بمثابة الطـابع المميز للفترة الواقعة بين سنتى ١١٠٦ ، ١١٥٢ (٥) . أما فيما يتعلق بموقف كونراد الثالث من ايطاليا والبابوية فيلاحظ أنه أضـاع معظم جهـوده فى الحملة الصليبية الفاشلة المعروفة بالثانية ، مما أضعف هيبته فى ايطاليا حتى أعلن البابا أنوسنت الثانى فى السنة نفسها التى اعتلى كونراد الثالث العرش (مجمع ١١٣٩) عدم ارتباطه باتفاقية ورمز ، وأن البابا له السيادة العليا على

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 231.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 347-349 & 404.

(3) Eyre : op. cit. p. 159.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5 pp. 358-359.

(5) Barraclough : op. cit. pp. 158-160.

جميع الحكام العلمانيين الذين لا يحق لهم التدخل فى شئون الكنيسة سواء ما يتعلق بأراضيها أو بتقليد رجالها (١) . وعلى الرغم من كل ذلك فقد أبى كونراد الثالث أن يدخل فى حرب سافرة مع البابوية ، وفضل العمل على توطيد نفوذه فى ألمانيا عن طريق الحد من نفوذ البيت الولفى ، مما أدى الى حرب أهلية لم تنته الا سنة ١١٤٢ (٢) .

وعندما مات كونراد الثالث سنة ١١٥٢ خلفه ابن أخيه فردريك الأول بربروسا (١١٥٢ — ١١٩٠) الذى كان شابا فى الثلاثين من عمره امتاز بالشجاعة والفصاحة والكبرياء ، مع اتصافه بسرعة الغضب والايمان المطلق بعظمة الوظيفة الامبراطورية وسموها (٣) . وقد أخذ فردريك بربروسا يعمل منذ اعتلائه العرش على استرداد مكانة الامبراطورية ومجدها المفقود، وهو المجد الذى لا يتحقق — فى نظره — الا بالربط بين شطرى الامبراطورية فى ألمانيا وايطاليا . لذلك بدأ بعقد معاهدة كونستانس مع البابا سنة ١١٥٣ وفيها تعهد فردريك الأول بعدم عقد صلح مع روجر الثانى ملك صقلية دون موافقة البابا ، وأن يقوم فردريك باخضاع أعداء البابا والثائرين ضده مقابل تتويج البابا له امبراطورا ومساندته ضد خصومه فى ألمانيا (٤) .

ولكن فردريك كان أعقل من أن يذهب الى ايطاليا وينصرف الى شئونها قبل أن يوطد نفوذه فى ألمانيا . لذلك أخذ يتقرب الى الأمراء ويسترضيهم ، فرد بافاريا الى هنرى الأسد عميد الولفيين وأعطاه سلطانا شبه مطلق عليها وعلى سكسونيا ، كما استرضى بقية الأمراء حتى قوى نفوذهم على حسابه، وبعد ذلك بدأ يوجه بصره شطر ايطاليا (٥) . ويبدو أن الموقف فى ايطاليا كان خطيرا حينذاك الى الدرجة التى جعلت فردريك الأول يسرع بالذهاب

---

(1) Hayward : op. cit. pp. 178-179.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 475.

(3) Bryce : op. cit. p. 166.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 247-248.

(5) Thompson : op. cit. Vol. 1, 447.

اليها قبل يفرغ من اتمام مشروعاته الرئيسية فى المانيا نفسهـا . ذلك أن البابوية سرعان ما أنهكها الصراع ضـد النورمان فى الجنـوب ، فى حين استطاعت المدن اللمباردية فى شمال ايطاليا أن تتحرر من نفـوذ الأمـراء الاقطاعيين لتصبح قومونات مستقلة فى ادارة شئونها (١) وكان أن أشتد التنافس بين هذه المدن حتى انتهى الأمر بتكتلها فى حلفين متضادين ، أحدهما بزعامة ميلان والثانى بزعامة بافيا ، وان كانت رغبتها فى التمتع بالاستقلال ومباشرة نشاطها الاقتصادى جعلتها تتفق جميعا فى سياسة واحدة ، هى مقاومة أية سيطرة تحاول الامبراطورية فرضها عليها (٢) . ولم يحاول أحد حكام الامبراطورية — مثل لوثر الثانى أو كونراد الثالث — أن يتدخل لاخماد هذه الحركة التحررية التى لم تلبث أن امتدت الى روما نفسها . ذلك أن أهالى روما قاموا بثورة ضد البابا انوسنت الثانى سنة ١١٤٢ مطالبين بتحويل مدينتهم هى الأخرى الى قومون مستقـل ، حتى انتهى الأمر بفرار البـابا ايوجنيوس الثـالث Eugeninus III من روما سـنة ١١٤٧ (٣) . والغريب فى أمـر هـذه الثـورة أن زعيمهـا — وهـو أرنولد البريشى Arnold of Brescia كان من رجـال الدين ، فآمن بما سـبق أن نادى به البابا باسكال الثانى سنة ١١١١ من آراء تستهدف تخلى الكنيسة عن أراضيها الاقطاعية واكتفائها بالعشور والعـودة الى حيـاة البساطة التى اتسمت بهـا المسيحية الأولى (٤) .

ومهما يكن من أمر ، فقد استنجد البابا أيوجنيوس الثالث (١١٤٥ — ١١٥٣) ثم البابا أدريان الرابع (١١٥٤ — ١١٥٩) بالملك فردريك بربروسا ، الذى لبى النداء سنة ١١٥٤ ، كعادة أسلافه من حكام الامبراطورية الرومانية المقدسة . وهنا نلاحظ أن الغرض الأساسى من ذهاب فردريك الأول الى ايطاليا فى تلك السنة كان اكتساب رضاء البابوية واثبات حسن نيته لها ،

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 361.

(2) Eyre : op. cit. p. 165.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 486.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 371-372

وليتوج امبراطورا فى روما مقابل ما يؤديه للبابا من خدمات أهمها تحطيم قوة أرنولد البريشى وتثبيت سلطة البابوية فى روما (١) . وكان أن استطاع فردريك بجيشه الصغير الذى لم يتعد ألفا وثمانمائة فارسا أن يخضع المدن اللمباردية ، فاعترفت له بالسيادة بعد أن أرهبها وأعطاها درسا قاسيا(٢). وبعد ذلك اتجه فردريك الى روما حيث كان أدريان الرابع قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١١٥٤ ، وهو الانجليزى الوحيد الذى تولى هذا المنصب فى العصور الوسطى (٣) . وكان هذا البابا الجديد قوى الشخصية واسع المعرفة ، فلم يستسلم للاخطار التى واجهت البابوية عندئذ ، وانما أنزل قرار الحرمان ضد روما وأنزل اللعنة على أهلها الثائرين ، وعندئذ أحجم الحجاج عن زيارة مدينة مغضوب عليها ، ففقد أهلها موردا غزيرا لثروتهم واضطروا الى طرد ارنولد البريشى والدخول فى طاعة البابوية (٤) .

على أن مشاكل البابوية لم تقف عند ذلك الحد ، اذ أغار وليم النورمانى على كامبانيا Gampania على الشاطىء الغربى جنوبى روما — ونهبه ودمره ، وهدد بالزحف على روما نفسها . لذلك أسرع أدريان الرابع بتجديد اتفاقية كونستانس التى سبق أن عقدها أيوجنيوس الثالث مع فردريك الأول سنة ١١٥٣ ، حتى انتهى الأمر بتتويج فردريك الأول امبراطورا فى كتدرائية القديس بطرس بروما (١١٥٥ — ١١٥٦) (٥) . وقد تم التتويج سرا وبسرعة ، خوفا من غضب أهالى روما الكارهين لفردريك ، والذين اشتدت ثورتهم عندما أعلن الخبر ، فى حين تناقصت جيوش الامبراطور واشتدت به الحاجة الى المؤن والامدادات ، فلم يستطيع الثبات فى وجه

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 178.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 248.

(3) Orton : op. cit. p. 232.

(4) Tout : he Empire and the Papacy, p. 249.

(5) Hayward op. cit. p. 184.

أهالى روما الثائرين واضطر الى الفرار منها وبصحبته البابا (١) . وسرعان ما أدرك فردريك صعوبة البقاء فى ايطاليا ، ولا سيما بعد أن سمع بأن الاوضاع فى المانيا تستدعى عودته اليها ، فعبر جبال الألب الى بلاده تاركا البابا وحده فى شمال ايطاليا . وهكذا اضطر أدريان الرابع الى مصالحة أهالى روما على أساس الاعتراف بمدينتهم قومونا مثل غيرها من القومونات الايطالية ، وعلى هذا الأساس استطاع العودة الى روما فى صيف سنة ١١٥٥ (٢) .

أما الامبراطور فردريك بربروسا فقد عاد الى ألمانيا ليواصل جهوده فى توحيدها وتقوية سلطانه على الأمراء . قد تم للامبراطور ما أراد حتى بدا فى نظر المعاصرين أعظم قوة فى أوربا ، لا سيما بعد أن مـد نفـوذه الى برجنديا عن طريق الزواج من وريثتها سنة ١١٥٦ (٣) . وزاد من نفـوذ فردريك الأول وسطوته على أوربا أن بولسلاف الرابـع صـاحب بولندا وبولسلاف الثانى صاحب بوهيميا دانا له بالتبعية ، فى حين اعترف له ملك الدانيين – بل هنرى الثانى ملك انجلترا – بالسيادة (٤) ، وبذلك لم يبق أمام الامبراطور سوى تدعيم نفوذه فى ايطاليا . وكانت العلاقة قد ساءت بين فردريك الأول والبابا أدريان الرابع عقب انسحاب الأول الى المانيا فى صيف سنة ١١٥٥ تاركا البابا وحيدا فى ايطاليا . وهنا نعود فنكرر القـول بأن المشكلة الكبرى بين الامبراطورية والبابوية كانت لاتزال قائمة . واذا كانت الظروف قد اضطرت البابا والامبراطور الى الاتفاق لمواجهة الأخطار المشتركة التى هددت نفوذهما من ناحية القومات الايطالية من جهـة وثـورة أرنولد البريشى من جهة أخرى وخطر النورمان فى الجنـوب من جهـة ثالثـة ، فان هـذا الاتفـاق لم يكن معنـاه اطمئنان الطرفين بعضهما الى بعض بأى حـال من الأحـوال .

والواقع أن مركز البابا أدريان الرابع كان ضعيفا فعلا عندما تركـه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 421.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 250.

(3) Barraclough : op. cit. p. 173.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 492.

الامبراطور وحيدا فى صيف سنة ١١٥٥ (١) . فالامبراطور ترك البابا دون أن يساعده فى اخضـاع روما أو دفع الخطر النورمانى الذى هدد الأمـلاك البابوية تهديدا واضحا . لذلك أدرك البابا أدريان الرابع أنه لابد من الاعتماد على نفسه ، فألف حلفا مع أمراء أبوليا الاقطاعيين الذين اشتدت رغبتهم فى التخلص من سيطرة النورمان ، كما أجرى مباحثات مع مانويل الأول امبراطور الدولة البيزنطية (١١٤٣ — ١١٨٠) لمساعدته فى حربهم (٢) . ويبدو أن وليم النورمانى أحس بخطر هذه المحالفات التى يعقدها البابا ضـده ، فأسرع الى عقد اتفاقية بنفنتو سنة ١١٥٦ مع البابوية ، ورضى باعلان تبعيته للبابا مقابل موافقة البابوية على قيامه فى حكم أبوليا وصقلية (٣) . وفى نفس هذه السنة أنزل وليم الأول النورمانى هـزيمة كبرى بالبيزنطيين عنـد برنديزى حتى اضطر الامبراطور مانويل كومنين الى عقد الصلح مع الملك النورمانى سـنة ١١٥٨ ونجحت وساطة البابوية فى اتمام ذلك الصلح (٤) . هذا فى الوقت الذى استرضى البابا أهالى روما بأن أقرهم نهائيا على قيام الكومون الرومانى وبذلك تغلب أدريان الرابع على جميع المشاكل التى واجهته دون حاجة الى مساعدة الامبراطورية .

الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

هكذا يبدو أن كلا من البابا أدريان الرابع والامبراطور فردريك الأول استطاع أن يمكن لنفسه ويقوى مركزه فى بلاده ، ولم يبق بعد ذلك سـوى أن يواجه كل منهما الآخر . والواقع أن فردريك الأول استاء من تحـالف البابا مع وليم النورمانى من جهة ومع أهالى روما من جهـة أخرى واعتبر ذلك نقضا للعهد بين الطرفين ، فى حين أخذ البابا أدريان الرابع يتخوف من ازدياد نفوذ الامبراطور واتساع سلطانه بعد أن استقرت له الأمور داخل

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 422.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 11, p. 13

(3) Orton : op. cit. p. 233.

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 342.

الامبراطورية وخارجها (١) . وصادف أن اختار البابا مندوبا أرسله الى المانيا — هو الكاردينال رولاند ، الذى عرف بصلابة رأيه وقوة عقيدته فى سمو الكنيسة ، فذهب المندوب ليعرب عن استياء البابا من بعض تصرفات الامبراطور ، لا سيما حبس كبير أساقفة لوند Lund الذى كان صديقا حميما لأدريان الرابع . وعندما دخل المندوب البابوى على الامبراطور فى مجمع بسانسون Besancon سنة ١١٥٧ حياه تحية غريبة ، اذ قال « ان البابا يحييك كوالد والكرادلة يحيونك كاخوة » فدهش فردريك من هذه التحية التى جعلت من الكرادلة أخوة مساوين للامبراطور ، وهو السيد العظيم خليفة قيصر وشارلمان (٢) . على أن الذى ضايق فردريك هو أن رسالة البابا اليه احتوت عبارة مؤداها أن التاج الامبراطورى يعتبر Beneficium من البابا (٣) . وهذا اللفظ اللاتينى يحتمل معنيين ، اذ يمكن تفسيره على أنه يعنى « جميلا أو معروفا Benefit » كما يمكن تفسيره بمعنى اقطاع « Benefice » (٤) . واختار الامبراطور وأنصاره أن يفسروا اللفظ بمعناه الأخير ، أى أن البابا يعتبر التاج الامبرراطورى منحة اقطعها للامبراطور ووهبها له . ومن ثم ثار فردريك لكرامته وكرامة وظيفته الامبراطورية ، وأيده فى موقفه الأساقفة الألمان . ولم يكن الامبراطور مبالغا فى غضبه أو ثورته لأن المندوب البابوى نفسه أصر على تفسير اللفظ على أنه يعنى « اقطاع » ، وقال لفردريك فى شجاعة « ممن اذن يتسلم الامبراطور امبراطوريته ان لم يتسلمها من البابا (٥) ؟ » ولكن فردريك أدرك جيدا أن التسليم بهذا المبدأ يعنى خضوع الامبراطور للبابا ، ولذلك رد مدافعا عن حقوقه « اننا نتسلم الامبراطورية من الله عن طريق انتخاب الأمراء ، ان شريعة الله تقضى بأن يكون حكم العالم بواسطة سيفى الامبراطورية

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 253.

(2) Ibid.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 390-420.

(4) Ullmann : The Growth of Papal Govemment, pp. 341-342.

(5) Bryce : op. cit. p. 166,

والبابوية كما قضت تعاليم القديس بطرس بأنه يجب على الناس أن يخافوا الله ويكرموا الملك (١) . وعلى هذا فان كل من يقول بأننا تسلمنا التـــاج الامبراطورى اقطاعا من البابا يعتبر ملحدا باطل العقيدة لأنه يخالف أوامر الله وتعاليم القديس بطرس » (٢) .

أما البابا أدريان الرابع فقد ارتبك فى ذلك الموقف واضطر الى التصريح فى أوائل العام التالى بأنه قصد باللفظ معناه العام — أى معروف أو جميل — ولم يقصد معناه الاقطاعى الخاص . وبذلك تجنب البابا الاصطدام السريع المباشر مع الامبراطورية ، وان ظل سوء النية قائما عند الطرفين (٣) . وبعبارة أخرى فان أهمية هذا الحادث تبدو فى أنه كشف النقاب عن حقيقة شعور كل من البابوية والامبراطورية نحو الطرف الآخر كما مهد لتجـــدد النزاع السافر بين الجانبين . واذا كان النزاع بين الامبراطورية والبابوية قد اتخذ فى دوره الأول من مشكلة التقليد العلمانى محورا له فانه فى هذا الدور الثانى تركز فى مشكلة القومونات الايطالية (٤) .

ذلك أن الامبراطور فردريك بربروسا كان — كما سبقت الاشارة — يعتقد اعتقادا راسخا فى عظمـــة الامبراطورية ، ويؤمن بأنه خليفـــة قيصر وشارلمان ، ومن ثم يجب أن يتمتع بما كان لهذين الامبراطورين من نفـــوذ عالمى وسلطان واسع . وقد رأى الامبراطور فردريك الأول أن كثيرا مـــن الحقوق التى تمتعت بها المدن اللمباردية انما هى فى حقيقة أمرها حقـــوق منحها ملوك الفرنجة لكونتات المدن ومنهم انتقلت الى أساقفتها حتى استغلت القومونات فرصة مشكلة التقليد العلمانى فأستأثرت بهذه الحقـــوق (٤) .

---

(١) من الواضح أن الامبراطور استند فى هـــذه العبارة الى ما جاء فى العهد الجديد : (أكرموا الجميع ، أحبوا الاخـــوة ، خافوا الله ، أكرموا الملك) رسالة بطرس الأولى ، الاصحاح الثانى ، ١٧ .

(2) Tout : The Empire and The Papacy, p. 254.

(3) Bryce : op. cit. p. 197.

(4) Eyre : op. cit. p. 65.

(5) Barraclough : op. cit. p. 180.

وبعبارة أخرى فان سيطرة الامبراطورية على اللمباردية لا تعنى أكثر من استرداد حقوق الامبراطورية المفقودة فى شمال ايطاليا . ومن الواضح أن تطبيق هذه الآراء عمليا كان يعنى اخضاع المدن اللمباردية فى شمال ايطاليا لسلطة الامبراطورية المباشرة ، بل أيضا فرض السيطرة الامبراطورية على الأراضى البابوية نفسها بما فيها تركة الأميرة ماتيلدا التى استأثرت بها البابوية . وطبيعى أن البابا كان لا يمكنه أن يقر هذا الوضع ، لأن أخطر ما كانت تخشاه البابوية هو ازدياد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا مما يؤدى الى وقوع البابا تحت رحمته . ولم يلبث أن أتاح الانشقاق بين المدن اللمباردية فرصة طيبة لتدخل الامبراطور (١) ، واذ وقف حزب كريمونا وبافيا فى جانب الامبراطور ضد الحزب الآخر الذى تزعمته ميلان . وكان أن عبر الامبراطور فردريك الأول جبال الألب فى يوليه سنة ١١٥٨ فخضعت له ميلان بعد مقاومة عنيفة ثم عقد الامبراطور مجمعا فى رونساجليا Roncaglia (نوفمبر سنة ١١٥٨) أعلن فيه تمسكه بحقوقه فى تعيين حكام امبراطوريين (Podesta) فى المدن اللمباردية يشرفون على سك العملة وجمع الضرائب (٢) .

على أن الأمور لم تتم للامبراطور فى شمال ايطاليا فى سهولة ويسر ، اذ توفى البابا أدريان الرابع سنة ١١٥٩ فخلفه الكاردينال رولاند الذى تلقب باسم اسكندر الثالث ، والذى ظل فى منصب البابوية قرابة اثنين وعشرين عاما (١١٥٩ — ١١٨١) حرص طوالها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها ، مما جعل النزاع بين البابوية والامبراطورية يتخذ جميع مظاهر العنف التى رأيناها فى الدور الأول . وكان أن تألف تحالف بين صقلية والبابوية وميلان مما أخل بالتوازن الذى حققه فردريك فى ايطاليا سنة ١١٥٤ — ١١٥٥ (٣) . وسرعان ما تجددت ثورة المدن اللمباردية وعلى رأسها ميلان بتحريض من البابوية ، فطردت الحكام الامبراطوريين وأخذ يشتد فيها شعور التعصب العنصرى ضد الدخلاء الألمان . وهنا واجه فردريك

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 279.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 427.

(3) Barraclough : op. cit. pp. 181-182.

الموقف بشدة وحزم فأخذ يحاصر المدن الثائرة ويدمرها ـ كما فعل مع كريما Crema ـ . أما ميلان فقد صمدت وقاومت حصار الامبراطور ثلاث سنوات حتى أرغمتها المجاعة على الاستسلام سنة ١١٦٢ ، وعندئذ دمرها فردريك تدميرا شاملا كما أخذ زعماءها رهائن عنده ، وبذلك أصبح الامبراطور سيد الموقف فى شمال ايطاليا (١) .

أما عن موقف فردريك الأول من البابا اسكندر الثالث فانه كان يعرف اخلاقه وآراءه جيدا ، لأن اسكندر البابا لم يكن سوى رولاند الكاردينال الذى أزعجت شدته الامبراطور فى مجمع بسانسون سنة ١١٥٧ . ولذلك صدم فردريك باختياره للبابوية ولم يجد أمامه سوى العودة الى سلاح الامبراطورية القديم ، وهو تعيين فكتور الرابع بابا امبراطوريا منافسا للبابا اسكندر الثالث (٢) . واذا كان اسكندر الثالث قد اضطر الى الانسحاب من روما بعد عدة أيام من توليه منصبه ، الا أنه ظل متمسكا بموقفه ، لا سيما بعد أن تم عقد مجمع دينى سنة ١١٦٠ تحت رعاية لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا ، وقرر كبار الأساقفة فى هذا المجمع الاعتراف ببابوية اسكندر الثالث والوقوف الى جانبه . وقد شجع هذا القرار البابا اسكندر الثالث على الفرار الى فرنسا بعد أن سقطت ميلان فى يد الامبراطور سنة ١١٦٢ وأضحى موقف البابوية محفوفا بالخطر فى ايطاليا (٣) وفى العام التالى ـ أى سنة ١١٦٣ ـ عقد اسكندر الثالث مجمعا فى تور أصدر قرار الحرمان ضد البابا الامبراطورى فكتور الرابع وأعوانه من الكرادلة (٤) .

وعلى الرغم من أن فردريك الأول استكشف عند عودته الى ألمانيا سنة ١١٦٣ أن كثيرا من رجال الكنيسة الألمانية وقفوا الى جانب البابا اسكندر

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 497.

(2) Hayward : op. cit. p. 185.

(3) Lavisse, op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 39.

(4) Tout ; The Empire and the Papacy, p. 257.

الثالث مطالبين بعقد مجمع لتسوية الخلاف بين البابوية والامبراطورية ، الا أنه لم يتأثر بهذه الازمة وأصر على موقفه . وعند وفاة البابا الامبراطورى فكتور الرابع أثناء زيارة الامبراطور لايطاليا للمرة الثالثة سنة ١١٦٤ ، اختار الامبراطور البابا باسكال الثالث ليحل محله (١) . وفى تلك الاثناء أخــذ الحكم الالمانى فى شمال ايطاليا يتصف بالقسوة والخشونة حتى أصــبح الايطاليون يعاملون على أنهم أعداء الامبراطور لا رعاياه . وليس هناك من شك فى أن هذه السياسة كانت خطرا على مصالح الامبراطورية وأهدافها ، حتى تألف حلف فيرونا سنة ١١٦٤ لمقاومة الحكم الامبراطورى (٢) . وفى ذلك الوقت لم يستطع البابا الامبراطورى باسكال الثالث أن يحتفظ بمركزه فى روما ، كما أن تلك الاخبار شجعت أسكندر الثالث على المغامرة والعودة الى أيطاليا سنة ١١٦٥ ، فدخل روما دخول الظافر وأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور (٣) . وسرعان ما تجدد نشاط المدن اللمباردية ، فتقدمت البندقية لمساعدة حلف فيرونا ، مما جعل الامبراطور يعجل بالعودة الى ايطاليا للمرة الرابعة سنة ١١٦٦ . وفى تلك المرة لم يبدأ فردريك بالمدن اللمباردية (٤) ، وانما اختار أن يستأصل « رأس الافعى » فزحف على روما مباشرة وحاصرها حصارا عنيفا حتى سقطت فى يده سنة ١١٦٧ ، وعندئذ كانت خيبة أمل الامبراطور كبيرة عندما عرف أن غريمه أسكندر الثالث تمكن من الفــرار جنوبا محتميا بحلفائه النورمان (٥) . ومهما يكن من أمر فقد دخل فردريك الأول روما فى تلك السنة ليتوج امبراطورا — للمرة الثانية — بيد البابا الامبراطورى باسكال الثالث . وجدير بالملاحظة أن العداء بين الامبراطوريتين الغربية والشرقية بلغ أشده فى هذه المرحلة ، فلم يحــــاول الامبراطور فردريك بربروسا اكتساب الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الى جانبه

---

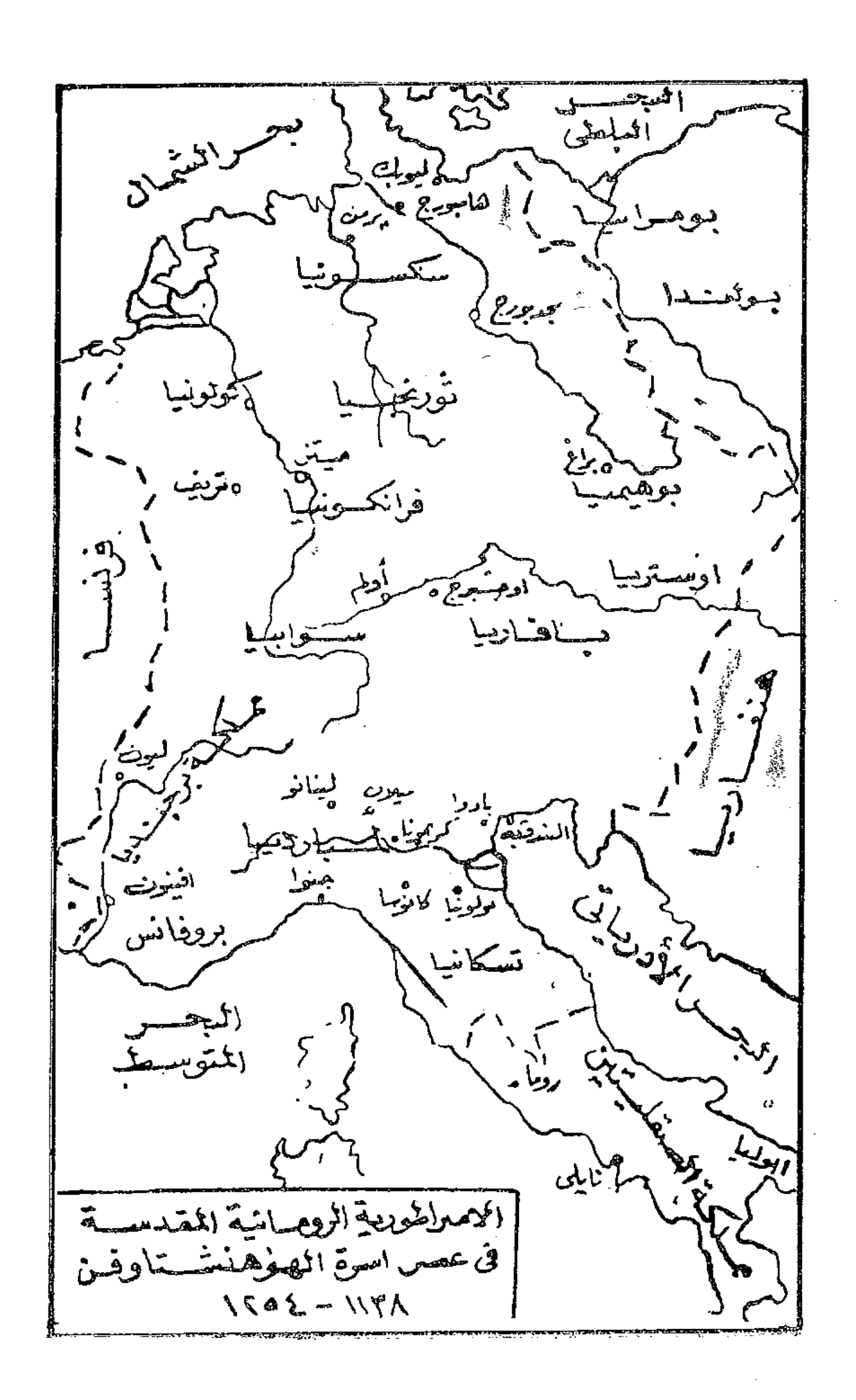
(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 394.

(2) Barraclough : op. cit. p. 182.

(3) Haywad : op. cit. p. 186.

(4) Eyre : op. cit. p. 166

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 441.



الامبراطورية الرومانية المقدسة
فى عصر اسرة الهوهنشتاوفن
١١٣٨ - ١٢٥٤

ضد النورمان حلفاء البابا ، بل على العكس اتصل فردريك بقلج أرسلان سلطان قونية السلجوقى والعدو اللدود للامبراطور البيزنطى (١) .

ثم كانت أن أخذت المصائب تترى على الامبراطور ، فانتشر الطاعون فى جيشه وفتك برجاله فتكا ذريعا ، مما جعل المعاصرين يفسرون ذلك فى ضوء غضب الله ولعنة البابا اسكندر الثالث على الامبراطور . وقد شجعت هذه الأخبار المدن اللمباردية ، فكونت فيما بينها ما يعرف باسم الحلف اللمباردى سنة ١١٦٨ الذى اتسع حتى شمل جميع مدن سهول ايطاليا الشمالية من ميلان حتى البندقية ، ومن برجامو حتى بولونيا . وهكذا انسدت المسالك فى وجه الامبراطور فردريك بربروسا بحيث أنه لم يستطع العودة الى ألمانيا فى ربيع سنة ١١٦٨ الا بمشقة بالغة (٢) . وسرعان ما اكتسب للحلف اللمباردى قوة جديدة عندما باركه البابا بانشاء مدينة جديدة تحمل اسمه — هى مدينة السندريا أو اسكندرية — Alessandria الى الشمال الغربى من جنوا (٣) .

وكان أن ساد السلام مدن العصبة اللمباردية مدة سنوات توفى أثناءها البابا الامبراطورى باسكال الثالث سنة ١١٦٨ وحل محله كالكستس الثالث . ولكن ايطاليا أصبحت من الناحية العملية خارج نفوذ الامبراطور فى الوقت الذى ازداد نفوذ البابا اسكندر الثالث زيادة كبيرة حتى فى ألمانيا نفسها . على أن الامبراطور فردريك بربروسا لم يكن بالرجل الذى يرضى بهذا الوضع ، وهو صاحب العقيدة الراسخة فى عظمة الامبراطورية وسموها . لذلك قام بحملته الخامسة على ايطاليا سنة ١١٧٤ ، وحينئذ تأهبت المدن اللمباردية للدخول من جديد فى صراع رهيب ضد الامبراطور (٤) . ولا يعنينا من حوادث هذه الفترة المتشابكة — بين حروب ومفاوضات — سوى

(1) Ostrogorsky, op. cit. p. 342.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 259.

(3) Hayward, op. cit. p. 187.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 445.

موقعة ليناتو ، Legnano الى الشمال الغربى من ميلان ، وهى الموقعة الفاصلة بين جيوش مدن الحلف اللمباردى من جهة والجيوش الامبراطورية من جهة أخرى (٢٩ مايو ١١٧٦) . ويبدو أن الروح الوطنية والشعور بالفوارق العنصرية واللغوية فعلت فعلها عندئذ لتجمع مختلف المدن فى شمال ايطاليا فى هيئة جبهة متحدة تقف فى وجه سيطرة الألمان وتدخلهم (١) ، وهكذا حلت الهزيمة فى هذه الموقعة بالجيوش الامبراطورية ، ولم يستطع فردريك الأول الفرار الى بافيا الا بمشقة بالغة . وثمة أهمية أخرى لهذه الموقعة ، هى أنها تعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ أوربا الحربى ، نظرا لأنها المرة الأولى التى استطاعت فيها جيوش المدن الناشئة أن تنزل الهزيمة بجيش امبراطورى يتبع النظم الاقطاعية التقليدية التى عرفتها أوربا منذ القرن لتاسع (٢) .

أما عن الموقف بين فردريك الأول وأعدائه بعد ليناتو فيبدو أن نشوة النصر صرفت المدن اللمباردية عن مطاردة الامبراطور وفلول جيشه ، بل ان بعض المدن — مثل كريمونا — أخذت تفكر فى عقد صلح منفرد مع الامبراطور (٣) . ولم يكن فردريك الأول أقل رغبة فى الصلح بعد أن سئم النضال وهدده بعض أعوانه — مثل رئيس أساقفة كولونيا — بالانشقاق عنه ان لم يسو أموره تسوية سريعة مع البابا . أما البابا اسكندر الثالث فقد أظهر من جانبه وقتئذ كفاية سياسية ، فلم يمانع فى فتح باب المفاوضات مع الامبراطور سنة ١١٧٦ (٤) . وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين بعض الوقت بسبب اصرار البابوية على شروطها وتمسكها بآرائها ، حتى انتقل البابا الى البندقية فى مارس سنة ١١٧٧ ليكون على مقربة من سير المحادثات . وأخيرا لم يجد الامبراطور فردريك مفرا من الخضوع والتسليم ، فدخل البندقية حيث كان البابا اسكندر الثالث فى انتظاره يحيط به جمع حافل من الكرادلة (٥) . ولم تلبث أن تكررت تمثيلية كانوسا بعد مرور مائة عام

---

(1) Bryce : op. cit. p. 175.
(2) Eyre : op. cit. 166.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 262.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 502.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5. p. 448.

بالضبط ، فأتى الامبراطور فردريك الأول العظيم ، خليفة قيصر وشارلمان ، ليرتمى بين قدمى البابا اسكندر الثالث باكيا طالبا منه الصفح والغفران ، مثلما فعل سلفه — العظيم أيضا — هنرى الرابع مع البابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٧ (١) .

وهكذا تم الصلح بين الامبراطورية والبابوية فى أغسطس ١١٧٧ ، فوافق فردريك الأول على رد جميع الأراضى المغتصبة من البابوية ، وتعهد كل من الطرفين بمساعدة الطرف الثانى ضد أى عدو يهدده . هذا علاوة عما وافق عليه الامبراطور من عمل هدنة مع حلفاء البابا النورمان فى صقلية لمدة خمس عشرة سنة ، وهدنة أخرى مع المدن اللمباردية لمدة ست سنوات (٢) . وقبل أن تنتهى هذه الهدنة الأخيرة مع المدن اللمباردية تم توقيع صلح كونستانس سنة ١١٨٣ بين المدن اللمباردية والامبراطورية ، وهو الصلح الذى نص على أن تتمتع هذه المدن بجميع أركان الاستقلال السياسى والقضائى والاقتصادى والحربى ، مع احتفاظ الامبراطور ببعض المظاهر التى تصور سيادته الاسمية ، مثل موافقته على تعيين حكام المدن وفرض ضريبة شكلية تافهة للمساهمة فى نفقات الجيوش الامبراطورية . على أنه من الواضح أن هذه الشروط لا تخفى الحقيقة الواقعة وهى أن المدن اللمباردية أصبحت دويلات مستقلة بمقتضى معاهدة كونستانس ، وأن نفوذ الامبراطور فى شمال ايطاليا أضحى اسميا ، مما أدى الى تفكك الامبراطورية وانفصال ايطاليا عن ألمانيا فى تطورها (٣) .

الامبراطورية عقب صلح البندقية سنة ١١٧٧ :

وقد أتاح الهدوء الذى ساد العلاقة بين الامبراطور وايطاليا عقب صلح البندقية فرصة لفردريك الأول ليوجه عنايته نحو شئون ألمانيا ، بعد أن شغلته الأحداث الايطالية عنها طويلا . وكان منبع الخطر الرئيسى الذى هدد سلطة

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 263.
(2) Barraclough : op. cit. p. 183.
(3) Bryce : op. cit. p. 175.

الامبراطور فى ألمانيا هو هنرى الأسد الذى استغل فرصة انشغال الامبراطور ليحصل على امتيازات واسعة ، ويزيد من أملاكه ونفوذه على حساب جيرانه فى الشمال والجنوب ، حتى غدا خطرا حقيقيا هدد الامبراطور فضلا عن بقية الأمراء . هذا الى أن زواج هنرى الأسد من ماتيلدا ابنة هنرى الثالث ملك انجلترا (١) ، جعله على صلة وثيقة بالبلاط الانجليزى ، ومكنه من اتباع سياسة خارجية مستقلة عن سياسة الامبراطورية . وقد ظهرت بعض أركان هذه السياسة فى مشروعات هنرى الأسد لضم الدانمرك وفى البعثات الدبلوماسية المتبادلة بينه وبين الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، على الرغم مما كان من عداء شديد بين هذا الامبراطور والامبراطور فردريك بربروسا . بل أن هنرى الأسد تعهد زيارة القسطنطينية سنة ١١٧٢ وهو فى طريقه الى الأراضى المقدسة مما أثار الشكوك بأنه يتآمر مع الامبراطور البيزنطى ضد فردريك (٢) . لذلك وجه فردريك الأول جهوده نحو هنرى الأسد فأنزل به الهزيمة سنة ١١٨٠ وعندئذ قسم سكسونيا بين عدد من النبلاء ولم يترك لهنرى سوى أجزاء محدودة (٣) .

ثم كان أن أحرز الامبراطور فردريك الأول نصرا سياسيا عظيما سنة ١١٨٤ عندما وضع مشروعا لزواج ابنه وخليفته هنرى من الأميرة كونستانس وريثة مملكة صقلية (٤) . ومن الواضح أن هذا الزواج جاء على جانب خطير من الأهمية لأن من شأنه أن يؤدى فى المستقبل الى التوحيد بين الامبراطورية ومملكة صقلية مما يجعل الأملاك البابوية فى وسط ايطاليا تقع بين شقى الرحى (٥) . ولم يكن هذا هو كل ما صادفه الامبرارطور فردريك الأول من توفيق فى تلك المرحلة ، اذ أن الحلف اللمباردى تفكك بعد أن أحست المدن اللمباردية بزوال الخطر الامبراطورى ، فأشتد التنافس فيما بينهما ، مما مكن الامبراطور من النفاذ الى شئون ايطاليا مرة أخرى . وصادف

---

(1) Adams : The Hist. of England pp. 291-292.
(2) Barraclough : op. cit. p. 87.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 200-201 & 507.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 280.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 453.

أن توفى البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨١ فترك فراغا كبيرا فى روما لأن أحدا من البابوات الخمسة الذين خلفوه فى منصبه بين سنتى ١١٨١ ، ١١٩٨ لم تتح له فرصة البقاء طويلا فى الوظيفة البابوية ليقوم بعمل ذى أهمية فى التاريخ (١) . وقد أوشك النزاع بين البابوية والامبراطورية أن يتجدد سنة ١١٨٤ عندما ماطل البابا لوكيوس الثالث فى تتويج هنرى — ابن الامبراطور فردريك الأول — فى حياة أبيه ، ثم تجدد النزاع فعلا فى عهد البابا أوربان الثالث (١١٨٥ — ١١٨٧) عندما عين كل من البابا والامبراطور رئيسا لأساقفة تريير Trier وتمسك كل منهما برأيه (٢) . وسرعان ما تألف حلف ضد الامبراطور فردريك الأول من البابا ورئيس أساقفة كولونيا وهنرى الأسد ، ولكن موقف الامبراطور أصبح قويا بعد أن استمال اليه اعداءه القدامى فى ايطاليا وألمانيا ، وعلى رأسهم مدينة ميلان التى شهدت الاحتفال بزواج هنرى ابن الامبراطور من الأميرة كونستانس .

وعلى الرغم من الهزائم التى لحقت بالبابا وحلفائه فى ألمانيا وايطاليا الا أن أوربان الثالث أصر على موقفه واستعد لاصدار قرار الحرمان ضد الامبراطور ، فى الوقت الذى جاءت الأخبار من الشرق بانتصارات صلاح الدين على الصليبيين بالأراضى المقدسة سنة ١١٨٧ . وبعد ذلك بأيام قلائل توفى البابا أوربان الثالث فعمل خليفته جريجورى الثامن على لم شعث القوى المسيحية لارسال حملة جديدة الى الشرق تثأر لما حل بالصليبيين على أيدى صلاح الدين (٣) . على أن هذا البابا لم يمكث فى منصب البابوية سوى أسابيع قليلة توفى بعدها فخلفه كلمنت الثالث (١١٨٧ — ١١٩١) الذى استأنف سياسة سلفه فى ضم صفوف الغرب المسيحى فاسترضى الامبراطور فردريك بربروسا بأن عزل رئيس أساقفة تريير المغضوب عليه من الفريق الامبراطورى ، كما وعد فردريك بتتويج ابنه هنرى . وهكذا عادت للامبراطور فردريك الأول سيادته من جديد على ألمانيا وايطاليا ، فنفى هنرى الأسد وثبت الأمن والنظام فى شطرى الامبراطورية (٤) . وفى سنة ١١٨٩ غادر

(1) Hayward : op. cit. pp. 189-191.
(2) Idem : p. 189.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 270-271.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 509.

الامبراطور فردريك بربروسا ألمانيا على رأس الشطر الألمانى من الحملة الصليبية الثالثة فى الوقت الذى كان الأمير هنرى الأسد يدبر له المؤامرات من منفاه فى البلاط الانجليزى . وقد انتهز هنرى الأسد فرصة سفر الامبراطور الى الشرق وعاد الى ألمانيا محاولا استرجاع سكسونيا بالقوة ، مما جعل السياسة الأوربية تمر فى تلك الحقبة بدور شديد التعقيد بسبب علاقة الصداقة بين ألمانيا وفرنسا من جهة وعداء انجلترا لفرنسا وبالتالى لألمانيا من جهة أخرى(١) . أما فيما يتعلق بفردريك بربروسا فقد شاءت الأقدار أن يلقى هذا الامبراطور الشيخ حتفه غرقا فى أحد أنهار آسيا الصغرى سنة ١١٩٠ قبل أن يصل الى الأراضى المقدسة .

وكان أن جاء فى العرش بعد فردريك بربروسا ابنه هنرى السادس (١١٩٠ — ١١٩٧) الذى ورث عن أبيه مقدرته وقوة عزيمته وتشبعه بفكرة الامبراطورية العالمية (٢) . ذلك أنه وضع لنفسه برنامجا ضخما يتضمن جعل المنصب الامبراطورى وراثيا فى ذريته والغاء مبدأ الانتخاب فى اختيار الامبراطور ، واستغلال مركز زوجته كوريثة لعرش صقلية فى تدعيم نفوذه فى جنوب ايطاليا . على أن هنرى السادس لم يستطع اتمام مشروعاته السابقة دون الاصطدام مع خصومه ومنافسيه ، وعلى رأسهم هنرى الأسد الذى ذكرنا أنه عاد من منفاه بانجلترا ليطالب بأملاكه ويستعيد نفوذه (٣) . هذا فى الوقت الذى كان وليم ملك صقلية قد توفى فى أواخر سنة ١١٨٩ وأراد الوطنيون اعطاء عرش المملكة لتنكرد بدلا من كونستانس زوجة هنرى السادس والوريثة الشرعية للعرش (٤) .

ويبدو أن هذه المشكلة الأخيرة كانت أهم المشاكل فى نظر هنرى السادس حتى أنه صفى المسائل المعلقة بينه وبين هنرى الأسد ، ثم عبر

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 195.

(2) Bryce : op. cit. p. 201.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 460.

(4) Eyre : op. cit. p. 167.

جبال الألب الى ايطاليا فى أوائل سنة ١١٩١ حيث اكتسب تأييد أهالى روما وتغلب على مماطلة البابا كاسين الثالث Calestine III حتى تم تتويجه مع زوجته الامبراطورة كونستانس فى شهر أبريل من السنة نفسها (١) . وعندما زاحف هنرى السادس جنوبا لاسترداد مملكة صقلية من مغتصبها تنكرد ، تنكر له الحظ بسبب مقاومة نابلى وانتشار الطاعون بين الجنـود الألمان ، حتى اضطر الامبراطور الى العودة شمالا الى ألمانيا (٢) .وكانت الأوضاع فى ألمانيا عندئذ تنذر بصدام جديد بين الهوهنشتاوفن والجلفيين أو بعبارة أخرى بين الامبراطور وهنرى الأسد ، وفعلا قامت الحرب بين الطرفين سنة ١١٩٢ . ولم تلبث أن تعقدت حوادث هذه الحرب عندما ثار أمراء الراين سنة١١٩٢ . نتيجة لسياسة هنرى السـادس ، وبذلك اشتدت أواصر التحـالف بين الهوهنشتاوفن فى ألمانيا وآل كابيه فى فرنسا ضد أنفصـالهم الولفيين وأمراء الراين وملك أنجلترا (٣) . على أن الحظ حالف هنرى السادس ، اذ حدث فى الوقت الذى ثار امراء الراين أن وصله خبروقوع ريتشاردملك انجلترا — أثناء عودته من الحملة الصليبية الثالثة — فى أسر دوق أوستريا الذى سلمه بدوره لهنرى السادس . وقد ظل ريتشارد فى الأسر أكثر من عامين أرسـل خلالها فيلب ملك فرنسا الى حليفـه هنرى السادس يطلب منـه عـدم الافراج عنه ، ولكن هنرى السادس أفرج عنه أخيرا سنة ١١٩٤ بشروط قاسية (٤) . وسرعان ما تتابعت انتصارت هنرى السادس على خصومه ، فخضع أمراء الراين واستسلم هنرى الأسد وبقية حلفائه ، وبذلك أصبـح هنرى السادس سيد الموقف فى ألمانيا ، مما مكنه من توجيه كل جهوده نحـو ايطاليا (٥) .

وقد ساعدت هنرى السادس فى تحقيق أطماعه الايطالية المقدرة التى

---

(1) Hayward : op. cit. p. 191.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 464.

(٣) كان ملك انجلترا عندئذ يعتبر فصلا اقطاعيا لملك فرنسا بالنسبة للأراضى الواسعة التى كانت تحت سيادة الأول فى غرب فرنسا (نورمنديا وآنجو ومين وتورين وبواتو وجوين وجاسكونى) .

(4) Adams : op. cit. pp. 374-376,

(5) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 306-309.

امتاز بهـا على الانحناء أمام التيارات الصغيرة والثورات المحلية حتى تمر بسلام ، هذا فضلا عن انشغال المدن اللمباردية فى شمال ايطاليا بما نشب بينها من خلاف . وهنا نجد هنرى السادس يحرص على عدم الزج بنفسه فى تلك الخلافات ،وعلى استرضاء مختلف الفرق المتنـازعة ، مما مكنـه من الحصول على معونة بحرية من جنوا وبيزا فى حربه ضد صقلية ، كما حرم مملكة صقلية من الحصول على مساعدة حلفائها فى شمال ايطاليا . أما البابا كالستين Calestine III (ت ١١٩٨) فكانت تنقصه الجرأة واكتفى بالوسائل السياسية لعرقلة مشروعات الامبراطورية مما جعل ملك صقلية يواجه هنرى السادس وحيدا منفردا (١) .

وكان تنكرد قد توفى عند وصول هنرى السادس الى ايطاليا سـنة ١١٩٤ ، فحل محله ابنه وليم الثالث الذى لم يستطع مواجهة الامبراطور ، فتمكن هنرى السادس قبل نهاية سنة ١١٩٤ من الاستيلاء على مملكة الصقليتين، حيث ترك زوجته كونستانس تنوب عنه فى حكمها فى حين عاد هو الى المانيا سنة ١١٩٥ . وهكذا حرمت البابوية من أقوى حلفائها فى ايطـاليا بعد أن أصبحت الأجزاء الجنوبية فى قبضة الامبراطورية (٢) . أما هنرى السادس فقد بلغ وقتئذ درجة من اتساع النفوذ لم يصل اليها امبراطور فى غرب أوربا منذ أيام شارلمان ، لاسيما بعد أن خلصه الموت من خصمه هنرى الأسد سنة ١١٩٥ (٣) . ويلاحظ بصفة خاصة أن نجاح هنرى السادس فى صقلية يعتبر نقطة تحول فعالة فى تاريخ الامبراطورية وسياستها الخارجية ، لأن هـذا النجاح لم يجعل الأباطرة ورثة النورمان فى أراضيهم بجنوب ايطاليا وصقلية فحسب ، بل ورثوهم أيضا فى أطماعهم الخاصة بالسيطرة على البحر المتوسط وفى عدائهم الشديد للدولة البيزنطية ، الأمر الذى جعل السياسة الخارجية للامبراطورية المقدسة تتحول عن مجراها الطبيعى الى مجرى آخر لا يتفق ومصالح الامبراطورية (٤) . وبعبارة أخرى فان ضم صقلية الى الامبراطورية سبب للاخيرة مشاكل داخلية وخارجية لم تستطع أن تتحملها ، اذ استمرت

(1) Hayward : op. cit. p. 191.
(2) Eyre : op. cit. p. 167.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 469.
(4) Barraclough : op. cit. p. 197.

صقلية مدة ستين عاما — بدأت منذ سنة ١١٩٠ — تستأثر بجهود الأباطرة الذين صرفوا أبصارهم عن شئون ألمانيا ، حتى انتهى الأمر بانهيار أسرة هوهنشتاوفن وتفكك حكومة ألمانيا (١) . أما هنرى السادس فقد حصل سنة ١١٩٦ على موافقة أمراء ألمانيا على اختيار ابنه فردريك الثانى ليخلفه فى عرش الامبراطورية ، ثم ذهب بعد ذلك الى ايطاليا حيث توفى سنة ١١٩٧ وهو يتأهب للقيام بحملة صليبية كبيرة (٢) .

وصادف فى ذلك الوقت أن البابا كالستين الثالث لحق بالامبراطور بعد أربعة أشهر تقريبا ، فخلفه سنة ١١٩٨ البابا أنوسنت الثالث الذى امتاز بشخصية عظيمة مكنته من تحقيق كل ما كانت تطمع فيه البابوية من سمو فى ضوء مبادىء جريجورى السابع واسكندر الثالث . وقد شبه انوسنت الثالث البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس، وبذلك عاد الى نغمة سيادة البابوية على الامبراطورية مما هدد بفتح باب النزاع من جديد بين السلطتين (٣) . وربما كان من العوامل التى ساعدت أنوسنت الثالث على الظهور عدم وجود امبراطور قوى على رأس الامبراطورية الغربية،لأنه حدث بعد وفاة هنرى السادس أن انفصل تاج صقلية عن الامبراطورية وعندئذ لم تبذل أية محاولة جديدة للاحتفاظ بوحدة عرشى صقلية وألمانيا(٤) . ويبدو أن كونستانس — الامبراطورة الوالدة — أثرت الاحتفاظ لابنها بملك صقلية ، مبتعدة به عن ألمانيا ومشاكلها ، وفى سبيل ذلك أعلنت تبعيتها للبابوية وتعهدت بدفع مبلغ معين من المال للبابا سنويا . وهكذا استطاعت كونستانس أن تحكم نابلى وصقلية باسم ابنها فردريك الصغير فابعدت الموظفين الألمان الذين شكا منهم الأهالى ، كما أوصت قبل وفاتها سنة ١١٩٨

---

(1) Ibid.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 512.

(3) Tout : The Empire and the Papsy : p. 314.

(4) Cam. Hist. Vol, 6, pp. 44.45.

بأن يخلفها البابا فى الوصاية على ابنها الصغير (١) . وقد قام البابا انوسنت الثالث بالوصاية على فردريك الثانى على خير وجه كما أخذ يمكن للبابوية فى أواسط ايطاليا وشمالها بعد طرد الحاميات الالمانية من روما ، هذا فى الوقت الذى أخذ البابا يرقب — بارتياح — حوادث الانقسام التى هددت المانيا بحرب أهلية (٢) .

ذلك أن فيليب دوق سوابيا — وعم فردريك الثانى — أسرع الى المانيا عقب وفاة أخيه هنرى السادس للاحتفاظ بعرشها للهوهنشتاوفن ، حتى انتهى الأمر باختياره ملكا على ألمانيا سنة ١١٩٨ . على أن عددا كبيرا من الأمراء أيدوا أوتو — الابن الثانى لهنرى الأسد — الذى كان يعيش فى بلاط ريتشارد ملك انجلترا ، وعندئذ أمده ريتشارد بالمال وأرسله الى المانيا ليستخلص حقوقه بوصفه ممثل الولفيين (٣) ، مما جعل المانيا مسرحا لحرب أهلية استمرت عشر سنوات وانتهت بانتصار فيلب سنة ١٢٠٧ ، ثم مقتله فى العام التالى . وهكذا تبسم الحظ لأوتو الرابع الذى لم يجد أمامه من ينافسه من بيت هوهنشتاوفن ، فأسرع الى الزواج من ابنة غريمه فيلب ليربط بين الجلفيين والجبلينيين . هذا الى أنه عمل على استرضاء البابوية ، فقصد ايطاليا سنة ١٢٠٩ ليقوم بالزيارة التقليدية التى تمسك بها ملوك المانيا وليبحث مع البابا مشكلة تركة الأميرة ماتلدا (٤) . وقد انتهز أوتو الرابع فرصة مقابلته للبابا وأعلن ولاءه للبابوية كما أقسم على أن يحافظ على حرية انتخاب رجال الدين ، وعلى أن يساعد البابا ضد خصومه ، فكافأه البابا على ولائه بتتويجه فى أكتوبر من العام نفسه (٥) . على أن موقف أوتو من البابوية بعد أن توج امبراطورا اختلف عن موقفه منها وهو يسعى لاكتساب عطفها للوصول الى العرش ، ذلك أن أوتو الرابع لم يلبث أن أفزعته سياسة البابا انوسنت الثالث وأطماعه ، فاضطر — وهو الامبراطور الجلفى — الى اتباع سياسة خصومه من آل هوهنشتاوفن

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 317.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 45.

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 233.

(4) Barraclough : op. cit. p. 212.

(5) Hayward : op. cit. p. 193.

تجاه البابوية (١) وهكذا أخذت العلاقة بين البابوية والامبراطورية تتخذ شكل حرب باردة ، فبدأ أوتو الرابع يعمل على ابعادفردريك الثانى عن عرش صقلية لادخالها تحت سلطانه ، مما أفزع البابا انوسنت الثالث ، لا سيما بعد أن تمسك أوتو الرابع بحق الامبراطورية فى تركة الأميرة ماتيلدا (٢) . ولم تلبث هذه الحرب الباردة أن تحولت الى حرب ساخنة عندما شرع أوتو الرابع فى تنفيذ أطماعه عمليا ، فاحتل تسكانيا سنة ١٢١٠ ثم غزا ابوليا وأخذ يتأهب لغزو صقلية بمساعدة الاسطول البيزى (٣) . وقد ارتاع البابا من تلك الأحداث ، فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور ، وأباح لرعاياه الخروج عن طاعته ، كما أعلن فردريك الثانى امبراطورا . وهكذا انقلبت الأوضاع فى أوربا فأصبح أوتو الرابع — وهو ابن هنرى الأسد الولفى — يقوم بدور الهوهنشتاوفن فى مناوءة البابوية والتمسك بسيادة الامبراطورية ، فى حين أخذ البابا يساند فردريك الثانى الجبللينى سليل الهوهنشتاوفن (٤) . وكيفما كان الأمر فقد آتت السياسة البابوية أكلها ، فاجتمع عدد من أمراء المانيا الكارهين للامبراطور فى نورنبرج Nurnberg سنة ١٢١١ ، واعتبروا قرار البابا ضد الامبراطور مرسوما بعزله ، واختاروا فردريك الثانى ملك صقلية — وابن هنرى السادس — ملكا على المانيا بدلا من أوتو الرابع المحروم من الكنيسة . ومن الواضح أنه لم يكن من مصلحة البابا أن يختار الألمان فردريك الثانى ملكا عليهم حتى لا تعود البابوية من جديد بين فكى الكماشة فيحيط بها النفوذ الامبراطورى من الشمال والجنوب (٥) ، ولكن الموقف الذى كان فيه البابا انوسنت الثالث عندئذ جعله لا يفكر فى شىء سوى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 73.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 318.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 74.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 621.

(5) Barraclough : op. cit. p. 212.

التخلص من أوتو الرابع ، فوافق على اختيار فردريك الثانى لعرش ألمـــانيا دون أن يدرى ما سيترتب على هذا الاختيار من نتائج قريبة (١) .

أما فردريك الثانى فلم يلبث أن غادر صقلية ـــ وكان فى السادسة عشر من عمره ـــ وقصد روما حيث أعلن ولاءه للبابوية ، ثم قصـــد ألمـــانيا حيث رحبت به سوابيا وبافاريا ، حتى تتم تتويجه رسميا ملكا على ألمانيا بيد رئيس أساقفة مينز سنة ١٢١٢ (٢) . ولم يبق أمام أوتو الرابع عندئذ سوى الاعتماد على امارة سكسونيا ، فطلب المعونة من خاله حنـــا ملك انجلترا الذى كان مغضوبا عليه من البابوية هو الآخر . على أن التحالف بين فردريك الثـــانى وفيلب أوغسطس ملك فرنسا والبابوية كان أقوى أثرا من التحالف بين ملك انجلترا وأوتو الرابـــع وغيرهما من أمراء فلاندرز وبرابانت واللوين (٣) . وسرعان ما أنزل فيلب أوغسطس هزيمة ساحقة بخصومه فى موقعة بوفـــان سـنة ١٢١٤ ، وهى الموقعة التى تعتبر نقطـــة تحـــول ، لا فى تـــاريخ ألمانيـــا فحسب ، بل فى تـــاريخ أوربا بأسرها . أما فيمـــا يتعـــلق بألمانيا فان أوتو الرابع انسحب يجر اذيال الخيبة نحو سكسونيا حيث توفى ســـنة ١٢١٨ فى حين استسلم أنصاره وأتبـــاعه لفردريك الثـــانى بســـهولة (٤) . وقد احتفل فردريك الثانى بانتصاره باعادة تتويجه فى كتدرائية آخن ، وبذلك اصبح بعد موقعة بوفان الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى حـــكم ألمانيـــــــا والصقليتين (٥) . والواقع أن هناك عدة ظروف تجمعت لتجعل من فردريك الثانى شخصية من أبرز الشخصيات التى شهدتها العصور الوسطى واشدها غرابة . ذلك أنه ولد من أب ألمانى وأم نصف ايطـــالية ، وتلقى تعليمه فى صقلية على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية ، فنشأ فيلسوفا محبا للجدل والرياضيات (٦) ، يجيد عدة لغات منها اللغة العربية ، ويتـــذوق الشـــعر

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 239.
(2) Cam. Md. Hist. Vol. 6, p. 76.
(3) Adams : op. cit. 431.
(4) Barraclough : op. cit. p. 214.
(5) Eyre : op. cit. p. 169.
(6) Kantorowicz : op. cit. pp. 293-395.

العربى وغير العربى ، هذا كله فضلا عن مهارته كسياسى ومحارب وقانونى، حتى أطلق عليه المؤرخون « أعجوبة الدنيا » (١) . وقد شاءت الظروف أن تساعد فردريك الثانى فى أوائل عهده لأن البابا انوسنت الثالث توفى سنة ١٢١٦ فتحرر فردريك الثانى من سيطرته ، ولا سيما أن البابا الجديد هنريوس الثالث (١٢١٦ — ١٢٢٧) كان هادىء الطبع ، ففضل توجيه جهود العالم العربى نحو الحروب الصليبية بدلا من المنازعات العقيمة بين البابوية والامبراطورية .

الدور الثالث من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

على أن جهود فردريك الثانى فى التمكين لنفسه من جهة ، واتخاذ ايطاليا وصقلية — لا ألمانيا — مسرحا أساسيا لهذه الجهود من جهة أخرى ، كان من شأنها أن تثير مخاوف البابوية (٢) . وازدادت هذه المخاوف عندما اتضح للبابوية أن فردريك الثانى غير قانع بصقلية وجنوب ايطاليا ، وانما أخذ يعمل على توطيد نفوذه فى شمالها — أى فى لمبارديا . حقيقة أن فردريك حرص عندئذ على احترام مركز البابوية فى ايطاليا ، ولكن سيطرة الامبراطور على جنوب ايطاليا وشمالها أنذرت بوقوع الأملاك البابوية بين شقى الرحى، مما جعل البابا ينظر الى محاولات فردريك وسياسته بعين ملؤها الشك والخوف مما سيتمخض عنه المستقبل (٣) .

وكان فردريك الثانى قد وعد البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ بالقيام بحملة صليبية ، كما وعده بفصل صقلية عن الامبراطورية . ولكنه عاد فأخذ يماطل فى القيام بالحملة التى وعد بها ، كما توج ابنه هنرى سنة ١٢٢٠ ملكا ليخلف أباه فى حكم صقلية والامبراطورية جميعا مما ضايق البابوية وأفزعها (٤) . وفى سنة ١٢٢٠ تم تتويج فردريك الثانى امبراطورا فى روما

---

(1) Bryce : op. cit. pp. 203-204.

(2) Barraclough : op. cit. pp. 222-223.

(3) Idem, p. 228.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 364-365.

بعد أن جدد العهد بالقيام بالحملة الصليبية . ويبدو أن فردريك لم يكن جادا في مشروعه الصليبي في الوقت الذى كانت البابوية تتوق لارسال حملة صليبية على وجه السرعة لاصلاح الموقف الذى نجم عن فشل حملة حنـــابرين على مصر (١٢١٩ — ١٢٢١) . وأخيرا لجــأ البـــابا الى تشجيـــع فكرة زواج الامبراطور من الأميرة يولاند وريثة مملكة بيت المقدس ليجعل له مصلحة في الذهاب الى الأراضي المقدسة واسترداد بيت المقدس من المسلمين . وفعلا تم الزواج سنة١٢٢٥ ، ومع ذلك لم يخط فردريك الثانى خطوة جدية في سبيل تنفيذ وعده الصليبي (١) . هذا الى أن فردريك الثانى لجأ بعد تتويجه الى فرض قوانين مشددة على رجال الدين ترمى الى الحد من نفوذهم وانتقاص حقوقهم ، كما عقد مؤتمرا في كريمونا سنة ١٢٢٦ أعلن فيه تمســكه بحقوقه الامبراطورية كاملة في السيطرة على لمبارديا ، مما أفزع المدن اللمباردية ، فجددت حلفها ضد الامبراطور وسدت ممرات الألب في وجهه . وكان صـــبر البـــابا هنريوس الثالث قد أوشك أن ينفذ عندئذ ، فأخذ يتأهب لتجـــديد الحلف بين البابوية والمدن اللمبـــاردية ، ولكنه توفى في مارس ســـنة ١٢٢٧ مما أجل فتح باب النزاع بين الامبراطورية والبابوية (٢) .

وعلى الرغم من أن البابا الجديد جريجورى التـــاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) كان طاعنا في السن ، الا أنه امتاز بارادة حديدية لا تفل ، فلم يقبل الاعذار التى طالما انتحلها فردريك الثانى لتأجيل حملته الصليبية ، وأصر على ضرورة رحيل الامبراطور الى الشرق فورا (٣) . وكان أن أبحر الامبراطور فعـــلا من برنديزى قاصدا الأراضي المقدسة ، ولكنه عاد بعد أيام مدعيا المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضا فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور في ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٢٧ (٤) . وهنا يجدر بنا أن نوضـــح مرة أخرى أن توقيع هـــذا القرار على الامبراطور لم يكن سببه مماطلة فردريك الثـــانى في

---

(1) Kantorowicz : Frederick the Second, p. 139.

(2) Hayward : op. cit. p. 200.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 146.

(4) Kantorowicz ; op. cit. p. 171.

تنفيذ وعده الصليبى فحسب ، بل أيضـــا تخوف البابوية من سياسة فردريك فى ايطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خـــاص (١) . ومهما يكن من أمر فان هذا الاجراء فتح باب النزاع على مصراعيه بين البابوية والامبراطورية . وكانت ميلان مسئولة الى حد كبير عن فتح هذا الباب لأنها عارضت بشـــدة احياء النفوذ الامبراطورى فى لمباردیا ، فجددت الحلف اللمباردى لمدة خمس وعشرين سنة جديدة تبدأ من سنة ١٢٢٦ ، كما أنها ســـدت ممرات الألب فى وجه الجيوش الامبراطورية الوافدة من ألمانيا (٢) . أما البـــابا فقد أرسل رسله ومندوبيه الى كافة انحاء ايطاليا وألمانيا لابلاغ الناس القرار البـــابوى ضد الامبراطور وتحريضهم على الخروج عن طاعته . على أنه يبـــدو أن الامبراطور فردريك لم يتأثر بتلك الدعوة ، وظل ثابتا فى مركزه يرقب فشل عملاء البابا فى تحريك الثورة ضـــده ، بل على العكس نجح دعاة الامبراطور فى اثارة فتنة ضد البابا فى روما مما اضطر جريجورى التاسع الى الفـــرار منهـــا ســـنة ١٢٢٨ (٣) .

وأخيرا أدرك فردريك الثانى أن مصلحته تستدعى القيام بحملته الصليبية المزعومة حتى يبدو فى ثوب المجاهد فى سبيل الغرض الصليبى ، فوصل عكا على رأس قوة صغيرة فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ . ويفهم من حوادث هـــذه الحملة الصغيرة أن فردريك الثانى لم يخرج الى الشرق بقصد الحـــرب ، وانما كان يبغى مفاوضة المسلمين للحصول على كسب سريع . ولم تلبث هذه المفاوضة أن انقلبت الى نوع من الاستعطاف ، وهو السلاح الوحيـــد الذى كان يملكه فردريك الثانى عندما قدم الى الشرق فى بضع مئات من أتباعه . وتشير بعض المراجع المعاصرة الى أن فردريك كان يبكى فى بعض مراحـــل مفاوضاته مع المسلمين عندما يتذكر أنه سيعود الى الغرب فاشـــلا ليواجه البابوية وبقية أعدائه فى ايطاليا وألمانيا (٤) . ويفسر هذا الشعـــور رســـالة أرسلها فردريك الثانى الى السلطان الكامل الأيوبى أثناء المفـــاوضات يقول

---

(1) Creighton : A Hist. of the Papacy, p. 26.
(2) Barraclough : op. cit. p. 230.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, ppé. 367-368.
(4) Kantorowicz : op. cit. p. 185.

فيهــا « أنا مملوك وعتيقك . وليس لى عما تأمره خروج ! وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فان رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم .. ! (١) » .

وهكذا استطاع فردريك الثانى أن يكتسب عطف السلطان الكــامل ، فعقدت معاهدة بين الطرفين سنة ١٢٢٩ سلم بمقتضاها الكامل بيت المقدس للامبراطور الذى استطاع أن يحقق نصرا عجزت عنه بقية الحملات الصليبيه الضخمة التى وفدت الى المشرق بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقــدس سنة ١١٨٧ .. وكان أن دخل فردريك الثانى كنيسة القيامة فى بيت المقــدس حيث أعلن من ذلك المكان المرموق أن قرار الحرمان الذى أصدره البابا ضده باطل ! ، كما توج نفسه بيده داخل تلك الكنيسة (٢) . وهنــا نلاحظ أن تتويج الامبراطور لنفسه فى هذه المناسبة له مغزى عميق ، اذ ربمــا أراد الامبراطور بذلك أن يعلن بطريقة صامتــة فى تلك الكنيسة ذات الأهميــه العظمى أنه لم يتلق التاج الامبراطورى من رجال الدين ، وأنه تلقاه من الله مباشرة دون وساطة أحد من رجال الكنيسة .. هذا وان كانت بعض المراجع المعاصرة تفسر تتويج الامبراطور لنفسه بأن رجال الدين فى بيت المقــدس امتنعوا عن تتويج امبراطور محروم من الكنيسة ، مطرود من رحمتها (٣) . ومهما يكن من أمر فان اقامة فردريك الثانى لم تطل فى الأراضى المقدســة ، اذ عادبسرعة الى ايطاليا ليجد قوات البابا جريجورى التاسع قد استغلت فرصة غيابه وأغارت على أملاكه فى جنوب ايطاليا . بل بلغ الأمر بالبابا أن أذاع خبر وفاة الامبراطور فى الشرق ليضعف مركزه فى ايطاليا والمانيــا ، واستغل هذه الفرية ليستولى على الأملاك الامبراطورية ، كما يتضــح ذلك من رســالة بعث بها الامبراطور الى أحد أصدقائه المسلمين فى الشرق بعــد

---

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات) .

(2) Kantorowicz : op. cit. p. 199.

(3) Ibid.

عودته (١) . لذلك وقع خبر وصول الامبراطور فردريك الثانى الى ميناء برنديزى (يونيو ١٢٢٩) وقع الصاعقة على البابا جريجورى التاسع ، الذى يبدو أنه كان يخشى هجوما مسلحا يقوم به فردريك الثانى على روما ، فأرسل سنة ١٢٢٩ عدة رسائل الى كبار الأساقفة يأمرهم بسرعة الحضور ومع كل منهم قوة مسلحة للدفاع عن الكنيسة الرومانية ضد هجوم الامبراطور المتوقع (٢) . وأخيرا لم يجد البابا مفرا من الاعتراف بما حققه الامبراطور من مكاسب للمسيحية باسترداده بيت المقدس ، فعقد صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠ مع الامبراطور ، وبمقتضاه رفع عنه قرار الحرمان مقابل تعهده بحماية أملاك البابا والاعتراف بحق البابوية فى السيادة على صقلية (٣) .

ومن الواضح أن صلح سان جرمانو لم يتعرض لأسباب الخلاف الحقيقية بين البابا والامبراطور ، لذلك لم يكن هذا الصلح أكثر من هدنة مؤقتة بين الطرفين . ومهما يكن من أمر ، فان فردريك الثانى استغل هذه الهدنة لتقوية نفوذه فى جنوب ايطاليا وصقلية . وهنا يظهر التناقض الشديد بين سياسة الامبراطور فى ايطاليا وسياسته فى ألمانيا ، اذ بينما هو يعمل على توطيد نفوذه فى ايطاليا عن طريق اضعاف الأمراء الاقطاعيين ، اذا به يعتمد على

---

(١) أرسل الامبراطور فردريك الثانى رسالة بعد عودته الى ايطاليا الى الأمير فخر الدين ، رسول السلطان الكامل فى المفاوضات بينه وبين فردريك قبل تسليم بيت المقدس . وفى هذه الرسالة الطريفة يحكى الامبراطور لصديقه المسلم ما فعله البابا فى غيابه ، فضلا عما توضحه الرسالة من شعور عدائى متبادل بين البابوية والامبراطورية عندئذ ، فيقول « بسم الله الرحمن الرحيم ، من قيصر العظيم امبراطور رومية فردريك ... وبعد علمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا . فنشعره أن البابا باء بالغدر والخديعة . أخذ احدى قلاعنا المنيعة . واضطر الى أن زعم أننا متنا وحلف القردنالية (الكرادلة) على ذلك ، وعلى أن رجوعنا مستحيل ، وراوضوا العامة بمثل هذه الأباطيل ، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن جراية بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا ... » .

أنظر المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٣٤ الباب ١٠٣ من التاريخ المنصورى تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان لأبى الفضائل الحموى .

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 296 N.I.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 147.

امرائه الالمان فى امداده بالقوة اللازمة لتنفيذ سياسته الايطالية (١) . لذلك اضطر الامبراطور الى ترك الحبل على الغارب بالنسبة للامراء الالمان ، مما أدى الى تقويض نفوذ الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، لا سيما فى ذلك الوقت الذى أخذت المدن الألمانية تنمو لتتحول الى قومونات ذات نفوذ سياسى واقتصادى مستقل . وفى تلك الأثناء كانت المدن اللمباردية ترقب بعين القلق ازدياد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا ، مما دعى الى تجديد الحلف فيما بينهما سنة ١٢٣٢ لمواجهة هذا الخطر المشترك (٢) . ولم تلبث تلك المدن أن ثارت ضد الامبراطور الذى اعتمد على معونة كبار الامراء الاقطاعيين حتى تمكن من انزال هزيمة بقوات الحلف اللمباردى عند كورتنوفا Cortenuova قرب ميلان سنة ١٢٣٢ ، وبذلك ثأر فردريك الثانى لما حل بفردريك الأول فى لينانو سنة ١١٧٦ (٣) . ويبدو أن هذه الهزيمة أثارت شعور اليأس عند كثير من المدن التى أسرعت الى عقد الصلح مع الامبراطور ، بل أن ميلان نفسها عرضت حل الحلف اللمباردى الذى أصبح لا يضم سوى ست مدن ، ولكن فردريك أصر على أن يكون استسلام ميلان غير مشروط بقيد ، وبذلك أضاع فرصة طيبة للوصول الى تسوية سرية سريعة (٤) .

ذلك أن البابا جريجورى التاسع كان قد استعد للدخول فى نضال جديد مع الامبراطور ، ولا سيما ان الاستياء بلغ به حدا كبيرا عندما أخذ فردريك الثانى — عقب انتصاره على المدن اللمباردية سنة ١٢٣٧ — يتصل بأهالى روما ويحرضهم على الثورة ضد البابا (٥) . وفى سنة ١٢٣٨ — ١٢٣٩ أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان — للمرة الثانية — ضد الامبراطور فردريك الثانى ، كما حرض رعاياه على الثورة ضده ، بل بلغ الأمر بالبابا أن عرض تاج الامبراطورية على أخ لملك فرنسا ، ولكن لويس

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 370.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 151.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 2. pp. 629-630.
(4) Barraclough : op. cit. p. 230.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 135.

التاسع لم يهتم بنداء البابا الذى وجهه اليه فى أكتوبر سنة ١٢٣٩ ، واختار أن يحترم اتفاقية الصداقة التى عقدتها أمه بلانش مع الامبراطورية (١) . أما جهود البابا فى أثارة المتاعب ضد الامبراطور بألمانيا فقد منيت كلهـا بالفشل، مما مكن الامبراطور من مواصلة الحرب ضـد البابوية فى ايطاليا ، وهـو مطمئن تماما الى ناحية الجبهة الألمانية . وكان البابا يظن أنه يستطيع باكتساب القوى البحرية ــ جنوا وبيذا والبندقية ــ الى جانبه ، ان يشن هجوما على صقلية ليقضى على المركز الرئيسى لفردريك ، ولكن الهزيمة التى حلت باسطول جنوا سـنة ١٢٤١ خيبت أملـه (٢) ، فى حين أخذت القـوات الامبراطورية تهـاجم الأراضى والمدن الموالية للبابا فى أواسط ايطـاليا ، فاستولت على أنكونا ودوقية سبوليتو ، كمـا أصبح الامبراطور سيد رافنا وفاينزا Faenza ، بل أنه اسـتولى على بعض المدن الشـديدة القرب من روما مثل فوليجنو وفيتربو Viterbo بحيث أنه لم ينقذ البابا عندئذ سوى بقاء أهالى روما على ولائهم له (٣) . وأخيرا لم يجد البابا وسيلة لاحراج مركز فردريك الثانى فى أوربا كلهـا سوى عقد مجمع دينى فى روما يشـترك فيـه كبـار رجال الدين بالغرب لانزال اللعنـة بالامبراطور . وفعلا لبى دعوة البابا فريق من أساقفة شمال ايطـاليا وفرنسا وأسبـانيا واجتمعوا فى ربيع سنة ١٢٤١ فى جنوا استعدادا للابحار منها الى روما . ولكن عددا كبيرا من مدن ايطاليا البحرية ــ وعلى رأسها بيزا ــ كانت موالية للامبراطور ، واستطاعت هذه القوة البحرية أن تتصيد السفن الجنوية التى تنقل الأسـاقفة الوافدين لحضور المجمع البابوى ، مما أوقع معظمهم فى أسر الامبراطور وادى الى فشل مشروع البابا (٤). ولم ينقذ هؤلاء الاساقفة من قبضة الامبراطور سوى تهديد لويس التاسع ملك فرنسا باعلان الحرب ، وعندئذ أطلق فردريك الثانى سراحهم ، وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى توفى البابا جريجورى التاسع (أوغسطس ١٢٤١) وهو فى الثامنة والتسـعين مـن عمره (٥) .

---

(1) Hayward : op. cit. p. 202.
(2) Barraclough : op. cit. p. 231.
(3) Tout : The Emprie and the Papacy, p. 284.
(4) Kantorowicz : op. cit. p.p. 544-545.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 156.

وقد أعقب جريجورى التاسع فى منصب البابوية كلستين الرابع ، ولكنه توفى فى العام نفسه (سنة ١٢٤١) وعندئذ تعذر انتخاب بابا جديد ، فظل كرسى البابوية شاغرا مدة سنة ونصف — بسبب دسائس فردريك الثانى — حتى اختير أنوسنت الرابع فى يونية سنة ١٢٤٣ (١) . وفى تلك الأثناء كانت المحادثات دائرة بين الفريق الامبراطورى من جهة والبابا جريجورى التاسع ثم أنوسنت الرابع من جهة أخرى للوصول الى اتفاق ينهى حالة النزاع بين الطرفين ، ولكن هذه المحادثات منيت بالفشل مرة بعد أخرى لاصطدامها بصخرة واحدة هى تمسك البابوية بالسيطرة على الموقف بين فردريك والمدن اللمباردية ، فى حين كان فردريك مستعدا للتساهل فى كافة المشاكل الكنسية المعلقة دون أن يسمح للبابا بالتدخل فى حقوقه الامبراطورية فى لمبارديا (٢) . وكان أن صمم أنوسنت الرابع على مواصلة سياسة جريجورى التاسع تجاه الامبراطورية ، مما جعل قوات الامبراطور — من المسلمين الذين استعان بهم وأسكنهم فى جنوب ايطاليا — تهجم على الاراضى البابوية . وقد اضطر البابا ازاء هذه الاخطار الى الفرار من روما سنة ١٢٤٤ الى جنوا ومنها الى فرنسا حيث عقد مجمعا دينيا فى ليون سنة ١٢٤٥ لبحث المشاكل الكبرى التى تواجه الكنيسة ، وعلى رأسها مسألة النزاع مع الامبراطورية (٣) . وقد قرر ذلك المجمع عزل فردريك من منصبه على أن يختار من يحل محله فى هذا المنصب . ويبدو أن فردريك الثانى أدرك خطر هذا القرار فأصدر نداء الى ملوك أوربا وحكامها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا من أجله واكتفوا باظهار العطف المقرون بالحرص والتحفظ الشديدين ، على الرغم من أن هؤلاء الملوك كانوا يواجهون الخطر نفسه فى بلادهم نتيجة لازدياد نفوذ الكنيسة ورجالها (٤) . وقد أدرك أنوسنت الرابع بعد الانتصارات التى أحرزها فردريك الثانى فى ايطاليا أنه لن يستطيع

---

(1) Hayward : op. cit. p. 203.

(2) Barraclough : op. cit. p. 321.

(3) Cam. Med. Hist. 6. p. 156.

(4) Thompson. op. cit. Vol. 2. p. 630.

كسب المعركة ضد الامبراطورية فى ايطاليا نفسها ، فأخذ يوجه جهوده منذ سنة ١٢٤٥ نحو ألمانيا لتنظيم عناصر المقاومة الداخلية ضد الامبراطور . وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من أساقفة ألمانيا وأمرائها قرروا سنة ١٢٤٦ اختيار أمير ثورنجيا ملكا على ألمانيا ، الا أن غالبية ألمانيا ظلت على ولائها للامبراطور فى الوقت الذى أخذ فردريك الثـانى يستغل كل أداة توصله الى غرضه . وكان الصراع عنيفا — وبصفة خاصة فى الاراضى الايطالية — فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فبذل البابا جهدا قوية للحيلولة دون قيام وحدة امبراطورية متصلة تمتد من ألمانيا شمالا حتى صقلية جنوبا مما يهدد البابوية تهديدا خطيرا (١) . ويبدو أن الفريق الامبراطورى أحرز تفوقا ملحـوظا بين سنتى ١٢٤٥ ، ١٢٥٠ حتى بـات الامبراطور يحلم بعبور جبال الألب الى ليون حيث يقيم خصمه أنوسـنت الرابع (٢) . ولكن فردريك الثانى فوجىء باشتعال نار الثورة فى بارما ١٢٤٧، حتى استطاع أهالى هذه المدينة احراز انتصار كبير على القوات الامبراطورية فى العام التالى . ويعتبر هذا الحادث نقطة تحول خطير فى تلك المرحلة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، اذ سرعان ما أخذ التيار يتحول بسرعة ضد الامبراطورية فثار أمراء أبوليا فى جنوب ايطاليا ، كما اشتدت مقـاومة المدن المعادية للامبراطور فى شمـالها (٣) . حقيقـة أن الحظ ابتسم مرة للامبراطور فردريك الثانى سنـة ١٢٥٠ عندما انتصرت قواته فى شـمال ايطاليا ، كمـا جاءت الأخبار من ألمانيا بانتصار ابنه كونراد على غريمه وليم أمير هولندا الذى اختارته البابوية ملكا على ألمانيا (٤) . ولكن لم يكن لهذه الانتصارات أية ثمرة نتيجة لوفاة الامبراطور فردريك الثانى فى ديسمبر سنة ١٢٥٠ وهو فى طريقه من جنوب ايطاليا الى شمالها .

وبوفاة فردريك الثانى انتهت الصفة العـالمية للامبراطورية الرومانية

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 232.
(2) Tout : the Empireand the Papacy. P. 390.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 161-162.
(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 390.

المقدسة ، لأنه كان فى الواقع آخر الأباطرة العظام الذين تمسكوا بالعقيدة الامبراطورية وأصروا على سمو الامبراطورية وطابعها العالمى (١) . واذا كنا فى حديثنا عن الصراع بين البابوية والامبراطور فردريك الثانى قد تعمدنا عدم الاستطراد الى مختلف التطورات التى أخذت تسرى فى جوف الامبراطورية ، وذلك لعرض الصراع فى صورة متصلة الحلقات ، الا أن ذلك لا يعنى الاقلال من شأن هذه التطورات وأثرها . وأول ما نلاحظه أن حوادث النزاع بين الامبراطورية والبابوية صرفت الأباطرة عن ألمانيا وشئونها، مما أدى الى ازدياد نفوذ السلطات المحلية . ونخص بالذكر فردريك الثانى الذى جعل لصقلية وايطاليا المكانة الاولى فى برنامجه ونشاطه ، مما زاد من أهمية العنصر الايطالى فى الحكومة الامبراطورية وذلك طبعا على حساب ألمانيا . ولا عجب ، فان فردريك الثانى اعتبر نفسه صقليا قبل أن يكون ألمانيا حتى أنه لم يمض فى ألمانيا سوى تسع سنوات من حكمه الطويل الذى امتد من سنة ١٢١٢ حتى سنة ١٢٥٠ (٢) . على أنه من الملاحظ أن هذه الأوضاع لم تعرقل بأى حال التطور الحضارى الذى أسرعت ألمانيا فى طريقه وقتئذ ، فانتعشت التجارة حتى أصبحت ألمانيا مركزا عالميا للتجارة فى غرب أوربا وأخذت تظهر أهمية كثير من المدن التى ازدهرت فيها الاداب والقانون والنشاط التشريعى ، كما ظهر بعض الشعراء الألمان الذين حباهم فردريك الثانى بقسط من رعايته . وفى ذلك الوقت استمر النفوذ الألمانى فى اتساعه شرقا وشمالا حتى أصبح للألمان سيطرة على أراضى البلطيق والدانمرك فضلا عن العناصر السلافية فى الشرق (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فاننا نكرر القول بأن الامبراطورية الرومانية المقدسة قد انتهت من الوجهة العملية بوفاة الامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ ، وأن ظلت اسميا حتى القرن التاسع عشر . وقد حدث أن توفى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 164.

(2) Barraclourgh : op. cit. p. 219-220.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 373.

كونراد الرابع ابن فردريك الثانى سنة ١٢٥٤ ، وأعقبت ذلك فترة استمرت عشرين سنة ظلت ألمانيا طوالها مسرحا للمنازعات والحروب الاهلية دون امبراطور يحكمها أو يسوس شئونها مما جعل هذه الفترة تعرف بعصر الشغور (Interregnum) فى التاريخ الألمانى . وهكذا يبدو لنا فى وضوح كيف ذهبت الملكية ضحية فكرة الامبراطورية العالمية ، اذ ضحى ملوك ألمانيا بمستقبل بلدهم السياسى القومى فى سبيل تمسكهم بسراب الامبراطورية الرومانية العالمية وجريهم وراء مشروعات فاشلة فى ايطاليا (١) . ولا شك فى أن المدن الألمانية استفادت من ذلك الوضع فائدة كبرى ، اذ أخذ كثير منها يخطو خطوات واسعة فى سبيل الانتعاش الصناعى والتجارى والاستقلال السياسى (٢) . . وقد شعرت هذه المدن بحاجتها الى الترابط للمحافظة على حريتها واستقلالها مما أدى الى مولد « عصبة الراين » حوالى سنة ١٢٥٤، التى تألفت من عدة مدن أهمها مينزوورمز وبازل وستراسبورج ، كما أن التحالف الذى تم بين هامبورج وليوبك حوالى ذلك الوقت وضع اساس العصبة الهانزية Henseatic League

أما قصة النزاع بين البابوية والامبراطورية فقد انتهت على هذا الوجه السلبى بعد أن عجز الأباطرة عن اخضاع البابوية وادخالهم تحت سيطرتهم. ومن السهل الوقوف على أسباب انتصار البابوية ، اذ ظل الأباطرة يستندون الى أحلام الماضى ومجد أسلافهم القدامى ، دون أن يحسبوا حسابا لروح العصور الوسطى — عصور الايمان والدين . أما البابوات فكانوا يستندون الى دعائم أقوى وأكثر تغلغلا فى نفوس الناس ، لأنهم استمدوا قوتهم من نفوذهم الروحى وما للدين من سلطان كبير على قلوب الأفراد . وحسب البابوات قوة أن ينادوا بأنهم خلفاء المسيح فى الأرض وأن بأياديهم مفاتيح الجنة والنار . فاذا كان الأباطرة يسيطرون على الدنيا فان هذه الدنيا ليست

---

(1) Bryce : op. cit. p. 210.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 112-113.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 637,

الا عرضا زائلا لا يلبث أن ينتهى بالموت ، وعندئذ تصبح الكلمة فى حيـــاة البقاء والخلود للدين ولأهل الدين . ويكفى قول المسيح للحواريين « الحــق اقول لكم كل ما تربطونه على الارض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء (١) » .

---

(١) العهد الجديد ـ انجيل متى ـ الاصحاح الثامن عشر ، ١٨ .

الباب الخامس عشر

الدولة البيزنطية والسلاجقة

(٨٠٢ـ١٠٩٦)

لم يهتم المفكرون الغربيون فى العصور الوسطى كثيرا بأمر الامبراطورية البيزنطية ، فأجحفوا بحقها فى وراثة روما وأنكروا فضلها فى حماية الحضارة الأوربية من خطر هجمات الفرس ، وغيرهم من العناصر الآسيوية والشمالية (١) . على أن هذا النكران الذى تعرضت له الامبراطورية البيزنطية من جانب الغرب لم يعرقل تطورها ، فمضت فى سبيلها حاملة وحدها عبء الامبراطورية بعد أن سقطت فى غرب أوربا سنة ٤٧٦ . وفى تلك الأثناء ظلت الامبراطورية البيزنطية تتمسك بعلاقاتها مع الغرب حينا ، وتشغلها الأخطار التى أحاطت بها عن الغرب أحيانا ، حتى كان عهد الامبراطور هرقل (٦١٠ ـــ ٦٤١) وعندئذ بدأت الامبراطورية البيزنطية تتخذ اتجاها شرقيا ثابتا ، وبعبارة أخرى انتهى العصر الرومانى على عهد هرقل وبدأ العصر البيزنطى (٢) . ثم جاء الخلاف اللاأيقونى فى القرن الثامن ليزيد من اتساع الفجوة بين الشرق والغرب ، اذ وقفت البابوية من الأباطرة البيزنطيين موقفا عنيدا وأظهرتهم فى ثوب الهراطقة الخارجين عن طاعة الكنيسة ، مما أنقص هيبة هؤلاء الاباطرة فى نظر العالم الغربى وقلل من مكانتهم (٣) . وهكذا ساعدت الظروف على أحياء الامبراطورية فى الغرب سنة ٨٠٠ ، وبذلك لم يعد هناك مبرر لاعتبار الامبراطورية البيزنطية وحدها وريثة روما ، بعد أن وجدت امبراطورية أخرى فى الغرب تشاركها فى هذه الصفة وتقاسمها

---

(1) Bryce : op. cit. p. 317.

(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 95.

(3) Eyre : op. cit. p. 84.

التراث الرومانى (١) . بل اذا كان هناك بد من اختيار احدى الامبراطوريتين الشرقية أو الغربية لتنفرد وحدها بتمثيل الامبراطورية الرومانية القديمة ، فان حق الامبراطورية الغربية فى نظر المعاصرين كان أوضح وأظهر لارتباطها بالكنيسة الغربية العالمية وبالبابوية من جهة ، ولقربها ن قلب العالم الرومانى القديم من جهة أخرى .

وكان هذا هو الموقف فى العالم الرومانى عند نهاية القرن الثامن ، أى فى الوقت الذى أضحت مصائر الامبراطورية البيزنطية معلقة بأيدى الامبراطورة ايرين (٧٩٧ — ٨٠٢) . وقد دارت مفاوضات بين هذه الامبراطورة وبين شارلمان ترمى الى زواج امبراطور الغرب الجديد من امبراطورة الشرق ، كوسيلة لتحقيق وحدة الامبراطورية الرومانية ، ولكن سياسة هذه الامبراطورة الشريرة جعلت روح الاستياء والتذمر من حكمها تعم الشرق والغرب جميعا (٢) . ولم يلبث هذا الاستياء أن انقلب الى ثورة فى القصر الامبراطورى عقب وصول رسل شارلمان بقليل (أكتوبر ٨٠٢) حتى انتهى الأمر بعزل ايرين ونفيها الى جزيرة لسبوس حيث ماتت قبل أن يتم مشروع الزواج الذى تحمست له وتمنت تحقيقه (٣) . وبخلع الامبراطورة ايرين سنة ٨٠٢ سقطت الأسرة الأيسورية (٧١٧ — ٨٠٢) وبدأت فترة انتقال استمرت حتى سنة ٨٢٠ وهى السنة التى قامت فيها الأسرة المورية أو الفريجية (٨٢٠ — ٨٦٧) . واذا كانت فترات الانتقال بين الأسرات الحاكمة فى التاريخ البيزنطى امتازت عادة بالفوضى وعدم الاستقرار ، كما حدث بين سنتى ٦٩٥، ٧١٧ أى بين سقوط بيت هرقل وقيام البيت الأيسورى ، الا أننا لا نجد اثرا لهذه الظاهرة فى الفترة الواقعة بين سنتى ٨٠٢ ، ٨٢٠ ، إذ لم تحدث فيها اضطرابات خطيرة ، وأن امتازت بالتدهور العام فى أحوال الامبراطورية (٤) .

---

(1) Vasiliev, op. cit. Tome. 1, pp. 352-353.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 42.

(3) Ostrogorskv : op. cit. p. 165.

(4) Oman ; The Dark Ages. pp 478-479.

وقـــد خلف ايرين فى الحكم الامبراطـــور نقفور الاول (٨٠٢ — ٨١١) ، الذى عرف بالمهارة والكفاية عندما كان وزيرا للمالية فى السنوات السابقة لاعتلائه عرش الامبراطور . وتبدو مهارة هذا الامبراطور فى الطريقة التى عالج بها المشاكل القائمة أمامه ، اذا ثبت مركزه فى الحكم وقضى بنجاح على بعض قادة الجيش المناوئين ، كما أقلع عن السياسة الدينية الخرقاء التى اتبعتها ايرين ، فضلا عما لجأ اليه من معاملة اللاأيقونيين معاملة تنطوى علئ التسامح الكبير .. على أن سياسة التسامح هذه لم تعجب رجال الكنيســـة وعلى رأسهم البطريرق ، مما جعل نقفور يشدد الرقابة عليهم ويلزمهم باتباع تعليماته ، الامر الذى دفع بعض الحوليات فى العصور التالية الى وصفه بالقسوة والخشونة (١) . وكذلك وجه نقفور جزءا كبيرا من جهوده فى العهد الســـابق ، فزاد من بعض الضرائب وفرض رســـوما على أراضى الاديرة والكنائس . وقد طبق نقفور النظام الاجتماعى فى دفع الضرائب حتى يضمن وصول الأموال المستحقة الى الخزانة عن طريق تضامن جميع أهالى منطقة معينة فى دفع ما على المنطقة من ضرائب (٢) .

أما نظام الدفاع عن الامبراطورية ، فان نقفور لم يكتف بجمع جنوده من أبناء طبقة معينة من ذوى الدخل المعلوم ، وانما جعل كل قرية مسئولة عـــن امداد مجنديها بنفقات آلات الحـــرب التى تجعل منهم محاربين صالحين وكذلك لجأ الى نقل بعض سكان آسيا الصغرى من رعايا الامبراطورية الى البلقان ليقيم منهم مستعمرات فى الجهات التى انتشر فيا السلاف ، مما جعل لهذه المستعمرات السلافية فى البلقان مصدر متاعب كثير للامبراطورية (٣) . هذا وان ظلت العناصر السلافية فى البلقان مصدر متاعب كثيرة للامبراطورية .

واذا كان نقفور قد اهتم اهتماما كبيرا بالادارة والمالية والجيش ، فانه من الواضح أن هذه اصلاحات جاءت ضرورية لتمكين الامبراطورية البيزنطية

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 373.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 27.

(3) Ostrogorsky ; op. cit. pp. 169-170.

من مواجهة الأخطار الخارجية التى أحاطت بها فى ذلك العصر . وأول هذه الأخطار جاء من جانب المسلمين فى الشرق ، بعد أن رفض نقفور دفع الجزية التى تعهدت الامبراطورة ايرين بدفعها للخليفة العباسى هارون الرشيد ، مما جعل جيوش الدولة العباسية تجدد هجماتها على أراضى الامبراطورية . ويبدو أن نقفور لم يوفق فى حربه ضد المسلمين لأنه أسرع الى شراء السلم من الخليفة العباسى مقابل مبلغ كبير من المال (١) .

على أن الخطر الحقيقى الذى هدد الامبراطورية البيزنطية حينئذ لم يأت من جانب المسلمين فى الشرق بقدر ما أتى من جانب البلغار الذين أصبحوا قوة خطيرة منذ أواخر القرن الثامن ، حتى أخذوا يقومون بهجمات عنيفة فى جوف تراقيا تحت قيادة ملكهم كروم Krum ، الذى عرف بالمقدرة والقسوة. ويبدو أن خطر البلغار تفاقم عندئذ الى الدرجة التى اضطرت الامبراطور نقفور الى النزول بنفسه الى ميدان القتال سنة ٨١١ (٢) . وقد حالف النصر الامبراطور البيزنطى فى أول الأمر فأنزل هزيمة بالبغار ، واستولى على قصر ملكهم ونهبه ، ولكن لم تكد الجيوش البيزنطية تفيق من نشوة النصر حتى دهمتها قوات البلغار ليلا ، فمزقتها شر ممزق وقتل نقفور نفسه ، فى حين انسحبت فلول جيشه فى غير نظام تاركة خلفها جثة الامبراطور ليضع ملك البلغار من جمجمته وعاء يحتسى فيه نخب انتصاره ! (٣) .

أما ابن نقفور ووريثه فى منصب الامبراطورية فقد جرح فى المعركة جرحا جعله بين الحياة والموت . وهنا انتهز ميخائيل — زوج ابنة نقفور الوحيدة — الفرصة واغتصب عرش الامبراطورية (٨١١ — ٨١٣) . وقد اتصف ميخائيل الأول هذا بعدم المقدرة والجبن والتشكك فيمن حوله ، وهى

---

(1) Idem : op. 173.

(2) Diehl, Marcais : Le Monde Orientale, p. 249.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 370.

النواحى التى ظهرت واضحة فى تصرفاته (١) . ذلك أنه تردد فى محـــاربة البلغار الذين اشتدت اغارتهم على تراقيا واتسع نطاقها ، حتى اضطر مخائيل الأول الى منازلتهم فى نهاية الأمر ، وعندئذ منى بهزيمة نكراء . وفى الميـــدان السياسى اتخذ ميخائيل الأول خطوة مشينة — فى نظر رعاياه — هى اعترافه بشارلمان امبراطورا شرعيا مساويا فى المرتبة للامبراطور البيزنطى (٢) . أمـــا فى الجانب الدينى فقد أقلع عن سياسة التسامح التى اتبعها سلفه واتبـــع ســـياسة أيقونية أدت الى اضطهاد اللا أيقونيين وعزلهم من مناصب الدولة العليا فى الجيش والادارة (٣) .

ويبدو أن هذه السياسة الأيقونية من جهة ، وتقاعس ميخائيل الأول عن دفع البلغار الذين هددت هجماتهم القسطنطينية نفسها من جهة أخـــرى ، أغضبت رجال الجيش ، فثارت الوحدات المتجمعة فى أدريانوبل (أدرنه) وأعلنت عزل ميخائيل ونفيه الى أحد الاديرة سنة ٨١٣ ، فى حين أعلن أحد قادة الجيش — وهو ليو الارمنى — نفسه أمبراطورا (٤) .

والحق أن ليو الخامس — الأرمنى — كان امبراطورا قديرا (٨١٣ — ٨٢٠) أنزل هزيمة ساحقة بالبلغار عند مسمبريا Mesembria جعلتهم يطلبون الصلح ولا يجرءون على غزو أراضى الامبراطورية مرة أخرى قبل عدة سنوات . أما فى النواحى الادارية فقد أعاد تنظيم الادارة والجيش والماليـــة حتى تستعيد الامبراطورية قوتها نشاطها فى الداخل والخارج . وهكذا أصبح من المحتمل أن ينجح ليو الخامس فى تأسيس أسرة قوية تتوارث حــــكم الامبراطورية البيزنطية بعد أن بدأ هذه البداية المشرفة فى الداخل والخارج(٥) . ولكن لم يلبث تيار النزاع اللاأيقونى أن جرف ليو فى طريقه حتى قضى عليه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 29.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 355.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 29.
(4) Ostrogorsky : op. cit. pp. 177-178.
(5) Oman ; The dark Ages, p. 482.

وعلى حكمه . ذلك أن ليو الأرمنى كان — كغيره من سكان الأجزاء الشرقية من الامبراطور — لاأيقونيا متشددا ، فطلب من البطريرق نقفور سنة ٨١٥ أن يرفع بعض الصور الى مستوى مرتفع لا يمكن النـــاس من تقبيلهـــا أو معانقتها . ولمـــا رفض البطريرق تنفيذ أمر الامبراطور عزله وعين بدله من شارك الامبراطور آراءه اللاأيقونية . وعلى الرغم من أن ليو الخامس كان معتدلا فى سياسته اللاأيقونية ، الا أنه أثار موجة من المعارضة والاســـتياء انتهت بنجاح المؤامرة التى دبرت لقتله سنة ٨٢٠ (١) .

الأسرة العمورية (٢) :

تزعم ميخائيل االعمورى المؤامرة التى أودت بليو الخامس .، ولم يلبث ميخائيل هذا أن توج امبراطورا فى كنيسة القديسة صوفيا (ديسمبر ســـنة ٨٢٠) ، باسم ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩) ولم يكن ميخائيل الثانى على شىء من المقدرة التى امتاز بها سلفه ، ولكنه عرف بالشدة والقسوة اللتين أرهب بهما خصومه ، حتى تمكن من اخماد الحركات الثورية التى قامت فى أوائل عهده فى مختلف أنحـــاء الامبراطورية (٣) . وترجـــع أهمية هـــذه الثورات الى أن مسلمى الأندلس استغلوا انشغال أســـاطيل الامبراطورية وجيوشها واجتاحوا جزيرة كريت (٨٢٣ — ٨٢٥) حيث أسسوا مدينـــة جديدة أحاطوها بخندق وعرفت بالخندق ، وهو اللفظ الذى حرف فى اللغات الأوربية الى خانداكس Chandax أو كانديا Candia أصبحت ، علما للجزيرة أو أكبر مدنها (٤) . وعندما أفاق ميخائيل الثانى من متـــاعبه الداخلية بذل محاولتين لاسترداد كريت من المسلمين ، ولكن جهوده بـــاءت

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 180.

(٢) نسبة الى مدينة عمورية Amorium فى اقليم فريجيا بآسيا الصغرى مسقط رأس مؤسس الأسرة .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 33.

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 367.

بالفشل ، وبذلك ظلت هذه الجزيرة بأيدى المسلمين مـدة تربو عن قـرن وربع (١) . ومن الواضح أن ضياع جزيرة كريت كان ضربة كبرى للتجارة الامبراطورية فى بحر ايجه ، ولا سيما أن المسلمين غزوا جزيرة صقلية سنة ٨٢٧ مما مكنهم من السيطرة على طريق الملاحة فى البحر المتوسط (٢) .

على أن الامبراطور ميخائيل الثانى لم يهتم هو نفسه كثيرا بضياع كريت، وكأنه حمد الله على عدم تعرضه لغزوة كبرى من جانب الدولة العباسـية تهدد قلب امبراطوريته .. واذا كان الأيقونيون قد ظاهروا ميخائيل الثانى عند اعتلائه العرش الا أنه رفض أن يجعل نفسه أداة فى أيـديهم ، فمانع فى اضطهاد اللاأيقونيين واختار أن يتبع سياسة ملؤها التسامح تجاه الأيقونيين واللاأيقونيين على حد سواء (٣) . وهذه السياسة التى تبدو عادلة ومتزنة فى نظر حكم المنصف ، لم ترض أحدا من الفريقين المتنازعين ، مما جعل ميخائيل الثانى يموت سنة ٨٢٩ مغضوبا عليه من الجميع .

وقد خلف ميخائيل الثانى أكبر أبنائه ثيوفل (Theophilus ٨٢٩ — ٨٤٢) الذى امتاز بنشاطه وحبه للحرب وقوة عزيمته . من ذلك أنه قضى الشطر الأكبر من حكمه فى محاربة العباسيين بعد أن ظن أنهم أمسوا بعـد وفاة الرشـيد فى حالة من الضـعف تمكنه من استرداد بعض ما فقـدته الامبراطورية على أيام هرقل . لذلك استفز ثيوفيل الخليفة المأمون (٨١٣ — ٨٣٣) بايواء بعض الهاربين من وجه الخليفة ، مما أثار حربا بين الطرفين استمرت أكثر من ثلاثين سنة دون أن يستطيع أحدهما أنزال ضربة قاصمة بخصمه ، وانما اتخذت الحرب شكل اغارات مفاجئة تخللها هـدنات قصيرة (٤) . وقد بدأ الخليفة المأمون بغزو الجهات المجاورة من الدولـة البيزنطية فى اقليم كابادوكيا حتى وصلت جيوشه هرقلة سنة ٨٣١ ، هذا فى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 36.

(2) Diehl, Marcais : Le Monde Orientale, p. 311.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome. 1, p. 376.

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 185.

الوقت الذى أغارت الأساطيل العباسية على الجزر الواقعة قرب الشاطىء الغربى لآسيا الصغرى . ويبدو أن تحمس الخليفة المأمون لحرب البيزنطيين دفعه الى أن يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات فى آسيا الصغرى فاستولت على ممرات طوروس ثم على مدينة الطوانة Tyana العظيمة التى اتخذها قاعدة لعملياته الحربية (١) . على أن حسن حظ الامبراطورية شاء أن يموت المأمون فى تلك المرحلة بعد أن أرسل اليه ثيوفيل رسلا يطلبون الصلح ، فانسحبت الجيوش الاسلامية الى طرسوس بعد أن أخلت البلاد التى فتحتها وراء جبال طوروس (٢) . وكان أن ظهر ضعف الخلافة العباسية واضحا فى عصر الخليفة المعتصم ، وعندئذ استطاع ثيوفيل أن يتحول من الدفاع الى الهجوم ، فهاجم أعالى الشام ما بين النهرين . ولم تلبث جرأة البيزنطيين فى مهاجمة البلاد الاسلامية ، واغاراتهم على مدينة زبطرة(Sozopetra, Zapetra) ذات المكانة الخاصة عند المعتصم أن استثارت الخليفة ، فنزل بنفسه الى ميدان المعركة سنة ٨٣٨ على رأس جيش كثيف بعد أن أقسم على تدمير مدينة عمورية Amorium مسقط رأس الامبراطور وأسرته ، انتقاما لمدينة زبطرة . وقد أسرع ثيوفيل لانقاذ بلدته ولكن الهزيمة حلت بجيوشه، واستطاع المسلمون الاستيلاء على عمورية وقتل عدة آلاف من أهلها فضلا عن عدد كبير من أعيان الروم ساقهم المعتصم الى سامرا (٣) . ومهما يكون من أمر فان وصول المسلمين الى جوف اقليم فريجيا بآسيا الصغرى لم تعقبه مضاعفات خطيرة على الامبراطورية ، لأن المعتصم اكتفى بالانتقام لزبطرة وتحقيق قسمه ، وعندئذ عادت الامبراطورية واستردت أراضيها فى آسيا الصغرى حتى جبال طوروس . ولم يلبث أن أدى انشغال كل من الخليفة المعتصم والامبراطور ثيوفيل الى عقد هدنة بين الطرفين استمرت حتى وفاة الاثنين سنة ٨٤٢ (٤) .

أما أهم المسائل الداخلية التى شغلت الامبراطور ثيوفيل فكانت الحركة

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 128.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 364.
(3) Diehl, Marcais : Le Monde Oriental, pp. 312-313.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 131.

اللاأيقونية ، فأمر سنة ٨٣٢ بتدمير جميع الصور والتماثيل الدينية مهما يكن نوعها سواء كانت للمسيح أو للقديسين . وقد ساعد الامبراطور فى تنفيذ سياسته الدينية البطرق حنا النحوى John Gramaticus الذى أصدر قرار الحرمان ضد جميع الأســـاقفة والديرين الذين لم يمتثلوا للقـــرار السابق (١) . ويبدو أن ثيوفيل تطرف فى اضطهاد عبدة الأيقونات على الرغم من أن قصره الامبراطورى اكتظ بالأيقونيين الذين لم يجرؤوا على اظهـــار ميولهم ، وعلى رأس هؤلاء الامبراطورة ثيودورا . وهكذا مات ثيوفيل سنة ٨٤٢ بعد أن أصلح النظام القضائى وأنعش الخزانة وشجع التجارة حتى غدت القسطنطينية على عهده مركزا من أعظم مراكز التجارة الأوربية (٢) .

على أن سوء حظ الامبراطورية شاء أن يموت ثيوفيل وابنه ميخائيل الثالث فى الرابعة من عمره ، فتشكل مجلس وصاية على الطفل الصغير برآسة أمه الامبراطورة ثيودورا . وهنا تكررت مأساة الامبراطورة ايرين ، فتنكرت ثيدور لسياسة زوجها ، وكشفت القناع عن ميولها الايقونيـــة ، فعزلت البطريرق حنا النحوى والأساقفة اللاأيقونيين ودعت مجمعا فى القسطنطينية لاعادة الأيقونية وتسفيه اللاأيقونية (٣) . وهكذا لم يمض ثلاثون يوما على وفاة ثيوفيل حتى انقلبت سياسته رأسا على عقب ونزلت الاضطهادات تترى على اللاأيقونيين الذين أخذوا يهجرون البلاد بالجملة (٤) . وفى سنة ٨٥٦ بلغ ميخائيل الثالث الثامنة عشر من عمره ، فاستولى على مقاليد الأمـــور ، وبدأ باقصاء أمه ومصادرة ثروتها . وقد عرف ميخائيل الثالث بسوء الخلق والادمان على معاقرة الخمر والميسر وغيرهما من أنواع الغى والفساد ، حتى لقبه رعاياه بلقب « السكير » . وربما كان المسئول الأول عن انحـــراف الامبراطور هو خاله برداس Bardas — أخو ثيودرا — وهو الذى أشرف على تربيته حتى نشأ تلك النشأة الفاسدة . وقد ظل الخال يسيطر

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 186.

(2) Diehl. Marcais : op. cit. pp. 313-316.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 378.

(4) Oman : The Dark Ages, p. 489.

على ابن اخته ويشاركه فى الحــكم حتى تخلص منه الامبراطور عن طريق مؤامرة اشترك فيها باسل المقدونى ، مؤسس الأسرة المقدونية فيما بعد (١).

أما عن سياسة ميخائيل الثالث الخارجية والداخلية ، فأهم ما فيهــا قيامه ببعض حروب كللت بالنجاح . ففى عهده قام الروس بأول هجوم لهم على القسطنطينية سنة ٨٦٠ فى الوقت الذى كان الامبراطور يخترق آسيــا الصغرى فى طريقه لحرب المسلمين . وعندما سمع الامبراطور بوصول الروس خارج أسوار القسطنطينية ، عاد مسرعا ونجح فى تخليص عاصمته من هذا الخطر الجديد . ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقات بين الدولة البيزنطية من جهة ومملكة الروس الناشئة من جهة أخرى ، كما بدأت الجهــود التبشيرية لتحويل الروس الى المسيحية كوسيلة لدفع خطر أولئك الجيران وادخالهم دائرة الحضارة المسيحية (٢) . والواقع أن أهم ما يميز ذلك العصر هو جهود الكنيسة الشرقية فى نشر المسيحية بين الشعوب المجاورة كالروس والسلاف والبلغار .. ذلك أن ميخائيل الثالث لم يكتف بما أعلنه ملك البلغار من ولاء وتبعية للامبراطورية البيزنطية ، وانما أجبره أيضا على اعتناق المسيحية سنة ٨٦٤ ، الأمر الذى جعل العلاقات بين البلغار والبيزنطيين تتخذ طابعا أكثر مرونة فيما بعد (٣) . وقد نشأ ميخائيل الثالث على سياسة أمه فى تأييد عبادة الصور ، حتى أنه أخرج جثث زعماء اللاأيقونيين من قبورها وليحرقها ./

وكان ميخائيل الثالث قد أشرك معه — بعد مقتل خاله — أحد رفقائه وهو باسل المقدونى بعد أن أعجب بشجاعته وقوته . ولكن باسل هــذا لم يلبث أن تخلص من ميخائيل الثالث بالقتل سنة ٨٦٧ وبذلك انتهى البيت العمورى وبدأ عصر البيت المقدونى فى التاريخ البيزنطى (٤) .

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 360.

(2) Ostrogorsky : op. cit. pp. 202-203.

(3) Diehl, Marcais op. cit. p. 325.

(4) Idem pp. 327-328.

الأسرة المقدونية :

كان النفوذ الفعلى فى الدولة بأيدى باسل المقدونى عندما تخلص من ميخائيل الثالث بالقتل ، فلم يجرؤ أحد على معارضته أو الوقوف فى وجهه ، وبذلك قامت الأسرة الجديدة فى الحكم دون نزاع أو حرب أهلية . وقد حقق أباطرة الأسرة المقدونية قسطا وافرا من السعادة والرخاء للدولة البيزنطية مدة تزيد على قرن ونصف ، اذ استقرت الأوضاع فى الداخل بعد أن نجح المقدونيون فى جعل الحكم وراثيا فى أسرتهم ، كما استطاعت الدولة الثبات فى وجه الأخطار الخارجية التى هددت كيانها فى ذلك العصر (١) . والواقع أن باسل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦) كان على درجة كبيرة من المقدرة والكفاية على الرغم من الطريقة التى توصل بها الى العرش والتى تنم عن روح الغدر والخيانة . ولذلك يقترن اسم باسل المقدونى بأطول أسرة عرفها التاريخ البيزنطى ، هى الأسرة التى ظلت تحكم الامبراطورية الشرقية حتى سنة ١٠٥٦ . والظاهرة العامة التى تبدو لنا من دراسة تاريخ باسل الأول هو أنه حاول جهد استطاعته أن يمحو من أذهان رعاياه الحقيقة الخاصة بأنه كان فى يوم ما نديما للامبراطور السكير ميخائيل الثالث وصفيا له ، فأثبت مثابرته على العمل واقتصاده فى النفقات وعدالته فى معاملة رعاياه مما أدى الى انتعاش الامبراطورية فى عهده انتعاشا واضحا (٢) . وقد قدر لبعض أعمال باسل المقدونى البقاء لتخلد ذكراه ، مثل المجموعة القانونية التى أصدرها بعد مراجعة قوانين جستنيان واضافة الاكلوجا (المختار) التى أصدرها ليو الأيسورى ، وبذلك جاءت مجموعة باسل الأول مرجعا قانونيا للدولة البيزنطية حتى أواخر عهدها (٣) . أما تنظيماته المالية فقد ظلت قائمة هى الأخرى نحوا من قرنين بعده . على أن كياسة باسل الأول وبعد نظره يبدوان بوضوح فى سياسته الدينية التى حاول

---

(1) Eyre : op. cit. pp. 177.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 51-52.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 450.

فيها أن يعالج الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية من جهة وأن ينهى الشقاق اللاأيقونى من جهة أخرى (١) .

أما حروب باسل الأول فقد صادفه فيها التوفيق بوجه عام ، وذلك اذا استثنينا ميدان صقلية . ويبدو أن الظروف التى أحاطت بأعداء الامبراطورية البيزنطية كان لها فضل كبير فى هذا التوفيق حتى أصبح فى استطاعة الامبراطورية أن تسترد ما كان لها من أقاليم واسعة قبل ذلك بثلاثة قرون على عهد جستنيان ، وذلك لو أتيح لباسل خليفة قوى يرثه فى حكم الامبراطورية . فايطاليا كانت مفككة تسودها الفوضى ، فى حين أمسى السلاف فى شرق أوربا يعانون الأمرين من ضغط المجريين ، بحيث لم تجد الدولة البيزنطية وقتئذ عدوا خطيرا يهدد حدودها (٢) . أما عن الحدود الشرقية فان الدولة العباسية كانت تسير فى ذلك الوقت بخطى سريعة فى طريق التفكك والانحلال حتى تولى منصب الخلافة فى مدى ثمان سنوات (٨٦١ — ٨٦٩) أربع خلفاء مات منهم أثنان مقتولين (٣) ! لذلك لا عجب اذا أخذت الدولة البيزنطية تمتد شرقا لأول مرة منذ حركة الفتوح الاسلامية ، حتى بلغت جيوش الامبراطورية ميافارقين من جهة وحلب من جهة أخرى(٤) . كذلك استرد باسل المقدونى جزيرة قبرس لفترة قصيرة ، وأخضع الحركة الثورية التى قام بها بعض الهراطقة على الحدود الأرمينية . هذا فى الوقت الذى أحرزت أساطيل الامبراطورية بعض الانتصارات البحرية على سفن المسلمين بكريت وشمال افريقية . وقد حدث أن طلب لويس الثانى فى الغرب المعونة من باسل المقدونى ضد المسلمين فى صقلية وجنوب ايطاليا ، فأرسل الامبراطور البيزنطى سنة ٨٦٨ أسطوله الذى نجح فى تطهير الأدرياتى من المسلمين ، كما هجم البيزنطيون على بارى Bari ، ولكنهم لم يتمـوا

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 208.

(2) Oman : The Dark Ages, p. 493.

(٣) أبو جعفر محمد المنتصر بالله بن المتوكل (٢٤٧ هـ) ، أبو العباس أحمد المستعين بالله (٢٤٨ هـ) ، أبو عبد الله محمد المعتز بالله (٢٥٢ هـ) ، أبو اسحق محمد المهتدى بالله (٢٥٥ هـ) وقد قتل الاثنان الأخيران .

(4) Diehl, Marcais : op. 439.

عملياتهم الحربية واختاروا العودة بعد أن دب الشقـــاق بينهم وبين لويس الثانى (١) . على أن حرص الدولة البيزنطية على الاحتفاظ بنفوذها فى ايطاليا دفـــع الامبراطور باســـل الأول الى ارسال جيوشه اليها عقب وفاة لويس الثانى سنة ٨٧٥ ، وعندئذ صادفت الجيوش البيزنطية نجاحا كبيرا فى حربها ضد المسلمين فاستولت على بارى سنة ٨٧٥ ،وأخذ البيزنطيون ينتزعون مدن أبوليا واحدة بعد أخرى حتى استولوا على تارينتو Tarento معقـــل المسلمين فى جنوب ايطاليا . وعندئذ اجتـــاح القـــائد البيزنطى نقفـــور فوقاس (٢) اقليم كالبريا بحيث لم يترك معقلا واحدا فى أيدى المســـلمين فى الجزء الجنوبى الشرقى من ايطاليا (٨٨٤ — ٨٨٧) (٣) على أن اهتمام البيزنطيين بجنوب ايطاليا جعلهم يهملون أمر صقلية ، حتى أن الانتصارات التى أحرزها البيزنطيون فى ايطاليا كانت لا تزيد بأى حال عن تلك التى حصل عليها المسلمون فى الوقت نفسه فى صقلية . ولم تلبث سيراكيوز (سراقوسة) عاصمة الجزيرة أن سقطت فى أيدى لمسلمين بعد حصار قصير (٨٧٧ — ٨٧٨) ، وبذلك لم يبق للبيزنطيين فى صقلية ســـوى عدة قلاع صغيرة ، فضلا عن مدينة قطانيا . والواقع أن سقوط سيراكيوز فى أيدى المسلمين سنة ٨٧٨ يعتبر بمثابة النهاية العملية لنفوذ البيزنطيين فى جزيرة صقلية (٤) .

وعندما توفى باسل الأول سنة ٨٨٦ خلفه ابنه ثم حفيده فى الحكم خلال الثلاث والسبعين سنة التالية . وشاء سوء حظ الامبراطورية أن أحدا مـــن هذين الحاكمين لم يكن على شىء من الكفاية والمقدرة التى امتاز بها مؤسس الأسرة المقدونية . أما ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) الذى أتى بعد أبيـــه باسل الأول فكان مولعا بالتنجيم ومعرفة الغيب وله تنبؤات كثيرة غامضة ،

---

(1) Oman : The Dark Ages. p. 457.

(٢) جـــد الامبراطور البيزنطى الذى يحمل نفس الاسم (٩٦٣ - ٩٦٩) والذى يلقب عـــادة بنقفور الثانى تميـــيزا لـــه عن الامبراطور نقفـــور الأول (٨٠٢ - ٨١١) .

(3) Vasihev : op. cit. Tome 1, p. 402.

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 211.

كما أولع بتصنيف الكتب وجمعها حتى أطلقت عليه الأجيال التـالية لقب الحكيم أو الفيلسوف (١) . وله كتاب مشهور فى التنظيم العسكرى والتكتيك الحربى (Tactica) ترجع أهميته الى أنه يمدنا بقسط وافر من المعلومات عن تنظيمات الجيوش البيزنطية وخططها فى الحرب ، فضلا عن عـادات الشعوب المختلفة التى اصطدم بها البيزنطيون وطبائعها . وعلى الرغم من ضعف شخصية ليو السادس ، الا أن حدود الدولة البيزنطية امتدت فى عهده، فاستردت أجزاء من بلاد ما بين النهرين من الخلافة العبـاسية المتداعية ، كما استردت أبوليا فى جنوب ايطاليا من أمراء بنفنتو المسلمين (٢) .

وعندما توفى ليو السادس سنة ٩١٢ خلفه وحيده قنسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٩) الذى كان عندئذ طفلا فى الخامسة من عمره . والواقع أن السلطة الفعلية انتقلت عقب وفاة ليو السادس الى عم الطفل الصـغير ، اسكندر (٩١٢ — ٩١٣) ولكن هذا العم لم يلبث أن توفى بعد أن استثـار عداء البلغار بسبب قطعه الجزية السنوية التى كان على الدولة البيزنطية أن تدفعها لهم بمقتضى اتفاقية سنة ٨٩٦ (٣) .

ومن الواضح أن قنسطنطين السابع قضى جـزءا كبيرا من حكمـه الطويل قاصرا تحت الوصاية ، هذا فضلا عن ضعفه وانصرافه — مثل ابيه — الى الكتب (٤) وربما كان العامل الوحيد الذى سند الامبراطورية البيزنطية فى ذلك العصر هو ضعف جيرانها ، مما أتاح لها فرصة للانتعاش وتدعيم مركزها المالى . واذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد تعرضت حينذاك لبعض أزمات مثل اغارة المسلمين من شمال افريقية على سالونيكا سنة ٩٠٤ ، فان هذه الأحداث كانت فردية ، مرجعها سوء توجيه سياسة الامبراطورية لا النقص فى وسائل الدفاع . وهكذا أصبحت القسطنطينية فى ذلك العصر ملتقى تجارة الشرق والغرب وأكبر مركز للتجارة الأوربية قاطبة (٥) .

---

(1) Diehl : op. cit. p. 446.
(2) Oman : The Dark. Ages. p. 494.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 231.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 59.
(5) Tout : The Empire tnd the Papacy, pp. 154-155.

على أن الخطر الأكبر الذى واجه الامبراطورية البيزنطية فى تلك الحقبة جاء من ناحية البلغار الذين وجدوا مبررا لتجــديد الهجمــات على أراضى الامبراطورية فى البلقان نتيجة لسياسة اسكندر عم قسطنطين السابع ، حتى استطاع سيمون ملك البلغار انزال عدة هزائم بالامبراطورية (١) . ولم ينفرد قسطنطين بالحكم الا سنة (٩٤٥) وهو فى الأربعين من عمره ، وعندئذ أثبت انه لم يكن خيرا من أبيه ، اذ انصرف للأدب ورسم الصور وتخطيط الكنائس، فضلا عن الكتب التى صنفها فى مختلف العلوم والفنون كالزراعة والتاريخ والجغرافيا والسياسة وغيرها (٢) .

وفى ذلك النصف الأول من القرن العاشر ظهر جليــا ضعف الدولة الاسلامية وانقسامها ، بعد أن اضمحل نفوذ بنى العباس وأصبحت الكلمة العليا فى العراق وفارس لأمراء بنى بويه ، فى حين قامت الخلافة الفاطمية فى القيروان بشمال أفريقية ودولة الاخشيديين فى مصر وجنوب الشــام . وهكذا لم توجد قوة تعترض الامبراطورية البيزنطية على حدودها الشرقية سوى قوى الحمدانيين الذين أقاموا دولتهم فى النصف الأول من القرن العاشر فى أعالى بلاد ما بين النهرين ، ثم مدوا نفوذهم الى أعالى الشام وقيليقية(٣).

وقد استغل أباطرة الدولة البيزنطية هذا الوضع الذى أمست عليــه الدولة الاسلامية للتوسع واسترداد بعض ما اغتصبه المسلمون من أراضى الدولة . فعنــدما توفى قنسطنين السابع خلفــه ابنه الامبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩ ـــ ٩٦٣) الذى أرسل قائده نقفور فوقاس سنة ٩٦٠ لاسترداد جزيرة كريت من المسلمين ، فنجح نقفور فى مهمته ، واسترد منهم جزيرة كريت مما أعطى الامبراطور مركزا استراتيجيا وتجاريا قويا فى البحر المتوسط وبعد ذلك أتبع نقفور انتصاره بمهاجمة الحمدانيين والاستيــلاء على بعض المعاقل المهمة فى قيليقية (٤) .

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. pp. 231-232.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 154.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 276-277.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 407-408.

ثم كان ابنه رومانس الثانى سنة ٩٦٣ تاركا ولديه الصغيرين باسـل الثانى (٩٦٣ — ١٠٢٥) وقنسطنطين الثامن (٩٦٣ — ١٠٢٨) تحت وصاية أمهما ثيوفانو . على أن المكانة العظيمة التى أحرزها القائد نقفور فوقاس نتيجة لانتصاراته الحربية ، مكنته من أن يفرض نفسه شريكا لهذين الولدين فى حكم الامبراطورية ، وبخاصة بعد أن تزوج من أمهما ثيوفانو (١) . وقد ظل نقفور الثانى فوقاس يحكم الامبراطورية ست سنوات (٩٦٣ — ٩٦٩) باسم الولدين القاصرين ، وامتاز عهده بالاصلاح الداخلى والانتصار الخارجى. ولكن يبدو أن حاجته الى المال لتقـوية الجيش دفعتـه الى فرض ضرائب جديدة ، كما أنه الوحيد بين الأباطرة البيزنطيين الذى لجأ الى خفض العملة والتلاعب فى قيمتها لتحقيق غرضه ، فضلا عن احتكار الغلات والنبيـذ والزيوت (٢) . وقد أدت سياسته المالية هذه الى صدام بينه وبين طبقـة التجار من جهة والكنيسة من جهة أخرى ، ولا سيما بعد أن وضع تشريعا للاوقاف الدينيـة للحيلولة دون اقامة أديرة جـديدة ، كما احتفظ ببعض الأسقفيات المهمة شاغرة ليستولى على ايراداتها (٣) .

أما حروب نقفور الثانى فى تلك الفترة فقد امتدت فى الاتجاهين الشرقى والغربى ، ففى الشرق أتم غزو قيليقية (٩٦٤ — ٩٦٥) ، كما أرسل أحد قواده — وأسمه نفتاس — لغزو قبرس سنة ٩٦٥ . وفى سنة ٩٦٨عاد نقفور الى تهديـد أعالى الشام فاستولى على امارة حلب وأنطاكية ، وتعهدت دمشق بدفع الجزية . أما فى الغرب فان المشروع الذى وضعه نقفور الثانى لتزويج ابن الامبراطور أوتو الأول من ابنة رومانوس الثانى ، باء بالفشـل، ولم يلبث أن حدث احتكاك بين أوتو الأول ونقفور الثانى فى جنوب ايطاليا ، كذلك فشل نفتاس فى مهمة ثانية عهد اليه بها نقفور ، وهى استرداد صقلية من المسلمين (٤) .

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. pp. 467-468.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 76.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 159-160.

(4) Ostrogorsky : op. cit. pp. 257-258.

على أن خشونة نقفور الثانى ومسلكه تجاه شريكيه الصغيرين فى الحكم، أخافت أمها ثيوفانو فتآمرت مع عشيقها حنا شمشقيق (John Tzimisces) ضـده ، ونجـح المتآمرون فى قتل نقفور أثناء نومه ، وعنـدئذ أعلن حنـا الأول شمشقيق امبراطورا (٩٦٩ — ٩٧٦) (٢) . وبدلا من أن يتزوج هذا الامبراطور الجديد ثيوفانو شريكته فى المؤامرة وعشيقته السابقة ، أخـذ يوجس منها خيفة وخشى أن تفعل به مثلما فعلت بزوجها نقفور ، حتى دفعه خوفه وشكه الى اعتقالها فى أحد الأديرة .

وقد حذا حنا الأول حذو سلفه نقفور فوقاس فى احترام حقوق شريكيه الصغيرين ابنى رومانوس الثانى ، كما تم فى عهده (سنة ٩٧٢) زواج أختهما ثيوفانو من أوتو السكسونى الذى أصبح أوتو الثانى فيما بعد (٣) . على أن حنا الأول سرعان ما وجد فى حرب الروس شاغلا قويا ، فقد كان أولجا Olga زعيم الروس قد اعتنق المسيحية وزار القسطنطينية سنة ٩٥٧ حيث تم تعميده على عهـد الامبراطور قنسطنطين السابع (٤) ، ولكن ابنه زياتسـلاف Sviatoslav (٩٦٤ — ٩٧٢) كان محاربا قويا محالف الهنغاريين وغزا بلغاريا حتى عبر البلقان سنة ٩٧٠ وهدد أدريانويل (أدرنة) نفسها . وقد أسرى حنا الأول لصد ذلك الخطر واشتبك مع الروس فى أكثر من موقعة حتى انتهى الأمر بانزال الهزيمة بهم سنة ٩٧٢ ، فانسحب الروس بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة (٥) . وقد تمكن حنا الأول بعد ذلك من اخضاع البلغار بعد أن أوغل فى بلادهم بحجة الدفاع عنهم ضد الروس ، بحيث أنه لم يكد ينتهى من أمر

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. p. 471.

(٢) لقبه شمشقيق أو شوموشقيق ، وهو لفظ أرمنى بمعنى قصير القامة . ولقب كذلك بلقب دمستق Domsticus وهو لفظ لاتينى لقب به قائد جيش الروم (أنظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٦٩) .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 81.

(4) Vasiliev : op. cit. p. 427.

(5) Diehl, Marcais : op. cit. p. 472.

الروس حتى كان قد احتل كل بلغاريا الشرقية (١) . هذا الى أنه حـارب المسلمين فى الشرق واسترد منهم أنطاكية بعد أن استولوا عليها مرة أخرى ، كما استولى على الرها . وأخيرا مات حنا الأول مسموما سنة ٩٠٦ فى الوقت الذى ينتقل من نصر الى نصر (٢) .

وكان باسل الثانى ابن رومانوس الثانى قد بلغ العشرين من عمره حينئذ، فتولى حكم الامبراطورية حتى سنة ١٠٢٥ . وقد أظهر باسل الثانى كفاية ادارية ومقدرة حربية أثناء قيامه بأعباء الحكم ، فضغط على كبار ملاك الأراضى فى آسيا الصغرى ونجح بعد صراع طويل فى تحطيم نفوذ تلك الارستقراطية الاقطاعية ، وبذلك خلص السلطة الامبراطورية من عقبة قوية طالما وقفت فى وجهها (٣) ٣ ولم يلبث باسل الثانى أن أعاد المجد الحربى لأسرته المقدونية، فدخل فى حرب عنيفة ضد البلغار الدين عادوا مرة أخرى تحت زعامة ملكهم الجديد صمويل الى تهديد الامبراطورية البيزنطية . وقد اشتد خطر البلغار وعندما اجتاحوا سهول تساليا ومقدونيا ودمروها ، كما غزوا الجزء الجنوبى من بلاد اليونان سنة ٩٩٦ ودمروا شبه جزيرة المورة من أدناها الى أقصاها(٤). وعندما بدأت حروب باسل الثانى ضد البلغار سنة ٩٨١ استمرت نحوا من ثلاثين سنة ، ولكنها لم تتخذ شكلا شاملا الا منذ سنة ١٠٠٢ عندما أخـذ باسل الثانى يتوسع على حساب البلغار حتى انتهى الأمر بانزال هزيمة ساحقة بهم ، كما أسر نحوا من أربعة عشر ألف بلغارى سنة ١٠١٤ (٥) . وهنـا دفعت روح الانتقام الامبراطور باسل الثانى الى ارتكاب جريمة شنيعة اذ سمل أعين جميع الأسرى واكتفى بأن ترك من كل مائة أسير رجلا بعين واحـدة ليتولى قيادة زملائه العميان الى ملكهم . ويقال أن ان الملك البلغارى صمويل صدم عندما وقع بصره على هذا المشهد ورأى هذه الألوف المؤلفة من رجاله

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 423.

(2) Tout : The Empire tnd the Papacy, p. 163.

(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 268-269.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 239-240.

(5) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 423.

وقد غادروا اليه عميانا ، فأغشى عليه وسقط على الأرض من هول المنظر حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد يومين (أكتوبر سنة ١٠١٤) (١) . وعلى الرغم من أن خلفاء صمويل المباشرين استأنفوا مقاومة البيزنطيين ، الا أنه لم تحل سنة ١٠١٨ الا كان باسل الثانى قد أكمل غزو بلاد البلغار . ومن ثم أحيى انتصاره فى القسطنطينية حيث حياه أهلها بلقب سفاح البلغار (Bulgaroctonus) (٢)

وقد حاول باسل الثانى توجيه جهوده الحربية بعد ذلك ضد أرمينيا ، ولكن محاولته فى التوسع شرقا على حساب تلك الدولة المسيحية لم تصادف ترحيبا فى عصر أخذ المسيحيون يحسون بضرورة توجيه جهودهم ضد خصومهم فى العقيدة ، لا ضد بعضهم بعضا . ولم يلبث أن أحس باسل الثانى بهذا الشعور فأخذ يستعد لارسال حملة جديدة ضد مسلمى صقلية عندما توفى فجأة وهو فى السادسة والثمانين من عمره سنة ١٠٢٥ (٣) .

والواقع أن وفاة باسل الثانى تمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، نظرا لما أعقب هذه الوفاة من انحلال ظاهر فى أحوال تلك الامبراطورية الخارجية والداخلية (٤) . ذلك أن باسل الثانى لم يترك ابنا يرثه ، فانفرد أخوه قنسطنطين الثامن بعرش الامبراطورية (١٠٢٥ — ١٠٢٨) بعد أن كان امبراطورا اسميا منذ وفاة والده رومانوس الثانى سنة ٩٦٣ . ومن الواضح أن قنسطنطين الثامن لم ينفرد بالامبراطورية الا بعد أن بلغ به كبر السن درجة جعلته لا يهتم بشئون امبراطوريته أو بتعديل اسلوب حياته ، فاستمر يحيا فى قصره الحياة نفسها التى شب عليها محاطا بالغانيات والخصيان الذين ترك لهم تصريف شئون الدولة . وهكذا

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 275.

(2) Diehl, Marcais : op. cit. p. 478.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 165.

(4) Ostrogorsky : op. p. 283.

قضى قنسطنطين الثامن بقية عمره حتى مات سنة ١٠٢٨ دون أن يترك وريثا ذكرا يحفظ اسم البيت المقدونى (١) .

ويرتبط تاريخ البيت المقدونى بعد ذلك حتى نهاية عهده بالأميرتين زوى Zoe وثيودورا ابنتى قنسطنطين الثامن .. ففى الفترة بين سنتى ١٠٢٨ ، ١٠٥٤ كان الحكم بأيدى أزواج الأميرة زوى وأتباعها (٢) وأول هؤلاء هو رومانوس الثالث (١٠٢٨ — ١٠٣٤) الذى تزوجته زوى بينما أبوها على فراش الموت . ولكن زوى كانت على قسط كبير من الجشع وحب السيطرة بحيث لم تترك لزوجها سوى نصيب ضئيل من السلطان . وعند وفاة ذلك الزوج الأول أسرعت زوى الى الزواج من أحد رجال البلاط الذى اتخذ لنفسه لقب ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١) ، حتى مات هذا الزوج الثانى أيضا وهو فى ريعان شبابه فى حين جاوزت زوجته الستين من عمرها . وهنا ترددت زوى بين أن تتبنى طفلا ليصبح امبراطورا أو تتصيد لنفسها زوجا ثالثا . وبعد أن اختارت زوى الحل الأول وتبنت ميخائيل الخامس (١٠٤١ — ١٠٤٢) اذ بها تعدل عن رأيها وتتزوج من قنسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٤) (٣) ومن الواضح أن هذا الزوج لم يقبل الزواج من الامبراطورة العجوز الا طمعا فى السلطان فاشترك معها فى الحكم ، وكان عهدهما من أحلك أيام الامبراطورية . ذلك أن هذا العهد شهد غزو النورمان لأبوليا وكالبريا والقضاء على ما تبقى من النفوذ البيزنطى فى ايطاليا . هذا الى أن الدولة البيزنطية اتبعت فى ذلك العصر سياسة اضعاف أرمينية فى الوقت الذى أخذ الأتراك السلاجقة ينفخون فى الدولة الاسلامية روحا جديدة (٤) . هذا فضلا عن ازدياد روح التذمر بين أهالى الامبراطورية بسبب قسوة الضرائب فى الداخل واتمام القطيعة نهائيا بين الكنيستين الشرقية والغربية فى الخارج .

---

(1) Diehl Marcais : op. cit. p. 533.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 400.

(3) Ibid.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 166.

C

وكان ذلك سنة ١٠٥٤ عندما وصل الى القسطنطينية بعض المبعوثين من قبل البابوية لمفاوضة البطريرق . ويبدو أن مسلكهم تجاه بطرق القسطنطينية كان مشوبا بالتعالى والكبرياء وعدم الاحترام الذى جعله يرفض مباحثتهم أو الاعتراف بسيطرة البابوية على كنيسته (١) . وقد رد هؤلاء المبعوثون على ذلك بأن أصدروا — أمام مذبح كنيسة آيا صوفيا — قرار الحرمان ضد البطريرق بعقد مجمع دينى وقع عليهم هم الآخرون عقوبة الحرمان كما أعقب ذلك اغلاق الكنائس اللاتينية فى أراضى الامبراطورية البيزنطية وتسفيه آراء الكنيسة الغربية (٢) . وبذلك تم الانشقاق نهائيا بين الكنيستين الشرقية والغربية (٣) .

والواقع أن مسألة اتمام القطيعة بين الكنيستين غدت مسألة زمن ليس الا ، بعد أن اتخذت كل منهما طريقا اختلف تماما عن الطريق الذى اتخذته الأخرى . وهنا نشير الى أنه من الخطأ اتهام القسطنطينية باثارة هذا الانشقاق ، لان الوقائع تثبت أن الاباطرة البيزنطيين كانوا أشد الناس تحمسا لوحدة الكنيسة . وربما كان من الأصوب تعليل هذا الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية بظهور الوحدات السياسية المستقلة فى غرب أوربا ، مما قضى على فكرة الامبراطورية العالمية من جهة ، وبانتشار المسيحية بين السلاف وارتباط العالم السلافى بكنيسة القسطنطينية ، مما جعل الكنيسة فى غنى عن الاعتراف بسيادة البابوية من جهة أخرى (٤) .

وليس هناك من شك فى أن هذا الانفصال النهائى بين الكنيستين سنة ١٠٥٤ يمكن أن يعتبر نصرا للكنيسة الشرقية التى استقلت تماما عن البابوية وأصبح نفوذ بطرقها على درجة كبير من العظمة (٥) . ولكن يجب أن نعترف

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 469-470.

(2) Eyre : op. cit. p. 190.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 447.

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 296.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 273.

بأن هذا الانشقاق كان خطير الاثر بالنسبة لمستقبل الامبراطورية السياسى لانه قضى على كل أمل فى الوصـــول الى تفاهم سيـــاسى بين الامبراطورية البيزنطية والعالم الغربى ، فى الوقت الذى أخذ خطر السلاجقة يقترب من الدولة البيزنطية مما جعل هذه الدولة فى حاجة ماسة الى معونة الغرب(١).

أما زوى فقد ماتت سنة ١٠٥٠ ، ثم لحق بها قنسطنطين التاسع سنة ١٠٥٤ وعندئذ تولت عرش الامبراطورية شقيقتها ثيدورا ، آخر من تبقى من البيت المقدونى . وعلى الرغم من تقدم ثيدورا فى السن ، الا أنها امتازت بصلابة الرأى كما اختلفت فى أخلاقها عن أختها بحكم المدة الطويلة التى قضتها فى أحد الاديرة والتى اكسبتها أخلاق الراهبات واستقامتهن . ومهما يكن من أمر فان ثيودورا لم تمكث فى الحكم أكثر من ثـلاث سـنوات (١٠٥٤ — ١٠٥٧) توفيت بعدها فانتهى بوفاتها البيت المقـدونى وبـدأت فترة مـن الاضطرابات قبل أن يقوم بيت جديد فى حكم الامبراطورية البيزنطية (٢) .

وكان من الممكن أن تجتاز الامبراطورية تلك الفترة بسـلام كمـا اجتازت الفترات السابقة التى جاءت بين سقوط أسرة وقيام أخرى فى الحكم ، لولا ظهور خطر جديد فى هذه المرة ، هـو خطر الأتراك السـلاجقة الذين بثوا فى المشرق الاسلامى روحا جديدة جعلت المسلمين يهددون الامبراطورية البيزنطية تهديدا خطيرا مرة أخرى .

السلاجقة :

أشرنا من قبل الى أن الخلافة العباسية فقدت هيبتها فعلا عند نهـاية القرن التاسع الميلادى بعد أن أكثر الخليفة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢) مـن الاعتماد على الترك ، الأمر الذى اضطره الى هجر بغداد ونقل عاصمته الى

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 448.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 167.

سامرا سنة ٨٣٦ . وهكذا أصبح الخلفاء العباسيون أداة سهلة فى أيدى الأمراء الأتراك ، حتى غدت السلطة الفعلية فى القرن العاشر فى يد كبير هؤلاء الأمراء الذى اتخذ لنفسه لقب « أمير الأمراء » (١) . وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والخلافات الدينية مثل الحركة الخرمية التى تزعمها بابك الخرمى (٨١٦ — ٨٣٧) وحركة المعتزلة ، فضلا عن نشاط الشيعة . فاذا اضفنا الى ذلك ثورة الزنج فى جنوب العراق (٨٧٧ — ٨٨٣) وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق (سنة ٨٩٠) ، استطعنا أن نكون فكرة عامة عن عوامل انحلال الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال(٢). وليس أدل على انحلال هذه الخلافة وتفككها من الحركات الانفصالية التى قامت فى جسم الدولة والتى أدت ظهور وحدات سياسية مستقلة مثل الدولة السامانية (٩٧١ — ٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٨ — ١٠٤٢) والدولة الغزنوية (٩٦٢ — ١١٨٦) والدولة الحمدانية (٩٢٩ — ١٠٠٣) والدولة البويهية (٩٣٢ — ١٠٥٥) (٣) . هذا غير العبيد الذين أقاموا دولتهم فى شمال أفريقية على أنقاض دولة الأغالبة ، والأخشيديين الذين استقلوا بمصر وشطر من الشام . ثم كان أن استطاع الفاطميون فتح مصر سنة ٩٦٩ واتخاذها مركزا لخلافة فاطمية شيعية ، مما زاد من حدة الخلافات المذهبية والانقسامات السياسية فى المشرق الاسلامى (٤) .

وتهمنا من هذه الدول جميعا الدولة البويهية نظرا لما أصبح لال بويه من نفوذ فعلى فى العراق فى القرن العاشر الميلادى . ويرجع أصل هؤلاء البويهيين الى بلاد الديلم ، وهى البلاد الواقعة الى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، ومنها أخذوا يمدون سلطانهم فى القرن العاشر على بلاد فارس والعراق ، حتى دخل أحمد بن بويه بغداد سنة ٩٤٥م (٣٣٤هـ) فرحب به الخليفة المستكفى

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. pp. 378-381.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 376.
(3) Diehl, Marcais : op. cit. pp. 385-392.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5' pp. 245.

وأضفى عليه وعلى غيره من بنى بويه الألقاب وأمر بنقش أسمـــائهم على السكة (١) . ومن ذلك الوقت يمكن القول بأن السلطة الفعلية خرجت مـــن أيدى الخلفاء العباسيين الذين أصبحوا مجرد زعماء دينيين فى الدولة لا حول لهم ولا قوة (٢) .

ولعل هذا الانحلال الذى اصاب الخلافة العباسية والتفكك الذى اعترى وحده الدولة الاسلامية ، هو الذى مكن أباطرة الدولة البيزنطية منذ منتصف القرن التاسع من الوقوف موقفا أكثر عزما وصلابة من جيرانهم المسلمين . وقد رأينا كيف نجح باسل الأول المقدونى (٨٦٧ — ٨٨٦) وخلفاؤه فى انتزاع أجزاء عظيمة من جسم الدولة الاسلامية فى أعالى العراق والشام ، حتى أصبحت الغلبة فى القرن العاشر لجيوش الدولة البيزنطية فى حين التـــزم المسلمون موقف الدفاع بقدر المستطـــاع (٣) . ولكن الموقف بين المسلمين والبيزنطيين أخذ يتبدل فى القرن الحادى عشر نتيجة لظهـــور قوة الأتراك السلاجقة ، الذين يعتبر ظهورهم فاتحة عصر جديد لا فى التاريخ الاسلامى فحسب ، بل فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام (٤) .

أما هؤلاء السلاجقة فهم فرع من الأتراك الغز ، الذين ظلوا على بساطتهم الاولى دون أن تفسدهم حياة الترف والمدنية ، حتى كان اعتناقهم الاسلام فى وقت متأخر وتحمسهم له مصدر قوة للعالم الاسلامى ، فى وقت تفكك هذا العالم واشتدت الخلافات السياسية والمذهبية بين الدويلات التى انقســم اليها (٥) . وقد تواتر فى المراجع التاريخية أن جد السلاجقة الاول اسمه تقاق ، وهو والد سلجوق الذى دخل خدمة خان التركستان حوالى ســـنة ١٠٠٠ . ثم نزح سلجوق بعد ذلك ومعه قومه من سهول قرغيز الى بلاد ما وراء النهر (سيحون) حيث استقروا قرب بخارى ، وهناك اعتنق سلجوق

(1) Diehl, Marcais : op. cit. p. 389.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 277.
(3) Ostrogorsky : op. cit. Ps. 252-257-263.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 299.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 259-260.

الاسلام وتبعه قومه الذين نسبوا اليه (١) . وسرعان ما أخذت قوة السلاجقة تنمو نموا واضحا ، فبدءوا منذ سنة ١٠٢٩ يغيرون على حدود ايران الشمالية الشرقية حتى استولوا على خراسان ، ثم غزوا ايران الشمالية الشرقيـــة حتى استولوا على خراسان ، ثم غزوا ايران قرب منتصف القرن الحادى عشر ، ومن ثم أخذوا يطرقون الى بلاد ما بين النهرين (٢) .

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء ثلاثة من ملوك السلاجقة فى العصر السلجوقى الأول هم طغرل (ت ١٠٦٣) وألب أرسلان (١٠٦٣ — ١٠٧٢) وملكشاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) (٣) . وفى خلال الخمسة والخمسين عاما التى حـــكم فيها هؤلاو الثلاثة ، ساس أمور دولتهم وزير مشهور هو الوزير نظام الملك الذى كان عهده أزهى عصور التاريخ السلجوقى وأكثرها ازدهارا . وكانت الخلافة العباسية فى ذلك العصر تعانى حالة خطيرة من الضعف والانهاك فلم يسع الخليفة القائم بأمر الله الا أن يعترف بطغرل الذى دخل بغداد سنة ١٠٥٥ فى موكب رسمى ، فاستقبله الخليفة وخلع عليه خلعة وأجلسه الى جواره ، فى حين قام طغرل من جانبه باخضاع الموصـــل وديار بكر وغيرها من الاطراف الغربية للدولة (٤) . ومنذ ذلك الوقت حل الســـلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة ، فى حين استمر الخليفة العباسى مجرد رمز دينى يعيش فى حماية سلاطين السلاجقة الذين مكنتهم قوتهم الحربية من فرض سيطرتهم على العالم الاسلامى فى آسيا (٤) .

وبعد وفاة طغرل سنة ١٠٦٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان الذى حكم فترة قصيرة ولكنها مليئة بالاحداث الهامة (٦) . ذلك أن السلاجقة كانوا سنيين متحمسين ، فتعصبوا لنصرة الخليفة العباسى السنى ضد الفاطميين فى مصر

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 467.

(2) Ibid.

(3) Diehl, Marcais : op. cit. p. 561.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 304-305.

(5) Ostrogorsky : op. cit. p. 303.

(٦) ألب أرسلان لقب تركى معناه « الأسسد الشجاع » ، وقـــد اتخذ ألب أرسلان اسم محمد عند اعتناقه الاسلام بدلا من اسرائيل الذى كان يعرف به ، ثم أضفى عليه الخليفة القائم العباسى لقب (عز الدين) . (أنظر :
(Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 306.

والشام (١) ولذلك حاربت جيوش ألب أرسلان الفاطميين واستردت منهم حلب ومكة والمدينة ، ثم زادت على ذلك اخضاع الثورات التى قامت فى فارس . على أن شهرة ألب أرسلان فى التاريخ تنبع بوجه خاص من موقفه من الدولة البيزنطية . والواقع أن السلاجقة أصبحوا عند منتصف القرن الحادى عشر عاملا أساسيا موجها للتاريخ البيزنطى نتيجة لتهديدهم لحدود الدولة فى آسيا الصغرى والقوقاز (٢) . من ذلك ما قام به ألب أرسلان من اغارة على أطراف الدولة البيزنطية فى كابادوكيا حتى استولى على قيصرية ونهبت قواته ضريح القديس باسل . وقد هب امبراطور الدولة البيزنطية عندئذ — وهو رومانوس الرابع (١٠٦٧ — ١٠٧١) للدفاع عن بلاده ضد هذا الخطر المستفحل ، واستطاع أن يحصل فعلا على بعض انتصارات سهلة فى أول الأمر حتى كانت المعركة الفاصلة بين السلاجقة والبيزنيين عند ملازكرت أو مانزكرت . ومانزكرت هذه مدينة أرمينية تقع الى الشمال من بحيرة فان Van (٣) استولى عليها ألب أرسلان سنة ١٠٧٠ فحاول الامبراطور رومانوس الرابع استردادها . ولم يكد الامبراطور ينجح فى تحقيق غرضه حتى كان السلاجقة قد أعدوا عدتهم ، فدارت معركة مانزكرت الشهيرة سنة ١٠٧١ بين ألب أرسلان الذى بلغ جيشه خمسة عشر ألف محارب ، رومانوس الرابع الذى بلغ جيشه مائتى ألف محارب (٤) . وكان القتال عنيفا وطويلا ، لم تنجح فيه الخيالة البيزنطية المدرعة الثقيلة بحركاتها التقليدية البطيئة ، فتغلبت عليها خيالة السلاجقة الخفيفة المعروفة بسرعة الحركة ، حتى حلت الهزيمة ساحقة بالبيزنطيين وتمزق الجيش البيزنطى شر ممزق ، فى حين جرح الامبراطور نفسه ووقع أسيرا (٥) .

---

(1) Gibb : The Damascus Chronicle of the Grusades pp. 10-20.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 467.

(3) Idem : Tome 1, p. 469.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 306-307.

(5) Ostrogorsky : op. cit. p. 304.

وتعتبر هذه الهزيمة نقطة تحول خطيرة فى التاريخ البيزنطى ، اذ ترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية ، وعدم استطاعة الامبراطورية الثبات بعد ذلك فى وجه توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى. ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية - وبخاصة أرمينيا وكابادوكيا - كانت على جانب كبير من الأهمية ، ويكفى أنها أمدت الامبراطورية بكثير من الأسرات الحاكمة وعدد كبير من أمهر الرجال الذين ساسوا أمور الدولة ودافعوا عنها وارتبط تاريخها بهم (١).

ومهما يكن من أمر فقد تفاوض الفريقان عقب موقعة مانزكرت من أجل « صلح دائم » ، وتم الصلح فعلا وفقا لشروط ، أهمها اطلاق سراح الامبراطور رومانوس الرابع مقابل فدية ضخمة من المال ، كما تعهدت الدولة البيزنطية بدفع جزية سنوية كبيرة لألب أرسلان ، فضلا عن اطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين (٢) وأخيرا عاد الامبراطور المنكود الحظ الى القسطنطينية ، ليكافأ على شجاعته بخلعه من العرش وحبسه بعد سمه عينيه ، فمات بعد أيام .

واذا كان ألب أرسلان قد توفى هو الآخر سنة ١٠٧٢ ، الا أن وفاته لم تقلل من خطر السلاجقة على الدولة البيزنطية ، اذ خلفه أخوه ملكشاه الذى استمر السلاجقة فى عهده يعيثون فسادا فى آسيا الصغرى وينزلون بالمدن البيزنطية أقسى ألوان العبث ، من نهب واحراق وتدمير (٣) . ويبدو أن السلاجقة استغلوا فرصة الفوضى التى غرقت فيها الدولة البيزنطية ، فى الفترة الواقعة بين موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ واعتلاء ألكسيوس كومنين عرش الامبراطورية سنة ١٠٨١ وأخذوا يتوسعون فى آسيا الصغرى دون أن يصادفوا رقيبا يقاومهم . هذا الى أن البيزنطيين أنفسهم استعانوا بهم فى خلافاتهم الداخلية ، وبذلك تغلغل السلاجقة فى آسيا الصغرى حتى بلغوا أجزائها

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 469-470.
(2) Idem : op. 469.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 37-308.

الداخلية الغربية . وربما ساعد على ذلك أن السلاجقة اعتبروا أنفسهم فى حل من عدم الارتباط بالاتفاقية السابقة التى عقدها ألب أرسلان مع البيزنطيين بعد وفاة السلطان الذى أبرمها (١) . وأخيرا لم يجد الامبراطور ميخـائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٩) وسيلة لوقف توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى سوى عمل اتفاقية سنة ١٠٧٤ مع سليمان بن قتلمش — قائد جيش ملكشاه — سلم فيها الامبراطور بحق السلاجقة فى حكم الأراضى التى فتحوها فعلا فى آسيا الصغرى (٢) . والى سليمان بن قتلمش هذا — الذى ناب عن سيده فى قيادة جيوش السلاجقة ضد البيزنطيين — يرجع الفضل فى وضع أساس ما عرف بعد ذلك باسم سلطنة الروم أو سلطنة قونية ، نسبة الى هـذه المدينة العظيمة التى اتخذها الأتراك مركزا لسلطانهم فى آسيا الصغرى(٣). ومن هذا المركز الرئيسى فى جوف آسيا الصغرى أخذت هذه القوة الجديدة تنمو وتمتد حتى بلغت شاطىء البحر الأسود شمالا والبحر المتوسط جنوبا، هذا فضلا عن استمرار توسع الأتراك السلاجقة غـربا دون أن تقـوى الامبراطورية على وقف تيارهم .

وقد حاول الامبراطور ميخائيل السابع الاستنجـاد بالبابا جريجـورى السابع ووعده بأن يرد الجميل للبابا بالعمل على ازالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وفعلا استجاب جريجورى السابع — بما عرف عنه من عقيدة دينية فائقة لهذه الدعوة ، وأرسل الى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم حقيقة موقف المسيحية فى الشرق وما تعانيه الامبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك ، ولكن دعوته ذهبت مع الريح . هـذا فى الوقت الذى شغلت البابوية نفسها بالصراع مع الامبراطور هنرى الرابع حول التقليد العلمانى ، مما جعل الامبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة (٥) . وهكذا ظل الحال حتى عزل ميخائيل السابع سـنة

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 470.
(2) Tout : Tout : The Empire and The Papacy, p. 172.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 471.
(4) Diehl, Marcais : cit. op. p. 562.
(5) Vasiliev : op. cit.. Tome 1, pp. 471-472.

١٠٧٩ ، وحل محله الامبراطور نقفور الثالث (١٠٧٩ — ١٠٨١) ، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت باعلان الكسيوس كومنين امبراطورا (١١١٨) .

وكان الامبراطور ألكسيوس رجلا قلايرا ، فحاول اضلاع الأوضاع الداخلية فى الامبراطورية على نطاق ضيق ، بالقدر الذى سمحت به الظروف والأوضاع القائمة (١) . وهكذا نجح ألكسيوس — بقدر المستطاع — فى علاج الفتن الداخلية والأزمة المالية والحركات الهرطقية فى الدولة (٢) . أما فى الناحية الخارجية فان ازدياد نفوذ النورمان فى جنوب ايطاليا أخذ يشكل خطرا جديدا على الامبراطورية البيزنطية ، كما اتضح ذلك عندما حاصر روبرت جويسكارد سنة ١٠٨١ مدينة دورازو Durazzo مركزا للنفوذ البيزنطى فى البحر الأدرياتى . وقد أسرع ألكسيوس للدفاع عن هذه المدينة ولكن قواته لم تستطع الصمود أمام النورمان ، فانسحب البيزنطيون يجرون أذيال الخيبة (٣) . وهكذا تمكن النورمان من عبور الجبال الساحلية الى مقدونيا وتساليا ، ولم يخلص الامبراطورية البيزنطية من خطرهم سوى اضطرار روبرت الى العودة الى ايطاليا حيث كانت وفاته سنة ١٠٨٥ .

وفى تلك الأثناء لم يكف السلاجقة عن مهاجمة أراضى الامبراطورية والتوسع على حسابها فى آسيا الصغرى ، هذا على الرغم من أن وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ وما أعقبها من نزاع بين أبنائه ساعدت على تقليل خطرهم مؤقتا . ولم يجد ألكسيوس وسيلة يستعين بها لدفع هذا الخطر سوى الاستنجاد بالبابوية عدة مرات ، حتى انتهى به الأمر الى ارسال بعثة الى البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ لشرح خطر السلاجقة على المسيحية بوجه عام (٤) .

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. p. 464.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 174.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 317.
(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 175.

الباب السادس عشر

الحـــروب الصـــليبية

طابعها وأهدافها :

تعتبر الحروب الصليبية من أهم الحركات الكبرى التى أثرت فى مجرى تاريخ العصور الوسطى وصبغت هذه العصور بطابعها الخاص الذى يميزها عن غيرها . وقد تباينت الآراء عند تفسير طبيعة هذه الحركات العظيمة ومحاولة معرفة البواعث الكامنة التى تقف من ورائها : فمن قائل بأنها وليدة الحماسة الدينية التى اتسمت بها عصور الايمان (١) ، ومن مناد بأن المجتمع الرومانى وجد فيها منفذا للتهرب من الاعتراف بالحقيقة الخاصة بتدهوره وخضـــوعه للجرمان ، فى حين رأى الجرمان فى هذه الحروب فرصة لاظهـــار ولائهم للمسيحية وارضاء نزعتهم نحو القتال والترحال . وهناك رأى ثالث يؤكد بأن الحروب الصليبية انما هى مظهر من مظاهر التوسع الاقتصادى والاستعمار فى العصور الوسطى ، كما أنها جاءت نتيجة لتطور النظام الاقطاعى فى تلك العصور .. الى غير ذلك من الآراء المتباينة .

والحقيقة أن الحروب الصليبية لم تكن وليدة أحد هذه العوامل فحسب ، وانما ، هى نتيجة لتفاعل جميع العوامل السابقة ، وغيرها (٢) . فالدارس لتاريخ الحروب الصليبية يستطيع أن يستكشف بوضـــوح أثـــر العـــوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى توجيه هذه الحروب والتحـــكم فى مصـــائرها (٣) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, 265.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 561.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧ ـ ٤٣ .

وقد اعتاد الكتاب أن يهتموا بثمان حملات صليبية ، أربع اتجهت نحـو الأراضى المقدسة (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) ، واثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة) ، وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) وأخرى نزلت بشمال أفريقية (الثامنة) ، ومن ثم فازت هذه الحملات بترقيم عـددى فى التاريخ . لكن هذا التحديد لا يخلو فى حقيقة الامر من تجاوز كبير ، لان الحملات الصليبية أكثر من ثمان ، ان لم يكن من العسير حصرها . ذلك أنه لم يمر عام منذ سنة ١٠٩٦ حتى سنة ١٢٩١ الا اتجهت بعض الجمـوع والوفود الصليبية من الغرب الى الشرق ، وبعض هذه الجماعات فاقت فى أعدادها وفى أهمية أعمالها ما قامت به بعض الحملات الصليبية المعروفة ، ومع ذلك لم تكتسب رقما أو صفة عددية فى التاريخ ضمن الحملات المعترف بأهميتها .

واذا كان بعض المؤرخين يميل الى تحديد مدى الحروب الصليبية بالفترة الواقعة بين سنتى ١٠٩٦ ، ١٢٩١ ، فان هذا التحديد الزمنى لا يشمل فى الواقع الا المرحلة الحاسمة النشيطة فى تاريخ الحروب الصليبية . ذلك أنـه يمكن للباحث أن يتتبع جذور الحركة الصليبية وروحها قبل القرن الحـادى عشر بكثير ، كما يمكنه أن يقتفى أثر ذيولها وروحها بعد نهاية القرن الثالث عشر بكثير أيضا . فمنذ ظهور المسلمين على مسرح حوض البحر المتوسط كقوة سياسية وحربية كبرى غزت العالم المسيحى وقوضت بعض أركانه ، وأهالى أوربا المسيحيون لا يألون جهدا فى صد المسلمين ومحـاربتهم . وحسبنا ما فعله ليو الأيسورى فى الشرق وشارل مارتل فى الغرب لصـد المسلمين عن العالم المسيحى ، هذا غير ما قام به شارلمان من حروب ضـد المسلمين فى الأندلس ، وهى الحروب التى حرصت أغنيـة رولان على أن تظهرها فى طابع صليبى واضح ، وما قام به بابوات الغرب وحـكامه فى القرنين التاسع والعاشر لصد الاغارات الاسلامية عن شواطىء أوربا (١).

---

(1) Runciman : A History af the Crusades, Vol. 1. p. 88.

والمهم فى أمر هذه الجهود التى بذلها المسيحيون فى حرب المسلمين ، هـو أنها اتسمت بالطابع الدينى ، فدعا اليها رجال الدين وتعهدها البابوات برعايتهم ، مما جعل فكرة الحروب الصليبية تنشأ فى أول أمـرها مرتبطـة بمبدأ محاربة المسلمين ودفع خطرهم أينما كانوا (١) .

والواقع أن فكرة محاربة المسلمين صادفت قبولا عاما فى غرب أوربا فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر . ففى أسبانيا كان ألفونس السـادس ملك قشتالة (١٠٦٥ ـ ١١٠٩) يواصل ضغطه على المسلمين فى سـبيل الاستيلاء على طليطلة ، حتى استولى عليها فعلا سنة ١٠٨٥ بمساعدة قريبه هيو الأول دوق برجنديا (٢) . وفى صقلية كان روبرت جويسكارد وأخـوه روجر يعملان لانتزاع الجزيرة من أيدى المسلمين . أما جنوا وبيزا فقـد دأبت أساطيلهما على مهاجمة المسلمين فى كورسيكا وسردينيا فضلا عن الموانى الاسلامية فى شمال أفريقية (٣) .

على أن الموقف بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق اختلف اختلافا بينا عما كان عليه فى الغرب أواخر القرن الحادى عشر . فبينما أمسى المسلمون فى الغرب فى موقف لا يحسدون عليه بسبب ضغط القوى المسيحية عليهم ، اذا بهم فى الشرق يصبحون على قسط وافر من القوة ، فتمكنوا من التفوق على الدولة البيزنطية ، حتى كانت موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ وأسر الامبراطور رومانوس الرابع وما تلا ذلك من سيطرة الأتراك السلاجقة على معظم آسيا الصغرى (٤) . وقد دفع هذا الوضع البابا جريجورى السابع الى توجيـه الدعوة فعلا سنة ١٠٧٤ الى حكام الغرب لارسال حملة صليبية الى الشرق بعد أن استفحل خطر الأتراك السلاجقة واستولوا على بيت المقدس مما أثار

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 267-268.

(2) Fliche : l'Europe Occidentall, pp. 52-553.

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 200.

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٥ ـ ٩٤ .

شكوى الحجاج المسيحيين من سوء معاملة الأتراك لهم (١) . وكانت وجهة نظر جريجورى السابع تتلخص فى ارسال حملة لانقاذ القسطنطينية والدولة البيزنطية بوصفها الدرع الحامى للعالم المسيحى من جهة الشرق . هذا فضلا عما يمكن أن تحققه مثل هذه الحملة من ازالة الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية وادخال الأولى فى حظيرة الثانية (٢) . ولكن يبدو أن الظروف التى أحاطت بجريجورى السابع لم تمكنه من تنفيذ هذه الرغبة ، ويكفيه على أى حال أنه وضع أساس المشروع وترك مهمة تنفيذه لخليفته البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩) (٣) .

واذا كان البابا أوربان الثانى قد أظهر حماسة كبيرة لمشروع الحرب الصليبية ضد المسلمين ، فانه ليس من المستبعد أن يكون السبب الحقيقى لهذه الحماسة هو الرغبة فى اظهار البابوية فى صورة الهيئة المتزعمة للعالم المسيحى الغربى ، فى الوقت الذى اشتد النزاع بينها وبين الامبراطورية حول سيادة العالم ، هذا فضلا عما فى ذلك من فرصة لبسط سيطرة البابوية على الكنيسة الشرقية . لذلك لم يكد الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨) يستنجد بالبابا أوربان الثانى ، حتى لبى البابا النداء فأعلن الحرب الدينية ضد المسلمين فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ (٤) . وهنا نلاحظ أن البابا أوربان الثانى نظر الى الحروب الصليبية نظرة اختلفت عما أرادته الامبراطورية البيزنطية . فالامبرطور ألكسيوس كومنين أراد — حين استنجد بالبابوية — أن يسعفه الغرب بقوة تمكنه من استرداد آسيا الصغرى من قبضة المسلمين . أما البابا أوربان الثانى فلم يكن يهتم بأمر آسيا الصغرى قدر اهتمامه بالأراضى المقدسة وتخليصها من سيطرة المسلمين (٥) . وهكذا بدا عدم الانسجام والتوافق فى الأغراض بين الحروب الصليبية التى دعت لها

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 25.
(2) Idem : p. 28.
(3) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 306-307.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 410.
(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 200.

البابوية والحروب التى أرادتها الدولة البيزنطية ، لأن الأخيرة طلبت امدادها بجند يعملون تحت قيادتها لتحقيق أغراضها الخاصة وأهمها طرد السلاجقة من آسيا الصغرى ، فى حين أرسل الغرب صليبيين يستهدفون استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين (١) .

أسباب الحماسة الصليبية عند الغربيين :

وسرعان ما انتشر الدعاة — من أمثال بطرس الناسك — يدعون أمراء أوربا وفرسانها للمشاركة فى مشروع الحروب الدينية . وقد قوبلت هذه الدعوة بحماسة كبيرة من جمهور المسيحيين الغربيين على اختلاف طبقاتهم وبلادهم الأمر الذى يجعلنا نتوقف قليلا للبحث عن أسباب هذه الحماسة التى قوبلت بها الدعوة للحروب الصليبية فى غرب أوربا . حقيقة أن البابوية هى صاحبة الفضل فى اثارة فكرة الحروب الصليبية عندما دعت لها مجمع كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ ، ولكن لماذا قابلت شعوب غرب أوربا هذه الدعوة بمثل تلك الحماسة البالغة ؟ وبعبارة أخرى ما العوامل التى جعلت أوربا العصور الوسطى تستجيب لنداء البابوية وتلبى هذا النداء فى قوة وعزيمة ؟ الواقع أننا نستطيع الوقوف على أولى هذه العوامل بالرجوع الى المثل الدينية التى سادت تلك العصور وتحكمت فى توجيهها . فالعصور الوسطى — فى الغرب والشرق — عرفت بتغليب الجانب الدينى حتى سميت « عصور الايمان » ، هذا فى الوقت الذى اضطرت ظروف الحياة الغالبية العظمى من أهالى أوربا الى أن يحيوا حياة دنيوية بعيدة عن الديرية وغيرها من أنواع الحياة الدينية . وقد ظل هذا الفريق يشعر بفراغ دينى كبير ، واشتد هذا الشعور فى القرن الحادى عشر نتيجة لما أثارته الحركة الكلونية من حماسة دينية واضحة ، حتى وجدوا ضالتهم أخيرا فى الحروب الصليبية (٢) ، وهى الحروب التى ستتيح لهم فرصة تقبيل الصخرة التى صلب عليها المسيح والسجود أمام قبره ، بل دخول الجنة نفسها .. الى غير

(1) Ostorgorsky : op. cit. p. 230.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 30.

ذلك من ضروب الاغراء الكفيلة بأن تحرك مشاعر كل مسيحى مخلص فى تلك العصـــور (١) .

وبالاضافة الى هذا العامل الدينى وجد عامل اجتماعى تمثل فى أن الغالبية العظمى من الطبقات الدنيا فى المجتمع الأوربى كانت تحيا عندئذ حيا عندئذ حياة ملؤها البؤس والشقاء فى ظل النظام الاقطاعى ، فلم يجد أفراد هذه الطبقات سببا يشجعهم على البقاء فى بلادهم ، بل على العكس من ذلك وجدوا فى الحروب الصليبية فرصة هيأت لهم الخلاص من القيود والفاقة التى يحيون فيها ، فضـــلا عما سيتاح لهم من أجر وحسن ثواب فى الدنيا والآخرة (٢) . هذا فى الوقت الذى وجد الأمراء والفرسان فى الحروب الصليبية فرصـــة لاشباع روح المغامرة التى سيطرت على حياتهم الخاصة والعامة (٣) .

أما العامل السياسى فيبدو فى ازدياد نفوذ البابوية فى القرن الحادى عشر ، على الشرق وكنيسته (٤) . هذا الى أن البابوية فى القرن الحـــادى عشر كانت تخشى النورمان الذين ازداد خطرهم على صقلية وجنوب ايطاليا، فرأت فى الحروب الصليبية فرصة لصرفهم عن ايطاليا وتوجه نشاطهم نحـــو ميدان آخر بعيد ، ومن الثابت أيضا أن كثيرا من كبار الامراء شاركو فى الحروب الصليبية بغية تأسيس امارات لهم فى الشرق ، حتى بدت هـــذه المطامع السياسية واضحة منذ وصول الصليبيين الى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ فى طريقهم الى الأراضى المقدسة .

فاذا أضفنا الى هذه العوامل السابقة العامل الاقتصادى أمكننـــا فى النهاية أن نكون فكرة واضحة عن سبب الحماسة التى قوبلت بها الدعـــوة الى الحروب الصليبية .. ذلك أن مدن ايطاليا التجارية — وبخاصة البندقية

---

(1) Runciman : op. cit. Vol. I. , p. 115.
(2) Idem : P. 11.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 30.
(4) Ibid.

وجنو وبيزا — قامت منذ القرن الحادى عشر بنشاط تجارى واسع ، وامتلكت الأساطيل البحرية الضخمة ، الأمر الذى جرها الى الدخول فى عداوات مسلمى صقلية وسردينيا (١) . وقد أدركت هذه المدن الايطالية أن استيلاء الصليبيين على الشام سيتيح لها منفذا يمكنها من اختراق الحصار الذى فرضه المسلمون على تجارة الشرق بسيطرتهم على نصف شواطىء البحر المتوسط ، ولذلك أسرعت المدن الايطالية الى مباركة حركة الحروب الصليبية وتقديم كل مساعدة ممكنة للصليبيين مقابل ما حصلت عليه هذه المدن من امتيازات تجارية فى الأجزاء التى سيطر عليها الصليبيون فى الشرق (٢) .

الحملة الصليبية الأولى :

وعلى الرغم من أن جهود البابا أوربان وأعوانه فى تنظيم الحملة الصليبية الأولى ، وحرصهم على ألا يشترك فيها الا الأمراء القادرون على تسليح اتباعهم والانفاق عليهم ، فان الدعاة جمعوا حولهم كل راغب من الفرسان المفلسين ، فضلا عن الفلاحين والأقنان والمغامرين . وقد أخذ كل واحد من هؤلاء يخيط على ردائه الخارجى صليبا من القماش ، ومن ثم أطلق عليهم اسم « الصليبيين » وعلى الحروب التى اعتزموا المشاركة فيها اسم الحروب اللصليبية (٣) .

لهذا اعتاد الكتاب عند الكلام عن الحملة الصليبية الأولى أن يقسموها الى قسمين : القسم الأول يشمل حملة العامة ، والقسم الثانى يشمل حملة الأمراء . أما العامة فقد اجتمع منهم فى مايو سنة ١٠٩٦ خمسة جموع كبيرة ، تضم تشكيلة متنوعة من المعدمين وقطاع الطرق والمجرمين وغيرهم ، وأخذوا يتجهون جميعا نحو القسطنطينية فى طريقهم الى الأراضى المقدسة . وقد

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 32-33.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧ — ٤٣ .

(3) Stephenson :: Med. Hist. p. 296.

فشلت ثلاث جموع من هؤلاء العامة فى الوصول الى القسطنطينية وتبـدد شملهم فى الطريق نتيجة اصطدامهم بالمجريين (١) . أما البقية الباقية فقـد وصلت الى القسطنطينية بعد أن تناقصت أعدادهم وأصبحوا فى حال يرثى له من الانهاك والبؤس . وعلى الرغم من المعاملة الطيبة التى لقيها هـؤلاء الصليبيون من الامبراطور الكسـيوس فى أول الأمـر ، الا أنهم أتـوا فى الامبراطورية كثيرا من أعمال النهب والسلب حتى أنهم لم يتورعوا عن سرقة الكنائس التى صادفوها (٢) . وقد ارتاع الامبراطور من هذا المسلك فأخـذ يفكر فى التخلص منهم بسرعة ، وسهل لهم العبور الى آسيا الصغرى حيث وقعوا فريسة سهلة فى أيدى السلاجقة ، فأجهزوا عليهم جميعا وحولوهم الى كومة من العظام والأشلاء (٣) .

هذا عن القسم الأول من الحملة الصليبية الأولى ، وهو القسم الخاص بالعامة والمعدمين . أما القسم الثانى الخاص بالأمراء والفرسان ، فقد أخذ هؤلاء يتجمعون منذ مارس سنة ١٠٩٦ حتى تكونت منهم ثلاث مجموعات كبيرة ، الأولى تألفت من فرسان اللورين تحت زعامة جودفرى بوايـون وأخيه بلدوين (٤) ، والثانية تألفت من فرسان أقليم بروفنسال تحت زعامة ريموند أمير تولوز بصحبة أدهمار المندوب البابوى (٥) . والمجموعة الثالثة تألفت من النورمان وعلى رأسهم بوهيموند وابن أخيه تنكرد (٦) . وأخيرا التقت هذه الجموع الثلاثة فى القسطنطينية فى ربيع سنة ١٠٩٧ ، وكان عددهم يتروح بين ستين الفا ومائة ألف (٧) . وهنا أخذت تتكشف العوامل المختلفة التى تحكمت فى توجيه الحملة الصليبية الأولى ، بل كثير من الحمـلات التالية . فمن جانب الغرب وجد عاملان مهمان ، هما أطماع الأمـراء فى تأسيس امارات لهم فى الشرق وما نشأ عن هـذه الأطمـاع من حـزازات

---

(1) Idem : p. 9.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 336.
(3) Runciman : op. cit. Vol. 1, pp. 127-132.
(4) Grousset : op. cit. Tome 1, pp. 11-14.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 274.
(6) Grousset : op. cit. Tome 1, p. 20.
(7) Runciman : op. cit. Vol. 1, p. 169.

ومنافسات ، ثم أطماع القوى الايطاليا التجارية فى يحقيق مكاسبها الاقتصادية أما من جانب الشرق فقد وجد عاملان أيضا هما سياسة الدولة البيزنطية تجاه الصليبيين من جهة وأحوال الشرق الاسلامى بعد مقتل الوزير نظام الملك فى خريف سنة ١٠٩٢ ثم وفاة ملكشاه أعظم سلاطين السلاجقة بعد ذلك العام نفسه من جهة أخرى ، مما أدى الى تفكك امبراطوريتهم الواسعة وزيادة انقسام الشرق الاسلامى بين قوى مبعثرة متنافسة (١) .

والواقع أن وصول هذه الاعداد الضخمة من الصليبيين الى أراضى الدولة البيزنطية أثار مخاوف الامبراطور ألكسيوس ولا سيما أن مسلك الصليبيين تجاه أخوانهم المسيحيين الشرقيين لم يكن مشجعا على الاطمئنان(٢) . ولذلك لم يسمح الامبراطور البيزنطى بفتح أبواب القسطنطينية للصليبيين الا بعد أن تعهد له زعماء الحملة بالولاء وتسليمه كل ما يستردونه من أراضى الدولة وأملاكها المفقودة فى آسيا ما عدا الأراضى المقدسة نفسها ، وذلك كله مقابل تعهد الامبراطور بامدادهم بالمؤن والسفن اللازمة لنقلهم الى الشاطىء الآسيوى (٣) . ولاشك فى أن الغرب اللاتينى اعتبر هذا المسلك معاديا من جانب الامبراطورية البيزنطية ، وذلك فى وقت أساء الغرب الظن بالشرق وتواترت الأخبار سوء معاملة الدولة الشرقية للحجاج الغربيين القاصدين البلاد المقدسة عبر أراضيها (٤) . وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتزيد من شعور النفور والعداء بين الغرب اللاتينى والشرق اليونانى مما كان له أكبر الأثر فى مصير الحروب الصليبية من جهة وفى مستقبل الامبراطورية البيزنطية من جهة أخرى (٥) .

أما عن تفكك امبراطورية السلاجقة بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٩ وما بعدها .

(2) Runciman : op. cit. Vol. 1, pp. 115-116.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 43-44.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 334.

(5) Runciman : op. cit. Vol. 1, p. 170.

فيبدو مرجعه الى أن سلاطين السلاجقة لم يفعلوا أكثر من احتلال المدن الرئيسية فى البلاد التى فتحوها احتلالا عسكريا ، مع ترك بقية البلاد فى الأراضى الواسعة فيما بين هذه المدن خالية من كل مقاومة . وخير ما يوضح تفكك امبراطورية السلاجقة عند نهاية القرن الحادى عشر أن بغداد أصبحت تحت نفوذ السلطان بركياروق (١٠٩٤ — ١١٠٤) فى حين صارت آسيا الصغرى تحت سيادة قليج أرسلان . سلطان قونية ، أماسورية فكان بحكمها بيت تتش (ططش) بى ألب أرسلان . وزاد من ضعف بلاد الشام عندئذ تعرضها لاغارات الفاطميين من مصر مما ضاعف العداء بين السنة والشيعة (١) .

ثم كان أن أخذ الصليبيون يعبرون البسفور ويدخلون أراضى قليج أرسلان فى مايو سنة ١٠٩٧ ، مبتدئين بمدينة نيقية فى الوقت الذى كان قليج أرسلان نفسه متغيبا عنها على الحدود الشرقية . ولكن السلاجقة لم يستسلموا فى سهولة وأنزلوا بالصليبيين خسائر فادحة جعلتهم يضطرون الى طلب المساعدة من الامبراطور البيزنطى . وأخيرا سقطت نيقية فى أيدى المسيحيين (يونية ١٠٩٧) فتسلمها الامبراطور الكسيوس (٢) . وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو ضوروليوم حيث أحرزوا نصرا كبيرا على السلاجقة فى أول يوليو ، وفر الأتراك شرقا تاركين خلفهم عددهم وأموالهم فضلا عن مخيمات السلطان والأمراء التى وقعت جميعها فى أيدى الصليبيين (٣) . ولا شك فى أن موقعة ضوروليوم لا تقل أهمية فى التاريخ عن موقعة مانزكرت، لأنه كما وضعت الموقعة الأولى حدا لنفوذ البيزنطيين فى آسيا الصغرى فكذلك دلت موقعة ضوروليوم على تفوق قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هى قوة المسيحيين الغربيين (٤) . وبعد أن قضى الصليبيون فى ضوروليوم يومين استراحوا فيهما من عناء القتال اتجهوا نحو قونية فوصلوها فى أواسط أغسطس وعندئذ وجدوا هذه المدينة التى اتخذها قليج أرسلان

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 314-315.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(3) Runciman : op. cit. Vol. 1, p. 186.

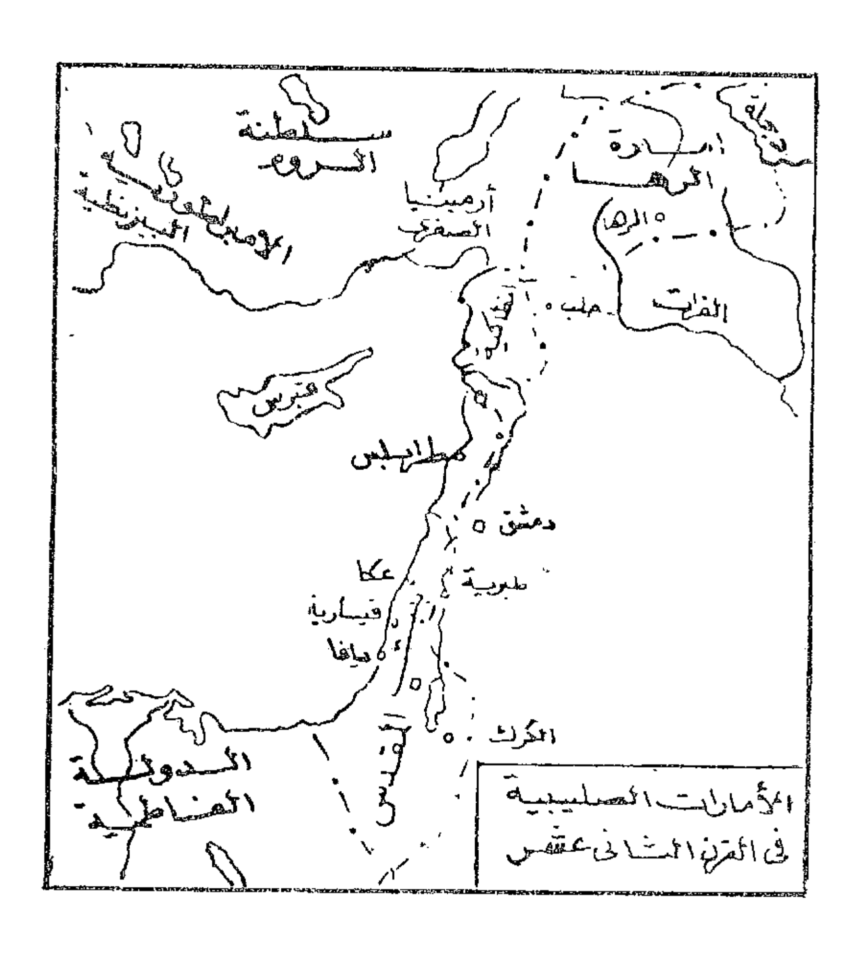
(4) Grousset ; op. cit, Tome 1, p. 35,

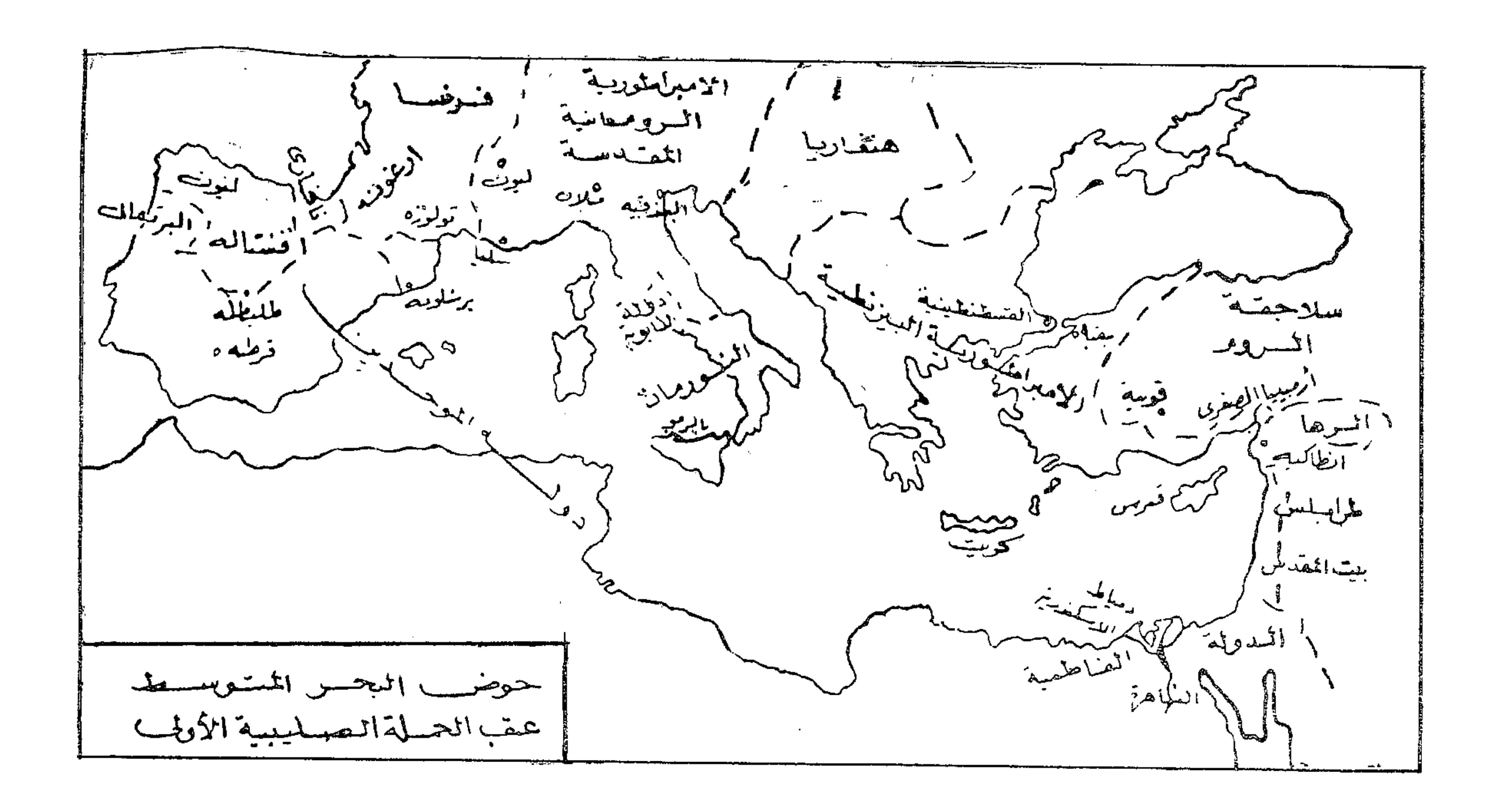
عاصمة لسلطنته خالية الوفاض بعد أن هجرها الأتراك وفروا الى الجبال(١). وفى قونية استراح الصليبيون عدة أيام أخر ثم اتجهوا نحو هرقلة حيث أنزلوا الهزيمة ببعض أمراء السلاجقة . ومن هرقلة اتجه تنكرد — وتبعه بلدوين — نحو قيليقية وأخذت جيوشهما تستولى على مدن هذا الاقليم مما يعتبر نـواة لنشأة امارة أنطاكية الصليبية ، فى حين اتجه الجـزء الرئيسى من الجيش الصليبى جهة الشمال الشرقى نحو قيصرية ليضم اليه قوة أرمينية المسيحية. وعندما اتجهت الجيوش الصليبية بعد ذلك صوب أنطاكية ، انضم اليهـا بلدوين عند مرعش — قرب منتصف الطريق بين قيصرية وأنطاكية — ولكن بلدوين لم يلبث أن أفترق عن بقية الصليبيين مرة أخرى واتجه شرقا ليستولى على الرها ويؤسس بها سنة ١٠٩٨ أولى الامارات الصليبية فى الشرق(٢).

وعلى الرغم من أن بقية الجيوش الصليبية أخذت تتناقص سريعا ، نتيجة للعقات التى صادفتها من جهة ، ولسوء الأحوال المناخية من جهـة أخرى ، الا أن الصليبيين اتجهوا نحو أنطاكية لحصارها . وكان حصـار أنطاكية عملية شاقة وطويلة لأنها كانت من أقوى المدن المعاصرة تحصينـا فضلا عن صعوبة تموين الصليبيين من القسطنطينية وفتك الحمى والأمراض بهم . ولكن الصليبيين أصروا على حصـارها نظرا لأهميتهـا فتغلبوا على النجدات الاسلامية التى أرسلت لانقاذها ، حتى سقطت المدينة أخيرا فى أيدى الصليبيين بعد حصار سبعة أشهر ونصف (سنة ١٠٩٨) (٣) . وقـد برزت أثناء الحصار شخصية بوهيموند النورمانى الذى أبلى فى القتال بـلاء حسنا ، حتى اذا ما سقطت المدينة بدأ النزاع بينه وبين ريموند حول امتلاك أنطاكية فضلا عن مطالبة الامبراطور البيزنطى بحقه الشرعى فيها (٤) . وقد استمر هذا النزاع نحوا من شهر ، مما عطل زحف الصليبيين نحو بيت المقدس ، ولكنه انتهى بفوز بوهيموند الذى أسس فى أنطاكية ثانى الامارات الصليبية فى الشرق ، وهى الامارة التى أصبحت أقوى الوحدات السياسية الصليبيين فى الشـام .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 285.
(2) Runciman : op. cit. Vol. 1, pp. 206-208.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 292.
(4) Grousset : op. cit. Tome 1, pp. 108-116.


سلطنة الروم
الإمبراطورية البيزنطية
أرمينيا الصغرى
إمارة الرها
الرها
حلب
الفرات
قبرص
طرابلس
دمشق
عكا
طبرية
قيسارية
يافا
الكرك
الدولة الفاطمية
الإمارات الصليبية
في القرن الثاني عشر



حوض البحر المتوسط
عقب الحملة الصليبية الأولى

وقد أظهر الصليبيون بعد أن تركوا أنطاكية رغبة صادقة فى الوصول بأسرع ما يمكن الى بيت المقدس ، ولا سيما بعد أن حاصروا عرقة (قرب حمص) مدة طويلة دون أن ينجحوا فى الاستيلاء عليها ، وعندئذ أدركوا أن حصار كل بلدة تصادفهم فى طريقهم سيتطلب منهم وقتا طويلا ، زيادة على استنفاد جهودهم (١) . ولم يصادف الصليبيون صعوبة كبيرة فى الاستيلاء على بيت المقدس بسبب انحلال أحوال الدولة الفاطمية وقتئذ من جهة والعداء المذهبى بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى .. لذلك سقطت بيت المقدس فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٩ بعد حصار شهرين ، وعندئذ ارتكبوا كثيرا من أعمال الوحشية ضد الأهالى المسلمين ، كما تشهد على ذلك وثيقة Gesta Francorum التى اشترك صاحبها فى هذه الحملة (٢) . ومهما يكن من أمر فانه يمكن القول بأن الحملة الصليبية الأولى أنهت مهمتها باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس التى قامت فيها ثالث وحدة سياسية للصليبيين بالشام .

ويبدو أن كثيرا من الصليبيين عادوا الى بلادهم بعد أوفوا بقسمهم واستردوا بيت المقدس للمسيحية . لذلك وجدت مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها أمام مشاكل بالغة الخطورة بسبب نقص الرجال ، وسيطرة المسلمين على سواحل الشام زيادة على معظم الاراضى الداخلية . وقد أدرك حكام مملكة بيت المقدس ضرورة الاستيلاء على سواحل الشام وموانيها لضمان الاتصال البحرى بأوربا . ولما كان الاستيلاء على هذه الشواطىء والموانى أمرا صعبا بغير أسطول ، فان الصليبيين طلبوا مساعدة مدن ايطاليا البحرية مثل جنوا والبندقية وبيزا ، نظير اعطائهم ثلثى الغنائم التى يستولون عليها من أية مدينة تقع فى أيديهم ، وأن يكون لها أحياء تجارية حرة فى كل منها (٣) . وعن طريق هذه المساعدة تم للصليبيين الاستيلاء على أرسوف وقيسارية سنة ١١٠١ وعلى عكا سنة ١١٠٤ وعلى صور سنة ١١٢٤ أما

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 295.

(2) Runciman : op. cit. Vol. 1, pp. 286-287.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧٥ .

طرابلس فقد سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ١١٠٩ لتقوم فيها رابع الامارات اللاتينية فى الشرق (١) .

أحوال الصليبيين فى الشرق :

هكذا نجحت الحملة الصليبية الأولى ، وتمكن الصليبيون من تأسيس ثلاث امارات فى الرها وأنطاكية وطرابلس زيادة على مملكة بيت المقدس . على أنه من الواضح أن هذه الحملة الصليبية الأولى التى انتهت بقيام مملكة بيت المقدس وبعض الامارات الصليبية فى الشرق ، أدت الى خلق موقف سياسى شديد التعقيد . فالدولة البيزنطية التى اطمأنت الى اضعاف الاتراك السلاجقة فى آسيا واستردت جزءا كبيرا من أراضيها الاسيوية ، بدأت تساورها المخاوف من جانب امارات أنطاكية والرها وطرابلس ، وهى الامارات التى سرعان ما وقفت موقفا عدائيا من الدولة البيزنطية (٢) . ولعل هذا الشعور هو الذى دفع الامبراطورية الشرقية الى قلب ظهر المجن — فى القرن الثانى عشر — لحلفائها الصليبيين والتقرب من أعدائها الأوائل وهم الاتراك السلاجقة ، فى حين أخذ الصليبيون يتخوفون من نوايا الامبراطورية البيزنطية ، فعقدوا معاهدات مع السلاجقة ضدها (٣) .

ولما كان العنصر الغالب على الحملة الصليبية الأولى هو العنصر الفرنسى فان الوحدات السياسية الصليبية التى تمخضت عنها هذه الحملة فى الشرق سادتها النظم الاقطاعية المعمول بها فى فرنسا ، بالاضافة الى تغلب اللهجة الفرنسية فيها ، اللهم الا فى الاحياء الايطالية المستقلة التى غلب عليها الطابع الايطالى (٤) . وقد أدت الظروف التى أحاطت بالصليبيين فى الشرق الى ظهور منظمات جديدة تجمع بين الفروسية والديرية ، أو بعبارة أخرى بين الحياتين الحربية والدينية ، مثل هيئة فرسان الاسبتارية Hospitallers

(1) Grousset : op. cit. Tome 1, pp. 356-359.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 338-339.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 11, pp. 45-46.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 573.

وهيئةفرسان الداوية Templars (١) . وسرعان ما نمت هذه المنظمات حتى لعبت دورا هاما فى حياة الصليبيين بالشرق ، اذ ألقى على عواتقها عبء الدفاع عن الاراضى المقدسة بعد تنظيمها وتقسيمها (٢) . على أن أعضاء هذه الهيئات لم يلبثوا أن اشتغلوا بالتجارة وحاكوا الايطاليين فى الحصول على مميزات تجارية واسعة ، مما ضاعف ثروتهم وممتلكاتهم من جهة وأثار روح التنافس والبغضاء بين بعضهم وبعض من جهة أخرى (٣) . ولم تنقض سنوات طويلة حتى تغلبت المصالح التجارية على الغرض الصليبى ، فأصبح لا هم للحجاج الذين يفدون تباعا من غرب أوربا الى الاراضى المقدسة سوى مباشرة النشاط التجارى والعودة الى بلادهم محملين بالثروة والمتاجر .

ومن الواضح أن الامارات التى اقامها الصليبيون فى الشرق كانت لا تستطيع الثبات طويلا وسط المحيط الاسلامى الواسع دون أن تصل اليها من الغرب مساعدات مستمرة قوية ، ولا سيما أن كثيرا من مدن الشام المهمة مثل دمشق وحمص وحماة وحلب ظلت فى أيدى المسلمين (٤) . فالحكـــــام الصليبيون ضعاف منقسمون لم يستطيعوا جعل حكمهم وراثيا فى كثير من الحالات ، والمصالح الدنيوية سرعان ما تغلبت على الصالح الدينى مما جعل بعض أمراء الصليبيين فى الشرق يتصلون سرا بالمسلمين أو البيزنطيين طالبين معونتهم ضد خصومهم الصليبيين . هذا الى أن التنافس التجارى بين البندقية وبيزا وجنوا فى الاراضى المقدسة أدى الى كثير من المتــــاعب زيادة على المشاحنات بين الداوية والاسبتارية (٥) . فاذا أضفنا الى ذلك تناقص اللاتين بالشام وتآمر الاباطرة البيزنطيين لانتزاع بعض الامارات الصليبية بالشام وبخاصة أنطاكية (٦) ، أدركنا فى النهاية حقيقة موقف الامارات الصليبية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 682-683.

(2) Runciman : op. cit. Vol. 2, pp. 156-158.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 306-315.

(4) Idem : p. 306.

(5) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 577.

(6) Grousset : op. cit. Tome 2, pp. 91-96. &. Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 45.

بالشـــام فى النصف الاول من القرن الثانى عشر . والواقع أنه اذا كـــان الصليبيون قد نعموا بشىء من الاستقرار والهدوء حينئذ ، فان السبب فى ذلك لا يرجع الى قوتهم وصلاح حالهم بقدر ما يرجع الى تفكك القـــوى الاسلامية وافتقارها عند مطلع القرن الثانى عشر الى زعيم قوى يوحد صفوف المسلمين فى منطقة الشرق الادنى ليجعل منهم جبهة واحدة قوية تواجـــه المسلمين ..

قيام الجبهة الاسلامية المتحدة وأثرها :

وقد ظهر هذا الزعيم الاسلامى المنتظر فى شخص زنكى أتابك الموصل (١١١٧ — ١١٤٦) الذى ضم اليه حلب ثم انتزع الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤ (١) . ولا شك فى أن سقوط الرها فى أيدى المسلمين يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية بوصفها أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق زيادة على كونها القلعة التى تعترض الطريق بين الموصل والشام ، وبالتالى فان بقاءها فى أيدى الصليبيين كان من شأنه أن يحول دون اتحاد القوى الاسلامية فى أعالى العراق والشام . لذلك أثار استيلاء المسلمين على الرها فزع العالم المسيحى الغربى فبدأت الاستعدادات لارسال حملة صليبية ثانية على رأسها كونرد الثالث ملك ألمانيا ولويس الســـابع ملك فرنسا (٢) . ولكن الفشل حالف هذه الحملة الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) منذ بدايتها ، اذ اختار رجالها أن يسلكوا الطريق البرى عبر آسيا الصغرى فى طريقهم الى الاراضى المقدسة ، بدلا من الطريق البحرى المباشر (٣) . وهكذا لم يتعظ زعماء الحملة الصليبية الثانية بما حل بالحملة الأولى من كوارث فى آسيا الصغرى ، لا سيما بعد أن عقد الامبراطور مانويل كومنين البيزنطى صلحا مع مسعود سلطان قونية السلجوقى الذى كان على الصليبيين أن يجتازوا أراضيه عبر آسيا الصغرى ، بل يشير بعض المؤرخين الى أن

---

(1) Grousset : op. cit. Tome 2, pp. 186-187.

(٢) سعيد عاشور :الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢١ .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 366-367.

مانويل نفسه حرض مسعودا على وضع العقبات فى وجه الصليبيين (١) ، مما أوقع معظمهم رجال الحملة الجديدة فريسة سهلة فى أيدى السلاجقة بحيث لم يصل منهم الى الاراضى المقدسة سوى اعداد قليلة فاستقبلوا استقبالافاترا ، فى حين عاد كونراد الثالث ولويس الســـابع الى بلادهما يجران أذيـــال الفشل (٢) .

وفى ذلك الوقت كان زنكى أتابك الموصل قد توفى سنة ١١٤٦ ، فخلفه ابنه نور الدين محمود الذى عمل جاهدا فى سبيل تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة . ومهما كانت أهمية استيلاء نور الدين محمود على دمشق سنة ١١٥٤ ، فان أهم ما شهدته تلك الفترة كان السباق بين عمورى ملك بيت المقدس ونور الدين حول الاستيلاء على مصر ، حيث كانت الخلافة الفاطمية تعانى آلام الموت البطىء (٣) . وقد انتهى هذا السباق بفوز نور الدين بمصر سنة ١١٦٩ ، وان كان قد توفى سنة ١١٧٣ تاركا لصلاح الدين مهمة اتمام رسالته فى توحيد القوى الاسلامية ومحاربة الصليبيين . ولم يلبث صلاح الدين أن أثبت صلاحيته التامة لمواجهة الموقف واتمام الرسالة على خير وجه ، فوحد مصر ومعظم الشام وأعالى العراق تحت سيادته (٤) . ثم دخل فى حرب جدية ضد الصليبيين حتى أنزل بهم هزيمة منكرة فى موقعة حطين سنة ١١٨٧ ، واستولى على مدينة بيت المقدس وجميع ملحقاتها من البلاد والموانى الساحلية ، ما عدا صور التى استطاعت الصمود بفضل معونة القوى البحرية الايطالية (٥) . والواقع أن موقعة حطين كانت موقعة حاسمة بكل معانى الكلمة ، ولا سيما الجيش الصليبى الذى مزق فيها كان يضم جميع قوى الصليبيين وزعمائهم بالشام ، مما جعل من المتعذر تجنيد جيش صليبى

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 60.

(2) Runciman : op. cit. Vol. 25, pp. 286-287.

(3) Grousset : op. cit. Tome 2, pp. 514-515.

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤١ وما بعدها .

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 210.

جديد بعد أن بات زهرة فرسان الصليبيين أسرى أو قتلى ، كما وقع صليب الصلبوت أو الصليب الاعظم غنيمة فى أيدى المسلمين (١) . واذا كان هناك ثمة أمل للصليبيين ، فان هذا الامل أصبح فى وصول حملة كبرى من الغرب تعيد للصليبيين مجدهم المفقود بالاراضى المقدسة .

الحملة الصليبية الثالثة :

ولا شك فى أن سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين كان كارثة كبرى اهتز لها غرب أوربا ، مما عجل بارسال حملة صليبية جديدة . وكان أن لبى نداء البابوية لهذه الحملة الثالثة عدد كبير من ملوك أوربا وأمرائها . فاشترك فيها فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وفيلب الثانى ملك فرنسا وريتشارد الاول ملك انجلترا . واختار فردريك بربروسا أن يسبق زميليه ، ولكنه سلك الطريق البرى المشئوم عبر آسيا الصغرى ، فانتهى الامر بغرقه فى أحدى أنهار قيليقية سنة ١١٩٠ وتشتت رجاله بحيث لم يصل الاراضى المقدسة سوى شرذمة قليلة منهم (٢) . أما ريتشارد وفيلب فقد دب بينهما الخلاف قبل أن يبحرا الى الاراضى المقدسة ، ففسخ ريتشارد خطوبته لشقيقة فيلب واستعاض عنها بخطوبة برنجاريا أميرة نافارى . (٣) ثم حدث أثناء مسير أسطول رتشارد فى البحر المتوسط أن جنحت السفينة التى تحمل برنجاريا على شاطىء جزيرة قبرس ، فأسرها حاكم الجزيرة ، مما جعل ريتشارد يقطع رحلته ليغزو قبرس ويدخلها فى دائرة الحروب الصليبية (٤) . على أنه يلاحظ أن ريتشارد وفيلب لم يفعلا أكثر من الاستيلاء على عكا سنة ١١٩١ ثم يافا وقيسارية ، وبعد ذلك عاد فيلب الثانى ملك فرنسا الى بلاده (٥) ، فى حين قام ريتشارد فى الاراضى المقدسة ببعض أعمال البطولة التى خلدت اسمه ضمن زعماء الحروب الصليبية ، وان كان قد فشل فى الاستيلاء على

---

(1) Grousset : op. cit. Tome 2, pp. 797-799.

(2) Runciman : op. cit. Vol. 3, p. 15.

(3) Adams : op. cit. p. 366 .

(٤) أنظر كتاب (قبرس والحروب الصليبية) للمؤلف ص ٢٦ — ٢٧ .

(5) Lavisse : op. cit. Tome 3, Premiere Partie, p. 105.

بيت المقدس . وأخيرا انتهى الامر بعقد صلح الرملة بين صـــــلاح الدين وريتشارد سنة ١١٩٢ ، وفيه تم الاتفاق على أن يقتسم الصليبيون والمسلمون اللد والرملة ، وأن تهدم عسقلان لتكون منطقة حرام بين الطرفين ، على أن يحتفظ الصليبيون بساحل الشام بين صور ويافا ، فى حين يظل بـــاقى فلسطين ــ بما فيه بيت المقدس ــ فى أيدى المسلمين الذين تعهدوا بالسماح للمسيحيين بالحج والزيارة (١) .

ومع أن صلاح الدين توفى سنة ١١٩٣ الا أن ذلك لم يؤد الى تطورات هامة بالنسبة للموقف فى الاراضى المقدسة . ويبدو أن زمن تحالف القوى الاوربية العظمى من أجل الغرض الصليبى انتهى بانتهاء الحملة الصليبية الثالثة بعد أن أخذت تقوى الخلافات بين دول أوربا وحكامها ، مما أدى الى عدم ظهور اتفاقيات جديدة بين ملوك أوربا بقصد الاشتراك فى حــــرب مقدسة (٢) . وليس معنى ذلك أن تيار الحروب الصليبية قد توقف ، وانما اعتراه الفتور منذ أوائل القرن الثالث عشر نتيجة لتغلب المصالح الدنيوية على الاغراض الدينية . واذا كانت جموع الحجاج والصليبيين قد استمرت فى طريقها الى الاراضى المقدسة بعد الحملة الصليبية الثالثة . فان هذه الجموع كانت صغيرة وغير كافية لاصلاح موقف الامارات الصليبية فى الشرق .

الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر :

على أن البابوية كانت لا تستطيع السكوت عن بقاء بيت المقدس فى أيدى المسلمين ، لا سيما بعد أن نجح السلطان العادل فى جمع شمل البيت الايوبى وتحقيق سيادته العليا على مصر والشام لمواجهة الصليبيين صفا متراصا (٣) . لذلك فكر البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ ــ ١٢١٦) فى انفاذ حملة صليبية الى الشرق ، على أن تبدأ هذه الحملة أولا بمصر التى أثبتت

(1) Grousset : op. cit. Tome 3, pp. 116-117.

(2) Runciman : op. cit. Vol. 3, p. 76.

(3) Grousset : op. cit. Tome 3, pp. 164-166.

الحوادث أنها مركز قوة المسلمين فى الشرق الأدنى ومنبع مقاومتهم وأكبر مورد يستمدون منه الرجال والمال فى جهادهم ضد الصليبيين . وكان المفروض أن تحمل سفن البندقية جيوش الصليبيين الى مصر فى سبيل نصرة الغـرض الصليبى (١) لذلك ماطل البنادقة جموع الصليبيين المحتشدين فى البندقية حتى أنفقوا ما معهم من أموال ، وعندئذ لم يجدوا الاجر الكافى المتفق على دفعه للبندقية نظير نقلهم الى مصر . وكان أن وافق البابا على عمل مشين ، وهو قيام الصليبيين بغزو مدينة زارا على ساحل دالماشيا التى كان الهنغاريون قد استولوا عليها أخيرا ، واعطائها للبندقية ثمنا لنقل الصليبيين الى مصر . وفعلا تمت هذه الخطوة سنة ١٢٠٢ ونهب الصليبيون زارا ، وهى المدينة المسيحية ، مما يعتبر فاتحة فصل جديد فى تاريخ الحروب الصليبية أخذت فيه الحراب الصليبية تتجه ضد المسيحيين بدلا من المسلمين . وزاد الموقف سوءا أن زارا لم تكد تقع فى أيدى الصليبيين حتى دب الخلاف بينهم وبين البنادقة حـول اقتسام الغنائم المسيحية ، وتحول الخلاف الى نزاع مسلح انتهى باتفاق سريع بين الطرفين (٢) . وفى الوقت الذى استعد الصليبيون للابحار نحو مصر اذا بثورة تنشأ فى القسطنطينية لتؤدى الى خلع اسحق الثانى وفرار ابنه الكسيوس الى الغرب طالبا مساعدة البابوية وجموع الصليبيين (٣) . أما الثمن الذى تعهد ألكسيوس بدفعه مقابل هذه المساعدة فكان مغريا حقا ، اذ يتلخص فى اخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية فضلا عن مساعدة الصليبيين فى حملتهم ضد مصر . ومن الطبيعى أن يصادف هذا العرض قبولا من البابوية ، فى الوقت الذى وجدت فيه البندقية تحقيقا لفوائد مادية ضخمة (٤) . وهكذا تحولت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الاساسى ورسالتها الدينية ، فاستولى الصليبيون على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، ودخلوها كالجراد المنتشر ، فلم يقع بصرهم على تحفة أو ثروة الا نهبوها ، ولم يتركوا أثرا فنيا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 415-416.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣٢ .

(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 368-369.

(4) Idem.

أو أديبا الا أفسدوه ، حتى شبع منهم من كان جائما واغتنى من كان فقيرا . حتى الكنائس والأديرة لم تنج من عبث الصليبيين ولم تسلم من أيديهم ، وهم الذين حملوا شارة الصليب لخدمة الدين ومحاربة أعداء الدين (١) وليس هناك شك فى أن هذه كانت أخطر ضربة نزلت بالقسطنطينية منذ تأسيسها ، حتى أن الدولة البيزنطية لم تفق من أثرها حتى سقوطها فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ .

وبعد أن انتهى الصليبيون من دور النهب والسلب ، أخذ زعماء الحملة يوزعون الأسلاب والغنائم ، فخرجت البندقية بنصيب الأسد ، اذ فازت بربع القسطنطينية مع بعض الجزائر المهمة مثل كريت وأيوبيا وغيرها من الموانى المطلة على البحر الادريانى (٢) . أما بقية الامبراطورية فقد وزعت وفق العقلية الاقطاعية الغربية بين الأمـــراء (٣) ، وانتخب بلدوين دى فلاندرز امبراطورا ، وبذلك قامت الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية لتســـتمر حتى سنة ١٢٦١ (٤) . واذا صرفنا النظر عن الدلائل المادية والسياســـية للحملة الصليبية الرابعة ، فاننا نجد — من الناحية الأدبية — أن هذه الحملة ارتكبت جرما بالغا لا يغفره التاريخ فى حق الحضـــارة الاوربية وفى حق الفكرة الصليبية ذاتها . هذا علاوة على أن ما فعله رجال الحملة الرابعـــة أثبتت أن البيزنطيين كانوا على حق عندما نظروا منذ أول الامر الى الحروب الصليبية على أنها غزوات — بربرية همجية (٥) . ونستطيع أن نقرر أن الحملة الصليبية الرابعة تعتبر نقطة تحول مهمة فى تاريخ الحروب الصليبية بصرف النظر عن نتائجها الخطيرة بالنسبة للتاريخ الاوربى بوجه عـــام (٦) ، اذ فترت بعدها الحماسة الصليبية واتضح جليا أن المصالح الاقتصـــادية والدنيوية تحتل المكانة الاولى فى سياسة المعاصرين .

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 111-112.
(2) Idem : p. 114.
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 376-377.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 216.
(5) Eyre : op. cit. pp. 197-198.
(6) Runciman : op. cit. Vol. 3, pp. 130-131.

ومن أغرب الحملات الصليبية التى شهدها القرن الثالث عشر بعد ذلك حملة الاطفال ، اذ اجتمع عدد ضخم — قدره المعاصرون بثلاثين ألفا — من أطفال فرنسا وألمانيا وغيرهما سنة ١٢١٢ وطلبوا الذهاب الى الاراضى المقدسة لحرب المسلمين ، بعد أن ادعى صبى يشتغل برعى الغنم — اسمه ستفن — أنه تلقى رسالة من المسيح يأمره فيها بالخروج للمشاركة فى الحروب الصليبية . وقد اعتقد كثير من رجال الدين المعاصرين أن هؤلاء الاطفال الابرياء السذج سيأتون من الاعمال والمعجزات ما عجز عنه الكبار ، ولكن الامر انتهى بأن أخذ تجار البندقية هذه الآلاف من الاطفال ليبيعونهم فى أسواق الرقيق فى تونس والشرق (١) .

أما الحملة الصليبية الخامسة التى وضع مشروعها البابا أنوسنت الثالث ثم البابا هنريوس الثالث (١٢١٦ — ١٢٢٧) من بعده ، فقد اتجهت نحو مصر « رأس الأفعى » للقضاء على قوة الملك العادل الأيوبى . وكان أن نجح الصليبيون فى الاستيلاء على دمياط سنة ١٢١٩ ، ولكن أمر الحملة انتهى بالفشل بسبب الخلافات بين الصليبيين من جهة وما ارتكبوه من أخطاء فنية أثناء زحفهم من دمياط نحو القاهرة من جهة أخرى . وهكذا تم جلاء الصليبيين عن دمياط دون قيد أو شرط سنة ١٢٢١ (٢) .

على أن هذا الفشل الذى منيت به الحروب الصليبية بعد الحملة الثالثة ، زاد من غضب البابوية ورغبتها فى القيام بعمل حاسم ضد المسلمين . لذلك أخذ البابا يحث الامبراطور فردريك الثانى على القيام بحملة صليبية ، كما سهل له الزواج من وريثة مملكة بيت المقدس ليجعل له مصلحة خاصة فى الذهاب الى الشرق . وبعد أن ماطل الامبراطور طويلا ، خرج على رأس جيش صغير وهو محروم من الكنيسة سنة ١٢٢٨ (٣) . وكان أن تمكن

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٥٤ — ٩٥٦ .

(2) Grousset : op. cit. Tome 3, p. 244.

(3) Runciman : op. cit. Vol. 3, p. 179.

فردريك الثانى من عمل اتفاقية سلمية مع الملك الكامل الأيوبى ، استرد بها الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم وشريطا ساحليا ضيقا ، على أن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى ويسمح لهم بالتردد عليه (١) .

ولكن الامر لم يستقر بعد ذلك للصليبيين فى الاراضى المقدسة ، اذ اتجهت جموع الاتراك الخوارزمية غربا تحت ضغط المغول حتى استولوا على بيت المقدس — للمرة الاخيرة — سنة ١٢٤٤ ، وبذلك لم تعد هذه المدينة مرة أخرى الى قبضة الصليبيين (٢) . وفى أكتوبر من السنة نفسها ، تمكنت جيوش الصالح أيوب — تحت قيادة مملوكه بيبرس وبمساعدة الخوارزمية — من انزال هزيمة بالصليبيين عند غزة . وكانت هذه الهزيمة ساحقة وشاملة ، حتى اسماها بعض المؤرخين « حطين الثانية » ، اذ أنها أدت الى تمزيق الجيش الصليبى شر ممزق ووقوع أفراده بين قتلى وأسرى . وبعد ذلك تمكنت جيوش الصالح أيوب من الاستيلاء على دمشق سنة ١٢٤٥ ثم على عسقلان سنة ١٢٤٧ (٣) .

أما أوربا فكانت عندئذ فى شغل شاغل بحوادث النزاع بين البابوية والامبراطورية من جهة ، وبالمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أخذت تزداد وضوحا فى القرن الثالث عشر من جهة أخرى . على أن هذه المشاغل لم تمنع واحدا من ملوك أوربا المتحمسين — وهو لويس التاسع ملك فرنسا — من القيام بحملة صليبية جديدة ضد مصر سنة ١٢٤٩ (٤) . ويبدو أن لويس التاسع لم يتعظ بما حدث للحملة الخامسة قبل ذلك بثلاثين سنة ، فوقع فى نفس الاخطاء التى تردت فيها تلك الحملة سنة ١٢١٩ ، مما أدى الى هزيمة الفرنسيين وأسر لويس التاسع نفسه قرب المنصورة . وهكذا

---

(1) Cam .Med. Hist. Vol. 5, pp. 314-315.

(2) Grousset : op. cit. Tome 3, p. 412.

(3) Idem : Tome 3, pp. 418-421.

(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 99.

باءت الحملة الصليبية السابعة التى قام بها لويس التاسع على مصر بالفشل ، ولم يطلق سراح القديس لويس نفسه الا سنة ١٢٥٠ بعد أن دفع فـداء كبيرا (١) .

نهاية الحروب الصليبية :

وأخيرا أدرك غرب أوربا أن الثمن الذى يدفعه فى الحروب الصليبية باهظ لا يعادل الفوائد التافهة التى حصل عليها (٢) ، فأخذ الاوربيون يوجهون نشاطهم نحو ميادين أخرى أجدى عليهم وأنفع لهم ، فى حين رأى البابوات أن يستغلوا ما تبقى من حماسـة دينية عند الغربيين فى تحقيق مآربهم السياسية . وهكذا تركت الاراضى المقدسة لتصبح ميدانا للتنافس التجارى بين البنادقة والبيازنة والجنوية ، هذا عدا ما استمر بها من منازعات بين الأمراء اللاتين وبين الهيئات الدينية العسكرية (٣) .

ويبدو أن ما آل اليه أمر الصليبيين فى الاراضى المقدسـة من ضعف وانحلال كان خير مشجع لسلاطين المماليك على الاجهاز عليهم . من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) من الاستيلاء على كثير من الحصون الصليبية على ساحل الشام وفى داخلها ، حتى سقطت أنطاكية فى يده سنة ١٢٦٨ (٤) . كذلك استولى بيبرس على حصن الاكراد معقـل الاسبتارية سنة ١٢٧١ كما أجبر امارة طرابلس على دفع جزية ، ثم جاء السلطان قلاون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) فاستولى على طرابلس نفسها سنة ١٢٨٩ وبذلك لم يبق للصليبيين من المعاقل المهمة بالشام سوى عكا التى لم تلبث أن سقطت هى الاخرى فى يد السلطان الاشرف خليل بن قلاون سنـة ١٢٩١ (٥) .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٥ ص ١٠٧٣ ، ١٠٨٤ .

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages. p. 219.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 312-313.

(4) Runciman : op. cit. Vol. 3, p. 325.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٤ — ١١٨٤ .

وهكذا دالت دولة اللاتين فى الاراضى المقدسة ، فأخذ مختلف المنظمات والهيئات الصليبية كالفرسان التيتون والداوية والاسبتارية تبحث لها عن منفذ أو مأوى جديد . أما الفرسان التيتون فاتخذوا الجهات الوثنية فى شمال أوربا ميدانا لنشاطهم (١) ، فى حين استولى الاسبتارية على رودس سنة ١٣٠٩ واحتفظوا بها حصنا من وجه الاتراك العثمانيين حتى أواخر القرن الخامس عشر . على أنه يبدو أن مثل هـذه الفرص لم تتح للداوية ، لأن ثروتهم وكبرياءهم أثارت حقد المحيطين بهم فتعرضوا لاضطهاد شديد فى أوائل القرن الرابع عشر حتى اختفوا وانتهى دورهم (٢) . وبذلك انتهت قصة الحروب الصليبية التى تعتبر من أبرز صفحات تاريخ التفاعل بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . حقيقة ان النشاط الصليبى ضد المسلمين — سواء فى مصر والشام وشمال أفريقية أو فى آسيا الصغرى أو فى أسبانيا — استمر فى القرن الرابع عشر والخامس عشر ، كما دأب البابوات على أصدار الاوامر بمقاطعة التجارة مع المسلمين واستغلوا موقع جزيرة قبرس وحماسة ملوكها من آل لوزجنان فى تنفيذ بعض أركان هذه السياسة (٣) . ولكننا مع كل ذلك نستطيع أن نحكم بأن الحروب الصليبية بمعناها المحدود الضيق انتهت بنهاية القرن الثالث عشر .

وليس من العسير علينا أن نعلل فشل هذه الحروب بعد أن رأينا ما كان من سوء نظام الصليبيين ، وعدم توحيد قيادتهم وكثرة المنازعات والحروب فيما بينهم وعدم تورعهم عن السلب والنهب أثناء زحفهم ، فوق ما كانوا عليه من عدم تعاون مع الدولة البيزنطية بسبب تخوفها من نواياهم وأطماعهم (٤) .

فالصليبيون تعرضوا فى الطريق البرى الى الاراضى المقدسة للجـوع والهلاك والموت ، فلما أعرضوا عن هذا الطريق وأرادوا اتخاذ البحر طريقا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 333.

(2) Eyre : op. cit. pp. 473-474.

(٣) أنظر كتاب (قبرس والحروب الصليبية) للمؤلف .

(4) Thompson : op. cit, Vol. 1, p. 536.

لهم لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم واقعين تحت رحمة المدن الايطالية البحرية ، التى عرفت بضعف الوازع الدينى والتى استغلت الحروب الصليبية لتحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب الاقتصادية .

وأخيرا يأتى أهم الاسباب التى أفضت الى فشل الحروب الصليبية ، وهو تطور الاوضاع فى أوربا نفسها . فالحروب الصليبية نجحت فى أول أمرها عندما كانت أوربا تربطها فكرة واحدة هى فكرة الامبراطورية العالمية والكنيسة العالمية . ولكن التفكك السياسى الذى أصاب وحدة الغرب نتيجة لظهور الملكيات القومية المتنافسة ، كان العامل الرئيسى فى تصدع جبهة الحروب الصليبية كما ظهر ذلك بوضوح فى الخلاف بين فيلب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا أثناء الحملة الصليبية الثالثة (١) . والغريب أن هذا الا الانقسام الذى أصاب أوربا فى الغرب جاء فى الوقت نفسه الذى اتحد المسلمون فى الشرق وكونوا الجبهة الاسلامية المتحدة التى امتدت من اعالى الفرات حتى مصب النيل لمواجهة الخطر الصليبى .

نتائج الحروب الصليبية وآثرها فى غرب أوربا :

ولكن اذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت فى تحقيق أهدافها الأولى ، الا أنها تركت أثرا بعيدا فى تاريخ أوربا وتطورها . ذلك أنها أدت من الناحية السياسية الى أضعاف أمراء الاقطاع لان كثيرا منهم احتاجوا الى المال للمساهمة فى النشاط الصليبى فباعوا الحرية لكثير من أتباعهم والمدن التابعة لهم مما أدى الى تصدع النظام الاقطاعى من جهة وتحرر المدن وازدياد نفوذها ، فضلا عن ازدياد قوة الملوك من جهة أخرى (٢) . هذا الى أن الحروب الصليبية أظهرت فى وضوح — لأول مرة — روح التنافس والفوارق بين مختلف الشعوب الاوربية كالفرنسيين والانجليز والألمان كما زادت من

---

(1) Eyre : op. cit. p. 194.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 598.

حدة الانقسام بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى (١) . أما البابوية فقد أتاحت لها الحروب الصليبية فرصة طيبة لاظهار زعامتها على العالم الاوربى وتأكيد هذه الزعامة ، ومن ثم أدت هذه الحروب الى ازدياد سلطان البابوية واتساع نفوذها (٢) .

وفى الناحية الاقتصادية أدت الحروب الصليبية الى تشجيع النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، اذ استغلت المدن الايطالية هذه الحروب فى احتكار أحياء تجارية بأكملها فى موانى الشام ومدنها واتخذتها قواعد لمباشرة نشاطها التجارى (٣) . على أن النشاط التجارى الذى أثارته الحروب الصليبية لم يقتصر على المدن الايطالية وحدها بل أسهم فيه كثير من مدن غرب أوربا الاخرى مثل مرسيليا وبرشلونة وبعض مدن الشمال . ولا شك فى أن هذه الثروة التى تدفقت على المدن الاوربية ساعدت على تقدم أساليب التجارة والمحاسبة ومسك الدفاتر والاعمال المصرفية ، وهى النواحى المرتبطة بالنشاط التجارى (٤) .

ومن الناحية الاجتماعية ساعدت الحروب الصليبية على ظهور طبقات جديدة فى المجتمع الاوربى نتيجة لتناقص الاقنان وازدياد نفوذ البورجوازية وظهور نفوذ المدن . هذا الى أن الثروة التى تدفقت على غرب أوربا كان لها أثرها فى زيادة السكان وتطور الحياة ولا سيما فى المدن حيث ظهر الاتجاه نحو الترف والتنعم ، فأخذ الاوربيون مثلا يحاكمون الشرقيين فى شغفهم بالاستحمام وعنايتهم بالحمامات . كذلك يرجح أن أوربا عرفت عن طريق الحروب الصليبية حاصلات جديدة شرقية لم تسبق معرفتها (٥) .

ويميل بعض الكتاب الى المبالغة فى النتائج الثقافية للحروب الصليبية ، فيقولون أن هذه الحروب ساعدت غرب أوربا على معرفة الكثير من علوم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 330.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٧٦ - ١٢٧٧ .

(3) Eyre : op. cit. p. 991.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 327-328.

(5) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 598-599.

العرب فضلا عن معارف اليونان التى ترجمها العرب الى لغتهم . على أننا مع اعترافنا بأهمية الحروب الصليبية فى ميدان التبادل الفكرى ، الا أنه ينبغى أن نذكر دائما أن الصليبيين قدموا الى الاراضى المقدسة محاربيين لا طلاب علم ، وأن ظروف اقامتهم فيها تطلبت اليقظة والحذر مما يستبعد معه تمتعهم بشىء من حياة الهدوء والاستقرار التى لابد منها لمباشرة النشاط العلمى (١) . واذا كانت أوربا قد أخذت الكثير من علوم العرب فى عصر الحروب الصليبية فانه من الأرجح أن تكون ميادين الاتصال فى أسبانيا وصقلية لا الاراضى المقدسة (٢) . أما الحروب الصليبية فأثرها واضح فى أنها أتاحت للغربيين فرصة للوقوف على فن بناء الحصون العربية ، وربما بعض أساليب الحياة العامية عند المسلمين .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٦٩ ـ ١٢٧٢ .

(2) Eyre : op. cit. p. 200.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 332.

الباب السابع عشر

انجلترا بعد الغزو النورمانى

أثر الفتح فى انجلترا :

تنظر الدراسات التاريخية الحديثة الى الفتح النورمانى لانجلترا سنة ١٠٦٦ على أنه أخطر من مجـــرد غزوة حربية قام بها فريق من المغامرين للسيطرة على بلد من البلاد وادخاله تحت حكمهم . حقا أن غالبية هـــؤلاء المغامرين الذين نجحوا فى فتح انجلترا وفدوا من نورمنديا ، ولكنهم جروا فى ركابهم عددا كبيرا من الناطقين بالفرنسية ، وهؤلاء شاركوا فى عملية الفتح ثم أخذوا نصيبهم من الغنائم والاراضى المفتوحة وانتشروا فى البلاد ليتركوا أثرا أعمق من مجرد الاثر الحربى . هذا الى أن النورمان أنفسهم الذين غزوا انجلترا فى القرن الحادى عشر كانوا قد أصبحوا فعلا قبل ذلك الغزو جزءا من الامة الفرنسية الناشئة بعد أن اســـتقروا فى نورمنديا وتأثروا بعوامل البيئة الجديدة وحضارتها ، حتى أصبح الغزو النورمانى لانجلترا فى حقيقة جوهره غزوا فرنسا حضاريا (١) . ولا عجب فقد زود هذا الغزو انجلترا بأسرة حاكمة فرنســـية ، وهيئة من النبلاء وكبار رجـــال الدين الفرنسيين ، وطبقة من الناطقين بالفرنسية باشرت شئون الحكم والنشاط التجارى .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن النتيجة الحقيقية للغزو النورمانى هى اخراج بريطانيا من عزلتها النسبية ، وتقوية الصلات بينها وبين القارة ، وجعلها عضوا عاملا فى تطور الحضارة الغربية ، تتأثر بكل حركة حضارية مهمة

---

(1) Tout : France and England. p. 50.

تنشأ فى الغرب وتؤثر فيها . فالغزو النورمانى هو الذى أدى الى تور النظام الاقطاعى فى انجلترا تطورا مشابها لما كان عليه الحال فى غرب أوربا وبخاصة فى فرنسا . وبعبارة أخرى فان هذا الغزو هو الذى أدى الى تطور الاوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية فى انجلترا تطورا مشـــابها لتلك الاوضـــاع التى عرفت فى غاليا (١) .

وفى ركاب الحكام والمحاربيين النورمان ، أتى رجال الكنيسة من خريجى أديرة فرنسا الشهيرة ليتركوا أثرا عميقا فى حياة الجزر البيزنطية . وحسبنا أن لانفرانك وأنسلم وثيوبالد — وهم الذين تولوا رآسة أسقفية كانتربورى بالتتابع فى أوائل العصر النورمانى — كانوا جميعا ينتمون الى دير بك Bec الشهير فى نورمنديا . هذا بالاضافة الى أن حركة الاصلاح الكنسية التى ارتبطت باسم هلدبراند (جريجورى السابع) تدفقت مبادئها — الخاصة بتحرير الكنيسة ورجالها من سيطرة الدولة وبتوسيع دائرة القانون الكنسى ، واختصاصه — على انجلترا عن طريق فرنسا . وقد نشأ من ذلك فى انجلترا — بعد الفتح النورمانى — حركة اصلاحية كنسية واسعة ، فأخذ كبـــار أساقفة كانتربورى يصطدمون بالملوك من خلفاء وليم الفاتح فى سبيل الاحتفاظ بكلمة الكنيسة وسيادتها على شئونها ، وبدأت روح جديدة تدب فى الديرية الانجليزية وفق المثل التى سارت عليها الأديرة العظيمة فى فرنسا . وهكذا أصبح من اليسير أن تمتد حركة الاحياء الديرية — التى ظهرت فى أوائل القرن الثانى عشر — من فرنسا الى انجلترا على عهد هنرى الأول ، فأسست هيئتا السسترشيان والكارثوسيان — وكلاهما ولد فى برجنديا — أولى مؤسساتهما الديرية فى انجلترا بالذات (٢) .

ومع الفتح النورمانى وصل الى انجلترا طراز فنى جديد هو الطراز الرومانسيكى الذى عرفه الانجليز باسم النورمانى ، والذى حل محل الطراز

---

(1) Idem : p. 53.

(2) Idem : p. 56.

الأنجلو سكسونى . وهكذا أخذت تنتشر فى أنحاء انجلترا منذ القرن الحادى عشر الكنائس والاديرة الرومانسكية والقصور الرومانسكية الضخمة لتحل محل المبانى الأنجلو سكسونية الكئيبة المعتمة . وظل هذا الطراز الرومانسكى — أو النورمانى — سائدا فى انجلترا حتى ظهر الفن القوطى قرب منتصف القرن الثانى عشر لينتقل هو الاخر من فرنسا الى انجلترا (١) .

ويطول بنا الشرح لو حاولنا تتبع أثر الغزو النورمانى لانجلترا فى مختلف الميادين كاللغة والأدب والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادى ، ولذلك نكتفى بالاشارة الى أن هذا الاثر كان عظيما . ففى الناحية اللغوية أصبحت الفرنسية لغة بلاط ملوك انجلترا النورمان ، وأخذت تتغلغل تدريجيا بين ثنايا لغة البلاد ذات الطابع السكسونى ، حتى نشأ عن الامتزاج بين اللغتين — فى أواخر القرن الرابع عشر — ما أصبح يعرف باللغة الانجليزية . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن الاثر الاجتماعى الذى نشأ عن الامتزاج بين الغزاة النورمان وأهالى البلاد الاصليين ، مما ظهرت آثاره فى نواحى الحس والتقاليد والعادات .

ومهما يكن الأمر ، فمن الواضح أن أعظم نتائج الفتح النورمانى بالنسبة لانجلترا ظهرت فى الميدان السياسى . ويكفى أن هذا الفتح تمخض عن قيام أقوى دولة منظمة شهدتها أوربا فى أوائل القرن الثانى عشر . ولا غرو فقد استطاع النورمان أن يثيروا فى جميع البلاد التى فتحوها — سواء كانت انجلترا أو غير انجلترا — قسطا من النشاط والحيوية ترك أثرا واضحا فى تطورها التاريخى . وتبدو هذه الظاهرة أشد ما تكون وضوحا فى تاريخ انجلترا ذاتها ، وهو التاريخ الذى تأثر الى درجة عظيمة بالفتح النورمانى سنة ١٠٦٦ .

---

(1) Idem : pp. 57-69.

وليم الفـــاتح :

كان حكم وليم الفاتح لانجلترا استبداديا مطلقا بكل معانى الكلمة ، بوصفه قائد الغزاة النورمان من جهة وحامى أهالى البلاد الأصليين من جهة أخرى ، ومن ثم استطاع أن يؤكد سيطرته على الفريقين (١) . والواقع أن أولى المهام التى واجهت وليم النورمانى عقب نجاحه فى غـــزو انجلترا كانت العمل على توطيد نفوذه وتدعيم سلطان الملكية تدعيما قويا لم تعهده البلاد من قبل . ولتحقيق ذلك أخضع الثورات والفتن التى نشبت ضـــده وأهمها ثورة فى شمال انجلترا سنة ١٠٧٠ كما قام باحصاء شامل لثروة البلاد وتوزيعها ، وعدد الافراد وممتلكاتهم ، وهو الاحصاء الشهير المعروف باسم Domesday Book (٢) . وقد مكن هذا الاحصاء وليم الفاتح من الوقوف على أحوال بلاده بدرجة لم تتح لملك آخر من ملوك أوربا العصور الوسطى ، كما يعتبر مصدرا أساسيا هاما فى دراستنا التاريخية لأحوال انجلترا فى تلك العصور . وهكذا استطاع وليم الفاتح أن ينظم حكومة انجلترا تنظيما اقطاعيا امتاز بالحيوية والقوة ، فأعلن نفسه المالك لجميع أراضى البلاد بحق الفتح (٣) ، وصادر أراضى من قاومه من أمراء السكسون ، ووزعها على أتباعه النورمان فى هيئة منح صغيرة مع مراعاة عدم تكتل أراضى أى أمير فى منطقة واحدة (٤) . ومن هذا يبدو كيف حرص وليم الفاتح على اضعاف نفوذ كبار الأمراء كما فرض على أفصال هؤلاء الامراء أن يقسموا يمين الولاء والتبعية للملك مباشرة . وكان لملوك انجلترا قبل الفتح النورمانى مجلس استشارى يضم بعض رجال الدين والنبلاء ، ولكن هذا المجلس كان مفككا ، فاستبدل به وليم الفاتح مجلس الملك **Curia Regis** **الذى** تألف من كبار الأمراء — وهم أفصال الملك الاقطاعيون — وجعل اختصاصه

---

(1) Orton : op. cit. 191.

(2) Adams : The Hist. of England, pp. 67-68.

(3) Stephenson : Med. Hist. p. 250.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 506.

قضائيا زيادة على بعض الأعمال الأخرى ، وفقما تقضى التقاليد الاقطاعية السائدة فى نورمنديا (١) . ولما كان هـذا المجلس الكبير يجتمع عـادة فى فترات متقطعة متباعدة ، فان الملك أنشأ هيئة أخرى أصغر تجتمع بصفة مستمرة منتظمة ، كما عين على رأس الجهاز القضائى موظفا دائما Justiciar .

أما عن موقف وليم الفاتح فى الكنيسة فيلاحظ أنه عـلى الرغم من المساعدة التى لقيها من البابوية الا أنه رفض أن يقسم يمين التبعية للبابا جريجورى السابع ، وأن يحكم انجلترا كاقطاع من البابوية (٢) . كذلك رفض وليم الاول نشر المراسيم البابوية أو السماح للبابا بتوقيع قرار الحرمان ضد كبار نبلائه دون استئذانه والحصول على موافقته . وهكذا مضى وليم الفاتح فى طريقه يعين الأساقفة ومقدمى الأديرة فى انجلترا ، غير عابىء بغضب البابوية واحتجاجها . على أنه من الانصاف أن نذكر أن وليم شمل الكنيسة فى انجلترا بعطفه وعمل على تدعيمها عندما خول المحاكم الكنسية حق الفصل فى المخالفات الدينية التى يرتكبها العلمانيون ، بعد أن كانت دور القضـاء المحلية هى التى تفصل فى هذا النـوع من المخالفات (٣) . كذلك عين لانفرانك — راهب ديربك Bec الشهير — رئيسا لأسقفية كانتربورى وساعده على تنفيذ الاصلاحات الدينية التى نادى بها هلدبراند ، كما شجع الديرية وأسس مدارس جديدة يشرف عليها مـدرسون من النورمان (٤) .

وليم الثانى وهنرى الاول :

أما وليم الثانى (١٠٨٧ — ١١٠٠) فقـد تطرف فى معاملة الكنيسة ، مما هدد بوقوع صدام عنيف بين الطرفين ، لولا وفاة لانفرانك . على أن

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 251.

(2) Adams : op. cit. p. 49.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 515-516.

(4) Adams : op. cit. pp. 43-46.

أنسلم — رئيس أساقفة كانتربورى التالى — أصر على مبدأ سمو الكنيسة حتى أنه فضل ترك البلاد بمحض اختياره على التنازل عن رأيه (١) . وهكذا أوشكت العلاقات بين الكنيسة والدولة فى انجلترا أن تنذر بصدام عنيف يساير تيار النضال الذى اشتد بين البابوية والامبراطورية فى ذلك العصر حول التقليد العلمانى . واذا كانت هذه المشكلة قد أمكن حلها بسهولة فى انجلترا ، فالفضل فى ذلك يرجع الى هنرى الأول (٢) ، الذى تولى الحكم بعد ذلك (١١٠٠ — ١١٣٥) فدعا أنسلم الى العودة الى انجلترا لمحاولة اصــــلاح الموقف . وقد أبى أنسلم عند عودته أن يقدم فروض التبعية للملك عن أراضى الكنيسة ، كما رفض أن يعترف بالأساقفة الذين عينهم هنرى فى مناصبهم . وأخيرا تم الاتفاق على حل صورى يتضمن اعتراف الأساقفة بالتبعية للملك فى الشئون الدنيوية ، مقابل تنازل الملك عن حق تقليد الاساقفة مهام مناصبهم الدينية (٣) .

وكان هنرى الاول اداريا ممتازا وحاكما قويا ، فأخضع ثورة قام بها البارونات فى انجلترا ، كما غزا نورمنديا وقبض على أخيه الثائر (٤) . أما انجلترا فتمتعت فى عهده بالسلام والأمن بعد أن عمل هنرى على تركيز الأداة الحكومية فى ظل ادارة مركزية قوية . ذلك أنه جعل للمجلس الملكى صفة مالية ، وأصبح المشرفون الاداريون (Sheriff) الذين يمثلون الملك فى مختلف الاقاليم ، يحضرون سنويا أمامه لتقديم حصيلة ما جمعوه من ضرائب . كذلك خصص هنرى الاول بعض أعضاء هــذا المجلس للطواف فى أنحاء البلاد والاشراف على الموظفين الاداريين والعمل على توطيد سلطان الملكية (٥) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 526.

(2) Tout : France and England p. 54.

(3) Adams : op. cit. p. 147.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 184.

(5) Adams : op. cit. p. 147.

هنـــرى الثـــانى :

وقد أعقبت وفاة هنرى الاول فترة نزاع وحروب أهلية سببها الخلاف حول وراثة العرش ، حتى انتهت بقيام هنرى الثانى فى الحكم (١١٥٤ — ١١٨٩) . وامتاز هذا الملك الجديد بالذكاء والطموح وقوة العزيمة ، فنشر الأمن فى انجلترا ومنع الأمراء من شحن حصونهم بالمقاتلين دون اذنه ، كما حطم كثيرا من هذه الحصون الاقطاعية . وقـــد وضع هنرى الثانى نظاما اداريا يستهدف اصلاح الادارة لا فى انجلترا فحسب ، بل فى بقية ممتلـــكات انجلترا أيضا فى القارة (١) ، كذلك أدخل هنرى الثانى بعض الاصلاحات المالية والقضائية ، وأهمها التوســـع فى تحليف الاهالى عند الادلاء بشهادتهم أمام القضاء ، فـــكان اثنا عشر رجلا يقسمون مشتركين على التصريح بما يعرفونه عن الجرائم المحلية ، مما يعتبر أصلا لنظـــام المحلفين الذى أشتهر به القضاء الانجليزى (٢) .

على أن هنرى الثانى لم يصادف توفيقا فى حـــل المشاكل المترتبة على ازدياد نفوذ رجال الدين . ذلك أن الـــكنيسة فى انجلترا استغلت فرصة الحروب الأهليـــة التى أعقبت وفاة هنرى الأول وضـــاعفت من نفوذها وممتلـــكاتها . وساعدها على ذلك أزدهار القـــانون الـــكنسى فى القرن الثانى عشر مما زاد من سلطان المحـــاكم الدينية ، حتى أصر رجال الدين على ألا يحـــاكموا إلا أمام المحاكم الـــكنسية وحدها (٣) . لذلك اختار هـــنرى الثانى لمنصب رئيس أساقفـــة كانتربورى صديقـــه ومستشاره الوفى توماس بكت ، مؤملا أن يؤدى هذا الاختيار الى احكام سيطرته على رجال الدين . على أن بكت لم يـــكد يتولى ذلك المنصب حتى أظهر تمسكه الشديد بحقوق الـــكنيسة وسموها وسيادة القـــانون الـــكنسى . وقد استمر بكت يقاوم هـــنرى الثانى حتى أعياه الأمر فنزح أخيرا الى فرنسا حيث أقام ست سنوات ، وجد فيها تشجيعا من ملـــكها

---

(1) Tout : France and England, p. 68.
(2) Adams : op. cit. pp. 322-323.
(3) Stephenson : Med. Hist. p. 422.

لويس السابع (١) . وأخيرا استرضى هنرى الثانى بكت فعاد الى انجلترا ليصدر فـور وصوله قرار الحرمان ضـد بعض الاساقفة الذين ناصروا الملك . وعندما علم هـنرى الثانى بهذا الخبر اعـتراه الغضب ودفعته ثورته الى توجيه اللوم الى فرسان بلاطه الذين لم ينتقموا له من « هذا القسيس المشاغب » . وكان أن استثارت تلك الألفاظ أربعة من فرسان الملك فهجموا على بكت وقتلوه فى كتدرائية كانتربورى (٢) . وقـد أثار مقتل بكت على هـذه الصورة ثورة الرأى العام الذى اعتـبره قديسا وشهيدا ، واضطر هـنرى الثانى أن يحنى رأسه أمام الزوبعة فأقسم على أنه برىء من دم بكت ، كما وعـد باحترام حقوق الـكنيسة ورجالها وأن يسمح باستئناف القضايا أمام المحكمة البابوية (٣) .

أما سياسـة هنرى الثانى الخارجية فلم يوفق فيها هى الأخرى . ذلك أنه أجبر الولشيين فى ويلز على الاعتراف بسلطة الملك وسيادته ، ولكن فشل فى السيطرة عـلى نبلائه فى أيرلندا ، وهم الذين رفضـوا الاتحاد فى ظل حكومة مركزية وواصلوا اعتدائهم على الايرلنديين واساءة معاملتهم مما جعل الجزيرة مسرحـا للفوضى والاضطرابات (٤) . وقـد ازداد نفوذ هنرى الثانى ازديادا كبيرا فى القارة بعد أن زوج بناته الثلاث من دوق سكسونيا وملك قشتالة وملك صقلية على التوالى ، مما أدى الى نتائج بعيدة المدى فى السياسـة الأوربية (٥) . أما فيما يتعلق بأملاكه فى فرنسا ، فان هنرى الثانى اضطر الى اخضاع الأمراء الاقطاعيين الـذين ثاروا بتحريض من لويس السابع ثم فيليب أوغسطس ملكى فرنسا . وقد لجأ هنرى الثانى الى تقسيم ملكه بين أبنائه الثلاثة على أن تكون انجلترا ونورمنديا لابنه الاكبر هنرى ، واكوتين لابنه الثانى ريتشارد ، فى حين تزوج ابنه الثالث جيوفرى من وريثه بريتانى مما أدى الى ربط هـذا الاقليم

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 251.
(2) Adams : op. cit. p. 295.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 566.
(4) Adams : op. cit. pp. 279-299.
(5) Stephenson : Med. Hist. p. 523.

الأخير بالتاج الانجليزى (١) . ولكن حدث سنة ١١٧٣ أن ثار أبناء هنرى الثانى وهم هنرى وريتشارد وجيوفرى ضد أبيهم ، وشاركهم فى ثورتهم كثير من أمراء انجلترا والممتلكات الانجليزية فى فرنسا . ولكن هنرى الثانى اخضع أمراء انجلترا الثائرين وقبض على ملك سكتلند الذى ســـاندهم وأجبره على الدخول فى تبعية التاج الانجليزى . أما أبناؤه فقد صالحهم حتى توفى اثنان من هؤلاء الابناء فى حين عاد ريتشارد الى الثورة سنة ١١٨٨ بتحريض من فيلب أوغسطس ملك فرنسا (٢) . ويبدو أن هـــذه الاحداث أثرت فى نفس هنرى الثانى فى وقت أدركه الكبر ، مما عجل بوفاته فى العام التالى (١١٨٩) (٣) .

ريتشـــارد الأول :

ثم كان أن خلف ريتشارد الاول أباه فى الحكم (١١٨٩ — ١١٩٩) وعرف هذا الملك الجديد بشجاعته وحبه لأعمال البطولة والقتال مع اتصافه بالعنف والقســـوة . وفى خلال الســـنوات العشرة التى تولى فيها الحكم لم يقض فى انجلترا أكثر من سنة ، اذ تردد عليها مرتين قضى فى كل مرة بضعة أشهر نجمع الأموال (٤) . ذلك أنه بعد الاحتفال بتتويجه الذى تم مصحوبا بسفك دماء اليهود القادمين لتقديم الهدايا له (٥) ، أبحر ريتشارد الى الاراضى المقدسة ليشـــارك فى الحملة الصليبية الثالثة . على أن الخلاف لم يلبث أن اســـتحكم بين ريتشـــارد وفيلب أوغسطس فى الاراضى المقدســـة فعاد الأخير الى فرنسا وعـــاد الاول الى انجلترا ليجمع الاموال ويستعد لنزال ملك فرنســـا . وعندما أكمل ريتشـــارد استعداداته أبحر الى فرنســـا حيث حارب ببطولة لانقاذ ممتلكـــات التاج الانجليزى فى فرنســـا ، حتى

---

(1) Orton : op. cit. p. 248.

(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Premiere Paritn, pp. 90-92.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 572.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 266.

(5) Coulton : Life in the Middle Ages, Vol. 2, pp. 31-33.

انتهى الامر باصابته بجرح خطير فى ليموســــان ووفاته متأثرا بجراحه سنة ١١٩٩ (١) .

الملك حنــا والعهد الأعظم :

وقد خلف ريتشـــارد أخوه حنا (١١٩٩ — ١٢١٩) الذى استطاع غريمه فيلب أوغسطس سلبه معظم أملاكه فى فرنســا سنة ١٢٠٤ كما سبق أن ذكرنا . وعلى الرغم مما عرف به حنا من عنف وقســوة وســوء تدبير وعــدم مقدرة وتهور ، الا أن أخطاءه الكبرى جعلته يحتل مكانة بارزة فى التاريخ (٢) . ذلك أنه حدث سنة ١٢٠٥ أن انتهز رجال الدين فى انجلترا فرصة شغور منصب رئيس أساقفة كانتربورى وتحايلوا ليتجنبوا تــدخل الملك فى انتخاباتهم ، فاختاروا — سرا — رئيســا لأســاقفة كانتربورى ، وأرسلوه — دون أن يعلم الملك — الى روما ليقلده البابا أنوسنت الثالث مهام منصبه رسميا (٣) . وفى تلك الاثناء عين الملك حنا رجلا آخر لشغل هــذا المنصب وأرسله أيضا الى روما حيث التقى مع منافسه ، فأعرض البابا عنهما جميعا وعين ستفن لنجتون رئيسا لاساقفة كانتربورى . وكان أن رفض الملك قبول ستفن فى هذا المنصب ، مما أثار سوء تفاهم بينه وبين البابوية حتى انتهى الأمر بأن أصدر البابا قرار الحرمان ضده سنة ١٢٠٨ لقســوته وقتله أحــد رجال الكنيسة (٤) . ولم يلبث البابا أنوسنت الثالث أن أعلن عــزل الملك حنا وأباح لرعاياه التحرر من طاعته والولاء له ، فرد حنا على ذلك بالاستيلاء على جميع أملاك الكنيسة فى انجلترا . وقد ظل الموقف معلقا بين الملك حنا والبابوية خمس ســنوات ، وكان من الممكن أن يستطيع حنا الثبات فى موقفه لو أنه محبوب من شــعبه ولكن أساليبه التعسفية جعلته مكروها لا يستطيع الاعتماد على أمــرائه فى

---

(1) Adams : op. cit. Ps. 378-386.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 218-219.

(3) Stephenson : Med. Med. Hist. pp. 430-431.

(4) Adams : op. cit. p. 419.

الداخل فى الوقت الـــذى أخذ فيليب أوغسطس يستعد لغزو انجلتـــرا بتحريض من البابوية وأعد لذلك أســـطولا ضخما من ألف وخمســـمائة سفينة (١٢١٢ — ١٢١٣) (١) وهكذا اضطر الملك حنا الى الاذعان أخيرا (سنة ١٢١٣) لرغبة البابا فقبل ستفن لانجتون رئيسا لاساقفة كانتربورى ، ورد أراضى الكنيســـة المصادرة ، كما اعترف بسيادة البابـــوية وتعهد بتقديم مبلغ سنوى لها رمزا لهذه التبعية (٢) .

وبعد ذلك انضم حنا الى الحلف الكبير الذى ألفه الامبراطور أوتو الرابع وكونت فلاندرز ضد فيليب أوغسطس ملك فرنســـا . وعندما رفض أمراء انجلترا مســـاعدة ملكهم فى حربه الجديدة ، أبحر هـــو الى فلاندرز على رأس طائفة من الجند المأجورين (٣) . ولكنه لم يلبث أن عاد الى بلاده بعد أن أنزل فيليب أوغسطس الهزيمة بجيوش الحلفاء فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤ . وكان استياء البارونات الانجليز قد بلغ أشده عندئذ ، ولا سيما عندما طالب حنا بفرض ضريبة جديدة تساعده على استئناف الحرب ضـــد فرنسا (٤) . لذلك تكتل الامراء وقـــدموا قائمة بمطالبهم الى الملك حنا الذى أخذ يماطل فى أول الامر حتى استكشف عجزه عن أغراء رجال الكنيسة أو أهالى لندن بمساعدته . وهنا احتل البارونات لندن واضطروا الملك حنـــا على الموافقة على العهد الاعظم ودمغه بالخاتم الملكى فى ١٥ يونيو ســـنة ١٢١٥ (٥) .

والواقع أن العهد الاعظم هـــذا لا يعتبر وثيقة جديدة فى موضوعها تحقق الحرية للشعب ، كما يبدو لأول وهلة . وحسبنا أن العهد الاعظم لم يتعرض لذكر أهل الريف الذين ألفوا ثلاثة أرباع سكان انجلترا فى ذلك الوقت . وربما كان أقرب الى الصواب أن نعتبر العهـــد الاعظم وثيقة

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Premiere Partie, p. 162.

(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 431-432.

(3) Barraclough : op. cit. p. 213.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 244-245.

اقطاعية تتجه فى جوهرها نحو تنظيم العلاقة بين الملك وكبار الامـــراء الاقطاعيين (١) . ذلك أنه أورد حقوق الامراء القديمة مفصلة ، كما نص على احترام حقـوق الكنيسة ولا سيما فيما يتعلق بانتخاب القساوسة ، وحرم على الملك جمع اتاوات دون موافقة المجلس الكبير ، باستثناء عـدة حالات مثل أسر الملك أو الاحتفال بتدشين أكبر أبنائه فارســا أو زواج كبرى بناته (٢) . أما لندن وغيرها من المدن فقـد ضمن لها العهـد الاعظم حقوقها وامتيازاتها القديمة ، كما سمح للتجار بدخول البلاد ومباشرة نشـاطهم دون أن يتعرضـوا لشىء من الازعـاج والمضايقات . وفى حالة استيلاء الدولة على بعض الممتلكات للصالح العـام ، فان أصحابها يجب أن يعوضوا تعويضـا كافيا . أما فى الناحية القضائية فقـد نص العهد الاعظم عـلى عـدم الاكتفاء بالشبهات والاقاويل لالصاق تهمة بشخص معين ، وانما يتحتم أن يأتى الشهـود بأدلة دامغة على هـذه التهمة ، كذلك نص عـلى أن تتناسب العقـوبة مع الجريمة مع أبطـال بعض العقـوبات الوحشية (٣) .

على أن أهم مادتين فى العهـد الاعظم هما المادة التاسعة والثلاثون والمادة الأربعـون . أما المادة التاسعة والثلاثون فتنص عـلى أنه لا يجوز القبض عـلى أى شخص حر أو سجنه أو سلبه ممتلكاته أو حرمانه من حماية القانون أو نفيه أو ايذائه بأى وجه من الوجوه الا بعد محاكمته أمام محكمة من أنداده وفق أحكام القوانيين المعمول بها (٤) . وأما المادة الاربعين فيتعهد فيها الملك بالا يبيع حقا لاحد الافراد أو ينكره أو يماطل فيه . وربما كان أهم من هـذا كله ما يفهم ضمنا من العهد الاعظم من أن الملك خاضع للقانون ، وأن القانون فوق الملك الذى لا يملك حق الخروج عليه ، فاذا حاول الملك الخروج على القانون وجب استعمال القـوة لاخضاعه (٥) . والواقع أنه عـلى الرغم من عـدم استطاعة البارونات استخدام القانون ضـد الملك ، وعلى الرغم من أن نظرية خضوع الملك للقانون كثيرا مـا

(1) Idem : p. 438.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages p. 269.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 245-246.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages p. 269.
(5) Adams : op. cit. p. 439.

تنوسيت ، الا أنها ظلت دائما تمثل ركنا مهما في الدستور البريطاني ، كما ظل العهد الاعظم يذكر ملوك انجلترا على الدوام بأن مليكتهم « مقيدة » (١) .

على أنه لا الملك حنا ولا نبلاؤه أظهروا احتراما لشروط العهد الاعظم ، فلم يلبث بارونات الشمال أن هاجموا الاراضي الملكية ، عندئذ شكا حنا للبابا الذي سانده ، فأصدر قرار الحرمان ضدهم . وقد ظل الملك يحارب هؤلاء البارونات الخارجين حتى توفي في العام التالي — أي سنة ١٢١٦ — بسبب افراطه في الطعام والشراب ! (٢) .

هنري الثالث :

ثم خلف حنا ابنه هنري الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢) الذي كان عند وفاة أبيه في التاسعة من عمره ، فقام عنه بأعباء الحكم مجموعة قديرة من البارونات وكبار الاساقفة . وعندما تولى هنري الثالث السلطة الفعلية سنة ١٢٢٧ ، عادت انجلترا مرة أخرى تعاني مساوىء حكم ضعيف ، اذ أخذت البابوية تملأ المناصب الكنسية الشاغرة بأفراد ايطاليين ، كما أخذت تجبي أموالا طائلة من رجال الدين الانجليز برسم الحروب الصليبية ، مما جعل ثروة البلاد تتسرب الى خزينة البابوية حتى أثار ذلك الوضع سخط الانجليز جميعا من علمانيين ودينيين (٣) . أما الملك فكان أداة طيعة في أيدي ندمائه وأصفيائه ، وبدا عجزه واضحا عن كبح شهواته وفي تحقيق مشروعاته الحربية الجوفاء وبخاصة ضد ملك فرنسا (٤) . وزاد الطين بلة ترحب هنري الثالث بالاجانب واغداقه عليهم ، فأتى الكثيرون من بروفانس وسافوى وغيرهما الى انجلترا لينعموا على حساب أهالي البلاد . هذا في الوقت الذي أخذ هنري الثالث ينفق كثيرا من الأموال لرشوة الألمان حتى ينتخبوا أخاه

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages. p. 270.

(2) Adams : op. cit. pp. 441-447.

(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 478-479.

(4) Lavisse : op. cit, Tome 3, Premierc Partie, pp. 228-288.

ريتشـــارد امبراطورا ، فضلا عن مســـاعدته للبابوية فى حربها ضد مملكة صقلية بعــد أن وعــدته البابوية باعطاء عرش هــذه المملكة لثانى أبنائه ادموند (١) . وعندما اشتدت حاجة هنرى الثالث الى المال ، لم يجد مفرا من الالتجاء الى البرلمان — وهو الاســم الذى بدأ يطلق على المجلس الكبير — طالبا منه المعونة (١٢٥٨) .

ولم يلبث أن اضطر هنرى الثالث الى أن يحنى الرأس أمام البرلمان ، فوافق على طرد جميع الأجانب الدخلاء على المملكة — وعلى رأسهم آل لوزجنان — وان يتولى شئون الحكم جماعة من البارونات على أن يكونوا بمثابة وزراء مسئولين أمام البرلمان (٢) . وهكذا نهض البارونات بحـكم البلاد فترة من الزمن تحت زعامة كبيرهم سيمون دى مونتفورت ، فعقدت معاهدة مع فرنسا لانهاء حالة الحرب بين الدولتين سنة ١٢٥٩ ، كما تم وضع حدا لكثير من المفاسد (٣) .

وعندما تجددت الفتن والخلافات مرة أخرى ، استطاع ســيمون دى مونتفورت أن يهزم القــوات التى التفت حــول الملك ، حتى تم عقد البرلمان الشهير سنة ١٢٦٥ وهــو الذى مثلت فيه المدن لاول مرة عن طريق اشتراك ممثلين عن كل مدينة ، مما أعطى هــذا البرلمان طابعا شعبيا قــويا وجعل ســيمون دى مونتفورت صــاحب الفضل الاول فى نشــأة فكرة مجلس العموم (٤) . ولكن حدث فى تلك السنة نفسها أن ثار بعض البارونات المتذمرين ، وقتل سيمون دى مونتفورت عندئذ ، فأخذ نفوذ النبلاء يتناقص بعد أن نجحوا فى تحطيم قــوة الاستبداد . وأخيرا مات هنرى الثالث سنة ١٢٧٢ فى الوقت الذى كان ابنه الامير ادوارد — وهو الذى أصبح ادوارد الأول — متغيبا فى حملة صليبية .

---

(1) Orton : op. cit. Ps. 320-328.

(2) Tout : The Histroy of England, pp. 98-102.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 283.

(4) Tout : The Hist of England, p. 122.

ادوارد الأول :

تولى ادوارد الاول الحكم (١٢٧٢ — ١٣٠٧) وهو فى السابعة والثلاثين من عمره ، فكان رجلا ناضجا واسع التجربة ، على قسط وافر من التعليم ، يجمع بين القـــوة وحب العدالة والرغبة فى الاصلاح ، مما جعله يحمل مكانا بارزا فى التاريخ الانجليزى ، فضلا عن أن اصلاحاته أثرت تأثيرا عميقا فى مستقبل انجلترا (١) . وقـــد اعتلى ادوارد الأول العرش عقب عودته من حملة صليبية ، وكان يأمل فى القيام بحملة أخرى جديدة ، ولكن الظروف الخارجية والداخلية التى أحاطت به حالت دون أمكان تنفيذ هذه الأمنية . ذلك أن ادوارد الاول عمل على تحقيق الوحدة بين مختلف اجزاء الجـــزر البريطانية ليجعل منها دولة واحدة مترابطة ، وكان أكبر نجاح أحرزه فى هذه الخطة هـــو ضم امارة ويلز بعـــد أن غدت خطرا كبيرا تحت حكم آخر أمرائها ليلين الكبير Lelwellyn (٢) . وعندما نجح ادوارد الأول فى اخضاع ويلز أصدر قانون ســـنة ١٢٨٤ الذى يقضى بضمها الى التـــاج البريطانى ، وأعقب ذلك تطبيق القوانين الانجليزية فى ويلز تحت اشراف موظفين اداريين من الانجليز . وفى سنة ١٣٠١ أضفى ادوارد الاول على أكبر أبنائه لقب أمير ويلز ، وهو اللقب الذى لازم ولى العهد فى انجلترا منذ ذلك الوقت (٣) .

على أن متاعب ادوارد الأول لم تقتصر على ثورة ويلز لأن الأوضاع فى سكتلند أدت أيضا الى زيادة تلك المتاعب . ذلك أن السلالة المباشرة للبيت المالك فى سكتلند انتهت سنة ١٢٩٠ بوفاة الأميرة مرجريت ، وعندئذ تدخل ادوارد الأول فى مسألة اختيار وريث للعرش وأوفد اليها بعثة لهذا الغرض . وقد اختارت هذه البعثة حنا باليول Jekn Balliol ملكا على سكتلند ، وفعلا قـــدم هذا الملك الجديد فروض الولاء والتبعية لادوارد الأول ملك

---

(1) Stephenson : Med. Hist. 488.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 514-517.

(3) Tout : The Hist. of England. p. 220.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 563-564.

انجلترا (٤) . ولكن عندما حاول ادوارد أن يجعل سيادته على سكتلند فعليه بالتدخل فى شئونها ، عـــارضه باليول وأنكر حق المحـــاكم الانجليزية فى استئناف الأحكام التى أصدرتها المحاكم الاسكتلندية ، ثم اتخذ حنا باليول موقفا عدائيا صريحا من ملك انجلترا فحالف فيليب الرابع ملك فرنسا ضد ادوارد الأول ، ولكن الاخير غزا سكتلند غزوة موفقة وقبض على حنا باليول وأخمد الثورة وأقام حكومة موالية له (١) . على أن الاسكتلنديين لم يستسلموا بسهولة ، فانتهزوا فرصة وجود ادوارد الأول فى فلاندرز سنة ١٢٩٧ وثاروا من جديد تحت زعامة وليم ولاس وهزموا جيشا انجليزيا عند جسر سترلنج (Stirling Bridge) وعندئذ عاد اليهم ادوارد الأول بعد أن عقد صلحا مع فيليب الرابع ملك فرنسا وهزمهم فى فالكرك Falkirk وأخضع سكتلند وأعدم ولاس . وقد ثارت سكتلند مرة أخرى تحت زعامة روبرت بروس Robert Bruce ولكن ادوارد الأول توفى سنة ١٣٠٧ وهو يستعد لاخماد الثورة (٢) .

أما تشريعات ادوارد الاول الداخلية فتحتل مكانة عظيمة فى تاريخ انجلترا وتطورها السياسى . ذلك أنه وجد الكنيسة تمتلك نسبة كبيرة من الأراضى فى البلاد تبلغ الثلث ، مع اعفاء هذه الاراضى من معظم الضرائب الاقطاعية .. ولذلك أصدر تشريعا سنة ١٢٧٩ يحد من ازدياد أراضى الكنيسة عن طريق الهدايا والمنح ، بوضع هذه المنح تحت الادارة الملكية (٣) . كذلك أصدر تشريعا جديدا سنة ١٢٩٠ ينظم تقديم الخدمات والالتزامات الاقطاعية للسيد الاقطاعى الكبير مباشرة دون وساطة عدد من الشخصيات الاقطاعية الصغيرة وبعبارة أخرى فان هذا التشريع حدد عدد الافصال الذين يتوسطون بين الملك من جهة وصاحب الارض أو الضيعة الفعلى من جهة أخرى ، كما أجاز انتقال الارض من يد لاخرى عن طريق البيع والشراء بعد أن كـــان الطريق الوحيد لحيازة الارض هو الاقطاع (٤) . أما تشريع الاوقاف فقد

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 493.
(2) Tout : The Hist. of England. Ps. 234-307.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 398-400.
(4) Painter :A Hist. of the Middle Ages. p. 272.

s

سمح بحبس الاراضى ووقفها ، وبذلك مكن البيوت الكبيرة القـــوية من الاحتفاظ بأملاكها وتكتيل أراضيها . ثم لاحظ ادوارد ازدياد نفوذ اليهود وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية فى انجلترا منذ أن رحب بهم وليم الفاتح ومنحهم قسطا وافرا من الحماية والطمأنينة . لذلك استغل ادوارد الأول كراهية الناس لليهود نتيجة لموقفهم العنيد من المسيحية والمسيحيين ، وبدأ يضطهدهم ، ففرض عليهم زيا خاصا الغرض منه تحقيرهم ، ثم عاد فطردهم من بلاده سنة ١٢٩٠ (١) . ومنذ ذلك الوقت حتى عهد كرمويل لم يستطع اليهود دخول انجلترا .

على أن اصلاحات ادوارد الأول القضائية والادارية فاقت كل ما عداها فى الاهمية . ذلك أنه حدد اختصاص مجالس القضاء الكنيسة بمقتضى قانون أصدره سنة ١٢٨٥ .. ولم يكد عهده ينتهى حتى تفرعت ثلاث محاكم منفصلة عن المحكمة الملكية ، أولاها خاصة بحسابات الدولة والقضايا المالية ، وثانيتها خاصة بالدعاوى العامة المدنية بين الاهالى بعضهم وبعض ، وثالثتهما سميت مجلس القضاء الملكى (King's Bench) وتفصل فى جميع القضايا — مدنية كانت أو جنائية — التى تهم الملك (٢) .

وقـــد دعا ادوارد الأول البرلمان الى الانعقاد سنة ١٢٩٥ لحاجته الى المال بعد حروبه فى ويلز من جهة ، ولمواجهة التحالف الفرنسى الاسكتلندى من جهة أخرى . وامتاز البرلمان الذى عقد فى تلك السنة بأنه ضم جميع العناصر التى أصبح يتألف منها البرلمان الانجليزى فيما بعد ، من نبلاء وأساقفة ورؤساء أديرة ، فضلا عن اثنين من فرسان كل مقاطعة وممثلين يمثلون أهالى المدن وغيرهم ، حتى أطلق عليه فى التاريخ البرلمانى النموذجى Model Parliament (٣) . وفى هذا البرلمان جلس الفرسان مع النبلاء وممثلى المدن ، فى حين اجتمع رجال الدين على حدة . ثم تطور الأمر بعـــد ذلك الى حرمان صغار رجال الدين من عضوية البرلمان فانضم الفرســـان الى

(1) Tout : The Hist, of England, p. 175
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 490
(3) Tout : The Hist of England, p. 195.

البرجوازيين وممثلى المدن ليؤلفوا مجلس العموم ، فى حين انضم النبلاء الى الأساقفة ليتكون منهم مجلس اللوردات . وكان أن أخذ النبلاء يواصلون ضغطهم على الملك لتحديد سلطاته ، فطلبوا منه عند وجوده فى فلاندرز سنة ١٢٩٧ تأكيدا للعهود التى تحرم الملك من حق جمع الأموال دون موافقتهم (١)

ادوارد الثانى :

ثم تولى عرش انجلترا بعد ذلك ادوارد الثانى (١٣٠٧ — ١٣٢٧) الذى كان ضعيفا مولعا بصحبة الاراذل حتى أصبح أداة عمياء فى أيدى ندمائه . وهنا احتج أعضاء البرلمان على سوء حكومته وقبضوا على جافستون نديم الملك وقتلوه سنة ١٣١٠ (٢) . وفى ذلك الوقت كان روبرت بروس قد طرد الانجليز تقريبا من سكتلند ، مما جعل ادوارد الثانى يصالح البارونات ويتجه على رأس جيش كبير الى سكتلند لاخماد ثورتها . ولكنه منى بهزيمة كبيرة فى يونية ١٣١٤ عند بانوكبورن Bannockburn (٣) ، وفـر عائدا الى بلاده ، وبذلك استردت سكتلند حريتها . ويبدو أن ادوارد الثانى لم يتعظ من هذه الاحداث ، فاستأنف حياته الفاسدة مما أوقع البلاد فى فوضى كبيرة انتهت عندما عزله البرلمان وأعدمه سرا سنة ١٣٢٧ (٤) .

ادوارد الثالث وحركة وكلف :

أما ابنه ادوارد الثالث (١٣٢٧ — ١٣٧٧) فكان فارسا ذا شخصية جذابة . وعلى الرغم من أنه يختلف عن أبيه كثيرا فى أسلوب حياته ، الا أن عهده الطويل امتاز بأهمية كبرى فى التاريخ الانجليزى سـواء فى التطور

---

(1) Idem : pp. 202-204.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 414.

(3) Stephenson : Med. Hist. p. 493.

(4) Tout : The Hist. of England, pp. 299-303.

السياسى الداخلى أم الخارجى (١) . وكانت أهم الأحداث التى شهدها هذا العهد قيام حرب المائة عام ، التى سنتكلم عنها بشىء من التفصيل فيما بعد ؛ مكتفين الآن بالاشارة الى أنه لم يبق لادوارد الثالث من أملاكه فى القارة عند نهاية حكمه سوى موانى كاليه وبرست وباسيون وبوردو ، فضلا عما كان لهذه الحرب من نتائج داخلية خطيرة بالنسبة لانجلترا . وفى ذلك العام قامت منظمة السسترشيان بتحويل كثيرا من أراضى انجلترا الضحلة المهملة الى أرض زراعية خصبة ، كما اهتموا بغزل الاصواف التى أصبحت فيما بعد من أهم الصادرات الانجليزية . وكان للوباء الاسود الذى اجتاح أوربا عند منتصف القرن الرابع عشر أثره الهدام فى انجلترا فقلت الأقوات وارتفعت الاسعار ارتفاعا فاحشا ، واضطر كثير من الأقنان الى الفرار من أراضيهم مما جعل البرلمان يصدر قانونا بتوقيع عقوبات مشددة على كل من يترك الأرض أو يطالب برفع الاجور (٢) . على أن المراسيم التى صدرت سنة ١٣٥١ وسنة ١٣٦٠ لتحديد الاجور وفرض العمل على كل رجل أو امرأة دون الستين من عمره لم تجد فى علاج الموقف بعد أن قلت الايدى العاملة (٣) . وكان أن أدت الحرب الطويلة الى عدم انتظام التجارة بين انجلترا ، وفلاندرز التى كانت تستورد معظم الاصواف الانجليزية لنسجها ، الأمر الذى أدى الى هجرة كثير من الغزاليين والنساجين من فلاندرز الى انجلترا لمباشرة صناعة المنسوجات الصوفية قرب مراكز انتاج الصوف الخام . هذا فى الوقت الذى أدى اشتداد تيار حرب المائة عام وما تطلبته من مغارم ونفقات الى ازدياد نفوذ البرلمان الذى لم يكتف سنة ١٣٧٦ بالمطالبة بمراجعة الحسابات الملكية ، وانما وجه الاتهام الى اثنين من الموظفين الملكيين وأدانهم ، ومن ثم بدأ تقليد جديد هو محاسبة الموظفين العموميين واقامة الدعوى عليهم (٤) .

وفى ذلك العصر ساءت العلاقات بين البابوية وانجلترا بسبب اقامة

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 397.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 443.

(3) Eyre : op. cit. p. 714.

(4) Tout : The Hist. of England, p. 435.

البابوات فى أفنيون وما أثارته هذه الاقامة من ظنون حول مســاندة البابا للملكية الفرنسية . فى وقت اشتد العداء بين انجلترا وفرنسا . وفى سنة ١٣٥١ ، أنكر البرلمان الانجليزى شرعية تعيين البابا لكبار الدين فى انجلترا ، كما أصدر تشريعا بعد ذلك بعامين يحرم استئناف القضايا أمام محاكم اجنبية ، وبذلك حرمت البابوية من مورد مالى ضخم كانت تستمده من انجلترا (١) . أما الجزية التى تعهد الملك حنا بدفعها سنويا للبابوية فقد عارض البرلمان فى دفعها ، ولما أصر البابا على حقه فيها ، أجاب البرلمان بأنه لم يقر تصرفات الملك حنا ولذلك فان البلاد لا ترتبط بهذه التصرفات (٢) .

وفى ذلك العهد ظهر حنا وكلف John Wiclif (١٣٢٤ — ١٣٨٤) وهو أحد المصلحين الدينيين ، فنادى بحق الدولة فى مصـــــادرة ممتلكات الفاسدين من رجال الدين ، كما نادى بعدم التقيد بالبابوية وبأن الانجيل هو الدستور الوحيد الــذى يجب أن يهتدى المســـيحيون بهديه (٣) . وسنتعرض فيما بعد لاراء وكلف وأثرها بالتفصـــــيل ، ولكن نكتفى الآن بالاشارة الى أن هذه الاراء كانت تسبق العصر الذى عاش فيه وكلف ، بحيث بدت عنيفة فى نظر كثير من المعاصرين ، حتى أدت نتائجها المباشرة الى اثارة كثير من الاضطرابات فى الداخل والخارج (٤) .

ريتشـــــارد الثـــــانى :

وبعد ذلك تولى حكم انجلترا ريتشارد الثانى (١٣٧٧ — ١٣٩٩) الذى كان فى العاشرة من عمره فقام بالوصاية عليه وتصريف شئون البلاد مجلس وصاية من اثنى عشر عضوا (٥) . وكانت عصابات المستأجرين المسلحين

---

(1) Eyre : op. cit. p. 485.
(2) Tout : The Hist. of England, pp. 377-378.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 500.
(4) Eyre : op. cit. p. 522.
(5) Oman : The History of England, pp. 1-3.

وأتباع كبار الامراء قد عكروا صفو الأمن فى أواخر أيام ادوارد الثالث ، كما استثير الفلاحون بمحاولة ارهاقهم بكثير من الالتزامات الاقطاعية القديمة ، هذا فضلا عن استياء صغار العمال فى المدن بعد أن أضرت بهم القيود النقابية وغيرها من التشريعات التى سنت من أجل صالح فئة محدودة من المواطنين الأثرياء (١) . أما الحكومة فقد دفعتها حاجتها الى الاموال الى التطرف فى جمع الضرائب مما أدى الى نشوب « الثورة العظمى » سنة ١٣٨١ . واشترك فى هذه الثورة العمال والفلاحون الذين اقتحموا لندن حيث استقبلهم الملك الصغير ووعدهم برفع المظالم التى شكوا منها (٢) .

وكان ريتشارد الثانى جسورا محبا للسيطرة ، حكم انجلترا فى ظروف حرجة نظرا للخسائر التى أصيبت بها فى حروبها مع فرنسا وسكتلند ، فضلا عن عدم استقرار الاوضاع بسبب المتاعب الداخلية (٣) . ولم يلبث أن حدث احتكاك بين ريتشارد الثانى والبرلمان عندما رفض الملك الاعتراف باشراف البرلمان على مصروفاته ، ولكنه رجع فاستسلم سنة ١٣٩٦ . على أن حب السيطرة والرغبة فى جمع الأموال دون رقيب جعلت الملك يخرج عن جادة الصواب فقبض على كثيرين بغير ذنب وجعل من نفسه دكتاتورا حتى انتهى الأمر بعزله وقتله سرا سنة ١٣٩٩ (٤) .

هنرى الرابع :

أما عهد هنرى الرابع (١٣٩٩ — ١٤١٣) فكان مليئا بالمتاعب . ذلك أن البرسيين Percies فى نورثمبرلاند ثاروا عليه سنة ١٤٠٠ وتضامنوا مع الولشيين ضده (٥) . ولكن هنرى الرابع هزم البرسيين (١٤٠٣ — ١٤٠٨) كما أنزل الهزيمة بالولشيين . ثم زاد من المتاعب التى لاقاها هنرى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 461-463.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 571.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 456-457.
(4) Oman : The Hist of England, pp. 148-149.
(5) Orton : op. cit. p. 393.

الرابع فى أواخر عهده سوء حالته الصحية من جهة وتعجل ابنه وولى عهده الامير هنرى فى أن يحل محل أبيه على وجه السرعة من جهة أخرى (١) . ويبدو أن هذه المتاعب التى أحاطت بهنرى الرابع أتاحت فرصة طيبة للبرلمان لكى يوطد نفوذه وسلطانه فتقررت حرية المناقشة داخل البرلمان ، كما أجبر الملك على الاحتفاظ بمجلس دائم من أفراد يرضى عنهم البرلمان ليكونوا بمثابة مجلس الوزراء (٢) . كذلك أصدر البرلمان قرارا سنة ١٤٠١ يعطى موظفى الحكومة سلطة مكافحة الهراطقة لا سيما أتباع وكلاف الذين عرفوا باسم اللولارديين Lollards والذين نشروا دعوته على مدى واسع ولا سيما بين الطبقات الفقيرة . وقد قضى هذا القرار بأن يسلم كل من يتهم بالهراطقة للكنيسة لمحاكمته ، فاذا أدين أحرق بواسطة السلطة العلمانية (٣) .

هنرى الخامس :

وقد استمر قمع تلك الحركة فى عهد هنرى الخامس (١٤١٣ — ١٤٢٢) الذى قبض على حنا أولد كاسل (Sir John Oldcastle) زعيم اللولارديين ، ولكنه استطاع الفرار ليدبر ثورة كبيرة ضد الملك . على أن هنرى الخامس أخمد هذه الفتنة وأعدم زعيمها ، وبذلك يمكن القول بأن أثر الحركة اللولاردية قد انتهى فى انجلترا من الناحية السياسية (٤) . ثم اختار هنرى الخامس أن يجدد الحرب مع فرنسا طمعا فى الحصول على نصر سريع من جهة وأملا فى أن تؤدى هذه الحرب الى توحيد رعاياه تحت رايته من جهة أخرى . لذلك انتهز فرصة الحروب والمنازعات الداخلية فى فرنسا وتقدم اليها بعدة شروط ومطالب ، وهو واثق تماما من أنها لن تقبلها . وكان أن رفضت مطالبه ، فعبر المانش ليحصل على نصر فى موقعة أزينكورت Azioncourt سنة ١٤١٥ ، ثم عاد بسرعة الى انجلترا ليستعد

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 375.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 483-434.

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, pp. 423-424.

(4) Oman : The Hist. of England, pp. 236-267.

لحرب أكبر (١) . وعندما أبحر الى فرنسا بعد ذلك بعامين كان مقدرا له أن يقضي بقية حكمه القصير — ما عدا شهرين — في فرنسا ، فاستولى على باريس وغيرها من المدن بمساعدة البرجنديين . على أن هذه الانتصارات الحربية التي أحرزها هنري الخامس كانت قصيرة العمر محدودة النتائج ، فلم تتناسب فائدتها مع ما استنفذته من أعباء وما تطلبته من ضرائب في وقت كان الشعب الانجليزي يئن من ثقل الاعباء المالية (٢) .

هنري السادس :

وكان هنري السادس (١٤٢٢ — ١٤٦١) طفلا عند وفاة أبيه الذي كان قد أوصى بوضع هذا الطفل تحت وصاية حنا دوق بدفورد وهمفري دوق جلوستر ، على أن يظل الأول في فرنسا لمباشرة مصالح انجلترا ويواصل الحرب ضدها ، ويبقى الثاني في انجلترا . وقد حاول بدفورد أن يستغل مقدرته للاحتفاظ بنفوذ انجلترا في فرنسا على الرغم من رجحان كفة الأخيرة في ذلك الوقت (٣) . أما جلوستر فلم يصاحبه التوفيق في ادارة شئون انجلترا في وقت أحس الاهالي بثقل الاعباء التي تطلبتها الحرب وبدأ يساورهم الشك في امكان الانتصار على دولة مثل فرنسا كانت تفوق انجلترا في الثروة والسكان (٤) . وكان أن مات بدفورد سنة ١٣٤٥ ، وحينئذ تخلى دوق برجنديا عن تحالفه مع انجلترا ، فأخذ مركز الانجليز يتدهور تدهورا سريعا في فرنسا حتى حلت بهم الهزيمة في موقعة تلبوت Talbot وسقطت بوردو في أيدي أعدائهم سنة ١٤٥٣ ، وبذلك انتهت حرب المائة عام بعد أن استنزفت من انجلترا كثيرا من الأرواح والأموال (٥) .

وعلى الرغم من طيبه هنري السادس وتقواه الا أنه كان ضعيفا ،

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie, pp. 364-370.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, pp. 434-438.
(3) Perroy : La Guerre de cent Ans. pp. 236-243.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 390-391.
(5) Tout : France and England, p. 136.

غير قادر على القبض على زمام الأمور فى بلاده ، الأمر الذى مكن ريتشارد دوق يورك من المطالبة بالحكم على أساس أنه سليل ادوارد الثالث (١) . وقد أدى هذا الانشقاق الى انقسام المملكة انقساما تمخض عن قيام حرب أهلية تعرف بحرب الوردتين ، لان فريق ريتشارد ويورك أتخذ الوردة البيضاء شعارا له ، فى حين أتخذ فريق هنرى السادس شعاره الوردة الحمراء ، وكان أن قتل ريتشارد دوق يورك سنة ١٤٦٠ فتولى ابنه ادوارد الرابع الحكم فى العام التالى ، فى حين فر هنرى السادس الى سكتلند ثم عاد بعد قليل الى انجلترا حيث قبض عليه وسجن (٢) .

على أن سياسة ادوارد الرابع (١٤٦١ — ١٤٨٣) سرعان ما أدت الى قيام ثورة انتهت بطرده من البلاد . وهكذا أضحت انجلترا وأحد ملوكها فى السجن والثانى طريدا فى المنفى . وعلى الرغم من عودة هنرى السادس الى العرش لمدة قصيرة ، الا أن ادوارد الرابع استطاع أن ينتصر على خصومه ، فقتل هنرى السادس وحل محله فى العرش . وقد قبض ادوارد الرابع بعد ذلك على زمام الأمور بيد من حديد حتى حقق لانجلترا قسطا وافرا من الطمأنينة والنظام كانت فى أشد الحاجة اليهما (٣) .

ريتشارد الثالث وقيام أسرة تيودور :

عند وفاة ادوارد الرابع كان أبناؤه صغار السن ، فتولى الوصاية عليهم عمهم ريتشارد الذى لم يلبث أن انتزع العرش لنفسه متخذا لقب ريتشارد الثالث (١٤٨٣ — ١٤٨٥) . وقد دأب بعض الكتاب الذين عاصروا خلفه على تشويه سمعته فوصفوه بالقسوة والعنف ونسبوا اليه كثيرا من الجرائم والأعمال الوحشية . ولكن يبدو من دراسة أحوال المملكة عندئذ أن نسبة كبيرة من الشعب كانت تؤيد الملك فى

---

(1) Oman : The Hist. of England pp. 352-353.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 536.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 436.

مسلكه ، وان أحوال البلاد عندئذ تطلبت منه أتباع هذه السياسة (١) . أما ما يقال من أنه قتل أبناء أخيه فى قلعة لندن فراوية ينقصها الدليل والاثبات . والراجح أن أمهم دبرت خطة لتهريبهم فى الفترة الواقعة بين وفاة ريتشارد الثالث ودخول هنرى السابع مدينة لندن ، وأن الأخير هو الذى أعدمهم ليضمن عدم منافستهم له فى العرش (٢) .

وحسبنا أن خصوم ريتشارد الثالث اعترفوا بأنه الى جانب شدته امتاز بالقدرة ، وأن البرلمان أصدر على عهده قوانين عادلة ومفيدة . والواقع أن هناك عدة ملاحظات على عهد ريتشارد تستحق الاشارة والاعتبار . فالقوانين التى أصدرها البرلمان فى ذلك العهد صدرت لأول مرة باللغة الانجليزية ، كما أنها صدرت مطبوعة لأول مرة . كذلك دعم ريتشارد الثالث وظيفة القنصلية ذات الاهمية البالغة للتجارة والتجار ، ونظم البريد بوساطة الرسل والسعاة .

على أن مشكلة وراثة العرش استمرت تسبب حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار حتى نجح هنرى تيودور فى أنزال الهزيمة بريتشارد الثالث سنة ١٤٨٥ وبذلك تسلم هنرى السابع التاج ليصبح أول ملوك أسرة تيودور (٣) .

وبعد ، فانه على الرغم من الحروب الداخلية والخارجية الكثيرة التى تعرضت لها انجلترا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، الا أنها أحرزت فى تلك الحقبة تقدما كبيرا فى الميدان الحضارى . وكانت أهم مظاهر هذا التقدم فى المجال التجارى لا سيما تجارة الصوف التى أخذ الانجليز يباشرونها بأنفسهم فى ظل التنظيمات التجارية الجديدة . كذلك دخلت الطباعة انجلترا على يد كاكستون حوالى سنة ١٤٧٤ . أما الجامعات الانجليزية فقد واصلت نشاطها بفضل ما لقيته من تشجيع مستمر وبيئة صالحة . وحسبنا ما قام به الملك هنرى السادس من تأسيس

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2. p. 73.
(2) Oman : The Hist. of England, pp. 481-482.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 382.

كلية الملك King's College وكامبردج زيادة على مدرسة اتون . وفى تلك الأثناء لم تتوقف حركة بناء الكتدرائيات والكنائس والأديرة وفق الطراز القوطى ذى الطابع الانجليزى الجميل . أما اللغة الانجليزية فقد أخذت فى ذلك العصر تستقيم فى طريقها وتستكمل بناءها ، فكتب بها شوسر قصص كانتربورى ، مما مهد للنهضة الأدبية العظيمة التى تزعمها شكسبير فى القرن التالى . وأخيرا فان البرلمان تمتع فى هذين القرنين — الرابع عشر والخامس عشر — بسلطة واسعة ظل الانجليز يفخرون بها فى العصور التالية .

الباب الثاني عشر

حرب المائة عام

ظل العداء يسود العلاقات بين انجلترا وفرنسا على جانبى بحر المانش منذ الفتح النورمانى لانجلترا سنة ١٠٦٦ . ذلك أن ملوك انجلترا النورمان احتفظوا بأملاكهم الواسعة فى غرب فرنسا ، فى الوقت الذى عـز عليهم — فى وضعهم الجديد — أن يستمروا فى حكم هذه الممتلـكات باعتبارهم أتباعا أو أفصالا لملك فرنسـا . أما ملوك فرنسا فقد وجـدوا فى تلك الممتلـكات الانجليزية على حدود أراضيهم الغربية خطـرا عظيما هـدد وحدة بلادهم وكيانها . وحال دون وصول الدولة الفرنسية الى حدودها الطبيعية ، وهى المحيط الأطلسى غربا وجبـال البرانس جنوبا ونهر الراين وجبال الألب شرقا .

وهكذا لم يهدأ ملوك فرنسا وظلوا يعملون على طرد ملوك انجلترا من ممتلـكاتهم فى صلب القارة ، فى حين تمسك الأخيرون بهذه الممتلـكات وناضلوا فى سبيل الاحتفاظ بها ، مما جعل الحرب بين الطرفين لا تـكاد تهدأ الا لتشتعل نارها من جديد ، وذلك حتى منتصف القرن الخامس عشر . فحرب المائـة عام اذا — وهو الاسم الذى يطلق على المرحلة الأخـيرة من مراحل الصراع بين انجلترا وفرنسا (١٣٣٧ — ١٤٥٣) — ليست فصلا جديدا أو حدثا مفاجئا فى تاريخ العـلاقات بين البلدين فى العصور الوسطى ، لأنها ليست فى حقيقة أمرها الا حلقة فى سلسلة النزاع الذى بدأ منـذ أن امتلك أمـراء نورمنديا انجـلترا ، وبعبارة أخرى منذ أن أصبحت ممتلـكات ملوك انجلترا النورمان موزعة على جانبى المانش .

واذا كان المؤرخون قـد اصطلحوا على اطلاق اسم حرب المائة عام على هذا الفصل الأخير من فصول النزاع بين انجلترا وفرنسا ، فان لنا

على هذه الحرب عدة ملاحظات . أولها أنه اذا كان السبب الرئيسى لحرب المائة عام هو النزاع حول أملاك انجلترا فى القارة ، فقد وجدت أسباب أخرى أدت الى اثارة العداء بين انجلترا وفرنسا فى الجزء الاخـــير من العصور الوسطى ، أهمها التنافس الاقتصادى بين الدولتين ، زيادة على تعارض مصالحها السياسية فى القارة (١) . وثانيها أن هذه الحرب كانت ذات طابع لم يتغير من أولها لاخرها من ناحية أهـــدافها والاساليب التى استخدمت فيها . وثالثها أن تلك الحرب لم تستمر مائة عام تماما لأن هذه التسمية لا تعدو أن تـكون تقريبية تنطوى على كثير من التجاوز وعـــدم الدقة . وأخيرا يلاحظ أن حرب المائة عام لم تتخذ شكل قتال دائم مستمر بين الفريقين المتحاربين ، وانما اتخذت شكل هجمات متباعدة زمنيا تخللتها الهدنة والصلح اكثر من مرة .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسموا حرب المائة عام الى ثلاث مراحل ، وذلك لتسهيل دراستها وتمييزها : المرحلة الأولى تمتد بين سنتى ١٣٣٧ ١٣٨٠ ، وأهم حوادثها انتصار الانجليز عند كريسى Crécy واستيلاؤهم على كاليه ثم انتصارهم عند بواتيه وما كان من ثورة باريس ومعـــاهدة بريتانى .، أما المرحلة الثانية فتمتد من سنة ١٣٨٠ حتى سنة ١٤١٥ وتمتاز بمسحة عامة من الهدوء والسلام . وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة بين سنتى ١٤١٥ ، ١٤٥٣ ، وفيها تجددت الحرب عـــلى يد هنرى الخامس ملك انجلترا وحليفه دوق برجنديا فانتصر الانجليز عند أجينـــكورت (أزينكورت) وغزوا شمال فرنسا . ثم عادت برجنديا الى محالفة فرنسا ، حتى انتهى الامر بطرد الانجليز نهائيا من صلب القارة (٢) .

وقـــد سبق أن رأينا كيف أدت سياسة لويس التاسع مـــلك فرنسا الى عقد معاهدة باريس مع هنرى الثالث ملك انجلترا سـنـــة ١٢٥٩ ، وبمقتضى هذه المعاهدة تنازل الأخير عن جميع حقوقه الاسمية فى نورمنديا ، وانجو ، ومين وتورين ، وبواتو ، ولكنه تمســـك بجوين وجـــــاسكونى وليموسان وكويرسى وبريجور ، على أن يكون ملك انجلترا تابعا لملك فرنسا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 340.
(2) Thompson ; op. cit. Vol. 2, p. 891.

فى حكمه لهذه الأجزاء الأخـيرة . ومن الواضح أن هذا الحـل كان غير عملى ولا يرجى له دواما ، اذ كان على مـلك انجلترا — باعتباره دوق جاسكونى — أن يقاوم سياسة ملك فرنسا فى تركـيز سلطانه واضعاف نفوذ كبار الأمراء ، وهى نفس السياسة التى كان ملك انجـلترا يحاول تطبيقها فى بلاده . وبعبـارة أخرى فان ملك انجلترا وجـد نفسه بحكم هذا الوضع ملزما بتقوية نفوذ الملكية واضعاف نفوذ الامراء فى بلاده ، فى الوقت الذى يعمل فيه على تقوية نفوذ الأمراء واضعاف المـلكية فى فرنسا (١) .

وقد سبق أن ذكرنا أنه اذا كانت دوقية جاسكونى هى السبب الرئيسى لحرب المائة عام ، فان هناك أسبابا أخرى فرعية ، أهمها الصدام المستمر بين بحارة السفن الانجليزية والفرنسـية فى عصر لم يفرق بين المـلاحة والقرصنة ، وكذلك التعارض الشديد بين المصالح الانجليزية والفرنسية فى اقليم فلاندرز (٢) . ثم كان أن تعقد الموقف بين انجلترا وفرنسا سنة ١٣٢٨ عندما مات آخر أبناء فيلب الرابع ملك فرنسا دون أن يترك وريثا ذكرا يخلفه فى العرش ، فاستغل ادوارد الثالث الفرصة وطالب بعرش فرنسا على أساس أن أمه ابنة فيلب الرابع ، وعن هذا الطريق يبدو حقه فى عرش فرنسا . ولكن زعماء فرنسا لم يوافقوا على مبدأ أحقية البنت فى وراثة العرش ، ولذلك اختاروا فيلب فالوا — الذى أصبح فيلب السادس (١٣٢٨ — ١٣٥٠) — ليؤسس أسرة جديدة حلت محل أسرة كابيه فى حكم فرنسا (٣) .

وقد حدث فى ذلك العصر — عصر فيلب السادس فى فرنسا وادوارد الثالث (١٢٣٧ — ١٣٧٧) فى انجلترا — أن ثار أهالى فلاندرز ضد أميرهم لويس الذى كان تابعا لملك فرنسا ، فاضطر لويس الى الفرار ، مما جعل فيلب السادس يسرع لحمايته فأعاده الى بلده بعد أن أنزل بالفلمنكيين هزيمة

---

(1) Tout : France and England, pp. 114-115.

(2) Painter : A Hist. of the Middle, Ages. p. 325.

(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 516-517.

ساحقة فى كاسل Cassel سنة ١٣٢٨ (١) . وفى سنة ١٣٣٦ قبض لويس أمير فلاندرز على جميع التجار الانجليز فى بلاده مما جعل ادوارد الثالث ملك انجلترا يرد على ذلك باستصدار قانون من البرلمان سنة ١٣٣٧ يمنع تصدير الصوف الانجليزى الى الخارج ، وبذلك هدد صناعة الصوف — وهى الصناعة الرئيسية فى مدن فلاندرز عندئذ — بالتوقف . وهكذا ثبت أنه من المتعذر التوفيق بين مصالح فرنسا السياسية ومصالح انجلترا الاقتصادية فى فلاندرز (٢) .

على أن الفلمنكيين لم يلبثوا أن ثاروا تحت زعامة يعقوب فان آرتفلد Jacques Van Artevelde فتحررت غنت من سيطرة كونت فلاندرز وجددت علاقتها التجارية مع انجلترا سنة ١٣٣٨ (٣) . وعلى الرغم من تهديد البابوية للفلمنكيين بضرورة الامتثال لملك فرنسا ومساعدته ، الا أن آرتفلد نادى بأن ادوارد الثالث ملك انجلترا هو الذى يستحق لقب فرنسا بحكم كونه ابن بنت فيلب الرابع ، وبناء على ذلك عاد ادوارد الثالث الى المطالبة بعرش فرنسا من جديد ، واعترف به الفلمنكيون وأيدوه فى مطلبه . ثم كان أن حشد فيلب السادس ملك فرنسا أسطولا كبيرا فى ميناء سلوى (Ecluse Sluys) لوقف التبادل التجارى مع الانجليز بل مهاجمة انجلترا نفسها (٤) ولكن اسطولا انجليزيا دهم السفن الفرنسية ودمرها سنة ١٣٤٠ ، مما جعل البابا يتدخل لاعلان الهدنة بين الطرفين . أما آرتفلد فقد أخذ يعمل على تنظيم الحكومة فى فلاندرز ، ولكن أضعف من أثر جهوده التنافس بين غنت وبروجز وابريز Ypres لتصبح كل منهما عاصمة . هذا عدا ثورة العمال ضد الاثرياء من زعماء النقابات مما مهد لعودة كونت فلاندرز ومقتل

---

(1) Perroy : La Guerre de Cent Ans, p. 59.

(2) Tout : The History of England, p. 332.

(3) Lavisse : Hist. de France, Tome 4, Premiere Partie p. 43.

(4) Perroy : op. cit. p. 84.

ارتفلد سنة ١٣٤٥ ، الأمر الذى ترتب عليه ضياع مكـــانة الانجليز فى فلاندرز (١) .

ثم كان أن توفى حنا الثالث دوق بريتانى سنة ١٣٤١ دون أن يترك وريثا ذكرا ، فاشتد النزاع حول من يخلفه فى هذه الدوقية المهمة العظيمة . وهنا ظهر العداء والتنافس بين انجلترا وفرنسا مرة أخرى فشايعت كل منهما أحد الفريقين المتنازعين ، اذ انضم ادوارد الثالث الى جانب حنا مونتفورت ، فى حين شايع ملك فرنسا (فيليب السادس) ومعه حنا دوق نورمنديا جوان بنتيفر (٢) . وقد أعد ادوارد الثالث حملة كبيرة نزلت على شـــاطىء نورمنديا فى يولية سنة ١٣٤٦ ، ومن ثم أوغل الانجليز وأخذوا يدمرون البلاد ويحرقون القرى ويتلفون المحصولات . عـلى أن موقف الانجليز سرعان ما ساء لا سيما بعد أن دمر الفرنسيون الجسور الواقعة على السوم والسين (٣) . وعندما أحس ادوارد الثالث باقتراب الجيش الفرنسى منه أخذ ينظم قواته عند كريسى Crècy حيث دارت موقعة حامية (أوغسطس سنة ١٣٤٦) انتهت بهزيمة الفرنسيين نتيجة لســوء تنظيمهم حتى بلغت خسائرهم فى الارواح عشرين ألفا ، فى حين قدرت خسائر الانجليز بخمسين مقاتلا (٤) .

وهكذا تم تدمير الجيش الفرنسى تدميرا شاملا ، مما مكن الانجليز من الزحف نحو كاليه والاستيلاء عليها فى يونية سنة ١٣٤٧ بعد حصار عدة أشهر ، وبذلك أصبح لهم ميناء كبير يستطيعون منه غزو فرنسا وحماية تجارة الصوف مع فلاندرز . وقد تدخل البابا من جديد فى تلك المرحلة لاعلان الهدنة بين الطرفين ، وحينئذ عاد ادوارد الثالث الى انجلترا (٥) .

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 519.
(2) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie pp. 47-51.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 348.
(4) Perroy : op. cit. pp. 94-96.
(5) Tout : The Hist. of England, pp. 366-368.

ثم كان أن أدى انتشار الوباء الاسود (١٣٤٨ — ١٣٤٩) الى كارثة كبرى عمت أوربا وأصابت جميع بلدانها — بما فيها انجلترا وفرنسا — بنقص فى الارواح والاموال ، زيادة على قلة الايدى العاملة وارتباك الاحوال الاقتصادية ، مما تعذر معه استئناف الحرب بين انجلترا وفرنسا فى تلك الظروف (١) . وهكذا مات فيلب السادس سنة ١٣٥٠ قبل أن يتمكن الانجليز من تجديد هجماتهم على بلاده . وبعد ذلك قام الامير الاسود (The Black Prince) وهو الامير ادوارد ابن ادوارد الثالث ملك انجلترا — بغارة عنيفة على جنوب فرنسا ، تمكن فيها من نهب اقليم اللوار بجيش صغير يبلغ سبعة آلاف ، دون أن يلقى مقاومة تذكر (١٣٥٦) (٢) . وأخيرا التقى به حنا الثانى أو الطيب ملك فرنسا (١٣٥١ — ١٣٦٤) على رأس جيش كبير ، وكان فى استطاعته أجبار الانجليز على التسليم ، ولكن سوء تنظيم الفرنسيين جعل الانجليز يحرزون نصرا عليهم عند بواتيه سنة ١٣٥٦ (٣) . وهنا وجد الانجليز أنفسهم أمام مشكلة كثرة عدد الأسرى الفرنسيين ، ومن جملة هؤلاء الاسرى حنا الثانى نفسه ملك فرنسا وولديه . ولما كان عدد الانجليز صغيرا لا يساعد على توفير حراسة كافية لهؤلاء الأسرى ، فقد تخلص الانجليز من معظم أسراهم بالقتل ، ثم قفلوا بعد ذلك راجعين الى بوردو . وفى سنة ١٣٥٧ أعلنت الهدنة بين الانجليز والفرنسيين ، وحمل الانجليز الى بلادهم حنا الطيب ملك فرنسا حيث عاملوه معاملة طيبة فخصصوا له قصر مريحا وسمحوا له بالصيد والرياضة (٤) .

أما عن أحوال فرنسا الداخلية فى تلك الفترة ، فقد عادت البلاد مسرحا للفوضى على الرغم من جهود شارل — ولى العهد — لايجاد حالة من الاستقرار (٥) . وكان مجلس طبقات الامة قد وافق قبل موقعة بواتيه على

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7. p. 350.
(2) Tout : The Hist. of England, p. 286.
(3) Tout : France and England, p. 132.
(4) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie pp. 107-108.
(5) Perroy : op. cit. 106-109.

اقرار الضرائب اللازمة لحرب الانجليز ، بشرط أن يشرف على توزيع هذه الضرائب وصرف الاموال المتحصلة منها . وكان زعيم مجلس طبقات الامة عندئذ اتين مارسل الذى وضع برنامجا سنة ١٣٥٦ يرمى الى جعل باريس مدينة حرة ، كما وجه مجلس طبقات الامة نحو الضغط على ولى العهد لطرد مستشاريه وتعيين وزراء يختارهم المجلس (١) . وعندما لجأ ولى العهد الى تأجيل انعقاد مجلس طبقات الامة ، سلح مارسل أهالى باريس للقيام بثورة فى وجه الوصى ، وعندئذ تراجع الأخير فطرد وزراءه ودعا مجلس طبقات الامة الى الانعقاد ، واختار وزراءه الجدد من بين صفوفه وأعلن عدم أحقيته فى فرض ضرائب جديدة دون موافقة المجلس . على أن حنا ملك فرنسا الأسير — بعث من منفاه سنة ١٣٥٧ بعدم موافقته على هذه الاوضاع ، مما جعل ولى العهد يستنجد بالاقاليم الفرنسية — خارج باريس — ضد مارسل ومجلس طبقات الامة (٢) . وهنا اقتحم مارسل ومعه جماعة من أتباعه المسلحين قصر اللوفر الملكى فى باريس ، وقتلوا اثنين من مستشارى شارل ولى العهد ، ففر شارل الى كمبين Compiegne لا سيما بعد أن أخذ اتباع مارسل يجوبون شوارع باريس ويهددون من يقف فى وجههم . وقد انتهز الفلاحون فى شامبنى (٣) فرصة تلك الحوادث وثاروا معبرين عن سوء أحوالهم بسبب اغارات الانجليز من جهة ، وثقل الالتزامات المفروضة نحو النبلاء العاجزين عن حمايتهم من جهة أخرى (٤) . وامتازت حركة الفلاحين هذه بالفوضى وسوء النظام ، مما جعل النبلاء يخمدونها فى سهولة بعد أن قتلوا وأحرقوا نحو عشرين ألفا من الثوار (٥) . ومهما يكن من أمر فان هذه الاحداث لم يكن لها من نتيجة سوى زيادة أحوال الريف

---

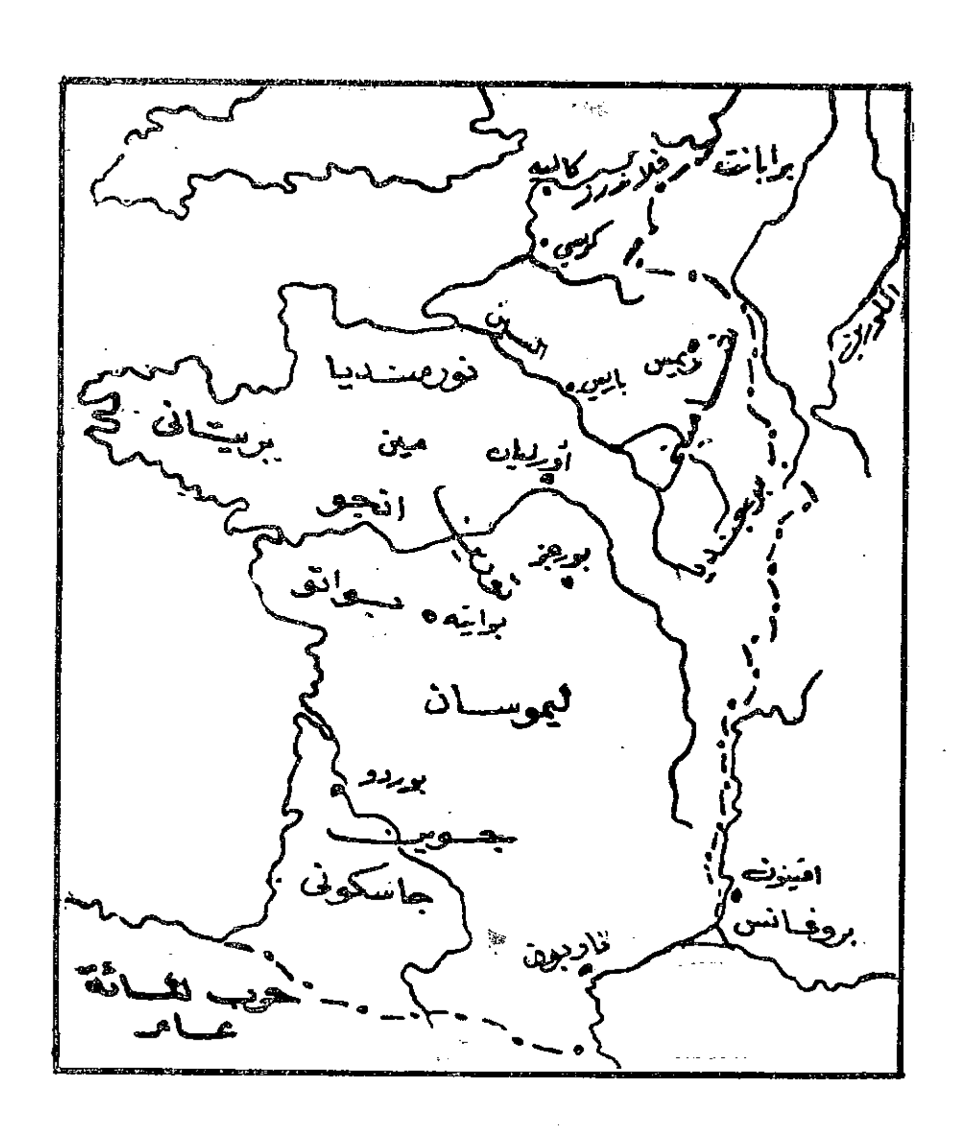
(1) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie p. 115.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 353.

(٣) وهم الذين عرفهم المعاصرون باسم (Les Jacques) أو (La Jacquerie) نسبة الى زيهم ، حيث أن لفظ jacque يعنى الرداء القصير . أنظر .
Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere partie, p. 140.

(4) Perroy : op. cit. pp. 109-110.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 354-355.


برابانت
فلاندرز
كاليه
كريسي
السين
ريمس
باريس
نورمنديا
بريتاني
مين
أورليان
انجو
بورج
بواتو
بواتيه
ليموسان
بوردو
جوين
جاسكوني
ناربون
افينون
بروفانس
حرب المائة
عام

الفرنسي سوءا فوق سوء ، اذ انتشر البؤس وعم الشقاء وقلت الاقوات ، مما أثر في أحوال فرنسا بوجه عام . أما شارل فقد قوى مركزه عقب انتصار النبلاء ، لا سيما بعد أن فشل مارسل في تنظيم أتباعه حتى انتهى الامر بمقتل الأخير وعودة شارل الى باريس (١) .

ثم كان أن قام ادوارد الثالث ملك انجلترا بحملة غير مثمرة على فرنسا سنة ١٣٥٩ . وقد تراجع الفرنسيون أمامه نحو حصونهم حتى وجد الانجليز أنفسهم عاجزين عن تحقيق أغراضهم فعقدوا معاهدة بريتانى سنة ١٣٦٠ ، وبمقتضاها وافق ادوارد الثالث على أن يتنازل عن مطالبه في التاج الفرنسي مقابل اعتراف فرنسا بملكيته لجوين وجاسكونى وكاليه وبونثيو Ponthieu (٢) أما حنا ملك فرنسا الاسير فقد وافق الانجليز على اطلاق سراحه مقابل فدية ضخمة ، فعاد الى بلاده تاركا خلفه في انجلترا بعض النبلاء الفرنسيين رهينة حتى يتم سداد الفدية المتفق عليها (٣) . على أن الملك حنا سرعان ما سئم الحياة في باريس فتذرع ببعض الاسباب للعودة الى انجلترا حيث قضى بقية حياته في اللهو والصيد والمقامرة حتى توفي سنة ١٣٦٤ (٤) .

وعندما تولى حكم فرنسا شارل الخامس (١٣٦٤ — ١٣٨٠) وجد نفسه يحكم دولة ممزقة يسودها التفكك والانحلال ، فبدأ باخضاع فرق الجند المرتزقة ونجح في التخلص من عبثهم بمساعدة أحد أعوانه من النبلاء واسمه برتراندى جويسكلين ، الذى كوفىء على خدماته بتعينه في منصب كندسطبل فرنسا (٥) . وقد أطمأن شارل الخامس الى أن جيشه أصبح في يد أمينة ، فأخذ يعمل على اصلاح أحوال البلاد حتى نظم الاسواق وأصلح

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere partie p. 140.
(2) Tout : The Hist. of England, pp. 396-397.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7. p. 357.
(4) Lavisse : Hist. de France Tome 4, Premiere Partie p. 169.

(٥) كانت وظيفة كندسطبل (كونوستابل) من وظائف الدولة الكبرى عندئذ ، اذ صار صاحبها بمثابة رئيس البلاط الملكى وقائد عام الجيش ، كما كانت له صفة قضائية في الفصل في المنازعات بين الفرسان ... الخ .

الادارة القضائية ومهد الطرق وأمنها وعنى بشئون العملة (١) . ويلاحظ أن شارل الخامس قام بكل هذه الاصلاحات دون أن يتعسف فى جمع الضرائب أو يلجأ الى الطرق البالية فى أرهاق رعاياه . وهكذا تمكن شارل من استعادة الرخاء فى فرنسا فانتعشت مالية البلاد وأصبح لها جيش وأسطول كبيران ، فضلا عما كان من تحصين المدن لتقاوم الحصار (٢) .

أما بخصوص العلاقات مع انجلترا فقد اتصل شارل الخامس سرا بنبلاء جاسكونى وحرضهم على التمرد والثورة ضد السيطرة الانجليزية ، ولم يكن هؤلاء النبلاء فى حاجة الى مزيد من التحريض ، اذ بلغ بهم الاستياء أشده نتيجة لثقل الضرائب والاعباء التى فرضها الانجليز عليهم ، مما أدى الى تجدد القتال بين الانجليز والفرنسيين (٣) . وكان أن غزا الامير الاسود اقليم ليموزان سنة ١٣٦٩ فاضطر سكان هذا الاقليم من الفرنسيين الى تدمير الزرع والضرع والانسحاب نحو الداخل للاحتماء بحصونهم . وفى العام التالى أحرز الامير الاسود بضعة انتصارات ، وان كان ذلك لا يخفى الحقيقة الواقعة وهى أن جيشه لم يعد مؤلفا من محاربين انجليز وانما من مأجورين (٤) . أما دى جوسكلين قائد الجيش الفرنسى فقد هاجم جوين متحاشيا الاصطدام بالأمير الانجليزى فى معركة فاصلة (٥) . وسرعان ما ساء موقف الانجليز ، ولا سيما بعد أن تحالف أسطول قشتالة مع الاسطول الفرنسى . ونجح الاسطولان فى تدمير أسطول انجليزى قرب لاروشيل La Rochelle سنة ١٣٧٢ (٦) . وهكذا أضطر الأمير الاسود الى العودة الى انجلترا سنة ١٣٧٣ بعد أن ساءت حالته الصحية وانتهى الامر بعقد هدنة بين الطرفين امتدت من سنة ١٣٧٤ حتى سنة ١٣٧٧ . وعلى

---

(1) Cam. Hist. Vol. 7, pp. 353-362.
(2) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie, pp. 200-217.
(3) Perroy : op. cit. pp. 132-136.
(4) Tout : The Hist. of England, pp. 408-412.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 361.
(6) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie, p. 239.

الرغم من هذه الهدنة فان هجمات الفرنسيين لم تتوقف فاجتاحوا معظم جاسكونى ، حتى اذا ما انتهت الهدنة بوفاة ادوارد الثالث ملك انجلترا سنة ١٣٧٧ ، عاود شارل الخامس الحرب العلنية ضد الانجليز (١) . ويبدو أن النجاح حالف الفرنسيين فى هذه المرحلة حتى أن شارل الخامس ومساعده العظيم دى جويسكلين لم يموتا سنة ١٣٨٠ الا بعد أن تقلصت أملاك الانجليز على الشاطىء الفرنسى ، بحيث لم يبق لهم سوى عدة موانى مثل كاليه وبوردو وبايون (٢) .

على أن وفاة شارل الخامس جاءت خسارة كبرى لفرنسا ، اذ كان خليفته شارل السادس قاصرا فى الثانية عشر من عمره ، مما أوقع البلاد فى حالة شديدة من الفوضى بسبب الخلاف بين الاوصياء من جهة ، والعودة الى سياسة الافراط فى فرض الضرائب من جهة أخرى (٣) . وكان أن ثار الفلمنكيون سنة ١٣٨٢ وحاولوا عقد تحالف مع الانجليز ، ولكن الفرنسيين أخضعوا ثورتهم وحطموا قوتهم ودمروا كثيرا من مدنهم (٤) .

ثم كان أن سار دوق أورليان فى ركاب السياسة الفرنسية ورفض الاعتراف بهنرى الرابع ملك انجلترا (١٣٩٩ — ١٤١٣) ، فى الوقت الذى أخذ دوق برجنديا يناصر ملك انجلترا حتى تمكن من الاستيلاء على باريس سنة ١٤١١ بمساعدة بعض القوات الانجليزية (٥) . وقد شجعت هذه العوامل هنرى الخامس ملك انجلترا (١٤١٣ — ١٤٢٢) على غزو فرنسا ، فانزل قواته سنة ١٤١٥ على الشاطىء الفرنسى حين حاصر هارفلير واستولى عليها ، ومنها زحف نحو كاليه . وهناك فى موقعة أزينكورت Azincourt (٢٥ أكتوبر ١٤١٥) أنزل الانجليز هزيمة ساحقة بجيش فرنسى يفوقهم عددا ، فقتلوا ما يقرب من ستة آلاف فرنسى وأسروا ثمانمائة نبيلا فى حين

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 365-366.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 368.
(3) Cam. Med. Hist Vol. 7, p 368.
(4) Lavisse : op cit Tome 4, pp 280 & 284-286
(5) Oman : The Hist of England, pp. 222-226.

لم تتعد خسائر الانجليز المائة جندى (١) . وبعد ذلك عاد هنرى الخامس الى انجلترا وحالف دوق برجنديا ليعاود غزو فرنسا من جديد بمساعدة البرجنديين . وفى تلك المرة غـــزا هنرى الخامس نورمنديا ، كما تمكن حلفاؤه من البرجنديين من الاستيلاء على باريس سنة ١٤١٨ (٢) . وعلى الرغم من قسوة الشروط التى فرضها هنرى الخامس على خصـــومه فان الأخيرين اضطروا الى قبولها ، حتى اعترف الفرنسيون فى اتفاقية تروى سنة ١٤٢٠ بادعاءات ملك انجلترا فى فرنسا (٣) . وهكذا لم يمت هنرى الخامس سنة ١٤٢٢ الا بعد أن ثبت نفوذه فى الاقاليم التى خولته اتفاقية تروى حق السيطرة عليها بحيث أصبحت نورمنديا ومين وتورين وشامبنى ــ بل حتى جزيرة فرنسا ile de France (٤) وباريس ــ كلها فى أيدى الانجليز وحلفائهم البرجنديين . ولم يبق فى أيدى الفرنسيين شمالى اللوار سوى اقليم أنجو ، ومن المدن العظيمة الشأن سوى مدينة أورليان (٥) .

وقد شاءت الظروف أن يموت شارل السادس ملك فرنسا هو الآخر سنة ١٤٢٢ ، وعندئذ اختار أهل أورليان ولى العهد شارل السابع ملكا ، فى حين اختار الانجليز هنرى السادس الصغير ملكا على فرنسا (٦) . وقد بدأ شارل السابع ضعيفا عاجزا أمام الانجليز الذين عاودوا هجماتهم وجددوا انتصاراتهم فى فرنسا ، حتى أخذوا يحاصرون أورليان سنة ١٤٢٨ ليشقوا طريقهم نحو ما تبقى خارج أيديهم من أقاليم فرنسا الشمالية (٧) ، وفى ذلك الوقت الذى بدأ اليأس يدب فى قلب شارل السابع ، حتى نصحه بعض

---

(1) Perroy : op. cit. pp. 208-209

(2) Lavisse : op. cit. Tome 4, Premiere Partie, pp. 374-375.

(3) Idem : pp. 386-387.

(٤) جزيرة فرنسا أقليم فى فرنسا يشمل أجزاء من أحواض السين والمارت والسوم .

(5) Perroy : op. cit. pp. 220-221.

(6) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 232-233.

(7) Oman : The Hist. of England p. 302.

رجال بلاطه بالفرار الى أسبانيا أو سكتلند ، اذا بالقدر يسوق الى الملك ــ بل الى فرنسا ــ فتاة ريفية فى السابعة عشر من عمرها لتقوم بدور البطولة فى ذلك الفصل من فصول حرب المائة عام وتخلد أسمها ناصعا على صفحات التاريخ الفرنسى (١) .

أما هذه الفتاة فهى جان دارك Jeanne d'Arc التى يقال أنها أخذت تسمع هاتفا يناديها بانقاذ مليكها وبلادها ، مما دفعها الى الذهاب الى شينون Chinon حيث بلاط الملك (٢) . وقد استطاعت جان دارك أن تقنع شارل السابع بتزويدها برداء حربى وبعض الجنود لانقاذ أورليان (٣) . وكان أن أنضم بعض المغامرين الى جان دارك وهى فى طريقها الى أورليان ، حتى دخلت المدينة سالمة عن طريق النهر ومعها بعض الامدادات والمؤن . ولم يلبث ظهور جان دارك فى أورليان أن الهب حماسة المدافعين عن المدينة ، فقويت هممهم حتى خلصوا أورليان من هجمات الانجليز واضطر الأخيرون الى الانسحاب (٤) . ولم تزل جان دارك تستحث شارل السابع حتى حضر بنفسه الى ريمس حيث توج ملكا سنة ١٤٢٩ فى كتدرائيتها الكبرى ، فى حين وقفت جان دارك خلفه تبكى من شدة الفرح (٥) . على أن الحظ أخذ يفارق جان دارك بعد ذلك ، فرغبت فى العودة الى قريتها لترعى أغنامها ، ولكنها وقعت فى أسر البرجنديين فى مايو سنة ١٤٣٠ . وبعد ستة أشهر باعها دوق برجنديا مقابل عشرة آلاف فرنك ذهبى الى الانجليز الذين اتهموها بالهرطقة والشعوذة وأعدموها حرقا فى ١٠ مايو سنة ١٤٣١ وسط ميدان السوق فى مدينة روان (٦) . ولم يكن ذلك الا سنة ١٤٥٥ عندما سمحت البابوية باعادة النظر فى قضيتها ، فثبتت براءتها مما نسب اليها ، ثم أعلن البابا

---

(1) Pienne : La Fin du Moyen Age, Tome, 1, pp. 442-443.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 244
(3) Perroy : op. cit. pp. 246-248.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 247.
(5) Lavisse : op. cit. Tome 4, Deuxieme Partie, pp. 53-54.
(6) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 251.

بيوس العاشر سنة ١٩٠٩ ثم البابا بندكت الخامس عشر سنة ١٩١٩ تطويبها وتمجيدها فى السماء لتصبح فى عداد الشهداء (١) .

ولكن على الرغم من جهود جان دارك من جهة وانقسام الانجليز على أنفسهم فى بلادهم حول الاستمرار فى الحرب من جهة أخرى ، فـــان سيطرة الانجليز على فرنسا لم تضعف فى سرعة . وفى سنة ١٤٣٥ عرض الفرنسيون تخليهم عن نورمنديا وجوين مقابل تنحى الانجليز عن مطالبهم فى التاج الفرنسى (٢) . ولكن الانجليز رفضوا الاستجابة لهذا العرض ، وأصروا على موقفهم فى عناد على الرغم من احتجاج المندوب البابوى . ثم كان أن هيأت الظروف لشارل السابع بعض المخلصين من مستشاريه فأعفى دوق برجنديا ـــ الذى فاق الملك فى قوته ـــ من التبعية الاقطاعية ، وعقد معه حلفا بمقتضى اتفاقية أراس Arras سنة ١٤٣٥ وبذلك حرم الانجليز من معونة البرجنديين (٣) . ويبدو أن هذه الاتفاقية أتاحت فرصة لشارل السابع حتى يتفرغ لمشـــاكله الداخلية ويعالج المســـائل المتعلقة بالادارة والجيش . وهكذا لم يلبث أن أصبح الفرنسيون على جانب من القوة التى مكنتهم من الاستيلاء على باريس سنة ١٤٣٦ والوقوف من الانجليز موقف الند للند (٤) ، حتى توسط دوقات برجنديا وأورليان وبريتانى ـــ فضلا عن البابا ـــ لعقد هدنة بين الطرفين سنة ١٤٤٤ (٥) . واذا كانت هذه الهدنة قد عاقت تقدم الفرنسيين فيما بين سنتى ١٤٤٤ ، ١٤٤٩ فان الحرب سرعان ما استؤنفت عقب انتهائها مباشرة ، وهنا أخذ الاعياء والملل يبدوان بوضوح على الانجليز ، فتعاقبت انتصارات الفرنسيين وأخذ أعداؤهم ينسحبون دون مقاومة تذكر ، فى حين أقبل الفلاحون والمزارعون فى البلاد المستردة يرحبون بشارل السابع . وأخيرا بذل الانجليز محاولة يائسة للاحتفاظ بمدينة بوردو ،

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 358.

(2) Oman : The Hist. of England, p. 321.

(3) Perroy : La Guerre de Cent Ans, p. 260.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 252.

(5) Lavisse : op. cit. Tome 4, Deuxieme Partie p. 85.

ولكن حتى هذه المحاولة باءت بالفشل وسقطت بوردو فى أيدى الفرنسيين سنة ١٤٥٣ (١) .

وهكذا انتهت حرب المائة عام ، ولم يبق للانجليز فى الاراضى الفرنسية سوى كاليه ، فى حين عادت فرنسا عند وفاة شارل السابع سنة ١٤٦١ مملكة قوية متماسكة ، بلغت فى نهاية القرن الخامس عشر درجة كبيرة من الاتساع وكثرة السكان (٢) . حقيقة ان كاليه لم تعد الى أحضان الوطن الفرنسى الا سنة ١٥٥٣ وأن ملوك انجلترا ظلوا متمسكين عدة قرون تالية بلقب « ملوك فرنسا » ولكن هذه المظاهر وأشباهها كانت ضربا من الشكليات التى لم تستطع أن تحجب حقيقة قيام الدولة الفرنسية الحديثة (٣) .

---

(1) Oman : The Hist. of England. pp. 359-360.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 273,
(3) Perroy : op. cit. p. 312.

الباب التاسع عشر

البابوية والحركات الدينية

أواخر العصور الوسطى

البابوية فى أوج عظمتها :

بلغ نفوذ البابوية الروحى والفكرى والدنيوى ذروته فى القرن الثالث عشر ، عندما أصبح البابا بمثابة ملك عظيم يتمتع بسلطان زمنى فوق سلطانه الروحى ، ويهيمن على كنيسة ضخمة ذات ادارة منظمة ، لها قانونها ومحاكمها وتقاليدها .. فاذا أراد البابا أمرا فارادته هى النافذة يطيعها الملوك ويحرصون على تنفيذها ، والا تعرضوا لعقوبة الحرمان والطرد من رحمة الكنيسة وما يتبع ذلك من متاعب لا قبل لهم بها داخل بلادهم وخارجها (١) .

وتبدو لنا هذه الصورة أوضح ما تكون على عهد البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ ـــ ١٢١٦) الذى استطاع أن يلعب دوره بمهارة فى السياسة العالمية لغرب أوربا وأن يفرض كلمته على أعظم حكام الغرب ـــ بل الشرق ـــ المسيحيين (٢) . ولعل ما ذكرناه فى أبواب الكتاب السابقة ما يكفى للدلالة على عظم نفوذ هذا البابا وعلو كلمته ، فقد أسهم بقسط وافر فى توجيه سياسة الامبراطورية الرومانية المقدسة عندما ناصر أوتو ضد فيلب هوهنشتاوفن ، فلما وصل أوتو الرابع الى العرش وتنكر للبابوية اتجه أنوسنت الثالث بسرعة نحو فردريك الثانى واتخذه سلاحا للقضاء على خصمه (٣) . وفى فرنسا رأينا كيف أخذ أنوسنت الثالث يمد أنفه فى شئونها الداخلية على

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 6, pp. 4-5.

(2) Eyte : op cit. p 202.

(3) Barraclough : op. cit. pp. 208-213.

عهد ملكها فيلب أوغسطس حتى اذا ما أراد الاخير أن يقف موقفا حازما من البابوية ، اذا بالبابا أنوسنت يوقع قرار الحرمان على بلاده سنة ١٢٠٠ ، وعندئذ تأرنب الاسد واضطر الملك العظيم فيلب أوغسطس الى الاذعان واصلاح أموره مع البابوية حرصا على مكانته ومكانة دولته (١) . أما انجلترا فلم تنج هى الاخرى من سيطرة البابا أنوسنت الثالث وعناده ، وحسبنا ما أشرنا اليه من موقفه من الملك حنا حول تعين رئيس أساقفة كانتربورى سنة ١٢٠٧ وكيف أن البابا أصر على رفض مرشح الملك وأصدر ضده وضد بلاده قرار الحرمان (١٢٠٨ — ١٢٠٩) ، بل استحث فيلب أوغسطس على غزو انجلترا ، مما جعل الملك حنا يذعن أخيرا (سنة ١٢١٣) لرغبة البابا أنوسنت الثالث ويقبل شروطه وهو صاغر (٢) .

هذا فى الغرب ، أما فى الشرق فقد رأينا ما كان من موقف البابا أنوسنت الثالث من استيلاء رجال الحملة الصليبية الرابعة على زارا ثم على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، مما أدى الى قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية على أنقاض الدولة البيزنطية (٣) . وهكذا يتضح لنا كيف صارت البابوية فى تلك الحقبة تتحكم فى اسقاط أباطرة واقامة آخرين ، وكيف كان يحرص ملوك أوربا على الخضوع لكلمتها ، حتى أننا لا نكون مبالغين اذا قلنا ان الحاكم الفعلى للعالم المسيحى عند مستهل القرن الثالث عشر كان البابا أنوسنت الثالث (٤) .

ومن أهم مظاهر السيادة البابوية فى ذلك العصر اتساع نشاط المحكمة البابوية فى روما (Curia Romana) حتى صار الكثيرون يلجأون الى روما فى القضايا الصغيرة والكبيرة على حد سواء ، مما جعل القانون الكنسى يتخذ صفة عالمية من جهة ، كما جعل البابوية على صلة وثيقة ببقية أطراف

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Premiere Partie, pp. 145-147.
(2) Adams : op. cit. pp. 409-423-
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 97-101.
(4) Painter : A Hist. of the Middle, Ages, p. 295.

العالم المسيحى من جهة أخرى (١) . وقد توسعت البابوية فى ذلك العصر فى نظام المبعوثين أو المندوبين ، فكان البابا يرسل مندوبا — أو أكثر — الى أية جهة من جهات العالم المسيحى لحل مشكلة أو تحقيق مسألة أو ابلاغ رغبة بابوية . وعن طريق هؤلاء المبعوثين استطاع البابا أن يقف على أحوال الكنيسة المسيحية فى مختلف البلاد الاوربية من ناحية ، وان يضمن تحقيق مصالحه وتنفيذ رغباته من ناحية أخرى (٢) .

على أنه من الواضح أن هذه الادارة البابوية المترامية الاطراف كانت فى حاجة الى مالية ضخمة تسد مطالبها وتفى بمظاهرها . وهنا استطاع البابا أن يحصل من الاملاك والاراضى البابوية على نفس العوائد والرسوم التى حصل عليها الملوك والامراء فى أراضيهم ، زيادة على الاموال التى حصلت عليها البابوية من الأديرة والملوك والامــراء الذين ينشـــدون حمايتها فى مختلف أنحاء أوربا (٣) . كذلك اعتادت بعض البلاد الغربية — وحكامها — أن يدفعوا ضريبة سنوية معينة للبابوية ، كما أدى ازدياد نشاط المحكمة البابوية الى اضافة مورد مهم نتيجة للرسوم القضائية التى تفرض على المتقاضيين (٤) . ثم جاءت الحروب الصليبية لتهيىء للبابوية موردا جديدا ضخما ، اذ أخذ البابوات فى القرن الثالث عشر يفرضون ضريبة ايراد على رجال الكنائس لتمويل الحركة الصليبية . فاذا أضفنا الى كل ذلك صكوك الغفران التى أكثرت البابوية من بيعها لطالبى التوبة والمغفرة والرسوم التى كان يتقاضاها البابا عند تقليد رجال الدين مهام مناصبهم الجديدة ، أدركنا فى النهاية أن البابوية لم تعدم وجود مصادر عديدة أمدتها بما احتاجت اليه من أموال تفى بمظاهرها ومطالبها (٥) .

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government p. 325.
(2) Eyre : op. cit. p. 134.
(3) Ullmann . The Growth of Papal Government, p. 333.
(4) Idem, p. 329.
(5) Eyre : op. cit. pp. 206-208.

الأسر البابلى :

ولكن اذا كان النفوذ البابوى قد بلغ ذروته فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، الا أن البابوية سرعان ما تعرضت لهزات عنيفة زلزلت عرشها وأضعفت مركز الكنيسة وهيبتها . ومهما تعددت الاسباب التى يحاول بها المؤرخون تفسير هذه الازمات التى أدت الى اضعاف مركز الكنيسة بوجه عام والبابوية بوجه خاص فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فان هناك سببا واحدا جدير بأن يسترعى منا العناية والاهتمام ، الا وهو تطور العقلية الاوربية والمجتمع الاوربى بوجه عام تطورا دنيويا (١) . فالآفاق الجديدة التى أخذت تتفتح أمام الغرب نتيجة للنشاط التجارى والتطور السياسى وتدفق العلوم الجديدة التى احتضنتها الجامعات الناشئة ، هذه التيارات جميعها جعلت الغرب الاوربى ينشغل عن الكنيسة وتعاليمها وقيودها ، ويتجه نحو حياة أكثر حرية وأوسع أفقا . وهكذا جاء وقت أخذ صالح الدولة يبدو فيه أكثر أهمية من صالح الكنيسة ، كما بدأ يسرى الشعور بأن واجب الفرد نحو دولته ووطنه ينبغى أن يسبق واجبه نحو كنيسته مما جعل السياسة العلمانية تشكل خطرا جسيما على السياسة الكنيسة .

وثمة فترة فى القرن الرابع عشر ظهر فيها تدهور نفوذ البابوية واضحا ، بحيث لم يبق لها سوى القليل من سلطانها الواسع الذى كانت عليه فى القرن السابق . ونقصد بهذه الفترة الاثنين والسبعين سنة الواقعة بين سنتى ١٣٠٥ ، ١٣٧٧ التى يطلق عليها فى تاريخ البابوية اسم « الاسر البابلى » (٢) ، حيث أن البابوية كانت مقيمة فى أفينون شبه أسيرة بحكم خضوعها للملكية الفرنسية . ذلك أن العلاقات الطيبة التى ربطت ملوك فرنسا بالبابوية أثناء النزاع بينها وبين الامبراطور فردريك الثانى لم تلبث أن تغيرت عندما اعتلى عرش فرنسا فيليب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤) مما أدى الى اشتباك هذا الملك الفرنسى مع البابا هنريوس الرابع (١٢٧٥—١٢٨٧)

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 408.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 503.

ثم مع البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ — ١٢٩٢) (١) ، وكان أن اجتمع الكرادلة سنة ١٢٩٤ لاختيار خليفة للبابا الاخير . ولم تكن مهمة اختيار بابا جديد عندئذ سهلة بعد أن سادت الفوضى مدينة روما وأصبح الكرادلة تحت رحمة النبلاء من أسرتي أورزيني Orsini وكولونا Colonna المتنافستين ، الأمر الذى جعل اختيار البابا مصحوبا بقتال عنيف فى شوارع روما (٢) . ومهما يكن من أمر فقد اختير البابا كلستين الخامس ولكنه لم يعمر ، فخلفه فى العام نفسه بونيفيس الثامن (١٢٩٤ — ١٣٠٣) (٣) . وكان هذا البابا الاخير طاعنا فى السن مغرورا ، فلم يتورع عن استغلال أموال منصبه فى اثراء ذوى قرباه مما أضر بسمعته وسمعة البابوية ، فضلا عن ايقاعه فى مشاكل لا حصر لها داخل روما وخارجها (٤) . وزاد الموقف سوءا أن فيلب الرابع ملك فرنسا وادوارد الاول ملك انجلترا كانا يستعدان عندئذ للدخول فى صراع ضد بعضهما البعض حول دوقية جاسكونى ، فشعر كلاهما بحاجته الى المال وبدأ يفرض ضرائب جديدة على رجال الكنيسة فى بلاده (٥) . وهنا أصدر البابا بونيفيس الثامن مرسوما سنة ١٢٩٦ يحرم على رجال الدين دفع أية ضريبة للملوك والامراء دون موافقة البابا ، مما جعل فيلب الرابع يرد على ذلك بتحريم تصدير الذهب والفضة خارج مملكته ، ويتبع ذلك حرمان البابوية من مواردها التى كانت تأتيها من فرنسا (٦) .

وبعد وفاة بونيفيس الثامن خلفه البابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ — ١٣٠٤) الذى عمل فى عهده القصير على اصلاح الموقف بين البابوية وفيلب الرابع . ثم كان أن اختار الكرادلة بعد ذلك رئيس أساقفة بوردو ليلى منصب البابوية باسم البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤) . ولا شك فى أن

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 128.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 4.
(3) Orton : op. cit. p. 350.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 403.
(5) Tout : The Hist. of England, p. 220.
(6) Lavisse : op. cit, Tome 3, Deuxieme Partie, p. 132.

اختيار أحد رجال الدين الفرنسيين فى ذلك الوقت ليلى منصـــب البابوية أمر له مغزاه وأهميته اذ يبدو أنه جاء مقترنا بتدخل فيلب الرابــع ملك فرنسا (١) . ومهما يكن من أمر فان البابا الجديد اختار عندما بلغه انتخابه أن يبقى حيث هو فأرسل الى الكرادلة يستدعيهم لمقابلته فى ليون ، حيث تمت المراسيم الخاصة بتولية منصبه الجديد (٢) .

ومن الواضح أنه كان مفروضا أن يذهب كلمنت الخامس ليجرى المراسيم الخاصة باعتلائه منصب البابوية فى روما ، أو على الاقل يذهب بعد اجراء هذه المراسيم الى مقر كرسيه البابوى ، ولكن الجديد فى الموضوع هو أنه اختار البقاء فى أفينون على نهر الرون ليتخذ هـــذه المدينة مقرا جـــديدا للبابوية (٣) . وهكذا أصبحت البابوية ــ وهى التى قهرت الامبراطورية الرومانية المقدسة وآل هوهنشتاوفن ــ فرنسية ، بعد أن وليها بابا من أصل فرنسى ، أحاطت به بطانة من الكرادلة الفرنسيين ، وعاش فى بقعة تتكلم الفرنسية وتقع على الحدود الفرنسية (٤) . ذلك أن كلمنت الخامس أصبح يتصدر فى التاريخ قائمة من ستة بابوات فرنسيين اتخذوا أفينون مقاما لهم حتى عاد أخيرا البابا جريجورى الحادى عشر الى روما سنة ١٣٧٧ وعندئذ انتهت فترة الأسر البابلى (٥) .

ولا شك فى أن الحياة فى أفينون حينذاك كانت أسهل وأهدأ مما كانت عليه فى روما . فاذا كانت روما قد وقعت فريسة للمؤامرات والمنازعات حتى غدت البابوية فى أواخر القرن الثالث عشر تحت رحمة كبار الامراء ، فان أفينون كانت فى مأمن من كل ذلك ولا سيما بعد أن اشتراها البابا كلمنت

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Ages ; Tome 1, p. 53.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages p. 405.
(3) Eyre : op. cit. pp. 470-471.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 405.
(5) Stephenson : Med. Hist. p. 502.

السادس سنة ١٣٤٨ وأصبحت ملكا للبابوية (١) . وهكذا قبع بابوات أفينون في مقرهم الجديد حيث شيدوا قصرا للبابوية على ضفاف الرون أصبح اية من آيات الفن المعاصر ، كما أحاطوا مدينتهم الجديدة بسور منيع يكفل لهم الامن والطمأنينة (٢) .

على أن هذا الامن والسلام اللذين تمتعت بهما البابوية في أفينون كانا لا يعادلان بأى حال الخسارة الادبية العظمى التى لحقت بها لبعدهـا عن روما (٣) . فالبابوية استمدت نشأتها وأهميتها في نظر العالم الغربى من كرسى القديس بطرس فى روما (٤) ، ولذلك كان حرمان البابا من هـذه الصفة — صفة كونه خليفة القديس بطرس فى كرسيه بروما — سببا فى قطع الصلة بينه وبين المنبع الاساسى الذى استمدت منه البابوية أولويتها على بقية أسقفيات الغرب . هذا الى أنه من المبالغة أن نتصور أن البابوية تمتعت بحريتها كاملة أثناء اقامتها فى أفينون ، لان هذه المدينة — وان لم تكن تابعة لفرنسا سياسيا — الا أنها كانت محاطة بممتلكات ملوك فرنسا من أسرة كابيه ، مما جعل بابوات أفينون يبدون فى نظر المعاصرين صنيعة لملوك فرنسا بل سجناء تحت سلطانهم ، حتى اطلق على هذه الفترة من تاريخ البابوية « الاسر البابلى » (٥) .

ومن الواضح أن اقامة البابوات فى أفينون حرمتهم من الجزء الأكبر من المالية التى اعتادوا الاعتماد عليها فى روما ، ولذلك حاولت البـابوية فى مقرها الجديد الحصول على موارد جديدة عن طريق فرض ضرائب على نطاق واسع (٦) . ولكن ضعف نفوذ البابوية فى هذه الفترة جعلها تتعرض لمعارضة شديدة من جانب الملوك والامراء — ولا سيما فى انجلترا — حيث

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 272.
(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 502-503.
(3) Hearnshaw : Some Great Political Idealists p. 25.
(4) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 2.
(5) Eyre : op. cit. p. 471.
(6) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 408.

كانت النظرة الى بابوات أفينون على أنهم حلفاء الملكية الفرنسية (١) . وهكذا صدر مرسوم فى انجلترا سنة ١٣٥١ ألغى حق البـــابا فى ملء الوظائف الكنسية الشاغرة فى انجلترا ، كما صدر مرسوم آخر بعد ذلك بسنتين حرم استئناف أى حكم أصدرته محكمة انجليزية أمام محكمة أخرى أجنبية (٢) . وبعد ذلك بنحو عشرين سنة قام حنا وكلف فى انجلترا بحركته المضـــادة البابوية ونفوذها ، مما يوضح مدى الخسائر الأدبية والمادية التى لحقت بالبابوية خلال الأسر البابلى (٣) .

على أنه من الانصاف أن نشير الى أن بابوات أفينون لم يكونوا من الناحية الشخصية دون غيرهم من البابوات السابقين أو اللاحقين . ذلك أنهم حافظوا على رسالة البابوية فى نشر السلام بين المسيحيين وتكتل قواهم ضد المسلمين وارسال البعثات التبشيرية الى الوثنيين ومقاومة الهراطقة ومذاهبهم . هذا الى أن بعضهم كانوا من رجال القانون الكنسى وأضافوا اليه ، وعملوا على تحسين الادارة البابوية وتغذيتها بالمال اللازم (٤) .

الانشقاق الدينى الاكبر (١٣٧٨ — ١٤١٧) :

ولكن يبدو أن بابوات أفينون أحسوا من أول الامر أن وضعهم غير طبيعى لأنه على الرغم من المزايا التى حصلوا عليها فى مقرهم الجديد ، الا أن طبيعة الوظيفة البابوية ارتبطت دائما بمدينة روما . لذلك فكر هـــؤلاء البابوات — الواحد بعد الاخر — فى العودة الى مدينة القديس بطرس . هذا فى الوقت الذى أصيبت فيه روما نفسها بخسارة اقتصادية فادحة كما ازدادت فيها الفوضى نتيجة لتغيب البابوات عنها (٥) ، مما دفع أهلها الى الالحاح على

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 277.
(2 Tout : The Hist. of England, p. 377.
(3) Paiter : A Hist. of the Middle Ages, p. 408.
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 503.
(5) Eyre : op. cit. pp. 497-498.

البابوات بترك أفينون والعودة الى مقرهم الطبيعى . وأخيرا قام البابا جريجورى الحادى عشر (١٣٧٠ — ١٣٧٨) برحلة الى روما — قد تكون لمجرد الزيارة ولكن قدر له أن يموت فيها قبل أن يشرع فى العودة الى أفينون (١) . وهنا أدرك أهالى روما أن فرصتهم قد حانت فضغطوا على الكرادلة لانتخاب أحد أبناء روما — أو على الاقل ايطاليا — لمنصب البابوية ، حتى تم لهم ما أرادوا واختير أورليان السادس (١٣٧٨ — ١٣٨٩) فى منصب البابوية (٢) .

على أن الكرادلة الفرنسيين لم يرضوا عن تلك النتيجة ، فاجتمع ثلاثة عشر منهم فى فوندى Fondi وأعلنوا أن انتخاب البابا أورليان السادس باطل لأنه تم تحت تأثير ضغط خارجى ، واختاروا كلمنت السابع (١٣٧٨ — ١٣٩٤) لمنصب البابوية على أن يقيم البابا الجديد فى أفينون . وعلى هذا الوجه بدأ الانشقاق الدينى الأكبر بوجود سلسلة من البابوات فى روما وأخرى فى أفينون (٣) .

وقد يبدو هذا الانشقاق قليل الاهمية فى نظرنا اليوم ، ولكنه بالغ الأثر بالنسبة للعصور الوسطى وتفكيرها ، فضلا عن وضع البابوية ونفوذها . ذلك أن العالم المسيحى الغربى سرعان ما أنقسم الى معسكرين كبيرين ، فوقفت فرنسا وأسبانيا ونابلى وصقلية فى جانب البابا كلمنت السابع ، فى حين شايعت انجلترا ومعظم المانيا وهنغاريا وبولندا وأمراء شمال ايطاليا البابا أوربان السادس (٤) . هذا مع ملاحظة أن الاجماع لم يكن تاما على أحد البابوات فى أى من البلدان السابقة ، لا سيما بعد أن لجأ كل بابا الى تعيين أتباعه فى الوظائف الدينية المختلفة واستغلال كافة الوسائل — المشروعة

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, p. 95.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 290.

(3) Lodge : The Close of the Middle Ages, p. 186.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 961.

وغير المشروعة ــ لجمع الاموال من الاهالى لنفسه دون خصمه (١) . وليت الأمر وقف عند قيام اثنين من البابوات وحزبين من الكرادلة واثنين من رجال الدين المتنافسين حول كل منصب دينى فى الغرب ، بل ان كل فريق لجأ الى تسفيه رأى الفريق الآخر واظهاره بمظهر عدم اللياقة والصلاحية ، واستصدار قرارات الحرمان ضده مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس المعاصرين ، الذين بدأوا يعيدون النظر فى حقيقة منصب البابوية وأهمية البـــابا ومصـــدر سلطته (٢) . وهكذا ظهر من المفكرين فى القرن الرابـــع عشر من نادوا بأن الكنيسة الحقة انما تتألف من جمهور المسيحيين وان التنظيم الكنسى وعلى رأسه البابا انما هو من صنع البشر ، وأنه كما يختار الناس حاكمهم السياسى لخدمتهم فكذلك ينبغى أن يكون الغرض الاساسى من وجود رجال الكهنوت جميعا هو خدمة الجمهور المسيحى . وبعبارة أخرى فان السلطة العليا سواء فى المسائل الدينية أو الدنيوية يجب أن تترك للنـــاس الذين يجتمعون فى مجامع عامة ليعبروا عن ارادتهم (٣) .

ومن الواضح أن ظهور هذه الآراء أمر له مغزاه واثره فى الوقت الذى عم الاستياء الناس بسبب مطالب البابوية الباهظة . وأخيرا فكر بعض الكرادلة فى ايجاد حل للموقف فعقدوا مجمعا فى بيزا سنة ١٤٠٩ وقرروا عزل كل من بابا روما وبابا أفينون وانتخاب بابا جديد يحل محلهما جميعا . على أن هذه المحاولة جاءت لتزيد الطين بلة اذ اختار الكرادلة فى بيزا البابا أسكندر الخامس الذى لم يلبث أن توفى فخلفه البابا حنا الثالث والعشرين (١٤١٠ ــ ١٤١٥) ، هذا فى الوقت الذى لم يوافق بابا روما أو أفينون على التخلى عن منصبه ، وبذلك أصبح للعالم المسيحى الغربى ثلاثة بابوات (٤) .

---

(1) Eyre : op. cit. p. 510.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 2, pp. 962-963.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 293.294.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Ages, pp. 318-323.

ثم كان ان أعتلى سجسموند ملك هنغاريا عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٤١١ — ١٤٣٧) ، وهو الرجل الذى اعتقد اعتقادا راسخا فى أهمية الوظيفة الامبراطورية ومسئولياتها . وقد أحس سجسموند بضرورة العمل السريع لوضع حد للانشقاق البابوى لاسيما بعد أن أخذت حركة حنا هس — التى سنبحثها بعد قليل — تزداد خطورة وانتشارا لتجذب بوهيميا خارج حظيرة الكاثوليكية (١) . لذلك دعا سجســموند لعقد مجمع دينى عام فى كونستانس سنة ١٤١٣ واستصدر من البابا حنا الثالث والعشرين قرارا بشرعية هذا المجمع ، فوافق بابا روما — جريجورى الثانى عشر (١٤٠٦ — ١٤١٥) — على أرسال مندوبين عنه ، فى حين امتنع بابا أفينون — بندكت الثالث عشر (١٣٩٤ — ١٤٢٢) عن الاشتراك فيه (٢) .

وكان مجمع كونستانس من أعظم المجامع الدينية وأخطرها ، ليس فى العصور الوسطى فقط وانما فى التاريخ عامة ، لأن فيه التقى العالم القديم بالعالم الجديد (٣) . وليس فقط بسبب الظروف التى عقد فيها المسائل التى عرضت عليه لمناقشتها ، بل أيضا نتيجة لتكوينه وأهمية الاعضاء المشتركين فيه . ذلك لانه أشترك فى هذا المجمع ثلاثة بطارقة وتسعة وعشرون كارديناﻻ وثلاثة وثلاثون من رؤساء الأساقفة ، ومائة وخمسون أسقفا ، ومائة من مقدمى الأديرة ، فضلا عن ثلثمائة من فقهاء اللاهوت (٤) . وقد بدأ مجمع كنونستانس بمناقشة الهراطقة الهسية ولذلك لم يبدأ فى بحث موضــوع الانشقاق الدينى بصورة جدية الا فى أوائل سنة ١٤١٥ (٥) . على أن مناقشة هذا الموضوع لم تكن بالأمر الهين ، فاستمرت مدة طويلة ، ظهر فى أثنائها كثير من التيارات المتعارضة ، وان كان الصالح العام قد تغلب دائما على روح المجمع . وهكذا أدين بابا بيزا — حنا الثالث والعشرين — وعزل عن منصبه

---

(1) Eyre : op. cit. p. 513.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 2.
(3) Lodge : op. cit. p. 211.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, pp. 411-412.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 301 & Vol. 8, p. 4

البابوات أثنـاء الانشقاق الأكـبر

بابوات رومـا

أوربان السادس (١٣٧٨ ـ ١٣٨٩)

بونيفيس التاسع (١٣٨٩ ـ ١٤٠٤)

أنوسنت السابع (١٤٠٤ ـ ١٤٠٦)

جريجورى الثانى عشر (١٤٠٦ ـ ١٤١٥)

بابوات أفينـون

كلمنت السابع (١٣٧٨ ـ ١٣٩٤)

بندكت الثالث عشر (١٣٩٤ ـ ١٤٢٢)

بابوات مجمـع بـيزا

اسكندر الخامس (١٤٠٩ ـ ١٤١٠)

حنا الثالث والعشرون (١٤١٠ ـ ١٤٥١)

سنة ١٤١٥ . أما بابا روما — جريجورى الثانى عشر — فقد اختار أسلم الطرق واستقال من منصبه (١) . وبهذا لم يبق سوى بابا افينون — بندكت الثالث عشر — الذى أظهر تمسكا بوظيفته بعد أن زال منافساه من طريقه ، ولكن مجمع كونستانس عزله هو الآخر سنة ١٤١٧ (٢) . وهنا لم يستسلم بندكت الثالث عشر فى سهولة ، واختار أن يعتصم بقلعة حصينة حيث ظل متمسكا بحقه حتى مات سنة ١٤٢٢ ، وعندئذ خلفه كلمنت الثامن (١٤٢٣ — ١٤٧٩) (٣) . ومع ذلك لم يعترف بهما أحد من ملوك أوربا أو كبار أمرائها حتى زالت بابوية افينون زوالا تلقائيا . أما البابا الوحيد الذى اختير ليرأس الكنيسة الغربية فكان مارتن الخامس (١٤١٧ — ١٤٣١) (٤) .

وهكذا نجح مجمع كونستانس فى علاج الانشقاق الدينى الاكبر فعادت الى البابوية وحدتها ، كما نجح هذا المجمع أيضا فى تأكيد فكرة سيادة مجمع دينى عام على البابوية . هــذا زيادة على جهوده فى العمل على اصلاح الكنيسة وتدعيمها (٥)

على أن مجمع كونستانس لم ينفض سنة ١٤١٧ الا بعد أن وضع أساس عدة مجامع أخرى لتكمل البناء الذى شرع فيه كونستانس . وكان أول هذه المجامع التى عقدت بعد انفضاض مجمع كونستانس هو مجمع بافيا — سنة ١٤٢٣ ، وثانيها مجمع بازل سنة ١٤٣١ (٦) . وبعد أن ناقش هذا المجمع الأخير بعض المسائل المتعلقة بالهرطقة الهسية ، أصدر البابا أيوجنيوس الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧) أمرا بفضه . ولكن أعضاء المجمع رفضوا الاذعان لأمر البابا وأعلنوا استمرار انعقاد المجمع حتى أصدروا عــدة قــرارات اصلاحية (٧) . وبدراسة هذه القرارات يبدو واضحا أن البابوية كانت

---

(1) Eyre : op. cit. p. 519.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, p. 342.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 9-10 & 19.
(4) Idem : Vol. 7, p. 301.
(5) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 969.
(6) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 415.
(7) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 24-30.

هدفها الأول ، اذ نص بعضها على عدم دفع رسوم عند التعيين فى وظيفة كنسية ، فى حين نص البعض الاخر على حرمان البابا من حق تعيين الأساقفة وجعل هذا التعيين عن طريق الانتخاب (١) . وأخيرا لم يجد البابا أيوجنيوس وسيلة لفض مجمع بازل سوى الدعوة الى مجمع آخر فى فرارا سنة ١٤٣٧ . وقد عقد هذا المجمع الذى دعا له البابا فى فرارا ثم انتقل الى فلورنسا (١٤٣٨ — ١٤٣٩) حيث كانت أهم مسألة عرضت عليه هى موضوع ازالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية (٢) . ذلك أن الامبراطور البيزنطى لم يجد وسيلة يحمى بها نفسه وعاصمته من الخطر العثمانى حينذاك سوى الاتحاد مع غرب أوربا (٣) . وبعد نقاش طويل بين الجنابين ، وافق مندوبو الكنيسة الشرقية على شروط البابا ، وصدر مرسوم باتحاد الكنيستين ، وان كانت الكنيسة الشرقية نفسها لم تأخذ بهذا المرسوم بعد أن أعلن بطارقة الاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس (سنة ١٤٤٣) معارضتهم لمشروع الاتحاد ، ومن ثم ظل هذا المرسوم عديم الاثر (٤) .

أما عن البابوية فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر ، فقد فقدت كثيرا من مظاهر عظمتها وهيبتها الأولى ، فضلا عن ضياع ما كان لها من نفوذ سياسى وروحى تمتعت به فى أوائل القرن الثالث عشر . ذلك أن البابوات أصبحوا فى هذه الفترة جماعة من المترفين الذين لا يعنيهم من أمر الكنيسة سوى الحصول على أكبر قدر ممكن من المال لتحقيق مصالحهم الخاصة ومصالح أقاربهم وذويهم (٥) . هذا الى أن الأسر البابلى والانشقاق الاكبر أضعفا مركز البابوية بوجه خاص والكنيسة بوجه عام . وبالرغم من جهود المصلحين وصيحاتهم التى انبعثت من داخل الكنيسة وخارجها فان البابوية أصمت أذنها وأغلقت عينها وانصرفت عن كل اصلاح . وأخيرا أخذت المبادىء الهرطقية تنتشر سرا فى كثير من البلاد الغربية ، وجهروا فى بعضها ،

(1) Eyre : op. cit. p. 526.
(2 Lodge : op. cit. p. 236..
(3) Came. Med. Hist. Vol. 8, p. 35.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 372-374.
(5) Cam. Med. Hist. Vol 8, pp. 171-173-

لتقضى على ما تبقى من نفوذ وهيبة لرجال الدين ، وتضع الأساس لحركة الاصلاح الدينى فيما بعد (١) .

الحركات الهرطقية :

ليست الآراء الهرطقية بالاشياء الجديدة على المسيحية ، فقد شهدت الكنيسة منذ ضحى تاريخها كثيرا من الاراء المنافية لتعاليمها ، مما جعل البابوات والحكام يكافحونها فى شدة وعنف . وقد بدأ كثير من هذه الاراء بمهاجمة رجال الكنيسة وحياتهم المترفة وثرائهم الفاحش وبعدهم عن مثل المسيحية وبساطتها ، ثم لم يلبث أن تطور هذا الهجوم الى انتحال آراء جديدة لا تخلو من تطرف وخطورة . من ذلك ما رأيناه فى القرن الثانى عشر من ظهور مذهبين من مذاهب الهراطقة ، هما مذهب الألبيجنسيين (الكاتاريين) ومذهب الوالدنسيين ، حتى شنت البابوية عليهما جميعا حربا شعواء انتهت بالقضاء عليهما فى جنوب فرنسا (٢) . على أنه لم يكن من المنتظر أن تنتهى الآراء الخارجة على الكنيسة ما دامت الكنيسة نفسها منصرفة عن اصلاح أوضاعها . وهنا وجدت الرغبة فى الاصلاح والعودة الى حياة البساطة منفذا لها فى هيئات الاخوان والرهبان (الفرير) فظهرت عدة منظمات منها فى القـــرن الثالث عشر أهمها منظمة الاخوان الفرنسسكان ومنظمة الاخوان الدومينكان وكلها ترمى الى حياة البساطة وحماية الكنيسة من الآراء الهرطقية وتدعيم البابوية عن طريق امدادها بأتباع مخلصين متفانين فى خدمة الدين (٣) .

ثم كان أن تدهور مركز البابوية تدهورا واضحا منذ القرن الرابع عشر نتيجة للأسر البابلى والانشقاق الدينى الأكبر والمجامع الدينية التى وقفت من البابوية موقفا عنيدا ، مما ترتب عليه نمو الحركات الهرطقية وازدياد عدد

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 428.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 20.

(3) Eyre : op cit. pp 242-245.

أتباعها . ولم تكن كل هذه الحركات التى ظهرت على المسرح الأوربى فى القرن الرابع عشر جديدة ، وانما كان بعضها قديما ، فالوالدنسيون الذين تم اخماد حركتهم فى القرن الثانى عشر فى جنوب فرنســا قرب الحــدود الأسبانية ، ظلوا أقوياء فى المناطق الواقعة شرقى الرون ، حيث كان مركزهم الرئيسى حــول مدينة ليون (١) . وكذلك الكاتاريون الذين خبت حركتهم فى غرب أوربا اختفوا من ايطاليا وجنوب فرنسا لينشروا آراءهم شرقى البحر الادرياتى ، حتى غــزا العثمانيون البلقــان وعندئذ فر من وجههم الكاتاريون لينتشروا فى غرب أوربا مرة أخرى (٢) . وثمة حركة أخرى شهدها غرب أوربا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر هى حــركة السياطين Flagellants ، التى جاءت وليدة الذعر الذى أصــاب الناس عند انتشار الوباء الأسود ، فاعتقدوا أن هذا الوباء مظهر لغضب الله على عباده الآثمين ، وأنه لا سبيل الى النجاة من ذلك الغضب الا بتعذيب النفس وضرب الجسد بالسياط (٣) . وقد بلغ هذا التعذيب درجة من التطرف جعلتهم يضربون أنفسهم بسياط ربطت أطرافها بقطع من الحديد ، معتقدين أن من يواظب على هذه العملية ثلاثة وثلاثين يوما ونصف يوم فانه يضمن تطهير نفسه من جميع ما علق بها من آثام (٤) . وهكذا انتشرت جماعات السياطين — رجالا ونساء — يوقعون على أنفسهم هذا الجزاء ويقتلون كل من يعارضهم من اليهود أو من رجال الكنيسة ، حتى صدر قرار بابوى بالقضاء عليهم سنة ١٣٤٩ ، وان استمرت لهم بقية حتى القرن الخامس عشر (٥) .

ومهما يكن من أمر هذه الحركات وأشباهها ، فانه لا يوجد شك فى أن أهم رجلين فى العصور الوسطى مهدا لحركة الاصلاح الدينى التى تزعمها

---

(1) Painter : A Hist of the Middle Ages, p. 417.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 103-104.
(3)) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 419.
(4) Workman : The Evolution of Monasticism, p. 216.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 106-107.

مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) فيما بعد — هما حنا وكلف وحناهس (١) .
أما حنا وكلف John Wyclif فهو انجليزى ولد سنة ١٣٢٨ فى احدى قرى يوركشير ، ثم تلقى تعليمه فى جامعة أكسفورد واكتسب شهرة واسعة فى علم اللاهوت ، جعلت الملك ادوارد الثالث يختاره سنة ١٣٧٤ عضوا فى البعثة الملكية التى أوفدها الى بروجز Bruges لمفاوضة مندوبى البابا جريجورى الحادى عشر فى بعض المسائل المختلف عليها بين الطرفين (٢) .
وبعد عودة وكلف من تلك المهمة عكف فى أكسفورد على وضع عدة أبحاث هامة حول العلاقات بين السلطتين العلمانية والكنسية (٣) . وتحتل مسألة الملكية ركنا مهما من أبحاث وكلف ، فهو يرى أن الرب وحده هو الـــذى له ملك السموات والارض ، وأن جميع الصالحين من عبـــاده لهم حق فى ملكية الأرض ، وأن هذه الملكية حق مشاع عام بينهم لأن الملكية الفردية انما جاءت نتيجة لخطيئة آدم (٤) . على ذلك لا يصح أن تتردى الكنيســـة فى الخطيئة نفسها بل يجب أن تسمو عن الملكية الفردية ، كما يجب أن تتخلى عن جميع ممتلكاتها . على أنه يجوز للكنيسة أن تحتفظ ببعض أملاكها اذا استغلتها استغلالا طيبا ، وفى هذه الحالة يجب على الملك أو الأمير أن يحدد الجزء الذى تحتفظ به الكنيسة من ممتلكاتها (٥) . ويفسر وكلف الثروة الواسعة التى تمتعت بها الكنيسة ورجالها بأنها مظهر من مظاهر انصراف رجال الدين عن مهمتهم الأساسية ، لأنهم لو قاموا بواجبهم الأصلى ما صارت لهم حاجة الى هذه الثروة . ثم يوضح كذلك أن ثروة الكنيسة عامل من عوامل افقار الدولة كما يعيب على رجال الدين عدم تفرغهم لواجباتهم واشتغالهم بالسياسة والادارة ، فى حين اعتبر الديريين فئة من المتعطلين الذين يعيشون عيالا على المجتمع (٦) . ولهذا انصب جزء كبير من نقد وكلف على الهيئات

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 963.
(2) Winn : Wyclif. pp. XII-XX.
(3) Hearnshaw : Some Great Political Idealists of the Christian Era, pp. 35-36.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 497-498.
(5) Eyre : op. cit. pp. 521-522.
(6) Oman : The Hist. of England, p. 69.

الديرية المختلفة — وبخاصة منظمات الاخوان الرهبان — بسبب ممتلكاتهم الواسعة من جهة ، ولاخفاقهم فى المهمة الاساسية لرجل الدين — وهى العمل على أعلاء كلمة الله — من جهة أخرى (١) .

وقد صادفت آراء وكلف هذه هوى فى نفوس عدد من الأمراء الانجليز الطامعين فى الاستيلاء على أملاك الكنيسة ، فاستدعوه الى لندن سنة ١٣٧٦ لشرح آرائه على الملأ ، مما أثار رجال الدين ، وعندما بلغت تعاليم وكلف البابا جريجورى الحادى عشر — غداة عودته من أفينون الى روما — أنكرها ، وأرسل الى ادوارد الثالث يطلب منه مكافحة هذه التعاليم وحبس وكلف . واذا كان ادوارد الثالث قد توفى قبل وصول الأوامر البابوية ، الا أن الموقف انتهى بطرد وكلف وشيعته من أكسفورد ، فأعتزل بقية حياته فى احدى القرى حتى مات فى هدوء سنة ١٣٨٣ (٢) .

ولو كلف آراء كثيرة فى اللاهوت تقوم على أســاس تعاليم القديس أوغسطين ، من ذلك أنه اعتقد فى مبدأ القدر ، ورأى أن البعض قدر لــه الخلاص والرحمة ، والبعض الاخر قدر له الهلاك واللعنة الأبدية ، « وقد يكون البابا من الفريق الأخير ! » (٣) . كذلك رأى وكلف أن أسلوب المسيحية فى الحياة يجب أن يستقى من الانجيل نفسه لا من تعاليم الكنيسة ، وأن الصلة بين الانسان وخالقه يجب أن تكون مباشرة دون وساطة أحد من رجال الدين أيا كان مركزه فى الكنيسة (٤) . لهذا أدرك وكلف أن الانجيل يجب أن يكون فى متناول كل مسيحى ، فقام جماعة من أعوانه بترجمة الانجيل الى الانجليزية تحت اشرافه ، مما كان له أثر كبير فى حركة الاصلاح الدينى فيما بعد (٥) . ومن الواضح أن هذه الآراء فى مجموعها هرطقية — أى خارجة على آراء

---

(1) Winn : Wyclif, pp. XXVI — XXVII

(2) Oman : The Hist. of England, p. 80.

(3) Hearnshaw : Some Great Political Idealists, pp. 43-44.

(4) Winn : op. cit. p. 6.

(5) Idem : pp. 6-7.

الكنيسة وتعاليمها — لأنها فى جانبها السياسى تحرم الكنيسة من أملاكها ومواردها المالية ، وفى جانبها اللاهوتى تهدم السلطة الروحية للكنيسة (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد أخذت آراء وكلف تنتشر بسرعة فى انجلترا أثناء حياته على أيدى بعض رجال أكسفورد وبعض صغار القساوسة . ذلك أن هذه الآراء صادفت قبولا كبيرا فى نفوس ثلاث فئات ، أولادها رجال العلم من المفكرين الاحرار ، ثم الفقراء من أهل الريف ، وأخيرا الأمـراء الطامعين فى الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة . وقد أطلق على أتباع وكلف اسم اللولارديين Lollards الذين أخذوا يزدادون ، حتى اضطر البرلمان الانجليزى الى أصدار قانون فى عهد هنرى الرابع (سنة ١٤١٠) يقضى بتسليم كل من يتهم باللولاردية الى الكنيسة لمحاكمته ، فاذا أدين أحرق حيا بواسطة السلطة الزمنية (٢) . وبعد ذلك جاء هنرى الخامس فتطرف فى مطاردتهم والقضاء عليهم ، حتى اختفت اللولاردية فى الظاهر . عـلى الرغم من ذلك فقد ظل بعض النبلاء يجهرون باعتناقهم اللولاردية نظرا لما فيها من تحقيق لمطامعهم فى أراضى الكنيسة (٣) . وكان زعيم اللولارديين حينئذ اللورد كوبهام — حنا أولد كاسل — الذى أثار عدة ثورات فى أوائل عهد هنرى الخامس ، ولكنها باءت بالفشل حتى انتهى الامر باعدامه سنة ١٤١٧ . وبأعدام أولد كاسل أنتهى النشاط السياسى للحركة اللولاردية (٤) .

* * *

على أنه اذا كان قد تم القضاء فى سرعة على آراء حنا وكلف وأتباعه فى انجلترا ، الا أن هذه الآراء سرعان ما انتشرت خارج البلاد حتى تمخضت عن انفجار عنيف فى بوهيميا . ذلك أن الامبراطور شارل الرابع (١٣٤٧ —

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 423.
(2) Oman : The Hist. of England, p. 171.
(3) Idem, p. 233.
(4) Idem, p. 267.

١٣٧٨) ترك عرش ألمانيا وبوهيميا من بعده لابنه ونسلاس Wenceslas (١٣٧٨ ـ ١٤٠٠) ، فى حين زوج ابنته ـ الأميرة آن ـ لريتشارد الثانى ملك انجلترا . وقد صحبت هذه المصاهرة بين البيتين المالكين فى بوهيميا وألمانيا من جهة ، وانجلترا من جهة أخرى ، وهجرة كثير من أهالى بوهيميا صحبة أميرتهم الى انجلترا حيث التحق بعضهم بالجامعات وتأثروا بالآراء التى سادتها ، ومن جلمتها تعاليم وكلف (١) . وعن هذا الطريق انتقلت آراء وكلف السـياسية الى بوهيميا فى أواخر القرن الرابع عشر ، بل لم تلبث تعاليمه فى اللاهوت أن انتقلت هى الأخرى عند مستهل القرن الخامس عشر على يد جيروم البراغى ، أحد أساتذة براغ المتحمسين لتعاليم وكلف (٢) .

وفى ذلك الوقت كانت جامعة براغ التى تأسست سنة ١٣٤٨ قد أصبحت مركزا عالميا للدراسات المختلفة (٣) . وسرعان ما وجد جيروم البراغى أنصارا أشداء لتعاليم وكلف بين رجال هذه الجامعة ، وخاصة من التشك ، الأمر الذى أفزع الكنيسة فأصدرت أمرا سنة ١٤٠٣ باعدام هذه التعاليم وأعتبار أصحابها من الهراطقة (٤) . وكان على رأس الاساقفة التشك الذين عارضوا هذا الاجراء حناهس (John Huss)

أما حناهس هذا فقد ولد سنة ١٣٧٠ وحصل على أجازة الليسانس فى اللاهوت سنة ١٣٩٣ ثم على الماجستير فى الاداب بعد قليل ، وبذلك جمع فى دراسته بين تعاليم الانجيل وتعاليم أرسطو (٥) . وقد عرف هس بفصاحته وتحمسه للاصلاح الدينى ، وقوته فى مهاجمة نواحى الضعف فى الكنيسة ومفاسد حياة رجال الدين ، فاتخذ الوعظ والارشاد وسيلة قوية لشن هجومه على هذه المفاسد حتى أصبح له أنصار عديدون فى مختلف الطبقات . ولكن

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 546.
(2) Lodge : op. cit. p. 208.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp.. 167-168.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 425.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 333.

يلاحظ أنه اذا كان هس قد تأثر بآراء وكلف حتى اعتبر تلميذا له ، الا أنه لم يعتنق كل هذه الاراء ، اذ أعلن سنة ١٤١١ أنه لا يتفق مع وكلف فى بعض المبادىء الرئيسية (١) . والحق أن هس كان داعيا ومصلحا دينيا أكثر منه لاهوتيا أو عالما ، فأخذ عن وكلف بعض الآراء التى احتـــاج اليها فى سياسته ، ولم يهتم بالباقى . وهكذا استمر هس يواصل هجماته العنيفة ضد الاوضاع السائدة فى الكنيسة ، الامر الذى أفزع رئيس أساقفة براغ فأصدر أمرا بمنع أساتذة الجامعة من الوعظ والارشاد ، ووضع براغ نفسها تحت الحرمان (٢) .

على أن موقف هس لم يتأزم بشكل واضح الا منذ سنة ١٤١٢ عندما اختلف البابا حنا الثالث والعشرين مع لادسلاس Ladislas ملك نابلى ، فأعلن البابا حملة صليبية ضد الملك . وهنا لجأت البابوية ـــ كعادتها طوال الحركة الصليبية ـــ الى توزيع صكوك الغفران على كل من يسهم فى تلك الحملة أو يتبرع لها بالمال ، فى الوقت الذى كان المصلحون ـــ وعلى رأسهم هس ـــ يهاجمون هذه البدعة وينادون بأن صكوك الغفران ليست من الدين فى شىء . وقد ذهب هس فى هجومه على صكوك الغفران الى حد القول بأن الاوامر البابوية تعتبر ملغاة لا قيمة لها اذا كـــانت تتعارض مع تعاليم المسيح (٤) . ولكن هذا الهجوم كان أقوى من أن تتحمله عقلية المعاصرين ، فأعلنت جامعة براغ مرة أخرى اعدام آراء وكلف ولا سيما تلك الاراء التى اعتمد عليها هس فى معارضة فكرة صكوك الغفران (٥) . أما البابا فقد وقع الحرمان على هس ، فى حين اضطر الملك ونسلاس الى مسايرة التيـــار فطرد هس وأعوانه من الجامعة ، بل من مدينة براغ كلها (٦) . وهكـــذا

---

(1) Eyre : op. cit. p. 522.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 47.
(3) Lodge : op. cit. p. 211.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 55.
(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 459.
(6) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 56.

اضطر هس الى الانسحاب — فى أواخر سنة ١٤١٢ — الى جهة ريفية فى بوهيميا حيث استمر فى الدعوة لتعاليمه . كما عكف على كتابة بعض المؤلفات التى يبدو فيها تأثره العميق بآراء وكلف وان كان أكثر تحفظا من وكلف فى كثير من النواحى (١) .

ثم كان أن اجتمع مجمع كونستانس — كما سبق أن رأينا — لينظر فى عدة مسائل مهمة ، أهمها مسألة وضع حد للهرطقة الهسية . لذلك وجهت الدعوة الى هس لحضور المجمع ، فحذره أصدقاؤه من الذهاب ، ولكنه وجد فى هذا المجمع فرصة طيبة لشرح آرائه أمام جمهور كبير من المسيحيين ، فرحل الى كونستانس بعد أن حصل على موثق من الملك سجسموند بعدم الاعتداء على حياته (٢) . وعندما وصل هس الى كونستانس فى نوفمبر سنة ١٤١٤ ألقى القبض عليه فى الحال وزج به فى السجن ، على الرغم من محاولات سجسموند للافراج عنه (٣) . ثم طلب من هس أن يحدد موقفه من خمس وأربعين مسألة مستقاة من آراء وكلف ، واثنين وأربعين مسألة من آرائه هو ، وعندئذ أعلن هس أنه يتفق مع وكلف فى بعض آرائه ويختلف معه فى البعض الآخر . أما آراؤه هو فقد أصر عليها ولم يشأ أن يتنكر لها (٤) . وأخيرا صدر القرار بادانة هس ، فأعدم حرقا سنة ١٤١٥ ، كما أعدم أيضا — بعد عام — جيروم البراغى الذى أتى الى كونستانس لمساندته (٥) .

على أن كثيراً من أهالى بوهيميا — على اختلاف طبقاتهم — نظروا الى هس لا على أنه مصلح دينى فحسب ، بل على أنه من أئمة القومية التشيكية (٦) . لذلك حدث فى مايو سنة ١٤١٥ عندما كان هس سجينا ينتظر

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 338.
(2) Lodge : op. cit. p. 211.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 58.
(4)) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1. pp. 346-347.
(5) Eyre : op. cit. p. 556.
(6) Pirenne : La Fin du Moyen Ages, Tome 1, p. 333.

محاكمته ، أن اجتمع جمهور كبير من نبلاء بوهيميا وكتبوا الى مجمع كونستانس طالبين العفو عنه . ولكن المجمع لم ينظر الى هذا الطلب بعين الاعتبار وأمر باحراق هس ، الأمر الذى أثار الشعور العام فى بوهيميا فاجتمع خمسمائة من نبلائها وأقسـمـوا عـلى عدم تنفيذ أى قـرار من قرارات مجمع كونستانس (١) . وفى سنة ١٤١٩ اسـتولت جموع الهسيين على براغ وذبحوا أعضاء مجلس المدينة ، فاتجه اليهم سجسموند — الذى خلف أخاه ونسسلاس الرابع فى حكم بوهيميا — ولكنه هزم هزيمة ساحقة (٢) . وقد قاد سجسموند عدة حملات صليبية ضد الهسيين ولكنه هزم فى كل مرة على أيدى فلاحى بوهيميا (١٤٢٠ — ١٤٢٢) (٣) .

على أن الهسيين سرعان ما انقسموا شيعا بعد وفاة رائدهم ، مما أوجد عدة فرق هرطقية . ومع اختلاف هذه الفرق بعضها مع بعض فى الاراء الا أنها اتحدت جميعها فى وجه الخطر الخارجى حتى تمكنت من التغلب على الجيوش العديدة التى أرسلت ضدها (٤) . ولم يهدأ الموقف فى بوهيميا الا حوالى سنة ١٤٣٤ عندما صفى النبلاء الهسيون والكاثوليك ما بينهم من خلافات ، وارتضوا أن يكون سجسموند ملكا على بوهيميا بشرط الاعتراف بعقائد الهسيين المعتدلين (١٤٣٦) (٥) . ومع ذلك فقد ظلت الاوضاع السياسة معقدة فى بوهيميا بقية القرن الخامس عشر ، حتى اعتلى عرشها أكثر من ملك يدين بالعقائد الهسية . وهكذا ظلت بوهيميا معقلا للهرطقة والهراطقة الى ما بعد الحركة المضادة للاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر (٦) .

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 327.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 69-79.
(3) Lodge : op. cit. p. 224.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 356-357.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 82-83.
(6) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 428.

البـــاب العشرون

أسبانيا بين المسلمين والمسيحيين

أسبانيا بعد الفتح الاسلامى :

رأينا كيف فتح المسلمون أسبانيا فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ — ٧١٥) فنجحوا فى القضاء على دولة القوط الغربيين وحاولوا التوغل فى جنوب غاليا حتى أوقفهم شارل مارتل عند حدهم بعد أن هزمهم فى موقعة تور أو بواتييه سنة ٧٣٢ (١) . وهنا نلاحظ أن البربر هم الذين تحملوا العبء الاكبر فى فتح أسبانيا لان معظم الكتائب التى أسهمت فى هذا الفتح كانت منهم ، ثم لم يلبث أن استمر البربز فى تدفقهم بعد ذلك من شمال أفريقية الى تلك البلاد الجديدة ، حتى أوشكت الأندلس أن تصبح امتداداً لبلاد المغرب (٢) . ويبدو أن البربر فى شمال أفريقيا والاندلس أخذوا يشعرون بقوتهم منذ وقت مبكر ، حتى أشعلوا الثورة سنة ٧٢٩ فى وجه الخلافة الأموية بالشـــام دون أن يتمكن الأمويون من اخماد ثورتهم الا فى صعوبة .

ثم كان أن دالت دولة الأمويين ، وقام العباسيون فى الخلافة ليثأروا من أبناء البيت الاموى ويقتلوا مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية فى الشرق سنة ٧٥٠ . ولكن أحد أبناء البيت الاموى — وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام — استطاع الفرار الى مصر ومنها الى المغرب فالأندلس ، فوصلها سنة ٧٥٠ حيث التف حوله جند الشام من أتباع الامويين ومواليهم الذين سبق أرسالهم الى الاندلس لاخماد ثورة البربر . وكان ذلك سنة ٧٥٦ عندما

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 309.
(2) Diehl, Marcais : Le Monde Orientale, p. 396.

استولى عبد الرحمن ـ الذى لقب بالداخل ـ على قرطبة بعد مقاومة شديدة من أمير الأندلس حينذاك ـ وهو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وبذلك أصبح عبد الرحمن الداخل أول أمراء بنى أمية بالاندلس (١) .

وقد واجهت الامير عبد الرحمن الأول متاعب عديدة فى دولته الجديدة ، اهمها من ناحية البربر الذين لم يستسلموا أو يخضعوا له فى سهولة ، بل قاموا بثورة جامحة فى الجهات الشمالية من الدولة . كذلك صادف عبد الرحمن الأول مقاومة شديدة من جانب زعماء العرب اليمانية فى الأندلس ، حتى يقال أن الشيخ سليمان العربى أرسل ثلاثة من رجاله الى شارلمان سنة ٧٧٧ طالبين منه الزحف على الاندلس لطرد الامير عبد الرحمن الداخل (٢) . أما مدن أسبانيا فقد ظلت أمدا طويلا مراكز للفتن والاضطرابات . وعلى رأس هذه المدن طليطلة التى كانت عاصمة القوط الغربيين من قبل والتى ظل جزء كبير من أهلها على الديانة المسيحية ، وهؤلاء لم يستسلموا لحكم المسلمين فى سهولة . هذا الى أن عبد الرحمن الداخل لم يكد يستقر فى قرطبة حتى تبعه العلاء بن مغيث من أفريقية سنة ٧٦٣ ليرفع العلم العباسى الأسود فى الأندلس بعد أن عينه الخليفة المنصور العباسى واليا عليه (٣) .

ولكن عبد الرحمن الداخل كان واسع الحيلة قوى العزيمة ، لا يتورع عن اتخاذ أى السبل ما دامت توصله الى هدفه ، فأنزل الهزيمة بالعباسيين بعد أن خدع قائدهم (٤) ، ثم تتابعت انتصاراته بعد ذلك فقضى عشر سنوات فى أخضاع ثورة البربر ، كما شتت شمل اليمانية وقتل منهم ثلاثين ألفا (٥) ،

---

(1) Dozy : Spanish Islam, pp. 187-192.

(2) Watts : Spain, p. 32.

(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(4) Dozy : op. cit. p. 199.

(٥) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٦٠ .

فى حين لم يصادف شارلمان توفيقا فى حملته على أسبانيا سنة ٧٧٨ (١) . أما أهل أسبانيا الأصليين من المسيحيين فقد أخذ كثيرون منهم يقبلون على الاسلام ويعتنقونه فى حماسة واضحة ، حتى غدوا أكثر تعصبا لدينهم الجديد من المسلمين الغزاة . وهكذا أخذ عبد الرحمن الداخل يجنى ثمار جهوده ، فغدت قرطبة عاصمة الدولة الاموية بالاندلس ، وان بقى الامير عبد الرحمن الداخل وحيدا مكروها فيها لأن سياسته وأخلاقه صرفت الناس عنه .

ثم خلف عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٨ ابنه هشام الاول الراضى ، الذى كان رجلا فاضلا محبا للخير ، فأكرم الفقهاء ورجال الدين وزاد من نفوذهم حتى أضحوا خطرا عليه وعلى دولته . وقد ظهر على رأس أولئك الفقهاء حينئذ رجل عظيم المواهب هو يحيى بن يحيى الليثى الذى رأى فى تقوى هشام فرصة لرفع فقهاء قرطبة الى درجة عالية من النفوذ والحرمة ، كل ذلك وهشام لا يرى خطرا فى هذه الفئة من رجال الدين حتى توفى سنة ٧٩٦ (٢) . على أن خطر الفقهاء ظهر فى صورة واضحة على عهد خليفته الأمير الحكم الأول المنتصر الذى كان مستهترا بعيدا عن التمسك بأحكام الدين ، مما أثار الفقهاء ضده فاستغلوا نفوذهم الواسع فى القيام بثورة عاتية ، هجموا فيها على قصر الأمير الحكم بقرطبة بحيث لم يستطع النجاة الا فى صعوبة (٣) .

وعندما مات الحكم الأول سنة ٨٢٢ خلفه ابنه عبد الرحمن الثانى أو الأوسط الذى امعن فى اللهو والعبث حتى أوشكت قرطبة فى عهده أن تتحول الى بغداد ثانية (٤) . ولعل هذا الوضع الذى انحدر اليه أمر قرطبة كان من أقوى العوامل التى شجعت المسيحيين بالاندلس على الثورة فى أواخر

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 413.

(2) Idem : p. 414.

(3) Dozy : op. cit. pp. 250-252.

(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٧١ .

القرن التاسع . ثم أعقبت ثورة المسيحيين عدة ثورات قام بها البربر وغيرهم، في الوقت الذي تعاقب على كرسى الحكم عدة أمراء لا يرجى من ورائهم نفع . وفى ذلك الوقت أخذ الفيكنج — الذين عرفهم عرب الاندلس باسم المجوس — يغيرون على أسبانيا فنزلوا على شاطىء غاليسيا قرب منتصف القرن التاسع وأغاروا على لشبونة وقادس وأشبيلية (١) .

وهكذا يمكن القول بأن أحوال الأندلس لم تستقر وتنتظم الا فى عهد عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١) . ذلك أن عبد الرحمن الثالث استغل الظروف المواتية من جهة وكفايته الشخصية من جهة أخرى فى اخضـــاع المدن والمنشقين عليه والخارجين عن نفوذه ، فأخضع ابن حفصون وجماعته ، ودانت له أشبيلية التى أعتصم بها بعض زعماء القبائل العربية . أما طليطلة فقد اضطرت أخيرا الى التسليم سنة ٩٣٠ بعد حصار طويل (٢) . ولعل هذا التوفيق الكبير الذى صادفه عبد الرحمن الثالث كان العامل الاساسى الذى شجعه على اتخاذ لقب خليفة ، فتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر . والمعروف أن حكام الاندلس من بنى أمية ظلوا حتى ذلك الوقت يلقبون بالامراء ، ولم يتخذ أحدهم — قبل عبد الرحمن الناصر — لقب الخلافة ، على الرغم من عدم اعترافهم بخلافة العباسيين . ولكن يبدو أن تواتر الاخبار بضعف نفوذ الخلافة العباسية فى بغداد حينئذ شجع عبد الرحمن الناصر على اتخاذ هذه الخطوة . وهكذا قامت خلافة اسلامية ثالثة فى الأندلس ، الى جانب الخلافة العباسية فى المشرق والخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية (٣) .

ولا شك فى أن اتخاذ عبد الرحمن الناصر لقب الخلافة أكسبه مكونة كبيرة ونفوذا واسعا فى الداخل والخـــارج . ففى الداخل هدأت الاحـــوال وبطلت الثورات وخضع المتمردون ، وعلى الحدود بدأ التنافس شديدا بين

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 416.

(2) Dozy : op. cit. p. 397.

(3) Diehl Marcais : op. cit. p. 400.

الخلافة الاموية فى الاندلس والخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية حـــول السيادة على الشطر الغربى من البحر المتوسط ، كما أرسل عبد الرحمن الناصر بعض الحملات الحربية ضد نافارى وليون فى شمال أسبانيا فصادفت توفيقا (١) . أما فى الخارج فقد بلغ من شـــهرة عبد الرحمن الناصر أن الامبراطـــور البيزنطى قنسطنطين السابع أرسل بعثة الى قرطبة لتوطيد العلاقة مع الخليفة الاموى (٢) .

ومهما يكن من أمر فان الخليفة عبد الرحمن الناصر يعتبر آخر عظماء بنى أمية بالأندلس . وقد خلفه فى الحكم ابنه الحكم الثانى الملقب بالمستنصر بالله (٩٦١ — ٩٧٦) الذى أستأنف سياسة أبيه ، مع تركيز الجزء الأكبر من نشاطه فى جمع الكتب وتجليدها وحفظها (٣) . وعندما توفى الحكم المستنصر سنة ٩٧٦ خلفه ابنه هشام المؤيد الذى كان عندئذ طفلا فى العاشرة من عمره ، فقام بالوصاية عليه أحد اليمانية ، ويدعى ابن أبى عامر . وكان رئيس الحكومة عندئذ هو المصحفى الحاجب ، فأعان ابن أبى عامر على الترقى فى مناصب الحكم حتى ازدادت مكانة الأخير وبخاصـــة بعد أن تمكن من كسر شوكة الصقالبة وتشتيتهم . ولكن لم يلبث ابن أبى عامر أن غدر بالمصحفى وسجنه وأماته مسموما ، ليحل محله ويصبح « الحاجب » أى صاحب الكلمة العليا فى قرطبة ، وذلك بفضل مواهبه الشخصية من جهة ، وصداقته الوطيدة مع صبح — أم الخليفة الناصر — من جهة أخرى (٤) . وسرعان ما أظهر الحاجب الجديد كفاية كبيرة فى رعاية شئون الدولة ، فصد هجمات الدويلات المسيحية فى شمال أسبانيا كما نظم الجيش وأدخل فيه كثيرا من البربر (٥) . وبعد أن أنزل ابن أبى عامر الهزيمة بقـــوات التحالف الثلاثى الذى ألفه ملوك ليون وقشتالة ونافارى ، اتخذ لنفسه لقبا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 419-420.
(2) Diehl, Marcais : op. cit. p. 400.
(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٣٧ .
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 424.
(5) Dozy : op. cit. pp. 492-495.

مشابها لألقاب الخلفاء ، فلقب نفسه المنصور بالله . ولم يلبث المنصور بالله أن قام بهجوم أوصله الى قلب قطالونية ، كما استولى على برشلونة وأحرقها سنة ٩٨٥ (١) . كذلك استولى سنة ٩٩٧ على كومبوستلا Compostella ودمر كنيسة سانت جاك Saint Jacque (القديس يعقوب) وهى المركز الدينى العظيم فى أسبانيا الذى اعتاد أن يتردد عليه الحجاج من مختلف أنحاء أوربا ، ثم حمل الأسرى المسيحيين أبواب الكنيسة وأجراسها على رؤوسهم حتى وصلوا الى قرطبة (٢) .

وهكذا استطاع المنصور بالله بن أبى عامر أن يحقق من الانتصارات على المسيحيين ما عجز عنه الخلفاء . ويبدو أن شعوره بقوته ومكانته جعله يأنف من لقب « الحاجب » فاتخذ لنفسه لقبا جديدا سنة ٩٩٦ هو لقب « الملك الكريم » (٣) . وعندما مات المنصور سنة ١٠٠٢ كان نفوذه قد غلب على نفوذ الخليفة ، فصارت المراسيم والسكة تصدر جميعا باسمه ، كما دعى له على المنابر بحيث لم يبق للخليفة الاموى سوى ظل من النفوذ الدينى . وقد خلف المنصور ابنه المظفر ليقوم بوظيفته ، ثم خلف هذا الاخير عبد الرحمن ، وهو ابن ثان للمنصور من أم مسيحية (أميرة نافارية) . ويبدو أن هذه الصفة التى لصقت بالامير الاخير جعلته مكروها من المسلمين ، ولا سيما أن أهل الاندلس لم يكن من رأيهم أن يستأثر وزير بالحكم — مهما يكن صالحا — وأن الخليفة أو السلطان أو الملك يجب أن يباشر شئون الحكم بنفسه (٤) . لذلك انتهى الامر بقتل عبد الرحمن سنة ١٠٠٩ ، وبذلك تخلصت الخلافة الاموية بالاندلس من تلك السلسلة من الامراء الذين سيطروا عليها .

وهنا نلاحظ أنه على الرغم من نجاح المنصور ، الا أن سياسته عادت بأوخم العواقب على الحياة الاقتصادية فى أسبانيا الاسلامية . ذلك أن تقويته

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 425.
(2) Diehl, Marcais : op. cit. p. 401.
(3) Dozy : op. cit. p. 511.
(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٥٣ .

الجيش واعتماده على عناصر البربر والصقالبة سرعان ما أدت الى سلسلة من الفتن والاضطرابات والحروب الاهلية فى جوف الدولة . وفى تلك المدة تعاقب على عرش الخلافة عدة خلفاء ولكنهم جميعا كانوا أشبه شىء بالدمى فى أيدى القرطبيين أو الصقالبة أو البربر ، وظل الامر على ذلك حتى سنة ١٠٢٧ ، عندما تولى منصب الخلافة هشام الثالث الملقب بالمعتد ، وفى بعض المراجع بالمعتمد (١) . وتعتبر الثورة التى أحاطت بهذا الخليفة الاخير سنة ١٠٣١ نهاية للخلافة الاموية بالاندلس اذ تفككت دولة المسلمين فى أسبانيا بعد ذلك ، وانقسمت الى عدد من الوحدات والامارات بحيث لم تقم لهم وحدة سياسية تربطهم وتجعل منهم دولة واحدة . وهكذا يمكن القول بأن العصر الذهبى للدولة الاسلامية بالاندلس هو عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

* * *

وكان النفوذ الاسلامى فى الاندلس يشمل فى ذلك العصر ثلاثة أرباع شبه الجزيرة ، فكان يحد دولة المسلمين من جهة الشمال الغربى نهر دورو ومن خلفه مملكتا ليون وقشتالة ، والى الشرق منهما مملكة نافارى (نواره) . أما فى الشمال الشرقى فكان يوجد بين جبال البرانس ونهر ابرو مملكة أرغونة وقطالونية ، بحيث كانت برشلونة على حدود الاراضى المسيحية ؛ وقد أقام المسلمون فى الاندلس نظام الثغور على الحدود بينهم وبين المسيحيين، وهى شبيهة من حيث وظيفتها بالماركيات التى أقامها شارلمان على حدود دولته وتولى حكمها قادة يتمتعون بسلطات استثنائية (٢) .

على أن نقطة الضعف الاساسية فى دولة المسلمين بالاندلس هى أن هذه الدولة ضمت عناصر متباينة من ناحية الجنس والاصل ، وظل أفراد كل عنصر متكتلين متعصبين لجنسهم (٣) . ومع أن العرب لم يكونوا أكثر هذه

---

(1) Dozy : op. cit. p. 585.
(2) Dihl, Marcais : p. 402.
(3) CCam. Med. Hist. Vol. 3, p. 428.

العناصر عددا وأشدهم بطشا الا أنهم كانوا أعلاها منزلة ودرجة ، فاستولوا منذ البداية على خير الضياع والاراضى الزراعية التى فلحها لهم أهالى البلاد الأصليون ، فى حين سكن معظمهم المدن (١) . أما البربر المهاجرون من شمال أفريقية فكانوا يكونون جالية كبيرة فى الاندلس . وقد استمر المغرب بمثابة المخزن الكبير الذى يمون دولة المسلمين فى الاندلس بالجند والمقاتلين كلما أشتد ضغط المسيحيين عليهم ، حتى ازدادت أعداد البربر وأصبحت كثرتهم عاملا من عوامل ضغط الدولة الاموية بالاندلس . وقد ظل هؤلاء البربر يحيون فى وطنهم الجديد حياتهم الخاصة التى اعتادوها فى بلادهم الاولى ، مع بقاء النزعة الانفصالية الاستقلالية متغلبة عليهم . ذلك أنهم عاشوا وفق النظام القبلى . واستقلوا فى أول الامر ببعض الولايات الغربية فى أسبانيا مثل استرامادور Estramadura ولامانش La Mansha أو بعض جهات المناطق الجبلية فى ليون وغاليسيا واستوريا Asturia (أشتوريش) ، حيث احترفوا محاربة المسيحيين فى الجهات المحيطة بهم . واشتهر من هؤلاء البربر فى الاندلس أسرة ذى النون التى تألفت من موسى وأولاده الثلاثة يحيى وفتح ومطارف ، وجميعهم عرفوا بالشر والقسوة واحتراف السلب حتى عم ضررهم انحاء البلاد (٢) . على أن المهم فى أمر هؤلاء البربر هو أنهم نظروا الى العرب فى الاندلس نظرة الحقد والكراهية نفسها التى كان ينظر بها بنى جلدتهم فى شمال أفريقية الى العرب ، اذ اعتبروا موسى بن نصير وأعوانه من العرب متطفلين تمتعوا بثمار الجهود التى بذلها طارق بن زياد ورجاله الاثنا عشر ألفا من البربر فى فتح أفريقية ودحر القوط (٣) .

أما فئة الصقالبة فكانت تشمل عددا كبيرا من جموع الأسرى والرقيق الذين يرجع أصلهم الى مختلف العناصر الاوربية . فالصقالبة فى تاريخ الأندلس لا يقصد بهم جماعات من عنصر السلاف فحسب ، بل أيضا من أهالى

---

(1) Diehl, Marcais : op. cit. p. 403.

(٢) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(3) Dozy : op. cit. p. 139.

غاليسيا والفرنجة واللمبارديين وكالبريا وغيرها ، وكان المسلمون يحصلون على هؤلاء الصقالبة أما عن طريق أسرهم فى الحروب أو خطفهم من شواطىء البلاد التى يغيرون عليها ثم يستخدمونهم جنودا فى الجيش أو خدما فى قصر الخليفة . ولم تلبث أن ازدادت أعداد الصقالبة فى ا لاندلس حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفا فى قرطبة عند نهاية عهد عبد الرحمن الناصر (١) . ولعل مصدر الخطر فى هذه الفئة هو أن الخلفاء استغلوها أداة للحد من نفوذ الارستقراطية العربية فى أسبانيا مما جعلها بدورها خطرا على كيان الدولة (٢) .

وفيما عدا ذلك فقد وجد بدولة الاندلس الاسلامية عدد كبير من أهالى البلاد الاصليين الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية مع تأثرهم بلغة العرب وعلومهم وعاداتهم ، حتى أطلق عليهم أسم المستعربين (٣) . وقد تمتع هؤلاء المستعربون بقسط كبير من التسامح فى ظل حكم المسلمين ، فباشروا طقوسهم فى كنائسهم ومارسوا حياتهم العادية فى المدن والارياف دون أدنى تدخل من جانب حكام البلاد ، بل أنهم استقلوا بولاية الغرب (الجرف (Algarve) فى جنوب غرب شبه الجزيرة ، وملكوا عددا كبيرا من المدن المستقلة بالاندلس . ولعل هذا العطف الذى لمسوه من المسلمين هو الذى أدى بنسبة كبيرة من المستعربين الى اعتناق الاسلام ، فى حين اعترف الذين ظلوا على مسيحيتهم بأنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الفرنج أو القوط (٤) . واشتغل معظم هؤلاء المستعربين بفلاحة الارض فى الارياف وبالصناعة فى المدن وجنوا من وراء ذلك أرباحا طائلة ، كما أسهموا بقسط وافر فى الحياة العلمية التى تمثل جانبا واضحا من الحضارة الاسلامية الزاهرة فى الاندلس (٥) .

---

(1) Idem p. 430..

(2) Diehl : Marcais op. cit. p. 404.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 438.

(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٤١ ـ ٤٢ .

(5) Diehl, Marcais : op. cit. p. 404.

أما اليهود فكانوا أول فريق من سكان أسبانيا رحب بالفتح العربى ، بعد ما لقوه من عنف واضطهاد فى عهد القوط الغربيين (١) . وسرعان ما وجد يهود أسبانيا فى الحكم العربى نوعا من التسامح والحرية لم ينعموا بها منذ أمد بعيد ، فانصرفوا الى مباشرة نشاطهم الاقتصادى والعلمى فى سكينة واطمئنان (٢) .

والواقع أن الرقى الحضارى الذى بلغته أسبانيا فى ظل الحكم الاسلامى يعتبر ابرز ناحية فى تاريخها طوال العصور الوسطى . فبالفتح الاسلامى انتهى عصر الفوضى والاضطرابات والتدهور الذى أصاب شبه الجزيرة فى عهد القوط الغربيين ، وأخذ المسلمون ينشرون فى البلاد جوا من الاستقرار والتسامح وينصرفون الى الانتاج واستثمار موارد البلاد فى صورة لم تعرفها البلاد من قبل . ولم تلبث أن تحولت مروج أسبانيا فى ظل الحكم العربى الى حقول زراعية مثمرة انتشرت فيها أشجار التين والزيتون والنخيل ، فى حين أدخلت زراعة قصب السكر والأرز فى الاجزاء الشرقية ، والقطن والكتان فى الاقليم المحيط بأشبيلية ، والتوت وصناعة الحرير فى الجنوب حول غرناطة (٣) . هذا زيادة على المراعى الواسعة التى ربيت فيها قطعان الماشية للاستفادة من أصوافها وألبانها ولحومها . وقد صحب هذا النشاط الزراعى فى الاندلس اهتماما كبيرا بالرى ووسائله ، اذ أدخل العرب فى أسبانيا نظامهم فى الرى الذى لم يصل الاسبان الى مثله من قبل ولا من بعد (٤) ، حتى أن كثيرا من المصطلحات المستخدمة فى الزراعة والرى فى أسبانيا الحديثة ما زالت حتى اليوم تحمل أسماء عربية أو ذات أصل عربى (٥) . أما المدن فقــد أصبحت مراكز لنشاط تجارى وصناعى واسع ، اذ كان يتم فيها تصنيع وبيع وشراء الجزء الأكبر من المحاصيل الزراعية . وكانت أهم الصناعات

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 429.
(2) Dozy : op. cit. pp. 227-228 & 232.
(3) Diehl, Marcais : op. cit. p .407.
(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٢٢ .
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 432.

صناعة المعادن والخزف والزجاج والمنسوجات القطنية والكتانية والحديدية ، فضلا عن التطريز . وقد اشتهرت قرطبة بصناعة الخزف الفخار كما اشتهرت بالجلود التى نسبت اليها ، فى حين عرفت طليطلة بالسيوف والأسلحة (١) .

والواقع أن قرطبة بلغت درجة كبيرة من الازدهار فى العصر الاسلامى بعد أن أصبحت مركزا تجاريا وصناعيا وعلميا عظيما ، بالاضافة الى أهميتها السياسية والدينية بوصفها عاصمة الخلافة الاموية بالاندلس . ذلك أن المسلمين أدركوا أهمية موقعها ومميزاتها التى تفوق تلك التى تمتعت بها طليطلة — عاصمة القوط الغربيين — فاتخذوها حاضرة لهم ، وأقاموا فيها القصور والمساجد والاسواق ذات الفن العربى الرفيع ، والتى مازال بعضها باقيا حتى اليوم يشهد على عظمة حضارة العرب فى الاندلس . وقد أجمع المؤرخون على أنه لم توجد مدينة أخرى معاصرة فى أوربا — خلاف القسطنطينية — بلغت ما بلغته قرطبة فى العصر الاسلامى من تقدم الحضارة ورخاء الحياة (٢) . ذلك أن عدد سكانها أصبح يتراوح بين مليون ونصف مليون ، وبلغ عدد منازلها مائتى ألف ومساجدها ثلاثة آلاف وحماماتها العامة ثلاثمائة ، حتى طارت شهرتها بعيدا الى جوف ألمانيا فذكرتها الراهبة الألمانية هورسويثا Horswitha فى شعرها وأطلقت عليها اسم « جوهرة الدنيا » (٣) . ويكفى قرطبة فخرا فى العصر الاسلامى أن أهلها كانوا يستطيعون السير فى طرقاتها بعد غروب الشمس فى ضوء المصابيح العامة ، فى حين ظلت لندن سبعة قرون بعد ذلك لا يوجد بها مصباح عام واحد يضىء ظلمة شوارعها (٤) . وسرعان ما غدت قرطبة مركزا للشعراء والادباء والعلماء ، وبخاصة منذ عهد الحكم المستنصر الذى أرسل فى شراء أمهات الكتب من القاهرة

---

(1) Draper : A Hist. of the Intellectual Development Vol. 2, p. 29.

(٢) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٢٠ .

(3) Dozy : op. cit. p. 446.

(4) Draper : op. cit. Vol, 2, p. 29.

وبغداد ودمشق والاسكندرية ، فاذا تعذر شراؤها أرسل من يقوم بنسخها واحضارها الى قرطبة ، حتى أصبحت مكتبة قصر الخليفة تضم أكثر من أربعمائة الف مجلد . وقد صحب هذا النشاط العلمى ازدياد عدد المدارس ، وعلى رأسها يأتى مسجد قرطبة الجامع الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٤ وأتمه ابنه هشام سنة ٧٩٣ ، ثم أصبح بمثابة جامعة علمية ضخمة من الطراز الاول تدرس فيها جميع أنواع المعرفة من علوم دينية كالفقه والحديث والشريعة الى الادب شعرا ونثرا الى علوم بحتة كالطب والفلك والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والفلسفة . وهكذا قصد قرطبة طلاب العلم من مختلف الجهات حتى أخذت تنازع بغداد مكانتها كأعظم مركز للنشاط الفكرى فى العالم الاسلامى (١) . وقد اشتهر من علماء الفقه واللغة فى جامعة قرطبة أبو على القالى وأبو بكر بن معاوية القرشى وابن القوطية (٢) ومن علماء الطب والجراحة أبو الطيب خلف وابن زهر ، ومن علماء النبات ابن البيطار ومن الفلاسفة ابن رشد .. وغير هؤلاء كثيرون (٣) .

على أنه ينبغى أن ندرك أن التعليم فى الاندلس لم يقتصر على قرطبة وجامعتها ، بل انتشر التعليم الاول فى جميع أنحاء الاندلس فى ظل الحكم الاسلامى حتى كاد ينمحى الجهل بين الناس ، وأصبح كل فرد يعـرف القراءة والكتابة فى الوقت الذى ظل الجهل فاشيا فى جميع بلاد غرب أوربا المسيحية ، حتى بين أرقى الطبقات وذوى المناصب السامية ، بحيث لم يعرف القراءة والكتابة سوى قلة معظمها من رجال الدين (٤) . ومع ذلك فقد ظن الخليفة الحكم المستنصر أن التعليم فى بـلاده اقل مما يجب ن يكـون عليه ، فأنشأ فى قرطبة سبعا وعشرين كتابا لتعليم أبناء الفقراء بالمجان على حسابه الخاص (٥) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 434-435.
(2) Dozy : op. cit. p. 455.
(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .
(4) Dozy : op. cit. p. 455.
(5) Ibid.

التوسع المسيحى فى الأندلس :

ولكن فتح المسلمين لأسبانيا واستقرارهم فيها على حساب الشعوب المسيحية كان أمرا لا يمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية أو شعوب أوربا المسيحية . فأسبانيا كانت من أولى بلاد غرب أوربا التى وصلتها المسيحية ، وأصبحت تحتل مكانة ظاهرة فى العالم المسيحى الغربى بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحيين يحجون اليها من مختلف أنحاء غرب أوربا . لذلك ظلت القوى المسيحية فى غرب أوربا تعمل منذ وقت مبكر على أسترداد هذا الجزء المفقود من الوطن المسيحى ، وحسبنا ما كان من أمر شارلمان وحروبه الاسبانية التى خلدها الأدب فى أنشودة رولان الشهيرة . ولكن يبدو أن استقرار المسلمين فى الأندلس وازدياد قوتهم من جهة ، واضطراب أحوال أوربا بعد شارلمان من جهة أخرى حال دون قيام العالم المسيحى الغربى بجهد جدى شامل ضد المسلمين فى الأندلس فى القرنين التاسع والعاشر ، بحيث لم يتعد الأمر بعض الاشتباكات بين المسلمين فى الأندلس والممالك المسيحية فى شمال أسبانيا (١) .

ثم كان أن أخذت عوامل الضعف تسرى حثيثا فى جسم خلافة قرطبة منذ أوائل القرن الحادى عشر ، حتى أن وفاة الملك المنصور سنة ١٠٠٢ تعتبر نهاية المرحلة التى وصلت فيها تلك الخلافة أقصى درجات عظمتها وقوتها ، بحيث لم تنته سنة ١٠٣١ الا كانت الخلافة الاموية فى الاندلس قد سقطت فعلا (٢) . وهنا نلاحظ أمرين مهمين : الاول هو انحلال النفوذ السياسى للمسلمين فى الاندلس فى أوائل القرن الحادى عشر لا يعنى بأى حال تدهور نفوذهم الحضارى بالسرعة نفسها ، بل أن حضارة العرب الفكرية لم تبلغ ذروتها فى الاندلس الا فى النصف الاخير من القرن الثانى عشر على عصر فيلسوف الاندلس الذائع الصيت ابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) (٣) ، وهو

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 427.
(2) Dozy : op. cit. pp. 589-592.
(3) Eyre : op. cit. pp. 295-296.

العصر الذى اشتد فيه أيضا اقبال الأوربيين على ترجمة علوم المسلمين ونقلها من أسبانيا الى مختلف أنحاء الغرب الأوربى (١) . أما الامر الثانى فهو أنه فى الوقت الذى أخذ الانحلال السياسى يدب فى جسم الدولة الاسلامية بالاندلس ، دخل غرب أوربا مرحلة جديدة من مراحل تاريخه ، هى مرحلة اليقظة والافاقة التى بدأت منذ القرن الحادى عشر ، بعد أن انكشفت غمة العصور المظلمة وزالت معظم الأخطار العديدة التى ظلت تهدد الغرب الاوربى طوال الشطر الاول من العصور الوسطى ، وبدأت تتفتح أمام الغرب آفاق جديدة بدت واضحة فى النشاط الاقتصادى والاستقرار الاجتماعى والتنظيم السياسى (٢) . وبعبارة أخرى فان الغرب الاوربى أخذ ينهض من سباته فى الوقت نفسه الذى بدأت دولة المسلمين فى أسبانيا تتعرض للانحلال والتفكك ، مما أتاح الفرصة أمام المسيحية الغربية لاسترداد هذا الجزء الضائع من صميم الوطن الغربى .

وقد ظهر اتجاه يرمى الى حث نبلاء فرنسا على محاربة المسلمين بالاندلس منذ أوائل القرن الحادى عشر ، عندما تبنى هذا الاتجاه أحد الرهبان الكلونيين . وفى ذلك الوقت كانت الكنيسة تسعى جاهدة لوقف الحروب بين الامراء واقرار السلام ، فلم تجد وسيلة خيرا من ان توجههم نحو حروب المسلمين ، فى حين رأى رهبان الاديرة الكلونية فى ذلك فرصة طيبة لنشر نظامهم الديرى فى أسبانيا وتدعيمه ماديا ومعنويا . وكان أن صادفت هذه الدعوة قبولا فى نفوس كثير من الامراء المغامرين ، فنزاح بعضهم الى أسبانيا سنة ١٠١٨ ومعهم أتباعهم لحرب المسلمين . وفى سنة ١٠٣٣ توجهت الى أسبانيا جماعة أخرى بقيادة بعض أمراء برجنديا . ثم تكرر تدفق هذه الجموع الصليبية على أسبانيا سنة ١٠٦٣ وسنة ١٠٧٣ حتى كانت سنة ١٠٨٥ ، وهى السنة التى شهدت وصول قوة ضخمة الى أسبانيا بزعامة بعض الامراء البرجنديين وكونت تولوز (٣) .

---

(1) Barker : The European Inheritance : Vol. 1, p. 377.
(2) Eyre : op. cit. pp. 128-129.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 193.

ومن الواضح أن المسلمين فى الاندلس لم يستطيعوا مطلقا فى وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه الجزيرة ، وانما ظلت بعض الجهات — وبخاصة فى الشمال — خارجة عن النفوذ الاسلامى ، فقامت بها دويلات مسيحية مستقلة . وفى الوقت الذى سقطت الخلافة الأموية فى قرطبة كانت هناك أربع دويلات مسيحية فى شمال أسبانيا ، وهى مملكة ليون ومملكة نافارى (نواره) وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة (١) . وكانت الزعامة فى أواخر القرن العاشر وأوائل الحادى عشر بين هذه الدويلات المسيحية فى أسبانيا لمملكة نافارى ، التى أخذ ملكها سانشو Sancho (شانجة) ٩٧٠ — ١٠٣٥ ، يوجه جهوده ضد جيرانه المسيحيين بدلا من المسلمين حتى اتخذ لقب امبراطور ، واستطاع قبل وفاته أن يسيطر على جميع أسبانيا المسيحية ما عدا المارك الأسبانى (٢) . وقد تقاسم ابناؤه هذه المملكة بعد وفاته فأخذ فردناند الاول مملكة قشتالة ، وأخذ أخوه راميرو Ramiro المنطقة الجبلية التى اتسعت بعد ذلك وأصبحت نواة لمملكة أرغونة ، كما امتدت فى عهد ملكها ألفونس الاول تجاه وادى نهر ابرو على حساب أمراء سرقسطة (٣) . ولم يلبث فردناند الاول ملك قشتالة أن ضم اليه مملكة ليون القديمة وأخذ يتوسع بسرعة فى حوض نهر دورو حتى أسس قبل وفاته — سنة ١٠٦٥ — امارتين تابعتين له هما كونتية أوبورتو Oporto وكونتية مونديجو Mondego (٤) . على أن التوسع المسيحى فى أسبانيا لم يبلغ درجة خطيرة تسترعى الانتباه الا فى عهد ألفونس السادس (الأذفونش) ملك ليون وقشتالة (١٠٦٥ — ١١٠٩) الذى أوغل فى وادى نهر تاجة وأخذ يتأهب للاستيلاء على طليطلة . ويبدو أن ألفونس السادس تخوف فى أول الامر من الاشتباك فى حرب علنية مع أمير طليطلة ، ولكنه تشجع عندما وجد حليفا قويا فى شخص أمير أشبيلية المسلم (٥) . وهكذا شغل الاميران المسلمان بالحرب فيما بينهما وتركا

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 456.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 428.
(3) Chapman : A Hist. of Spain p. 58.
(4) Tout : The Empire and the Papacy p. 367.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 367.

الجو خاليا لألفونس السادس حتى يستولى على أطراف نهر تاجة ويصبح سيد مدريد ، عاصمة أسبانيا الحديثة . وقد استمر ألفونس فى توسعه حتى سقطت طليطلة نفسها فى يده سنة ١٠٨٥ ، وبذلك خسر المسلمون معقلا من أعظم معاقلهم فى الاندلس (١) . وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ دوى هائل فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، على الرغم من أن ألفونس السادس لا يستطيع أن يفخر بأنه استولى عليها بفضل شجاعته وقوة سلاحه ، اذ سقطت المدينة فى الواقع نتيجة لمساومة سياسية بين القشتاليين وحاكمها المسلم (٢) .

وهنا نسجل ظاهرة بدت واضحة فى حروب ألفونس السادس ومحالفاته حتى ذلك الوقت ، وهى أن تلك الحروب والمحالفات غلب عليها طابع التوسع السياسى ، وبعبارة أخرى لم تتحكم فيها أو تسيطر عليها روح التعصب الدينى فى تلك المرحلة الأولى (٣) ، بل ان أشهر جنود ألفونس السادس — وهو السيد القمبياطور (٤) — الذى يميل القصص الى تصويره فى صورة الصليبى المدافع عن المسيحية ، لم يكن فى الواقع الا مغامرا شجاعا عديم المبدأ ، لم يتردد فى بيع خدماته للمسيحيين والمسلمين سواء .

ومهما يكن من أمر فان سقوط طليطلة فى أيدى المسيحيين أثار شعور المسلمين الذين هزتهم الصدمة وانتابتهم بسببها المخاوف ، وأخذوا يفكرون

---

(1) Chapman : op. p. 72.
(2) Watts : Spain, p. 66.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 467.

(٤) اسمه الاصلى لذريق (Rodrigo) ولد فى برغش قرب حاضرة قشتالة فى النصف الاول من القرن الحادى عشر ودخل فى خدمة ألفونس السادس وأبلى بلاء حسنا فى حرب المسلمين . ولكن حساد لذريق أوغروا صدر الفونس ضده فطرده ، وعندئذ لم يتردد فى الدخول فى خدمة المسلمين ، وظل على ذلك يتقلب بين الجانبين أكثر من مرة وقد اسماه المسلمون السيد ، أما القمبياطور فمعناه البطل المبارز . وأهم المعارك الحربية التى اشترك فيها معركة بلنسية سنة ١٠٧١ ، كما حاصر بلنسية واستولى عليها سنة ١٠٩٤ ونكل بأهلها المسلمين تنكيلا قاسيا . وأخيرا كانت وفاته سنة ١٠٩٩ .
أنظر :

(Cam. Med. Hist. Vol, 6, pp. 400-401.

فى طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من جهة واسترداد ما فقدوه من أراضى وبلاد من جهة أخرى . ولم يتردد ملوك الطوائف فى هذا الموقف من الاستعانة بالمرابطين فى شمال أفريقية ، وهم أقرب قوة اسلامية يمكنها أن تنتشل مسلمى أسبانيا من الهوة التي انحدروا اليها (١) . واذا كان يوسف بن تاشفين ملك المرابطين قد تردد أول الامر فى قبول الدعوة ، الا أنه عاد فعبر مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦ على رأس عدد ضخم من رجاله البربر الاشداء الذين اجتاحوا الاندلس (٢) . وكان الفونس السادس يحاصر سرقسطة عندما بلغه خبر وصول المرابطين، فترك الحصار واتجه جنوبا لمواجهة هذا الخطر الجديد ، فى حين أمده ملك أرغونة ونافارى بامدادات قوية لتدعيم الجبهة المسيحية (٣) . وعندما التقى الفريقان فى موقعة الزلاقة (أكتوبر سنة ١٠٨٦) نزلت الهزيمة ساحقة بالقشتاليين ففر الفونس السادس فى شرذمة قليلة من جنده تاركا خلفه بضعة آلاف من القتلى والأسرى (٤) .

ولم تلبث أن أتيحت الفرصة من جديد لالفونس السادس ، وذلك بعد عودة يوسف بن تاشفين الى شمال افريقية من جهة ، وتجدد الخلاف بين المسلمين فى الاندلس من جهة أخرى . ذلك أن ملوك الطوائف — مع ضعفهم — عز عليهم أن يخضعوا الملك من ملوك البربر ، فى حين سخر الأندلسيون من جهل المرابطين وضعف مستواهم الحضارى . ويبدو أن يوسف بن تاشفين أدرك حقيقة أمر ملوك الطوائف بعد أن وجد علاقاتهم بعضهم مع بعض من جهة ومعه من جهة أخرى تقوم على أساس من الخيانة والغدر وعدم الثقة . لذلك انتهز ابن تاشفين فرصة استنجاد ملك أشبيلية به ضد هجمات المسيحيين سنة ١٠٩٠ ليشن حربا على ملوك الطوائف المسلمين فضلا عن القشتاليين المسيحيين (٥) . ولم يلبث المرابطون أن استولوا على الاندلس الاسلامية

---

(1) Dozy : op. cit. pp. 694-695.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 398-399.
(3) Watts : op. cit. p. 67.
(4) Chapman : op. cit. pp. 70-71 & Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 393.
(5) Watts : op. cit. pp. 68-69.

بأجمعها — ما عدا بلنسية وطليطلة — عند نهاية القرن الحادى عشر . ثم سقطت بلنسية فى أيديهم سنة ١١٠٢ عقب وفاة السيد القمبيطور الذى استمر يدافع عنها حتى وفاته سنة ١٠٩٩ ، وبذلك لم يبق خارج سلطة المرابطين سوى طليطلة (١) . وفى تلك الاثناء كان ألفونس السادس قد انتهز فرصة انشغال ابن تشافين فى القضاء على نفوذ ملوك الطوائف واستولى على لشبونة بعد أن اجتاح وادى نهر تاجة من طليطلة حتى البحر . ولكن لم يكد يوسف بن تشافين يفرغ من أمر الاندلسيين حتى عاد الفونس فطرده من لشبونة وبقية الجهات التى استولى عليها فى الفترة الاخيرة ، وبذلك لم يستطع ألفونس الثبات والمقاومة الا فى طليطلة . وأخيرا توفى يوسف بن تاشفين سنة ١١٠٦ فى حين لحق به ألفونس السادس (١١٠٨—١١٠٩) (٢) .

ويبدو أن وفاة يوسف بن تاشفين لم تؤثر كثيرا فى الموقف بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا ، اذ لم يستطع المسيحيون استغلال هذه الفرصة بسبب الخلافات الحادة بين قشتالة وليون . على أن المرابطين أنفسهم سرعان ما اعتراهم الوهن نتيجة لانحلال أخلاقهم فى بيئتهم الجديدة المترفة ، ففقدوا فى الاندلس صفات البربر الاولى وصبرهم على المشاق والقتال (٣) ، وجرفهم تيار الرذيلة فى طريقه حتى أصبحوا وليست لهم صناعة الا معاقرة الخمر ومصاحبة النساء وقطع الطرق ونهب المدن ، بل حرقها كما فعلوا سنة ١١٣٣ بقرطبة وأشبيلية وقرمونة (٤) . على الرغم من اشتداد الصراع بين الدولة المسيحية فى أسبانيا عندئذ — أى بعد وفاة ألفونس السادس — فان المرابطين لم يستطيعوا انتهاز الفرصة لتحقيق مكاسب جديدة بسبب ما وصلوا اليه من ضعف (٥) .

---

(١) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٦٢ — ١٦٣ .
(2) Tout : The Empire and the Papacy : p. 459.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 405.
(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٦٥ — ١٦٦ .
(5) Dozy : op. cit. p. 724.

ولم تلبث أن عصفت الاحوال بشمال أفريقية عندما ثارت قبائل أطلس (١١٢١ ــ ١١٢٥) لتقضى على دولة المربطين وتقيم محلها دولة الموحدين (١). وبعد أن تمت للموحدين السيادة على شمال أفريقية فكروا فى ضم الاندلس بوصفهم ورثة المرابطين فى ملكهم ، فعبروا الى أسبانيا سنة ١١٤٦ واستولوا على أشبيلية ومالقة ثم على قرطبة بعد أربع سنوات ، حتى دانت لعبد المؤمن ــ قائد الموحدين ــ معظم بلاد الاندلس الاسلامية (٢) . على أن الموحدين لم يتخذوا الاندلس قاعدة لحكمهم ، وانما اكتفوا بارسال نواب ينوبون عنهم فى حكم البلاد فى حين بقى ملوك الموحدين بشمال أفريقية ليرسلوا الجند بين حين وآخر كلما اشتد خطر المسيحيين على أملاكهم فى أسبانيا (٣) .

وفى ذلك الوقت كان المسيحيون قد وجــدوا بطلا جديدا فى شخص ألفونس الاول ملك أرغونة ، الملقب بالمحارب (The Warrior, The Battle) والذى يعتبر المؤسس الحقيقى لهذه المملكة (١١٠٤ ــ ١١٣٤) . وبعد أن استطاع ألفونس الاول أن يسترد لارغونة عاصمتها الطبيعية ــ سرقسطة ــ سنة ١١١٨ (٤) ، أخذ يشن غاراته فى جوف بلاد الاندلس الاســلامية . وكان يعود من تلك الغارات مصطحبا معه كثيرا من المستعربين ــ وهم المسيحيون الذين خضعوا لحكم المسلمين وتأثروا بهم ــ ليعيشوا وسط اخوانهم المسيحيين فى الشمال . واخيرا توفى ألفونس الاول أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤ ، بعد أن أصبحت أرغونة ثانية ممالك أسبانيا المسيحية بعد قشتالة (٥) . ولم تقتصر جهود المسيحيين فى تلك الفترة على ما قامت به أرغونة وملوكها ، اذ استطاع ريموند برنجار الرابع كونت برشلونة أن يغزو طرطوشة (Tortosa) سنة ١١٤٨ (٦) . أما فى الجانب الغربى من شبه الجزيرة فقد اتحدت كونتية أبورتو مع غيرها من الكونتيات القريبة

---

(1) Idem : p. 725.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 407.
(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٨٤ .
(4) Watts : op. cit. p. 105.
(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 470.
(٦) عند مصب نهر ابرو على الجانب الشرقى لاسبانيا .

المجاورة لتتكون منها جميعا كونتية البرتغال سنة ١٠٥٩ (١) . وكان أشهر حكام هذه الكونتية الأخيرة ألفونس الأول Alffonso Henriquez) المؤسس الحقيقى لعظمة البرتغال ، والذى أوغل سنة ١١٣٩ داخل الأراضى الاسلامية خلف نهر تاجة وأحرز عدة انتصـــارات مكنته من اتخـــاذ لقب « ملك البرتغال » فى العام التالى (٢) . وقد استعان ألفونس الاول هذا سنة ١١٤٧ بأسطول صليبى يحمل جماعة من الانجليز والفلمنكيين والالمان الى الاراضى المقدسة للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية ، وبمساعدة هـــذا الأسطول تمكن من طرد المسلمين من لشبونة التى أصبحت من ذلك الحين عاصمة المملكة البرتغالية الناشئة (٣) .

وهكذا لم يقتصر ميـــدان الحروب الصليبية عـــلى المشرق والاراضى المقدسة . بل شمال أيضا المغرب وأسبانيا (٤) ، فأخذ الصليبيون الوافدون من انجلترا والمانيا يساهمون فى فتح لشبونة ، كما اشترك الصليبيون الفرنسيون فى مساعدة ريموند برنجار كونت برشلونة وبروفانس . هذا فى حين مـــد فرسان الداوية والاسبتارية نشاطهم الى وادى نهر أبروا بأسبانيا فضلا عن الشام . ولم تلبث هيئة الرهبان السسترشيان أن أقامت لها مركزا سنة ١١٤٩ فى أسبانيا ، حيث كونوا قوة حربية للدفاع عن مصالحهم من جهة ولحرب المسلمين من جهة أخرى . ثم تكاثرت بعد ذلك فى أسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية مثل هيئة القديس جوليان التى أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢ ، والتى اتخذت بعد ذلك — سنة ١٢١٨ — اسم منظمة القنطرة ، بعد أن استولى المسيحيون على هذه البلدة الواقعة على نهر تاجه ونقلوا اليها نشاطهم (٥) . ولم تتردد البابوية فى تشجيع هذه المنظمات التى قامت فى أسبانيا بنفس الدور الذى قامت به الاسبتارية والداوية والتيتون فى الاراضى

---

(1) Stephenson : Portugal, pp. 18-19.
(2) Chapman : op. cit. p. 76.
(3) Paiter : A Hist. of the Middle Ages, p. 194.
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 248.
(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 471.

المقدسة ، بل أن البابا أسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث لهما الفضل فى قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها أسبانيا ، وهى منظمة سنتياجو Santigo (سنتياغو) . وبفضل تكاثر هذه الهيئات وجهودها اشتدت حماسة المسيحيين فى حرب الاندلسيين ، كما أخذ الطابع الدينى يغلب على هذه الحرب ليجعلها حربا صليبية مقدسة لا تقل أهمية فى نظر الغربيين المعاصرين عن الحروب الصليبية الدائرة فى المشرق (١) . وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا لم يعد فيه هذا الصراع مجرد حروب محلية متفرقة بين زعماء الفريقين ، وانما أصبح صراعا عاما شاملا بين حضارتين متباينتين ، وديانتين مختلفتين ، ظلا يتقاسمان النفوذ ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبى الغربى من أوربا طوال عدة قرون (٢) .

وفى تلك الحرب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة منذ البداية ، حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بألفونس التاسع ملك قشتالة فى موقعة الأرك (Alarcos) سنة ١١٩٥ (٥٩١ هـ) ، وهى الموقعة التى انتهت بمقتل آلاف من المسيحيين وحصول الموحدين على أعداد من الأسرى وكميات من الغنائم لا حصر لها (٣) . ويبدو أن هذه الضربة كان لها أثرها فى وقف تقدم المسيحيين ، هذا فضلا عن أثر الحروب المستمرة بين ليون وقشتالة ونوارة (نافارى) وأرغونة (أراغون) فى أواخر القرن الثانى عشر . والواقع أن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) الذى سبق أن أشرنا الى عظمة البابوية فى عهده ، كان صاحب الفضل فى اثارة الحماسة الصليبية فى أسبانيا وتشجيع جماعات عديدة من أهالى البلاد الغربية على عبور جبال البرانس (البرت) للمشاركة فى

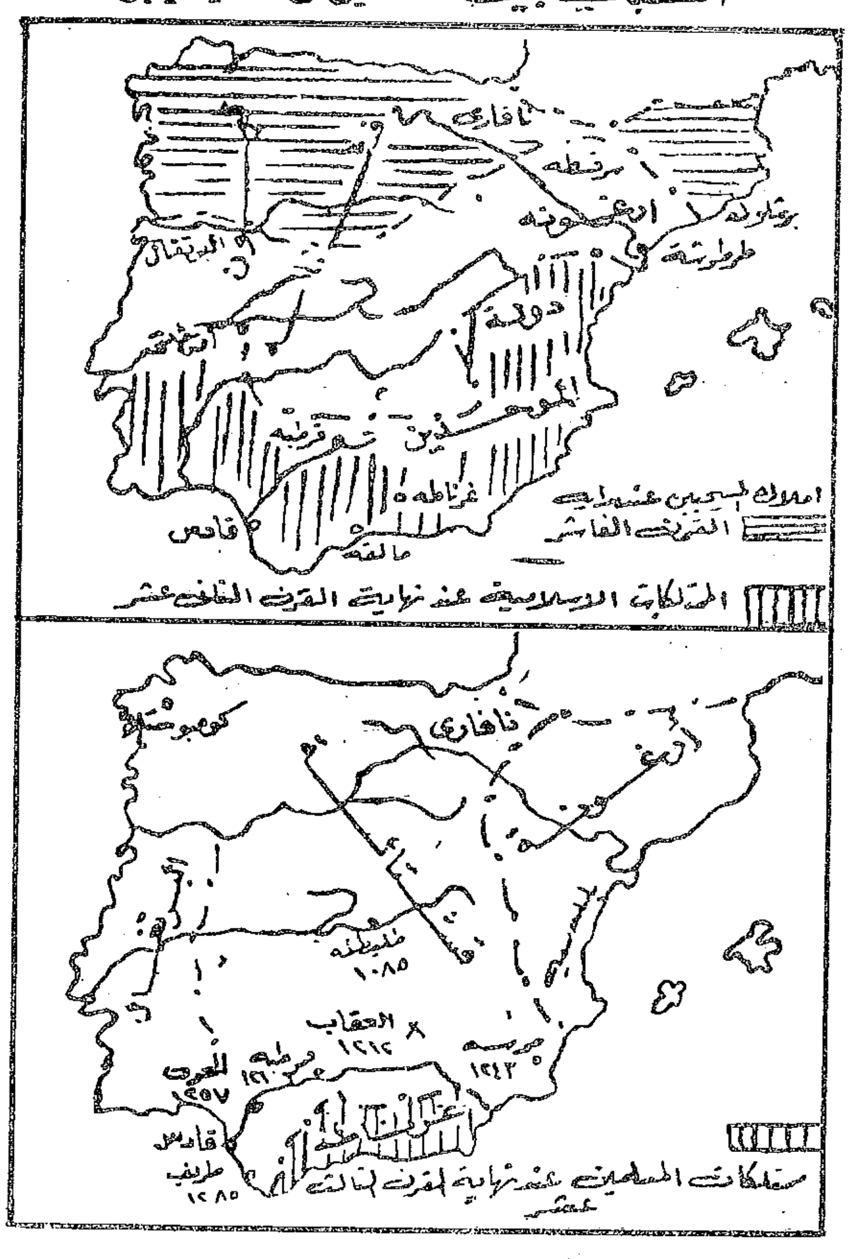
---

(1) Champman : op. cit. pp. 94-96.

(2) Tout : The Empire and the Papcy, p. 471.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 409.

أسبانيا بين المسلمين والمسيحيين



الحرب المقدسة ضد المسلمين (١) . وفى ذلك الوقت كان ألفونس التاسع (١١٥٨ — ١٢١٤) ملك قشتالة يسعى فى أواخر عهــده لتحقيق بعض الانتصارات الكفيلة بمحو الهزيمة التى حلت به فى موقعة الأرك . وعندما أعلن البابا الحرب الصليبية ضد مسلمى الاندلس اجتمع فى أسبانيا عدد كبير من فرسان أوربا تحت زعامة رئيس أساقفة باريون (٢) . ويبدو أن هؤلاء الصليبيين الذين اجتمعوا فى طليطلة لم يجدوا أول الامر ما يفعلونه لاشباع حماستهم الصليبية سوى ذبح يهود المدينة فى صورة وحشية (٣) . وكانت سياسة البابا أنوسنت الثالث عندئذ ترمى الى حشد القوى المسيحية ضد المسلمين ، فأخذ يحث ملك أرغونة وملك نافارى (نوراة) على مشاركة الفونس التاسع ملك قشتالة فى حربه المقبلة ضد المسلمين ، وبذلك لم يتخلف عن هذه الحرب ســوى ملك ليــون . وأخيرا دارت موقعة العقـــاب (Les Navas de Tolosa) الشــهيرة ســنة ١٢١٢ (٦٠٩ هـ) بين الحلفاء المسيحيين وجيش الموحدين (٤) . وفى هذه الموقعة حلت الهزيمة بالموحدين ، فلم تقم لهم قائمة بالاندلس بعد ذلك ، وأخذت المدن الاسلامية تتساقط فى أيدى المسيحيين واحدة بعد أخرى ، بحيث لم يتبق للمسلمين فى أسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة (٥) .

ذلك أن جيمس الأول (جــايم) ملك أرغــونة (١٢١٣ — ١٢٧٦) فردناند الثالث ملك قشتالة (١٢١٧ — ١٢٥٢) أكملا العمل الذى بداه ألفونس التاسع ، فاستولى الأول على بلنسية سنة ١٢٣٨ وبذلك وصلت مملكة أرغونة الى حدودها التى ظلت عليها حتى زوالها كوحدة ســياسية مستقلة ، فى القرن الخامس عشر (٦) . أما الثانى ، وهو فردناد الثالث ملك قشتالة — الملقب بالقديس — فقد استطاع أن يحقق الوحدة مع ليون سنة

---

(1) Orton : op. cit. p. 261.
(2) Paiter : A Hist. of the Middle Ages, p. 195.
(3) Tout : The Empire and the Papcy, p. 272.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 416.
(٥) لين بول : العرعب فى أسبانيا ص ١٨٤ .
(6) Chapman : op. cit. pp. 81-82.

١٢٣٠ ، وبعد ذلك فتح قرطبة — مقر خلفاء بنى أمية بالأندلس فى سالف الزمان سنة ١٢٣٦ وحول مسجد قرطبة الجامع الى كتدرائية (١) . وفى سنة ١٢٤٤ استولى فردناند الثالث على أشبيلية ، كما استولى على قادس وشريش سنة ١٢٥٠ وبذلك وصل الى شاطىء الاطلنطى ، فى حين استولى خليفته الفونس العاشر على مرسية سنة ١٢٦٦ بمساعدة جيمس (جايم) الأول ملك أرغونة (٢) . هذا فى الوقت الذى وصلت البرتغال سنة ١٢٦٢ الى حدودها الحديثة بعد أن انتزعت اقليم الجرف (الغرب) من المسلمين . وهكذا لم يبق للعرب فى أسبانيا سوى مقاطعة غرناطة — بين جبال نيفادا وساحل البحر — وفى هذه الرقعة الضيقة قدر لهم أن يعيشوا فترة أخرى بلغت نحو قرنين ونصف من الزمان (٣) .

التطورات السياسية فى أيبريا أواخر العصور الوسطى :

يبدو لنا من العرض السابق للصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الاندلس أن منتصف القرن الثالث عشر يمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخ أسبانيا (٤) . ذلك أن طرد العرب من معظم بلادهم فى الاندلس ، واقتصار نفوذهم على منطقة غرناطة الحصينة فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ، أوجد أمام ملوك أسبانيا وأمرائها المسيحيين مشكلة جديدة ، هى مشكلة سد الفراغ الواسع الذى تركه العرب خلفهم ، وتنظيم هذه الأسلاب والبلاد الفسيحة تنظيما يتفق مع اطماع كل منهم من جهة ، وأغراض الكنيسة من جهة أخرى (٥) . وهنا نلاحظ أن المسيحيين أخذوا ينتشرون تدريجيا من شمال شبه الجزيرة الى الجهات الوسطى والجنوبية منها . وشارك فى هذه الهجرة الى أراضى أسبانيا المستردة من المسلمين بعض أهالى بلاد غرب

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 478.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 415.
(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٨٥ .
(4) Lodge : The Close of the Middle Ages, p. 468.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 567-568.

أوربا ، وبخاصة جنوب فرنسا التى نزحت منها أعداد كبيرة لتستوطن أسبانيا . أما الهيئات الدينية العسكرية التى أبلت بلاء حسنا فى حرب المسلمين فقد فازت هى الاخرى بنصيب الأسد من الغنيمة والأراضى (١) .

ولعل أبرز ما يميز الحياة العامة فى أسبانيا المسيحية بعد طرد العرب الى معقلهم فى أقصى الجنوب ، أن الروح الدينية طغت على تصرفات العامة والخاصة من الأفراد ، بل على كل مظاهر الحياة فى البلاد . ذلك أن الأمر لم يقف عند حد التعصب الدينى الذى دفع المسيحيين الى احراق آثار العرب العلمية والفنية ، وهدم بعض المنشآت العامة النافعة التى أفادت منها البلاد ، بل ظهر أثر النفوذ الدينى أيضا فى السلطة العظيمة والثروة الواسعة التى صارت لرجال الكنيسة فى البلاد (٢) ، حتى لجأ ملوك أسبانيا الى الحصول على اعتراف بمكانتهم من البابوية حتى يطمئنوا الى سلامة كيانهم فى بلادهم بفضل التأييد الدينى .

ويلاحظ عند دراسة الخطوط العريضة للتاريخ الأسبانى أن هذا التاريخ اتخذ طابعا جديدا بعد استرداد شبه الجزيرة — أو معظمها — من المسلمين . ذلك أن التطور الداخلى فى ممالك أسبانيا الرئيسية الثلاث — وهى قشتالة وأرغونة والبرتغال — أخذ يسير فى الاتجاه نفسه الذى سلكته بقية الممالك الأوربية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى . ولتفسير ذلك يصح أن نلقى نظرة عاجلة على كل مملكة من هذه الممالك الأسبانية الثلاث فى تلك الفترة .

مملكة قشتالة :

أما قشتالة فقد أضحت منذ اتحادها مع ليون سنة ١٢٣٠ أعظم ممالك أسبانيا وأكبرها . ومن الواضح أن نشأة قشتالة ارتبطت فى التاريخ بالحرب الدينية التى نشبت بين المسلمين والمسيحين فى أسبانيا ، مما أثر أثرا واضحا

---

(1) Tout : The Empire and The Papcy, p. 474.
(2) Chapman : op. cit. pp. 164-165.
(3) Lodge : op. cit. p. 469.

فى دستورها ونظمها . فالملوك وصلوا الى مكانتهم كقادة حربيين لا كزعماء سياسيين ، ومن ثم ظلت هذه الصفة غالبة عليهم ، والنبلاء والمدن تمتعوا بقسط وافر من الاستقلال الذاتى حتى يتسنى لهم مواجهة أى خطر مفاجىء من جانب أعدائهم المسلمين ، ورجال الكنيسة حظوا بنفوذ واسع نظرا لأنهم كانوا مسئولين عن الهام الشعور الدينى لمواصلة الحرب ضد أعداء الدين (١) . وكان لقشتالة مجلس وطنى (Cortes) يتألف من ثلاث طبقات ، هى طبقة رجال الدين وطبقة النبلاء وطبقة أهالى المدن . على أن العامل الأساسى الذى حد من نفوذ الملكية لم يكن هذا المجلس الوطنى بقدر ما كان قوة كبـار النبلاء الذين أصبحوا أشبه بأمراء مستقلين فى ضياعهم ، يعتمدون على أتباعهم فى مواصلة الحروب التى قد تنشب فيما بينهم ، أو بينهم وبين الملك . أما المدن فى قشتالة فقد ألفت نفسـها فى حاجة الى تأليف أحلاف عسـكرية Hermandad للمحافظة على حقوقها من جهة ولمقاومة خطر كبار النبلاء من جهة أخرى (٢) . ولعله من حسن حظ الملكية فى قشـتالة أن يؤدى التنافس وتعارض المصالح بين مختلف الفئات والطبقات الى عدم اتحادها لتكون جبهة موحدة ضد الملك (٣) .

وكان أبرز ملوك قشتالة فى القرن الثالث عشر هو ألفونس العـاشر (١٢٥٢ — ١٢٨٤) الذى يميل بعض المؤرخين الى اعتباره من أعظم ملوك أوربا المعاصرين قاطبة ، حتى وضعوه على قدم المساواة مع لويس التاسع وفردريك الثانى وأدوارد الأول (٤) . وقد اكتسب ألفونس العاشر فى التاريخ لقب « الحكيم » (The Wise) وذلك لسعة اطلاعه وحسن تذوقه للأدب والشعر والتاريخ ، زيادة على مهارته فى التشريع (٥) . واذا كان قد تم فى عهده

---

(1) Chapman : op. cit. p. 85.
(2) Idem : p. 92.
(3) Lodge : op. cit. p. 470.
(4) Tout : The Empire and the Papcy, p. 475.
(5) Cam. Hist. Vol, 7, p. 569.

الاستيلاء على مرسية بمساعدة أرغونة ــ كما سبق أن ذكرنا ــ الا أنــه سرعان ما ترك حرب المسلمين ووجه جهوده نحو الفوز بلقب الامبراطورية أثناء فترة الشغور المعروفة فى التاريخ الألمانى (١) . أما الفترة الأخيرة من حكمه والتى امتدت الى عصر خليفته شانجة الرابع (ســانشو Sancho) ١٢٨٤ ــ ١٢٩٥ ، ثم فردناند الرابع (١٢٩٥ ــ ١٣١٢) فأهم ما كان فيها النزاع بين الأبناء حول الاستئثار بعرش قشتالة ، فضلا عن الحرب بين كبار النبلاء (٢) .

ولعل هذه الفوضى التى أمست فيها قشتالة جاءت عاملا مشــجعا للمسلمين على محاولة استرداد نفوذهم المفقود فى الاندلس . وكانت الدولة التى قنع المسلمون باقامتها فى غرناطة هى دولة بنى نصر ، التى عرف مؤسسها ابن الأحمر (٣) بقوة المراس . وهكذا اقتصر نفوذ العرب على منطقة غرناطة فانصرفوا ــ كعادتهم ــ الى النشاط الحضارى ومباشرة الشئون العلمية والزراعية . ومازال قصر الحمراء (٤) ، بهندسته الرائعة وزخارفه الفائقة يشهد على عظمة حضارة العرب ، حتى فى تلك الحقبة الأخيرة من تاريخهم فى الاندلس . على أن ضعف قشتالة فى أوائل القرن الرابع عشر لم يلبث أن حرك آمال المسلمين فى استعادة مجدهم المفقود ، فعبر أمير فاس مضيق جبل طارق على رأس جيش كبير حيث انضم اليه أمير غرناطة وبدأ المسلمون يحاصرون طريف (Tarifa) (٥) . وهنا أحست قشتالة بالخطر ، فأسرع ملكها ألفونس الحادى عشر (١٣١٢ ــ ١٣٥٠) الى تهدئة الموقف الداخلى فى بلاده من جهة ، ومع ملك البرتغال الذى ثار عندما طلق ألفونس ابنته ليتزوج غيرها من جهة أخرى (٦) . وفى سنة ١٣٤٠ تقدم ألفونس الحادى عشر لحرب المسلمين فنجح فى انزال الهزيمة بهم واستولى على بعض

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 244.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 166.
(٣) محمد بن يوسف بن نصر وعرف بابن الاحمر الشقرود فيه .
(٤) سمى كذلك تبعا للون التربة التى شيد عليها .
(5) Lodge : op. cit. p. 471.
(6) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 474.

معاقلهم ، فى حين انسحب أمير فاس يجر أذيال الفشل الى أفريقية (١) . وكان ألفونس الحادى عشر يطمع فى الاستيلاء على جبل طارق ليحول دون وصول امدادات فى المستقبل من مسلمى أفريقية الى اخوانهم فى غرناطة . وفعلا أخذ يستعد لحصارها عندما دهم الوباء الاسود البلاد سنة ١٣٥٠ ، مما اضطره الى ترك الحصار ليموت بعد قليل (٢) .

وبعد وفاة ألفونس الحادى عشر خلفه فى حكم قشتالة ابنه بطرس الأول الملقب بالقاسى (١٣٥٠ — ١٤٦٩) . واذا صرفنا النظر عن تصرفاته الشخصية التى أكسبته هذا اللقب فى التاريخ ، فاننا نجد أهم الأعمال التى شغلت حكمه كانت اخضاع ثورة قام بها النبلاء فى بلاده سنة ١٣٥٦ ، وعندئذ انتقم منهم بطرس الأول أشد الانتقام . ولكن يبدو أن عامة أهالى الدولة لم يكن لهم نصيب من قسوة بطرس الاول ، وأنه اختص النبلاء واليهود وحدهم بهذه القسوة (٣) . كذلك أدى النزاع حول وراثة عرش قشتالة فى عهد بطرس الأول الى تدخل فرنسا وانجلترا (١٣٦٢ — ١٣٦٩) أثناء تلك المرحلة من مراحل حرب المائة عام فى شئون قشتالة ، حتى انتهى الأمر بهزيمة بطرس الأول وحلفائه الانجليز وانتصار غريمه هنرى وحلفائه الفرنسيين ، ومن ثم اعتلى الأخير عرش قشتالة باسم هنرى الثانى (١٣٦٩ — ١٣٧٩) (٤) .

ولكن لم يكد هنرى الثانى يعتلى عرش قشتالة حتى وجد نفسه أمام منافسين أقوياء أهمهم فردناند ملك البرتغال الذى أدعى احقيته فى عرش قشتالة بحكم كون جدته ابنة شانجة (سانشو) الرابع ملك قشتالة (١٢٨٤ — ١٢٩٥) (٥) .

---

(1) Watts : op. cit. pp. 182-183.
(2) Chapman : op. cit. p. 117.
(3) Lodge : op. cit. p. 472.
(4) Tout : The Hist. of England, pp. 403-405 & Lavisse : Hist. de France, Tome 4, Premiere Partie, 177-181.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 573-579.

ولكن هنرى الثانى صمد أمام أعدائه العديدين ـــ أرغونة ونافارى والبرتغال وانجلترا ـــ حتى تمكن بمساعدة الفرنسيين من مهاجمة لشبونة واجبار ملك البرتغال على عقد الصلح (١) . وبعد ذلك استطاع هنرى الثانى أن يرد الجميل لفرنسا بمساعدتها أثنا ءحرب المائة عام ، فأرسل الأسطول القشتالى لقطع المواصلات البحرية بين انجلترا وجاسكونى (٢) .

ومع أن الحرب تجددت بعد وفاة هنرى الثانى بين قشتالة والبرتغال عندما تعرض ابنه وخليفته حنا الأول (١٣٧٩ ـــ ١٣٩٠) لغزو البلاد البرتغالية سنة ١٣٨٥ ، الا أن الأزمة انتهت بالصلح بعد قليل . وبعد وفاة حنا الأول خلفه ابنه هنرى الثالث (١٣٩٠ ـــ ١٤٠٦) ، الذى كان من أقدر ملوك قشتالة ، فنشر الأمن والنظام فى بلاده ووقف من النبلاء موقفا حازما (٣) . ولم يعش هنرى الثالث طويلا بسبب سوء صحته فمات سنة ١٤٠٦ تاركا ابنه حنا الثانى فى الثانية من عمره (٤) . وقد ظل حنا الثانى شطرا كبيرا من حكمه تحت الوصاية ، ومع ذلك فان أحوال قشتالة انتظمت فى تلك الفترة بفضل الوصاية الرشيدة التى قامت بها أمه على خير وجه . ولكن عندما بلغ حنا الثانى سن الرشد وباشر مهام الملك بنفسه ، ظهر سوء تصرفه وعدم كفايته ، فامتاز عهده بالثورات والمؤامرات التى تركت أثرا خطيرا فى أحوال قشتالة (٥) . ثم خلف حنا الثانى ابنه هنرى الرابع (١٤٥٤ ـــ ١٤٧٤) الذى ورث أباه فى ضعفه وعدم مقدرته حتى لقبه رعاياه « بالضعيف » . وقد أدت سياسته فى الحكم الى مولد ثورة خطيرة سنة ١٤٦٥ ، وعندئذ عرض الثائرون تاج قشتالة على أخيه ـــ غير الشقيق ـــ ألفونس ، ولكن هذا الأخير لم يلبث أن توفى سنة ١٤٦٨ (٦) . وعندما اتجه الثائرون بعد ذلك الى أخته ايزابلا

---

(1) Chapman : op. cit. 120-121.
(2) Tout : The Hist. of England, p. 415.
(3) Lodge : op. cit. p. 474.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 581 & Vol, 8, p. 479.
(5) Chapman : op. cit. p. 122.
(6) Lodge : op. cit. p. 477.

ـــ شقيقة ألفونس ـــ رفضت أن تقحم نفسها فى ثورة ضد العرش ، واكتفت بأن اخذت على هنرى الرابع موثقا بأن تكون لها ولاية العهد (١) ، وبذلك هدأت الفتنة واستطاعت ايزابلا أن تتزوج فى العام التالى من فردناند وريث عرش أرغونة . وقد حاول هنرى الرابع أن ينقض العهد ويحرم أخته غير الشقيقة من ولاية العهد ، ولكنه توفى سنة ١٤٧٤ قبل أن يحقق غرضه . وهكذا استطاعت ايزابلا أن تجتاز جميع الصعاب التى واجهتها ، وأن تعتلى عرش قشتالة لتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ قشتالة ، بل فى تاريخ شـــبه جزيرة أيبريا (٢) .

مملكة أرغونة :

أما المملكة الثانية فى أسبانيا المسيحية فكانت مملكة أرغونة التى تألفت من ضم ثلاثة اقاليم هى أرغونة قطالونية وبلنسية . ويبدو أن الاتحاد بين هذه الاجزاء الثلاثة لم يكن متينا بسبب تمسك كل منها بقوانينه ونظمه وعدم رغبته فى التخلى عنها فى سبيل وحدة المملكة . أما سلطة الملكية فى أرغونة فكانت أكثر تحديدا وأضيق أفقا منها فى قشتالة ، فى حين تمتع كبار النبلاء (Ricos Hombres) بنفوذ واسع جعل منهم شبه أنداد للملك (٣) . ولعل هذه الامتيازات هى التى جعلت هؤلاء النبلاء يتكاتفون ويتحـــــدون للمحافظة عليها ، بعكس ما كان عليه نبلاء قشتالة من تفرق الكلمة وانعدام الوحدة ، حتى عبر عن ذلك أحد المعاصرين بقوله « ان تفريق نبلاء أرغونة أمر لا يقل صعوبة عن توحيد نبلاء قشتالة » (٤) . وكان لأرغونة هى الاخرى مجلس وطنى (Cortes) مثلت فيه المدن منذ سنة ١١٣٣ أى قبل أن تمثل فى قشتالة بأكثر من ثلاثين ســـنة ، وقبل أن تمثل بانتظام فى انجلترا بأكثر من قرن . ولم يكن هذا المجلس عاما لكل المملكة ، وانما كان لكل اقليم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 480.
(2) Chapman : op. cit. p. 124.
(3) Watts : op. cit. p. 157.
(4) Lodge : op. cit. p. 478.

من اقاليم المملكة الثلاثة مجلس يتمتع داخل نطاق الاقليم بسلطة عليا فى النواحى القضائية والتشريعية والمالية (١) . وعندما ينعقد هذا المجلس بصفته القضائية كان يرأسه كبير القضاة (Justiciar) الذى لم يتمتع بنفوذ سياسى فى أول الامر ، ولكنه أصبح بمرور الزمن الحكم الأول فى جميع الخلافات التى تنشأ بين الملك ورعاياه . وهكذا أصبحت لهذه الوظيفة مكانة كبرى فى أرغونة على أساس أن صاحبها حامى الحريات والتقاليد الدستورية والمدافع عنها ضد الطغيان والاستبداد (٢) .

ويلقب جيمس (جايم) الاول ملك أرغونة (١٢١٣ — ١٢٧٦) بالفاتح لأنه استولى على جزر البليار ثم على بلنسية من المسلمين . وكذلك يرجع اليه الفضل فى الاستيلاء على مرسية ، وان كان قد سلمها بعد ذلك لملك قشتالة (سنة ١٢٦٦) . وكانت أهم نتيجة لهذه الجهود التى بذلها جيمس الاول ، أن أحس خلفاؤه بنوع من الاطمئنان فى الداخل جعلهم يتفرغون لمشكلة صقلية وايطاليا .

ذلك أن بطرس الثالث Pedro III ملك أرغونة (١٢٧٦ — ١٢٨٥) كان قد تزوج من الأميرة كونستانس ابنة مانفرد ملك صقلية ووريثه ، وبذلك أصبح من حقه أن يرث الهوهنشتاوفن فى نابلى وصقلية . وكانت البابوية قد خرجت عندئذ ظافرة من نزاعها الطويل الذى استمر عدة قرون مع أباطرة الدولة الرومانية المقدسة من أسرة هوهنشتاوفن ، وبالتالى اعتبرت البابوية نفسها قيمة أو وصية على أراضى هؤلاء الاباطرة فى جنوب ايطاليا وصقلية (٣) . ولما كان مانفرد ملك صقلية أحد أعضاء البيت الامبراطورى المهزوم ، فانه رفض ن يعترف بمطالب البابوية ، مما جعل البابا يعرض مملكة صقلية على أحد الامراء الفرنسيين — وهو شارل الأنجوى Charles of Anjou ليحكمها تابعا للبابا (٤) . وقد قبل شارل

(1) Watts : op. cit. pp. 152-155.
(2) Lodge : op. vit. pp. 478-479.
(3) Lodge : op. cit. pp. 479-480.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 582-583.

هذا عرض البابوية وغزا صقلية ليقتل مانفرد ويحكم الجزيرة حكما تعسفيا جائرا ، الامر الذى أثار ثورة جامحة فى صقلية سنة ١٢٨٢ . وهنا أسرع الصقليون الى دعوة بطرس الثالث ملك أرغونة لمساعدتهم ، فوجد بطرس الفرصة سانحة للمطالبة بحقوق زوجته فى تاج الجزيرة ، وغزا صقلية فى نفس العام . ولم تمض مدة طويلة حتى كان بطرس الثالث سيد الجزيرة ، كما تمكن — عن طريق أمير أسطوله روجر دى لوريا Roger de Lauria أن يبسط سيطرته على جزء من الشاطىء الايطالى (١) .

على أن بطرس الثالث لم يهنأ بصقلية طويلا ، لان موقفه أثار البابوية وهى فى أوج سلطانها فى القرن الثالث عشر ، فلم يلبث البابا مارتن الرابع (١٢٨١ — ١٢٨٥) أن اصدر قرار الحرمان ضده ونادى بعزله من مملكة أرغونة واعطاء عرشه لشارل فالوا ثانى أبناء ملك فرنسا (١٢٨٣) (٢) . بل ان البابا ذهب الى حد اعلان حملة صليبية ضد بطرس الثالث ملك أرغونة ، وفعلا تأهبت الجيوش الفرنسية للغزو واجتاحت جزءا كبيرا من قطالونية . وعندما أظلم الموقف أمام بطرس الثالث ملك أرغونة ، لاح بصيص من النور اذا أحرز قائده البحرى روجر دى لوريا نصرا كبيرا على الاعداء ، فى حين انتشر وباء فتاك بين الجنود الفرنسيين المغزاة . وفى نفس العام (سنة ١٢٨٥) توفى بطرس الثالث ، ولكن بعد أن عرض اعادة صقلية الى البابوية ليخلص من هذه المشاكل (٣) .

وبعد ذلك خلفه ابنه ألفونس الثالث فى عرش أرغونة (١٢٨٥ — ١٢٩١) الذى لم يشأ أن يتخلى عن صقلية واختار لها أن تكون مملكة منفصلة تحت حكم أخيه جيمس (Jaime) وبذلك تجدد النزاع بين أرغونة من جهة وفرنسا والبابوية من جهة أخرى . ويبدو أن ألفونس الثالث اعتمد فى موقفه من البابوية وفرنسا على مساعدة ادوارد الأول ملك انجلترا الذى وضع

(1) Chapman : op. cit. p. 172.

(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 114.

(3) Lavisse : op. Tome 3, Deuxieme Partie, pp. 116-117.

مشروعا لزواج ابنته من الفونس (١) . على أن الفونس الثالث لم يكن على شيء من مقدرة أبيه وكفايته ، فلم يلبث أن تراجع أمام البابوية ونزل عند مطالبها سنة ١٢٩١ (٢) .

وربما كان السبب فى موقف ألفونس الثالث الضعيف من البابوية هو أنه كان مشغولا فى الداخل فى صراع مع نبلاء اقليمى أرغونة وبلنسية الذين اتحدوا للحصول على مزيد من الامتيازات من الملك . وأخيرا اضطر ملك أرغونة الى النزول على رغبة الامراء فمنحهم مطالبهم سنة ١٢٨٧ (٣) . وقد حاول خليفته وأخيه جيمس الثانى (James II) (١٢٩١ — ١٣٢٧) ، أن يقلل من أثر هذه الامتيازات الجديدة التى منحها الفونس الثالث للنبلاء . ولكن أهمية عهد جيمس الثانى تبدو فى سياسته الخارجية أكثر منها فى الاحوال الداخلية لمملكة أرغونة (٤) . ذلك أنه أظهر تمسكا بصقلية فى أول الامر — بعد أن كان حاكما عليها قبل أن يعتلى العرش ، وأرسل اليها ابنه فردريك (Fradrique) لينوب عنه فى حكمها . ولكنه عاد فعدل عن رأيه وعقد اتفاقية مع البابا بونيفيس الثامن سنة ١٢٩٥ تشبه تلك التى سبق أن عقدها ألفونس الثالث ، فتنازل للبابا عن صقلية ، وعلى أن يسمح له بغزو سردينيا وكورسيكا ليحكمها نائبا عن البابا (٥) . ولم يرض الصقليون عن هذه الاتفاقية التى لم يمثلوا فيها فثاروا حتى تم الاتفاق أخيرا سنة ١٣٠٢ بعد حرب طويلة ، على أن يتزوج فردريك من ابنة الامير الانجوى الذى رشحته البابوية لحكم صقلية ، وأن يرث فردريك حماه فى حكم الجزيرة (٦) . وفى أواخر عهد جيمس الثانى نجح أكبر أبنائه فى غزو سردينيا سنة ١٣٢٤ ، كما حدث فى ذلك الوقت أن استطاع أهل قطالونية من الجند المرتزقة أن يبسطوا سيطرتهم على دوقية أثينا ويلعبوا دورا هاما فى تاريخ هذا الجزء الشرقى من البحر المتوسط (٧) .

---

(1) Watts : op. cit. p. 191.
(2) Chapman : op. cit. p. 127.
(3) Lodge : op. cit. p. 481.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 586.
(5) Pirenne : La Fin du Moven Age, Tome 1, p. 172.
(6) Chapman : op. cit. p. 128.
(7) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 284-290.

أما ألفونس الرابع الذى تولى حكم أرغونة بعد ذلك (١٣٢٧ — ١٣٣٦) فليس لعهده أهمية سوى الحروب التى دارت حينئذ مع بيزا وجنوا حول امتلاك سردينيا . وبعد ذلك خلفه فى حكم أرغونة بطرس الرابع (١٣٣٦ — ١٣٨٧) الذى كرس كل جهوده نحو تحرير الملكية من بعض القيود التى رزحت تحتها ، حتى أصبح حكمه سلسلة متصلة الحلقات من النضال بينه وبين كبار النبلاء (١) . وقد بدأ اصطدامه بالنبلاء عندما حاول احلال ابنته كونستانس محل أخيه جيمس فى ولاية عهد المملكة ، لأن بطرس الرابع لم يرزق بولد ذكر يخلفه فى الحكم (٢) . وعلى الرغم من أنه لا يوجد تقليد أو قانون فى أرغونة يمنع الاناث من ولاية الحكم ، الا أن الشعور العام اتجه دائما نحو تولية الذكور حتى لو كانوا أبعد قرابة من الاناث (٣) . وقد استغل نبلاء أرغونة ومدنها هذه الفرصة لممارسة الحقوق التى حصلوا عليها سنة ١٢٨٧ بطريقة عملية ، فقاوموا رغبة الملك واضطروه الى الاذعان لمطالبهم سنة ١٣٤٧ . على أن بطرس الرابع لم يكن بالرجل الذى يستسلم للهزيمة ، فعاود النزاع مع النبلاء فى العام نفسه ووقفت الى جانبه مدن اقليم قطالونية ونبلاؤه ، وهم الذين أدركوا أن مصالحهم التوسعية فى البحر المتوسط تتطلب حاكما قويا ، فى حين عارض الملك نبلاء اقليمى بلنسية وأرغونة ومدنهما (٤) .

ومهما يكن من أمر فقد انتهت الازمة بانتصار بطرس الرابع على خصومه فى موقعة ابيلا Epila سنة ١٣٤٨ ، فأنزل بهم أشد أنواع التنكيل وبذلك خسرت الأرستقراطية الاقطاعية كثيرا من نفوذها فى أرغونة . أما فى الناحية الخارجية فقد قام بطرس الرابع سنة ١٣٤٣ بغزو جزر البليار وضمها تحت نفوذه بعد أن كان قد استقل بها منذ سنة ١٢٧٤ أحد أبناء جيمس

---

(1) Watts : op. cit. p. 193.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 591.
(3) Lodge : op. cit. p. 184.
(4) Chapman : op. cit. p. 180.

الاول الفاتح ، ثم سلالته من بعده ، وتلقبوا بلقب ملوك ميورقة (١) . كذلك استولى بطرس الرابع على ممتلكات ملوك ميورقة فى جنوب فرنسا ، كما ذهب بنفسه الى سردينيا لاخماد ثورة فى الجزيرة وتنظيم أمورها (٢) ، فى الوقت الذى أخذ يعمل على تشجيع العلاقات التجارية بين بلاده والجهات الشرقية من البحر المتوسط . وفى سنة ١٣٨١ قبل بطرس الرابع عرضا من دوقية القطلان فى أثينا لتصبح هذه الدوقية تحت سيادته .

أما مشكلة وراثة العرش فقد انتهت عندما رزق بطرس الرابع بولدين هما حنا الاول (١٣٨٧ — ١٣٩٥) ومارتن الاول (١٣٩٥ — ١٤١٠) اللذان خلفا أباهما في عرش أرغونة على التوالى (٣) . وأهم ما يميز عصر هذين الملكين هو اعادة الاتحاد بين أرغونة وصقلية . ذلك أننا رأينا كيف أعطى جيمس الثانى حكم الجزيرة لأخيه فردريك بمقتضى الاتفاقية التى عقدت بين جميع الاطراف المعنية سنة ١٣٠٢ . وقد أدى هذا الارتباط العائلى بين صقلية وأرغونة الى الربط بين البلدين ، وذلك عندما ورث مارتن الصغير — ملك صقلية — حق أبيه فى عرش أرغونة سنة ١٤٠٩ (٤) . على أن وفاة مارتن الصغير ثم مارتن الاول الكبير ملك أرغونة سنة ١٤١٠ ، جعل المشكلة أشد تعقيدا ، اذ تنازعت التركة عدة أطراف حتى انتهى النزاع سنة ١٤١٢ باختيار فردناند الوصى على عرش قشتالة ليصبح فردناند الاول ملك أرغونة (١٤١٢ — ١٤١٦) (٥) .

ولم يعش فردناد الاول طويلا ليظهر فى أرغونة شيئا من كفايته الادارية التى ظهرت أثناء قيامه بالوصاية على عرش قشتالة ، فخلفه ابنه الاكبر ألفونس الخامس (١٤١٦ — ١٤٥٨) الذى كان أشد ارتباطا بتاريخ صقلية

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, pp. 174-175.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 589-590.
(3) Lodge : op. cit. p. 482.
(4) Watts : op. cit. pp. 229-230.
(5) Chapman : op. cit. p. 132.

وايطاليا منه بتاريخ أسبانيا . ذلك أنه ورث عن أبيه صقلية وسردينيا فضلا عن أرغونة ، ومن ثم أخذ يتطلع الى ضم الجزء الجنوبى من ايطاليا — أى نابلى . وفى سبيل تحقيق هذا الغرض الاخير اشتبك ألفونس الخامس فى صراع ضد البيت الانجوى الذى نافسه السيطرة على نابلى ، حتى انتهى الامر بانتصار ألفونس الخامس الذى ظل يحكم نابلى حتى وفاته سنة ١٤٥٨ (١) .

ولم يترك ألفونس الخامس ولدا شرعيا يرثه فانتقل حكم أرغونة وصقلية وسردينيا بعد وفاته الى أخيه حنا الثانى (١٤٥٨ — ١٤٧٩) فى حين انتقلت نابلى الى فردناند الاول (Ferdinand I) ، وهو ابن غير شرعى لألفونس الخامس (٢) . وقد نجح حنا الثانى فى تدعيم العلاقات الودية مع مملكة نافارى (نواره) وهى المملكة الصغيرة التى امتدت أراضيها على جانبى البرانس والتى ظلت مدة طويلة أكثر ارتبطا بفرنسا منها بأسبانيا . وكان حنا الثانى قد تزوج — قبل ارتقائه عرش أرغونة — من الاميرة بلانش ابنة شارل الثانى صاحب نافارى ووريثه (١٣٨٧ — ١٤٢٥) (٣) ، وأنجبت هذه الرابطة الزوجية شارل فيانا الذى أصبح من المنتظر أن يرث أمه فى نافارى وأبيه فى أرغونة . ولكن حدث عقب وفاة بلانش سنة ١٤٤٢ أن تزوج حنا الثانى من جوانا ابنة أمير أسطول قشتالة التى أثرت فى زوجها ليحرم ابنه حقوقه المشروعة فى نافارى . وهكذا قامت حرب بين شارل فيانا من جهة وأبيه حنا الثانى وزوجة أبيه جوانا من جهة أخرى ، انتهت سنة ١٤٥٢ بوقوع الابن أسيرا فى يد أبيه (٤) . وعلى الرغم من أن حنا الثانى أطلق سراح ابنه بعد قليل ، الا أن مركز الاخير ضعف وساء ولا سيما بعد أن أنجب الاب ابنا آخر — وهو فردناند الكاثوليكى — من زوجته الثانية جوانا . ولكن سلوك الأب أثار الشعور العام ضده ، فقامت ثورة فى قطالونية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 149-484.

(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. 96.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 485.

(4) Lodge : op. cit. p. 485.

أطفأها حنا الثانى بتعيين ابنه شارل فيانا حاكما عليها ، حتى تخلص منه بالسم بعد قليل . وسرعان ما أدى هذا العمل الى تجدد الثورة مما دفع حنا الثانى الى الاستعانة بلويس الحادى عشر ملك فرنسا ، مقابل اعطائه مقاطعتى روسيلون Roussillon وكردان Cerdagne على الجانب الشرقى شمالى البرانس (١) . وهكذا ظل حنا الثانى يقاوم حتى أخضع ثورة قطالونية سنة ١٤٧٢ ، ثم توفى هو سنة ١٤٧٩ ليخلفه ابنه فردناند الكاثوليكى فى العام نفسه فى أرغونة وصقلية وسردينيا (٢) .

عصر فردناند وايزابلا :

ويعتبر فردناد الكاثوليكى ملك أرغونة (١٤٧٩ — ١٥١٦) من أعظم الملوك المعاصرين ، لا لأنه تزوج من ايزابلا ملكة قشتالة (١٤٧٤ — ١٥٠٤) وبذلك تم الربط بين أقوى مملكتين فى أسبانيا فحسب ، بل أيضا للتطورات العظمى — الداخلية والخارجية — التى طرأت على أسبانيا فى تلك الفترة (٣) . ذلك أن هذا العصر يعتبر نقطة تحول مهمة فى انتقال أسبانيا من العصور الوسطى نحو العصور الحديثة ، لأن توحيد قشتالة وأرغونة انما يعنى فى الواقع مولد أسبانيا فى التاريخ الحديث . هذا الى أنه استطاع القضاء على الاتجاهات الانفصالية التى طالما حالت دون توحيد البلاد وتقوية نفوذ الملكية ، وبذلك أخذت الحياة العامة تتطور فى أسبانيا لتجعل منها دولة من دول أوربا العظمى (٤) . والواقع أن الكلام عن حكم فردناند وايزابلا بالتفصيل لا يدخل معظمه ضمن موضوع هذا الكتاب لانه يرتبط بأسبانيا العصور الحديثة أكثر منه بأسبانيا العصور الوسطى ، ولذلك نكتفى بالاشارة الى المعالم الرئيسية لذلك العهد الانتقالى .

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 4, Deuxieme Partie, pp. 391-392.
(2) Watts : op. cit. p. 276.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 487.
(4) Chapman : op. cit. p. 202.

ذلك أن ايزابلا استغلت الطبقة البورجوازية فى الضرب على أيدى كبار النبلاء القشتاليين ووضع حد للفوضى التى بلغت ذروتها فى عهد أخيها هنرى الرابع — ملك قشتالة السابق (١) ، ولذلك استصدرت من المجلس الوطنى تشريعا سنة ١٤٧٦ بانشاء هيئة « الاخوة المقدسة «Santa Hermandad لتقوم بعمل الشرطة على نطاق واسع ، كما كونت جيشا صغيرا من ألفى فارس لتنفيذ أوامر الموظفين المحليين وتعليماتهم (٢) . كذلك حرمت كبار النبلاء من الاراضى والمعاشات السخية التى حصلوا عليها فى السنوات الاخيرة ، وهدمت قلاعهم التى طالما استغلت كمراكز للنهب والسلب . وفى الوقت نفسه أظهرت ايزابلا روح الملكية المستنيرة فعملت على تنظيم القوانين العديدة التى صدرت منذ عهد ألفونس العاشر (٣) ، كما اهتمت بحماية المصالح المادية لشعبها وشجعت التجارة والصناعة عن طريق اعادة توزيع الضرائب توزيعا عادلا ، واصلاح العملة ، وازالة العوائق التى تعترض طريق التجارة بين قشتالة وأرغونة . وهكذا يقال أن الدخل الملكى تضاعف ثلاثين مرة فى المدة الواقعة بين ارتقاء ايزابلا العرش سنة ١٤٧٤ ، ووفاتها سنة ١٥٠٤ دون اثقال كاهل الشعب بأية أعباء جديدة (٤) .

على أنه اذا كان الحكام العظام فى التاريخ لا يخلون عادة من نقائص وعيوب ، فان عيب ايزابلا كان تعصبها الدينى الشديد وبخاصة ضد الهراطقة ولا يوجد هناك شك فى أن ايزابلا مسئولة الى حد بعيد عن دخول محاكم التفتيش فى أسبانيا منذ سنة ١٤٨٣ (٥) ، فبدأت هذه المحاكم فى قشتالة ثم امتدت الى أرغونة حيث صادفت معارضة شديدة من الاهالى المحبين للحرية ، ولكنها ظلت فى عملها بفضل ارادة فردناند الخامس القوية (٦) . وسرعان

---

(1) Lodge : op. cit. p. 488.
(2) Watts : op. cit. p. 284.
(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age. Tome 2, pp. 88-89.
(4) Lodge : op. cit. p. 489.
(5) Watts : op. cit. pp. 238-239.
(6) Chapman : op. cit. pp. 213-214.

ما ظهر أثر هذه السياسة ـــ سياسة التعصب الدينى فى خطوتين : الأولى طرد اليهود والثانية طرد العرب من أسبانيا .

أما اليهود فقد صدر مرسوم سنة ١٤٩٢ بطردهم من أسبانيا ، الأمر الــذى ترتب عليه تشريد أكثر من مائة وخمسين ألف يهــودى ، فى حين اعتنق خمسون ألف يهودى المسيحية . وقد ذهب يهود أسبانيا المهاجرون الى البرتغال وشمال أفريقية وايطاليا وفرنسا ، حيث صادفوا مقابلة أسوأ مما كانوا يتوقعون حتى اختار بعضهم العودة الى أسبانيا واعتناق المسيحية . وقد يكون هذا الاجراء جائرا من جــانب ايزابلا ، ولكن يبدو أن أثره لم يكن سيئا على الاقتصاد الأسبانى بالدرجة التى يصورها بعض المؤرخين ، بل لعله مما يثير الدهشة أن طرد اليهود من أسبانيا أعقبته فترة من الازدهار والرخاء الاقتصادى لا مثيل لها فى التاريخ الأسبانى (١) .

وأما العرب فقد وجدوا فى ضعف قشتالة طوال القرنين الأخيرين خير ضمان لبقائهم فى غرناطة ، فظلوا قابعين فى ذلك الركن الجنوبى من شــبه الجزيرة يسالمون جيرانهم المسيحيين ويدفعون لهم الجزية اتقاء لخطرهم (٢) . ولكن الموقف أخذ يتبدل عقب توحيد قشتالة وأرغونة ، وما نشأ من ذلك التوحد من قيام قوة مسيحية شامخة على حدود غرناطة . ويبدو أن مسلمى غرناطة غرهم الهدوء النسبى الذى ساد الحدود الفاصلة بينهم وبين جيرانهم المسيحيين ، فانقسموا على أنفسهم وبددوا جهودهم فى محــاربة بعضهم بعضا ، دون أن يدروا بالقوة الجديدة التى نشأت على مقربة منهم . وفى الوقت الذى اشتد الصراع بين أبى عبد الله الزغيبى من جهة وأبيه أبى الحسن وعمه الزغل من جهة أخرى ، حتى ارتمى ابو عبد الله الزغيبى بين احضان المسيحيين وقصد قرطبة حيث تحالف مع فردناند الخــامس وايزابلا ، فى ذلك الوقت كان الملكان الكاثوليكيان يعدان العدة للهجوم على المسلمين فى غرناطة (٣) .

---

(1) Chapman : op. cit pp. 213-214.
(2) Watts op. cit. 291.

(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

وكان أن بدأ الهجوم المسيحى على غرناطة سنة ١٤٨١ ، فأخذت المدن والقلاع الاسلامية تتساقط واحدة بعد الاخرى . ولم يتحرج أبو عبد الله الزغيبى فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ المسلمين فى الاندلس ، من محالفة الاعداء والعمل على احباط الجهود الجبارة التى بذلها عمه الزغل فى مقاومة الغزو المسيحى (١) . وكان استخدام البارود والاسلحة النارية قد أخذ ينتشر حينئذ فى أوربا ، فاستخدم المسيحيون هذا السلاح الجديد فى الاستيلاء على حصن لوره وغيره من الحصون سنة ١٤٨٤ ، ثم على لوشة سنة ١٤٨٦ بعد معركة اشترك فيها متطوعون من مختلف جنسيات أوربا كالسويسريين والانجليز والألمان (٢) . أما مالقة فقد قاومت مقاومة عنيفة بفضل قوة مراس قائدها حامد الزغبى ، حتى لجأ المسيحيون الى بث الالغام تحت أسوارها . وحضرت ايزابلا بنفسها لتبث الشجاعة فى قلوب رجالها ، حتى نفدت الاقوات فى المدينة فاستسلمت للغزاة (٣) . وفى سنة ١٤٨٨ خدد فردناند الخامس هجماته على المسلمين فهاجم بسطة (Baza) التى استمرت تقاوم الحصار ستة أشهر أنزلت خلالها كثيرا من الخسائر بالمهاجمين حتى سقطت أخيرا سنة ١٤٨٩ (٤) . وبسقوط بسطة أدرك الزغل أنه لا فائدة من المقاومة وأن دولة المسلمين بالاندلس قد دالت ، فعبر البحر الى فاس حيث أساء اليه سلطانها وعذبه تعذيبا وحشيا ثم سمل عينيه وتركه يهيم فى الارض بائسا طريدا (٥) .

وهكذا لم يبق للمسلمين فى الاندلس سوى غرناطة التى تشفى أميرها أبو عبد الله الزغبى فى عمه وعدوه القديم أبى عبد الله الزغل ، غير دار بأن الدوائر لن تلبث أن تدور عليه فى القريب العاجل . وكان الزغبى أضعف من أن يواجه جيوش فردناد وايزابلا — حليفيه القديمين — ولكن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 489.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. 91.
(3) Wats : op. cit. pp. 296-297.
(4) Cam, Med. Hist Vol, 8, p. 489.
(٥) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٢٠٩

أهل غرناطة بزعامة الفارس موسى بن أبى الغسان صمموا على المقاومة ، حتى اضطرت غرناطة الى القاء السلاح أخيرا قرب نهاية سنة ١٤٩١ بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط بحر من المسيحيين ، وبعد أن طال انتظارها لوصول النجدة الموعودة من مماليك مصر أو سلاطين العثمانيين (١) .

على أن سقوط دولة العرب سياسيا فى الاندلس لا يعنى خاتمة هذه القصة المثيرة . فعلى الرغم من أن شروط تسليم غرناطة نصت على عـــدم الانتقام من المسلمين أو الاساءة اليهم ، الا أن هذه الشروط كان من الصعب تنفيذها فى عصر طفح بروح التعصب الدينى ، وفى بلد عرف حكامه بالتطرف فى هذا التعصب (٢) . وهكذا أعقبت سقوط غرناطة موجة من التعذيب الوحشى الذى حل بمن بقى فى البلاد من المسلمين (٣) . ولم تنته هـــذه الموجة الا فى القرن السابع عشر بعد أن عذب منهم من عذب ، وشرد من شرد ، وقتل من قتل ، حتى لقد ثبت أن جملة من نفوا من مسلمى الاندلس فى المدة الواقعة بين سقوط غرناطة وأوائل القرن السابع عشر بلغت ثلاثة ملايين نسمة (٤) . وبذلك « حرمت أسبانيا من جهودعنصر مسالم منتج ، فى وقت كانت أحوج ما تكون الى جهوده الانشائية (٥) .

البرتغال وحركة الكشوف الجغرافية :

واذا كنا قد رأينا نشأة اسبانيا الحديثة فى ضوء تطور أرغونة وقشتالة واتحادهما فى نهاية الأمر ، فان هناك مملكة أخرى قدر لها أن تظل حتى اليوم تقتسم مع أسبانيا شبه جزيرة أيبريا ، وأن تتفق معها فى المظاهر العامة لنشأتها فى العصور الوسطى . وقد سبق أن أشرنا الى نشأة البرتغال وأوضحنا

---

(١) نفس المرجع ص ٢١٣ .

(2) Chapmann : op. cit. p. 205.

(3) Cm. Med. Hist. Vol, 8, p. 490.

(٤) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٢٢٢ .

(5) Lodge : op. cit. p. 490.

أنها هى الاخرى شقت سبيلها — مثل بقية دول أسبانيا المسيحية — وسط طريق النضال ضد المسلمين . ولم تلبث الظروف الجغرافية أن شجعت على تقوية النزعة الانفصالية ، وساعدت على تكوين شخصية مستقلة لهذه الدولة الجديدة ، وان كان أهلها لا يختلفون من الناحية العنصرية أو اللغوية عن بقية أهل أسبانيا المسيحيين (١) .

على أن هذه الشخصية المستقلة لم تكتمل للبرتغال الا بعد صراع طويل انقسمت فصوله الى قسمين : أما القسم الاول فكان ضد المسلمين وانتهى بالانتصارات التى أحرزها ألفونس الاول (١١١٢ — ١١٨٥) وهو الذى نبذ لقب كونت واتخذ لقب ملك (٢) . وبعد الجهود التى بذلها ألفونس الاول فى تأسيس دولة البرتغال استطاعت دولته فى عهد ملكها ألفونس الثالث (١٢٤٨ — ١٢٧٩) أن تسيطر على ولاية الجرف (الغرب) ، فضلا عن جهود هذا الملك فى بناء المدن وتشجيع التجارة والصناعة والزراعة (٣) . وأما القسم الثانى من صراع البرتغال فكان ضد مملكة قشتالة التى حاولت التهام دول البرتغال الناشئة ، ولكن محاولتها باءت فى نهاية الامر بالفشل بفضل مقاومة البرتغاليين وجهود حنا الاول ملك البرتغال (١٣٨٣ — ١٤٣) (٤) .

ولعهد حنا الاول هذا أهمية كبيرة فى التاريخ ، لا بسبب جهوده فى تدعيم دولته فى الداخل والخارج فحسب ، بل أيضا لأن البرتغال بدأت فى هذا العهد تهتم بكشف سواحل أفريقية الغربية ، وهى الحركة التى سرعان ما عادت على البرتغال بالثروة الطائلة والشهرة الواسعة . وكان ثالث أبناء حنا الاول — وهو المشهور باسم الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) — مؤمنا بامكان الطواف حول أفريقية وبأنه من الممكن الوصول الى الهند عن هذا

---

(1) Stephenson : Portugal; p. 2.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 508.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 475.

(4) Lodge : op. cit. pp. 490-491.

الطريق ، وبالتالى الحصول على الأرباح التى تستأثر بها مدن أيطاليا البحرية لاحتكارها التجارة مع الشرق (١) . ومن المعروف أن الدافع الاساسى لهنرى الملاح فى جهوده الاستكشافية لم يكن اقتصاديا بحتا ، وانما كان دينيا أيضا على أساس انها تتيح فرصة لتحطيم سيطرة المسلمين على طرق التجارة مع الشرق . وهنا لا يفوتنا أن نذكر أن هنرى الملاح كان رئيسا لهيئة اليسوعيين (الجزويت) التى ورثت الداوية فى أملاكها ، وبالتالى كان يهمه العمل على كسب أراضى وميادين جديدة للمسيحية (٢) .

حقيقة أن آمال هنرى الملاح لم تحقق فى حياته ، ولكن يكفى أنها ساعدت بعد مماته فى تحقيق الوصول بحرا الى الهند . ويكفيه أنه أمضى أربعين عاما فى اعداد الحملات الاستكشافية وارسالها الى شواطىء أفريقية الغربية ، حتى تم كشف بعض الجزر المهمة فى المحيط الاطلسى مثل جزيرة ماديرا Madeira (سنة ١٤٢٠) وجزر كانارى وجزر آزور (١٤٣١ — ١٤٤٤) ، هذا زيادة على بعض المراكز على شاطىء أفريقية مثل الرأس الابيض (سنة ١٤٤١) والرأس الاخضر (١٤٤٦) (٣) .

وقد أثرت وفاة الامير هنرى الملاح سنة ١٤٦٠ فى حركة الكشف الجغرافى (٤) ، ولكنها لم توقف هذه الحركة بعد أن أثبتت التجارب للبرتغاليين أن أفريقية تهيىء لهم موردا غنيا بالرقيق فى وقت وجد البرتغاليون فى تجارة الرقيق بالذات مصدرا هاما للثروة ، حتى ان هنرى الملاح يعتبر مؤسس هذه التجارة فى أوربا (٥) . وهكذا ازدادت الرحلات البحرية الى شواطىء أفريقية وكلما كثرت الخبرة ، ازدادت الرحلات طولا ولا سيما بعد أن أخذت الرغبة تشتد فى العثور على طريق آخر جديد الى الهند نتيجة

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 10.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 582.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 1, pp. 14-16.
(4) Eyre : p. 569.
(5) Stephenson : op. cit. pp. 148-149.

لاتساع نفوذ العثمانيين وسيطرتهم على طريق أعالى الفرات والقسطنطينية من جهة ، ولتحكم المماليك فى طريق البحر الاحمر ومصر والشام من جهة اخرى ، لذلك أخذت مخاوف أوربا تشتد كلما تقدم الوقت بالقرن الخامس عشر ، وبات الاوربيون فى خطر من منع المحصولات الشرقية عنهم فى وقت اشتدت حاجتهم الى هذه المحصولات (١) . وكان أن اشتد التنافس بين مختلف دول أوربا وعناصرها حـول استكشاف طريق بحرى مبـاشر يربط أوربا بالهند حتى حازت البرتغال أخيرا قصب السباق . ذلك أن بارثلميو دياز استطاع الوصول سنة ١٤٨٦ الى خليج ألجوا Algoa على الشاطىء الجنوبى الشرقى لافريقية بعد أن دار حول الرأس التى أسماها « الرأس العاصف «Cabo Termentoso» والتى أصر مليكه حنا الثانى على تسميتها رأس الرجاء الصالح (٢) . وبعد هذه الخطوة باثنتى عشرة سـنة تمكن فاسكودى جاما سنة ١٤٩٨ من اتمام الرحلة من لشبونة الى كلكتا بمساعدة بعض الملاحين العرب الذين أرشدوه الى الطريق . ثم عـاد الى لشـبونة فى سـبتمبر سـنة ١٤٩٩ ، وبذلك حققت أوربا غرضها ووصلت الى الهند عن طريق البحر (٣) .

ثم كان أن تنازلت البرتغال لقشتالة سنة ١٤٧٩ عن جزر كنارى مقابل احتفاظها بحقها فى جميع الاستكشافات على شواطىء افريقية فى الماضى والمستقبل . وهكذا اتجهت البرتغال فى حركتها الاستكشافية جنوبا على امتداد الساحل الافريقى ، فى حين اتجهت أسبانيا غربا فى المحيط الاطلسى . وهنا فكر كريستوفر كولمبس — وهو أحـد الجنوية الذين دخلوا خدمة قشتالة — فى الوصول الى آسيا والهند عن طريق الاتجاه غربا فى المحيط الأطلسى ، حتى وصل سنة ١٤٩٢ الى أرض أصر على تسميتها الهند الغربية دون أن يعلم أنها جزء من العالم الجديد (٥) .

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. 154.
(2) Stephenson : op. cit. p. 156 & Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 512
(3) Eyre : op. cit. p. 569.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 1, pp. 22-23.

ولعل هذين الاستكشافين ــ استكشاف أمريكا واستكشاف الطريق البحرى الى الهند ــ هما أعظم ما تمخض عنه القرن الخامس عشر من أحداث . ذلك أنهما أثارا فى وجه العالم القديم مشاكل جديدة ، وفتحا أمامه آفاقا جديدة ، أدت جميعها الى نقله من طور الى آخر ، أو على وجه التحديد من طور العصور الوسطى الى طور العصور الحديثة . على أن هذه الاستكشافات الجغرافية لم تكن العامل الوحيد فى هذا التطور ، وانما كانت فى الواقع تمثل جانبا واحدا مهما من جوانب حركة كبرى شاملة نعرفها فى التاريخ باسم حركة النهضة .

الباب الحادى والعشرون

ألمانيا وغرب أوربا أواخر العصور الوسطى

يتصف تاريخ ألمانيا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالاختلاط والتعقيد ، بعد أن اختفت اماراتها الكبرى التى قامت على أســاس قبلى عنصرى ، وظهر على المسرح عدد كبير من صغار الامراء الذين اشتبكوا بعضهم مع بعض فى منازعات لا حصر لها بدافع من الاغراض الشخصية البحتة . هذا فى الوقت الذى أخذت المدن تتحرر من سيطرة أمراء الاقطاع لتعزز نفوذها وامتيازاتها فى ضوء مصالحها الخاصة . أما الامبراطور فقد أصبح نفوذه اسميا ، ولا هم له الا استغلال جلال وظيفته من أجل تحقيق مصالح شخصية خاصة لافراد البيت الامبراطورى (١) .

والواقع أن الارتباط الذى تم منذ سنة ٩٦٢ بين وظيفتى الملكية الالمانية والامبراطورية الرومانية عاد بأوخم العواقب على كل منهما ، لان وظيفة الامبراطورية العالمية أضحت سطحية وغير واقعية ، فى حين أدت مظــاهر الامبراطورية ومطالبها الى انصراف الاباطرة عن شئون ألمانيا نفسها الى غيرها من الشئون الخارجية وخاصة ايطاليا ، مما أضعف نفوذ الملكية الالمانية وعاد عليها بأوخم العواقب (٢) . وحسبنا ما أدت اليه السياسة الامبراطورية من صدام بين البابوية وحكام ألمانيا ، وهو الصدام الذى زعزع الاباطرة وبدد جهودهم وأموالهم ، بل أدى الى تغيبهم عن ألمانيا نفسها وقضاء معظم سنوات حكمهم فى حروب لا طائل من ورائها فى ايطاليا ، حتى ألفى أمــراء ألمانيا أنفسهم وقد تحرروا من كل أثر لسيطرة الاباطرة ورقابتهم ، فانصرفوا الى

---

(1) Thompson : Vol, 2, p. 920.
(2) Lodge : op. cit. p. 1.

توطيد نفوذهم وسلطانهم الاقطاعى على حساب الامبراطورية المتداعية (١) . وثمة عامل آخر أسهم فى اضعاف الامبراطورية الالمانية ، هو أنهـا ظلت انتخابية بوجه عام فى تقاليدها وفكرتها ، وبذلك حرمت الملكية الالمانية من مميزات التقليد الوراثى الذى استغله ملوك انجلترا وفرنسا المعاصرون فى التمكين لأنفسهم وتدعيم سلطتهم المركزية (٢) . حقيقة أن الحياة دبت فى الملكية الالمانية من جديد عقب انتهاء فترة الشغور (١٢٥٠ — ١٢٧٢) ، ولكن بقاء هذه الملكية لا وراثية حرمها من أية فرصة جديدة لفرض نفـوذ السلطة المركزية على الامراء المحليين . وهكذا ظلت ألمانيا بعد سنة ١٢٧٢ عبارة عن مجموعة من الدويلات الصغيرة ، مع بقاء امبراطور أو ملك على رأس الدولة يتمتع بسلطة اسمية ، حتى سميت الفترة بين سنتى ١٢٧٢ ، ١٥١٩ فى التاريخ الالمانى باسم « عصر الأمراء » (٣) . هذا فى الوقت الذى أخذت جاراتها — انجلترا وفرنسا — تمران بدور حاسم من أدوار التنظيم القومى المركزى تحت زعامة سلطة ملكية قوية . واذا كانت ألمانيا قد استطاعت البقاء على قيد الحياة فى ذلك الدور من ادوار تاريخها — على الرغم من تفككها — فان الفضل الاكبر فى ذلك يرجع قبل كل شىء الى انشغال انجلترا وفرنسا فى حرب المائة عام (٤) .

من هذا يتضح أنه من العسير معالجة تاريخ ألمانيا فى تلك الحقبة على أساس تسلسل الحوادث التاريخية أو على أساس تسلسل الحـكام ، لأنه لا توجد حادثة واحدة أو سلسلة متكاملة من الحوادث التاريخية يتبلور حولها التاريخ الالمانى فى هذا الجزء الاخير من العصور الوسطى ، كما أنه لا توجد أسرة حاكمة بعينها يدور حولها التاريخ الالمانى فى ذلك العصر (٥) . ولعله من الاصلح علاج تاريخ ألمانيا فى ذلك العصر على أساس دراسة المشاكل والاحداث الكبرى المتفرقة مثل قيام بيت هابسبورج فى الحكم ، ولودويج

---

(1) Eyre : op. cit. pp. 158-162.
(2) Lodge : op. cit. p. 2.
(3) Barraclough : op. cit. p. 249.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, pp. 286-287.
(5) Thompson : op. cit. Vol, 2, p. 951.

الرابع والبابوية ، وشارل الرابع والمرسوم الذهبى ، والدور الذى قامت به العصبة الهانزية فى تاريخ ألمانيا ، على أن نتعرض بعد ذلك لنشأة أهم الدول الغربية فى أواخر العصور الوسطى وخاصة تلك التى تفرعت عن الامبراطورية — مثل سويسرا والاراضى المنخفضة .

قيام أسرة هابسبورج فى الحكم :

يبدو لنا من عرضنا لتاريخ ألمانيا فى الابواب السابقة أن الملكية الالمانية بدأت تتدهور فعلا منذ القرن الحادى عشر ، على الرغم من الجهود الاحيائية التى قام بها الاباطرة العظام من أسرة هوهنشتاوفن ، مثل فردريك بربروسا وهنرى السادس وفردريك الثانى (١) . وبسقوط أسرة هوهنشتاوفن سقطت الامبراطورية والملكية الالمانية الى الدرك الاسفل ، فسادت الفوضى والمنازعات ألمانيا أثناء فترة الشغور (١٢٥٠ — ١٢٧٢) ، وادعى أحقيته فى العرش كل من ريتشارد الكورنوولى (Richard of Cornwall) الانجليزى وملك قشتالة ألفونس العاشر ، دون أن يحاول أحدهما حكم البلاد فعليا (٢) . وكان أن استغل الامراء الاقطاعيون هذه الفرصة لتقوية نفوذهم والامعان فى منازعاتهم ، مما ظهر أثره واضحا فى العصر الذى أعقب فترة الشغور (٣) .

ذلك أن وفاة ريتشارد الكورنوولى سنة ١٢٧٢ جعلت أنصاره يفكرون فى اختيار خليفة له يرث حقه فى عرش ألمانيا . وفى ذلك الوقت أخـذ البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ — ١٢٧٦) يعمل حسابا لاتساع نفوذ البيت الأنجوى فى ايطاليا ، كما ساورته المخاوف من أن يؤدى انحلال ألمانيا الى توسيع فرنسا فى الجهات الواقعة شمال جبال الألب ، ومن ثم أصبحت للبابوية مصلحة واضحة فى بعث الملكية الألمانية (٤) . وكان أن تم انتخاب رودلف — كونت هابسبورج — ملكا ، فتم تتويجه فى أكتوبر سنة ١٢٧٣ فى

---

(1) Lodge : op. cit. p. 6.
(2) Barraclough : op. cit. pp. 244-245.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 130.
(4) Eyre : op. cit. pp. 452-453.

آخر ، وبذلك انتهت فترة الشغور وقامت أسرة هابسبورج — لأول مرة — فى حكم ألمانيا .

ومن الثابت أن آل هابسبورج ينسبون الى قلعة هابس (Habs - burg) أى قلعة الصقر ، وهى قلعة فى سويسرا الألمانية التى كانت فى العصور الوسطى جزءا من سوابيا الجنوبية (١) . ومع أن شجرة بيت هابسبورج تمتد جذورها الى القرن العاشر ، الا أن أهميتهم لم تتضح الا منذ أن منحهم الامبراطور فردريك بربروسا (١١٥٢ — ١١٩٠) ولاية الألزاس وكونتية زيورخ . ولم يلبث أن اتسع نفوذ آل هابسبورج فضموا الى مملكتهم فى النصف الاول من القرن الثالث عشر بعض الضياع والاديرة المجاورة فى سويسرا ، مما رفع شأنهم وساعد على اختيار رودلف ملكا على ألمانيا سنة ١٢٧٣ (٢) .

ولكن رودلف لم يكن فى مركز يحسد عليه عندما اختير وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ليعتلى عرش ألمانيا فى أصعب عصر من عصور تاريخها الوسيط (٣) . ذلك أنه وجد نفسه أمام مشاكل خارجية وداخلية شائكة ، منها تحديد موقفه من ألفونس ملك قشتالة الذى أبى الا أن يحتفظ بلقب الامبراطورية ، وكذلك تحديد موقفه من البابوية وحقوق الامبراطورية السابقة فى ايطاليا . هذا علاوة على ضرورة اخضاع أوتوكار الثانى Ottokar II ملك وهيميا الذى خرج على رودلف (٤) .

وهنا وجد رودلف أن المشكلة الاخيرة أهم المشاكل التى تتطلب منه موقفا حازما ، لأنها تمس سلطانه داخل ألمانيا نفسها . وفى هذا تفسير لسياسة رودلف الحكيمة وبعد نظره ، اذ يظهر أنه أدرك عبث اقتفاء أثر الهوهنشتاوفن فى أطماعهم وأحلامهم ، والجرى وراء مشروعاتهم الايطالية التى عادت على

(1) Baring-Gould : Germany p. 148.
(2) Thompson : op. cit. Vol, 2, pp. 921-923.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 78.
(4) Lodge : op. cit. p. 8.

ألمانيا بالخسران المبين ، وأنه أجدى عليه وعلى بلاده أن يجعل أفقه مقصورا على ألمانيا وحدها (١) . لذلك سعى رودلف نحو أكتساب البابوية وتأييدها ، فتم الاتفاق بين الطرفين بعد مقابلة شخصية بين رودلف والبابا جريجورى العاشر فى لوزان ١٢٧٥ ، وبمقتضى هذا الاتفاق تنازل رودلف للبابوية عن كل حقوق الامبراطورية وأملاكها فى ايطاليا ، كما اعترف بمملكة الانجويين فى نابلى وصقلية . وهكذا طلق رودلف سياسة فردريك الثانى الى حيث لا رجعة ليضمن تمتع ألمانيا وحدها بجهود ملوكها (٢) .

وبعد ذلك أصبح فى وسع رودلف أن يتجه — وهو آمن — نحو المشكلة الكبرى التى واجهته عند اعتلائه العرش ، وهى مشكلة عصيان أوتوكار الثانى ملك بوهيميا . ذلك أن أوتوكار هذا طالب سنة ١٢٧٢ بأن يكون له صوت فى انتخاب ملك ألمانيا الجديد ، ولكن أحدا لم يسمع طلبه أو يحقق رجاءه ، مما جعله يرفض الاعتراف بالملك الذى وقع عليه الاختيار وهو رودلف . وكان رودلف قد أصبح فى مركز قوى بعد أن اكتسب رضاء البابوية من جهة والامراء الالمان من جهة أخرى ، فاستدعى أوتوكار الى مجلس عقد سنة ١٢٧٤ وآخر عقد سنة ١٢٧٥ ليبرر احتلاله لاقاليم أوستريا (النمسا) وستيريا Styria وكارنثيا وكارنيولا Carniola ، ولكنه رفض الحضور (٣) وأخيرا خرج رودلف على رأس جيش امبراطورى سنة ١٢٧٦ الى النمسا حيث التف حوله الامراء الالمان ليقوموا بحركة قومية ضد حكم السلاف . وعندما سلمت فينا لرودلف ، أدرك أوتوكار عدم جدوى المقاومة فعقد الصلح مع الملك فى نوفمبر من العام نفسه ، على أن تبقى له بوهيميا ومورافيا ويتخلى عما عدا ذلك من الاقاليم الالمانية . ولتأكيد هذا الصلح رؤى أن يزوج أوتوكار ابنته لابن رودلف ، مقابل زواج أبن أوتوكار من احدى بنات رودلف العديدات (٤) . على الرغم من ذلك فانه يبدو أن القلوب لم تصف

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 483.
(2) Eyre : op. cit. p. 453.
(3) Lodge : op. cit. p. 9.
(4) Cam. Med. Hist. 7, p. 79.

فتجددت الحرب بين الطرفين مرة أخرى سنة ١٢٧٨ . وفى تلك المرة خسر رودلف جزءا كبيرا من مساعدة أعوانه ، اذ كان حليفه البابا جريجـــورى العاشر قد توفى سنة ١٢٧٦ ، وتخلى عنه كثير من كبار الأساقفة والنبلاء . ومع ذلك فقد استطاع الانتصار على خصمه فى النهاية فى موقعة مارخفيلد Marchfeld — قرب فينا — حيث سقط أوتوكار قتيلا فى المعركة ســنة ١٢٧٨ (١) . وهكذا ضم رودلف دوقية أوستريا الى أملاكه الخاصة ، زيادة على ستيريا وكارنثيا ، حتى أصبحت هذه الاجزاء منذ ذلك الوقت مصدر نفوذ آل هابسبورج (٢) . وهنا نلاحظ أن هذا النصر الذى أحرزه رودلف لم يتم الا بمعونة فردريك هــوهنزلرن وأسقف بــازل ولادسلاوس الرابع ملك هنغاريا ، بالاضافة الى موقف نبلاء أوستريا وستريا (٣) . ومهما يكن من أمر فقد أخذت الدلائل تشير الى استقرار الامور بالنسبة لبيت هابسبورج فقام رودلف بتوزيع الاراضى الامبراطورية فى النمسا (أوستريا) وستريا وكارنيولا بين ولديه ألبرت ورودلف ليمكن لنفسه ولبيته ، كما زوج ابنــه البكر من وريثة دوقية أوستريا (النمسا) وابنه الثانى من وريثه بوهيميا (٤) .

والواقع أن قيام بيت هابسبورج فى النمسا كان حدثا عظيما فى التاريخ الألمانى ، كما يعتبر — بالنسبة لحوادث المستقبل — أهم ما تمخض عنه حكم رودلف . وقد مات رودلف هابسبورج سنة ١٢٩١ فى الثالثة والسبعين من عمره ، بعد أن قام بعدة محاولات غير مجدية لتقوية السلطة المركزية ونشر السلام فى ألمانيا عن طريق الحد من الحروب المحلية الخاصة (٥) . وعند وفاة رودلف تقدم أبنه ألبرت فى منصبه ، ولكنه فشل فى الانتخابات بسبب تخوف الامراء من سطوته بعد أن اتسعت أملاكه فى سوابيا من الجهات الشرقية . وهكذاتم انتخاب أحد النبلاء «المتواضعين» وهو أدولف كونت ناسو Nassau

(1) Orton, op. cit. p. 330.
(2) Baring-Gould : op. cit. p. 150.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 79.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 397.
(5) Cam. Med. Vol, 7, p. 80.

سنة ١٢٩٢ ، بعد أن بذل الوعود للامراء وكبار الاساقفة (١) . ولكن لم يكد أدولف يتوج فى آخن حتى ظهرت أطماعه ، فقاد حملة ضد ألبرت وأجبره على تقديم فروض التبعية وتسليم الشعار الملكى الذى احتفظ به بعد وفاة أبيه ، كما عمل فى نفس الوقت على محالفة المدن وصغار النبلاء لاستغلال هذه القوة فى الضرب على أيدى كبار الامراء .

ولم تقف أطماع أدولف عند هذا الحد ، بل امتدت لتمس المصالح الفرنسية . وهنا نلاحظ أن ملوك ألمانيا الذين انتخبهم الامراء نكاية فى أسرة هابسبورج كانوا جميعا من المعارضين لفرنسا كما يبدو ذلك فى حالة أدولف ، وهنرى لكسمبورج (١٣٠٨—١٣١٤)، ولويس البافارى (١٣١٤—١٣٤٧)(٢). وكان محك النزاع بين ألمانيا وفرنسا حينئذ مملكة آرل أو برجنديا التى آلت الى كونراد الثانى ملك ألمانيا سنة ١٠٣٢ ، كما مر بنا . ولكن ضعف الملكية الالمانية بعد ذلك جعل نفوذها اسميا فى مملكة آرل ، التى سرعان ما انقسمت الى عدة أقاليم شبه مستقلة أهمها كونتيات برجنديا وسافوى ودوفنيه Dauphiné وليونيه Lyonais وبروفانس (٣) . واذا كانت هذه الاقاليم قد ظلت من الناحية النظرية البحتة تابعة للامبراطورية الالمانية ، الا أنها من الناحية العملية سرعان ما تعرضت لمطامع فرنسا التوسعية ، ولا سيما فى عهد ملكها فيلب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤) ، هذا فى الوقت الذى أراد أدولف ملك ألمانيا أن يجعل من نفسه بطلا لوحدة الامبراطورية الالمانية . لذلك استغل أدولف فرصة حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، وعقد سنة ١٢٩٤ معاهدة مع أدوارد الاول ملك انجلترا ، تعهد فيها الطرفان بمواصلة الحرب ضد فرنسا حتى تتخلى عن الاراضى التى تحاول اغتصابها من ألمانيا وانجلترا جميعا (٤) . على أن هذه الحرب التى اعقبت التحالف بين انجلترا وألمانيا

(1) Barraclough : op. cit. p. 303.
(2) Idem, p. 296.
(3) Lodge : op. cit. p. 12.
(4) Tout : The Hist. of England, pp. 192-193.

لم يكن لها ثمرة سوى اظهار تفكك ألمانيا وضعفها ، اذ لم يهتم أمراء ألمانيا بالمساهمة فيها قدر اهتمامهم بمصالحهم الخاصة وتأكيد استقلالهم فى مناطقهم . هذا فى الوقت الذى انتهز فيلب الرابع ملك فرنسا الفرصة لتحريك عوامل الانشقاق والتفكك ضـــد أدولف داخل ألمانيا (١) . وأخيرا تدخل البـــابا بونيفيس الثامن لاقرار الصلح بين الطرفين سنة ١٢٩٨ ، وان كان هذا الصلح لم يشبع شيئا من رغبات ألمانيا ومطالبها فى آرل .

ثم كان أن أدت سياسة أدولف الخاصة بالتحالف مع المدن وصغار النبلاء الى أثارة مخاوف كبار الامراء والناخبين . وهنا لجأ كبار الامراء الى ألبرت هابســـــبورج فى النمسا ــ الذى ســـبق أن رفضوا اختياره للعرش عقب وفاة أبيه ــ ليعاونهم فى القضاء على أدولف (٢) . وكان نفوذ ألبرت قد ازداد فى ذلك الوقت بعد أن تحالف مع ونزل الثانى Wenzel II ملك بوهيميا ، كما اتصل بملك فرنسا ضد عدوهما المشترك . ولم يلبث أن عقد رئيس أساقفة مينز مؤتمرا من الامراء وبذلك فتح الباب على مصرعيه أمام ألبرت ليتولى الحكم ويعيد سيادة أسرة هابسبورج (٣) .

وكان ألبرت الأول ملك ألمانيا (١٢٩٨ ــ ١٣٠٨) حاكما كفئا ، امتاز بالمهارة والمقدرة الحربية ، وقام بكثيرة من الاعمال فى حكمه القصير البالغ عشر سنوات ، وربما قام بأعمال أعظم أثرا لولا مقتله المفاجىء الذى وضع حدا لحكمه . واذا كان قد اتصف فى التاريخ بالقسوة والفظاظة ، فان ذلك مرده الى حزمه ومظهره الصارم ، فضلا عن أنه فقد احدى عينيه مما أكسبه صورة بشعة تبعث على الرهبة والخوف (٤) . وقد رفض البابا بونيفيس الثامن الاعتراف بألبرت الأول ملكا على ألمانيا ، فلجأ الأخير الى عقد معاهدة مع

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuieme Partie, pp. 312-313.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7- pp. 88-89.
(3) Barraclougd : op. cit. pp. 304-305.
(4) Lodge : op. cit. p. 14.

فيليب الرابع ملك فرنسا — الذى كان فى نزاع هو الاخر مع البابوية — وبذلك تخلى ألبرت عن مطامع سلفه أدولف فى برجنديا (١) . ولم يلبث أن ازداد حسن التفاهم بين ألبرت وفيليب عندما تقابل العاهلان فى نهاية عام ١٢٩٩ واتفقا على زواج الأميرة الفرنسية بلانش من رودلف أكبر أبناء ألبرت (٢) . أما فى سياسته الداخلية فقد لجأ ألبرت الى مناصرة المدن ضد الامراء ، حتى أنه أصدر مرسوما بالغاء جميع الضرائب والمكوس التى استحدثت فى منطقة الراين بعد وفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ . وهنا أحس كبار أساقفة الراين وأمراؤه بالخسارة التى لحقت بهم ، فكونوا حلفا ضد الملك ألبرت بعد عامين من اختياره للحكم . ولكن ألبرت لم يكن ضعيفا ، فاعتمد على مساعدة المدن من جهة ، والفرنسيين من جهة أخرى . وقام بتوجيه ضربته بين سنتى ١٣٠٠ ، ١٣٠٢ ضد المتمردين ، وبخاصة رؤساء أساقفة مينز وكولونيا وتريير وناخب بلاتينات الراين (٣) ، حتى أجبرهم على الغاء المكوس والاعتراف بحق المدن فى منح امتيازاتها وحقوقها للجماعات المقيمة خارج أسوارها .

ثم كان أن شغل ألبرت نفسه فى الفترة الباقية من حكمه — أى بعد سنة ١٣٠٢ — بالمشاكل المتعلقة بوراثة العرش فى هنغاريا وبوهيميا ، حتى انتهى الأمر بمقتله على يد ابن أخيه حنا سنة ١٣٠٨ (٤) . ومن الواضح أن مقتل ألبرت المفاجىء كان خطير الاثر بالنسبة لمستقبل المانيا من جهة وأسرة هابسبورج من جهة أخرى . ذلك أنه من الثابت أن ألبرت كان سيستطيع — لو أتيحت له مهلة اطول فى العمر — أن يمكن لاسرته فى المانيا بصورة تحول دون ظهور أسرة لكسمبورج ووصولها الى الحكم (٥) . ولكن مقتل ألبرت قبل أن يستكمل تنفيذ مشروعاته ، أدى الى اختيار هنرى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 88.
(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, pp. 312-314.
(3) Barraclough : op. cit. p. 306.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 92.
(5) Lodge : op. cit. p. 19.

السابع أمير لكسمبورج ملكا على ألمانيا فى أكتوبر سنة ١٣٠٨ ، وبذلك ظهر على مسرح التاريخ بيت جديد منافس لبيت هابسبورج الذى لم يجد أفراده بدا من الاعتراف بحكم الملك الجديد بشرط اقرارهم على ما تحت أيديهم من ضياع وممتلكات (١) .

على أن هنرى السابع (١٣٠٨ — ١٣١٤) اعتبر نفسه غريبا عن ألمانيا منذ أول الأمر ، فارتكب حماقة كبرى باتجاهه نحو ايطاليا ، حتى أصبح حكمه أكثر ارتباطا بتاريخ ايطاليا منه بتاريخ ألمانيا (٢) ، ذلك أن ضعفه جعله يتملق كبار الامراء عن طريق الغاء الامتيازات التى منحها سلفه ألبرت للمدن (٣) ، وذلك قبل قيامه برحلته الى ايطاليا حيث توج فى روما سنة ١٣١٢ . وفى تلك الاثناء قامت ثورة بوهيميا انتهت بعرض تاجها على حنا بن هنرى السابع بشرط أن يتزوج من الياصابات (اليزابيث) ابنة ونزل لثانى Wenzel II ملك بوهيميا الاسبق . أما هنرى السابع ملك ألمانيا فقد مات فى ايطاليا سنة ١٣١٤ قبل أن يتمكن من العودة الى بلاده ، وبذلك ترك مصالح الملكية الألمانية نهبة بين كبار الامراء من جهة وأطماع فيليب الرابع ملك فرنسا الذى استولى على ليون سنة ١٣١٠ من جهة أخرى (٤) .

لودويج (لويس) الرابع والبابوية :

أدت وفاة هنرى السابع ١٣١٤ الى دور من أدوار الفوضى والنزاع حول ولاية الحكم . ذلك أن عدم وجود سلطة مركزية قوية تسيطر على أهواء الامراء من جهة ، وعدم وجود تقاليد مرعية وقواعد ثابتة لاختيار الملك من جهة أخرى ، أدت جميعا الى ما امتاز به التاريخ الألمانى فى ذلك الشطر الأخير

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 93.
(2) Orton : op. cit p. 331.
(3) Barraclough : op. cit. p. 307.
(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie, p. 316.

من العصور الوسطى من قلق وعدم استقرار (١) ». ويبدو هذا القلق أشد ما يكون وضوحا عندما اختار فريق من أمراء ألمانيا فردريك بن ألبرت الأول وريث الهابسبورج ملكا ، حتى توج فردريك فعلا فى بون Bonn سنة ١٣١٤ ، فى حين اختار فريق آخر لودويج — أولويس — دوق بافاريا وتوجوه هو الآخر فى آخن فى العام نفسه . ومن الواضح أن مثل هذه الأزمة كانت لا يمكن أن تحل الا بالحرب وقوة السلاح ، حتى انجلى الموقف أخيرا سنة ١٣٢١ — أى بعد حرب سبع سنوات — بانتصار لودويج البافارى (٢) .

وكان أبرز ناحية فى حكم لودويج الرابع (١٣١٤ — ١٣٤٧) هى اشتباكه فى نزاع مع البابوية . ذلك أن البابوية استغلت فرصة الحرب الاهلية فى المانيا لتقوية الجلفيين فى ايطاليا ، وهى واثقة من أن الجبلليين لن يستطيعوا فى تلك الظروف الحصول على مساعدة من ألمانيا . وهكذا لم يكد البـــابا كلمنت الخامس يسمع بوفاة هنرى السابع ملك ألمانيا حتى طفق يتدخل فى الشئون الادارية ، فعين روبرت ملك نابلى فى وظيفة النائب الامبراطورى بايطاليا . ثم جاء البابا حنا الثانى والعشرين سنة ١٣١٦ ليستأنف سياسة كلمنت الخامس ويؤكد حقوق البابوية . وقد انتهز هذا البابا الأخير فرصة الخلاف بين لودويج الرابع وفردريك هابسبورج ليظهر سيادة البابوية ، فرفض الاعتراف بالخصمين المتنازعين جميعا ، وعين روبرت الأنجوى نائبا امبراطوريا سنة ١٣١٧ (٣) . وعندما انتهى النزاع فى ألمانيا بانتصار لودويج البافارى طلب البابا منه عرض قضيته على المحكمة البابوية فى روما Roman Curia سنة ١٣٢٣ (٤) . ولما رفض لودويج الرابع ذلك أعلن البابا عزله ، بل أصـــدر قرار الحرمان ضده . وهكـــذا بدأ نزاع جـــديد بين الامبراطورية والبابوية استمر فى عهد البابا بندكت الثانى عشر (١٣٣٤ —

---

(1) Lodge : op. cit. p. 98.

(2) Baring-Gould, op. cit. pp. 155-157.

(3) Eyre : op. cit. p. 477.

(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 75.

١٣٤٢) وكلمنت السادس (١٣٤٢ — ١٣٥٢) ولم ينته الا بعد وفاة لودويج الرابع سنة ١٣٤٧ (١) .

وقد يبدو هذا النزاع احياءا أو امتدادا للنزاع القديم بين البابوية والامبراطورية ، ولكننا لو أمعنا النظر اليه لوجدناه يختلف فى معالمه وجوهره عن النزاع الاساسى السابق . فبابوات أفينون فى القرن الرابع عشر لم يكونوا على شىء من قوة النفوذ وسعة السلطان التى كانت لاسلافهم من شاكلة جريجورى السابع وأنوسنت الثالث . هذا بالاضافة الى لودويج الرابع نفسه لم يكن على شىء من القوة التى كانت لفردريك بربروسا أو فردريك الثانى (٢) . حقيقة اننا أحيانا فى اسلوب البابوية فى القرن الرابع عشر شبها واضحا لما كان عليه هذا الاسلوب فى القرن الثانى عشر ، فيسرع البابا الى عزل الملك واصدار قرار الحرمان ضده ، ولكن هذه القرارات البابوية لم يصبح لها الاثر عينه الذى كان لها أيام مجد البابوية وسطوتها ، ولم تعد تعبر الا عن مظاهر جوفاء صادرة عن بابوية ضعيفة (٣) .

واذا كانت الخلافات الدينية والحركات الهرطقية داخل الكنيسة الغربية قد أضعفت مركز البابوية فى نزاعها مع لودويج الرابع (٤) ، فان ثمة عاملا قويا ساند ملك ألمانيا ومكنه من الصمود والمقاومة . ففى جميع أدوار النزاع السابق القديم بين البابوية والامبراطورية كان البابوات لا يعدمون وجود حلفاء لهم داخل ألمانيا نفسها من خصوم الامبراطور . أما فى تلك المرة — على عهد لودويج الرابع — فقد وجد ملك ألمانيا نفسه — لأول مرة فى تاريخ بلاده مسنودا بشعور قوى متدفق من قلوب رعاياه ، يشبه ذلك الشعور الذى ساند فيليب الرابع ملك فرنسا فى نزاعه مع البابا بونيفيس الثامن (٥) . ولعل مصدر

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 310.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 119-121.
(4) Eyre : op. cit. p. 432.
(5) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxieme Partie pp. 149-151.

هذا الارتباط الذى بدأ وثيقا بين ملك ألمانيا وأمرائها وشعبها هو وقوع البابوية فى الأسر البابلى وبقاؤها فى أفينون تحت رقابة الملكية الفرنسية . وهكذا اجتمع الناخبون فى ألمانيا سنة ١٣٣٨ فى رنز Rense على الراين ، وقرروا أن السلطة الامبراطورية مستمدة من الله مباشرة ، وأن الامير الذى يختار ملكا أو امبراطورا بواسطة الناخبين يصبح حاكما شرعيا دون حاجة الى أية وساطة أو اجراءات دينية أخرى (١) . وثمة أهمية أخرى لهذا المؤتمر فى التاريخ الدستورى لألمانيا ، لأنه أول اجتماع يتعاون فيه الناخبون لحل مشكلة من مشاكل الدولة لا ترتبط باختيار حاكم جديد . وبعد ذلك عقد اجتماع آخر فى فرانكفورت لتأييد قرارات مؤتمر رنز من جهة واصدار عدة قـــرارات أخرى تستهدف تقوية السلطة المركزية واقرار الأمن والســـلام فى البلاد من جهة أخـــرى (٢) .

على أنه مع توافر جميع هذه العوامل المساندة للامبراطور الا أن الموقف بينه وبين البابوية انتهى بانتصارها وخضوع لودويج الرابع . ويرجع السبب فى ذلك الى أن لودويج لم يقدر الامور حق قدرها ، واستمع الى نصيحة مستشاريه من الفرانسيسكان ليقوم بحملة على ايطاليا سنة ١٣٢٧ (٣) . وقد استطاع لودويج أن يثبت نفوذه فى شمال ايطاليا ووسطها فى حين فر أتباع البابا نحو الجنوب ، فدخل روما فى يناير سنة ١٣٢٨ حيث توج امبراطورا بواسطة اثنين من الأساقفة . أما البابا حنا الثانى والعشرين (١٣١٦ — ١٣٣٤) فقد أصدر من مقره فى أفينون قرار الحرمان ضد الامبراطور وأعوانه ، فرد الأخيرون على البابا باتهامه بالهرطقة واعلان عدم شرعية انتخابه . ثم اختار الامبراطور أحد الاخوان الفرانسيسكان — من أعوانه — ليتولى منصب البابوية تحت اسم نيقولا الخامس (٤) .

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 312.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 131-132.
(3) Lodge : op. cit. p. 104.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 76.

وهكذا يبدو أن لودويج اقحم نفسه فى صراع دون أن يمتلك الأدوات المادية أو المعنوية التى تساعده على الاستمرار فيه . وسرعان ما بدا عجزه واضحا أمام أهالى ايطاليا من جهة وروبرت ملك نابولى من جهة أخرى . فتراجع الى المانيا سنة ١٣٣٠ تاركا البابا الامبراطورى نيقولا الخامس ليستقيل من منصبه ويعلن خضوعه لغريمه حنا الثانى والعشرين (١) . وقد أتيحت بعد ذلك فرصة أمام لودويج الرابع لاصلاح مركزه معتمدا على الشعور القومى فى ألمانيا من جهة وعلى محالفة أدوارد الثالث ملك انجلترا من جهة أخرى ، مما يمكنه من الثبات فى وجه البابا بندكت الثانى عشر (١٣٣٤ — ١٣٤٢) وفيلب السادس ملك فرنسا جميعا . ولكن لودويج الرابع اختار أن يتراجع ، فنبذ فجأة تحالفه مع انجلترا سنة ١٣٤٠ ليعقد صلحا مع فيلب السادس مؤملا أن يستغل الاخير نفوذه لاصلاح الموقف مع البابوية (٢) . ويبدو أن هـذا المسلك من جانب الامبراطور أثار الشعور ضده فى ألمانيا ، ومع ذلك فقد ظل محتفظا بمركزه حتى وفاته سنة ١٣٤٧ بفضل التنافس بين آل هابسبورج وآل لكسمبرج من جهة ، وانشغال فيلب السادس ملك فرنسا بحرب انجلترا من جهة أخرى . وربما كانت أخطر ضربة وجهتها البابوية نحو لودويج الرابع قبل وفاته ببضعة أشهر هى أنها هيأت الجو لاختيار شارل لكسمبرج — حفيد هنرى السابع — ملكا على ألمانيا (١٣٤٧ — ١٣٧٨) (٣) .

شارل الرابع ، الوباء الأسود والمرسوم الذهبى :

وقد اجتاح أوربا فى ذلك العصر (١٣٤٨ — ١٣٤٩) وباء خطير عرف باسم الوباء الأسود Black Death . والمعروف أن هذا الوباء زحف من آسيا على امتداد الطرق التجارية المؤدية الى البحر الاسود ومن ثم تطرق الى شرق أوربا فغربها ، فضلا عن بلاد الشرق الأدنى (٤) . وليس هذا مجال الكلام عن أعراض هذا الوباء وخطورته وشدة فتكه بالبلاد التى انتشر فيها ،

(1) Eyre : op. cit. p. 433.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 132-133.
(3) Barraclough : op. cit. pp. 313-314.
(4) Stephenson ; Med. Hist. p. 520.

فقد أفاضت المراجع والحوليات المعاصرة فى وصف هذه النواحى (١) ، وانما الذى يهمنا هو النتائج الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التى ترتبت عليه . ذلك أن أوربا فقدت بسبب هذا الوباء نسبة ضخمة من سكانها تتراوح بين الثلث ، والنصف ، مما أثر فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية تأثيرا خطيرا ، بعد أن قلت الأيدى العاملة وتعطلت الاشغال وارتفعت الاسعار (٢) ، وتوقفت التجارة ، واختل كثير من المقاييس الاقتصادية والاجتماعية التى عرفتها أوربا العصور الوسطى (٣) . ولم يسع الناس وسط هذه المحنة سوى الهروع نحو الكنائس والاديرة متضرعين سائلين كشف هذه الغمة ، طالبين رحمة الكنيسة وحمايتها . وسرعان ما انتشرت شائعة بين الناس مؤداها أن اليهود هم الذين تسببوا فى نشر هذا الوباء بتسميمهم الآبار ، وعندئذ لم يجد الناس وسيلة لتصريف همهم المكبوت سوى اضطهاد اليهود حتى قتلوا منهم عـــدة آلاف فى مختلف أنحاء أوربا (٤) . ثم نادى فريق آخر من الناس بأن هذا البلاء ليس الا نتيجة لغضب الله على عباده . وان المخرج الوحيد من الأزمة هو التوبة بتعذيب النفس ، ومن ثم ظهرت طائفة السياطين Flagellants التى سبقت الاشارة اليها . والمهم هو ما نلاحظه من أن أثر الوباء الاسود لم ينته

---

(١) وخير وصف أمامى بالعربية لاعراض هذا الوباء وآثاره فى البلاد التى انتشر فيها ، قول المقريزى « ... وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف الى خمسة عشر ألف الى عشرين ألف نفس فى كل يوم ... وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والاربعون وأكثر . وكان الموت بالطاعون يبصق الانسان دما ثم يصيح ويموت ، وعم مع ذلك غلاء الدنيا جميعا . ولم يكن هذا الوباء كماعهدفى اقليم دون اقليم بل عم أقاليم الارض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا جميع أجناس بنى آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر . وأول ما بدأ الوباء ، كان يخرج خلف أذن الانسان بثرة فيخر صريعا . فاشتد الهول من كثرة الموت حتى أنه كان أكثر من يعيش بعد نفث الدم نحو خمسين ساعة . وصارت الاموات على الارض لا يوجد من يدفنها . وعم الوباء جميع تلك الاراضى ، ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع ، وزهد أرباب الاموال فى أموالهم » .

(المقريزى : السلوك ، حوادث سنة ٧٤٩ هـ)

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 463-733.

(3) Orton : op. cit. p. 379.

(4) Cam. Med. Hist. 7, pp. 658-661.

بزواله عند منتصف القرن الرابع عشر ، وانما استمرت نتائجه — ممثلة فى قلة الايدى العاملة وارتفـاع الأجور والاسعار — تؤثر فى أحوال أوربا حتى نهاية ذلك القرن ، بحيث أن الثورة العظمى فى انجلترا سنة ١٣٨١ انمـا تعتبر فى الواقع نتيجة مباشرة لهذا الوباء (١) .

وفيما عدا انتشار الوباء الأسود ، فان أهم حدث فى عهد شارل الرابع كان اصدار المرسوم الذهبى Golden Bull سنة ١٣٥٦،وهو المرسوم الذى سمى بهذا الاسم لأن الخاتم الذى ختم به حفظ بعد ذلك فى صندوق من الذهب . ذلك أن شارل الرابع وجد أن المنازعات التى تقوم فى الامبراطورية حول عملية اختيار كل امبراطور جديد تسبب كثيرا من الفوضى والمتاعب ، فوضع هذا المرسوم الهام لتنظيم عملية انتخاب الاباطرة — ملوك ألمانيا — وتحديد قواعدها (٢) . وبمقتضى المرسوم الذهبى تحدد عدد الناخبين — الذين لهم حق انتخاب الامبراطور — بسبع ، هم رؤساء أساقفة مينز وكولونيا وتريف ، وملك بوهيميا ودوق بافاريا ودوق سكسونيا وأمير براندبرج (٣) . كذلك نص المرسوم على أن يجرى الانتخاب فى فرانكفورت ، على أن يتم تتويج الامبراطور فى أكس لاشابل (آخن) . وكل بيت من بيوت الناخبين لـه صوت واحد يعبر عن رأيه ، على أن تنتقل جميع أراضى الأمير وامتيازاته الى ابنه الأكبر بالوراثة دون أن ينازعه بقية الأبناء أو الورثة ، حفظا لكيان الامارات الكبرى من الانقسام منعا لتفتيت الدولة (٤) .

وهكذا يبدو لنا أن المرسوم الذهبى كان بمثابة اطار اقطاعى ، يحدد الحياة السياسية لألمانيا فى أواخر العصور الوسطى ، ويجعل من الامراء القوة الفعالة فى هذه الحياة (٥) . ذلك أن المواد الواضحة التى نص عليها هذا المرسوم ظلت معمولا بها حتى انقضى آخر طيف للامبراطورية المقدسة سنة ١٨٠٦ . ولكن من الواضح أن المرسوم الذهبى أغفل أية اشارة الى البابوية

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 571.
(2) Thompson : op. cit. Vol, 2, pp. 926-929.
(3) Eyre : op. cit. p. 553.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 144-145.
(5) Barraclough : op. cit. p. 381.

وحقها فى التصديق على نتيجة انتخاب الامبراطور أو الاعتراض على هـذه النتيجة . وبعبارة أخرى فان المرسوم الذهبى حقق الرغبة العامة التى ظهرت فى مؤتمر رنز من قبل واعتبر انتخاب الامبراطور مسألة داخلية خاصة بالامة الألمانية ، فلا حق للبابوية أو غيرها فى التدخل فيها . لذلك أسرع البابا أنوسنت السادس (١٣٥٢ ــ ١٣٦٢) الى اعلان استيائه من هذا المرسوم (١) ، ولكن شارل الرابع وقف من البابوية موقفا صلبا جعل البابا يتراجع عن معارضته المرسوم الذهبى ، وبذلك انقطعت آخر الخيوط التى كانت تقيد الامبراطورية بكلمة البابوية (٢) .

واذا كان المرسوم الذهبى يعتبر فى حد ذاته محاولة فعالة فى وقف تفتيت الامارات الكبرى ، الا أن شارل الرابع نفسه لجأ قبل وفاته الى تقسيم أملاك أسرته بين أبنائه ، فجعل بوهيميا وسيلزيا لأكبر أبنائه ونسلاس ، وبراندبرج لابنه الثانى سجسموند ، فى حين أنشأ دوقية جديدة فى لوسيتز Lausitz لثالث أبنائه حنا (٣) . هذا بالاضافة الى بقية أملاك أسرة لكسمبرج الى ظلت بأيدى اخوة شارل الرابع وأقاربه . وهكذا أدى هذا التفتيت فى الاملاك الى اضعاف بيت لكسمبرج بحيث لم يصل مرة أخرى الى درجة الزعامة فى الامبراطورية (٤) .

المانيا فى القرن الخامس عشر :

حدث عند وفاة شارل الرابع سنة ١٣٧٨ أن خلفه ابنه ونسلاس بعد أن عد أبوه لذلك فى حياته ، حتى تم انتخابه وتتويجه فى آخر سنة ١٣٧٦ . على أن ونسلاس لم يستمر مدة طويلة فى الحكم اذ عزل سنة ١٤٠٠ نتيجة لعبثه وافراطه فى الشراب (٥) . وقد أعقب ذلك فترة من النزاع حول شغل منصب الامبراطورية استمرت عشر سنوات وانتهت بتولية سجسموند ثانى أبناء شارل الرابع ، وذلك بفضل مساعدة فردريك هوهنزولرن صـاحب نورمبرج الذى كافأه سجسموند على مساعدته بتوسيع سلطاته (٦) . وهكذا

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 148.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 82.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 150.
(4) Lodge : op. cit. p. 123.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 119-120.
(6 Barraclough : op. cit. p. 358.

أخذ يظهر اسم آل هوهنزلرن الذين اشتقوا لقبهم من قلعة زولرن فى سوابيا ، والذين عرفوا بمقدرتهم على تنظيم ممتلكاتهم وتوسيعها . وقد حاول سجسموند (١٤١١ — ١٤٣٧) أن يشن عدة حروب على الثمانيين بوصفه ملكا على هنغاريا ، ولكنه لم يوفق فيها . على أنه كان مخلصا فى العمل على اصلاح الكنيسة وازالة الانشقاق الدينى فى غرب أوربا ، حتى كان له دور ملحوظ فى مجمع كونستانس سنة ١٤١٤ كما مر بنا (١) .

ولم يعقب سجسموند ذرية من الذكور ترثه فى الحكم ، فخلفه ألبرت الثانى هابسبورج ليبقى فى منصب الامبراطورية سنة واحدة توفى بعدها (١٤٣٨ — ١٤٣٩) ، فخلفه ابنه فردريك الثالث (١٤٣٩ — ١٤٩٣) (٢) . ومن الواضح أن المدة الطويلة التى قضاها فردريك الثالث فى الحكم مكنته من تدعيم نفوذه وسلطان بيته ، بحيث ظل بيت هابسبورج يحتكر المنصب الامبراطورى بعد ذلك حتى سقوط الامبراطورية الرومانية المقدسة فى أوائل القرن التاسع عشر (٣) .

على أنه يلاحظ أن الفوضى ظلت ضاربة أطنابها فى ألمانيا على الرغم من وحدة اللغة والتقاليد . حقيقة أنه هناك بلاط امبراطورى ، ولكنه استمر عديم النفوذ والسلطان . وهكذا وجد بألمانيا فى أواخر العصور الوسطى أكثر من ثلثمائة امارة منفصلة ، لا هم لامرائها سوى اشعال الحروب والمنازعات المحلية فيما بينهم ، والاغارة على المناطق المجاورة وسلب المسافرين ، حتى أطلق على أمراء ألمانيا فى ذلك العصر اسم الفرسان «اللصوص Robber Knights» (٤) . أما المدن الكبرى فقد اتجهت وفق ما تمليه مصالحها والزود عن حقوقها (٥) . ومن الواضح أن هذه العوامل اجتمعت لتجعل من المتعذر اقرار الامن والنظام فى البلاد الألمانية ، لان كبار الاساقفة من جهة ، والمدن من جهة ثانية ، وكبار الامراء من جهة ثالثة أجمعوا جميعا على التمسك بنفوذهم وعدم التخلى عن

(1) Eyre : op. cit. pp. 524-525.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 186.
(3) Thompson : Vol, 2, pp. 935-936.
(4) Baring-Gould : op. cit. pp. 136-140.
(5) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 153.

سلاطانهم من أجل قيام سلطة مركزية قوية . هذا فى الوقت الذى تمسك صغار الفرسان بحياة القتال والسلب والنهب مفضلين اياها على حياة السكينة والفقر (١) . وهكذا أمسى تاريخ المانيا فى ذلك الجزء الاخير من العصور الوسطى عبارة عن سلسلة من المنازعات والحروب بين الامراء ، وهى حروب كان محورها الاساسى البحث عن المال والحصول عليه لسد مطالب التنظيمات الجديدة التى دخلت حكومات هؤلاء الامراء فى القرن الخامس عشر (٢) .

العصبة الهانزية :

على أن التجار الذين لم تتح لهم فرصة لتقوية نفوذهم فى ميدان السياسة انصرفوا الى ميدان آخر أكثر نفعا وأوفر ربحا ، فتركوا الملوك والاباطرة يكافحون الامراء ورجال الكنيسة وينازعونهم السلطان ، وانصرفوا هم نحو تدعيم نشاطهم الاقتصادى الذى أكسبهم قوة خطيرة فى نهاية الامر (٣) . وقد أسهمت مختلف المدن الالمانية وبخاصة فى الشمال فى هذا النشاط التجارى منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فانصرف تجار مدن الشمال الغربى — وعلى رأسها كولونيا — نحو الغرب واتخذوا من بروجز Bruges بفلاندرز ولندن بانجلترا مراكز أساسية لعمليات التبادل التجارى ، فى حين اتجه تجار مدن الشمال الشرقى — وعلى رأسها هامبورج ليوبك — شرقا وأسسوا مراكز تجارية لعملياتهم فى نوفجرود بروسيا وبرجن بالنرويج ووتن Witten بالسويد وويزبى Wisby بجزيرة جوتلاند بابحر البلطى (٤) . وكانت هذه المراكز أشبه بالنقابات ، ومن أمثلتها الواضحة أن بعض التجار الألمان الذين ينتمون الى مدينة كولونيا أسسوا فى لندن حوالى القرن الثانى عشر نقابة شهيرة هى التى عرفت فى القرن الخامس عشر باسم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 140-148.

(2) Barraclough : op. cit. pp. 343-344.

(3) Orton : op. cit. p. 427.

(4) Idem : pp. 427-428.

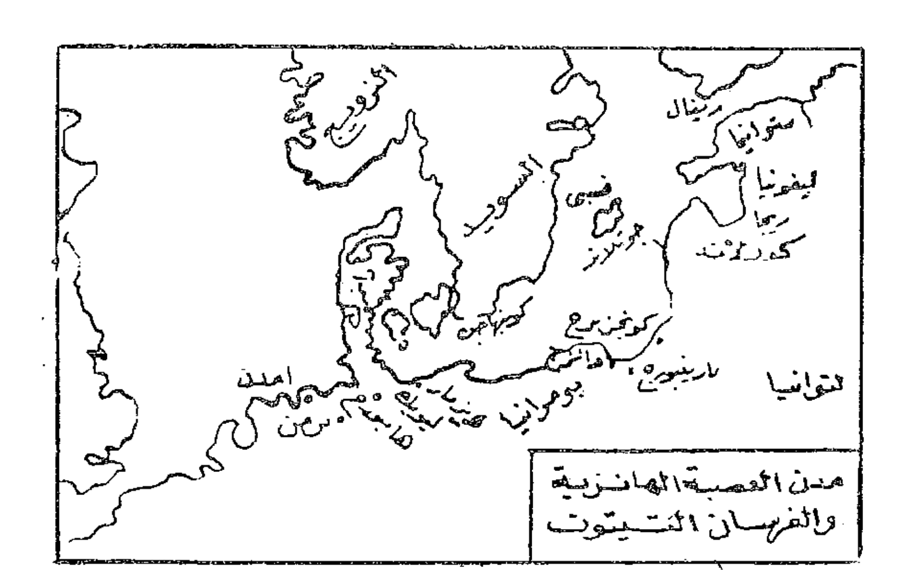
« نقابة تجار القبان Merchants of the Steel Yards » وعندئذ ضمت اليها نقابات التجار المشابهة فى بقية المدن الانجليزية مثل يورك وبرويستول، لتحتكر التجارة الألمانية فى انجلترا (١) .

على أن التجار الألمان سرعان ما ألفوا أنفسهم فى حاجة الى الاتحـــاد لحماية مصالحهم التجارية وسط مظاهر الفوضى السياسية التى عمت ألمانيا فى الشطر الأخير من العصور الوسطى ، فأخذوا ينتظمون — على خلاف المدن التى ينتمون اليها — فى هيئة اتحادات تجارية كبيرة (٢) . ويبدو أن المدن الواقعة فى حوض الراين كانت أسرع من غيرها الى الاتحاد ، وذلك بحـــكم تعرضها أكثر من غيرها للنهابة من الأمراء الذين لاتزال بعض قلاعهم الباقية فى هذا الجزء من أوربا تشهد على شدة بأسهم وعظم خطرهم (٣) . وهكذا تم التحالف سنة ١٢٣٠ بين مدينتى ليوبك وهامبورج ، ثم انضمت الى هذا التحالف بعد قليل بعض المدن المجاورة مثل ويزمار وروستوك ، حتى أخـــذ التحالف ينمو تدريجيا بعد أن وجد كثير من المدن الشمالية أن صالحها العـــام يتطلب الانضمام الى هذه العصبة التى تزعمتها ليوبك . وأخيرا ارتبطت هذه المدن كلها بالاتحادات الخارجية التابعة لها ، مما أدى الى نشأة ما يعرف باسم العصبة الهانزية (حوالى ١٣٥٠ — ١٣٧٠) (٤) . وهى العصبة التى أصبح لها أربع مراكز كبرى فى نوفجرود ولندن وبروجز وبرجن (٥) .

وعلى الرغم مما ظهر أحيانا بين مدن هذه العصبة من خلافات ، الا أنها أثبتت جدارتها ومقدرتها على حماية مصالحها والوقوف فى وجه التيـــارات المعادية ، لا سيما قراصنة الدول السكندناوية ، التى كانت لا تزال تحتفظ ببقية من روح الفيكنج القديمة . وقد دخـــل والدمار الرابع ملك الدانمرك

---

(1) Eyre : op. cit. p. 726.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 220.
(3) Zimmern : The Hansa Towns. p. 45.
(٤) نسبة الى لفظ (Hansa) بمعنى اتحـــاد أو مجمـــوعة من الرجال وبخاصة اذا كانوا من التجار أو المحاربين .
(5) Barraclough : op. cit. p. 266.



مدن العصبة الهانزية
والفرسان التيتون

(١٣٤٠ — ١٣٧٥) فى صراع عنيف ضد العصبة الهانزية وتمكن فعلا من انتزاع ويزبى منها (١) ، ولكنه أدرك بعد ذلك أنه يناطح قوة جبارة يصعب التغلب عليها ، فلم تحل سنة ١٣٧٠ الا وكانت العصبة الهانزية قد استردت جميع امتيازاتها بل وأصبح لها صوت مسموع فى اختيار الملوك فى ذلك الركن الشمالى الغربى من أوربا (٢) .

وهكذا نمت العصبة الهانزية حتى أصبحت تتحكم فى عدد كبير من السفن والأساطيل ، كما صارت لها السيطرة على تجارة شمال أوربا ، وبخاصة البلطى الذى كان مركز قوتها ومحور نشاطها (٣) . واذا كان تجارها فى لندن وبروجز قد خضعوا لقوانين البلاد التى أقاموا فيها ، الا أن العصبة مارست فى روسيا والدول السكندناوية نفوذا سياسيا زيادة على نفوذها الاقتصادى . هذا الى أن انتشار التجارة الألمانية على امتداد الشاطىء الشرقى للبحر البلطى ، وتأسيس مدن ألمانية جديدة فى تلك الجهات أدى الى اتساع النفوذ السياسى للعصبة الهانزية ، فضلا عما فى ذلك من مظهر لحركة التوسع الألمانى فى تلك الجهات (٤) . أما الأهداف الأساسية للعصبة الهانزية فكانت تتلخص فى حماية تجارتها من الاعداء من جهة والمنافسين من جهة أخرى ، بالاضافة الى التوسع فى الحصول على مزيد من الامتيازات . ولتحقيق هذه الأهداف أنشأت العصبة الهانزية قوة بحرية ضخمة ، حتى أصبح كبار ملوك أوربا يخشون بأسها وينشدون محالفتها (٥) ، مما مكنها لا من رعاية مصالحها فحسب ، بل من النهوض بمستوى الحضارة فى شمال أوربا أيضا عن طريق رصف الطرق وتأمينها وشق القنوات والترع . هذا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 221.

(2) Zimmern : op. cit. pp. 53-65.

(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 226.

(4) Barraclough : op. cit. p. 266.

(5) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 239.

غير ما نالها من الرقى بنظم التجارة والمعاملات المالية عن طريق التوسع فى استخدام الحوالات والأوراق المالية ، والعناية بتشييد الكنائس الفخمة وتشجيع العلوم والآداب (١) .

ولكنلم تلبث أن تعرضت العصبة الهانزية فى القرن الخامس عشر للضعف ثم الانهيار وذلك نتيجة لأسباب عديدة متباينة ، منها ما يرجع الى روح الأنانية والكبرياء التى سيطرت عليها ومنها ما يربط بعوامل أخرى خارجية لا يد لها فيها . من ذلك أن العصبة الهانزية رفضت قبول تجار المدن الأخرى فى الوقت الذى كانت هذه المدن تسمح للتجار الهانزيين بالتردد عليها ، مما أدى الى أثارة العداوة بين الطرفين حتى انتهى الامر الى الصراع المسلح (٢) . هذا الى أن الدول الخارجية التى كانت للعصبة الهانزية مراكز وامتيازات اقتصادية أو سياسية فيها ، أخذت فى القرن الخامس عشر تدخل دورا جديدا من الاستقرار والتنظيم السياسى ، فانحل النظام الاقطاعى وظهرت الملكيات القوية ، وتبع ذلك زوال المبررات التى من اجلها قامت العصبة الهانزية ، وأهمها تأمين الطرق وتحقيق العدالة (٣) . وهنا تمسكت العصبة الهانزية بامتيازاتها القديمة ورفضت أن تتمشى مع روح العصر وتتخلى عنها مما أوقعها فى صراع آخر . أما العوامل الخارجية عن ارادة العصبة فأهمها انها كانت تستمد جزءا كبيرا من أرباحها من مصايد سمك الرنجة Herring فى البحر البلطى (٤) ، حتى أدت أسباب طبيعية مجهولة الى هجرة هذا النوع من السمك من البحر البلطى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر (حوالى سنة ١٤٢٥) ، الأمر الذى سبب للعصبة الهانزية خسارة فادحة(٥) . هذا كله بالاضافة الى استكشاف الطريق البحرى الى الهند من جهة وأمريكا من جهة أخرى ، أحدث انقلابا خطيرا وثورة عنيفة فى اتجاهات التجارة

---

(1) Zimmern : op. cit. pp. 107-111.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 241-247.

(3) Zimmern : op. cit. p. 212.

(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 212.

(5) Zimmern : op. cit. p. 49.

الأوربية ، فأصبحت هذه التجارة تتجه نحو الغرب والجنوب دون أن تستطيع العصبة الهانزية مسايرة هذه التطورات الجديد (١) .

نشأة سويسرا :

كانت البلاد المعروفة اليوم باسم سويسرا مقسمة فى العصور الوسطى بين مملكة برجنديا ودوقية سوابيا ، حتى أضحت فى القرن الثانى عشر تحت سيطرة أمراء زايرنجن Zearingen (١٠٥٠ — ١٢١٨) (٢) . وعندما تفككت أملاك هؤلاء الأخيرين سنة ١٢١٨ استولى آل هابسبورج على معظم المقاطعات المتحدثة بالألمانية ، واستولى امبراطور ألمانيا على جزء آخر يشمل منطقة أورى الجبلية Uri الجبلية ومدينة برن ، فى حين احتل بطـرس الثانى صاحب سافوى الجزء الذى تسوده اللغة اللاتينية (٣) . Vaud وقد دفع حرص الامبراطور فردريك الثانى على الاحتفاظ بالطريق الموصل بين ألمانيا وايطاليا الى منح مقاطعتى أورى وسويز — وهما المقاطعتان اللتـان تتحكمان فى ممر سانت جوتارد — شيئا من الامتيازات والحرية ، الأمر الذى ضايق آل هابسبورج باعتبارهم أصحاب السيطرة على هذه الجهات (٤) .

ثم كان أن اعتلى آل هابسبورج عرش الامبراطورية سنـة ١٢٧٣ ، وعندئذ بدأت المقاطعات السويسرية توجس خيفة ورأت أن تترابط وتتكاتف لمقاومة أية محاولة للانتقاص من حقوقها وامتيازاتها .

ولتحقيق هذا الغرض تم عقد « الحلف الدائم » سنـة ١٢٩١ بين مقاطعات أورى uri وسويز Schwyz (٥) وانتروالدن Unterwaldenn فأعلنت هذه المقاطعات استقلالها وخروجها عن سلطة بيت هابسبورج ،

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 247.

(2) Hug. Stead : Swizerland. pp. 65-100.

(3) Orton : op. cit. p. 418.

(4) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 186-187.

(٥) وهى التى اشتق منها اسم سويسرا .

ثم انضمت اليها بعد قليل الولايات الأخرى بتصد مقاومة الأمير ألبرت هابسبورج الذى أصبح فيما بعد امبراطورا (١٢٩٨ — ١٣٠٨) (١) .

ويبدو أن موقف هذه الولايات المناوىء من بيت هابسبورج هو الذى جعل خصوم هذا البيت يعطفون عليها ويشجعونها ، من ذلك أنه عندما تولى هنرى لكسمبرج عرش الامبراطورية (١٣٠٨ — ١٣١٤) ، فانه زاد من الامتيازات التى تمتعت بها هذه الولايات السويسرية ، واعترف بأن الولايات الثلاث المتحالفة السابقة تكون وحدة سياسية ، وذلك من باب النكاية فى بيت هابسبورج (٢) . وهكذا يمكن القول بأن هذا التحالف السويسرى الصغير يعتبر نواة لنشأة دولة جديدة احتلت مكانها على المسرح الأوربى(٣) .

على أن آل هابسبورج اختاروا ألا يعترفوا فى سهولة بهذا الوضع ، لا سيما بعد أن أخذت الولايات السويسرية المتحدة تغير على أراضيهم وأملاكهم وعندما هب الهابسبورجيين لتأديب هذه الولايات السويسرية حلت بهم الهزيمة سنة ١٣٥١ فى موقعة مورجارتن Morgarten (٤) ولم تلبث بقية المدن السويسرية أن أخذت تتطلع للتحرر من نير آل هابسبورج ، لاسيما بعد أن اغتنت هذه المدن من وراء اشتغالها بالتجارة ، شأنها شأن كثير من مدن أوربا فى تلك الحقبة . وهكذا انضمت الى الحلف لوسرن Lucerne سنة ١٣٣١ وزيورخ سنة ١٣٥١ وجلاروس Glarus زوج Zug سنة ١٣٥٢ وبرن سنة ١٣٥٣ ، حتى أصبح الحلف السويسرى يتألف من ثمان ولايات ضمت عددا كبيرا من المدن المهمة (٥) . وفى سنة ١٣٦١ أصدر شارل الرابع مرسوما امبراطوريا اعترف فيه بالحلف السويسرى ، فى حين ظل بيت هابسبورج ينكر الاعتراف بهذا الحلف حتى أنزل الحلفاء هزيمتين بالهابسبورجيين الأولى عند سمباخ Sempach سنة ١٣٨٦ والثانية عند نايفلز Naifels سنة ١٣٨٨ ، وعندئذ اضطر آل هابسبورج الى

(1) Eyre : op. cit. p. 418.
(2) Thompson : op. cit. Vol, 2, p. 937.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 189.
(4) Hug. Stead : op. cit. pp. 131-137.
(5) Thompson : op. cit. Vol, 2, p. 938.

الاعتراف بالحلف السويسرى ، وبأن هذا الحلف يتبع الامبراطور تبعية مباشرة (١) .

ولم يلبث السويسريون أن انتقلوا من مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم فأخذوا يوسعون أملاكهم وأراضيهم ، حتى انتهزوا فرصة النزاع بين لويس الحادى عشر وشارل صاحب برجنديا وانتزعوا نصيب لويس فى سويسرا ، كما هزموا شارل سنة ١٤٧٦ ثم سنة ١٤٧٧ . وهكذا سلك السويسريون طريقا مستقلا عن الامبراطورية منذ أواخر القرن الخامس عشر (سنة ١٤٩٥) (٢) بحيث لم يبق أمامهم سوى آخر الخيوط التى تربطهم بالامبراطورية واعلان استقلالهم عنها . وعندما أخذ الامبراطور مكسمليان الأول (١٤٨٦ — ١٥١١) يسعى لضم شمل الامبراطورية ، حاول فرض كلمته على الحلف السويسرى سنة ١٤٩٥ ، ولكن السويسريون أبوا بعناد الموافقة على مشاريع الامبراطور مما أدى الى حرب بين الطرفين استمرت ستة أشهر ، وانتهت بصلح بازل سنة ١٤٩٩ ، دون أن ينجح الامبراطور فى تحقيق غرضه (٣) . وهكذا تم الاعتراف باستقلال الحلف السويسرى ضمنيا ، وظهرت دولة جديدة لتضرب للعالم مثلا رائعا فى مزايا سياسة الحياد .

نشأة دولة الاراضى المنخفضة :

أما دولة الأراضى المنخفضة فقد تفرعت هى الأخرى فى أواخر العصور الوسطى عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولكنها اختلفت عن سويسرا فى أنها اشتملت على جزء من فرنسا مما جعلها تتجه نحوها وتنزع اليها . أما النواة التى نشأت منها دولة الأراضى المنخفضة فتبدو فى البقعة التى كان يسكنها الفرنجة الساليون فى أوائل العصور الوسطى ، ومن ثم وجدت رابطة عنصرية قوية تربطها بفرنسا ، هذا على الرغم من الحقيقة الثابتة

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 296.

(2) Barraclough : op. cit. p. 360.

(3) Hug. Stead : op. cit. pp. 232-236.

وهى أن الأراضى المنخفضة تمثل داخلها لغة الفلمنكيين ذات الأصل الألمانى، جنبا الى جنب مع لغة الوالون ذات الأصل اللاتينى (١) .

ومهما يكن من أمر فقد انقسمت الأراضى المنخفضة عند تقسيم امبراطورية شارلمان الى جزئين ، فأصبح اقليم فلاندرز المرتبط ببحر الشمال والمانش اقطاعا فرنسيا ، فى حين انضم الجزء الشرقى من حوض الشلد — تحت اسم اللورين الأدنى — الى ألمانيا ليخضع لمؤثرات ألمانية قوية (٢) . وكان أن ظهرت الأراضى المنخفضة فى القرن الرابع عشر وقد سادها نظام سياسى واجتماعى وطيد الأركان ، كما كانت أبرز صناعة فيها غزل الصوف الذى أصبح العماد الرئيسى لتجارة فلاندرز . هذا الى أن مدن ذلك الاقليم مرت هى الأخرى بدور التحرر ، فكانت قومونات شأنها شأن كثير من المدن فى جنوب أوربا وشمالها (٣) . واذا كان النبلاء قد اضطروا فى أول الأمر الى الخضوع لأرستقراطية التجار الأثرياء ، الا أن هذه الطبقة الأرستقراطية لم تلبث أن خضعت بدورها فى القرن الرابع عشر لنقابات أصحاب الحروب التى أسهمت بقسط وافر فى كثير من الحركات الشعبية . وسرعان ما أدت هذه العوامل الى نوع من الفوضى وعدم الاستقرار مما جعل النبلاء والتجار والعمال يتحدون جميعا لمواجهة هذه الحركات التى هددت مصالحهم المشتركة.

وهكذا سارت أحوال الأراضى المنخفضة ، حتى أمدتها الظروف الطيبة بأسرة حاكمة استطاعت أن تقيم فى البلاد ملكية عادلة متزنة . أما مؤسس هذه الأسرة فكان أحد أمراء البيت البرجندى ، ولوك فيليب الجسور (١٣٤٢ — ١٤٠٤) الذى خلفه ابنه حنا الشجاع (١٤٠٤ — ١٤١٩) فى برجنديا وفلاندرز فى حين خلفه ابنه الأصغر فى دوقية برابانت (٤) . وقد ظل

---

(1) Orton : op. cit. p. 420.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 832.
(3) Idem : op. 334-335.
(4) Lodge : op. cit. pp. 320-322.

الوضع على ذلك حتى جاء فيلب الطيب (١٤١٩ — ١٤٦٧) ابن حنا الشجاع فوحد برابانت وفلاندرز تحت حكمه سنة ١٤٣٠ ، وبذلك نشأت دولة الأراضى المنخفضة كوحدة سياسية ذات شخصية مستقلة فى التاريخ . ولم تقتصر هذه الدولة على الاقلمين السابقين فحسب ، بل تعدتهما الى ضم هينولت Hainault واقليم هولاند شمالى الراين سنة ١٤٣٣ ، كما ضمت لكسمبرج سنة ١٤٥١ ، وبذلك لم يبق خارجا عن نطاقها سوى أسقفية لييج (١)

ولاشك فى أن توحيد هذه الأقاليم المتقاربة أعطاها طابع الدولة وأعطى أهلها طابع الأمة . وقد أخذ حكام هذه الدولة من أمراء البيت البرجندى يدعمون سلطتهم الملكية فى الوقت الذى سمحوا لرعاياهم من أهالى الأراضى المنخفضة بقسط وافر من الحرية (٢) . وهكذا اتجهت الأراضى المنخفضة نحو الابتعاد سريعا عن كل من فرنسا والامبراطورية لتكسب حضارتها طابعا محليا قويا . حقيقة أن هذه الحضارة التى شكلت تاريخ الأراضى المنخفضة كانت فرنسية فى أصلها وعناصرها ، ولكنها أخذت تتشرب عناصر جديدة ألمانية وبرجوازية لتكتسب شخصية مستقلة قائمة بذاتها فى الميدان الحضارى (٣) .

ولم تلبث الأراضى المنخفضة أن احتلت عند مستهل العصور الحديثة مكانة مرموقة بين دول أوربا فى ميادين الانتاج الزراعى والصناعى والتجارى والفنى . هذا فضلا عن النشاط الفكرى ، حتى غدا أبناؤها يغذون أوربا بكثير من ثرات جهودهم وانتاجهم .

الدولة السكندناوية :

وأخيرا نرى أنه لابد — لاستكمال الصورة التى كان عليها غرب أوربا فى أواخر العصور الوسطى — من الاشارة الى الدول السكندناوية ، وان

---

(1) Roger : Holland, pp. 22-26.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 356.
(3) Orton : op. cit. p. 421.

كانت هذه الدول لم تفرغ — مثل سويسرا والأراضى المنخفضة — عن الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وقد سبق أن أشرنا كيف استطاع كانوت ملك الدانمرك اقامة دولة سكندناوية كبرى ضمت النرويج وانجلترا بالاضافة الى الدانمرك نفسها . على أن كانوت سرعان ما وجد هذه الامبراطورية أوسع من أن يستطيع حكمها بسهولة ففصل حكومة النرويج وأعطاها لابنه سوين Sweyn فى حياته (١) ، ثم لم تلبث بقية الامبراطورية أن تفتت عقب وفاته سنة ١٠٣٥ ، فاستقلت النرويج وانفصلت انجلترا بعد الغزو النورمانى ، وبدأت الظواهر تشير الى أن غزوات الفيكنج وهجراتهم قد انتهى وأدبر .

وتحتل الكنيسة الغربية جزءا هاما فى تاريخ الممالك السكندناوية منذ القرن الحادى عشر ، اذ ظلت الكنيسة بمثابة الرباط القوى الذى ربط هذه الأطراف الشمالية بالغرب الأوربى .. وكان نفوذ الكنيسة الغربية قد أخذ يتطرق فى أول الامر الى الاراضى الشمالية عن طريق ألمانيا ، اذ كانت هذه الجهات تتبع كرسى رئيس أساقفة هامبورج (٢) . ولكن مشكلة النزاع بين البابوية والامبراطورية ، وهى المشكلة التى لعبت فيها الكنيسة الألمانية دورا مهما سبق بيانه ، أتاحت فرصة لقيام كنيسة قومية فى سكندناوة فتأسست أسقفية دانمركية فى لوند سنة ١١٠٥ ، وأخرى نرويجية فى دورنهايم سنة ١١٥٢ ، وثالثة سويدية فى أوبسالا سنة ١١٦٤ . ولم تلبث الكنيسة فى البلاد الشمالية أن ازدادت قوة وثروة بفضل تشجيع الملوك الوطنيين ، مقتفية أثر الكنيسة الغربية فى نظمها وتشكيلها ، بما فى ذلك اعتمادها على الديرية ومؤسساتها من جهة وخضوعها للبابوية من جهة أخرى (٣) .

---

(1) Boyesen : A Hist of Norway, p. 225.

(2) Stephenson : Med. Hist. p. 411.

(3) Eyre : op. cit. p. 170.

وسرعان ما أدى هذا التطور فى النرويج الى مظهر جديد من مظاهر الصراع الكبير بين الكنيسة والدولة ، بعد أن حصل الأساقفة سنة ١١٦٤ على حقوق واسعة جعلتهم أصحاب الرأى الأول فى اختيار كل ملك جديد ، وذلك مقابل ما يقدمونه من مساعدات فى الحروب التى لم تنقطع من أجل الفوز بالعرش (١) . ولكن هذا الوضع كان أثقل من أن يحتمله الشماليون ، ولذلك تزعم سويرى Sverri ملك النرويج (١١٨٢ — ١٢٠٢) حركة واسعة النطاق تستهدف مقاومة الأساقفة والبابوية جميعا (٢) . وقد نجح هذا الملك فى تحدى البابا أنوسنت الثالث حتى وفاته ، مما اضطر الكنيسة الى عمل اتفاقية سنة ١٤٢٧ مع هاكون الخامس (١٢١٧ — ١٢٦٣) . ومع أن الكنيسة حصلت بمقتضى هذا الاتفاق على قدر من الحرية يعادل ما كانت تتمتع به فى ألمانيا ، الا أنه نجح فى وضع حد لتدخل الكنيسة فى شئون الدولة وضمن للأخيرة استقلالها عن نفوذ الكنيسة (٣) .

وفى الوقت الذى ظل عامة الناس من الأحرار محتفظين بكيانهم القديم فى النرويج ، حتى أنهم ساعدوا ملوكهم فى صراع ضد الكنيسة ، اذ بالفلاحين فى السويد يسيرون تدريجيا فى طريق الضعف والانحلال (٤). ذلك أن اتساع رقعة الأراضى الزراعية ، وسهولة الاتصال والربط فيما بينها من شأنه أن يؤدى الى انتشار النظام الاقطاعى واتساع نطاق الرق والاستعباد ، وما شابهها من النظم التى وصلت الى البلاد الشمالية عن طريق ألمانيا (٥) . وقد أتاحت الأحداث التى تعرضت لها السويد فى القرن الثانى عشر فرصة لاشتداد التنافس بين الأسر الكبيرة للاستئثار بالعرش ، الأمر الذى مكن النبلاء وكبار رجال الدين من الحصول على نفوذ واسع هدد كيان السلطة المركزية (٦) . ومع ذلك فقد أظهر شعب السويد فى تلك

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 373.

(2) Boyesen : op. cit. p. 357, f.

(3) Orton, op. cit. p. 426. & Boyesen : op. cit. pp. 428-429.

(4) Cam. Med. Hist Vol, 8, p. 533.

(5) Stephenson : Med. Hist. p. 411.

(6) Cam. Med. Hist. Vol, 6, pp. 369-370.

الحقبة نشاطا مكنه من غزو فنلاند واستعمارها استعمارا جزئيا (١) .

أما فى مملكة الدانمرك فقد ساء موقف الفلاحين أيضا نتيجة لانتشار النظام الاقطاعى وما ارتبط به من ازدياد نفوذ النبلاء من جهة واستعباد الفلاحين من جهة أخرى (٢) . كذلك تكرر ما حدث فى السويد من ازدياد نفوذ النبلاء وكبار الأساقفة ، ولو أن البيت المالك تمكن فترة من الوقت من السيطرة على زمام الموقف والاتجاه بالشعب الدانمركى نحو التوسع . وكان توسع الدانيين تلك المرة فى الجانب الشرقى من البحر البلطى . حيث تقطن قبائل وثنية عدت فريسة سهلة لجيرانها من المغامرين (٣) . وهكذا اتجه السويديون لغزو عناصر الفن فى الشمال ، فى حين تمكن الدانيون تحت زعامة والدمار الأول (١١٥٧ — ١١٨٢) وكانوت السادس (١١٨٢ — ١٢٠٢) ثم والدمار الثانى (١٢٠٢ — ١٢٤١) من غزو العناصر السلافية والاستونياويين Esthonians (٤) شرقا . ولم تلبث الدانمرك أن سيطرت على ولاية هولشتين وذلك عندما تزعزعت سيادة ألمانيا على هذا الاقليم عقب وفاة الامبراطور هنرى السادس سنة ١١٩٧ . ولكن أمراء ألمانيا المجاورين اتحدوا للقضاء على سيطرة والدمار الثانى على الجهات المجاورة لهم بين سنتى ١٢٢٢ — ١٢٢٧ ، وبذلك لم يبق من فتوحات الدانيين سوى استونيا وروجن Rugen (٥) .

وبعد ذلك أخذت رفاهية الدانمرك وقوة ملكيتها فى التناقص السريع. ذلك أن الاساقفة والنبلاء حرصوا على اكتساب سلطات جديدة عند تولية كل ملك جديد ، هذا بالاضافة الى كثرة المنازعات بين أعضاء البيت المالك. وهكذا بلغت مملكة الدانمرك درجة من الضعف مكنت جيرارد Gerhard

---

(1) Orton : op. cit. p. 426.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 8, p. 533.

(3) Cam. Med. ist. Vol, 6, p. 378.

(4) Boyesen : op. cit. Ps. 135-196.

(5) Orton : op. cit. p. 427.

العظيم أمير هولشتين الألمانى من غزوها فى سهولة فى القـرن الخـامس عشر (١) .

* * *

أما أهم المحـاولات التى بذلت لاصـلاح هذا الوضـع السيىء الذى انحدرت اليه الدول السكندناوية ، فتتمثل فى اتحاد كالمار Kalmar وفى الجهود التى بذلها بعض الملوك الذين يرجعون الى أصل ألمانى (٢) .

وقد جاء اتحاد كالمار نتيجة لانقراض البيوت الحـاكمة فى المـمالك السكندناوية ، فعند وفاة والدمار الرابع ملك الدانمارك سنة ١٣٧٥ كانت بنتة مرجريت زوجة لهاكون السادس ملك النرويج الذى كان هو نفسـه الوارث الشرعى لعرش السويد ، وان كان قد أبعد عن هذا العرش نتيجة لعزل والده واختيار البرت الألمانى بدله (١٣٦٣ — ١٣٨٩) (٣) . على أن مرجريت كانت على درجة كافية من المهارة مكنتها من تنصيب ولدها الصغير أولاف ملكا على الدانمرك ، وبذلك أصبحت بعد وفاة زوجها هاكون السادس سنة ١٣٨٠ وصية على عرشى الدانمرك والنرويج جميعا (٤) . ولكن أولاف توفى سنة ١٣٨٧ فخلفته أمه فى العرش ، وكان ذلك فى الوقت الذى ساءت الأحوال فى السويد بسبب الخلاف بين النبلاء السويديين وملكهم الألمـانى. ولم يتردد النبلاء عندئذ فى دعوة مرجريت للتدخل ومساعدتهم ضـد الملك المغتصب ، باعتبارها صاحبة الحق الشرعى فى عرش السويد ، فتدخلت مرجريت وانتصرت ، وبذلك أتيحت فرصة ذهبية لتوحيد الممالك السكندناوية الثلاث . وبمقتضى اتحاد كالمار سنـة ١٣٩٧ رضيت النرويـج والسـويد والدانمرك بأن يحكمها جميعا ملك واحد على الدوام (٥) .

---

(1) Lodge : op. cit. p. 444.
(2) Cam. Med. Hist.. Vol, 8, p. 545.
(3) Orton : op. cit. p. 430.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. 402.
(5) Boyesen : op. cit. pp. 469-470.

على أن الفوارق الطبيعية والحزازت المتبادلة بين الدول الثلاث ، فضلا عن الانقسامات والمنازعات الداخلية ، جعلت من الصعب استمرار اتحـــاد كالمار ، بالرغم من أنه استمر فى صورة اسمية ما يقرب من قرن (١) . ذلك أن مرجريت نفسها لم تلبث أن أغضبت السويديين برغبتها الملحة فى استرداد شلزويج للدانمارك مرة أخرى ، ولا سيما بعد أن فشلت الحرب التى شنتها مرجريت ثم خليفتها ارك Eric (١٤١٢ ـــ ١٤٣٩) ضـــد هولشتين والعصبة الهانزية (٢) . هذا علاوة على أن سياسة ارك أثارت سخطا عاما نظرا لمحاولاته فى مضاعفة نفوذه من جهة وزيادة الضرائب من جهة أخرى . وهكذا تجمعت عدة عوامل لتدفع السويد نحو الانفصال واختيار حاكم عليها من أبنائها سنة ١٤٢٥ (٣) . كما أعلنت الدانمرك عزل ارك ســـنة ١٤٣٩ واختارت بدله كرستوفر البافارى (١٤٣٩ ـــ ١٤٤٨) (٤) . وبعد كروستوفر هذا اختار الدانمركيون كرستيان الأول (١٤٥٠ ـــ ١٤٨١) أمير أولدنبرج ووريث شلزويج ـــ هولشتين (٥) . وقد دأب كرستيان الأول ٨ على تحسين مركزه فى النرويج ، كما ورث شلزويج ـــ هولشتين سنة ١٤٦٠ . أما السويد فقد استمرت على موقفها العنيد من الاتحاد ، فاختارت أحد أبنائها وهـــو شارل الثامن ملكا عليها ، ولكن كرستيان الأول استطاع التخلص من هـــذا المنافس ليضمن بقـــاء الاتحاد الاسمى الذى يحقق له نفوذا صـــوريا فى السويد (٦) . ومع ذلك لم يرض السويديون بالهزيمة فثاروا ثورة جامحـــة وأجبروا كرستيان على تنصيب أحد أبناء السويد نائبا عنه على أن تكون بيده السلطة الفعلية فى البلاد (٧) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 545.

(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 403-404.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 547-548.

(4) Lodge : op. cit. p. 445.

(5) Boyesen : op. cit. p. 478.

(6) Orton : op. cit. p. 431.

(7) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 407-408.

ومن هذا يبدو أن اتحاد كالمار أضحى فى الواقع مقصـــورا على الدانمرك وشـازويج هولشتين والنرويج (١) . وليس لهذه الفترة من أهمية فى البـــلاد سوى أن الملك كرستوفر ثم كرستيان الأول دأبا على تشجيع التجار الوافدين من انجلترا والاراضى المنخفضة ، مما أدى الى تحرير سكندناوة من الاحتكار الاقتصادى للعصبة الهانزية (٢) .

(1) Lodge, op. cit. pp. 447-448.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 8, pp. 550-551.

الباب الثانى والعشرون

شـرق أوربا

يرجع السلاف — أو الصقالبة — فى أصلهم الى الجنس الآرى (Aryens أو الهند أوربى Indo-Europèene (١) . والمعروف أنهم اسـتمروا يتوسعون حتى القرن العاشر توسعا مطردا فى أوربا نحو الغرب والجنوب، وان ظل مستواهم الحضارى فى هذه الفترة ضعيفا نوعا ما ، بحيث لم يكن فى استطاعتهم التقدم عندما يصطدمون بحضارات أخرى أكثر رقيا . وكل ما كان يحدث لهم فى هذه الأحوال هو أن يتحولوا الى أقنان أو أتباع للعناصر الأرقى التى يحتكون بها ، وذلك بحكم ما هو معروف عنهم من جنوح للمسالمة وعدم السلاف ، فتحولوا تدريجيا الى شعب محارب وأسسوا دولا تزعمها بعض القادة الأجانب ، كما تشربوا بعض الحضارات المجاورة واعتنقوا المسيحية(٢) .

وبمقتضى لزمن ازدادت حركة السلاف اتساعا وازداد تباعد قبائلهم ، ولهم مقدرة من الناحية السياسية . ولكن لم يلبث أن طرأ تغيير ملحـوظ على طبيعة يلبثوا أن انقسموا الى ثلاث أقسـام كبرى : أولها السـلاف الجنوبيون أو اليوجوسلاف فى الجنوب والوسط ويشملون البلغـار (٣) . والصرب والكروات والسلوفيين Slovènes وثانيها السلاف الغربيون فى بولندا وبعض ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا ، وتسمى عنـاصرهم التى تسكن هذه الجهات البولنديين والتشك (أو البوهيميين) والسلوفاك Slovaques وثالثها السلاف الشرقيون أو الروس وينقسمون الى الروس

---

(1) Morfill : Russia, p. 4.

(2) Orton : op. cit. p. 300.

(٣) أجمع الباحثون على اعتبار البلغار ضمن المجموعة السلافية على الرغم من اختلافهم عن السلاف فى الأصل ، حيث أن البلغار تأثروا الى حـد كبير بنظم السلاف وأساليبهم فى الحياةوعاداتهم .

الكبار فى الوسط والشمال الروس الصغار فى الجنوب والروس البيض فى الغرب (١) .ومن الواضح أن كل قسم من هذه الأقسام الكبرى الثلاث وقع تحت مؤثرات وظروف خاصة ، مما جعل منهم ثلاثة عناصر متباينة يحسن أن نتكلم عن كل منها على حدة .

السلاف الجنوبيون والهنغاريون :

أما السلاف الجنوبيون فقد تداخل تاريخهم فى تاريخ الدولة البيزنطية . وقبل أن نعرض لتاريخ هذا الفريق من الشعوب السلافية يصح أن نشير الى البلغار ، وهم قوم أسيويون قريبون من الهون ، اندمجوا مع بعض القبائل السلافية فى البلقان وتأثروا بحضارة السلاف ولغتهم . وعلى الرغم من أن البلغار يرجعون الى أصل غير سلافى ، الا أن تشربهم عادات السلاف ولغتهم وحضارتهم جعلتهم يتقاربون من العناصر المحيطة بهم . وقد استقر هؤلاء البلغار على الدانوب حيث كونوا امبراطوريتهم الأولى بين سنتى ٨٩٣، ١٠١٨ . وبلغت هذه الامبراطورية ذروة مجدها وقوتها على عهد قيصر البلغار سيمون (٨٩٣ — ٩٢٧) الذى استغل حكمه الطويل فى القيام بحركة توسعية فى البلقان على حساب الدولة البيزنطية من جهة والشعوب الأخرى المجاورة من جهة أخرى (٢) . على أن عظمة الامبراطورية البلغارية فى عهد سيمون لم تقتصر على التوسع الحربى ، اذ شهد هذا العهد عصرا ذهبيا للأدب البلغارى بفضل تشجيع سيمون ورعايته ، ولا عجب ، فقد تلقى سيمون تعليمه — قبل أن يلى عرش البلغار — فى القسطنطينية حيث تذوق طعم الحضارة ، فعاد الى بلاده ليشرف على ترجمة الانجيل وكتابات القديسين الى لغة قومه (٣) . واذا كانت امبراطورية البلغار قد سقطت وخضعت لسيطرة الامبراطورية البيزنطية (١٠١٨ — ١١٨٦) بعد أن نجح الامبراطور البيزنطى باسل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥) « سفاح البلغار » فى

---

(1) Morfill : Russia, pp. 4-7.

(2) Miller : The Balkans, pp. 135-137.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 327.

القضاء سنة ١١٨٠ على مقاومتهم والانتقام منهم أفظع انتقام (١) ، الا أن دولة البلغار سرعان ما رفعت رأسها وأقامت ما يعرف باسم امبراطورية البلغار الثانية (١١٨٦ — ١٣٩٨) وهى الامبراطورية التى ظلت قائمة حتى الغزو العثمانى للاراضى البلغارية (٢) .

والى الغرب من البلغار — فى الرقعة ما بين بلغراد وشاطىء البحر الأدرياتى — استقر الصرب الذين أقاموا مملكة على شىء من الأهمية ، بلغت ذروتها على عهد قيصر الصرب المعروف ستفن دوشان Stephen Dusan (١٣٣١ — ١٣٥٥) الذى قام بفتوح واسعة فى البلقان حتى أصبح يحلم بالاستيلاء على القسطنطينية نفسها (٣) ، لا سيما بعد أن توج نفسه امبراطورا سنة ١٣٤٦ (٤) . أما فى الداخل فقد وضع مجموعة من القوانين صدرت سنة ١٣٤٩ وتعطينا فكرة واضحة عن نظم المجتمع الغربى ، هذا كله بالاضافة الى جهود دوشان فى حماية التجار وتشجيع الآداب والعلوم(٥) .

وهنا نلاحظ على هذه العناصر السلافية السابقة فى الجانب الشرقى من البلقان وجود عامل مشترك ربط بينها جميعا ، هو أنها اتبعت الكنيسة الشرقية حتى بدت — فى وقت ما — الوريثة الطبيعية للامبراطورية البيزنطية . هذا على العكس من أقاربهم الكروات الذين امتدت مواطنهم على طول الساحل الشرقى للبحر الأدرياتى والذين اتجهوا وجهة غربية ، فاعتنقوا مذهب الكنيسة الرومانية الى أن سقطوا تحت سيطرة الهنغاريين سنة ١١٠٢ (٦) .

أما الهنغاريون فهم — شعب أسيوى خشن — ظهروا فى شرق أوربا فى القرن التاسع ليعيدوا الى الأذهان ذكرى أتيلا وحروبه المدمرة فى أوربا ،

---

(1) Vasiliev : Tome 1, p. 423.
(2) Miller : op. cit. pp. 187-194.
(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 216.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 542.
(5) Miller : op. cit. pp. 272-282.
(6) Orton : op. cit. p. 301.

ذلك أنهم امتازوا بالخشونة المفرطة والقسوة البالغة حتى ليقال انهم كانوا يأكلون لحم الحيوان نيئا ويشربون دماء أعدائهم (١) . ولكنهم لم يلبثوا أن تحولوا تدريجيا عن طبيعتهم الرعوية الخشنة نتيجة لاختلاطهم بشعوب أكثر رقيا ، وذلك بعد أن استقروا حوالى سنة ٨٦٠ بين نهرى الدون والدنيبر حتى استقروا فى أواخر القرن التاسع فى المنطقة التى تطابق حدود هنغاريا الحالية تقريبا (٢) . وعندئذ اعتنق الهنغاريون المسيحية فى القرن العاشر واستغلوا قدرتهم على التنظيم فى محاكاة الحضارة الاقطاعية تحت زعامة ملكهم ستفن (٩٩٧ — ١٠٣٨) وملكهم لادسلاس (١٠٧٧ — ١٠٩٥) (٣) . ولعل أهم أثر تركه الهنغاريون فى تاريخ أوربا فى ذلك العصر هى اغاراتهم التى بدأت تشتد على ألمانيا فى أوائل القرن العاشر (٤) .

السلاف الغربيون :

أما السلاف الغربيون فأهم شعوبهم المرافيون والبوهيميون أو التشك ، الذين امتازوا جميعا بمقدرتهم على التكتل والترابط ، حتى أسس المورافيون فى النصف الثانى من القرن التاسع مملكة قوية امتدت فى عهد ملكهم راستسلاس Rastislas (٨٤٥ — ٨٧٠) من اقليم بانونيا وبوهيميا غربا حتى غاليسيا الشرقية والدانوب شرقا . ولم تلبث المسيحية أن انتشرت فى هذه الأنحاء على أيدى مبشرى الدولة البيزنطية وعلى رأسهم القديسين كيرلس وميثيوديوس المعروفين باسم « رسل السلاف » (٥) وان كان معظم السلاف الغربيين قد دخلوا فى فلك الكنيسة الغربية . ثم كان أن سقطت مملكة المورافيين سنة ٩٠٥ أمام الغزو الهنغارى ، وبذلك انقطعت عنها

---

(1) Miller : op. cit. pp. 30-31.

(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 17.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 213-216.

(4) Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 18-20.

(5) Idem : p. 16.

المؤثرات الشرقية فى حين أدى جوارها لألمانيا الى تقبلها لمذهب الكنيسة اللاتينية (١) .

وعندما تضاءلت أهمية المورفيين عقب سقوط دولتهم تحت ضغط الهنغاريين (٩٠٥ — ٩٠٦) (٢) ، حل محلهم على خريطة أوربا البوهيميون أو التشك الذين أقاموا دولتهم فى القرن العاشر . وأهم ما يميز تاريخ أهل هذه الدولة هو أنها تعرضت لجذب تيارين متعارضين أحدهما يجذبهم نحو الحضارة الألمانية الخلابة ، والثانى يدفعهم نحو مقاومة السيطرة الألمانية (٣) . ويبدو أن التيار الأول كان أقوى أثرا حتى أصبح أمراء بوهيميا وملوكها اكثر تأثرا بالطابع الألمانى فى بلاطهم وحياتهم . هذا الى أن أساقفة بوهيميا الألمان ربطوها بالدولة الألمانية ، فضلا عما كان من استعمار المواطنين الألمان لما يقرب من ثلث بوهيميا . ومع ذلك فان الأقوياء من ملوك بوهيميا فى القرن الثالث عشر — مثل أوتوكار الثانى (١٢٥٣ — ١٢٧٨) اختاروا أن يوجهوا سياستهم الخارجية نحو التوسع على حساب الأراضى الألمانية (٤) .

وهناك فريق آخر من السلاف الغربيين هم الونديون . والمعروف أن الجرمان أطلقوا لفظ « الونديين » أول الأمر على العناصر السلافية جميعا دون تحديد ، وكان المقصود بهذا اللفظ « الدخلاء أو الأجانب » (٥) . ولكن اصطلاح الونديين أخذ يتحدد بعد ذلك ليقتصر على قبائل السلاف التى انتشرت بين جبال الكربات والبحر البلطى . وقد أثبت الونديون عدم مقدرتهم على الاتحاد كما أظهروا نفورا من الحضارة الألمانية والمسيحية على حد سواء . ويبدو أن الفرنجة عانوا فى أول أمرهم كثيرا من المتاعب بسبب اغارات هؤلاء الونديين ، حتى اضطر الملك كلوثر الأول أن يفرض ضريبة على السكسون سنة ٦٣١ قدرها خمسمائة بقرة برسم الدفاع عن البلاد ضد

---

(1) Orton : op. cit. p. 301.
(2) Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 19-20.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 422.
(4) Orton : op. cit. p. 302.
(5) Thompson : op. cit. Vol, 1, ps. 200-213.

الونديين (١) . ومهما يكن من أمر ، فان المملكة التى أقـامها الونديون فى القرن السابع كانت قصيرة العمر سريعة الزوال اذ لم تلبث القبائل الوندية أن اعتراها التفكك والتباعد حتى أضحى مصيرها منذ القرن العاشر فصاعدا مرهونا بتوسع الألمان (٢) . ومع ذلك استمر الونديون الوثنيون يهـددون الحدود الشرقية لألمانيا وذلك باغاراتهم المدمرة التى لم تسلم منها المزارع والأديرة والكنائس ، كما حدث فعلا سنة ٩٨٣ ، وسنة ١٠١٨ ، وسنـة ١٠٦٦ . ثم كان أن ظهر القديس برنارد قبل منتصف القرن الثانى عشر ليدعو فى المانيا لحملة صليبية جديدة ، وعندئذ رد عليه السكسون — أعداء الونديين الألداء (٣) — بأنه من الأولى أن تتجه هذه الحملة الصليبية ضد الونديين الوثنيين وهكذا كانت الحملة الصليبية المعروفة بالوندية Wendish Crusade سنة ١١٤٧ ، وهى التى قضت على الوثنية فى هذه البلاد السلافية ونشرت النفوذ الالمانى شرقا ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الثالث عشر الا كانت جميع الأراضى فيما بين نهرى الألب والأودر سادها الطابع الالمانى (٤) .

والى الشرق من هؤلاء — أى بين نهرى الأودر والفســتولا — أسس البولنديون مملكة ذات طابع سلافى أنقى من الطابع الذى كانت عليه مملكة بوهيميا . وقد اعتنق هؤلاء البولنديون المسيحية الغربية فى القرن العاشر تحت تأثير الألمان ، وان استطـاع ملكهم بولســلاس الأول Boleslas I (٩٩٢ — ١٠٢٥) الاحتفاظ لمملكته بطابع مستقل عن جيرانها فى النـواحى الدينية والدنيوية (٥) . وعلى الرغم من افتقار البولنديين الى موهبة النظام، الا أن مملكتهم هذه احتفظت بكيانها قرنا كاملا ، حتى أفل نجمها أمام ضغط الأباطرة الألمان من أسرة هوهنشتاوفن . ولم تلبث أن تفككت هذه المملكـة

---

(1) Idem : p. 200.

(2) Orton : op. cit. p. 302.

(3) Barraclough : op. cit. pp. 252-253.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 513-514.

(5) Morfill : Poland, pp. 26-28.

البولندية ، فسادتها الحروب الأهلية بين الأمراء ، كما انشقت بوميرانيا وسيلزيا لتصبحا ضمن نطاق الامبراطورية الرومانية المقدسة (١) . وهكذا غدت تجارة بولندا فى القرن الثالث عشر فى أيدى التجار الألمان ، بعد أن فقدت شواطئها على البحر البلطى وأصبحت فى شبه عزلة تسودها المنازعات والحروب (٢) . وعلى الرغم من ذلك فقد استطاعت بولندا أن تنهض تدريجيا بعد أن أفاقت من الغزو المغولى لأوربا فى القرن الثالث عشر ، وسنعود اليها بعد الكلام عن هذاالغزو ..

السلاف الشرقيون :

وبينما اعتنق السلاف الغربيون المسيحية فى قالبها الغربى أو اللاتينى، وبالتالى أصبحوا يمثلون مراكز أمامية للحضارة الغربية ، اذ بالسلاف الشرقيين أو الروس يرتبطون بالكنيسة اليونانية أو الأرثوذكسية ويظلون شديدى الارتباط بالعالم البيزنطى (٣) . وقد سبق أن أشرنا الى ما كان من توغل السويديين فى القرن التاسع — أى عند بداية عصر غزوات الفيكنج — فى الطريق التجارى الممتد من البحر البلطى الى القسطنطينية ، حيث اختلطوا بالأهالى الأصليين من السلاف الشرقيين ، وأسسوا حوالى سنة ٨٦٠ دولة روسية مركزها نوفجرود Novgorod — أى المدينة الجديدة — وكييف ، على أيدى زعيمهم روريك (٤) . ولم تلبث أن انتعشت أحوال الروس تحت حكم سلالة روريك ، فامتدت مملكتهم بين نوفجرود وكييف وخضع لهم الخزر شمالى البحر الأسود (٥) . ومن الطبيعى أن تتوثق العلاقات بين الروس والامبراطورية البيزنطية ، نظرا لأن الطريق التجارى بين البحر البلطى والقسطنطينية يمر بأراضيهم . ولكن هذه الصلات بين الروس والدولة البيزنطية لم تكن سليمة على طول الخط اذ حدث أن حاولوا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 6, pp. 462-463.

(2) Morfill : Poland, pp. 36-37.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 207.

(4) Morfill : Russia, p. 19.

(5) Rambaud : Hist. du la Russie, pp. 44-55.

الاغارة على القسطنطينية ثلاث مرات فى سنوات ٨٦٠ ، ٩٠٧ ، ٩٤١ ، ولكنهم فشلوا فى تحقيق أطماعهم فيها (١) . ولم يلبث فلاديمير الأول أمير كييف (٩٧٨ — ١٠١٥) أن اعتنق الديانة المسيحية فى قالبها الشرقى سنة ٩٩٠ وجعلها ديانة رسمية لدولته ، مما عجل بقيام كنيسة روسية تابعة للكنيسة البيزنطية (٢) . ولكن على الرغم من قرب الروس من الحضارة البيزنطية ومحاكاتهم لها الا أنهم ظلوا مفتقرين الى وسائل التنظيم الكافية لتحقيق الترابط والوحدة بين أملاكهم الواسعة . وكان فلاديمير الثانى مونوماخ (١١١٣ — ١١٢٥) آخر واحد من أمراء كييف حكم جميع قبائل الروس ، ثم أعقبته حالة من الفوضى والانقسام سادت جميع انحاء البلاد (٣) . أما كييف فقد بدأت تفقد أهميتها بعد فلاديمير الثانى لتحل محلها فى الأهمية مدينة سوزدال Suzdal فى الشمال الشرقى من روسيا (٤) . ثم كان أن انقسم الروس الى مجموعتين كبيرتين : الروس الصغار فى الجنوب والروس الكبار فى الشمال ، واستطاع الفريق الأخير أن يتوسع شمالا ويكتسب أراضى جديدة ، حتى جاءت غزوات المغول فأوقفت تطور الروس الى حين (٥) .

والواقع أن هناك حركتين كبيرتين بدأتا فى القرن الثالث عشر ، وكان لهما أثر بعيد فى تطور تاريخ أوربا ، وبخاصة بولندا وروسيا . أما هاتان الحركتان فهما غزوات المغول من جهة ، وتوسع الفرسان التيتون فى شمال أوربا من جهة أخرى الأمر الذى يتطلب الكلام عنهما أولا قبل استئناف دراسة تاريخ بولندا وروسيا فى المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى .

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1, ps. 360-424.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 60.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, pp. 607-608.

(4) Morfill : Russia, p. 36 & Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 609.

(5) Orton : op. cit. p. 303.

المغـول وأوروبا :

أما المغول فقد ظلوا حتى القرن الثانى عشر لا يحتلون سوى مكـــانه ضئيلة فى التاريخ العام باعتبارهم قوم رعاة رحل يقطنون فى المنطقة التى أخذت عنهم اسم منغوليا ، بعيدا عن التيارات الحضارية الكبرى فى العالم. ولكن شاءت الظروف أن يتولى حكم كبرى قبائلهم سنة ١١٧٥ فتى — هو الذى عرف فيما بعد باسم جنكيزخان (الخان الأعظم) — خلد اســـمه فى قائمة كبار الغزاة وأعاظم المحاربين الذين شهدهم التاريخ (١) . ومهمـــا تكن أسباب الغزوات الواسعة التى قام بها المغول تحت قيادة جنكيزخان ، وسواء كانت هذه الأسباب ترجع فى جوهرها الى عوامل طبيعية مثل زيادة السكان ونقص الأقوات وضعف المرعى ، أو غير ذلك من العوامل ، فالمهم هو أن جنكيزخان قضى ثلاثين عاما فى قتال عنيف حتى جعل من نفسه سيدا مطلقا على جميع قبائل المغول ، فضلا عن قبائل الاتراك فى مناطق الاستبس الشمالية ، الأمر الذى مكنه من استئناف الغزو — خارج نطاق المغول — على مقياس أوسع . وكان أن غزا جنكيزخان امبراطورية الصين فيما بين سنتى ١٢١٠ ، ١٢١٦ (٢) ثم اتجه غربا فأخضع جرخانات Gur-khans تركستان الشرقية . وفى سنة ١٢٢٠ جاء دور أتراك خوارزم الذين كانوا قد فرغوا عندئذ من فتح فارس بأكملها ، فخضعوا جميعا لقوة جنكيزخان وان ظلوا يبدون بعض المقاومة حتى سنة ١٢٣١ (٣) . ومن الخطأ أن نرجـــع انتصارات جنكيزخان الى كثرة رجاله فحسب ، دون أن نعمل حسابا لمهارة المغول فى الفروسية واستخدام الخيل فى الحرب ، فضـــلا عن براعتهم فى التكتيك الحربى واستعمال العدد الحربية بطريقة لم تعرفها بقية الجيوش التى اصطدم بها المغول فى ذلك العصر (٤) .

والمعروف أن حريم جنكيزخان تألف من خمسمائة أمرأة وعدد لا حصر

---

(1) Gibbon : The Hist. of the Decline and Fall, of the Roman Empire Vol, 7, p. 2.

(2) Idem : pp. 6-7.

(3) Thompson : op. cit. Vol, 2, pp. 1004-1005.

(4) Orton : op. cit. pp. 384-305.

له من الأبناء ، ولكن اختص من جميع هؤلاء أربعة قاموا بالمهام الرئيسية في دولة أبيهم ، ثم خلفوه في اقتسام امبراطوريته الواسعة بعد وفاته سنة ١٢٢٧ (١) . ويهمنا من هؤلاء الأبناء (اقطاى) الذى خلف أباه فى زعامة امبراطورية المغول وتولى منصب الخان الأعظم باجماع الآراء ، (وطولى) الذى كان نصيبه الجزء الغربى من امبراطورية المغول شمالى بحر قزوين ، وهى القبائل المغولية التى سميت بالقفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة الى اللون الذهبى الذى امتاز به مخيماتهم . ولكن طولى توفى السنة نفسها قبل أبيه ، فقسمت أملاكه بين أبنائه الاربعة عشر ، وظهر من هؤلاء الابناء الابن الثانى باطو الذى نادت به قبائل القسم الغربى من المملكة — غربى نهر الفولجا — خانا عليهم . ولم يلبث أن قام باطو بغزوات واسعة النطاق فى روسيا وبولندا والمجر ودلماشيا ، مما ترك أثرا كبيرا فى التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى (٢) . ففى تلك الفترة بين سنتى ١٢٣٧ ، ١٢٤٠ اجتاح المغول كل الامارات الروسية ، وأخضعوها وألزموها بدفع الجزية(٣)، بعد أن أحرقوا عدة مدن مهمة مثل مدينة موسكو التى نسمع عنها للمرة الأولى فى التاريخ خلال هذه الأحداث (٤) . وفى سنة ١٢٤١ اتجهت جيش المغول نحو بولندا وهنغاريا ، فانقسم الجيش المغولى الى قسمين ، أحدهما قضى على مقاومة البولنديين وأنزل بهم الهزيمة فى ليجنتز Liegnitz ثم اخترق موارفيا ليلحق بالقسم الرئيسى الذى كان تحت قيادة باطو نفسه والذى حطم قوة الهنغاريين عند موهى Mohi واحتل كل بلادهم (٥). هذا فى الوقت الذى قامت بعض جموع المغول بتدمير الصرب والبلغار ، بحيث لم ينقذ أوربا من المغول عندئذ الا وفاة أقطاى — خان المغول الأعظم — مما استدعى عودة باطو شرقا الى مركز المغول فى جوف آسيا للاشتراك فى

---

(1) Gibbon : op. cit. Vol, 7, p. 10.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 4, p. 652.

(3) Rambaud : Hist. de la Russie, pp. 129-131.

(4) Morfil : Russia, p, 39.

(5) Thompson : op. cit. Vol, 2, p. 1006.

انتخاب زعيم جديد (١) . وهكذا تم انقاذ بقية غرب أوربا نتيجة لانشغال المغول بأوضاعهم الداخلية وعدم تمكنهم من معاودة الهجوم على أوربا . أما بخصوص البلاد الأوربية التى دمرها المغول ، فقد استطاعت بولندا وهنغاريا الافاقة بسرعة نسبية من الضربة التى نزلت بهما ، فى حين ظلت روسيا — بحكم موقعها المتطرف شرقا — ما يقرب من قرنين تحت وطأة القبيلة الذهبية ، فى عزلة شبه تامة عن التاريخ الأوربى (٢) .

أما ايلخانات فارس فقد أغار زعيمهم هولاكو (١٢٥٦ — ١٢٦٥) على العراق ، وأسقط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ١٢٥٨ ، ثم تقدم للاغارة على أطراف الدولة المملوكية فى الشام ، لولا أن نجح سلاطين المماليك فى أيقاف المغول عند حدهم بعد أن أنزل بهم السلطان قطز الهزيمة فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ (٣) . وفى الوقت نفسه بسط هولاكو سيطرته على سلاجقة الروم الذين أصبحوا مجرد نواب عن ايلخانات فارس فى حكم آسيا الصغرى ، وبذلك تكون امبراطورية المغول قد بلغت أقصى اتساعها عند نهاية القرن الثالث عشر (٤) . على أن دولة مغول فارس لم تلبث أن تفتت بعد قليل وانقسمت بين عدة زعماء ، حتى اعتنق هذا الفرع من المغول الاسلام أسوة بأقربائهم مغول القبيلة الذهبية ، وان كانت هذه الخطوة لم تتم الا بعد أن أفسدوا البلاد التى نزلوا فيها فسادا صعب اصلاحه .

الفرسان التيتون :

حدث عندما غرق الامبراطور فردريك بربروسا فى أحد أنهار آسيا الصغرى وهو فى طريقه للساهمة فى الحملة الصليبية الثالثة ، أن تشتت

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 637-638.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 458.

(3) Idem, Vol, 4, p. 643.

(4) Thompson : op. cit. Vol, 2, pp. 1005-1007.

جنوده ، ولم يصل منهم الى الأراضى المقدسة سوى عدد صغير ليشتركوا فى حصار عكا سنة ١١٨٩ (١) . على أن المرض سرعان ما فشا بين هؤلاء الجند بسبب صعوبة الأحوال الجوية التى لم يعتادوها ، وحينذاك لم يجدوا حولهم من يعنى بهم فى مرضهم ، الأمر الذى دفع بعض التجار الوافدين من ليوبك وبرمن الى التعاون لرعاية هؤلاء المرضى من جند الألمان (٢) . وهكذا نشأت هيئة جديدة هى هيئة الفرسان التيتون الذين استقوا معظم مبادئهم من الهيئات الاخرى التى سبق قيامها بالاراضى المقدسة مثل الاسبتارية وفرسان القديس حنا . ولم يلبث أن أصدر البابا كلمنت الثالث مرسوما سنة ١١٩١ بالاعتراف بهيئة الفرسان التيتون ، التى اتخذت مركزها الرئيسى فى عكا بعد أن استولى عليها الصليبيون (٣) .

وقد ظلت هذه الهيئة الجديدة محتفظة بطابعها الألمانى فى الأراضى المقدسة ، فكان اعضاؤها ألمان المولد واللغة ، كما أن ازدياد نشاطها أدى الى تضاعف ثروتها وممتلكاتها التى جاد بها الخيرون فى غرب أوربا فضلا عن الشام . على أن الروح الصليبية سرعان ما خبت حماستها فى قلوب الأوربيين فى القرن الثالث عشر فأخذ يقل عدد الحجاج والصليبيين القاصدين من غرب أوربا الى الاراضى المقدسة ، كما أخذت الامارات الصليبية بالشام تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى سلاطين المماليك (٤) . وعندئذ صار لزاما على الهيئات الصليبية المتعددة بالشام أن تبحث لها عن ميادين أخرى تستنفد فيها امكانياتها المادية وحماستها الدينية (٥) . وهنا وجد الفرسان التيتون ميدانا صالحا لنشاطهم فى شمال أوربا حيث كانت تنتشر فى البقعة الواقعة بين وادى الفستولا وخليج فنلاند مجموعة من الشعوب السلافية — البروسيون واللتوانيون والاستونياويون واللفونياويون — الذين ظلوا جميعا

---

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٥٠ وما بعدها .

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 332.

(3) Lodge : op. cit. p. 452.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, pp. 216-217.

(5) Stephen ; Med. Hist. p. 485.

يعيشون عيشتهم البدائية الأولى ، معتمدين على القنص والرعى ، محتفظين بتقاليدهم البدائية وديانتهم الوثنية (١) .

وقد حاول القديس أدالبرت أسقف براغ نشر المسيحية بين البروسيين فى القرن العاشر ، ولكنه لقى مصرعه على أيديهم ، ومنذ ذلك الوقت لم تبذل آية محاولة جدية لتنصير تلك الشعوب على الرغم من وجود أسقفية اسمية على الشاطىء الشرقى للبحر البلطى (٢) . ولكن ذلك الوضع كان لا يمكن أن يستمر بعد أن انتشرت المسيحية فى جميع ارجاء أوربا ، لذلك بدأت محاولة جديدة فى القرن الثالث عشر لتحويل ذلك القسم من السلاف الشرقيين الى المسيحية ، وذلك عندما أسس أسقف ريفا حوالى سنة ١٢٠٠ « منظمة السيف » ليجبر أهالى ليفونيا على اعتناق المسيحية (٣) . وبعد ذلك بقليل بدأ كرستيان — وهو أحد الرهبان السسترشيان من مدينة أولفا Oliva — يبشر بالديانة المسيحية بين البروسيين حتى منحه البابا لقب « أسقف بروسيا » ، كما ساعده فى مهمته أحد الأمراء البولنديين وهـــو كونراد دوق ماسوفيا (٤) . ولكن هذه المهمة كانت أخطر مما توقع الأسقف والدوق ، اذ ثار البروسيون وغزوا ماسوفيا نفسها ، مما جعل أميرها كونراد يبعث رسله سنة ١٢٢٦ الى مقدم الفرسان التيتون — بايطاليا عندئذ — طالبا منه حماية أراضيه من البروسيين مقابل أعطائه منطقة كولوم Kulm على الحدود بين ماسوفيا وبروسيا (٥) .

وكان أن رحب هرمان فون سالزا Hermann Von Salza مقدم هيئة الفرسان التيتون بهذا العرض بعد أن وجد فيه فرصة لتأسيس دولـــة مسيحية بشمال أوربا تغنى منظمته عن الشام ومتاعبها (٦) . ولكن هرمان

---

(1) Lodge : op. cit. p. 453.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 249.

(3) Barraclough : op. cit. p. 267.

(4) Cam. Med, Hist. Vol, 7, 253-267.

(5) Lodge : op. cit. p. 454.

(6) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 634.

شرق أوربا
فى
القرن الثالث عشر
ريجا
فرسان السيف
كورلاند
ميمل
لتوانيا
كونيجسبرج
رجن
دانزج
بروسيا
بوميرانيا
كولم
براندنبورج
بولندا
برسلاو
روسيا
سيلزيا
كراكاو
براغ
بوهيميا
مورافيا
غاليسيا
جران
بودابست
ستيريا
كارنثيا
هنغاريا
كرواتيا
البوسنة
الصرب
بلغاريا

كان حريصا فى أول الأمر على ألا يعمل لحساب أحد وأن يضمن استقلال الفرسان التيتون فى مقرهم الجديد ، فحصل من الامبراطور فردريك الثانى على شهادة رسمية باستيلاء المنظمة على منطقة كولم ، زيادة على بقية الأراضى التى تفتحها المنظمة فى المستقبل ، على أن يتمتع الفرسان التيتون فى هذه الأجزاء بسلطة تامة فى النواحى الاقتصادية وبخاصة سك العملة وفرض الضرائب (١) . وكذلك عقد مقدم الفرسان التيتون اتفاقيات متشابهة مع دوق ماسوفيا والأسقف كرستيان . أما البابا جريجورى التاسع فقد أقر — هو الآخر — هذا الوضع من جانبه ١٢٣٤ ، فوافق على استقلال الفرسان التيتون بكلما يفتحونه من بلاد الوثنيين مقابل دفع ضريبة اسمية للبابوية (٢) .

وهكذا أخذ الفرسان التيتون ينزحون الى بروسيا منذ سنة ١٢٣١ ، وبدءوا يغزون الأراضى الوثنية المجاورة بنجاح كبير ، لأنهم بالرغم من قلة أعدادهم نسبيا امتازوا بقوة أسلحتهم ودرايتهم بشئون الحرب (٣) . على أن غزو بروسيا لم يتم دون متاعب جمة ، اذ ثار اللتوانيون ضد « منظمة السيف » سنة ١٢٣٦ وأنزلوا بهم هزيمة كبرى (٤) ، كما قامت ثورة بين البروسيين السلاف ضد الفرسان التيتون سنة ١٢٨١ واستمرت هذه الثورة حتى أضحى الفرسان التيتون فى عشر السنوات التالية فى خطر من ضياع الاراضى التى أجهدوا أنفسهم فى فتحها ، ولكنهم مع ذلك ثابروا حتى أخضعوا البلاد تماما سنة ١٢٨٠ . وربما ساعد الفرسان فى مهمتهم الطريقة التى اتبعوها ، وهى اقامة قلعة فى كل منطقة يفتحونها حتى تكون مركزا لنفوذهم ولحفظ الأمن والنظام ، بالاضافة الى اتخاذها قاعدة للعمليات الحربية التالية (٥) . ومن الواضح أن كثيرا من البروسيين لاقوا حتفهم فى ذلك الصراع المرير ، فى حين آثر غيرهم الهجرة شرقا لينعموا بالاستقلال فى لتوانيا مما جعل

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 129.
(2) Thompson : op, cit. Vol, 2, p. 952.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7 p. 254.
(4) Barraclough : op. cit. 267.
(5) Thompson : op. cit, Vol, 2, p. 952,

الفرسان التيتون أمام مشكلة تعمير تلك الأراضى ، فشجعــوا الفــلاحين والتجار الألمان على الهجرة الى بروسيا والاستقرار فيها ، حتى أصبحت بروسيا غنيمة لألمانيا من جهة وكسبا للكنيسة من جهة أخرى (١) . أما من بقى من العناصر السلافية فى بروسيا فلم يكن أمامه سوى اعتناق ديــانة الغزاة الألمان ولغتهم ، بل حرم على الاهالى التحدث بلغة غير الألمــانية ، ووضعت رقابة شديدة لقطع كل صلة تربط بروسيا بالماضى مما جعل منهــا اقليما ألمانيا بحتا (٢) .

ثم كان أن أفاق البولنديون لتصدمهم الحقيقة المرة ، وهى أن استقلال الفرسان التيتون باقليم بروسيا معناه قيام دولة ألمانيا تفصل بينهم وبين البحر البلطى . وهنا تغلبت العصبية العنصرية على الشعور الدينى ، فأدرك كونراد أمير ماسوفيا قصر نظره ، وأسرع — بالاشتراك مع البولنديين — الى ارسال المعونة الى السلاف الوثنيين فى بروسيا ، وان كانت هذه المعونة لم تصل الا بعد فوات الأوان (٣) . أما البابوية فلم تكف فى تلك المرحلة عن الدعوة لهذه الحروب الصليبية ضد الوثنيين فى شمال أوربا ، وأصدرت — كعادتها صكوك الغفران لكل من يشارك فى حرب البروسيين ، حتى دخل كثير من المسيحيين تحت لواء الفرسان التيتون . كذلك أســهم أتوكار الثــانى Ottokar ملك بوهيميا (١٢٥٣ — ١٢٧٨)— وأقوى الأمراء الألمــان فى عصره — فى مساعدتهم حتى أسست مدينة كونجزبرج Konigsberg سنة ١٢٥٥ تشريفا للملك بوهيميا (٤) .

وفى سنة ١٢٩١ سقطت عكا — آخر البقايا الكبرى للصليبيين بالشام — فى أيدى المسلمين ، وحينئذ ركز الفرسان التيتون كل نشاطهم فى الشمال ، حيث نطاق العمل أوسع ومجال الاستقلال أعظم ، بعيدا عن سيطرة البابوية وتدخلها . لذلك نقل مقدم الفرسان التيتون مقره من البندقية الى مارنبورج

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 487.
(2) Barraclough : op. cit. p. 268.
(3) Lodge : op. cit. p. 455.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 6, Ps. 438-457.

Marienburg سنة ١٣٠٩ ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المدينة حاضرة الفرسان التيتون ومقر قيادتهم (١) . على أن قطع الصلة بين الفرسان التيتون من جهة والأراضى المقدسة وجنوب أوربا من جهة أخرى كانت له نتائج بعيدة المدى ، اذ أدى الى اضعاف صلة هؤلاء الفرسان بالبابوية وتقوية الروابط التى تربطهم بألمانيا والامبراطورية (٢) . ومن هنا أسرع الامبراطور هنرى السابع الى عرض حمايته على الفرسان التيتون بعد أن أكد أعترافه لهم بكافة حقوقهم وامتيازاتهم . وهكذا أصبحت حركة التيتون التوسعية فى شمال أوربا تعمل من أجل صالح ألمانيا والألمان بعد أن كانت تسير باسم الكنيسة والبابوية (٣) . وقد استمرت الحركة بنشاط فى القرن الرابع عشر فاستغل الفرسان التيتون فرصة النزاع بين بولندا وبراندبرج ليستولوا على اقليم بومرليا Pomerelia بما فيه مدينة دانزج الخطيرة الأهمية سنة ١٣١١ (٤) . ولكن اذا كان الاستيلاء على هذا الاقليم المسيحى قد قوى مركز هيئة الفرسان التيتون على الجانب الغربى أو الألمانى لنهر الفستولا ، الا أنه فى الوقت نفسه فتح بابا واسعا للشقاق والخلاف الذى أثر تأثيرا واضحا فى مستقبل تلك الهيئة . ذلك أنه أظهر أغراض الفرسان التيتون وأهدافهم فى صورة دنيوية لا دينية ، وأدى الى صراع طويل مع بولندا التى كانت لا يمكن أن ترضى بذلك الوضع ، هذا زيادة على فتح باب النزاع بين الفرسان التيتون والبابوية (٥) .

أما عن الحرب بين بولندا وهيئة الفرسان التيتون فى القرن الرابع عشر ، فقد وقفت البابوية فيها الى جانب بولندا بعد أن كانت فى القرن الثالث عشر تبارك جهود التيتون وتدفعهم دفعا الى الأمام (٦) . وقد انتهى الدور الأول من مراحل الحرب بانتصار الفرسان التيتون ، فعقد معهم كازمير العظيم (Casimir) ملك بولندا صلح كاليش Kalish سنة ١٣٤٣ ،

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p. 333.
(2) Lodge : op. cit. p. 457.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 263.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome, 1, p. 201.
(5) Lodge : op. cit. p. 458.
(6) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 457-459.

وبمقتضاه تنازلت بولندا عن اقليم بومرليا وغيره من الأجزاء المتنازع عليهـا قرب وادى الفستولا (١) . ولم تلبث الدانمرك هى الأخرى أن تنازلت لهم سنة ١٣٤٦ عن مطالبها فى اقليم استونيا ، وبذلك أصبح الفرسان التيتون يسيطرون على كل الاجزاء السلافية فى الجنـوب الشرقى لحوض البحـر البلطى . واذا كان اللتوانيون وحدهم هم الذين أصروا فى عناد على الاحتفاظ بوثنيتهم واستقلالهم ، فان الفرسان التيتون شنوا عليهم حربا مثمرة فيمـا بين سنتى ١٣٥١ ، ١٣٨٢ ، وهى الفترة التى بلغت فيها هيئة الفرسـان التيتون ذروة قوتها ونفوذها (٢) .

على أنه حدث عند وفاة لويس العظيم ملك هنغاريا وبولندا سنة ١٣٨٢ أن أدى تعصب نبلاء بولندا لعنصرهم السلافى الى رفض الاتحاد مع هنغاريا فى ظل حكم ملوك أجانب ، فعرضوا تاج بولندا على جـاجلو Jagello أمير لتوانيا بشرط أن يعتنق المسيحية ويتزوج من ابنة الملك الراحل لويس العظيم . وهنا رحب جاجلو بهذه الصفقة التى تتيح له عروسا وعرشا دون عناء ، فتم تعميده ، وتـوج باسم لادسـلاس الثـانى Ladislas سنة ١٣٨٦ ، وبذلك بدأت الوحدة بين بولندا ولتوانيا . وقد بلغت بولندا فى عهد هذه الأسرة اللتوانية أقصى درجات القوة مما عاد بالخسارة على الفرسان التيتون . ذلك أن اتحاد لتوانيا وبولندا كان معناه اتحـاد أكبر خصمين للفرسان التيتون (٣) ، هذا فضلا عن أن اعتناق اللتوانيين للديانة المسيحية حرم هؤلاء الفرسان من سند قوى كانوا يعتمدون عليه بدعوى نشر المسيحية ومحاربة الوثنين (٤) . وهكذا لم يعد هناك مبرر لبقاء الفرسـان التيتون فى بروسيا ولا داعى لحروبهم بعد أن أصبحت بروسيا نفسها محاطة من جميع النواحى بشعوب ودول مسيحية ، الأمر الذى ترتب عليه انقطاع

---

(1) Morfill : Poland, p. 46.

(2) Lodge : op. cit. p. 458.

(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 211-212.

(4) Stephenson : Med. Hist. p. 553.

وفود المسيحيين والصليبيين بعد أن ظلوا أمدا طويلا يتدفقون من مختلف أنحاء أوربا للعمل تحت قيادة الفرسان التيتون باسم الصليب (١) .

والواقع أن القرن الخامس عشر شاهد تطورا خطيرا فى ميزان القوى بين الألمان من جهة والعناصر السلافية والسكندناوية من جهة أخرى . فبعد مضى ثلاثمائة سنة ذاقت طوالها العناصر السلافية الأمرين من عسف الألمان وضغطهم ، حتى جاءت فى النهاية العصبة الهانزية من جهة وهيئة الفرسان التيتون من جهة أخرى ليجعلوا من البحر البلطى بحيرة ألمانية ، اذا بالأوضاع تتغير فى القرن الخامس عشر فتتعرض العصبة الهانزية لخطر يهددها من جانب اتحاد كالمار ، فى حين تعرض الفرسان التيتون لخطر من جانب اتحاد بولندا ولتوانيا (٢) . وكان أن بدأ النزول بين قوات بولندا ولتوانيا من جهة وقوات هيئة الفرسان التيتون من جهة أخرى سنة ١٤٠٩ ، وفى موقعة تاننبرج Tannenberg فى العام التالى ، انتصر الفريق الأول انتصارا حاسما ، وسقط مقدم التيتون قتيلا فى الميدان ، مما جعل بروسيا تبدو فريسة سهلة أمام الغزاة المنتصرين (٣) . على أن المقاومة التى أبدتها قلعة مارينبورج Marienburg — حاضرة الفرسان التيتون ومعقلهم — جعلت تقدم البولنديين يبدو صعبا ، ومن ثم انتهى الموقف بعقد صلح ثورن Thorn الاول سنة ١٤١١ ، وبذلك أتيحت فرصة لمنظمة التيتون لكى تعيش نصف قرن آخر من الزمان .

ويبدو أن الهزيمة التى لحقت بالتيتون فى تاننبرج جاءت مصحوبة بانحلال داخلى فى نظامهم وانقسام فى حكومتهم . هذا فى الوقت الذى أثارت سياسة الفرسان التيتون الاقتصادية غضب تجار العصبة الهانزية بسبب تطرفهم فى فرض ضرائب جديدة لمواجهة نفقات الموقف الحربى (٤) . وقد حاول

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age Tome 1, p. 412.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 265.

(3) Morfill : Poland, p. 52.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 953.

الفرسان التيتون اصلاح وضعهم ولكنهم لجأوا فى تحقيق ذلك الى الشـــدة والتطرف فى معاملة رعاياهم مما أضاع الثقة بين الحكام والمحكومين وأدى الى قيام حرب أهلية داخلية فى بروسيا سنة ١٤٥٣ . وكان أن استنجد الثوار داخل بروسيا ببولندا ، فأعلن كازمير الرابع ملك بولندا ضم بروسيا الى بلاده وخرج بنفسه على رأس جيشه لمساعدة الثائرين . ويضيق بنا المقام عن تتبع هذا الدور من أدوار الحرب بين بولندا والفرسان التيتون ، ولكن يكفى القول بأنها كانت مريرة استمرت أثنى عشر عاما ، قاوم فيها التيتون دفاعا عن كيانهم مقاومة باسلة على الرغم من الهزائم المتلاحقة التى نزلت تترى عليهم . حتى أضطروا أخيرا — سنة ١٤٦٦ — الى الاعتراف بالأمر الواقع فعقدوا صلح ثورن الثانى مع بولندا (١) .، وبمقتضى هذا الصلـــح استولت بولندا على كل بروسيا الغربية بما فيها اقليم بومرليا ودانزج وثورن والبنج Elbing وكولم حتى عاد وادى الفستولا مرة أخرى الى أيدى السلاف . أما بروسيا الشرقية فقد بقيت فى أيدى منظمة الفرسان التيتـــون بشرط أن يعترفوا فى حكمهم بالتبعية لبولندا دون عداها (٢) . وهكذا بدأ فصل الختام فى تاريخ دولة التيتون بشمال أوربا ، حتى انتهى ذلك الفصل سنة ١٥٢٥ عندما أصبحت بروسيا الشرقية دوقية تابعة لبولندا (٣) .

بولندا بعد الغزو المغولى :

الواقع أن بولندا تأتى — عند دراستها — بين هذا الباب والبـــاب السابق لأنها بحكم موقعها وتاريخها تحتل مكانا وسطـــا بين شرق أوربا وغربها وان كان البولنديين أنفسهم يرجعون فى أصلهم الى العنصر السلافى الذى جعلهم فى طابعهم العام أقرب الى شرق أوربا منهم الى غربها .

وعلى الرغم من أن بولندا لم تخضع لمغول القبيلة الذهبية خضـــوعا تاما

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 266.

(2) Stephenson : Med. Hist. p. 554.

(3) Thompson : Vol. 2, p. 953.

مستمرا الا أنها أضحت بعد الغزو المغولى فى حال يرثى لهـــا من الدمار والخراب . وكان طريق النقاهة من الغزو يبدو أول الأمر شاقا عسيرا ، اذ غدت البلاد مقسمة الى عدد كبير من الامارات المستقلة . كل منها أشبه بدويلة صغيرة تسودها فوضى النزاع بين النبلاء (١) . وقد استمر هؤلاء منقسمين الى مرتبتين ، الأشراف فى المرتبة الأولى ثم الأعيان فى المرتبـــة الثانية ، وبعد ذلك يأتى الأقنان من عامة الفلاحين (٢) . أما فى الناحيـــة الخارجية فان موقف بولندا كان لا يقل صعوبة وحرجا ، فالفرسان التيتون أقاموا حاجزا بينها وبين البحر البلطى ، فى حين أخذ الألمان الذين استقروا فى سليزيا يحولونها الى أرض المانية ، كما أخذوا يكونون فى بولندا طبقـــــة متوسطة تسيطر على المدن والتجار مع كونهم أجانب على البلاد (٣) . ثم زاد الطين بلة قيام أحـــد أبناء بوهيميا وهو ونســـلاس Wenceslaus II (١٢٩٥ ـــ ١٣٠٥) فى عرش بولندا سنة ١٣٠٠ ، فاستفاد الرعايا الالمان وحدهم من هذه الخطوة ، كما أن تبعية سيلزيا لهذا الملك البوهيمى ساعدت على تقوية صبغتها بالطابع الألمانى (٤) .

على أن كراهية البولنديين للألمان سرعان ما أثارت فيهم الشعـــور القومى ، فثار لادسلاس لوكيتيك (الأول) Ladislaus Loketick (١٣٢٠ ـــ ١٣٣٣) أمير كوجافيا فى حوض الفستولا الأدنى ، وجمع معظم الامارات البولندية تحت زعامته ، كما عقد أول مجلس نيابى قومى سنـــة ١٣٣١ . وقد اصدر هذا الملك عدة تشريعات ناجحة ضد الرعايا الألمان فى بولنـــدا ليجعل السيادة فى المدن البولندية للعنصر السلافى ، ومع ذلك فانه لم يوفق فى استرداد سيلزيا التى تمسكت بها بوهيميا كما عجز عن استعادة بومرليا من الفرسان التيتون فعقد معهم صلحا سنة ١٣٣١ (٥) .

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 200.
(2) Orton : op. cit. p. 497.
(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 201.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 83-84.
(5) Morfill : Poland p. 38.

ثم خلف لادسلاس الأول ابنه كازمير الثـالث أو العظيم (١٣٣٣ — ١٣٧٠) الذى رأى صعوبة فى استعادة الأقاليم التى فقدتها بولندا ، فأقر بوهيميا على تملك سيلزيا ، كما أقر الفرسان التيتون فى تملكهم لبومرليا(١). ولكنه أراد أن يعوض هذه الخسارة بالاتجاه شرقا ليكون قوة غير ألمانيـا ، وفعلا نجح سنة ١٣٤٠ فى ضم مملكة الروس الحمر الى غاليسيا على الرغم من جهود هنغاريا ولتوانيا لمنع هذه الخطوة (٢) . هذا بالاضافة الى عنايته بالتخلص من بقايا النظم القبلية العتيقة ، فنظم الجهاز الادارى وركزه وعنى بالجيش والخدمة العسكرية كما اهتم بتشجيع التجارة والصناعة . وفى ذلك العهد انضمت كراكاو ودانزج الى العصبة الهانزية ، كما بدأ نجم وارسـو فى الصعود لتخلف كاراكاو التى كانت عاصمة البلاد منذ سنة ١٣١٢ (٣) . أما الروح العلمية التى سادت القرن الرابع عشر فقد وجدت مركزا قوميا لهـا فى جامعة كراكاو . وهكذا قدر لبولندا أن تحقق قسطا وافرا من الوحدة والتقدم تحت قيادة الملك كازمير (٤) .

ويبدو أن تخوف كازمير من نشوب حرب أهلية من بعده بسبب وراثة العرش جعلته يختار ابن أخته لويس ملك هنغاريا (١٣٧٠ — ١٣٨٢) وريثا له (٥) ، وبذلك أصيب النظام الملكى فى بولندا بضربة قاسيـة لأن لويس اضطر الى اصدار منحه كاسا Kassa سنة ١٣٧٤ التى حررت النبلاء من معظم التزاماتهم نحو الملك (٦) . وهكذا آلت السلطة فى بولندا — بعـد وفاة لويس — الى أشرافها الذين أصروا على اختيار ابنته الثانية هدويج ملكة عليهم بعد أن أجبروها على الزواج من جاجلو Jagello أمير لتوانيا، وبذلك فصلوا بولندا عن هنغاريا وبوهيميا (٧) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 260-261.
(2) Orton : op. cit. p. 498.
(3) Morfill : Poland, pp. 38-40.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 954, Cam. Med.Hist. Vol. 8, p. 562.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age Tome 1, pp. 210. -211.
(6) Morfill : Poland, p. 47.
(7) Lodge : op. cit. pp. 190-191.

أما لتوانيا هذه — التى قدر لها نتيجة لهذه الزوجيـــة — أن ترتبط ببولندا ، فكان أهلها يكونون شعبا قائما بذاته فى شبه عزلة ، محتفظا بوثنيته دون أن يتأثر كثيرا بما يحيط به من تيارات حضارية (١) . وعلى الرغم من الخسائر التى لحقت باللتوانيين على أيدى الفرسان التيتون ، الا أنهم أظهروا مقدرة سياسية واضحة ، حتى قام بعض أمرائهم بغزو روسيا . وهم هؤلاء الأمراء منـــدوج Mindovg (١٢٤٠ — ١٢٦٣) ثم جـــدمين Gédimine (١٣١٥ — ١٣٤٠) الذى وصل فى تقدمه داخل روســـيا حتى كييف ، ثم أولجرد Olgerd (١٣٤٥ — ١٣٧٧) الذى ســـيطر على حوض الدنيبر بأكمله وثبت نفوذه على شاطىء البحر الاسود (٢) . وبعد هؤلاء جاء جاجاو (١٣٧٧ — ١٤٣٤) الذى أعرض عن الاتجاه السابق واتجه نحو بولندا والحضارة الغربية ، حتى كان زواجه من هدويج البولندية بعد اعتناقه المسيحية ، الأمر الذى أدى بشعبه الى أن يتبع المذهب الكاثوليكى الغربى ، مما وضع فاصلا واسعا بينه وبين رعاياه الروس الأرثوذكس (٣).

ويعتبر اعتلاء هذا الأمير اللتوانى عرش بولندا ، وما ترتب على ذلك من اتحاد بولندا ولتوانيا فى ظل ملكية واحدة ، أمرا على جانب عظيم مـــن الأهمية ، نظرا لما ترتب عليه بالنسبة لتوسع الألمان فى شمال أوربا (٤). وقد اتخذ جاجلو عند تعميده اسم لادسلاس الثانى ملك بولندا (١٣٨٦ — ١٤٣٤) . وكان من الطبيعى ألا يتخذ أى أجراء لمقاومة أرستقراطية الأشراف التى نصبته ملكا ، (٥) وفى الوقت نفسه أخذ يطبق النظم البولندية على لتوانيا ، كما منح الأسر الكبيرة الامتيازات نفسها التى كانت تتمتع بهـــا مثيلاتها فى بولندا . ولكن يبدو أن هذه الأسر الجديدة التى قامت فى عرش بولندا آمنت من أول الأمر بأن رسالتها الأولى تنحصر فى ازالة الآثار المترتبة على

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 559.

(2) Rombaud : Hist. de la Russie, pp. 147-150.

(3) Cam. Med. Hist. 7, Ps. 227-259.

(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tom 1, p. 409.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 568.

التوسع الألمانى شمالا فى الفترة السابقة (١) . ولم تلبث أن أثمرت هذه السياسة فانتصر البولنديون على الفرسان التيتون فى موقعة تاننبرج سنة ١٤١٠ ، مما جعل بولندا تتطلع لزعامة شرق أوربا (٢) ، لولا أن شاء سوء الطالع أن يقتل ملكها لادسلاس الثالث (١٤٣٤ — ١٤٤٤) فى موقعة فارنا ضد العثمانيين (سنة ١٤٤٤) (٣) . وقد لمع فى هذه الفترة اسم أسقف كراكاوزيجنيواو الزنيكى Zbigniew Olesnicki حتى جاء وقت أصبح هو المتحكم فى سياسة الدولة البولندية . وتبدو سياسته واضحة فى القضاء على الهرطقة الهسية فى بولندا من جهة ، وفى التأثير على ملكية لادسلاس للقيام بحملاته الصليبية ضد العثمانيين من جهة أخرى (٤) . ومهما يكن من أمر، فان مقتل لادسلاس الثالث فى هذه الحملة ، جعل خليفته كازمير الرابع (١٤٤٥ — ١٤٩٢) يبدأ البناء من جديد . وكان أهم ما فعله هذا الملك هو القضاء على قوة هيئة الفرسان التيتون ، وهو الأمر الذي تم بمقتضى صلح ثورن الثانى سنة ١٤٦٦ ، والذى ترتب عليه ضم بروسيا الغربية لبولندا . وهكذا شقت بولندا طريقها نحو البحر البلطى وامتلكت ميناء دانزج ولم تعد تحت رحمة الألمان وضغطهم (٥) .

على أن هذا النجاح فى الميدان الخارجى قللت من أثره الظروف الداخلية فى مملكة بولندا الواسعة ذلك أن كازمير الرابع صمم منذ اعتلائه العرش على سلب أرستقراطية الأشراف سلطانها ونفوذها . وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض بعد نضال عنيف ، ولكن الفئة التى جنت ثمار هذا النصر كانت طبقة الأعيان الذين يلون الأشراف فى المرتبة (٦) . وهكذا غدا ممثلوا الأعيان هم المسيطرون على المجلس الوطنى ، حتى أوشكت بولندا عند نهاية العصور

---

(1) Lodge : op. cit. p. 183.

(2) Morfill : Poland p. 52.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 577.

(4) Morfill : Poland, pp. 54-55.

(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, pp. 115 -116.

(6) Cam. Med. Hist. Vol. 8, pp. 557-578.

الوسطى ومستهل الحديثة أن تصبح جمهورية من النبلاء فى صورة ملكية انتخابية مقيدة (١) .

روسيا والغزو المغولى :

فاذا تركنا بولندا ، فاننا نلمس أثر الحضارة الغربية يتناقص فى الشعوب السلافية كلما أوغلنا شرقا . فحينما اتبعت بولندا الكنيسة الغربية وغلب عليها طابع الاقطاع الذى ساد غرب أوربا ، اذا بمعظم لتوانيا أرثوذكسية المذهب وان كانت أرستقراطيتها ذات نزعة اقطاعية غربية ، هذا فى حين ارتبطت البلاد الروسية ارتباطا تاما بالشرق وحضارته حتى غدت الوريثة الطبيعية للدولة البيزنطية (٢) .

وعلى الرغم مما صحب الغزو المغولى لروسيا من ذبح آلاف الأهالى وتدمير ممتلكاتهم وأراضيهم ، الا أن هذا الغزو لم يغير الطابع العام للبلاد . ذلك أن خانات القبيلة الذهبية لم يحاولوا تغيير النظم السائدة فى البلاد (٣) وهكذا ظلت روسيا مقسمة الى عدة ولايات أو امارات أهمها كييف وروتنيا Ruthénie ونوفجرود الكبرى فى الشمال (٤) ، وكان يحكم هذه الولايات أمراء من الروس على أن يختار خان المغول أحدهم ليكون أميرا أعظم . والواقع أننا نستطيع أن نحدد العلاقة بين الروس وسادتهم المغول فى ذلك العصر بعدة روابط أساسية : أولها أنه كان على الأمراء الروس أن يترددوا بين حين وآخر على مقر القبيلة الذهبية ، أما لتقديم ولائهم وخضوعهم ، واما لحل مشاكلهم فيما بين بعضهم وبعض . ويبدو أن الأمر لم يقتصر على ذهاب الأمراء الروس الى مقر القبيلة الذهبية وانما كانوا يضطرون أحيانا الى الذهاب حيث خان المغول الأعظم فى جوف القارة الأسيوية ، وهناك كان يلتقى الأمراء الروس يرسل الخليفة العباسى والبابا وملك فرنسا وغيرهم من حكام

---

(1) Morfill : Poland, p. 56.
(2) Orton : op. cit. pp. 500-551.
(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, p. 218.
(4) Idem : pp. 218-219.

الشرق والغرب (١) . وثانى هذه الروابط أنه كان على الروس — شأنهم شأن بقية الشعوب الخاضعة للمغول — دفع ضريبة الرأس ، دون تمييز بين الأثرياء والفقراء فى دفع هذه الضريبة ، ولم يشترط أن تدفع هذه الضريبة نقدا وانما كانت تدفع عينا فى بعض الأحيان ، ومن يعجز عن دفعها يفقد حريته ويستعبد (٢) . أما الرباط الثالث فانه كان على الروس دفع ضريبة الدم (L'impot du sang) ويقصد بها تقديم الرجال المطلوبين للعمل فى جيوش سادتهم المغول . وكان الأمراء الروس يختارون صفوة شبابهم فى القرن الثالث عشر لتقديمهم الى المغول ، حتى أننا نسمع عن كثير من الروس الذين حاربوا فى صفوف المغول ضد شعوب القوقاز سنة ١٢٧٦ (٣) . ورابع هذه الروابط أن أى أمير روسى لا يمكن أن يتولى الحكم فى امارته الا بموافقة الخان وتسليمه أمر اعتماد أو تقليد منه (٤) . وأخيرا فقد كان محرما على أية امارة روسية أن تشن حربا على جارتها الا بترخيص من الخان ، ومن ذلك ما نسمعه عن أن نوفجرود طلب ترخيصا من المغول سنة ١٢٦٩ بمحاربة ريفل (٥) .

وقد ظهر من أمراء روسيا فى القرن الثالث عشر اسكندر نفسكى أمير نوفجرود الذى استطاع أن يدافع عن امارته ، فأنزل هزيمة بالسويديين عند نهر نيفا سنة ١٢٤٠ ، وبمنظمة السيف الألمانية قرب بحيرة بيبوس سنة ١٢٤٢ . ثم كان أن استطاع أحد أبناء اسكندر هذا الى الوصول الى امارة موسكو التى نبتت منها الامبراطورية الروسية (٦) .

والواقع أن أمراء موسكو أظهروا على الدوام مقدرة وكفاية تفوق ما كان عليه بقية أمراء روسيا ، كما أنهم لم يتقيدوا بالتقاليد الارستقراطية العتيقة

---

(1) Rambaud : Hist. de la Russie, pp. 147-150.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 7, p. 621.
(3) Rambaud : op. cit. pp. 141-142.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 621.
(5) Rambaud : op. cit. p. 142.
(6) Morfill : Russia, p. 42.

التى سادت مختلف أنحاء روسيا والتى انطوت على كثير من مظاهر الفوضى وعدم النظام . وقد ساعدت الظروف أمراء موسكو على توطيد سلطـانهم المطلق بصورة ليس لها مثيل فى أى مكان آخر من روسيا (١) . ذلك أن هذه الامارة أحاطت بها مجموعة قوية من الجيران ، كما تعرضت للكثير من بطش المغول ، مما جعل أهاليها يعتمدون على أميرهم اعتمـــادا تاما فى حمايتهم وتحقيق سلامتهم . ولم يلبث مغول القبيلة الذهبية أن أدركوا أهمية امارة موسكو لهم ، فأضفوا على صاحبها لقب « الأمير الأعظم » ، كما عهدوا الى أميرها ايفان الأول (١٣٢٨ — ١٣٤١) بمهمة جمع الجزية المفروضة على بقية الامارات الروسية المجاورة (٢) . وهكذا ازدادت أهمية أمير موسكو وتضاعفت ثروته وظهر فى مظهر حامى الشعب الروسى ، والوسيط بينه وبين ســادته المغول ، كما أتيحت له فرصة الاستعانة بقوى المغول للتغلب على منافســيه وجيرانه . هذا فى الوقت الذى أصبحت موسكو المركز الروحى لروســيا ، بعد أن انتقل اليها — من كييف — رئيس أساقفة روسيا (٣) . ولم يلبث الرهبان الروس أن انصرفوا الى استصــلاح الأراضى وفلاحتها وتأسيس المستعمرات فيها ، وهى المستعمرات التى أخذ أهلها ينظرون الى موسكو على أنها حاضرتهم ومركزهم الروحى .

ثم كان أن أخذت قوة القبيلة الذهبية تتفكك بسرعة ، وعندئذ بـدأ ديمترى دونسكوى Dimitri Donskoi أمير موسكو (١٣٦٣ — ١٣٨٩) يعتقد أن الوقت مناسب لمقاومة المغول والتخلص من سيادتهم . ولكن اذا كان الروس قد تمكنوا من احراز انتصارين على المغول حــوالى سنة ١٣٨٠ مما آثار فيهم روح الحماسة القومية (٤) ، الا أن خان المغــول

---

(1) Orton : op. cit. pp. 501-502.

(2) Rambaud : op. cit. pp. 163-167 & Cam. Med. Hist. Vol. 7; p. 625.

(3) Morfill : Russia, p. 49, Cam. Med. Vol. 7, p. 626.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 627.

طقطمش لم يلبث أن وحد القبيلة الذهبية بمساعدة تيمورلنك ، وعندئذ تغلب على الروس وأحرق موسكو ، واضطر الروس الى اعادة دفع الجـزية وهم صاغرون (١) . ولم يلبث الخلاف أن دب بين طقطمش وتيمورلنك ، مما جعل الأخير يقضى على قوة الأول سنة ١٣٩٥ وبالتالى قضى على قوة القبيلة الذهبية . وعلى الرغم من أن أمير موسكو الأعظم رأى أن يحتاط ولا يتسرع فى تحديد موقفه من المغول تلك المرة ، الا أن أملاكه أخذت فى الاتساع والنمو المستمر كما أخذت روسيا تظهر تعصبا لطابعها الشرقى وتمسكها بمذهبها الأرثوذكسى (٢) .

وأخيرا قدر لايفان الثالث أو العظيم (١٤٦٢ — ١٥٠٥) أن يتوج عمل أسلافه أمراء موسكو باخضاع بقية الامارات الروسية لنفـوذه . وكان أن أخضع نوفجرود سنة ١٤٧٩ وحول هذه الجمهورية التجارية الغنية الى مدينة اقليمية . وعندما حقدت الدولة البولندية اللتوانية على روسيا وتحالفت مع مغول القبيلة الذهبية المنحلة ضد الروس ، استطاع ايفان الثالث أن يحطم ذلك الحلف فتحالف مع مغول القرم للقضاء على القبيلة الذهبية (٣) .

ومع أن روسيا نجحت أخيرا فى التحرر من سيطرة المغول الا أن خضوعها لهم تلك السنوات الطويلة ترك أثرا واضحا فى تاريخها ومستقبلها . ونستطيع أن نجمل الاثر الذى تركه حكم المغول لروسيا فى ثلاثة نواحى هامة : أولها أن الحكم المغولى عمل على فصل روسيا عن غرب أوربا وجعلها تعتمد سياسيا على آسيا مما كان له أبعد الأثر فى تاريخها الحديث . وثانيها أن سـيطرة المغول على روسيا شجعت على تثبيت روح الحكم الاستبدادى فى البـلاد الروسية التى أضحى أمراؤها مسئولين أمام خان المغول وممثلين له فى سلطانه المطلق ، ومن ثم لم يشأ هؤلاء الأمراء — ومن بعدهم القياصرة — أن يتخلوا عن سلطتهم الاستبدادية بعد زوال حكم المغول (٤) . ما الاثر

---

(1) Rambaud : op. cit. pp. 174-175.
(2) Cam. Med Hist. Vol. 7, p. 629.
(3) Morfill : Russia, pp. 57-58.
(4) Rambaud : op. cit. p. 145.

الثالث الذى تركه حكم المغول لروسيا فهو أنه أدى الى ازدياد نفوذ الكنيسة وثروتها . ذلك أن المغول — على الرغم من قسوتهم ووحشيتهم — كانوا متسامحين الى حد كبير فى النواحى الدينية فتركوا للشعوب التى خضعت لهم حرية العبادة ، ولم يحاولوا التدخل فى شئون الكنيسة الروسية ، وانما أباحوا لها حرية التصرف ومباشرة حقوقها القضائية وغير القضائية على أوسع مدى . ومن ذلك أن أوزباك خان يثبت سنة ١٣١٣ لبطرس رئيس أساقفة موسكو جميع الامتيازات التى تتمتع بها الكنيسة وضمن له حماية ممتلكاتها . وهكذا ظلت الكنيسة الروسية مرفوعة الرأس تباشر حقوقها فى حرية تامة وتجمع الأموال والأراضى مما يجود به الخيرون من أبناء البلاد ، فى الوقت الذى خضع أمرء روسيا لسادتهم لمغول وتضاءل نفوذهم السياسى لذلك(١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد تحررت روسيا أخيرا من حكم المغول لتصبح قوة عظيمة تحت حكم ملكية مطلقة ، فى الوقت الذى أخذ الروس يتوسعون ويمدون حدود بلادهم فى الاتجاهين الشرقى والشمالى . هذا الى أن موسكو أضحت بسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، المركز الحقيقى للكنيسة الأرثوذكسية بل أصبحت روما الثالثة (٢) ، كما تزوج ايفان الثالث من أميرة يونانية ليصبح وريث الأباطرة البيزنطيين (٣) . على أن هذه الدولة الروسية ظلت أمدا طويلا متباعدة عن الغرب ، محتفظة بطابعها الشرقى ، حتى أخذت أخيرا تلعب دورا رئيسيا فى تاريخ أوربا — بل العالم الحديث .

---

(1) Idem. pp. 145-146.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 631.

(3) Vasiliev ; op. cit. Tome 2, pp. 266-267.

الباب الثالث والعشرون

نهاية الدولة البيزنطية

أسرة كومنين :

استطاعت الأسرة الكومينينية ــ بعد أن ثبت دعائمها ألكسيوس الأول كومنين ــ أن تحتفظ بعرش الامبراطورية البيزنطية أكثر من قرن من الزمان (١٠٨١ ــ ١١٨٥) . ونستطيع من الالمام بأبواب الكتاب السابقة أن نقف على العوامل الرئيسية التى تحكمت فى السياسة الخــــارجية للامبراطورية الشرقية فى تلك الفترة ، اذ كان على أباطرة هذه الأسرة تحديد موقفهم مـــن الاتراك السلاجقة من جهة ومن الصليبيين المارين بأراضى الدولة نحو الاراضى المقدسة من جهة ثانية ، ثم من الامارات الصليبية التى قامت فعلا فى بـــلاد الشام من جهة ثالثة . هذا بالاضافة الى ملوك النورمان بجنوب ايطـــاليا وصقلية ، وهم الذين أرادوا أن يتخذوا هذا المقر الجديد نقطة ارتكاز يقفزون منها على أراضى الدولة البيزنطية فى البلقان (١) .

ومن الواضح أن هذه القوى السابقة كانت جميعها للامبراطـــورية الشرقية ، ولا يستثنى من ذلك الصليبيـــون الذين رأت فيهم الامبراطورية خطرا فاق خطر السلاجقة والنورمان جميعا ، مما جعل الامبراطورية البيزنطية تجد نفسها منذ أواخر القرن الحادى عشر وسط محيط متلاطم من الأعـــداء الطامعين فيها وفى أراضيها . واذا كان الامبراطور ألكسيوس الأول كومنين (١٠٨١ ــ ١١١٨) قد استطاع ــ بفضل مهارته السياسية وقوته ــ أن يسير بسفينةالا مبراطورية وسط هذه الأمواج المتلاطمة الى بر الأمان ، وأن يعيد بنـــاء الامبراطورية على قواعد جديدة ، فانه لم يستطيع الوصول الى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 322-325.

هذه النتيجـــة دون المن مرتفع ، فضلا عن أن النجاح الذى حصل عليـــه كان سطحيا ومؤقتا (١) ، ذلك أن الصليبيين الغربيين الذين وفدوا الى الشرق نتيجة لتوسلات ألكسيوس وأسلافه من الأباطرة ، والذين مكنوه من استرداد جزء كبير من بلاده المفقوده فى آسيا الصغرى ، استقروا بالأراضى الشامية ليثيروا خطرا مستمرا فى وجه الامبراطورية البيزنطية نتيجة لتفوقهم الحربى وأطماعهم الســـياسية من جهة ، وللعـــداء المـــذهبى بينهم وبين البيزنطيين الارثوذكس من جهـــة أخرى (٢) .

وهنا يبدو أن خطر الصليبيين على الدولة البيزنطية لم يكن حربيـــا فحسب بل انهم أنزلوا بهذه الدولة ضررا اقتصاديا أشد وأنكى من الضرر الحربى . بذلك أنه اذا كانت الحركة الصليبية قد بدت فى مظهرها الخارجى دينيـــة حربية ، الا أنها تضمنت فى باطنها نشاطا سياسيا واقتصاديا واسعا. وحسبنا ما فعلته مدن ايطاليا التجارية — وعلى رأسهـــا بيزا والبنـــدقية وجنوا — من استغلال الحروب الصليبية للسيطرة على التجارة بين الشرق والغـــرب ، والحصـــول من وراء ذلك عـــلى أرباح واســـعة ومغانم عظيمـــة (٣) . وهكذا أخذت عكا وغيرها من موانى الصليبيين بالشـــام تنافس القسطنطينية فى مكانتها الاقتصادية كما حـــل التجار الايطاليون محل البيزنطيين فى الهيمنة على تجارة الشرق ، مما عـــاد بخســـارة بالغـــة على الامبراطورية البيزنطية هددت مواردها الأساسية . وقـــد حاول الامبراطور ألكسيوس علاج هذا الوضع ، ولكن علاجه أدى الى كارثة محققة ، لأنـــه لجأ الى منح البنادقة اعفاءات من الضرائب فى موانى الامبراطورية ليعيـــد الحياة الى هذه الموانى ، كما منحهم حيا تجاريا خاصا فى القسطنطينيـــة تمتعوا فيه باستقلال تام فى شئونهم القضائية والدينية (٤) . ولم تلبث بيزا هى الأخرى أن حصلت على مثل هذه الامتيازات سنة ١١١١ ولكن على نطاق ضيق ، الأمر الذى جعل التجار الايطاليون يباشرون تجارتهم فى الدولـــة

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 319.

(2) Grousset : op. cit. Tom 1, pp. 418-419.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٤ ، ٤٨٨ .

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 10.

البيزنطية فى حرية وعلى نطاق واسع ، مما عاد بعواقب وخيمة على الاقتصاد الوطنى (١) . هذا فضلا عن أن استقرار هؤلاء الايطـاليون فى القسطنطينية لمباشرة نشاطهم التجارى ، مهد الطريق لسيطرتهم على مقاليد الحـكم فى الامبرراطورية نفسها ، لأنه من المبادىء المعروفة منذ أقدم العصور أن التغلغل الاقتصـادى كثيرا ما يكون مقدمة للاسـتعمار السياسى . حقيقة أن قيـام عدد من أباطرة أسرة كومنين الكفاة فى الحكم قد أجل وقوع هذه الكارثة ، ولكن عندما أتيحت الفرصة لحدوث انشقاق بين المطالبين بالعرش ، استطاع البنادقة أن ينفذوا الى الحكم وأن يحققوا مطامعهم السياسية ، بالضبط كما فعلت شركات الهند الانجليزية والفرنسية فى العصور الحديثة (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان هذا التطور جاء بطيئا وتدريجيا فى الامبراطورية البيزنطية بفضل عناصر الحيوية الكامنة فى هذه الامبراطورية ، ممـا مكن الكسيوس الأول كومنين من قضاء بقية حكمه فى تثبيت دعـائم أسرته وفى حماية الدولة من الأخطار الخارجية التى أحـاطت بها (٣) . وعنـد وفاة ألكسيوس خلفه ابنه حنا الثانى كومنين (١١١٨ — ١١٤٣) الذى يعتبر من أمهر الأباطرة الذين اعتلوا عرش الامبراطورية (٤) . وقد امتاز حنا الثـانى بمجموعة من الصفات الكريمة التى أكسبته لقب « الطيب » والتى جعلتـه محبوبا من رعاياه ، فقضى حكمه دون أن يتعرض لمتاعب أو ثورات داخلية — اللهم من ناحية أخته Anna وأخيه اسحق . لذلك قضى حنا الثانى معظم سنوات حكمه فى تدعيم حدود دولته ودفـع خطر جيرانها ، فحـارب العناصر السلافية والهنغارية الرابضة على الحدود الغربية فى البلقـان ، كما حارب الأتراك السلاجقة والأرمن فى آسـيا الصغرى . وقد استغـل الامبراطور البيزنطى حنا الثانى سيطرته التامة على قليقية ليجبر ريمـوند أمير انطاكية على الاعتراف له بالتبعية (٥) .بكذلك حاول حنا الثانى اصلاح الاحوال

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 325.
(2) Tout : The Empire and the Papacy p. 338.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 350.
(4) Ostrogorsky : op. p. 334.
(5) Grousset : op. cit. Tome 2, p. 94.

الاقتصادية والمالية فى امبراطوريته ، ولجأ فى سبيل تحقيق ذلك الى العمل على التخلص من سيطرة البنادقة الاقتصادية ، ولكن هذه المحاولة جرته الى حرب معهم . وهنا ظهر عجز الامبراطور أمام جبابرة البحر والتجارة فاضطر الى مصالحتهم واعادتهم الى سابق الامتيازات التى تمتعوا بهـا بمقتضى اتفاقية سنة ١٠٨٢ ، هذا فى الوقت الذى تمتعت بقية مدن ايطاليا التجارية — مثل بيزا وجنوا — بمميزات اقتصادية ، وان كانت دون تلك التى حصلت عليها البندقية (١) .

ثم خلف حنا الثانى ابنه مانويل الأول كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠) الذى شابه معاصريه من حكام الغرب وأمرائه فى ولعه بحياة القوة والفروسية . وفى عهد مانويل الأول هذا مرت الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) بأراضى الامبراطورية ، ونجت الامبراطورية من هذه الازمة بسلام ، ليتفرغ الامبراطور بعدها لعدة حروب استهدفت تحقيق مجد شخصى لاصلاح الامبراطورية العام (٢) . وكان النجاح هو الطابع العام الذى امتازت به هذه الحروب ، فمد الامبراطور مانويل نفوذه على دول الدانوب حتى الحدود الألمانية ، وقضى على محاولات روجر ملك صقلية وابنه وليم فى غزو أراضى الامبراطورية ؛ كما شن حربا طويلة على البندقية ., وعندما عجز الامبراطور أمام البندقية استعان بجنوا وبيزا فعقد حلفا مع الأولى سنة ١١٦٩ ومع الثانية سنة ١١٧٠ ، وزاد امتيازاتهما فى دولته ليخفف من غلواء البندقية، الأمر الذى أساء بصورة واضحة الى العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والبندقية (٣) .

ثم مات مانويل كومنين بعد أن أدت حروبه الى اضعاف مالية الدولةوزيادة موقفها سوءا ، فخلفه ابنه الكسيوس الثانى (١١٨٠ — ١١٨٣) الذى كان طفلا فى الثانية عشرة من عمره ، فلم يستطع تحت وصاية أمه مقاومة المؤامرات التى حاكها أعضاء البيت الحاكم حتى انتهى الأمر بعزله وقيام

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 50-51.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 372-378.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 345.

أندرونيق كومنين في الحكم (١١٨٣—١١٨٥). وكان هذا الامبراطور الجديد قويا شجاعا فى شىء من القسوة وميل الى سفك الدماء ، فامتاز عهده بكثرة الثورات فى أنحاء الأمبراطورية وولاياتها . وهكذا استقلت قبرس تحت حكم اسحق كومنين الذى نادى بنفسه امبراطورا فى الجزيرة ، كما غزا النورمان مقدونيا واستولوا على سالونيكا سنة ١١٨٥ (١) . وكان لاستيلاء النورمان على سالونيكا — وهى ثانى مدن الامبراطورية بعد القسطنطينية — رد فعل قوى فى العاصمة ، فثار الأهالى واتهموا الامبراطور بالتقاعس والاهمال فى الدفاع عنها ، حتى انتهى الامر بعزل الامبراطور أندرونيق الاول واحلال اسحق أنجيلوس محله سنة ١١٨٥ ، وبذلك انتهى بيت كومنين وبدأت أسرة جديدة فى حكم الامبراطورية البيزنطية (٢) .

أسرة أنجيلوس :

كان اسحق الثانى أنجيلوس (١١٨٥ — ١١٩٥) ضعيفا جبانا ، ولا يرجع نجاحه فى الوصول الى عرش الامبراطورية الى كفايته ومقدرته بقدر ما يرجع الى كراهية جميع الطبقات لسلفه أندرونيق كومنين . لذلك شهد عهد اسحق الثانى تدهورا مستمرا فى أوضاع الامبراطورية فى حين شغل الامبراطور نفسه ببناء الكنائس والقصور وجمع المخلفات الدينية والايقونات ، وأخطر ما فى ذلك هو أن حاجته الى المال دفعته الى الوظائف الكبرى لمن يدفع فيها مبالغ أكبر ، الامر الذى أدى الى فساد الادارة الامبراطورية من جهة ، والى انزال المظالم بأهالى الولايات من جهة أخرى ، لأن هؤلاء الموظفين كانوا يحاولون عادة استعادة ما دفعوه للامبراطور من الاهالى المحكومين (٣) .

أما فى الخارج فقد حالف الفشل جيوش الامبراطورية ، اذ ثار البلغار بسبب قسوة الضرائب ، ونفضوا أيديهم من ولائهم للأمبراطورية بعد أن

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 82.
(2) Idem : p. 83.
(3) Tout : The Empire and the Papacy ; p. 341.

ظلوا خاضعين لها مائتى سنة منذ أيام باسل الثانى (١) . ولم يكن عجز اسحق الثانى عن اخضاع بلغاريا هو كل ما أصاب الامبراطورية من فشل فى سياستها الخارجية عندئذ ، اذ وصلت الحملة الصليبية الثالثة الى الشرق سنة ١١٩٨ ولجأ أحد زعمائها — وهو فردريك بربروسا — الى عدم رعاية شعور الدولة البيزنطية ومصالحها ، فاتصل بأعدائها من العرب والبلغار بل السلاجقة ، وتحالف معهم جميعا لتسهيل مهمته فى طريقه الى الاراضى المقدسة . وقد أساء مسلك الصليبيين هذا الشعور العام بالقسطنطينية وأثار قلق الدولة البيزنطية ، مما دفع الامبراطور البيزنطى الى الارتماء بين أحضان صلاح الدين (٢) . وفى ذلك الوقت استولى زعيم آخر من زعماء الحملة الثالثة — وهو ريتشارد قلب الأسد — على جزيرة قبرس وفصلها نهائيا عن جسم الامبراطورية (٣) . وهنا ظهر صدى هذه الاحداث فى موقف الامبراطور اسحق الثانى ، اذ أدى اتفاقه مع صلاح الدين من جهة . واضطراره الى شراء مسالمة السلاجقة من جهة أخرى الى تدبير مؤامرة لخلعه وقيام أخيه ألكسيوس محله فى الحكم .

على أن ألكسيوس الثالث أنجيلوس (١١٩٥ — ١٢٠٣) لم يكن خيرا من أخيه ، فبلغت الفوضى فى تلك الفترة التى شهدت تجمع جيوش الحملة الصليبية الرابعة فى البندقية فى انتظار السفن التى تحملها الى الشرق . ثم كان أن تلاحقت الحوادث الى تمخضت عن استيلاء الصليبيين على زارا سنة ١٢٠٢ ثم على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ كما سبق أن شرحنا ، فسقطت الامبراطورية البيزنطية وقامت على حطامها امبراطورية لاتينية (١٢٠٤ — ١٢٦١) .

وهكذا قدر للقوتين اللتين كانتا تتنازعان مجد الامبراطورية الرومانية القديمة أن تسقطا جميعا فى القرن الثالث عشر ، لأن سقوط بيت هوهنشتاوفن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 518-519.
(2) Ostrogorsky : op. cit. pp. 360-361.
(3) Grousset : op. cit. Tome 3, pp. 47-49.

لفترة الشعور تعتبر نهاية فعلية للامبراطورية الغربية ، فى حين جاء سقوط القسطنطينية فى أيـدى الصليبيين ضربة لم تستطع الامبراطورية الشرقية ترفع رأسها من بعدها (١) .

الامبراطورية اللاتينية فى الشرق البيزنطى :

دخل الصليبيون الغربيون القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ليفعلوا فيها الشىء الكثير من ضروب السلب والنهب والتخريب ، مما ترك لطخة سوداء فى تاريخ الحروب الصليبية . ويبدو أن هذا التحول فى طريق الحملة الصليبية الرابعة واتجاهها لم يزعج البابا العظيم أنوسنت الثالث ، لأنه رأى فيه فرصة لطى الكنيسة الشرقية تحت لواء البابوية (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان الغزاة الصليبيين الذين نجحوا فى الاستيلاء على القسطنطينية ، أخذوا يفكرون فى تقسيم الغنيمة فى جو مشبع بروح التباغض والتحاسد بين البنادقة من جهة وبقية الصليبيين الغربيين من جهة أخرى . وهنا استقر الرأى على اختيار امبراطور وبطرق جديدين للقسطنطينية من بين الصليبيين أنفسهم . ومن الواضح أن التنافس كان شديدا بين زعماء الصليبيين حول الفوز بمنصب الامبراطورية ، حتى انتهى الامر — بعد خلاف شديد — الى اختيار بلدوين — كونت فلاندرز — امبراطورا ، فتوج فى كنيسة سانت صوفيا فى مايو سنة ١٢٠٤ . أما منصب البطرقية فقد اختير له أحد البنادقة — وهو توماس موروسينى — الذى كان أول رجل لاتينى يتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية (٣) .

على أن اختيار امبراطور للدولة ورأس للكنيسة كان أسهل بكثير من مهمة تقسيم الغنائم من أشلاء الامبراطورية الساقطة . وهنا لجأ الغزاة

---

(1) Lodge : op. cit. p. 494.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 347.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 375.

الغربيون الى اقامة دولة اقطاعية على حطام النظام البيزنطى ، فأصبح للامبراطور بالدوين الرآسة العليا على بقية الزعماء الصليبيين ، على أن تشمل املاكه القسطنطينية نفسها — ما عدا الحى البندقى — والجزء الاكبر من تراقيا بما فيه أدرنة ، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر ايجه — وهى جزر ساموثريس وكوس ولسيوس وساموس وخيوس ، فى حين ثبت بونيفيس دى مونتفرات نفوذه فى مقدونيا وتساليا (١) . أما البنادقة فقد فازوا بنصيب الاسد من هذه الغنيمة . اذ أضافا الى حصتهم فى القسطنطينية معظم الجزائر القريبة من الشواطىء بما فيها جزيرة أيوبيا ، هذه زيادة على بعض المواضع الساحلية فى شبه جزيرة المورة وجزء كبير شمالى خليج كورنثة . كذلك ضم البنادقة الى هذه الممتلكات جزيرة كريت التى اشتروها من بونيفيس مونتفرات . أما بقية الامراء الصليبيين فقد نالوا اقطاعات كبيرة متفرقة ، كما ظل الباب مفتوحا أمامهم للتوسع على حساب جيرانهم (٢) .

وهكذا غدت الامبراطورية اللاتينية التى قامت فى الشرق البيزنطى تمثل دولة اقطاعية كبيرة ، تعرضت لجميع مساوىء النظام الاقطاعى ، ولا سيما فيما يتعلق بالمنازعات بين الامراء والاحقاد المستمرة بين الافصال وأمرائهم (٣) . واذا كانت الامبراطورية اللاتينية قد نجحت الى حد ما فى مقاومة هذه المساوىء فان هناك أخطارا أخرى كان من الصعب عليها مواجهتها والتغلب عليها . من ذلك أن زعماء الحملة الصليبية استأثروا وحدهم بالغنيمة مما ترك صغار الصليبيين فى حالة شديدة من الحنق وخيبة الامل . هذا بالاضافة الى روح العداء التى استحكمت بين مختلف العناصر والاجناس التى تألفت منها الحملة الصليبية الرابعة ، كما ظهر ذلك فى المنازعات بين الألمان والبرجنديين ، وبين اللمبارديين ، والفلمنكيين ، وبين جميع هؤلاء والبنادقة (٤) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 4, pp. 421-422.

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 113-114.

(3) Tout :: The Empire and the Papacy, p. 340

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 423.

أما فيما يتعلق بالموقف بين هذه الجموع الغربية اللاتينية من جهة والبيزنطيين الشرقيين من جهة أخرى ، فلم تبذل أية محاولة للتقريب بين الطرفين ، ومن ثم ظل التباعد سائدا . ويبدو أن الغزاة الغربيين كانوا على درجة من الجمود والكبرياء بحيث لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها ، فى حين احتقر البيزنطيون أولئك « البرابرة » الغربيين الذين أدعوا لأنفسهم الحق فى وراثة روما وحضارتها . وحتى اذا لم تكف الفوارق العنصرية والحضارية لتحقيق التباعد بين الطرفين . فان الخلاف الكنسى المذهبى كان كفيلا وحده بتحقيق هذا الانشقاق (١) . واذا كان البابا أونوسنت الثالث قد أرتاح للنتائج التىتمخضت عنها الحملة الصليبية الرابعة ، وظن أن فى ذلك تحقيقا للوحدة بين الكنيستين فى ظل البابوية ، فان حقيقة الموقف كانت أبعد من أن تساعد على تحقيق هذه الامنية (٢) . ذلك أن استيلاء الغربيين على القسطنطينية واسقاطهم الامبراطورية البيزنطية ، ومسلكهم المشين تجاه أهلها ، زاد من حدة نفور البيزنطيين من الغـــرب وأهله وكنيسته ، وجعل الشعور القومى فى الشرق اليونانى يتبلور بدرجة لم تعهد من قبل . وهكذا لم يستسلم البيزنطيون ، وانما اقاموا ملكيات وامارات تتصف بالطابع القومى ، بعد أن فر كثيرون الى جبال ألبانيا وأبيروس حيث خضعوا لسيطرة أحد أفراد بيت أنجيلوس (٣) . وفى الوقت الذى قامت دويلات يونانية صغيرة متناثرة فى تراقيا والمورة ، لم يستطع الصليبيون أنفسهم التوغل داخل آسيا الصغرى وفرض سيادتهم على ذلك الشطر المهم من الدولة البيزنطية . وقد مكن ذلك بعض أفراد بيت كومنين من أن يستقلوا فى طرابيزون ويتخذوا لانفسهم لقب أباطرة ، هذا فى حين استطاع أحد أفراد الجيش البيزنطى — واسمه تيودور لاسكاريس — أن يعلن نفسه امبراطورا فى نيقية ، وبسط سلطانه على الاجزاء الغربية من آســيا الصغرى (٤) . أما البلغار فى البلقان فقد أعلنوا استقلالهم ومدوا حدود دولتهم

---

(1) Ibid.
(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 377.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 424-425.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 175

على حساب أراضى الصليبيين . وبعبارة أخرى فان الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وجدت نفسها أمام منافسين خطيرين ، بحيث أنها لم تستطع الحياة أكثر من نصف قرن الا بفضل الموقع الحربى الفريد الذى امتازت به القسطنطينية من جهة وسيطرة البنادقة على مياه البحار من جهة أخرى .

والواقع أن الامبراطورية اللاتينية التى قامت فى القسطنطينية سنة ١٢٠٤ كان عليها منذ البداية أن تصارع عوامل الانقسام فى الداخل وأخطار الغزاة فى الخارج (١) . ذلك أن بونيفيس ملك سالونيكا تزوج من أرملة اسحق أنجيلوس ورفض الخضوع لامبراطور القسطنطينية ، كما أعلن نفسه حاميا للبيزنطيين ، مما أثار الحرب بين الفلمنكيين فى القسطنطينية واللمبارديين فى سالونيكا . وفى هذه المرحلة من مراحل النزاع أغار البلغاريون على دولة الصرب اللاتينية فغزوا تراقيا سنة ١٢٠٥ وأنزلوا الهزيمة بالصليبيين فى موقعة أدرنة حتى انتهى الامر بقتل الامبراطور بلدوين نفســـه بعد أن وقع فى الأسر (٢) .

وقد تولى عرش الامبراطورية اللاتينية بعد مقتل بلدوين أخوه هنرى (١٢٠٦ ـــ ١٢١٦) الذى امتاز بالشجاعة وحسن السياسة ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يستطيع أن يغزو آسيا الصغرى أو يهزم البلغار أو حتى ينجح فى استرضاء رعاياه البيزنطيين . واذا كان الامبراطور قد نجح فى عقد معاهدة مع تيودور لاسكاريس ، فان هذه المعاهدة لم تمكنه من السيطرة الا على الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى (٣) . وفى ذلك الوقت هلك بونيفيس مونتفرات سنة ١٢٠٧ عى أيدى البلغار ، فاستغل حاكم بيروس البيزنطى الفرصة لضم أملاكه ، مما جعل أمراء مملكة سالونيكا اللاتينية يستنجدون بالامبراطور هنرى فى القسطنطينية . وعندئذ انتهز هنـــرى

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. Tome 2, p. 376.
(2) Vasiliev : op. cit. p. Tome 2, p. 179.
(3) Idem : p. 188.

الفرصة ليجعل الوصى على مملكة سالونيكا يعترف له بالتبعية ، كما دان بالتبعية للامبراطور اللاتينى أمراء البنادقة فى جزر الأرخبيل ، بل أن حاكم أبيروس اعترف له أيضا بالسيادة (١) .

وعندما توفى الامبراطور هنرى سنة ١٢١٦ خلفه بطرس كونت أوكسر (Auxerre) وحفيد لويس السادس ملك فرنسا . وكان هذا الامير فى الغرب عندما بلغه خبر اختياره امبراطورا (١٢١٦ — ١٢١٩) ، فأسرع الى القسطنطينية لتولى منصبه الجديد ، ولكنه اختار أن ينزل فى دورازو ويسلك طريق مقدونيا وتراقيا الجبلى ، فهلك فى الطريق ، وخلفه ابنــه الصغير روبرت (١٢١٩ — ١٢٢٨) تحت وصاية أمه يولاند (٢) . وقــد شهد هذا العهد تدهور الامبراطورية اللاتينية تدهورا سريعا ، اذ استولى تيودور أنجيلوس على مملكة سالونيكا اللاتينية ، وبذلك أصبح يحكم الرقعة الواقعة بين البحر الأدريانى وبحر ايجه دون منــــافس ، كما اتخذ لقب امبراطور مثلما فعل حكام نيقية وطرابيزون (٣) . كذلك اختار امبراطور نيقية فى ذلك الوقت أن يجدد الحرب ضد امبراطورية القسطنطينية اللاتينية التى اقتصرت على العاصمة وضواحيها فقط ، مما جعل الامبراطور روبرت يفكر فى القيام برحلة الى الغرب لطلب المعونة . وعند موت الامبراطور أثناء هذه الرحلة سنة ١٢٢٨ ، خلفه أخوه الصغير بلدوين الثانى (١٢٢٨ — ١٢٦١) الذى كان حينئذ فى الحادية عشرة من عمره ، فاختير حنــا بريين — ملك بيت المقدس السابق — وصيا عليه . ولكن يبدو أن ازدياد خطر البلغار على الامبراطورية اللاتينية فى تلك الآونة كان الدافع الاساسى لاختيار حنا بريين على الرغم من كبر سنه — امبراطورا . وقد نجح حنــا بريين (١٢٢٩ — ١٢٣٧) فى مقاومة الاخطار العديدة التى أحاطت بالقسطنطينية فى تلك الفترة (٤) . ولكن لم تلبث هذه الاخطار ان اشتدت بحيث لم ينقذ

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy; p. 352.
(2) Ostrogorsky : cit. pp. 384-385.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 193-194.
(4) Ostrogorsky : op. cit. pp. 283-389.

الامبراطورية سوى التنافس بين بيت أنجيلوس فى سالونيكا وبيت دوقاس الذى آل اليه عرش امبراطورية نيقية بعد وفاة تيودور لاسكاريس ، حتى انتهى الامر بنجاح حنا الثالث دوقاس فى غزو سالونيكا سنة ١٢٤١ (١) . وهكذا الفت الامبراطورية اللاتينية نفسها أمام قوة بيزنطية موحدة أحاطت بالقسطنطينية من الجانبين الاسيوى والاوربى .

وكان حنا الثالث دوقاس (١٢٢٢ — ١٢٥٤) اداريا ممتازا ومحاربا شجاعا ، فحاول الاستيلاء على القسطنطينية لاحياء الامبراطورية البيزنطية ، كما استولى على بعض الجزر المهمة مثل خيوس ولسبوس وساموس ، ولكن تفوق البنادقة فى البحر حال دائما دون تحقيق هذه الغاية (٢) . أما بلدوين الثانى فقد قضى طوال حكمه يستجدى معونة الغرب دون مجيب ، حتى اشتدت حاجته الى المال ، فرهن ابنه عند صيارفة الغرب وباع أثمن ما فى القسطنطينية من مخلفات دينية ، الى القديس لويس التاسع ملك فرنسا (٣) . وكان أن توفى حنا الثالث دوقاس سنة ١٢٥٤ ، فخلفه حفيده الصغير تحت وصاية ميخائيل باليولوجس الذى لم يلبث أن استأثر بالامبراطورية لنفسه (١٢٥٩ — ١٢٨٢) . وقد أظهر ميخائيل الثامن هذا مقدرة حربية كبيرة وشجاعة فائقة ، فاستغل تغيب الاسطول البندقى عن القسطنطينية وهاجم المدينة واستولى عليها سنة ١٢٦١ ، حين لاذ بلدوين الثانى وأتباعه بالفرار . وعلى هذا الوجه انتهت الامبراطورية اللاتينية ، وعادت الامبراطورية البيزنطية الى عاصمتها القديمة (٤) .

وأما البندقية فقد هلعت لسقوط الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، واشتد هلعها عندما منح الامبراطور ميخائيل الثامن منافستها جنوا جميع الامتيازات التى تمتع بها البنادقة فى القسطنطية (٥) . لذلك قامت البندقية

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy; 353.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 196-197.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 429.
(4) Ostrogorsky : op. cit. pp. 399-400.
(5) Vasiliev op. cit. Tome 2, p. 270.

تنادى بحملة صليبية ضد ميخائيل الثامن ، وساندها فى هذه الدعوة البابا أوربان الرابع (١٢٦١ — ١٢٦٤) ، ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق بعد أن انتهى عصر الحماسة الصليبية وأصبحت البقايا الصليبية فى الشام نفسها تعانى الأمرين من ضغط سلاطين المماليك ، دون أن تصادف من الغرب معونة تذكر . ومع ذلك فقد استمر البنادقة يسيطرون على جزر الأرخبيل وغيرها من الجهات الساحلية ونجحوا فى الدفاع عن هذه الجزر ضد البيزنطيين ثم العثمانيين .

الامبراطورية البيزنطية والعثمانيون :

من الواضح أن ما نسميه احياء للامبراطورية البيزنطية سنة ١٢٦١ لا يعدو أن يكون فى حقيقة الامر استردادا للقسطنطينية على يد أحد حكام نيقية البيزنطيين (١) . ذلك أن الامبراطورية البيزنطية فى عهد ميخائيل الثامن وخلفائه كانت محددة المساحة ، لا تتعدى القسطنطينية نفسها وبعض المناطق القريبة . فمن جهتى الشمال والغرب كانت تحدها مملكتا البلغار والصرب ، فى حين كانت شبه جزيرة المورة مقسمة الى دويلات صغيرة بين بعض الامراء اللاتين والبنادقة الذين سيطروا أيضا على جزر كورفو وكريت ونجروبونت ، وغيرها من جزر بحر ايجه (٢) . واذا كان الاباطرة البيزنطيون من أسرة باليولوجس قد نجحوا فى الاحتفاظ بالجزء الاكبر من الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، مع بعض المدن المهمة على شاطىء البحر الاسود ، فان بقية شبه الجزيرة ظل بأيدى سلاطين قونية الاتراك ، باستثناء شريط ضيق من الارض عند الركن الجنوبى الشرقى للبحر الاسود حيث قامت امبراطورية طرابيزون ، فى الوقت الذى كان البيزنطيون أضعف من أن يقوموا بمحاولة جدية لاسترداد هذه الاجزاء المفقودة (٣) . واذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد استطاعت الحياة نحوا من قرنين بعد بعثها سنة ١٢٦١ حتى

---

(1) Lodge : op. cit. p. 494.
(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 425.
(3) Gibbons : The Foundation of The Ottoman Empire p. 13.

سقوطها فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فان الفضل فى ذلك لا يرجع الى قوتها أو الى كفاية حكامها وبطولة شعبها بقدر ما يرجع الى الملابسات التى صرفت أعداءها عنها طوال هذه الفترة ، زيادة على حصانة القسطنطينية نفسها ومتانة موقعها (١) . وليس فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة ما يستحق العناية أو يسترعى اهتمام الباحث سوى ظاهرة واحدة ، هى أن ضعف الامبراطورية فى عصرها الاخير ساعد على نمو دولة الاتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى نموا سريعا .

أما عن هؤلاء الاتراك العثمانيين فهم قبيلة تركمانية من الغزاة كانوا يعيشون عند بداية القرن الثالث عشر فى خراسان ، ولكنهم اضطروا الى تركها والاتجاه غربا حوالى سنة ١٢٢٠ تحت ضغط المغول ، فاخترقوا أذربيجان وأرمينيا ووصلوا آسيا الصغرى فى الوقت الذى كان علاء الدين الاول (١٢١٩ — ١٢٣٥) يحكم سلطنة الروم (قونية) (٢) . ونسمع عن هؤلاء العثمانيين لاول مرة عندما انبرى زعيمهم أرطغرل لمساعدة سلطنة قونية ضد مهاجميها من المغول ، هذا وان كان من غير الثابت فى التاريخ اذا كان العثمانيون قد استقروا فى آسيا الصغرى على أساس التبعية لسلطنة قونية أو مستقلين عنها (٣) . ومهما يكن من أمر فقد ساعد أرطغرل علاء الدين ، ورد السلطان السلجوقى على هذه المساعدة بمنح العثمانيين هبة سخية من الاراضى فى آسيا الصغرى . وعندما انهارت سلطنة قونية بوفاة سلطانها علاء الدين الثالث سنة ١٣٠٧ ، كان عثمان (١٢٩٩ — ١٣٢٦) ابن ارطغول أحد زعماء القبائل التركية الكثيرة التى استقلت فى آسيا الصغرى . وقد أخذ العثمانيون منذ ذلك الوقت يتوسعون فى سرعة تسترعى الانتباه ، فاستولوا سنة ١٣٢٦ على بروسة واتخذوها عاصمة لدولتهم كما دفن فيها عثمان نفسه مؤسس الاسرة التى نسبت اليه ، مما جعل لهذه المدينة مكانة خاصة عند العثمانيين (٤) .

---

(1) Lodge : op. Cit pp. 495-496.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome, 1, p. 195.
(3) Gibbons : op. cit. p. 17.
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 447.

ثم خلف عثمان ابنه أورخان (١٣٢٦ — ١٣٥٩) الذى هاجم نيقية ، وهى المدينة التى كانت بمثابة العاصمة الثانية للامبراطورية البيزنطية . وقد أسرع الامبراطـــور البيزنطى أندرونيق الثالث باليولوجس (١٣٢٨ — ١٣٤١) الى الدفاع عن نيقية ، ولكن الهزيمة حلت به سنة ١٣٢٩ فاستولى العثمانيون على المدينة فى العام التالى . وهكذا استغل أورخـــان ضعف الامبراطورية البيزنطية وأخذ يتوسع توسعا سريعا فى آسيا الصغرى بحيث لم يبق للامبراطورية سوى شريط ساحلى ضيق على البسفور . وهنا نلاحظ أن توسع العثمانيين فى آسيا الصغرى لم يكن على حساب الدولة البيزنطية وحدها ، وانما كان أيضا على حساب بقية الامارات التركية الصغرى التى قامت على أنقاض سلطنة قونية (١) . وثمة أهمية أخرى لعهد أورخان هى انشاء جيش جديد (انكشارية) من أبناء المسيحيين فى البلاد المفتوحة ، بعد أن يحولهم الى الاسلام ويربيهم تربية فكرية وجسمانية خاصة . وبفضل قوات الانكشارية تمكن العثمانيون فيما بعد من احراز أعظم انتصاراتهم فى أوربا وأسيا وأفريقية (٢) .

وزاد الموقف سوءا بالنسبة للامبراطورية البيزنطية أن وفاة أندرونيق الثالث سنة ١٣٤١ أعقبتها حرب أهلية داخلية ، لم يتردد خلالها المتنازعون من الاستعانة بالعثمانيين ، مما أعطى الاتراك سلاحا خطيرا من جهة كما مكن ستفن دوشان (١٣٣٣ — ١٣٥٥) ملك الصرب من انتهاز الفرصة والاستيلاء على ألبانيا وأبيدوس وتساليا ، فضلا عن اتخاذ لقب امبراطور من جهـــة أخرى (٣) . وزاد من عوامل الفوضى فى الامبراطورية البيزنطية احتدام التنافس بين جنوا والبندقية فى أنحاء الامبراطورية وأراضيها حتى انتهى الأمر بهزيمة البندقية سنة ١٣٥٣ (٤) .

وفى سنة ١٣٥٤ كان حنا الخامس باليولوجس قد تخلص من منافسه

---

(1) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome, 1, p, 196.
(2) Gibbon : The Decline and Fall. Vol. 7, 26-27.
(3) Miller : The Balkans, pp. 274-278.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 666.

وأصبح لا ينازعه منازع فى حكم الامبراطورية البيزنطية (١٣٤١ — ١٣٩١) على أن هذه السنة لها أهمية أخرى فى التاريخ اذ استولت فيها جيوش السلطان أورخان العثمانى على عاليبولى وحصنتها لتكون أول مركز ثابت للعثمانيين فى أوربا (١) . وعندما توفى أورخان سنة ١٣٥٩ ، أخذ خليفته السلطان مراد الأول يبتلع مدينة بعد أخرى فى الجانب الاوربى حتى استولى على أدرنة سنة ١٣٦١ وأصبحت أعظم مركز للعثمانيين حتى استيلائهم على القسطنطينية فى القرن التالى (٢) . على أن وصول العثمانيين الى الحدود الشمالية للامبراطورية البيزنطية فى البلقان ، جرهم الى الاشتباك فى حروب ضد بلغاريا والبوسنة والصرب ، وهنا أيضا صادف العثمانيون توفيقا كبيرا حتى نجحوا فى اخضاع أجزاء واسعة من هذه البلاد وأجبروا أهلها على دفع الجزية (٣) .

وفى تلك الاثناء لم يجد الامبراطور حنا الخامس وسيلة لحماية ما تبقى من دولته سوى الاستنجاد بالغرب الاوربى . ومن أجل هذا الغرض سافر حنا الخامس الى روما سنة ١٣٦٩ حيث قبال البابا أوربان الخامس ليعلن اعتناقه للمذهب الكاثوليكى ، كما كتب له أعترافا بقبول وجهة نظر الكنيسة الرومانية فى جميع نواحى الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية (٤) . ومن البديهى أن مثل هذه الاتفاقات كانت عديمة الجدوى لأن الامبراطور كان لا يستطيع تغيير عقيدة رعاياه من جهة ، كما أن البابوية كانت عنــد منتصف القرن الرابع عشر أضعف من أن تحيى الحماسة الصليبية بعد موتها من جهة أخرى (٥) . وعندما يئس الامبراطور حنا الخامس من مساعدة الغرب لم يجد أمله سبيلا سوى الدخول فى تبعية السلطان العثمانى على أن يدفع له جزية سنوية ، كما سمح له باحتلال سالونيكا (٦) .

---

(1) Gibbons : op. cit. pp. 101-103.
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 308.
(3) Miller : The Balkans, pp. 284-286.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 369-370.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age. Tome 1, p. 197.
(6) Ostrorsky : op. cit. p. 482.

أما الممالك السلافية فى شمال القسطنطينية وغربيها فقد أظهرت عنادا فى مقاومة العثمانيين أكثر مما فعل البيزنطيون أنفسهم ، حتى كونت فيما بينها حلفا دفاعيا سنة ١٣٨٧ تحت زعامة ملك البوسنة (١) . وقد نجح هذا الحلف فى أول الأمر فى وقف تقدم العثمانيين ، ولكن السلطان مراد الاول استطاع أن يزل هزيمة ساحقة بقوى الحلف فى كوسوفا Kossova سنة ١٣٨٩ ، وخر ملك الصرب نفسه قتيلا فى المعركة ، فى حين قتل مراد هو الاخر بيد أحد نبلاء الصرب بعد الموقعة . (٢) وسرعان ما اتضح أن مقتل مراد الاول لم يؤثر فى الموقف بأى حال من الاحـــــوال ، لان ابنه بايزيد الاول خلفه فى الحكم فأجبر الصرب على دفع الجزية ، كما أخضع ولاشيا وبلغاريا ، وبذلك امتدت الاملاك العثمانية حتى الدانوب . وعندما حاول الأوربيون عمل حلف جديد من بعض الامراء الفرنسيين وملك هنغاريا ضد العثمانيين ، أنزل بهم بايزيد الاول هزيمة ساحقة فى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ (٣) .

وفى تلك الاثناء توفى الامبراطور البيزنطى حنا الخامس سنة ١٣٩١ ، فخلفه ابنه مانويل الثانى الذى اضطر هو الاخر الى الاعتراف بالتبعيـــة للعثمانيين (٤) . على أن انضمام مانويل الثانى الى الحلف الاوربى السابق ، جعل السلطان بايزيد لا يثق فيه كثيرا ، فصمم بعد انتصاره على قوى الحلف فى نيقوبوليس على تأديب الامبراطور وغيره من الامراء الذين ساعدوه . لذلك استغل بايزيد فرصة بعض الخلافات الداخلية فى القسطنطينية سنة ١٣٩٧ وأخضع أبيروس وتساليا ، مما جعل مانويل يصفى مشاكله الداخلية فى ذلك الوقت ويقوم بجولة فى غرب أوربا سنة ١٣٩٩ ، فــزار ايطاليا وفرنسا وانجلترا طالبا المعونة ضد العثمانيين المسلمين (٥) . وقد قام بايزيد أثناء غياب الامبراطور بحصار القسطنطينية ، وكان من الممكن أن ينجح فى فتحها عندئذ لو لم يقطـــع عليـــه تيمورلنك مشروعـــه (٦) . ذلك أن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 672.
(2) Lodge : op. cit. p. 503.
pp. 435-467.
(4) Gibbons : op. cit. pp. 198-199.
(5) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 320-322.
(6) Gibbon : op. cit. Vol. 7, pp. 43-44.

تيمورلنك اجتاح الجزء الاكبر من آسيا الصغرى على رأس جموع غفيرة من المغول ، الامر الذى اضطر بايزيد الى ترك حصار القسطنطينية والعودة مسرعا الى آسيا الصغرى ، حيث أنزل به تيمورلنك هزيمة ساحقة فى موقعة أنقره سنة ١٤٠٢ ، ومات بايزيد فى الاسر فى العام التالى (١) .

ومن الواضح أن هزيمة أنقرة جاءت ضربة قاسية نزلت بالدولة العثمانية الفتية ، فتمكن الامبراطور مانويل الثانى من العودة الى العاصمة واسترداد سالونيكا وبعض أجزاء تساليا وأبيروس ، كما استطاعت القسطنطينية أن تعيش خمسين سنة أخرى بعد أن أوشكت على السقوط فى أيدى العثمانيين . أما أمراء السلاجقة فى آسيا الصغرى فقد تحرروا من السيطرة العثمانية وعادوا الى استقلالهم السابق ، هذا فى الوقت الذى اشتد الصراع بين أبناء بايزيد الاربعة حول وراثة منصب السلطنة (٢) . على أن الظروف سرعان ما ساعدت الدولة العثمانية على استعادة مكانتها ، اذ اضطر تيمورلنك — بحكم الاحداث الدائرة فى جوف الدولة المغولية — الى العودة شرقا نحو جوف آسيا سنة ١٤٠٥ ، كما نجح السلطان محمد الاول العثمانى فى توحيد أملاك أبيه سنة ١٤١٣ (٣) ، وعندئذ لم يسع الامبراطور البيزنطى وغيره من الاتباع الأوربيين سوى تقديم فروض الولاء مرة أخرى للسلطان العثمانى (٤) .

وعندما توفى محمد الاول خلفه ابنه السلطان مراد الثانى سنة ١٤٢١ ، وعندئذ تشجع الامبراطور مانويل الثانى باليولوجس وأخذ يساعد أحد أبناء بايزيد ضد السلطان الجديد . ولكن مراد الثانى نجح فى القضاء على هذا المنافس ، ومن ثم بدأ يفرض حصارا جديدا على القسطنطينية سنة ١٤٢٢ لمعاقبة الامبراطور على مسلكه (٥) . وعلى الرغم من المتاعب التى تعرض لها السلطان أثناء ذلك الحصار فانه استطاع أن يواصل سياسة الضغط على

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 682-684.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1,pp. 493-494.
(3) Gibbons : op. ci. p. 262.
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 495.
(5) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. 494

القسطنطينية حتى اضطر الامبراطور مانويل الى زيادة الجزية التى يدفعها للعثمانيين ، فضلا عن اعطائهم عدة مدن فى تراقيا . ومع ذلك فانه يمكن القول بأن حصار القسطنطينية سنة ١٤٢٢ يعتبر بداية للحلقة الاخيرة فى سلسلة الصراع الذى انتهى بسقوط الامبراطورية البيزنطية (١) .

ثم كان أن خلف مانويل الثانى ابنه حنا السادس فى حكم الامبرطورية البيزنطية سنة ١٤٢٥ . ولعل أهم حدث فى عهد هذا الامبراطور الجديد هو تلك المحاولة التى بذلت (١٤٣٨ — ١٤٣٩) فى فرارا ثم فى فلورنسا لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية (٢) . وقد وقع الامبراطور فعلا على اتفاقية التوحيد ، ولكن مقاومة البيزنطيين جعلتها تبقى حبرا على ورق مما زاد موقف الامبراطور البيزنطى سوءا لانه وجد نفسه لا يستطيع الاعتماد على ولاء رعاياه أو مساعدة الغرب (٣) . ومع ذلك فقد شاءت الظروف أن تتمتع الامبراطورية بقسط من السلام فى عهد هذا الامبراطور ، اذا انصرف معظم جهود العثمانيين عندئذ ضد الصرب والبلغار ، وذلك اذا استثنينا استيلاء مراد الثانى على سالونيكا سنة ١٤٣٠ .

ذلك أن الصرب وولاشا والبوسنة حاولت أن تتخلص من تبعيتها للدولة العثمانية ، واستعانت فى ذلك بسجسموند ملك هنغاريا ، مما جعل السلطان مراد اثانى يشن حربا طويلة ناجحة ضد قوى هذا الحلف . وقد استطاعت القوات المجرية والسلافية الثبات فى أول الامر أمام الجيوش العثمانية (٤) ، بل أحرزت هذه العناصر بعض النجاح عندما انتصرت على العثمانيين سنة ١٤٤٢ — ١٤٤٣ ، مما جعل الغرب الاوربى يهلل لهذا النجاح كما بارك البابا ايوجنيوس الرابع تلك الجهود (٥) . ولكن لم يلبث السلطان مراد الثانى أن

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 497.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, pp. 621-622.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 2, pp. 370-372.
(4) Miller : The Balkans : pp. 293-294.
(5) Lodge : op. cit. pp. 507-508.

أنزل هزيمة كبرى بالجيش الهنغارى الذى عبر الدانوب الى بلغاريا ، وذلك عند فارنا Varna سنة ١٤٤٤ . ومن الواضح أن هذه الحرب التى اعتبرها بعض الاوربيون حربا صليبية وناب عن البابا فيها أحد الكرادلة ، لم تكن سوى حلقة فى سلسلة الصراع بين العثمانيين والهنغاريين فى القرن الخامس عشر (١) . أما السلطان مراد الثانى فقد قضى السنوات الاخيرة من حكمه فى اخماد بعض الثورات فى آسيا الصغرى وألبانيا حتى توفى سنة ١٤٥١ ، وعندئذ اعتلى عرش السلطنة ابنه محمد الثانى أو الفاتح الذى احتفظ لنفسه فى التاريخ بشرف فتح القسطنطينية .

وقد أحس الامبراطور البيزنطى حينذاك — وهو قنسطنطين الحادى عشر (١٤٤٩ — ١٤٥٣) — بخطر الاستعدادات التى يبذلها العثمانيون للاستيلاء على مدينته فحاول أن يستجدى معونة الغرب ولكن دون جدوى . ذلك أن فرنسا وانجلترا أنهكهما عندئذ الصراع الطويل الذى انتهى بضياع ممتلكات انجلترا فى القارة ، فى حين كانت ألمانيا دولة ممزقة لا تستطيع الوقوف على قدميها الا فى صعوبة ، مما ترك الامبراطور البيزنطى وحيدا دون معونة تذكر سوى مساعد يسيرة من البنادقة والجنوية وغيرهما من ذوى المصالح التجارية فى الشرق . ولكن حتى هذه المعونة التافهة لم تحل دون تحقيق المصير المحتوم فسقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ (٢) .

وهكذا زالت الدولة البيزنطية ، وحل سلاطين آل عثمان محل قياصرة الرومان فى القسطنطينية ، وفى المدينة التى بدأت أولى صفحات تاريخها بقنسطنطين الاول أو العظيم ، واختتمت آخر صفحاتها فى العصور الوسطى بقنسطنطين الحادى عشر (٣) . ومن الواضح أن أوربا المسيحية اهتزت كلها لسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين المسلمين ، وهى المدينة التى ظلت

---

(1) Atiya : op. cit. p. 467.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 695.
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 507-508.

بمثابة الدرع الواقى أو الحصن الشرقى الذى طالما حمى أوربا من الاخطار الاسيوية فى العصور الوسطى . ولكن الغرب الذى عجز عن مســـاعدة القسطنطينية فى محنتها قبل سقوطها ، لم يستطع أن يفعل لها شيئا بعد أن استولى عليها العثمانيون (١) . وسرعان ما تداعت بقية أجزاء العالم البيزنطى فسقطت أثينا فى أيدى العثمانين سنة ١٤٥٦ ، وفر حاكم المروة من وجههم سنة ١٤٦٠ ، كما استولوا على امبراطورية طرابيزون سنة ١٤٦١ بل قام السلطان محمد الثانى بغزو الصرب سنة ١٤٥٩ وولاشيا والبوسنة سنة ١٤٦٣ ، فى الوقت الذى أخذ الاسطول العثمانى يستولى على جزر بحر ايجه واحدة بعد أخرى (٢) . وعلى الرغم من أن البندقية حاولت وقف ذلك الخطر ، أما عن طريق القوة أو عن طريق الاتفاق مع العثمانيين ، الا أن هذه الجهود لم تحل دون استيلاء العثمانيين على نجروبونت (الجبل الاسود) وغزو ألبانيا . ولا شك فى أن سقوط القسطنطينية وما أعقبه من توسع العثمانيين سريعا فى شرق أوربا ووسطها كان من العوامل الاساسية التى اسهمت فى تغيير الصورة التى كانت عليها أوربا فى العصور الوسطى .

* * *

والحمد لله رب العالمين

---

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 2, p. 350.
(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 508.

جـــــدول (١)

قوائم البابوات والحكـــــام

أولا ـــ البابوات

ملحوظة : كتبت أسماء البابوات غير الشرعيين أو المضادين للبابوات الشرعيين (Anti-Popes) بالخط الاسود ووضعت بين أقـــواس

٣١٤ — ٣٣٥	سلفستر الاول	٥١٤ — ٥٢٣	هورميسداس
٣٣٦	مارك	٥٢٣ — ٥٢٦	حنا الاول
٣٣٧ — ٣٥٢	جوليوس الاول	٥٢٦ — ٥٣٠	فيلكس الرابع
٣٥٢ — ٣٦٦	لبريوس	٥٣٠ — ٥٣٢	بونيفيس الثانى
٣٥٥ — ٣٥٦	**(فيلكس الثانى)**	٥٣٠ —	**(ديوسكورس)**
٣٦٦ — ٣٨٤	داماسوس الاول	٥٣٢ — ٥٣٥	حنا الثانى
٣٦٦ — ٣٦٧	**(أورسكبتوس)**	٥٣٥ — ٥٣٦	أجابيتوس الاول
٣٨٤ — ٣٩٩	سيركيوس	٥٣٦ — ٥٣٨	سلفريوس
٣٩٩ — ٤٠١	أنسطسيوس الاول	٥٣٨ — ٥٥٥	فجليوس
٤٠٢ — ٤١٧	أنوسنت الاول	٥٥٥ — ٥٦١	بلاجيوس الاول
٤١٧ — ٤١٨	زوسيموس	٥٦١ — ٥٧٤	حنا الثالث
٤١٨ — ٤٢٢	بونيفيس الاول	٥٧٥ — ٥٧٩	بندكت الاول
٤١٨ — ٤١٩	**(أبولاليوس)**	٥٧٩ — ٥٩٠	بلاجيوس الثانى
٤٢٢ — ٤٣٢	كلستين الاول	٥٩٠ — ٦٠٤	جريجورى الاول العظيم
٤٣٢ — ٤٤٠	سكستوس الثالث	٦٠٤ — ٦٠٦	سبنيان
٤٤٠ — ٤٦١	ليو الاول العظيم	٦٠٧	بونيفيس الثالث
٤٦١ — ٤٦٨	هيلارى	٦٠٨ — ٦١٥	بونيفيس الرابع
٤٦٨ — ٤٨٣	سمبلكيوس	٦١٥ — ٦١٨	ديوسدديت الاول
٤٨٣ — ٤٩٢	فيلكس الثالث	٦١٩ — ٦٢٥	بونيفيس الخامس
٤٩٢ — ٤٩٦	جلاسوس الاول	٦٢٥ — ٦٣٨	هنريوس الاول
٤٩٦ — ٤٩٨	أنسطسيوس الثانى	٦٤٠	سفرينوس
٤٩٨ — ٥١٤	سماخوس	٦٤٠ — ٦٤٢	حنا الرابع
٤٩٨ — ٥٠٥	**(لاور نتيوس)**	٦٤٢ — ٦٤٩	ثيودور الاول

٦٤٩	٦٥٥	مارتن الاول
٦٥٥	٦٥٧	ايوجنيوس الاول
٦٥٧	٦٧٢	فيتاليان
٦٧٢	٦٧٦	ديوسدديت الثانى
٦٧٦	٦٧٨	دونس
٦٧٨	٦٨١	أجاثون
٦٨٢	٦٨٣	ليو الثانى
٦٨٤	٦٨٥	بندكت الثانى
٦٨٥	٦٨٦	حنا الخامس
٦٨٦	٦٨٧	كونون
٦٨٦	٦٨٧	**(ثيودور)**
٦٨٧	٧٠١	سرجيوس الاول
٦٨٧	٦٨٨	**(باسكال)**
٧٠١	٧٠٥	حنا السادس
٧٠٥	٧٠٧	حنا السابع
٧٠٨		سيسنيوس
٧٠٨	٧١٥	قنسطنطين
٧١٥	٧٣١	جريجورى الثانى
٧٣١	٧٤١	جريجورى الثالث
٧٤١	٧٥٢	زكريا
٧٥٢		ستفن الثانى
٧٥٢	٧٥٧	ستفن الثالث (الثانى)
٧٥٧	٧٦٧	بولس الاول
٧٦٧	٧٦٨	**(قنسطنطين الثانى)**
٧٦٨	٧٧٢	ستفن الرابع (الثالث)
٧٧٢	٧٩٥	أدريان الاول
٧٩٥	٨١٦	ليو الثالث
٨١٦	٨٦٧	ستفن الخامس (الرابع)
٨١٧	٨٢٤	باسكال الاول
٨٢٤	٨٢٧	أيوجنيوس الثانى
٨٢٧		فالنتين
٨٢٨	٨٤٤	جريجورى الرابع

٨٤٤	٨٤٧	سرجيوس الثانى
٨٤٧	٨٥٥	ليو الرابع
٨٥٥	٨٥٨	بندكت الثالث
٨٥٥		**(أنسطسيوس)**
٨٥٨	٨٦٧	نيقولا الاول
٨٦٧	٨٧٢	أدريان الثانى
٨٧٢	٨٨٢	حنا الثامن
٨٨٢	٨٨٤	مارينوس الاول
٨٨٤	٨٨٥	أدريان الثالث
٨٨٥	٨٩١	ستفن السادس (الخامس)
٨٩١	٨٩٦	فورموزس
٨٩٦		يونيفيس السادس
٨٩٦	٨٩٧	ستفن السابع (السادس)
٨٩٧		رومانوس
٨٩٧		ثيودر الثانى
٨٩٨	٩٠٠	حنا التاسع
٩٠٠	٩٠٣	بندكت الرابع
٩٠٣		ليو الخامس
٩٠٣		**(كرستوفر)**
٩٠٤	٩١١	سرجيوس الثالث
٩١١	٩١٣	أنسطسيوس الثالث
٩١٣	٩١٤	لاندو
٩١٤	٩٢٨	حنا العاشر
٩٢٨		ليو السادس
٩٢٩	٩٣١	ستفن الثامن(السابع)
٩٣١	٩٣٥	حنا الحادى عشر
٩٣٦	٩٣٩	ليو السابع
٩٣٩	٩٤٢	ستفن التاسع(الثامن)
٩٤٢	٩٤٦	مارينوس الثانى
٩٤٦	٩٥٥	أجابيتوس الثانى
٩٥٥	٩٦٤	حنا الثانى عشر
٩٦٣	٩٦٥	ليو الثامن
٩٦٤	٩٦٦	بندكت الخامس

٩٦٥ — ٩٧٢ حنا الثالث عشر
٩٧٣ — ٩٧٤ بندكت السادس
٩٧٤ ، ٩٨٤ — ٩٨٥ **(بونيفس السابع)**
٩٧٤ — ٩٨٣ بندكت السابع
٩٨٣ — ٩٨٤ حنا الرابع عشر
٩٨٥ — ٩٩٦ حنا الخامس عشر
٩٩٦ — ٩٩٩ جريجورى الخامس
٩٩٧ — ٩٩٨ **(حنا السادس عشر)**
٩٩٩ — ١٠٠٣ سلفستر الثانى
١٠٠٣ حنا السابع عشر
١٠٠٤ — ١٠٠٩ الثامن عشر
١٠٠٩ — ١٠١٢ سرجيوس الرابع
١٠١٢ — ١٠٢٤ بندكت الثامن
١٠١٢ **(جريجورى)**
١٠٢٤ — ١٠٣٢ حنا التاسع عشر
١٠٣٢ — ١٠٤٤ بندكت التاسع
١٠٤٥ سلفستر الثالث
١٠٤٥ بندكت التاسع
١٠٤٥ — ١٠٤٦ جريجورى السادس
١٠٤٦ — ١٠٤٧ كلمنت الثانى
١٠٤٧ — ١٠٤٨ بندكت التاسع
١٠٤٨ داماسوس الثانى
١٠٤٨ — ١٠٥٤ ليو التاسع
١٠٥٤ — ١٠٥٧ فكتور الثانى
١٠٥٧ — ١٠٥٨ ستفن العاشر
١٠٥٨ — ١٠٥٩ **(بندكت العاشر)**
١٠٥٧ — ١٠٦١ نيقولا الثانى
١٠٦١ — ١٠٧٣ أسكندر الثانى
١٠٦١ — ١٠٧٣ **(هزيوس الثانى)**
١٠٧٣ — ١٠٨٥ جريجورى السابع
١٠٨٠ — ١١٠٠ **(كلمنت الثالث)**
١٠٨٧ فكتور الثالث
١٠٨٨ — ١٠٩٩ أوريان الثالث

١٠٩٩ — ١١١٨ باسكال الثانى
١١٠٠ **(ثيودريك)**
١١٠٢ **(البرت)**
١١٠٥ — ١١١١ **(سلفستر الرابع)**
١١١٨ — ١١١٩ جلاسيوس الثانى
١١١٨ — ١١٢١ **(جريجورى الثامن)**
١١١٩ — ١١٢٤ كالكستس
١١٢٤ — ١١٣٠ هنريوس الثانى
١١٢٤ **(كلستين الثانى)**
١١٣٠ — ١١٤٣ أنونست الثانى
١١٣٠ — ١١٣٨ **(أنا كليتوس الثانى)**
١١٣٨ **(فكتور الرابع)**
١١٤٣ — ١١٤٤ كلستين الثانى
١١٤٤ — ١١٤٥ لوكيوس الثانى
١١٤٥ — ١١٥٣ أيوجنيوس الثالث
١١٥٣ — ١١٥٤ أنسطسيوس الرابع
١١٥٤ — ١١٥٩ أدريان الرابع
١١٥٩ — ١١٨١ أسكندر الثالث
١١٥٩ — ١١٦٤ **(فكتور الرابع)**
١١٦٤ — ١١٦٨ **(باسكال الثالث)**
١١٦٨ — ١١٧٨ **(كالكستس الثالث)**
١١٧٩ — ١١٨٠ **(أنوسنت الثالث)**
١١٨١ — ١١٨٥ لوكيوس الثالث
١١٨٥ — ١١٨٧ أوريان الثالث
١١٨٧ جريجورى الثامن
١١٨٧ — ١١٩١ كلمنت الثالث
١١٩١ — ١١٩٨ كلستين الثالث
١١٩٨ — ١٢١٦ أنوسنت الثالث
١٢١٦ — ١٢٢٧ هنريوس الثالث
١٢٢٧ — ١٢٤١ جريجورى التاسع
١٢٤١ كلستين الرابع
١٢٤٣ — ١٢٥٤ أنوسنت الرابع
١٢٥٤ — ١٢٦١ أسكندر الرابع

١٢٦١ — ١٢٦٤ أوربان الرابع
١٢٦٥ — ١٢٦٨ كلمنت الرابع
١٢٧١ — ١٢٧٦ جريجورى العاشر
١٢٧٦ أنوسنت الخامس
١٢٧٦ أدريان الخامس
١٢٧٦ — ١٢٧٧ حنا الواحدوالعشرون
١٢٧٧ — ١٢٨٠ نيقولا الثالث
١٢٨١ — ١٢٨٥ مارتن الرابع
١٢٨٥ — ١٢٨٧ هنريوس الرابع
١٢٨٨ — ١٢٩٢ نقولا الرابع
١٢٩٤ كلستين الخامس
١٢٩٤ — ١٣٠٣ يونيفيس الثامن
١٣٠٣ — ١٣٠٤ بندكت الحادى عشر
١٣٠٥ — ١٣١٤ كلمنت الخامس
١٣١٦ — ١٣٣٤ حنا الثانى والعشرون
١٣٢٨ — ١٣٣٠ **(نيقولا الخامس)**
١٣٣٤ — ١٣٤٢ بندكت الثانى عشر
١٣٤٢ — ١٣٥٢ كلمنت السادس
١٣٥٢ — ١٣٦٢ أنوسنت السادس
١٣٦٢ — ١٣٧٠ أوربان الخامس
١٣٧٠ — ١٣٧٨ جريجورى الحـــادى عشر

الانشقاق الدينى الأكبر

(أ) بابوات روما

١٣٧٨ — ١٣٨٩ أوربان السادس
١٣٨٩ — ١٤٠٤ يونيفيس التاسع
١٤٠٤ — ١٤٠٦ أنوسنت السابع
١٤٠٦ — ١٤١٥ جريجورى الثانىعشر

(ب) بابوات أفينون

١٣٧٨ — ١٣٩٤ كلمنت السابع
١٣٩٤ — ١٤٢٢ بندكت الثالث عشر

(جـ) بابوات مجمع بيزا

١٤٠٩ — ١٤١٠ أسكندر الخامس
١٤١٠ — ١٤١٥ حنا الثالثوالعشرون

* * *

١٤١٧ — ١٤٣١ مارتن الخامس
١٤٣١ — ١٤٤٧ أيوجنيوس الرابع
١٤٤٧ — ١٤٥٥ نيقولا الخامس
١٤٥٥ — ١٤٥٨ كالكستس الثالث
١٤٥٨ — ١٤٦٤ بيوس الثانى
١٤٦٤ — ١٤٧١ بولس الثانى
١٤٧١ — ١٤٨٤ سكستوس الرابع
١٤٨٤ — ١٤٩٢ أنوسنت الثامن
١٤٩٢ — ١٥٠٣ أسكندر السادس

ثانيا ــ الأباطرة والحكام

١ ــ أباطرة الدولة البيزنطية

٣٩٥ أركاديوس
٤٠٨ ثيودوسيوس الثانى
٤٥٠ ماركيان
٤٥٧ ليو الاول
٤٧٤ زينون
٤٩١ أنسطسيوس الاول
٥١٨ جستين الاول
٥٢٧ جستنيان الاول
٥٦٥ جستين الثانى
٥٧٤ طبريوس الثانى
٥٨٢ موريس
٦٠٢ فوقاس
٦١٠ هرقل
٦٤١ قنسطنطين الثانى
٦٤٢ قنسطانز الثانى
٦٦٨ قنسطنطين الثالث
٦٨٥ جستنيان الثانى
٦٩٥ ليونتيوس
٦٩٨ طبريوس الثالث
٧٠٥ جستنيان الثانى (مرة أخرى)
٧١١ فيلب
٧١٣ أنسطيوس الثانى
٧١٦ ثيودوسيوس الثالث
٧١٧ ليو الثالث الايسورى
٧٤١ قنسطنطين الخامس

٧٧٥ ليو الرابع
٧٨٠ قنسطنطين السادس
٧٩٧ ايرين
٨٠٢ نقفور الاول
٨١١ ستوراكيوس
٨١١ ميخائيل الاول
٨١٣ ليو الخامس الارمنى
٨٢٠ ميخائيل الثانى
٨٢٩ ثيوفيلوس
٨٤٢ ميخائيل الثالث
٨٦٧ باسيل الاول المقدونى
٨٨٦ ليو السادس
٩١٢ أسكندر
٩١٣ (حتى ٩٥٩) قنسطنطين السابع
٩١٩ (حتى ٩٤٤) رومانوس الاول
٩٥٩ رومانوس الثانى
٩٦٣ نقفور الثانى فوقاس
٩٦٩ حنا الاول شمشقيق
٩٧٦ باسل الثانى
١٠٢٥ قنسطنطين الثامن
١٠٢٨ (حتى ١٠٥٠) روى
١٠٢٨ رومانوس الثالث
١٠٣٤ ميخائيل الرابع
١٠٤١ ميخائيل الخامس
١٠٤٢ قنسطنطين التاسع
١٠٥٤ ثيودورا

١٠٥٦ ميخائيل السادس
١٠٥٧ أسحق الاول كومنين
١٠٥٩ قنسطنطين العاشر
١٠٦٧ رومانوس الرابع
١٠٧١ ميخائيل السابع
١٠٧٩ نقفور الثالث
١٠٨١ ألكسيوس الاول كومنين
١١١٨ حنا الثانى
١١٤٣ مانويل الاول
١١٨٠ الكسيوس الثانى
١١٨٣ أندرونيق الاول
١١٨٥ أسحق الثانى انجيلوس
١١٩٥ ألكسيوس الثالث
١٢٠٣ اسحق الثانى (مرة أخرى) ألكسيوس الرابع
١٢٠٤ الكسيوس الخامس (الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينيةفىأيدى الغربيين)

* * *

أباطرة نيقية

١٢٠٤ تيودور الاول لاسكاريس
١٢٢٢ حنا الثالث
١٢٥٤ تيودور الثانى
١٢٥٨ حنا الرابع

* * *

عودة الاباطرة البيزنطيين الى القسطنطينية

١٢٥٩ ميخائيل الثامن
١٢٨٢ أندرونيق الثانى
١٣٢٨ أندرونيق الثالث
١٣٤١ (حتى ١٣٧٦) حنا الخامس
١٣٤١ (حتى ١٣٥٥) حنا السادس
١٣٧٦ أندرونيق الرابع
١٣٧٩ (حتى ١٣٩١) حنا الخامس مرة أخرى
١٣٩٠ حنا السابع
١٣٩١ مانويل الثانى
١٤٢٥ حنا الثامن
١٤٤٨ قنسطنطين الحادى عشر
١٤٥٣ الفتح العثمانى — سقوط الامبراطورية

أباطرة القسطنطينية الغربيين (اللاتين)

١٢٠٤ بلدوين الاول
١٢٠٦ هنرى الاول
١٢١٧ بطرس
١٢١٧ بولاند
١٢٢١ روبرت
١٢٢٨ بلدوين الثانى
١٢٢٩ حنا برين

٢ ـ أباطرة الدولة الرومانية المقدسة وملوكها

٨٠٠ (حتى ٨١٤) شارلمان
٨١٣ (حتى ٨٤٠) لويس التقى
٨١٧ (حتى ٨٥٥) لوثر الاول
٨٥٠ لويس الثانى
٨٧٥ (حتى ٨٧٧) شارل الاصلع
٨٨١ (حتى ٨٨٧) شارل الثالث السمين
٨٩١ — ٨٩٤ جويدو
٨٩٢ — ٨٩٨ لامبرت
٨٩٦ — ٩٩٩ أرنولف
٩٠١ — ٩٢٨ لويس الثالث
٩١٥ — ٩٢٤ برنجار الاول
٩٦٢ — ٩٧٣ أوتو العظيم (الاول)
٩٧٣ — ٩٨٣ أوتو الثانى
٩٨٣ — ١٠٠٢ أوتو الثالث
١٢٠٠ — ١٠٢٤ هنرى الثانى
١٠٢٤ — ١٠٣٩ كونراد الثانى
١٠٣٩ — ١٠٥٦ هنرى الثالث
١٠٥٦ — ١١٠٥ هنرى الرابع
١١٠٥ — ١١٢٥ هنرى الخامس
١١٢٥ — ١١٣٨ لوثر الثانى
١١٣٨ — ١١٥٢ كونراد الثالث
١١٥٢ — ١١٩٠ فردريك الثانى بربروسا
١١٩٠ — ١١٩٧ هنرى السادس
١١٩٧ — ١٢٠٨ فيلب الثانى
١١٩٧ — ١٢١٨ أوتو الرابع
١٢١٢ — ١٢٥٠ فردريك الثانى
١٢٣٧ — ١٢٥٤ كونراد الرابع
١٢٤٧ — ١٢٥٦ وليم الهولندى
. . . . (فترة الشغور)
١٢٧٣ — ١٢٩١ رودلف الاول هابسبورج
١٢٩١ — ١٢٩٨ أدولف ناسو
١٢٩٨ — ١٣٠٨ البرت الاول
١٣٠٨ — ١٣١٤ هنرى السابع لكسمبرج
١٣١٤ — ١٣٤٧ لويس الرابع البافارى
١٣٤٧ — ١٣٧٨ شارل الرابع
١٣٧٨ — ١٤٠٠ ونسلاس
١٤٠٠ — ١٤١٠ روبرت
١٤١١ — ١٤٣٧ سجسموند الهنغارى
١٤٣٨ — ١٤٣٩ ألبرت الثانى .
١٤٣٩ — ١٤٩٣ فردريك الثالث
١٤٨٦ — ١٥١٩ مكسمليان الاول

٣ — ملــوك فرنسا

٨٤٠ — ٨٧٧ شارل الاصلع
٨٧٧ — ٨٧٩ لويس المتأتىء
٨٧٩ — ٨٨٢ لويس الثالث
٨٧٩ — ٨٨٤ كارلومان
٨٨٤ — ٨٨٧ شارل السمين
٨٨٨ — ٨٨٩ أودو
٨٩٣ — ٩٢٣ شارل الثالث البسيط
٩٢٢ — ٩٢٣ روبرت الاول
٩٢٣ — ٩٣٦ راؤول البرجندى
٩٣٦ — ٩٥٤ لويس الرابع
٩٥٤ — ٩٨٦ لوثر
٩٨٦ — ٩٨٧ هيو الاول كابيه
٩٩٦ — ١٠٣١ روبرت الثانى
١٠٤١ — ١٠٦٠ هنرى الاول
١٠٦٠ — ١١٠٨ فيلب الاول
١١٠٨ — ١١٣٧ لويس السادس (السمين)
١١٣٧ — ١١٨٠ لويس السابع
١١٨٠ — ١٢٢٣ فيلب أوغسطس
١٢٢٣ — ١٢٢٦ لويس الثامن
١٢٢٦ — ١٢٧٠ لويس التاسع (القديس)
١٢٧٠ — ١٢٨٥ فيلب الثالث
١٢٨٥ — ١٣١٤ فيلب الرابع
١٣١٤ — ١٣١٦ لويس العاشر
١٣١٦ حنا الاول
١٣١٦ — ١٣٢٢ فيلب الخامس (الطويل)
١٣٢٢ — ١٣٢٨ شارل الرابع
١٣٢٨ — ١٣٥٠ فيلب السادس فالوا
١٣٥١ — ١٣٦٤ حنا الثانى (الطيب)
١٣٦٤ — ١٣٨٠ شارل الخامس
١٣٨٠ — ١٤٢٢ شارل السادس
١٤٢٢ — ١٤٦١ شارل السابع
١٤٦١ — ١٤٨٣ لويس الحادى عشر
١٤٨٣ — ١٤٩٨ شارل الثامن

٤ — ملــوك ألمـــانيا

٨٤٠ — ٨٧٦ لويس الثانى (الالمانى)
٨٧٦ — ٨٨٠ كارلومان
٨٧٦ — ٨٨٢ لويس الصغير
٨٧٦ — ٨٨٧ شارل السمين
٨٨٧ — ٨٩٩ أرنولف
٨٨٩ — ٩١١ لويس الثالث (الطفل)
٩١١ — ٩١٨ كونراد الاول
٩١٩ — ٩٣٦ هنرى الاول الصياد
٩٣٦ — ٩٧٣ أوتو الاول العظيم

(أنظر قائمة أباطرة الدولة الرومانية المقدسة) .

٥ ــ ملوك انجلترا بعد الفتح النورماني

١٠٦٦	١٠٨٧	وليم الاول (الفاتح)	١٣٠٧	١٣٢٧	ادوارد الثانى
١٠٨٧	١١٠٠	وليم الثانى	١٣٢٧	١٣٧٧	ادوارد الثالث
١١٠٠	١١٣٥	هنرى الاول	١٣٧٧	١٣٩٩	ريتشارد الثانى
١١٣٥	١١٥٤	ستفن	١٣٩٩	١٤١٣	هنرى الرابع
١١٥٤	١١٨٩	هنرى الثانى	١٤١٣	١٤٢٢	هنرى الخامس
١١٨٩	١١٩٩	ريتشارد الاول	١٤٢٢	١٤٦١	هنرى السادس
١١٩٩	١٢١٦	حنا	١٤٦١	١٤٨٣	ادوارد الرابع
١٢١٦	١٢٧٢	هنرى الثالث	١٤٨٣	١٤٨٥	ريتشارد الثالث
١٢٧٢	١٣٠٧	ادوارد الاول	١٤٨٥	١٥٠٩	هنرى السابع (تيودور)

٦ ــ اللمبارديون فى ايطاليا

٥٦٨	٥٧٢	ألبوين	٦٧١	٦٨٨	برثارى (بركتاريت)
٥٧٢	٥٧٣	كليفو	٦٨٨	٧٠٠	جونبرت
٥٨٤	٥٩٠	أوثارى	٧٠٠	٧٠١	ليوتبرت
٥٩٠	٦١٦	أجيلولف	٧٠١	٧١١	أربرت الثانى
٦١٦	٦٢٦	أدالولد	٧١٢		انسبراند
٦٢٦	٦٣٦	أريولد	٧١٢	٧٤٣	ليتوبراند
٦٣٦	٦٥٢	روثارى	٧٤٣	٧٤٤	هلد براند
٦٥٢	٦٥٣	رودولد	٧٤٤	٧٤٩	راتشيس
٦٥٣	٦٦١	أربرت الاول	٧٤٩	٧٥٦	استولف
٦٦٢		جودبرت	٧٥٦	٧٧٤	دسدريوس
٦٦٢	٦٧١	جريمولد			

٧ ــ ملوك القوط الشرقيين فى ايطاليا

٤٩٣	٥٢٦	ثيودريك العظيم	٥٤٠	٥٤١	هلدباد
٥٢٦	٥٣٤	أثالريك	٥٤١		اراريك
٥٣٤	٥٣٦	ثيودهات	٥٤١	٥٥٢	توتيلا
٥٣٦	٥٤٠	وتيجيز	٥٥٢	٥٥٣	تيا

٨ — ملوك القوط الغربيين فى أسبانيا

٤٦٦	— ٤٨٣	ايورك		٦١٠	— ٦١٢	جوندمار
٤٨٣	— ٥٠٦	ألرك الثانى		٦١٢	— ٦٢٠	سينسيبون
٥٠٦	— ٥٢٢	أمالرك وثيودريك		٦٢٠	— ٦٢١	ركارد الثانى
٥٢٢	— ٥٣١	أمالرك (بمفرده)		٦٢٠	— ٦٣١	سونثيلا
٥٣١	— ٥٤٨	ثيديس		٦٣١	— ٦٣٦	سيسيناند
٥٤٨	— ٥٤٩	ثيوديجزل		٦٣٦	— ٦٤٠	خنزيلا
٥٤٩	— ٥٥٤	أجيلا		٦٤٠	— ٦٤١	تولجا
٥٥٤	— ٥٦٧	أثاناجلد		٦٤١	— ٦٥٢	خندازونث
٥٦٧	— ٥٧٢	ليوفا الاول		٦٥٢	— ٦٧٢	ركونث
٥٧٠	— ٥٨٦	ليو فيجلد		٦٧٢	— ٦٨٠	واميا
٥٨٦	— ٦٠١	ركارد الاول		٦٨٠	— ٦٨٧	ارويج
٦٠١	— ٦٠٣	ليوفا الثانى		٦٨٧	— ٧٠١	اجيكا
٦٠٣	— ٦١٠	وتريخ		٧٠١	— ٧١٠	ونزا
				٧١٠	— ٧١١	رودريك

٩ — الوندال فى أفريقية

٤٣٩	— ٤٧٧	جزريك		٤٩٦	— ٥٢٣	ثراساموند
٤٧٧	— ٤٨٤	هونريك		٥٢٣	— ٥٣١	هلدريك
٤٨٤	— ٤٩٦	جونثاموند		٥٣١	— ٥٣٤	جليمر

١٠ — الأمويون فى الأندلس

٧٥٥	عبد الرحمن الاول (الداخل)		٩١٢	عبد الرحمن الثالث (الناصر)
٧٨٨	هشام الاول (الراضى)		٩٦١	الحكم الثانى (المستنصر)
٧٩٦	الحكم الاول (المنتصر)		٩٧٦	هشما الثانى (المؤيد)
٨٢٢	عبد الرحمن الثانى (الاوسط)		١٠٠٨	محمد الثانى (المهدى)
٨٥٢	محمد الاول		١٠٠٩	سليمان (المستعين)
٨٦٦	المنذر بن محمد		١٠٠٩	محمد الثانى (للمرة الثانية)
٨٨٨	عبد الله بن محمد		١٠٠٩	هشام اثانى (للمرة الثانية)

١٠١٢ — ١٠١٦ سليمان (للمرة الثانية)
١٠١٦ على الناصر بن حمود
١٠١٧ عبد الرحمن الرابع (المرتضى)
١٠١٧ القاسم المأمون بن حمود
١٠٢١ يحيى المعتلى بن على بن حمود
١٠٢٢ القاسم (للمرة الثانية)
١٠٢٣ عبد الرحمن الخامس (المستظهر)
١٠٢٣ محمد الثالث (المستكفى)
١٠٢٥ يحيى بن على (للمرة الثانية)
١٠٢٧ — ١٠٣١ هشام الثالث (المعتد)

١١ — ملوك أرغونة

١١٠٤ — ١١٣٤ ألفونس الاول (المحارب)
١١٣٤ — ١١٣٧ راميرو
١١٣٧ — ١١٧٣ بترونيلا
١١٣٧ — ١١٦٢ ريموند برنجار
١١٦٢ — ١١٩٦ ألفونس الثانى
١١٩٦ — ١٢١٣ بطرس الثانى
١٢١٣ — ١٢٧٦ (جيمس الاول الفاتح)
١٢٧٦ — ١٢٨٥ (بطرس الثالث العظم)
١٢٨٥ — ١٢٩١ ألفونس الثالث
١٢٩١ — ١٣٢٧ جيمس الثانى
١٣٢٧ — ١٣٣٦ ألفونس الرابع
١٣٢٦ — ١٣٨٧ بطرس الرابع
١٣٨٧ — ١٣٩٥ حنا الاول
١٣٩٥ — ١٤١٠ مارتن
١٤١٢ — ١٤١٦ فردناد الاول
١٤١٦ — ١٤٥٨ ألفونس الخامس
١٤٥٨ — ١٤٧٩ حنا الثانى
١٤٧٩ — ١٥١٦ فردناند الثانى (الكاثوليكى)

١٢ — ملوك قشتاله

١٠٢٣ — ١٠٦٥ فردناند الاول(العظيم)
١٠٦٥ — ١٠٧٢ سانشو (شانجة) الثانى
١٠٦٥ — ١١٠٩ الفونس السادس
١١٠٩ — ١١٢٦ أوراكا
١١٠٩ — ١١٢٦ ألفونس السابع (الارغونى)
١١٢٦ — ١١٥٧ ألفونس الثامن
١١٥٧ — ١١٥٨ سانشو (شانجة) الثالث
١١٥٨ — ١٢١٤ الفونس التاسع
١٢١٤ — ١٢١٧ هنرى الاول
١٢١٧ — ١٢٥٢ فردناند الثالث (القديس)
١٢٥٢ — ١٢٨٤ ألفونس العاشر الحكيم
١٢٨٤ — ١٢٩٥ سانشو (شانجة) (الرابع)
١٢٩٥ — ١٣١٢ فردناد الرابع
١٣١٢ — ١٣٥٠ ألفونس الحادى عشر
١٣٥٠ — ١٣٦٩ بطرس (القاسى)
١٣٦٩ — ١٣٧٩ هنرى الثانى
١٣٧٩ — ١٣٩٠ حنا الاول
١٣٩٠ — ١٤٠٦ هنرى الثالث
١٤٠٦ — ١٤٥٤ حنا الثانى
١٤٥٤ — ١٤٧٤ هنرى الرابع
١٤٧٤ — ١٥٠٤ ايزابلا (الكاثوليكية)
١٤٧٤ — ١٥٠٤ فردناند الخامس الكاثوليكي

١٣ ــ مماكة بيت المقدس الصليبية

١٠٩٩ ــ ١١٠٠ جودفرى
١١٠٠ ــ ١١١٨ بلدوين الاول
١١١٨ ــ ١١٣٠ بتروين الثانى
١١٣٠ ــ ١١٤٣ فولك الانجوى
١١٤٣ ــ ١١٦٣ بلدوين الثالث
١١٦٣ ــ ١١٧٤ عمورى الاول
١١٧٣ ــ ١١٨٥ بلدوين الرابع
١١٨٥ ــ ١١٨٦ بلدوين الخامس
١١٨٦ ــ ١١٩٤ جاى لوزجنان
١١٩١ ــ ١١٩٢ (كونراد مونترات)
١١٩٢ ــ ١١٩٧ (هنرى شامبنى)
١١٩٧ ــ ١٢٠٥ عمورى الثانىلوزجنان
١٢٠٥ ــ ١٢٠٦ عمورى الثالث
١٢١٠ ــ ١٢٢٥ حنا برين
١٢٢٥ ــ ١٢٢٨ يولاند برين
١٢٢٨ ــ ١٢٥٠ فردريك الثانى
١٢٦٨ ــ ١٢٨٤ هيولوزجنان
(ملك قبرص)

١٤ ــ كام جنوب ايطاليا وصقلية

(ا) دوقات ابوليا

١٠٥٩ روبرت جويسكارد
١٠٨٥ ــ ١١١١ روجر الاول
١١١١ ــ ١١٢٧ وليم
١١٢٧ ــ ١١٢٩ روجرالثانى (العظيم)

(ب) كونتات صقلية

١٠٦١ ــ ١١٠١ روجر الاول
١١٠١ ــ ١١١٣ سيمون
١١١٣ ــ ١١٢٩ روجر الثانى (العظيم)

(جـ) ملوك صقلية

١١٢٩ ــ ١١٥٤ روجرالثانى(العظيم)
١١٥٦ ــ ١١٦٦ وليم الاول
١١٦٦ ــ ١١٨٤ وليم الثانى
١١٨٤ ــ ١١٩٤ تنكرد
١١٩٤ وليم الثالث
١١٩٤ ــ ١١٩٧ هنرى السادس
(الامبراطور)
١١٩٧ ــ ١٢٥٠ فردريك الثانى
(الامبراطور)
١٢٥٠ ــ ١٢٥٤ كونراد الاول
١٢٥٤ ــ ١٢٥٨ كونراد الثانى ؟
١٢٥٨ ــ ١٢٦٦ مانفرد
١٢٦٦ ــ ١٢٨٥ شارل الاول
(الانجوى)

(د) ملوك نابلى

١٢٦٦ ــ ١٢٨٥ شارل الاول
١٢٨٥ ــ ١٣٠٧ شارل الثانى
(الاعرج)
١٣٠٧ ــ ١٣٤٣ روبرت
١٣٤٣ ــ ١٣٨٢ جوانا الاولى
١٣٨٢ ــ ١٣٨٦ شارل الثالث
١٣٨٦ ــ ١٤١٤ لادسلاوس
١٤١٤ ــ ١٤٣٥ جوانا الثانية

(هـ) ملوك صقلية من بيت أرغونة

١٤٠٩ — ١٤١٢ مارتن الثانى
١٤١٢ — ١٤١٦ فردناند الاول
١٤١٦ — ١٤٥٨ ألفونس (الخامس)
١٤٥٨ — ١٤٧٩ حنا (الثانى)
١٤٧٩ — ١٥١٦ فردناند الثانى (الكاثوليكى)

١٥ — السلاطين العثمانيون

١٢٩٩ — ١٣٢٦ عثمان
١٣٢٦ — ١٣٦٠ أورخان
١٣٦٠ — ١٣٨٩ مراد الاول
١٣٨٩ — ١٤٠٣ بايزيد الاول
١٤١٣ — ١٤٢١ محمد الاول
١٤٢١ — ١٤٥١ مراد الثانى
١٤٥١ — ١٤٨١ محمد الثانى (الفاتح)
١٤٨١ — ١٥١٢ بايزيد الثانى
١٥١٢ — ١٥٢٠ سليم الاول

١٦ — ملوك بوهيميا

١٢٥٣ — ١٢٧٨ أوتوكار الثانى
١٢٧٨ — ١٣٠٥ ونسلاوس الثانى
١٣٠٥ — ١٣٠٦ ونسلاوس الثالث
١٣٠٦ — ١٣٠٧ رودلف الاول هابسبورج
١٣٠٧ — ١٣١٠ هنرى الكارنثياوى
١٣١٠ — ١٣٤٦ حنا لكسمبرج
١٣٤٦ — ١٣٧٨ شارل (الامبراطور)
١٣٧٨ — ١٤١٩ ونسلاوس الرابع
١٤١٩ — ١٤٣٧ سجسموند
١٤٣٧ — ١٤٣٩ ألبرت النمساوى
١٤٣٩ — ١٤٥٧ لادسلاوس
١٤٥٧ — ١٤٧١ جورج
١٤٧١ — ١٥١٦ لادسلاس
١٥١٦ — ١٥٢٦ لويس

١٧ — ملوك هنغاريا

٩٩٧ — ١٠٣٨ القديس ستفن (الاول)
. . . .
١٠٧٧ — ١٠٩٥ القديس لادسلاوس (الاول)
. . . .
١٢٠٥ — ١٢٣٥ أندرو الثانى
. . . .
١٣١٠ — ١٣٤٢ شارل الاول روبرت
١٣٤٢ — ١٣٨٢ لويس الاول العظيم
١٣٨٢ — ١٣٨٥ مارى
١٣٨٥ — ١٣٨٦ شارل الثانى
١٣٨٧ — ١٤٣٧ سجسموند
١٤٣٧ — ١٤٣٩ ألبرت النمساوى
١٤٤٠ — ١٤٤٤ لادسلاوس الاول البولندى
١٤٤٥ — ١٤٥٧ لادسلاوس الخامس
١٤٥٨ — ١٤٩٠ ماتياس كوفينيوس
١٤٩٠ — ١٥١٦ لادسلاوس الثانى
١٥١٦ — ١٥٢٦ لويس الثانى

١٨ — ملوك بولندا

٩٩٢ — ١٠٢٥ بولسلاس الاول

. . . .

١٢٩٥ — ١٣٠٥ ونسلاوس الاول
(البوهيمى)

١٣٠٥ — ١٣٠٦ ونسلاوس اثانى

. . . .

١٣٢٠ — ١٣٣٣ لادسلاوس الاول

١٣٣٣ — ١٣٧٠ كازمير الثالث
(العظيم)

١٣٧٠ — ١٣٨٢ لويس العظيم
(الهنغارى)

١٣٨٢ — ١٣٨٦ هدويج

١٣٨٦ — ١٤٣٤ لادسلاوس الثانى

١٤٣٤ — ١٤٤٤ لادسلاوس الثالث

١٤٤٥ — ١٤٩٢ كازمير الرابع

جـــدول (٢)

تسنين أهم الحوادث التاريخية

٣١ ق.م — ١٤ م		أوغسطس — تنظيم الامبراطورية الرومانية .
١٤	— ٣٧	الامبراطور طبريوس — القيام برحلات ضد الجرمان .
٩٨	— ١١٧	الامبراطور تراجان — غزو داشيا وأعالى بلاد النهرين .
١١٧	— ١٣٨	الامبراطور هادريان — ثورة اليهود فى فلسطين .
١٦٦	— ١٨٠	محاربة الماركونى والقواضى من قبائل الجرمان عند الدانوب .
١٨٠	— ١٩٢	الامبراطور كومودس — أول امبراطور رومانى يدفع الجزية للجرمـــان .
٢١١	— ٢١٧	الامبراطور كاراكلا — منح الجنسية الرومانية لجميع أهالى الولايات الاحرار .
٢١٤		القيام بحرب فاشلة ضد القوط — دفع الجزية لهم — ظهور اسم الالمانى .
٢٢٢	— ٢٣٥	الامبراطور اسكندر سفروس — ازدياد ضغط الجرمان على حدود الامبراطورية .
٢٢٦		تأسيس دولة بنى ساسان فى فارس .
٢٣١		الحرب بين الامبراطورية الرومانية والدولة الفارسية .
٢٥٠		أول اضطهاد رسمى للمسيحيين
٢٥١		هزيمة القوط فى تراقيا — مقتل الامبراطور دكيوس (٢٤٩ — ٢٥١)
٢٥٩		الفرس يجتاحون الشام — ازدياد خطر القوط والالمانى.
٢٦٣		الفرنجة يغزون غاليا .
٢٧٠	— ٢٧٥	أورليان يتخلى عن داشيا للقوط .
٢٧٥		تاكيتوس ينزل الهزيمة باللان فى آسيا الصغرى .

٢٧٥		ازدياد اعداد المرتزقة من الجرمان فى الجيش الرومانى .
٢٨٤	— ٣٠٥	دقلديانوس — اعادة تنظيم الحكومة عـلى أسس شرقية — القيام بحرب ناجحة ضد الفرس — دفع خطر الجرمان عن غاليا
٣٠٣		آخر وأعظم موجة اضطهاد يتعرض لها المسيحيون .
٣٠٥		الحرب الاهلية فى الامبراطورية — ظهور قنسطنطين .
٣١٢		انتصار قنسطنطين فى موقعة جسر ملويان .
٣١٣		مرسوم ميلان ، الاعتراف بالمسيحية .
٣٢٥		مجمع نيقية المسكونى الأول .
٣٣٠		نقل عاصمة الامبراطورية الى القسطنطينية .
٣٣٧	— ٣٦١	تقسيم الامبراطورية بين أبناء قنسطنطين الثلاثة .
٣٦١	— ٣٦٣	جوليان ينتصر للوثنية — مقتله أثناء محاربة الفرس .
٣٧٥		غزو الهون لأوربا — القوط الغربيون ينفذون الى مواشيا وتراقيا .
٣٧٨		موقعة أدريانوبل (أدرنة) — رجوح كفة الجرمان فى الامبراطورية الرومانية .
٣٧٩	— ٣٩٥	الامبراطور ثيودسيوس العظيم — مسالمة القوط — اصلاح الادارة .
٣٩٢		اضطهاد الوثنية — المسيحية تصبح الديانة الرسمية فى الامبراطورية .
٣٩٥		تقسيم الامبراطورية الرومانية الى شرقية (أركاديوس) وغربية (هونريوس) — ظهور ألرك أول ملوك القوط الغربيين — القوط يجتاحون مقدونيا واليونان .
٤٠١	— ٤٠٦	محاولات الجرمان للنفوذ الى ايطاليا — جهود ستليكو فى دفعهم .
٤٠٦		غزو الوندال والسويفى لغاليا .

٤٠٨ مقتل ستليكو — ألرك ينجح فى غزو ايطاليا .

٤١٠ — ٤١٥ استقرار القوط الغربيين فى جنوب غاليا حول تولوز .

٤٢٩ — ٤٣٩ غزو الوندال لافريقية .

٤٣١ مجمع أفسوس .

٤٤٣ أتيلا يغزو مقدونيا وتراقيا .

٤٤٣ البرجنديون يقيمون مملكتهم فى أعالى الرون والساؤون .

٤٥١ أتيلا يغزو غاليا — موقعة شالون .
مجمع خلقدونيا .

٤٥٣ أتيلا يغزو ايطاليا .

٤٥٣ وفاة أتيلا — تفكك امبراطورية الهون .

٤٥٥ الوندال يغيرون على روما وينهبونها .

٤٧٦ سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب على يد أوداكر .

٤٨١ كلوفس ملك الفرنجة الساليين (البحريين) .

٤٨٩ — ٤٩٣ ثيودريك ملك القوط الشرقيين يقيم مملكته فى ايطاليا .

٤٩٦ كلوفس يهزم الالمانى ويعتنق المسيحية فى مذهبها الغربى

٥٠٧ كلوفس يهزم القوط الغربيين فى فوليه — انسحاب القوط
كلية الى أسبانيا .

٥٢٧ — ٥٦٥ جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية — صدور مجموعة
القانونية — استرداد شمال افريقيا وايطاليا وجزء من
أسبانيا للامبراطورية — ازدياد خطر الفرس .

٥٣١ — ٥٧٩ كسرى الاول أنوشروان يحكم دولة الفرس .

٥٥٠ — ٥٥١ ظهور خطر الافار والبلغار فى حوض الدانوب الأدنى .

٥٦٨ غزو اللمبارديين لايطاليا .

٥٧٠ مولد محمد عليه الصلاة والسلام .

٥٧٢ تجدد الحرب بين الروم والفرس .

٥٩٠ — ٦٠٤ البابا جريجورى الاول العظيم .

٥٩٦		بعثة القديس أوغسطين التبشيرية الى انجلترا .
٦٠٣	— ٦٢٠	غزو الفرس للشام وفلسطين — استيلائهم على بيت المقدس سنة ٦١٤ .
٦١٠	— ٦٤١	هرقل امبراطور الدولة البيزنطية — استرداد الشام وفلسطين من الفرس .
٦١٦		الفرس يغزون مصر .
٦٢٢		هجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة .
٦٢٦		هجوم الفرس والافار على القسطنطينية .
٦٣٢		غزو العرب لبلاد الشام — استيلاؤهم على دمشق سنة ٦٣٤ .
٦٢٨	— ٦٤٠	فتح العرب لمصر .
٦٤١		موقعة نهاوند — غزو العرب لفارس .
٦٤٧	— ٧٠٩	المسلمون يحتلون شمال أفريقية .
٦٤٨		استيلاء المسلمون على قبرس .
٦٥٣		استيلاء المسلمون على رودس .
٦٥٤	— ٦٥٨	هجمات المسلمون على القسطنطينية .
٦٦١	— ٧٥٠	الخلافة الاموية فى دمشق .
٦٦٧		اول حصار عظيم يفرضه المسلمون على القسطنطينية .
٦٧٢	— ٦٧٣	هجوم عظيم آخر يقوم به المسلمون على القسطنطينية .
٦٧٢	— ٦٨٠	تفكك القوط الغربيين فى أسبانيا .
٧١١		المسلمون يفتحون أسبانيا .
٧١٧		أعظم هجوم يقوم به المسلمون على القسطنطينية . ليو الأيسورى يعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية . بداية الحركة اللاأيقونية .
٧١٨	— ٧٥٥	جهود القديس بونيفيس التبشيرية فى ألمانيا — تأسيس دير فولدا .
٧٢٣		استيلاء المسلمين على سردينيا .

٧٣٢ شارل مارتل ينزل هزيمة بالمسلمين فى جنوب غاليا (تورأوبواتييه) .

٧٥٠ قيام الخلافة العباسية فى بغداد .

٧٥٢ — ٧٥٣ ببين القصير — ابن شارل مارتل — يعزل آخر الملوك الميروفنجيين ويؤسس الاسرة الكارولنجية .

٧٥٦ فرار عبد الرحمن الداخل الى أسبانيا وتأسيس الدولة الاموية بالاندلس .
اعطاء رافنا للبابوية وتدعيم النفوذ العلمانى للبابوية .

٧٧١ شارل العظيم يستأثر بحكم دولة الفرنجة .

٧٨٦ — ٨٠٩ عهد هارون الرشيد — وصول الخلافة العباسية الى ذروتها .

٨٠٠ تتويج شارلمان امبراطورا فى روما .

٨١٤ وفاةشارلمان — اعتلاءلويس التقى عرش الامبراطورية

٨٢٣ الغزو الاسلامى لجزيرة كريت .

٨٤٣ اتفاق فردون — تقسيم امبراطورية شارلمان .

٨٤٥ أول هجوم للفيكنج على باريس .

٨٥٩ السويديون فى أوكرانيا .

٨٦٣ السويديون يؤسسون نوفجرود .

٨٦٥ أول هجوم يقوم به الروس على القسطنطينية .
المسلمون يغيرون على الاجزاء الجنوبية من ايطاليا .

٨٧٧ سقوط سيراكيوز (سراقوسة) عاصمة صقلية فى أيدى المسلمين .

٨٨٠ تأسيس مدينة كييف .

٨٨٦ — ٨٨٧ الهجوم الكبير الذى قام به الفيكنج على باريس .

٨٨٨ عزل شارل السمين .

٨٩١ موقعة ديل .

٨٩٣ — ٩٢٧ سيمون يؤسس امبراطورية البلغار الاولى .

٨٦٦ المجريون فى هنغاريا .

٩٠٤ المسلمون يغيرون على سالونيكا .

٩٠٧ الهجوم الروسى الثانى على القسطنطينية .

٩٠٩ قيام الخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية .

٩١٠ تأسيس دير كلونى .

٩١١ انتهاء البيت الكارولنجى فى ألمانيا .

٩١٢ اتفاقية سانت كلير — تأسيس دوقية نورمنديا .

٩١٢ — ٩٦٠ الخليفة عبد الرحمن الناصر فى الاندلس — وصول الخلافة الاموية بالاندلس فى ذروتها .

٩١٩ هنرى الصياد دوق سكسونيا يصبح ملكا على ألمانيا .

٩٣٣ هنرى الصياد ينزل هزيمة بالمجريين عند مرسبورج .

٩٣٦ أوتو الاول العظيم يعتلى عرش ألمانيا .

٩٤١ ثالث هجوم للروس على القسطنطينية .

٩٥٥ هزيمة المجريين عند أوجسبورج (ليخفيلد) .

٩٦٢ أوتو الاول يتوج امبراطورا رومانيا مقدسا .

٩٦٢ — ٩٧٥ انتصارات نقفور وحنا شمشقيق على المسلمين .

٩٨٧ هيوكابيه يعتلى عرش فرنسا — انتهاءالاسرةالكارولنجية

٩٨٨ فلاديمير أمير كييف يعتنق المسيحية فى مذهبها الشرقى .

١٠٠١ — ١٠٢٦ المسلمون يغزون الهند .

١٠١٦ بداية الغزو النورمانى لجنوب ايطاليا .

١٠١٨ السلاف يثيرون قلاقل فى ألمانيا .

١٠٣١ سقوط دولة بنى أمية بالاندلس .

١٠٣٧ اتحاد ليون وقشتالة فى أسبانيا .

١٠٣٨ الاتراك السلاجقة يغزون فارس .

١٠٤٣ رابع هجوم للروس على القسطنطينية .

١٠٤٦ مجمع شـــوترى .

١٠٥٣		النورمان فى ايطاليا يعلنون بيعتهم للبابوية .
١٠٥٨		طغرل بك يصبح سيد الموقف فى بغداد .
١٠٥٩		مجمع روما يقرر اعطاء الكرادلة وحدهم حق اختيار البابا
١٠٦٠	— ١٠٩٠	النورمان يغزون صقلية .
١٠٦٦		الفتح النورمانى لانجلترا .
١٠٧١		موقعة مانزكرت ، هزيمة البيزنطيين أمام السلاجقة .
١٠٧٢	— ١١٠٩	حركة التوسع المسيحية الكبرى فى أسبانيا تحت زعامة ألفونس السادس ملك قشتالة — سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ .
١٠٧٣		جريجورى السابع يتولى منصب البابوية .
١٠٧٤	— ١٠٨٥	توسع الاتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى — استيلاؤهم على دمشق سنة ١٠٧٥ وأنطاكية سنة ١٠٨٥ .
١٠٧٥		بداية النزاع بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلمانى .
١٠٧٧		الامبراطور هنرى الرابع يمتثل للبابوية فى كانوسا .
١٠٨٤		النورمان تحت زعامة روبرت جويسكارد ينهبون روما .
١٠٨٥		وفاة جريجورى السابع فى سالرنو .
١٠٨٦	— ١٠٩٢	المرابطون يغزون أسبانيا من شمال أفريقية .
١٠٩٠		اتمام الغزو النورمانى لجزيرة صقلية .
١٠٩٢		وفاة ملكشاه وانقسام امبراطورية السلاجقة .
١٠٩٥		مجمع كلير مونت .
١٠٩٧	— ١٠٩٩	الحملة الصليبية الاولى — موقعة ضوريليوم — قيام امارة الرها .
١٠٩٨		استيلاء الصليبيين على أنطاكية . تأسيس هيئة السترشيان .
١٠٩٩		استيلاء الصليبيين على بيت المقدس — تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية .
١١٠٩		الصليبيون يستولون على طرابلس ليقيموا فيها امارة صليبية .

١١١١		الاحتكاك بين هنرى الخامس والبابا باسكال الثانى .
١١١٥		وفاة ماتيلدا أميرة تسكانيا — واستيلاء هنرى الخامس فى العام التالى على تسكانيا .
١١١٨		تأسيس هيئة الفرسان الداوية .
١١٢٢		اتفاقية ورموز بين البابوية والامبراطورية .
١١٢٤		استيلاء الصليبيين على صور .
١١٤٦	— ١١٤٧	الحملة الصليبية الثانية . ثورة أرنلود البريشى فى روما .
١١٤٦	— ١١٥٦	المجدون يقضون على قوة المرابطين فى أسبانيا .
١١٥٢	— ١١٩٠	الامبراطور فردريك الاول بربروسا .
١١٥٤		هنرى الثانى يعتلى عرش انجلترا . نور الدين محمود يستولى على دمشق فى سبيل اقامة الجبهة الاسلامية المتحدة . فردريك الاول يقوم بحملته الاولى على ايطاليا .
١١٥٥		مؤتمر رونساجليا — الامبراطور فردريك الاولى يعقد هذا المؤتمر فى لمبارديا لتقرير حقوق الامبراطور على المدن اللمباردية .
١١٥٧		مجمع بسانسون — تجدد الصراع بين البابوية والامبراطورية .
١١٥٨		فردريك الاول يقوم بحملته الثانية على ايطاليا — محاصرة ميلان .
١١٥٩		فشل هنرى الثانى ملك انجلترا فى الاستيلاء علىتولوز .
١١٦٢		فردريك الاول يدمر ميلان .
١١٦٧		تكوين الحلف اللمباردى .
١١٧١		قوات نور الدين محمود تغزو مصر .
١١٧٦		قوات الحلف اللمباردى تنزل هزيمة ساحقة بالامبراطور فردريك الاول عند لينانو .

تأسيس هيئة الكارثوسيان
سلطنة قونية تنزل هزيمة ساحقة بالجيوش البزينطية .

١١٧٧ الهدنة بين فردريك الاول والمدن اللمباردية .

١١٧٨ استفحال خطر الهرطقة الأليبجنسية فى جنوب فرنسا .

١١٨٠ — ١٢٢٣ فيليب أوغسطس ملك فرنسا .

١١٨١ سقوط هنرى الاسد وتقسيم دوقية سكسونيا .

١١٨٣ اتفاقية كونستانس — الاعتراف بحرية المدن اللمباردية.

١١٨٥ النورمان يستولون على سالونيكا .

١١٨٦ ثورة بلغاريا — قيام الامبراطورية البلغارية الثانية .
زواج هنرى السادس من كونستانس وريثة صقلية .

١١٨٧ استيلاء صلاح الدين الايوبى على بيت المقدس بعد حطين .

١١٨٩ — ١١٩٢ الحملة الصليبية الثالثة — هلاك فردريك بربروسا — حصار عكا .

١١٩٠ تأسيس هيئة الفرسان النيتون .

١١٩٣ وفاة صلاح الدين .
أسر ريتشارد قلب الأسد فى أوستريا (النمسا) .

١١٩٥ موقعة الارك فى أسبانيا — المسلمون ينزلون الهزيمة بألفونس التاسع .

١١٩٨ — ١٢١٦ البابا أنونسنت الثالث .
براءة الاعتراف بجامعة باريس .

١٢٠٢ — ١٢٠٤ الحملة الصليبية الرابعة — قيام امبراطورية لاتينية فى القسطنطينية .

١٢٠٤ فيلب أوغسطس يغزو نورمنديا وآنجوومين وتورين .

١٢٠٥ البلغار ينزلون الهزيمة بامبراطور القسطنطينية بلدوين الأول

١٢٠٨ بداية الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين فى جنوب فرنسا .

١٢٠٩ تأسيس هيئة الفرانسسكان .

١٢١٢ حملة الاطفـــال الصليبية .
موقعة العقاب ، هزيمة ساحقة تحل بالمسلمين فى أسبانيا .

١٢١٤ موقعة بـــوفان .

١٢١٥ العهد الأعظم .
المغول بزعامة جنكيزخان يغزون الصين ويستولون على بكين .

١٢١٧ تأسيس هيئة الدومنيكان .

١٢١٩ الحملة الصليبية الخامسة تستولى على دمياط .

١٢٢١ المغـــول يغزون فـــارس .

١٢٢٤ تأسيس جامعة نابلى .

١٢٢٦ اعادة تشكيل الحلف اللمباردى ضد فردريك الثانى .

١٢٢٦ — ١٢٧٠ لويس التاسع ملك فرنسا .

١٢٢٧ وفاة جنكيز خـــان .

١٢٢٨ — ١٢٢٩ الحملة الصليبية السادسة — فردريك الثانى يسترد بيت المقدس . عن طريق اتفاقية مع السلطان الكامل .
الفرســـان التيتون فى بروسيا .

١٢٣٠ اتحاد ليون وقشتالة فى أسبانيا .

١٢٣١ فردريك الثانى يعطى براءة الحرية لبعض المقاطعات الســـويسرية .

١٢٣٦ غـــزو المغول لروسيا .

١٢٣٧ فردريك الثانى ينتصر على مدن الحلف اللمباردى عند

١٢٣٨ غزو استونيا .

١٢٣٩ هرمان فون سالزا يصبح مقدم الفرسان التيتون .
قيام دولة غرناطة الاسلامية بجنوب الاندلس .

١٢٤٠ فردريك الثانى يتوسع فى منح براءة الحرية لبعض المقاطعات السويسرية .
البابا يدعو لحملة صليبية ضد فردريك الثانى .

١٢٤١ المغول يغزون بولندا وسيلزيا .

١٢٤٤ المسلمون (الخوارزمية) يستردون بيت المقدس من الصليبيين .

١٢٤٥ مجمع ليـون .

١٢٤٨ — ١٢٤٩ الحملة الصليبية السابعة تحت زعامة لويس التاسع ملك فرنسـا .
ظهور محاكم التفتيش فى أسبانيا .

١٢٥٠ موقعة المنصورة — هزيمة لويس التاسع وأسره .
قيام دولة المماليك فى مصر والشام .
وفاة فردريك الثانى .

١٢٥٠ — ١٢٧٣ فترة الشغور فى التاريخ الالمانى .

١٢٥٣ أوتوكار الثانى ملك بوهيميا يستولى على أوستريا .

١٢٥٧ تأسيس مجمع (كلية) السوربون .

١٢٥٨ سقوط بغداد فى أيدى المغول .

١٢٦٠ موقعة عين جالوت — هزيمة المغول وارتدادهم عن الشام ومصر .
مانفرد — ملك الصلقليتين — يحتاج تسكانيا .

١٢٦١ سقوط الامبراطورية اللاتينية التى اقامها الصليبيون فى القسـطنطينية .

١٢٦٨ قيام المملكة الانجوية فى نابلى وصقلية .

١٢٧٠ وفاة لويس التاسع فى تونس .

١٢٧٢ — ١٣٠٧ ادوارد الاول ملك انجلترا .

١٢٧٣ — ١٢٩١ رودلف هابسـبورج .

١٢٧٨ موقعة مارخفيلد — تدعيم نفوذ أسرة هابسبورج فى النمسـا .

١٢٨٣ الفرسان التيتون يتمون فتح بروسيا .

١٢٩١ السلطان الاشرف خليل المماليكى يستولى على آخر المعاقل الصليبية الكبرى بالشام .

تأليف الحلف السويسرى من بعض المقاطعات الكبرى ضد آل هابسبورج .

١٢٩٣ — ١٢٩٨ الحرب بين ادوارد الاول ملك انجلترا وفيلب الرابع ملك فرنسا .

١٢٩٤ سلطنة قونية تتفتت بعد مقتل سلطانها مسعود الثانى على أيدى المغول .

١٣٠١ بداية النزاع بين البابا بونيفيس الثامن وفيلب الرابع ملك فرنسا .

١٣٠٢ موقعة كورتراى — الفلمنكيون يهزمون الجيوش الفرنسية .
أول مجلس لطبقات الامة فى فرنسا .

١٣٠٧ — ١٣١٤ القضاء على هيئة الفرسان الداوية .

١٣٠٨ — ١٣١٣ هنرى السابع لكسمبرج يصبح امبراطورا .

١٣٠٩ انتقال البابوية الى أفينون — بداية فترة الأسر البابلى .

١٣١٠ فرسان القديس حنا يغزون جزيرة رودس .

١٣١٢ فيليب الرابع يضم ليون الى فرنسا .

١٣١٥ موقعة مورجارتن — انتصار سويسرا على ليوبولد النمساوى .

١٣٢٠ هزيمة الفلاحين فى فرنسا .

١٣٢٦ العثمانيون يستولون على بروسه .

١٣٢٨ انتهاء أسرة كابيه فى فرنسا — قيام فيلب السادس فالوا فى الحكم .

١٣٣٠ استيلاء العثمانيين على نيقية .

١٣٣١ ستفن دوشان يعلن نفسه امبراطورا على الصرب .

١٣٣٣ كازمير العظيم يصبح ملكا على بولندا .

١٣٣٧ ادوارد الثالث يطالب بالتاج الفرنسى .

١٣٣٩ ادوارد الثالث ينزل على رأس قواته فى فلاندرز .

١٣٤٠ موقعة سلوى — انتصار بحرى لادوارد الثالث .

١٣٤١ العثمانيون يعبرون الى الشاطىء الاوربى .

١٣٤٢ — ١٣٨٢ لويس العظيم فى هنغاريا — اتحاد هنغاريا وبولندا عن طريق زواج ابنة لويس من لادسلاس الثانى ملك بــولندا .

١٣٤٤ استكشاف جزر ماديرا .

١٣٤٥ استكشاف جزر كانارى .

١٣٤٦ موقعة كريسى .
—
الفرسان التيتون يغزون استونيا .

١٣٤٧ الانجليز يستولون على كاليه (حتى سنة ١٥٥٨) .

١٣٤٨ تأسيس جامعة براغ .

١٣٤٩ الوباء الأســـود .

١٣٥٢ ملك دنقلة يعتنق الاسلام — انتشار الاسلام بسرعة على امتداد ساحل غانة .

١٣٥٥ تجدد الحرب بين انجلترا وفرنسا .

١٣٥٦ موقعة بواتييه .
المرسوم الذهبى الذى أصدره شارل الرابع .
وكاف يواصل نقده للكنيسة .

١٣٥٧ استيلاء العثمانيين على غاليبولى .

١٣٥٨ ثورات داخلية فى فرنسا .

١٣٦١ فرنسا تستولى على برجنديا .
العثمانيون يغزون أراضى (رومانيا) الحديثة — تأسيس فرقة الانكشارية .

١٣٦٤ — ١٣٨٠ شارل الخامس فى فرنسا .

١٣٦٤ جامعة كراكاو .

١٣٦٥ استيلاء العثمانيين على أدرنة .
البرتغاليون يستكشفون ساحل غانة .

١٣٦٨ جامعة جنيف .

١٣٦٩ — ١٣٨٠ تجدد الحرب بين انجلترا وفرنسا .

١٣٧٠ — ١٤٠٥ تيمورلنك يغزو فارس وأعالى الشام .

١٣٧١ انتصار العثمانيين عند المارتزا .

١٣٧٨ بداية الانشقاق الدينى الاكبر .

١٣٨٠ انتصار الروس على المغول .

١٣٨١ ثورة الفلاحين فى انجلترا .

١٣٨٢ انتصار الفرنسيين على الفلمنكيين عند روزيك .
وفاة لويس العظيم ملك هنغاريا — اتخاذ هنغاريا وبولندا .

١٣٨٤ وفاة وكلف .

١٣٨٦ تيمورلنك يغزو فارس .
السويسريون ينزلون الهزيمة بالهابسورجيين سمباخ .

١٣٨٩ موقعة كاسوفا ، العثمانيون ينزلون هزيمة كبرى بالصرب والبلغار والهنغاريين .

١٣٩٠ العثمانيون يحاصرون القسطنطينية لاول مرة .

١٣٩٣ سقوط امبراطورية البلغار الثانية .

١٣٩٤ الهدنة بين انجلترا وفرنسا .

١٣٩٥ تيمورلنك يغزو روسيا .

١٣٩٦ موقعة نيقوبوليس ، العثمانيون هزيمة ساحقة بالقوى الأوربية .

١٣٩٧ اتحاد كالمار بين الدانمرك والسويد والنرويج .

١٣٩٨ — ١٣٩٩ تيمورلنك يغزو الهند ويستولى على دلهى .

١٤٠٢ تيمورلنك ينزل هزيمة كبرى بالسلطان بايزيد العثمانى فى موقعة أنقرة .

١٤٠٥ وفاة تيمورلنك .

١٤٠٩ مجمع بيزا يعزل البابوات المتنازعين .

١٤١٠ موقعة تاننبرج — البولنديون ينزلون هزيمة كبــرى بالفرســـان التيتون .

١٤١٣ افتتاح مجمع كونستانس الدينى .

١٤١٥ احراق حنا هس بتهمة الهرطقة .
عزل البابوات المتنازعين .
موقعة أجينكورت (أزينكورت) .

١٤١٨ استيلاء الانجليز على باريس .
هنرى الملاح يقوم بأولى رحلاته .

١٤١٩ ثورة الهسيين فى بوهيميا (حتى سنة ١٤٣٦) .

١٤٢٠ معاهدة تروى فى فرنسا .

١٤٢٣ مجمع سينا .

١٤٢٤ مجمع سينا ينتقل الى بازل .
استيلاء العثمانيين على سالونيكا .

١٤٢٩ الانجليز يحاصرون أورليان — ظهور جان دارك .

١٤٣١ محاكمة جان دارك واعدامها .

١٤٣٦ الفرنسيون يستردون باريس .

١٤٣٨ مجمع سينا قراراً لمعارضة مجمع بازل .

١٤٤٣ ألفونس ملك أرغونة يستولى على نابلى — توحيد نابلى وصقلية تحت حكم أرغونة والقضاء على سيطرة البيت الأنجوى .

١٤٤٤ العثمانيون يحرزون انتصارا كبيرا عند فارنا .
البرتغاليون يشرعون فى مباشرة تجارة الرقيق .
شارل السابع ملك فرنسا يشن حربا على سويسرا ويحاصر زيورخ .

١٤٤٨ الفرنسيون يستردون أنجو ومين .

١٤٤٩ الفرنسيون يغزون نورمنديا .

١٤٥١ الفرنسيون يستردون جاسكونى .

١٤٥٢ — ١٤٥٥ اختراع الطباعة .

١٤٥٣ هزيمة الانجليز عند شاتيلون وضياع معظم ممتلكاتهم فى فرنسا ما عدا كاليه — نهاية حرب المائة عام .
سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين .

١٤٥٥ بداية حرب الوردتين فى انجلترا .

١٤٥٨ — ١٥٠٤ العثمانيون يجتاحون ولاشيا .

١٤٥٩ العثمانيون يغزون الصرب .
تأسيس جامعة بـــازل .

١٤٦٠ استيلاء العثمانيين على طرابيزون .

١٤٦٣ استيلاء العثمانيين على البوسنة .

١٤٦٦ خضوع الفرسان التيتون فى بروسيا لبولندا — صلح ثورن الثانى — ضم بروسيا الغربية الى بولندا .

١٤٧٥ السويسريون يغزون برجنديا .
جامعة بوردو .

١٤٨٠ نهاية نفوذ القبيلة الذهبية (المغول) فى روسيا .

١٤٨١ ضم بروفانس الى فرنسا .
العثمانيون يحاصرون رودس .

١٤٨٣ تحالف الولايات الايطالية ضد البندقية .
مولد روفائيل ومارتن لوثر .

١٤٨٥ هنرى السابع تيودور يعتلى عرش انجلترا .

١٤٨٦ بارثليمودياز يستكشف رأس الرجاء الصالح .

١٤٩١ — ١٤٩٢ سقوط دولة غرناطة الاسلامية فى أسبانيا .
كولمبس يقوم بأولى رحلاته لاستكشاف أمريكا .

١٤٩٤ الفرنسيون يغزون ايطاليا ويحتلون نابلى لمدة قصيرة
سافونا رولا فى فلورنسا .

١٤٩٨ فاسكو دى جاما يصل الى الهند عن طريق رأس الرجا
الصالح .

نصوص ووثائق

١ ـ الشعوب الجرمانية كما وصفها تاكيتوس

تاكيتوس مؤرخ رومانى عاش فى النصف الاخير من القرن الاول وأوائل القرن الثانى للميلاد (٥٥ ـ ١٢٠ م) تولى عدة مناصب فكان برايكتور سنة ٨٨ وقنصلا سنة ٩٧ وبروقنصل فى ولاية آسيا سنة ١١٢ . كتب عدة كتابات وكتب تاريخية ، منها كتابة فن الجرمان ، الذى يعتبر من أهم المراجع التى نقتبس منها معلوماتنا عن الشعــوب الجرمانية فى االدور الأول من أدوار تاريخها . وفيما يلى بعض ما كتبه تاكيتوس عن الجرمان .

* * *

اعتاد الجرمان فى أوقات السلم أن يقضوا بعض وقتهم فى الصيد ، ولكن الغالب هو أنهم كانوا يركنون الى الكسل مستسلمين للنوم أو اللهو ، حتى أكثرهم شجاعة وأقواهم بأسا اعتادوا أن يقضوا وقت السلم فى خمول ، تاركين شئون البيت والارض للنساء والمسنين من الرجال ، وغيرهم من فئات غير المحاربين . أما السادة منهمفيتسكعون أشباعالنزعةعدمالثباتوالاستقرار ، وهى نزعة طبيعية فيهم تجعلهم دائما يكرهون السلم ويحبون الحــركة والغزو . وقد جرت العادة فى دول الجرمان أن يكرموا زعمائهم باهدائهم أنصبة متباينة من الماشية أو القمح ، وهذه الهدايا كانت تكفى لأن يعيش عليها الزعماء فى وقت السلم دون حاجة الى العمل . على أن معظم الهدايا الثمينة كانت تقدم الى أولئك الزعماء من القبائل المجاورة ـ حكومات وأفراد ـ ، ومن هذه الهدايا الخيول والدروع المعدنية الفاخرة والحراب والســهام والسلاسل المضفرة وغيرها . وقد استطعنا نحن الرومان ـ أن نجعلهم الآن يقبلون النقود ويرتضونها مثلما يرتضون الهدايا السابقة .

ومن الحقائق المعروفة جيدا أن الجرمان لا يعيشون فى مدن مسورة ، وانهم يسكنون منازل غير متلاصقة ، متباعدة عن بعضها البعض مبعثرة فى

المروج أو الغابات حسبما يحلو لهم . وهم لايعيشون مثلنا ــ نحن الرومان ــ فى قرى ذات بيوت متقاربة أو متلاصـــقة ، وانما تحيط بكل بيت من بيوتهم مساحة كبيرة من الفضاء . وربما كان سر هذه الظاهرة هو تخوفهم من أن تلتهم النار بيوتهم جميعا فى حالة تلاصقها ، أو ربما يرجع السر الى ضعف مهارتهم فى شئون التخطيط والبناء . هذا الى أنهم لا يعرفون استخدام الحجر المصقول أو الآجر ، بل يستخدمون فى بناء بيوتهم الاخشاب بطريقة تدل على الخشونةو عدم العناية بحسن المظهر . ثم انهم يلطخون أجزاء من بيوتهم بالطمى ويحرصون على أن يتم ذلك بوضوح وعناية بحيث يبدو الطمى كنوع من الطلاء البراق فى شكل خطوط ملونة . هذا الى أنهم دأبوا على حفر كهوف ومغارات تحت سطح الارض ويغطون فتحاتها بأكوام كبيرة من السباخ والسماد، ليستخدمونها مأوى فى الشتاء أو مخازن يخفون فيها حاصلاتهم الزراعية ، بحيث أنه اذا اجتاح عدو بلادهم فانه ينهب الاشياء الظاهرة ولا تصل يده الى المخبوءات فى تلك الكهوف .

واعتاد الجرمان على اختلاف طبقاتهم أن يرتدوا عباءة لا يستر أجسامهم غيرها ويكتفون بها وبالجلوس قرب النار للتدفئة طوال اليوم . وربما امتاز الاغنياء بارتداء سروال داخلى فضفاضا مثل الذى يرتديه السارماشيون أو البارثيون وانما ضيقا محكما على الساقين . كذلك يرتدون جلود الحيوانات المفترسة ، دون أن يعنى أفراد القبائل القريبين من حدودنا بتفصيلها واحكامها، فى حين يبذل أفراد القبائل البعيدة عنا جهدا كبيرا فى احكام تفصيل ملابسهم المصنوعة من جلود الحيوانات نظرا لانهم يعتمدون عليها اعتمادا شبه تام لعدم وصول أنواع أخرى من الملابس اليهم . لذلك هم يعنون باختيار الحيوانات التى ينزعون جلودها ويرقعونها بقطع من جلود الحيوانات البحرية التى يلقى بها المحيط الكبير اليهم .، ولا تختلف ملابس النساء فى أسلوبها عن ملابس الرجال ، اللهم سوى أن النساء يرتدون عادة ملابس كتانية يزر كشنها باطار أحمر اللون ، ويرتدون من الداخل قمصان بدون أكمام ، مع ترك الجـــزء العلوى من الصدر مكشوفا .

ومع ذلك فان رباط الزوجية عند الجرمان يمتازبأنه رباط وثيق ، حتى أننا لا نجد ناحية جديرة بالاطراء فى عادات الجرمان أكثر من هذه الناحية . ذلك أن الجرمانى يقنع دون بقية طوائف البرابرة بزوجة واحدة ، باستثناء عدد قليل جدا ممن ينحدرون من أصل نبيل ، وهؤلاء بحكم أصلهم تلقـوا عروضا عديدة للزواج فصار للواحد منهم أكثر من زوجة . والزوجة عنـد الجرمان لا تقدم لزوجها هدية زواج وانما الزوج هو الذى يقدم هدية الزواج لزوجته ، ويتم ذلك فى حضور الوالدين والاقارب والاهل الذين يقـومون بفحص تلك الهدايا وتقييمها . وهذه الهديا لا تتناسب عادة وطبيعة المرأة ، كما أنها ليست من النوع الذى يمكن أن تتحلى به العروس ، وانما تتألف من زوج من الثيران وحصان مطهم ودرع وحربة وسيف وفى مقابل هـذه الهدايا يمكن للعريس أن يتسلم عروسه من أهلها وتقوم هى بدورها بتقديم بعض الهدايا من الاسلحة لزوجها .

ويعتبر الجرمان هذا الحفل بطقوسه الغامضة من أقدس روابطهم التى تباركها الآلهة . وفى ذلك الحفل الخـاص بالزواج تذكر الزوجة بأنهـا شريكة لزوجها فى أفراحه وأتراحه ، وأنها يجب أن تشاركه فى تحمـل المخاطر التى يتعرض لها ، حتى لا تظن أنها بعيدة عن دائرة الحرب والاخطار والمتاعب ، وهذا هو المقصود من هدية زواج الثيران التى ترمز الى السلم وفلاحة الارض من ناحية والفرس المطهم والاسلحة التى ترمز الى متاعب الحرب من ناحية أخرى . وعلى أساس هذه المفاهيم تعيش الزوجة مـع زوجها وتموت الى جانبه ، فهى منذ لحظة زواجها تسلمت أمانة عليها أن تسلمها بدورها كاملة غير منقوصة لاولادها وأحفادها .

وفى ظل اطار منيع من العفة والشرف يعيش الجرمان بعيدين عن حياة الخلاعة واغراء المظاهر . ولا يعرف الزوج أو الزوجة عند الجرمان تبادل الخطابات السرية الغرامية . وحالات جرائم الزنا قليلة ونادرة جـدا عند

الجرمان ، واذا حدثت فان العقوبة توقع فورا دون ابطاء فى نفس المكان الذى حدثت فيه الجريمة وبعد أخذ رأى الزوج الذى خانته زوجته . فيجمع أهل الزوجة ويحضر الزوج ليلقى أمامهم بزوجته الزانية وقد قص شعرها ونزعت عنها ملابسها ، وأمام الجمع الحاشد يلهب الزوج ظهر زوجته الخائنة بالسوط ، ويستمر الزوج يطارد زوجته الخائنة والسوط بيده فى طـــول القرية وعرضها . والزوجة التى تقع فى جرم الخيانة لا يمكن للمجتمع أن يغفر لها جرمها ، فتظل بعد ذلك دون زوج مهما يبلغ جمالهـــا وثراؤها وشبابها . ففى بلاد الجرمان لا يبتسم أحد للرذيلة ، ولا يطلقون أســـم « متاع الدنيا » على الغواية والضلال (١) .

وهذا المجتمع الجرمانى يعيش فى أحوال أفضل بكثير من التى نعيش ـــ نحن معشر الرومان ـــ فيها . ذلك أنه لا تتزوج عندهم الا المرأة العذراء ، فاذا تزوجت المرأة مرة فانها الاولى والاخيرة بالنسبة لها ، وبزوجها ارتبطت حياتها وآمالها الى النهاية . فالمراة لها زوج واحد ، مثلما لها جسد واحدة وحياة واحـــدة ، فلا تفكير فى أطماع أخـــرى ولا أحلام فى آمال جديدة ، وانما هى تحب زوجها وتتفانى فى الاخلاص له لانه يمثل حالة الزوجيـــة ورباطها الابدى المقدس .

وهكذا نجد العادات والتقاليد الحميدة فى المجتمع الجرمانى أجدى بكثير من القوانين المفروضة فى البلاد الاخرى .

---

(١) نلاحظ ما هناك فى كلام تاكيتوس من مقارنة غير صريحة بين نقاوة المجتمع الجرمانى الذى كان لا يزال عندئذ على بساطته ، وبين ما صار اليه المجتمع الرومانى بعد أن أخذت تتسرب اليه عوامل الفساد تدريجيا .

٢ ـ مرسوم ميلان سنة ٣١٣

الذى أصدره قنسطنطين وليكنيوس (١)

سبق أن قررنا أنه لا ينبغى منع حرية العبادة ، وانما تترك لكل فرد ـ حسبما يوجهه فكره وقلبه ـ حرية العبادة وفق الاسلوب الذى يروقه بمعنى أن المسيحيين وغيرهم من أهل الطوائف الاخرى مسموح لهم بمباشرة العقائد والاديان التى يختارونها . ولكن يبدو أن هذا القرار الذى سبق أن أصدرناه لم يراع تنفيذه بدقة نظرا لكثرة الحالات وتباين الأوضاع ، مما يستدعى أصدار هذا المرسوم .

عندما وصلنا نحن قنسطنطين أوغسطس وليكنيوس أوغسطس الى ميلان محاطين بالرعاية والعناية ، أخذنا نبحث كافة المسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا . ومن بين هذه المسائل التى تهم كثيرين وتعود بالنفع عليهم مسألة حرية العبادة . لذلك قررنا اصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الاخرى حرية اختيار ومباشرة العقيدة التى يرتضونها ، وبذلك نضمن رضاء جميع الآلهة والقوى السماوية علينا ، كما نضمن رضاء جميع رعايانا ممن يعيشون فى كنف سلطاننا . وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل الا يحرم أى فرد كائنا من كان ، من اختيار المسيحية ديانة له ، ولكل فرد الحرية فى اختيار الديانة التى تناسبه ، وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة التى تعودناها منه .

وقد رأينا أنه من المناسب أن نرسل أمرا امبراطوريا بقرارنا هذا ، وذلك لمحو الآثار التى ترتبت على خطاباتنا وقراراتنا السابقة بخصوص المسيحيين ويصبح من الآن كل واحد من أولئك المسيحيين المغلوبين على أمرهم حرا

---

(١) ليكنيوس هذا هو زوج أخت قنسطنين وشريكه فى حكم الامبراطورية ، دفعه الطمع الى دخول حرب أهلية ضد قنسطنين انتهت سنة ٣٢٣ بهزيمته .

فى مباشرة عقيدته دون أى عائق . وأول ما نحب أن نؤكده فى هذا المرسوم هو أن تعلموا أننا منحنا لأولئك المسيحيين سلطة مطلقة غير محدودة فى اختيار نوع العقيدة التى يرتضونها . وقد فعلنا هذا لكيلا نبدو فى صورة الراغبين فى الحط من قيمة أية عقيدة أو أية عبادة بأى حال من الاحوال .

وزيادة على ذلك فانه فيما يتعلق بالمسيحيين بوجه خاص فاننا عقدناالعزم على أن تعاد اليهم أماكنهم السابقة التى اعتادوا أن يجتمعوا فيها والتى سبق أن صودرت ، واذا ثبت أن بعضها اشتراه أفراد من الخزانة العامة فانها تسترد منهم دون اعطاء تعويض ما وتعاد الى أصحابها المسيحيين . فاذا تصادف وكانت بعض هذه الاماكن أهديت الى الغير ، فانها تسترد منهم فورا لتعاد الى أصحابها المسيحيين . فاذا اعترض أولئك الذين كانوا قد حصلوا على تلك الاماكن عن طريق الشراء أو الاهداء وطالبوا بشىء من عطفنا ، فعليهم أن يتقدموا بالتماسات الى الوالى ، ولكن بعد أن يسلموا ما بحوزتهم من ممتلكات الى أصحابها المسيحيين دون أى ابطاء .

ولما كان أولئك المسيحيون لا يمتلكون فقط تلك الاماكن والمبانى الخاصة بأفراد منهم ، وانما كانت الهيئة الخاصة بالمسيحيين (الكنيســة) تمتلك ممتلكات كثيرة سبق أن صودرت ، فاننا نأمر بمقتضى هذا المرسوم أن تسترد الهيئة الخاصة بالمسيحيين كل ما صودر من ممتلكاتها ويستطيع الافراد الذين استحوذوا على هذه الممتلكات أن يعتمدوا على كرمنا فى تعويضهم ولكن عليهم أن يسلموا ما معهم دون طلب تعويض ما من المسيحيين أنفسهم .

ولا شك فى أننا بقرارتنا هذه انما نبذل قصارى جهدنا لا من أجــل المسيحيين وهيئتهم الخاصة بهم فحسب ، بل أيضا من أجل السلام العام . وبهذه الطريقة سنظل نحظى بالعناية الالهية التى طالما لمسناها فى كثير من الشئون .

وهذا المرسوم الذى صدر من فيض كرمنا يجب أن يذاع على الجميع ، ويجب أن يحاط الجميع به علما وينشر فى كل مكان حتى لا يفوت أحــد الأخــذ به .

٣ ـ نظام القديس بندكت الديرى

أدى فساد تنظيم الحياة الديرية فى غرب أوربا الى انتشار كثير من المفاسد فى الاديرة . ومن أشهر المصلحين الديريين الذين عملوا على اصلاح الحياة الديرية القديس بندكت الذى وضع قانونا ديريا ساد الحياة الديرية فى غرب أوربا مدى عدة قرون وترك أثرا بالغ الاهمية لا فى حياة آلاف الرهبان الذين ضمتهم الاديرة البندكية فحسب ، بل أيضا فى تطور الحضارة الاوربية فى العصور الوسطى . وفيما يلى بعض فقرات من قانون القديس بندكت (حوالى سنة ٥٣٠ م) :

* * *

المادة ٢ : الصفات الواجب توافرها فى مقدم الدير :

يجب على الفرد الجدير بأن يكون مقدما على دير من الاديرة أن يذكر دائما مدى أهمية مركزه . وخطورة مهمته وسمو وظيفته ، لانه يمثل المسيح فى الدير ، ويستمد اسمه من قول الرسول « اذ لم تأخذوا روح العبودية أيضا للخوف ، بل أخذتم روح التبنى الذى بــه نصرخ يا آبا الاب » (١) . كذلك يجب على مقدم الدير الا يأمر أمرا أو يلقن شيئا منافيا لتعاليم الرب ، وانما يجب أن تكون جميع أوامره وتعاليمه متمشية مع قواعد العدل الالهى ... وعلى مقدم الدير أن يتبع أسلوبين فى تعليم المريدين والتلاميذ داخل الدير : فيلقن تعاليم الرب شفويا للمريد النابه الذى لديه الاستعداد للتعليم ، أما المريد الضعيف أو العنيد فيكون تعليمه عن طريق العمل والقدوة . ولا ينبغى أن يكون هناك تفاوت فى تقدير الاشخاص داخل الدير ، فلا يختص مقدم الدير بمحبته راهبا دون راهب آخر الا أن يبذ الراهب المحبوب أقرانه فى العمل الطيب والطاعة . ولا يصح داخل الدير أن يميز الراهب الحر

---

(١) رسالة بولس الرسول الى أهل رومية (٨ ، ١٥) والمقصود هنا أن مقدم الدير واسمه Abbot اشتق اسمه كلمة آبا Abba التى وردت فى النص .

الاصل على الراهب الذى أصله غير حر ، الا اذا كان هناك سبب آخـر وجيه يستدعى التفرقة ، لان الجميع — أحرارا وعبيدا — سواء فى محبة المسيح . وعلى مقدم الدير أن يتبع دائما قول الرسول « وبخ ، انتهر ، عظ بكل أناة وتعليم » (١) . بمعنى أنه يجب على مقدم الدير أن يكيف أسلوبه حسب الظروف ، فيستخدم التهديد تارة والمديح والاطراء تارة أخرى ، وحينا يظهر فى صورة الرئيس الحازم وحينا آخر يبدو فى صورة الاب الحنون ... حسبما تقضى الظروف ..

وقبل كل شىء يجب على مقدم الدير الا يظهر تهالكا على متاع الدنيا الفانى وزينتها الزائلة ، مما يجعله ينسى رعاية الارواح الموكل اليه رعايتها . وعليه أن يذكر دائما أنه مسئول عن تقديم بيان بصلاح الارواح المعهودة اليه .

المادة ٣ : استشارة الاخوان داخل الدير :

اذا حدث شىء هام داخل الدير وجب على مقدم الدير أن يعقد اجتماعا يضم جميع رهبان الدير ليستشيرهم فى الامر . وبعد أن يستمع المقدم الى آراء الاخوان يتخذ فى الموضوع ما يراه صالحا .

المادة ٤ : أساليب العمل الصالح :

للعمل الصالح أساليب ووسائل عديدة أولها محبة الرب بكل ما أوتيه الانسان من قلب وروح وقوة . وأن يحب الراهب لزميله ما يحب لنفسه . وأن لا يلجأ الانسان الى ارتكاب جرائم القتل أو الزنا أو السرقة ، والا يطمع ولا يشهد زورا ، وأن يحترم جميع الناس ، ولا يؤذى من لم يؤذيه . وأن يقتدى الفرد بالمسيح فى نكران الذات وصيانة الجسد ومحاربة الشهوات والاعراض عن متاع الدنيا والصبر على الصيام . وأن يطعم الفقير ويكسو العريان ويعود المريض ويدفن الميت ، ويساعد المكروب ويواسى الحزين . وأن يبتعد مـا أمكن عن مغريات الدنيا ، ولا يحب شـيئا أكثر من محبته

---

(١) رسالة بولس الرسول الثانية الي تيموثاوس (٤ ، ٢) .

المسيح ، ولا يستسلم للغضب ، ولا يحمل حقدا لأحد ، ولا يخدع ولا يغش ، ولا يتظاهر بالود ويحمل فى قلبه الكراهية ، ولا يتردد فى طريق الاحسان والمعروف . ويجب عليه الا يقسم لكيلا يحنث فى قسمه ، وأن يقول الصدق من صميم قلبه ، وألا يقابل الشر بالشر ، والا يأذى الغير ، وانما يقابل الاذى ويتحمله فى صبر وهدوء . وعليه أن يحب أعداءه ولا يقابل اللعنة بمثلها ، وأن يصبر على الاذى فى سبيل الشرف والواجب . ويجب عليه الا يكون متكبرا أو سكيرا أو نهما فى الاكل ، أو مستسلما للنوم والكسل ، أو كثير الشكوى أو نماما . وعليه أن يضع ثقته فى الله فاذا رأى فى نفسه شيئا طيبا عزاه الى الرب واذا رأى شيئا غير طيب عزاه الى نفسه . وعليه أن يخشى يوم الحساب ويعمل حسابا لعذاب النار ...

المادة ٥ : الطاعة :

والطاعة دون تردد هى أول درجات التواضع ، وأولى الصفات التى يتحلى بها أتباع المسيح المخلصون . لذلك يجب على أى راهب يتلقى أمرا من رئيسه أن يطيعه فورا كما لو كان الامر صادرا من الرب نفسه .

المادة ٦ : الهدوء :

ودعنا نتصرف كما يقول الرسول « قلت أتحفظ لسبيلى من الخطأ بلسانى احفظ لفمى كمامة فيما الشرير مقابلى . صمت صمتا سكت عن الخير فتحرك وجعى » (١) ومعنى هذا أنه اذا كان من الصواب عدم الكلام حتى فى الخير ، فما بالنا وعدم الكلام فى الشر خوفا من الوقوع فى الاثم ... لذلك نحن نمنع منعا باتا المزاح والكلام فيما لا يعنى ، ويحرم على الراهب حتى مجرد أن يفتح فمه للتفوه بمثل تلك الالفاظ .

المادة ٧ : التواضع :

جاء فى الكتاب المقدس « فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه

---

(١) سفر المزامير ٣٩ ، ١ - ٢

يرتفع » (١) وعلى هذا يجب على الاخوة والرهبان اذا أرادوا ان يرتفعوا الى أسمى درجات التشريف فى السماء أن يذكروا أن هذا التشريف لا يتحقق الا بالتواضع فى الدنيا . واذا أردنا أن نرقى الى السماء فليكن ذلك بواسطة سلم من أعمالنا مثل ذلك السلم الذى رآه يعقوب فى منامه وعليه ملائكة يصعدون وملائكة ينزلون (٢) .

المادة ٢١ : نواب مقدم الدير :

واذا كان الدير يضم عددا كبيرا من الرهبان ، فان للمقدم أن يختار بعض الأعضاء المعروفين بالتقوى وحسن الخلق ليكونوا نوابا له ورؤساء على الشعب التى ينقسم اليها أفراد الدير .

المادة ٢٢ : طريقة نوم الرهبان .

يجب أن ينام الرهبان فى أسرة منفصلة وفق النظام الذى يضعه لهم مقدم الدير ، بحيث تضاء شمعة فى قاعة النوم منذ المساء حتى طلوع الفجر . وعلى الرهبان أن يكونوا دائما أبدا مستعدين ، فيتركون فراشهم مباشرة عند سماع اشارة الاستيقاظ ، ويسرعون لاقامة الصلاة مع احتفاظهم بوقارهم واتزانهم . ويجب ألا تتجمع أسرة صغار السن من الرهبان فى مكان واحد وانمـــا توزع بين أسرة الكبار .

المادة ٣٩ : مقدار الطعام .

يكفى أن يتناول الراهب يوميا طبقين من الطعام المطهى أما فى الساعة السادسة أو التاسعة . وقد سمحنا بطبقين لاختلاف الاذواق حتى أن أيا لا يعجبه صنفا من الطعام يمكنه أن يشبع جوعه بالطبق الاخر . فاذا أمكن للدير الحصول على بعض الفاكهة أو الخضروات الطازجة ، فعندئذ يكون ذلك بمثابة الطبق الثالث الذى يقدم للرهبان . ويكفى كل راهب رطل واحد من الخبز يوميا سواء كان يتناول وجبة واحدة أو وجبتين . . أما فى حالة

---

(١) انجيل متى ٢٣ ، ١٢ .

(٢) « ورأى (يعقوب) حلما ، واذا سلم منصوبة على الأرض ورأسـها تمس السماء . وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها » (سفر التكوين ، لاصحاح الثامن والعشرون ، ١٢) .

الرهبان الذين يعهد اليهم بالنهوض بأعمال شاقة ، فان لمقدم الدير الحرية فى اعطائهم قدرا أكثر من الطعام ، بشرط ألا يسمح للرهبان أبدا باشباع شهواتهم عن طريق الاسراف فى الطعام أو الشراب .

المادة ٤٠ : مقدار الشراب :

ونرى أنه يكفى الراهب يوميا أن يتناول نصف كيل من النبيذ ، باستثناء حالات المرض فانه يمكن زيادة هذه الكمية . فاذا تطلبت حالة الجو أو طبيعة العمل الذى يقوم به الرهبان أو حرارة الصيف أو أية عوامل أخرى زيادة هذه الكمية فان الحرية متروكة لمقدم الدير ليتصرف كما يرى ، مع ملاحظة دائما عدم الاسراف حتى لا يثمل الرهبان .

المادة ٤٨ : العمل اليومى للرهبان :

يشكل الكسل أكبر أعداء الروح ، لذلك يجب أن يشغل الرهبان أنفسهم دائما أما بالعمل اليدوى أو بالقراءة الدينية . . فاذا كانت ظروف المنطقة التى فيها الدير ، أو اذا كانت احتياجات الدير نفسه تتطلب من الرهبان مزيدا من العمل والجهد — كما يحدث عادة فى وقت الحصاد — فانه يجب على الرهبان ألا يتذمروا ، لأن الرهبان الحقيقيين يتعيشون من عرق جبينهم كما كان يفعل الرسل والآباء والاوائل . وفى أثناء الصوم الكبير يجب أن يخصص الرهبان الوقت من شروق الشمس حتى الساعة الثالثة للقراءة الدينية ، وبعد ذلك ينصرف كل منهم لاداء العمل المنوط به حتى الساعة العاشرة . وعند بداية الصوم الكبير ، يصرف لكل راهب كتاب من مكتبة الدير ، وعليه أن يتم قراءة هذا الكتاب بأكمله خلال أيام الصوم . ويعهد الى واحد أو اثنين من كبار الرهبان بالمرور خلال الدير أثناء الساعات المخصصة للقراءة للتأكد من أن أحد الرهبان لا يقرأ وبذلك لا يتسبب فى اضاعة وقته فحسب ، بل يزعج ويضايق زملاءه .

المادة ٥٤ : تحريم استلام رسائل أو شىء آخر من خارج الدير :

لا يجوز لاى راهب أن يتلقى رسالة أو هدية أو أى شىء آخر سواء من أسرته أو أى فرد آخر خارج الدير ، كما أنه يحرم على الرهبان ارسال شىء خارج الدير ، الا بأذن من المقدم .

٤ ـ البابا جريجورى الثالث

يطلب معونة الفرنجة ضد اللمبارديين سنة ٧٣٩

وجدت البابوية نفسها وحيدة دون قوة تسندها عندما هاجمها اللمبارديون فى القرن الثامن . وكانت البابوية عندئذ فى عداء مع الامبراطورية البيزنطية ومن ثم لم تنتظر أن يساعدها امبراطور القسطنطينية ضد اللمبارديين . وهكذا تلفتت البابوية حولها بحثا عن معين فلم تجد سوى الفرنجة . ولكن شارل مارتل ربطته روابط صداقة باللمبارديين ، ولذلك أبى أن يقدم المعونة المطلوبة للبابوية واختار لنفسه عدم التدخل فى شئون ايطاليا .

وفيما يلى نص الرسالة التى بعث بها البابا جريجورى الثالث الى شارل مارتل طالبا مساعدته ضد اللمبارديين : ـ

* * *

من البابا جريجورى الى ابنه العظيم شارل

رأينا أنه من الضرورى ـ ونحن فى غمرة الأسى والألم أن نكتب اليك مرة أخرى ، لاعتقادنا فى اخلاصك للقديس بطرس أمير الرسل والحواريين ، وأنك بدافع الاخلاص والاجلال له ستستجيب لاوامرنا فى الدفاع عن كنيسة الله وشعبه المختار .

والواقع أننا الآن لا نستطيع أن نتحمل مزيدا من العنف والاذى على أيدى اللمبارديين ، بعد أن سلبوا القديس بطرس كل ممتلكاته ، حتى التى منحتها أنت وآباؤك له . هؤلاء اللمبارديون يكرهوننا ويعتمدون علينا لا لشىء سوى أننا نحتمى بك ونطلب معونتك ، ولنفس هذا السبب أيضا تعرضوا لكنيسة

القديس بطرس بالنهب والتخريب (١) . وسيحكى مبعوثنا اليك كثيرا من الهموم والآلام والمتاعب التى نتعرض لها من جزاء ذلك .

وتأكد ياولدى أنك ستحظى بعطف القديس بطرس — الآن وفى الحياة الأخرى بين يدى الله — اذا أنت قدمت معونة عاجلة لنا ولكنيسته ، وأن جميع الشعوب ستدين لك بالمحبة والتقدير والولاء اعترافا منها بجهودك فى الدفاع عنا وعن القديس بطرس وشعبه المختار ، لأنك بهذا العمل ستضمن ذكرى أبدية فى الدنيا وخلودا دائما فى الآخرة .

---

(١) لاحظ كيف يحاول البابا استثارة مارتل ضد اللمارديين عن طريق اختلاق أسباب وهمية للايقاع بين الطرفين .

٥ ـ شـــارلمــــان

كما وصفه اينهارت (٧٧٠ ـــ ٨٤٢)

ولد اينهارت حوالى ٧٧٠ وتلقى تعليمه فى مدرسة دير فولدا . وهناك فى الدير أظهر كفاية كبيرة جعلت مقدم الدير يرشحه لتولى احدى الوظائف فى بلاط شارلمان حوالى سنة ٧٩١ . وهناك فى بلاط شارلمان حقق اينهـــارت لنفسه مكانة كبيرة لأنه لم يكن مجرد رجل نظرى استوعب فى عقله بعض المعلومات التى جمعها من مكتبة الدير ، ولكنه حصل خلال فترة اقامته بالدير على خبرة عملية وهندسية واسعة . وقد كتب عدة كتابات على جـــانب كبير من القيمـــة والأهمية ، على رأسها كتابه « حياة شارلمان » الذى ضمنه كثيرا من الحقائق الفريدة ، بحكم اتصاله المباشر بشارلمان من ناحية واقامته على مقربة من القصر من ناحية أخرى . وفيما يلى بعض فقرات من هـــذا الكتـــاب .

يتضمن شارلمان فى حديثه بالفصاحة وسرعة البديهة ، فضـــلا عـــن أنه يستطيع أن يعبر عما يريد بمنتهى الوضوح . هذا الى أنه لم يكتف بلغته القومية ـــ وهى لغة الفرنجة ـــ وانما اختار أن يتحمل مشقة تعلم لغـــات أجنبية ، فأجاد اللغة اللاتينية الى درجة أنه يتحدث بها بنفس الطلاقة التى يتحدث بها لغته القومية . أما اليونانية ، فهو يفهمها أكثر مما يجيد نطقها . وقد بلغ من طلاقة لسانه أنه يبدو فى بعض الأحيان ثرثارا .

وقد أظهر شارلمان اهتماما كبيرا بالفنون الحرة (١) ، وأظهر كثيرا من

---

(١) يقصد بالفنون الحرة النحو والبلاغة ، والمنطق ـ وكانت تسمى المجموعة الثلاثية ، والحساب والهندسة والفلك والموسيقى ـ وكانت تسـمى المجموعة الرباعية (أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٢٥) .

الاحترام والتقدير لمن يقومون بتدريسها . وكان يتلقى دروس النحو على يد رجل متقدم فى السن اسمه بطرس الشماس البيزى ، فى حين كان يتلقى بقية العلوم على يد الكوين ، وهو شماس أيضا ينحدر من أصل سكسونى ، وفد من بريطانيا ، ويعتبر أعظم علماء عصره .

واعتاد شارلمان أن يقضى كثيرا من وقته مع الكوين يدرس على يديه البلاغة والبيان والجدل والمنطق ، وخاصة الفلك . كذلك تعلم شارلمان علم الحساب وأخذ يستعمله فى حساب حركات النجوم . كذلك حاول أن يتعلم الكتابة ولهذا الغرض اعتاد أن يضع تحت وسادته ألواح الكتابة والقراطيس والأقلام ليتدرب على الكتابة فى أوقات فراغه . ولكن يبدو أنه لم يحاول تعلم الكتابة الا فى سن متأخرة ، ولذلك لم يحرز تقدما كبيرا فيها .

وكان شارلمان على جانب كبير من التقوى والاخلاص للديانة المسيحية، التى شب عليها منذ طفولته . ويبدو هذا الشعور فى الكنيسة العظيمة الفائقة الحسن والجمال التى شيدها فى أكس لاشابل ، والتى زينها بالذهب والفضة وأكثر فيها من الشمعدانات والبوابات الكبيرة والصغيرة المصبوبة من النحاس الخالص . أما الرخام اللازم لتلك الكنيسة فقد جلبه من روما ورافنا ، لأنه كان من المتعذر عليه أن يحضر أعمدة الرخام المطلوبة لها من أى مكان آخر. واعتاد شارلمان طيلة حياته أن يواظب على أداء الصلاة بتلك الكنيسة فى الصباح والمساء والليل ، فضلا عن أوقات القداس . وقد عنى شارلمان عناية بالغة بأن تتم الصلوات فى الكنيسة على خير وجه وصورة ، وكان دائما يحذر حراس الكنيسة وخدمها من السماح ببقاء أية قاذورات داخل المبنى . وزود شارلمان تلك الكنيسة بمقدار ضخم من الاوانى الذهبية والفضية ، ووضع فيها عددا كبيرا من ملابس رجال الدين الفاخرة ، بحيث أن جميع رجال الدين حتى أقلهم درجة وهم حراس الأبواب — كانوا يرتدون الملابس الفاخرة التى أعدها لهم شارلمان فى أوقات الصلاة . هذا الى أن شارلمان

عدل طريقة التلاوة والترتيل بعد أن تعمق فى دراسة هاتين الناحيتين ، وان كان هو نفسه لا يرتل بمفرده جهارا ، وانما يكون ترتيله بصوت منخفض وسط حشد المصلين .

وأظهر شارلمان حرصا شديدا على مساعدة الفقراء عن طريق المعونات الاختيارية التى يسميها البيزنطيون « صدقات » . وبلغ من رغبة شارلمان فى مساعدة الفقراء أنه كان لا يقدم معونته لهم داخل بلاده ومملكته فقط ، وانما اعتاد أن يرسل الأموال عبر البحر الى الشام ومصر وشمال أفريقية وبيت المقدس واسكندرية وقرطاجة لمساعدة فقراء المسيحيين الذين ســـمع بسوء أحوالهم فى تلك البلاد . ولهذا السبب بالذات حرص شارلمان على ان ينمى علاقات الصداقة بينه وبين ملوك تلك البلاد فيما وراء البحر حتى يضمن حسن معاملة أولئك الملوك لرعاياهم من المسيحيين .

واذا كان شارلمان يحب جميع الأماكن المقدسة ويحترمها ، فان محبته لمقام القديس بطرس فى روما فاقت الوصف ، الأمر الذى جعله يصب الذهب والفضة والأحجار الكريمة صبا فى خزائن القديس بطرس بروما . واعتـــاد شارلمان أن يرسل هدايا لا تعد ولا تحصى الى البابوية ، ودأب طـــوال حكمه على النضال بكل قواه لتحقيق رغبة محببه الى قلبه هى اعادة مجد روما ونفوذها القديم اليها ورعاية كنيسة القديس بطرس لا عن طـــريق حمايتها فحسب ، بل أيضا عن طريق تزيينها واثرائها لتصبح بفضل أمواله التى أضفاها عليها فى مستوى أسمى من غيرها من كافة الكنائس . ولكن على الرغم من مدى اجلاله وتقديره لروما فانه طوال حكمه البالغ سبعا وأربعين سنة لم يتردد عليها سوى أربع مرات ليجدد أيمان الولاء ويؤدى الصلوات والدعوات .

على أن هذه لم تكن الأهداف الوحيدة من وراء آخر زياراته لروما . ذلك أن أهل روما كانوا قد ثاروا على البابا ليو وسملوا عينيه وقطعوا لســـانه، الى الاستنجاد بالملك (شارلمان) طلبا حمايته . وكان أن قصد شارلمان روما

ليعيد هيبة الكنيسة بعد أن جرحت جرحا بليغا ، ولتحقيق ذلك قضى شارلمان الشتاء بأكمله فى روما . وهذه هى المناسبة التى حصل شارلمان فيها على لقب امبراطور وأوغسطس ، وهو اللقب الذى كرهه كرها شديدا حتى أنه أكد عدم دخوله كنيسة القديس بطرس فى ذلك اليوم لو كان يعلم نية البابا فى اضفاء هذا اللقب عليه . ولكنه عندما حصل على هذا اللقب من البابوية تحمل فى هدوء العداء والحقد والسخط وغيرها من المشاعر التى أضمرها لـــه الأباطرة الرومان (١) . ولكن شارلمان استطاع بشهامته وسمو نفسه أن يتغلب على حقدهم وشعورهم الخبيث ، فأخذ يرسل اليهم السفارات والبعثات الواحدة تلو الأخرى ، ويدعوهم باخوته .

وبعد أن حصل شارلمان على اللقب لامبراطورى ، لاحظ وجود كثير من الثغرات والعيوب فى النظام القضائى لرعاياه ، لأن الفرنجة كانوا يخضعون لنظامين قضائيين مختلفين عن بعضهما فى بعض النواحى اختلافا كبيرا . لذلك عزم شارلمان على استكمال الجوانب الناقصة فى قوانين الفرنجـــة ، والتوفيق بينها بازالة المتناقضات فيها ، وتعديل أى خطأ فيها أو فى تفسيرها. على أنه لم يستطع أن يكمل مشروعه ، فاكتفى باصدار بعض المراسيم التى لم تتم . هذا الى أنه أصدر أوامره بجمع القوانين الخاصة بالشعوب التابعة التى خضعت لحكمه ، وذلك لتدوينها .

كذلك قام شارلمان بتدوين الأغانى القديمة الخاصة بشعوب البرابرة ، التى تغنوا فيها بأعمال ملوكهم وحروبهم ، وحفظها للذكرى والتاريخ . هذا فضلا عن نه بدأ وضع قواعد النحو الخاصة بلغة الفرنجة .

---

(١) المقصود بالأباطرة الرومان هنا أباطرة الدولة البيزنطية الذين عز عليهم احياء الامبراطورية فى الغرب على يد شارلمان ، مما أوجد امبراطورية أخـــرى جـديدة منافسة للامبراطورية الشرقية أو البيزنطية .

٦ - مرسوم البابا نيقولا الثانى

لتحديد طريقة انتخـاب البابوات

دأب هنرى الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة على التدخل فى شئون البابوية وعزل البابوات أو تعيينهم حسبما يحلو له . ولكن قيـــام حركة الاصلاح الكلونية أدى الى ازدياد الرغبة فى صيانة مركز البـــابوية ووضع الضمانات الكفيلة باستقلالها وسلامتها . وكان أن عقد البابا نيقولا الثانى (١٠٥٩ - ١٠٦١) مجمعا فى روما سنة ١٠٥٩ أصدر المرسوم التالى لتحديد طريقة اختيار البابا فى حالة شغور الكرسى البابوى :

* * *

بسم الاله الرب ، مخلصنا يسوع المسيح ، عقد هذا الاجتماع بقصر اللاتزن المعروف باسم كنيسة قنسطنطين فى روما فى شهر ابريل سنة ١٠٥٩، برآسة البابا الرسولى المبارك نيقولا وبحضور جمع من رؤساء الأســاقفة الاجلاء والاساقفة ومقدمى الاديرة والمسيحيين والشمامسة ..

تعلمون أيها الأخوة الأعزاء - وهذا أمر لا يخفى حتى على أصغركم درجة - كيف أنه حدث بعد وفاة سلفنا الطيب الذكر ستفن (العاشر) أن تعرض هذا الكرسى الرسولى - الذى أشغله اليوم بارادة الله - لكثير من المتاعب والآثام ، وكيف أنه قاسى من هجمات أرباب المال من السيمونيين ، حتى أخذ هذا العمود الكبير الذى يمثل ارادة الله يترنح ليقع ، وأوشكت سفينة القديس بطرس أن تغرق بفعل الأمواج المتلاطمة . ولهـذا اتخـذنا القرارات الآتية - باذن الله - لمنع أى خلل فى المستقبـل والحيلولة دون انتشار تلك المساوىء مما يهدد مكانة الكنيسة وسلطانها :

أولا : اذا توفى البابا يجتمع كرادلة روما وضواحيها السبع لانتخاب خليفة للبابا المتوفى ، وبعد ذلك يجتمعون ببقية الكرادلة والأساقفة لاقرار الانتخاب ثم يعرض الأمر بعد ذلك على بقية القساوسة وعامة الناس للتعبير عن رأيهم .

ثانيا : وحتى لا نسمح بانتشار الفساد ، رأينا أن كبار الكرادلة المعروفين بالتقوى والورع هم الذين يقومون وحدهم باختيار البابا الجديد ، فى حين يقر بقية رجال الدين ذلك الاختيار . ولاشك فى أن هذا النظام يمثل الوضع القانونى الصحيح الذى نادى به واتبعه آباء الكنيسة السابقون ، وفى ذلك يقول القديس ليو (البابا ليو الأول ٤٤٠ — ٤٦١) « لا يمكن أن نسمح بترسيم أسقف ما لم ينتخبه القساوسة ويقر انتخابهم عامة الناس من رعايا الأسقفية ثم يرسمه بقية الأساقفة فى الاقليم بموافقة رئيس الأساقفة» . ولكن لما كان الكرسى البابوى فى روما أسمى من جميع الكراسى الأسقفية الأخرى فى أنحاء الأرض ، وبالتالى لا يوجد رئيس فوق البابا ، فاننا جعلنا لكبار الكرادلة فى روما سلطة رئيس الأساقفة ، بمعنى أنهم هم الذين يقومون بانتخاب البابا ويرسمونه ويتوجونه .

ثالثا : يختار البابا الجديد من بين رجال كنيسة روما مادام يوجد فيها الشخص الصالح لتولى ذلك المنصب ، فاذا لم يوجد جاز اختيار البابا من كنيسة أخرى غير كنيسة روما .

رابعا : يراعى عند عملية اختيار بابا جديد احترام الحقوق التى سبق أن منحناها لولدنا المحبوب الامبراطور هنرى وخلفائه .

خامسا : اذا حدث ما عكر صفو الجو فى مدينة روما بحيث انتشر الفساد وتعذر اجراء انتخاب حر لاختيار بابا جديد ، فانه يجوز للكرادلة ورجال الكنيسة وبعض العلمانيين الانتقال الى أي مكان آخر يرونه مناسبا لاجراء عملية الانتخاب .

سادسا : فاذا حدثت فتنة أو اضطرابات بعد الانتخابات بحيث تعــذر على البابا الجديد المنتخب أن يتوج على كرسى البابوية ، كما هو متبع ، فان البابا المنتخب له الحق — على الرغم من ذلك — فى مباشرة جميع سلطــاته بوصفه رئيسا للكنيسة الرومانية ، كما يكون له الحق فى التصرف فى جميع دخلها ، مثلما فعل البابا جريجورى قبل ترسيمه .

ولكن اذا حدث وأختير أحد الافراد أو رسم أو توج نتيجــة لشغب أو ثورة ، وبغير الطريق الشرعى السابق ذكره ، فانه يجب طرده من كنيسة الله ، هو وأعوانه ومستشاريه ويظل ملعونا لعنة دائمة بوصفه عدو الله وكنيسته . ويتعرض لنفس العقوبة كل من يعترف به بابا أو ينحاز اليــه أو يستمع اليه أو يساعده بأية طريقة من الطرق .

وفى الوقت نفسه تحل اللعنة الأبدية ويعاقب بالحرمان من الكنيسة كل من يعارض مرسومنا هذا أو يعرقل تنفيذه أو يسبب ضررا للكنيسة الرومانية . ان مثل هذا الشخص يدخل فى عداد الأشرار الذين لن تقوم لهم قائمة يــوم الحساب ، وينبغى أن يحس دائما بثقــل غضب الاله الأب والابن والروح القدس ، وأن يقاسى فى هذه الحياة الدنيا — والحياة الأخرى أيضــا — من غضب القديسين بطرس وبولس لأنه آذى كنيستيهما . ولينطبق عليه ما جاء فى الكتاب المقدس « لتصر دارهم خرابا وفى خيامهم لا يكن ساكن (١) » .

وأشهد أننى — أنا نيقولا أسقف الكنيســة الكاثوليكية الرســولية المقدسة — وقعت هذا المرسوم الذى أصدرته بنفسى ، كما سبق ذكره . . .

---

(١) سفر المزامير (٦٩ ، ٢٥) .

٧ ـ قرار مجمع روما سنة ١٠٧٤

لتحريم السيمونية وزواج رجال الدين

عقد البابا جريجورى السابع مجمعا دينيا سنة ١٠٧٤ حرم شراء وبيع الوظائف الكنسية وأنزل اللعنة بكل من يتاجر فى وظيفة من وظائف الكنيسة كما حرم على رجال الكنيسة الزواج ومنع الناس من الاستماع الى رجال الدين المتزوجين . وفيما يلى نص هذا القرار :

* * *

يعتبر مفصولا من عمله ولا يجوز له أن يجرى طقوسا دينية كل من توصل الى أية وظيفة أو منصب فى الكنيسة عن طريق السيمونية . وكذلك كل من حصل على أسقفية عن طريق دفع المال يحرم من رآسة تلك الكنيسة. ومن الان فصاعدا يحرم بيع وشراء جميع الوظائف والمناصب الكنيسية .

أما رجال الكنيسة المتزوجون ، فيحرم عليهم أن يلقوا قداسا أو موعظة أو ينهضوا بأى عمل دينى . فاذا عصوا هذا الأمر فانه يحرم على الناس الاستماع اليهم ، حتى يشعروا بأنهم باؤوا بغضب من الله وسخط من الناس لأنهم لم يحترموا كرامة وظائفهم .

٨ - قرار الامبراطور هنرى الرابع
بعزل البابا جريجورى السابع
٢٤ يناير ١٠٧٦

من هنرى - الذى لم يصبح ملكا عن طريق الاغتصاب وانما عن طريق رسامة الهية مقدسة - الى هلدبراند الذى ليس بابا وانما دعى من أدعياء الرهبـــان .

هذه هى التحية التى تستحقها لأنك لم تتول منصبا فى الكنيسة دون أن تجعل منه مصدرا للاضطراب ، ولعنة على المسيحيين ، بدلا من أن يكون بركة وسندا لهم .

وسوف نكتفى بالحالات الواضحة - وهى قليل من كثير - فنقول انك لم تجـــرؤ على المســـاس بمسيح الرب ورؤســـاء الاساقفة والاساقفـــة والقساوسة فحسب ، ولكنك احتقرتهم وسببتهم كما لو كانوا أتباعا جهلاء غير جديرين بمعرفة ما يفعله سيدهم . وقد فعلت هـــذا لتكتسب محبـــة الدهماء من الناس ، فأعلنت أن الأساقفة لا يعرفون شيئا وأنك تعرف كل شىء ، ولكن اذا كنت قد أوتيت فعلا ذلك القدر من الذكاء فانك تعمل على استغلاله فى الهدم وليس فى البناء . ولهذا نعتقد أن القديس جريجورى - الذى انتحلت اسمه - انما كان يعنيك عندما قال ان « قلب الاسقف يتضم ويكبر بكثرة الرعايا ، فيظن نفسه اقوى من جميع الناس » . وقد تحملنـــا كل هذا منك بسبب اجلالنا للوظيفة البابوية ولكنك أخطأت فاعتقـــدت أن تواضعنا خوف منك ، وتجاسرت على مهاجمة نفوذنا الملكى والامبراطورى الذى تلقيناه من الله مباشرة . بل لقد هددت بحرماننا من نفوذنا الامبراطورى كما لو كنا قد تسلمنا ذلك السلطان منك وليس من الله ، وكمـــا لو كانت الامبراطورية والمملكة تحت تصرفك وملك ارادتك لاتصرف ارادة الله . ان سيدنا يسوع المسيح دعانا لتولى حكم الامبراطورية ولكنه لم يدعك مطلقـــا لحكم الكنيســـة .

أما الطريق الذى سلكته أنت لتحقيق مكاسبك ، الكنسية فهو كمـــا يلى : فأنت عن طريق الخداع حصلت على المال وعن طريق المـــال حصلت

على الاتباع ، وعن طريق الأتباع حققت قوة السيف ، وعن طريق قــوة السيف حققت وصولك وبقاؤك فى الكرسى البابوى ، وهو المفروض فيه أن يكون كرسى السلام ولكنك من كرسى السلام طردت السلام !!

ذلك أنك حرضت الرعايا على التمرد ضد أساقفتهم وهم حكــامهم الشرعيون ، وذلك بعد أن علمتهم كيف يحتقــرون أســاقفتهم .، وأعطت العلمانيين سلطانا فوق قساوستهم مما جعل العلمانيين يسيئون الى القساوسة ويعزلونهم بينما عين الأساقفة أولئك القساوسة فى مناصبهم ليرعوا الناس ويعلمونهم . ثم أنك هاجمتنى ، وأنا الرجل المتواضع الذى باركه الله ليحكم، ووفقا لتعاليم الآباء لا يمتلك أحد سوى الله سلطة محاكمتى ، ولا يمكن أن أعزل من منصبى الا لجريمة الخيانة والكفر . ذلك أن الآبــاء المقدسين لم يجرؤوا على اصدار حكم العزل على الامبراطور جوليان المرتد وتركوه ليحاسبه الله . والقديس بطرس نفسه قال « خافوا الله ، اكرموا الملك » (١) .

ولكنك يامن لا تخشى الرب لم تكرمنى ، أنا الذى عينه الرب . والقديس بولس الذى أنزل اللعنة حتى بملاك من السماء مادام يأتى بتعاليم غير التعاليم الصحيحة ، لم يستثن مثلك ليسمح لك بتلقين تعاليم خاطئة . ذلك أن القديس بولس يقول « ولكن أن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثيما (٢) » .

اترك اذا ذلك الكرسى الرسولى الذى توصلت اليه عن طريق العنف لأنك ملعون من القديس بولس بسبب مبادئك الكاذبة ونحن وأساقفتنا ندينك بسبب حكمك الملىء بالشرور . وليل محلك فى كرسى القديس بطرس رجل آخر ، رجل لا يستغل الدين ســتارا للعنف وانمــا يقوم بتلقين تعــاليم بطرس ، أمير الرسل . اننى — أنا هنرى الملك بفضل الله — ومعى جميــع الأساقفة ، أقولها لك « انزل ، اترك منصبك ، ملعونا الى الأبد » ..

---

(١) رسالة بطرس الأولى (٢ ، ١٧) .

(٢) رسالة بولس الى أهــل غلاطية (١ ، ٨) .

٩ ــ الارادة البابوية (حوالى سنة ١٠٩٠م)

كان المظنون حتى وقت قريب أن البابا جريجورى السابع هو الذى كتب أو أملى ما يعرف باسم الأوامر البابوية أو الارادة البابوية وهى مجموعة آراء ونظريات قصد بها اظهار سمو البابوية وعظم مكانتها وسلطانها . ولكن ثبت أخيرا أن ما تحتويه هذه الوثيقة من مواد لم يكتبها البابا جريجورى السابع بنفسه وانما نسبت اليه . ومهما يكن من أمر فهى تعبر تعبيرا صادقا عــن آراء ونظريات قصد بها اظهار سمو البابوية وعظم مكانتها وسلطانها . ولكن ثبت أخيرا أن ما تحتويه هذه الوثيقة من مواد لم يكتبها البابا جريجورى السابع بنفسه وانما نسبت اليه . ومهما يكن من أمر فهى تعبر تعبيرا صادقا عن آراء ذلك البابا ، بل انها مستمدة من مبادئه وأقواله . وفيما يلى بعض فقرات مختارة من تلك الوثيقة المعروفة باسم الارادة البابوية :

١ ــ الرب وحده هو الذى أسس الكنيسة الرومانية .

٢ ــ سلطة البابا وحده هى التى تسمى بحق « سلطة عالمية » .

٣ ــ البابا وحده له الحق فى تعيين الأساقفة أو عزلهم .

٤ ــ يتولى مندوب البــابا ــ حتى ولو كانت مرتبته الكنسيــة ــ صغير ــ رآسة الأساقفة فى أى مجمع ، وله سلطة اصدار الأحكام بعزلهم.

٥ ــ للبابا الحق فى اصدار أحكام غيابية بعزل الأساقفة .

٦ ــ لا ينبغى لشخص أن يعاشر أو يجاور فى سكن واحد فردا أصدر البابا ضده قرار الحرمان .

٧ ــ للبابا وحده الحق فى اصدار قوانين جديدة وفقا لما تمليه الظروف وتتطلبه الضرورة ، وله كذلك الحق فى انشاء أسقفيات جديدة ، وفى انشاء دير ، واصدار قوانين كنسية ، وله الحق فى تفتيت أسقفية كبيرة وتقسيمها الى أكثر من واحدة ، وبالعكس له الحق فى توحيد عدة أسقفيات صــغيرة فقيرة ليجعل أسقفية غنية كبيرة .

٨ ــ للبابا وحده الحق فى استعمال الشعار الامبراطورى .

٩ ــ جميع الأمراء والحكام العلمانيين عليهم ن يقبلوا قدم البــابا وحده .

١٠ــ لا يذكر فى الكنائس الا اسم البابا وحده .

١١ــ أن لقب البابوية خاص بالبابا وحده .

١٢ـ البابا له السلطة فى عزل الأباطرة .

١٣ـ للبابا الحق ـ فى حالة الضرورة ـ فى نقل الأساقفة من كرسى أسقفى الى آخر .

١٤ـ للبابا الحق فى ترسيم أى فرد فى أى قسم من أقسام الكنيسة ليجعل منه أسقفا .

١٥ـ أى شخص يرسمه البابا أسقفا له الحق فى السيطرة على كنيسة أخرى دون أن يباشر عمله كقسيس فيها ، ولا يجوز لهذا الفرد أن يرقيه أسقف آخر الى درجة أعلى .

١٦ـ لا يجوز الدعوة لعقد مجمع دينى عام دون اذن من البابا .

١٧ـ لا تصبح قرارات أى مجمع دينى قانونية دون تصديق البابا عليها .

١٨ـ القرارات التى يصدرها البابا لا يمكن لأى فرد الغاءها ، فى حين يستطيع البابا الغاء القرارات التى يصدرها أى فرد آخر .

١٩ـ لا يستطيع أى انسان أن يحاكم البابا .

٢٠ـ لا يجوز الاعتداء على أى فرد يحتمى بالكرسى البابوى .

٢١ـ جميع القضايا الهامة الخاصة بأية كنيسة تحول للكنيسة الرومانية ليفصل فيها البابا .

٢٢ـ الكنيسة الرومانية لم تخطىء مطلقا ولن تخطىء أبدا وذلك وفقا لما تثبته الأسفار المقدسة .

٢٣ـ بعد أن يرسم البابا ترسيما قانونيا تصبح له صفة مقدسة بوصفه خليفة القديس بطرس فى كنيسته .

٢٤ـ للبابا أن يأذن لرعايا بأن يوجهوا الاتهامات لحكامهم .

٢٥ـ للبابا الحق فى عزل الأساقفة واعادتهم الى مناصبهم دون دعوة مجمع دينى لاقرار ذلك .

٢٦ـ لا يمكن اعتبار فرد ما كاثوليكيا أن لم يتفق فى آرائه ومبادئه مع الكنيسة الرومانية .

٢٧ـ للبابا السلطة فى أن يجعل رعايا الحكام الفاسدين يتحللون من ولائهم لأولئك الحكام .

١٠ ـ البابا أنوسنت الثالث يأمر بعقاب الهراطقة

انتشرت الحركات الهرطقية فى جهات عديدة من أوربا وبخاصة فى جنوب فرنسا . وفيما يلى رسالة أرسلها البابا أنوسنت الثالث سنة ١١٩٨ الى أحد رؤساء أساقفة جاسكونى يأمره بمقاومة الهراطقة ومحاربتهم حرصا على وحدة الكنيسة الغربية :

* * *

تتعرض سفينة القديس بطرس الصغيرة لكثير من العواصف التى تتقاذفها فى عرض البحر . ولكن ما يثير حزننا وأسفنا حقا هو أن يظهر اليوم بين صفوف الكنيسة أفراد ينادون بآراء شيطانية هدامة منافية لتعاليم الكنيسة والدين ، ويحاولون بهذه الآراء تسميم أرواح البسطاء من الناس وافساد نفوسهم .

ذلك أن أولئك الأفراد يحولون بما ينشرونه من بدع وخرافات دون فهم معانى الأسفار المقدسة على حقيقتها فضلاً عن أنهم بعملهم هذا يحطمون وحدة الكنيسة الكاثوليكية .

ولما كان قد بلغنا منك ومن كثيرين أن هذه الآراء الهدامة تزداد نموا فى جاسكونى وفى الأقاليم المجاورة ، فاننا نطلب منك ومن الأساقفة التابعين لك مقاومتها بكل ما أوتيتم من قوة ، حيث أنه يخشى من تسميم آراء وعقول المخلصين نتيجة لانتشارها .

وعلى هذا الأساس ، فاننا نأمرك بمقتضى رسالتنا الرسولية هذه أن تعمل على تدمير هذه الحركات الهرطقية بكل ما تستطيع من وسائل وان تطرد من دائرة نفوذك الدينى كل من يعتنقها . ولك أن تستغل سلطاتك الكنسية بكل عنف وصرامة ضدهم وضد كل من تتشكك فى انتمائه اليهم . ولكى يجدوا ملاذا من أحكامك ، بل أنه ــ اذا استدعى الأمر ــ لك أن تطلب من الأمراء وعامة الناس اخضاعهم بالسيف .

١١ ـ بعثة القديس أوغسطين التبشرية الى انجلترا

عرف البابا جريجورى الأول أو العظيم بنشاطه التبشيرى الواسع لنشر المسيحية بين الشعوب الوثنية . وكانت البعثة التى أرسلها البابا برآسة القديس أوغسطين الى انجلترا سنة ٥٩٦ تقريبا من أهم الأحداث فى تاريخ انجلترا الى وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، لأن هذه البعثة نجحت فى تحويل انجلترا الى داخل حظيرة الكنيسة الرومانية .

وقد كتب لنا هذا الوصف لبعثة القديس أوغسطين الى انجلترا القديس بدى (٦٧٣ — ٧٣٥) أحد المؤرخين الديريين وكان مقدما على دير جارو فى الشطر الأخير من حياته .

* * *

قرر البابا جريجورى أن يرسل الفقير الى الله أوغسطين ومعه مجموعة من الرهبان الورعين الى انجلترا للتبشير بكلمة الله .

وهكذا وصل أوغسطين الى بريطانيا ومعه مجموعة من خدام الله . وفى ذلك الوقت كان اثلبرت ملكا على كنت . وهو ملك قوى استطاع أن يمد حدود مملكته حتى نهر همبز ، وهـو النهر الذى يفصـل بين الانجليز فى الشمال والجنوب . وعلى الشاطىء الشرقى لملكة كنت توجد جزيرة صغيرة تتسع لنحو ستمائة أسرة ، وتعرف باسم جزيرة ثانت . وكان أن أرسى هناك أوغسطين ومعه اتباعه البالغ عددهم أربعين ، فضلا عن بعض الفرنجـة الذين أشار البابا باصطحابهم ليقوموا بدور المترجمين .

وما كاد أوغسطين ورفاقه يصلون الى الشاطىء حتى أرسلوا رسالة الى اثلبرت يذكرون فيها أنهم قادمون من روما يحملون رسالة طيبة سامية تضمن

لن يطيعهم سعادة أبدية فى السماء ومملكة لا حدود لها فى السماء الى جوار الله الحى القيوم . وكان أن رد عليهم اثلبرت يأمرهم بالبقاء حيث هم ، على أن يزودوا بالطعام حتى يقرر أمرا بشأنهم .

ذلك أن الملك اثلبرت كانت له دراية سابقة بالمسيحية وكانت زوجته برتا — وهى من البيت المالك فى دولة الفرنجة — مسيحية . وقد وافقت أسرتها على زواجها من اثلبرت بشرط أن تبقى على ولائها لديانتها ، ولضمان ذلك أرسلوا صحبتها أسقفا اسمه ليودهارد .

ومهما يكن من أمر ، فقد حضر الملك اثلبرت الى جزيرة ثانت بعد أيام، ليستدعى أوغسطين ورفاقه لمقابلته . وكان أن أمرهم الملك بالجلوس بى يديه ، حيث أخذ — ومعه رفاقه — الى مواعظهم وأحاديثهم التبشيرية . وعند فراغهم من حديثهم ، قال لهم الملك :

« ان كلامك جميل حقا ، وكذلك وعــودكم . ولكن لما كانت آراؤكم جديدة لم يسبق تجربتها ، فاننى لا استطيع قبولها وترك المبــادىء التى أعتنقها — أنا وجميع أبناء البلاد — أمدا طويلا ., ولكن لما كنتم أغرابا ، ووفدتم علينا منبلاد بعيدة ، ولما كنت أرى أنكم تودون مشاركتنا تلك الحياة التى تعتقدون فى صلاحها وصدقها ، فاننى لن أعارضكم أو أقف فى سبيلكم . بل على العكس سأشملكم بفيض كرمى وأمدكم بما يلزمكم من ضروريات الحياة . ولكم الحرية أيضا فى مباشرة الوعظ والتبشير وتحويل كل من تستطيعون تحويله الى دينكم » .

ثم أنعم عليهم الملك اثلبرت بمأوى يكون مقرا لهم فى المدينة الرئيسية داخل مملكته ، وهى كانتربورى .

١٢ ـ موقعة مانزكرت (٢٦ أوغسطس ١٠٧١م)

كان رومانوس الرابع — امبراطور الدولــة البيزنطية (١٠٦٧ — ١٠٧١) رجلا مخلصا نشيطا شجاعا ، بذل جهودا كبيرة فى اصلاح الأوضاع الداخليــة فى دولتــه وفى تنظيم الجيش البيزنطى وفى الدفاع عــن أراضى الامبراطورية فى آسيا الصغرى ، وهى الأراضى التى تعرضت فى القــرن الحادى عشر لهجمات السلاجقة . ولكن شاءت الظروف أن يصاب الامبراطور رومانوس بكارثة حربية عند اصطدامه بالسلاجقة تحت قيادة ألب أرســلان فى موقعة مانزكرت أو ملازكرد فى شرق آسيا الصغرى ـ شمالى بحيرة فان — سنة ١٠٧١ . وفى تلك الموقعة تحطم جيش الامبراطور ، ووقــع رومانوس الرابع نفسه أسيرا فى قبضة السلاجقة الذين لم يطلقوا سراحــه الا بعد شروط قاسيــة .

وفى الوثيقة التالية يصف لنا ميخائيل بسلوس ، وهو كاتب بيزنطى معاصر شهير ، تولى مناصب كبيرة فى بلاط القسطنطينية ، الكارثة التى حلت بالامبراطور وجيشه فى مانزكرت :

خرج الامبراطور رومانوس الرابع للقيام بحملته الثالثة والأخيرة ضــد البرابرة (السلاجقة) الذين اشتد عداؤهم عندئذ للامبراطورية ، فغــادر العاصمة تصحبه فرق مساعدة كثيرة من الحلفاء وغيرهم ، أكثر مما كان فى المرات الســابقة .

وكان أن أسرع الامبراطور الى قيصرية بطريقته المعهودة التى تنطوى على عدم الاصغاء الى النصحية والاستخفاف بأمر الناصحين وعند وصوله الى قيصرية أحجم عن التقدم وأخذ يتلمس المعاذير للعودة الى القسطنطينية. وكان المفروض عندما خشى عاقبة التراجع أن يحاول الوصول الى اتفــاق مع السلاجقة ليضع حدا لاغاراتهم السنوية على أراضى الامبراطورية . ولكنه بدلا من ذلك انساق رراء الغرور وتقدم لمهاجمة العدو دون أن يعمل حسابا

لحماية مؤخرة جيشه . ولما رأى الأعداء اندفاعه ، رسموا خطة لخـديعته والايقاع به فى شرك . وكان أن تقدم الأعداء تجاهه ، ثم تظاهروا بالهزيمة والتراجع ، وأجروا هذه المناورة عدة مرات تمكنوا خلالها من أسر بعض قادة جيشنـــا .

وفى تلك الأثناء أخذ القلق ينتابنى ، على الرغم من أن سلطان السلاجقة نفسه لم يكن على رأس جيش الأعداء ، وانما أحرز معظم تلك الانتصارات قادة جيشه . أما الامبراطور رومانوس الرابع فقد رفض أن يســتجيب للنصح . وكان فى قرارة نفسه لا يجنح للسلم ، وانما ظن أنه يستطيع أن يقضى على جيش العدو فى سهولة ودون الالتحام منه فى معركة . وشاء سوء حظه وعدم درايته بفن الحرب أن يوزع قوته ، فلم يحمل العبء سوى أقل من نصف القوة فى حين أحاطت بعض الفرق بشخصه أو تبعثرت فى الأماكن القريبــة .

وعلى الرغم من أننى لا أستطيع ان أمتدح مسلك رومانوس الرابــع فى الأدوار التالية ، الا أنه لا يمكننى أن أذمه أو ألومه . فالحق يقال انه تحمل بنفسه مرارة الصدمة وخطورتها . ويفسر سلوك رومانوس الرابع تفسيرين، وان كانت وجهة نظرى تشير الى رأى وسط بين هذين الرأيين . فاذا فسرنا سلوك رومانوس الرابع فى ضوء أنه بطل يواجه الأخطار فى شجاعة ويقاتل للتغلب عليها ، فانه يجب علينا امتداحه فى هذه الحالة . أما اذا تذكرنا أن قواعد الحرب تحتم على القائد ألا يلقى بنفسه فى الصفوف الأمامية وأن يظل بعيدا عن خط المعركة يوجه جنوده ويلاحظ سير المعركة ، فانه يجب فى هذه الحالة أن نلوم رومانوس الرابع لأنه عرض نفسه للخطر دون ادراك لمـــا يترتب على ذلك . أما أنا فأميل شخصيا الى امتداح سلوك رومانوس أكثر من لومه .

ومهما يكن من أمر ، فان رومانوس الرابع ارتدى عدة الحرب كاملــة مثلما يفعل اى جندى عادى ، واستل سيفه لمنازلة الأعداء . وقد بلغنى من أكثر من مصدر أنه استطاع أن يقتل كثيرا من الأعداء كما حمل كثيرين على

الفرار . ولكن حدث بعد ذلك أن أدرك أعداؤه حقيقة شخصيته ، فأحاطوا به من جميع الجهات وكان ذلك مما أدى الى جرحه وسقوطه عن فرسه . وكان أن قبضوا عليه وسيق امبراطور الرومان أسيرا ، فى حين تبعثر جيشه . ولم يستطع الفرار من جيش الامبراطور سوى النذر اليسير ، فى حين انتهى أمر غالبية الجيش الى الأسر أو القتل . وبعد المعركة بأيام قليلة وصل أحد أولئك الذين استطاعوا الفرار يحمل الى العاصمة أنباء تلك الكارثة ، ثم تبعه ثان وثالث . وعندئذ تأكد الخبر . وقد ذكر بعضهم أن الامبراطور رومانوس قتل فى حين قال البعض الآخر أنه اسير وأنهم رأوه بأعينهم يقاد مكبلا بالأغلال الى معسكر العدو . وبناء على هذه الاخبار عقد مجلس فى القسطنطينية وبحث الامبراطورة الخطوة التالية الواجب اتخاذها ، فاستقر رأى المجلس على أنه بصرف النظر عن كون الامبراطور قتيلا أو أسيرا ، فان الامبراطورة اندوكيا عليها أن تنهض — هى وابنها — بشئون الحكم فى الامبراطورية .

أما قائد جيش السلاجقة ، فبدلا من أن يركن الى الغرور ويبالغ فى الطرب والسرور لوقوع الامبراطور الرومانى أسيرا فى قبضته غلب عليه التواضع واحتفل بانتصاره احتفالا يفوق كل ما كان متوقعا من ناحية الاعتدال . ولم يلبث قائد الأعداء أن واسى الامبراطور الأسير ، ودعاه الى مشاركته الطعام ، وعامله كضيف جدير بالتكريم ، وخصص له هيئة تتولى حراسته ، وفك أغلال بعض رفاقه ممن عينهم بالذات . وأخيرا فان قائد السلاجقة حرر رومانوس نفسه ، وبعد أن عقد معاهدة صداقة وأخذ منه أيمانا بالولاء له ، أطلق سراحه وسمح له بالعودة الى بلاده محاطا بكل ما يطمع فيه أى انسان من رعاية وحراسة .

١٣ ـ العهد الأعظم

العهد الأعظم هو العهد الذى أصدره الملك حنا سنة ١٢١٥ لمنـــح الشعب الانجليزى مزيدا من الحقوق والحريات . وقد بالغ كثيرون فى أهمية العهد الأعظم ، حتى لقد قال ستوبز ان التطور الدستورى لانجلترا متوقف تماما على ذلك العهد . ولكن الآراء الحديثة تتجه الى عدم اعتبار العهــد الأعظم وثيقة جديدة فى موضوعها ، واذا كان هناك فارق بينه وبين العهود الأخرى التى منحها الملوك النورمان لشعب انجلترا فان هذا الفارق ليس فى النوع وانما فى مقدار الحريات التى نص عليها . وفيما يلى أهم فقرات العهد الأعظم : ـــ

* * *

من حنا الذى هو بفضل الله ملك انجلترا ولورد ايرلندا ودوق نورمنديا واكوتين وكونت أنجو .. الى رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمى الاديرة والامراء والبارونات والنواب والخبراء وغيرهم من رعاياه جميعا .. نحييكم ونصدر مرسومنا الاتى بارادة الله والسلامة وأرواحنا وأرواح أســلافنا وحلفائنا ، ومن أجل الله وتشريف الكنيسة المقدسة وتحسين أحوال مملكتنا، وبعد استشارة الآباء الأماجد ستفن رئيس أساقفة كانتربورى .. وهنرى رئيس أساقفة دبلن وغيرهم من رعايانا المخلصين :

١ ـــ أولا وقبل أى شىء آخر ـــ نؤكد فى عهدنا هذا حرية الكنيســة الانجليزية وعدم المساس بحقوقها أو التدخل فى شئونها ..

٢ ـــ اذا توفى ايرل أو بارون أو أى فرد آخر وكان فى حوزته اقطـــاع أخذه منا مقابل خدمة عسكرية ، وكان له عند وفاته وريث بالغ ، فان مـــن حق هذا الوريث أن يرثه فى اقطاعه مقابل دفع ضريبة الحلوان المستحقـــة عليـــــه .

٣ — ولكن اذا كان الوريث السابق دون سن البلوغ وتحت الوصاية فانه يتسلم تركته — عند بلوغه — دون دفع ضريبة ما .

٤ — فى الحالة السابقة يحرص الوصى على أراضى وممتلكات وحقوق الوريث القاصر دون المساس بها ، ولا يأخذ عن مهمته أجرا سوى بالقدر المعقــول ..

٥ — يحافظ الوصى على ما فوق أرض الوريث القــاصر من بيــوت وبساتين وطواحين .. وغيرها ويسلم للوريث عنــد بلوغه كل ما له مــن متعلقــات .

٦ — لوريث الاقطاع أن يتزوج دون معارضة ، وكل ما هنالك هو أنه قبل عقد القران يجب عليه أن يعلن زواجــه لأقاربه الــذين تربطم بــه رابطــة الدم (*)

٧ — الأرمل التى يموت زوجها تأخذ فورا صداقها وميراثها دون أى مقابل ودون أية صعوبة . ولها أن تظل فى منزل زوجها الراحل أربعين يوما يتم خلالها تسليمها حقوقها وهدية زواجها .

٨ — لا ترغم أرمل على الزواج اذا اختارت حياة العزوبة ، فاذا كان الاقطاع ممنوحا منا فاننا نضمن لها عدم الزواج دون موافقتنا ، أما اذا كان الاقطاع ممنوحا من سيد آخر فاننا نضمن لها عدم الزواج دون موافقة السيد الذى منح الاقطاع .

٩ — لن نستولى — نحن أو موظفونا — على ايراد فرد مدين طــالما أن منقولات ذلك الفرد تكفى لسداد الدين ، ولا يجوز الحجز على الضــامن طالما أن المدين لديه ما يكفى للوفاء بالدين . فاذا عجز المدين عــن الوفاء بالدين ، فانه يجوز فى هذه الحالة مطالبة الضامن .

١٠ — اذا اقترض فرد مبلغا — كبيرا أو صغيرا — من المرابين اليهود، ومات قبل سداد الدين ، فان الدين لا تستحق عنه فائدة ما طالما كان وريث المدين قاصرا ..

١١ — واذا توفى شخص وفى ذمته دين للمرابين اليهود ، فان زوجة المتوفى لا تلتزم بسداد الدين وتأخذ صداقها من تركة المتوفى قبل سداد الدين .

١٢ — لا تفرض ضرائب جديدة فى مملكتنا الا بموافقة المجلس العام للملكة الا بقصد فدائنا من الأسر أو تدشين أكبر أبنائنا فارسا أو بمناسبة زواج كبرى بناتنا . وفى هذه الحالات فقط تجمع ضرائب معقولة معتدلة ، ومثل هذا يطبق على ما يختص بضرائب مدينة لندن .

١٣ — تتمتع مدينة لندن بجميع حرياتها وأعفاءاتها الجمركية القديمة سواء من ناحيتى البر والبحر . وكذلك الحال بالنسبة لبقية المدن والموانى .

١٤ — ويعقد المجلس العام للمملكة بقصد جمع ضريبة لغرض من الأغراض السابقة ، نتعهد بارسال خطابات مختومة بخاتمنا الى رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمى الأديرة والايرلات وكبار البارونات لدعوتهم فى يوم معين ومكان محدد ، بحيث تتم الدعوة قبل موعد الاجتماع بأربعين يوم على الأقل .. ويحدد فى خطابات الدعوة الغرض من الاجتماع ..

١٥ — لن يسمح منذ الآن فصاعدا لأى فرد بأن يجمع ضريبة من أتباعه الأحرار ، الا بقصد فدائه من الأسر أو بمناسبة تدشين أكبر أبنائه فارسا أو زواج كبرى بناته .. وفى هذه الحالات تكون الضريبة المطلوبة عادلة ومعقولة .

١٦ — لا يجبر فارس على تأدية قدر من الخدمات الاقطاعية أكثر من الأصول المقررة .

١٧ — لا تربط المحاكم العامة بالمحاكم الملكية ، وانمـــا تعقد فى أماكن أخرى محـــددة .

١٨ — نقوم نحن — أو كبير قضاتنا فى حالة غيابنا خارج المملكـــة — بارسال اثنين من القضاة الى كل مديرية أو مقاطعة أربع مرات سنويا ، وهناك يعقدون — بالاشتراك مع أربعة فرسان يختارهم أهل المقاطعة من أبنائها — محكمة استئناف بالمقاطعة ، وفى نفس اليوم والمكان اللذين تعقد فيهما محكمة المقاطعة الابتدائيـــة .

٢٠ — اذا أذنب رجل حر فانه يعاقب بالغرامة عقوبة تتناسب مع ذنبه، بشرط عدم المساس ببيته أو بتجارته اذا كان تاجرا . وفى جميع الحـــالات لا توقع الغرامات السابقة الا بعد سماع شهادة شهود مجاورين يعتد بقسمهم .

٢١ — أما النبلاء والبارونات فلا توقع عليهم عقوبات بالغـــرامة الا عن طريق محـــاكم من أقرانهم .

٢٣ — لا تجبر مدينة ولا يجبر رجل على العمل عن طريق السخرة فى بنـــاء جسر فوق نهر ..

٢٧ — اذا توفى رجل حر دون وصية فان منقولاته توزع بين أقـــاربه وأهله أو أصدقائه وفقا لما تراه الكنيسة ، باستثناء أى شخص يكون دائنـــا للمتوفى فانه يأخذ دينه أولا .

٢٨ — لا يجوز لموظف عمومى من رجال الضبط والأمن وغير ذلك . أن يستولى على غلال أو منقولات أى فرد دون مقابل أو ثمن أو على غير رغبـــة المـــالك .

٣٠ — لا يجوز لموظف أو حاكم من موظفينا أن يستولى على حصـــان أو عربة من أى فرد حرلاستعمالها فى النقل دون رغبة صاحبها .

٣٩ — لا يجوز القبض على رجل حر أو سجنه أو طرده من القانون أو نفيه أو انزال أى أذى به أو استدعائه الا بعد محاكمة قانونية من انداده أو طبقا لقانون البلاد .

٤٠ — نتعهد بألا نبيع حقا من الحقوق المتعلقة بالعدالة أو نحرم أحدا منها أو نماطل فيهـــا .

٤١ — جميع التجار لهم الحرية التامة فى دخول انجلترا والخروج منها والتجول بين أنحائها فى أمن وسلام ، وذلك بقصد البيع والشراء ، مـــع اعفائهم من جميع الضرائب الغير قانونية ..

٤٥ — نتعهد بألا نعين فى وظائف قضاة أو حكام أو رجال شرطة وأمن أو نواب الا من له معرفة ودراية بالقانون مع تنبيههم الى مراعاة القانون دائما.

٥٢ — اذا جرد شخص من ممتلكاته أو أبعد عن أرضه أو حصنه دون محاكمة قانونية أمام أقرانه ، فاننا سنأمر فورا باعادة أملاكه اليه ..

٦٣ — ســـتكون الكنيسة حـــرة تماما ، وســـيتمتع رعايانا بجميع الحقوق السابقة المنصوص عليها .. وقد أقسمنـــا على ذلك كمـــا أقسم البارونات ..

١٤ ـ قرار الحرمان ضد فردريك الثانى

سـنة ١٢٣٩

حدث أثناء النزاع بين الامبراطور فردريك الثانى والمدن اللمباردية أن استطاع الامبراطور نزال الهزيمة بقوات الحلف اللمباردى قرب ميلان سـنة ١٢٣٧ . وقد فزعت البابوية نتيجة لما يترتب على ذلك من أزدياد نفـوذ الامبراطور فى شمال ايطاليا ، مما يهدد البابوية ومصالحها تهديدا خطيرا . لذلك أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان ضد الامبراطور سـنة ١٢٣٩ ، وفيما يلى نص القرار :

١ ـ باسم الأب والابن والروح القدس ، والرسولين المباركين بطرس وبولس ، وما خولناه نحن من سلطة ونفوذ ، نصدر قرار الحرمان واللعنة على فردريك الذى يدعى امبراطورا ، لأنه أشعل الفتنة فى روما ضد كنيستها بقصد طرد البابا وأخوته الكرادلة من كرسى الرسول بطرس ، وبذلك أضر بمكانة الكرسى الرسولى وهيبته ، وأساء الى حرية الكنيسة ، وأخل باليمين التى أقسمها للكنيسـة .

٢ ـ ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه أمر أتباعه بمنع أخينا الموقر أسقف برنست ـ مندوبنا الشرعى ـ من السفر فى مهمته الى الألبيجنسيين(١)، وهى المهمة التى أوفدناه فيها من أجل صالح الكنيسة الكاثوليكية وبقائها.

٣ ـ ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه حال دون شغل الأسقفيات الشاغرة ، وبذلك يعرض حرية الكنيسة للخطر ويدمر العقيدة الخالصة ، لأنه فى غياب الراعى لا يوجد من يوجه الناس لذكر الله أو العناية بأرواحهم.

٤ ـ ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأن رجال الكنيسة فى مملكته

(١) فريق من الهراطقة فى جنوب فرنسا .

يتعرضون للحبس والتجريد والذبـــح ، كما تتعــرض كنـــائس الله للنهب والتدنيس والانتهـــاك .

٥ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه لم يسمح باعادة بنــــاء كنيســـة ســـورانا .

٦ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه قبض على ابن أخ ملك تونس ولم يسمح له بالحضور الى روما لينصر فى كنيستها .

٧ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه سجن بطرس ساراكينو ، وهو نبيل رومانى أرسله ملك انجلترا مبعوثا الينـــا .

٨ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه استولى على أراضى كنائس فرارا وبيجوجنا وبونديتوم ، وأراضى أسقفيات فرارا وبونديتوم ولوكا فضلا عن أراضى سردينيا ، وذلك خلافا لليمين التى أقسمها للكنيسة .

٩ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لانه احتل وأتلف أراضى بعض الامراء فى مملكته ، وكانت هذه الاراضى قد آلت الى الكنيسة .

١٠ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنـــه نهب كنـــائس مونريال وكفالو ، وقطانيا ، وسكويلاس ، وأديرة ميليتو ، وســـانتا ايوفميـــا ، وتراماجيور ، وسان جيوفانى فى لاماى .

١١ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه نهب كثيرا من الأسقفيات والكنائس والأديرة فى مملكته وجردها من كل ما كان فيها من متاع وذلك بعد عمل محاكمات شكلية غير عادلـــة .

١٢ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنـــة لأنه لم يعـــد الى الداوية والاسبتارية الممتلكات التى نهبهم اياها ، بعد أن تعهد بذلك فى اتفاقية الصلح (صلح سان جرمانو ١٢٣٠).

١٣ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه جمع ضرائب وأموال من الكنائس والأديرة فى مملكته مخالفة بذلك اتفاقية الصلح .

١٤ — ونوقع عليه الحرمان واللعنة لأنه فرض على رهبان ومقدمى أديرة السسترشيان — وغيرها من المنظمات الديرية — ضرائب شهرية يستغل حصيلتها فى بناء قلاع وحصون جديدة .

١٥ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه عامل بعض أتباع البابا وأنصاره كما لو كانوا ملعونين مشلوحين من الكنيسة ، فصادر ممتلكاتهم ونفاهم وحبس زوجاتهم وأولادهم ، مخالفا بذلك شروط اتفاقية الصلح .

١٦ — ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه حال دون اســترداد الأرض المقدسة وأرض الامبراطورية الرومانية .

* * *

بناء على هذا كله ، وتنفيذا لهذا القرار ، نأمر جميع رعاياه من التحلل من يمين الولاء الذى أقسموه له ونمنعهم من طاعته طالما هو تحت عقــوبة الحرمان . كما أن نحذره وننصحه ليقلع عن ايذاء الأمراء والنبــلاء والفقراء والأرامل واليتامى فى مملكته .

ونحن نوقع ضده قرار الحرمان واللعنة بسبب كل ذنب من الذنــوب السابقة التى عددناها . أما بخصوص اتهامه بالهرطقة — وهى التهمـــة المنســوبة الى فردريك — فسنتخذ اجراء بشأنها فى المكان المناسب والزمان المنـــاسب

١٥ ـ براءة بابوية بانشاء جامعة فى أفينون

سـنة ١٣٠٣

ظل من المعتقد أمد طويلا فى العصور الوسطى أنه من حق البـابوية وحدها أنشاء جامعة . وفيما يلى براءة أصدرها البابا بونيفيس الثامن قبـل الأسر البابلى بسنتين لانشاء جامعة فى أفينون . وترجع أهمية هذه البراءة الى ما تحويه من معلومات طريفة عن نظم الامتحانات فى الحياة الجامعية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، وبخاصة منح درجة الأستاذية .

* * *

هناك عدة أسباب تجمعت لتضفى على مدينة أفينون مجدا وسـموا ومكانة تهيئها لأن تصبح مقرا لجامعة . ولما كنا نعتقد أن الصالح العام يتطلب جذب رجال العلم الى هذه المدينة حتى تثمر جهودهم فى المستقبل ، فاننـا نسمح بمقتضى هذه البراءة بانشاء جامعة فى أفينون ، يقوم فيها الأسـاتذة بالتدريس ، ويتمتع طلاب العلم بحرية تامة فى اختيار الكليات والمحاضرات التى يرغبون فيهـا .

وعندما يصل الطلاب الدارسون الى مستوى عال من المعرفة ، ويطلبون الترخيص لهم بالتدريس ، فاننا نرى أن يؤدوا امتحانا فى القـانون الدينى والقانون المدنى والطب والفنون الحرة ، ومن يجتاز الامتحان المذكور يكرم بمنحه لقب الأستاذية فى الكلية التى تخصص فيها من الكليات السابقة . وكل من يتأهل للحصول على هذه الدرجة عليه أن يتقدم لأسقف أفينون الذى يقوم بدعوة أساتذة الكلية المختصة ويؤدى الطالب الامتحان دون دفع أية رسوم، لاكتشاف مقدرته فى العلم والفصاحة والالقاء وغيرها من فروع المعرفـة المطلوب توافرها فيمن يرشح لدرجة أستاذ أو دكتور . وبعد أن يقـوم أساتذة الكلية بامتحان الطالب ، يسألهم الأسقف عن مستواه وعما اذا كان يستحق الحصول على الدرجة المطلوبة ، وعندئذ يدلى الأساتذة برأيهم ، ويظل

هذا الرأى سريا لا يجوز للأسقف أن يبوح به ، حتى لا يعرف الطالب من أجازه ومن امتنع عن اجازته من الأساتذة . وأخيرا يقوم الأسقف بالترخيص بالتدريس لمن يراه صالحا ولا يرخص لغير الصالحين ، دون أن يخشى لومة لائم . فاذا كانت أسقفية أفينون شاغرة ، فان نائب الأسقف أو وكيل الأسقفية يقوم بما هو مطلوب من الأسقف القيام به .

وكان من يمتحن ويجتاز الامتحان فى أفينون ويتسلم اجازة التدريس يتمتع بحقه كاملا فى التدريس فى أى مكان آخر فى فرع التخصص الذى أجيز فيه دون أن يطالب بتأدية امتحان آخر فى الجهة التى يرغب فى التدريس فيها .

وحتى يتسنى عقد هذه الامتحانات على الوجه الأكمل ، فاننا نأمر بأن يؤدى الأساتذة الذين يرغبون فى التدريس فى جامعة أفينون ، قسما عاما — وذلك قبل قيامهم بالعمل . يتعهدون فيه بالحضور بأنفسهم اذا دعوا الى هذه الامتحانات ، وأن يصدروا حكمهم على الطلبة المتقدمين للامتحان فى صراحة وأمانة تامة حتى يجيز الأسقف الصالحين ولا يجيز غيرهم . وكل من يرفض من الأساتذة أداء ذلك القسم لا يسمح له بالتدريس فى الجامعة أو حضور امتحاناتها أو المشاركة فى مزايا الجامعة .

وحتى يتمكن الأساتذة والطلاب من الانصراف فى هدوء وطمأنينة لأداء واجباتهم ، والتقدم بمستوى الدراسات التى يخصصون أنفسهم من أجلها ، فاننا نقر منح الأساتذة والطلاب جميع الحقوق والامتيازات والحريات والاعفاءات التى يتمتع بها نظراؤهم فى الجامعات الأخرى .

* * *

١٦ ـ المرسوم الذهبى الذى أصدره شارل الرابع سنة ١٣٥٦

كان المرسوم الذهبى بمثابة دستور حاول فيه شارل الرابع بيـــان الحقوق والأوضاع الفعلية للأمراء . ولعله أدرك أن ألمانيا عندئذ لم تعــد ملكية بقدر ما كانت تحالفا أو اتحادا بين الأمراء . وفيما يلى أهم الفقرات التى وردت فى هذا المرسوم :

* * *

البـــاب الثانى

طريقة انتخاب ملك الرومان (الامبراطور)

١ ـــ يقاس قداس فى اليوم التالى لوصول الناخبين . ثم يؤدى رئيس أساقفة مينز هذا القسم ليردده بعده بقية الناخبين .

٢ ـــ «أقسم ـــ أنا رئيس أساقفة مينز ـــ على الكتاب المقدس أمامى ، وبحق ايمانى بالله وولائى للامبراطورية الرومانية ، أن أدلى بصوتى فى هـــذا الانتخاب بمعونة الله وبما يمليه ضميرى ، لاختيار ملك الرومان وامبراطور المستقبل ، الذى أعتقد فى كونه الشخص الصالح لحكم الشعب المسيحى . وأتعهد بأن أدلى بصوتى حرا غير متأثر بأى حكم أو ثمن أو رشوة أو وعــد أو أى عامل آخر من هذا النوع مهما يكن اسمه . وعلى هذا الأساس أستمد العون من الله ومن جميع القديسين » .

٣ ـــ وبعد أن يقسم الناخبون هذا القسم ، يتقدمون للادلاء بأصواتهم ، بشرط ألا يبارحوا فرانكفورت الا بعد أن يتم انتخاب ملك الرومان وامبراطور المستقبل الذى يصبح حاكما على العالم وعلى الشعب المسيحى . فاذا لم يتوصلوا الى اتفاق بشأن اختيار الملك فى مدى ثلاثين يوما من قسمهم السابق فانهم لا يتناولون غذاء سوى الخبز والماء بحيث لا يبارحون المدينـــة دون انتخاب الملك المطلـــوب .

٤ — يكون هذا الانتخاب شرعيا ونهائيا كما لو كان جميع الأمراء قد أجمعوا على اختيار الشخص المنتخب . فان عاق طارىء أحد الأمراء — أو ممثله — ووصل الى مكان الانتخاب متأخرا ولكن قبل أن تتم عملية الانتخاب، فانه يسمح له بمباشرة حقه فورا فى المرحلة التى وصل فيها .

وبمجرد اختيار الملك ، يقوم وفقا للتقاليد القديمة السائدة بتأكيد جميع الحقوق والامتيازات التى يتمتع بها الأمراء الناخبون — دينيون وعلمانيون — ، ويكون هذا التأكد بمقتضى كتاب مختوم ، على أن يجدد هذا التأكيد مرة أخرى بعد أن يتوج الملك امبراطورا . ذلك أن من واجبه أن يقوم بذلك تلطفا وعن طيب خاطر وألا يحول بين الأمراء وبين التمتع بحقوقهم وامتيازاتهم ./

٥ — فى حالة ما اذا ناب ثلاثة من الناخبين عن ناخب رابع غائب فان صوته فى هذه الحالة يصبح شرعيا ونافذا ، وذلك لحسم عملية الانتخاب .

الباب الرابع

مواضع مقاعد الأمراء الناخبين

١ — عند عقد مجلس الشورى الامبراطورى أو أى اجتماع آخر يجتمع فيه ملك الرومان بالأمراء الناخبين ، يكون ترتيب مقاعد الأمراء على الوجه التالى : على يمين الامبراطور يجس أولا رئيس أساقفة مينز أو كولونيا تبعا للاقليم الذى يعقد فيه الاجتماع ، ثم يليه ملك بوهيميا لأنه أمير متوج، ثم كونت بلاتين الراين . وعلى يسار الامبراطور يجلس رئيس أساقفة مينز أو كولونيا ثم دوق سكسونيا ثم أمير براندنبرج .

٢ — عندما يكون المنصب الامبراطورى شاغرا ، فان رئيس أساقفة مينز يباشر سلطته القديمة فى دعوة بقية الناخبين لاجراء عملية الانتخاب ومن حقه أيضا عند اجتماع الناخبين أن يجمع أصواتهم ، فيأخذ صوت كل منهم على انفراد وفق الترتيب الموضح .

الباب التاسع

مناجم الذهم والفضة وغيرهما من المعادن

وقد رسمنا بمقتضى هذا المرسوم أن يتمتع ملك بوهيميا وبقية الأمـــراء الناخبين — دينيين وعلمانيين — بحق امتلاك واستغلال ما يكون فى أراضيهم وما يكتشف فيها مستقبلا من مناجم للذهب والفضة والنحاس والحـــديد والرصاص وغيرها من المعادن ، فضلا عن الملح . هذا الى أن لهم الحـــق فى فرض الضرائب على اليهود ، وفى جمع الضرائب المقررة فعلا ، وفى التمتع ببقية الحقوق تمتع بها أسلافهم أو المعترف بها اليوم .

الفصل العاشر

النقـــــود

ونقر أيضا أن يتمتع ملوك بوهيميا فى المستقبل بحق سك النقود الذهبية والفضية فى جميع انحاء مملكتهم ، وهو الحق الذى تمتع به ملوك بوهيميـــــا السابقين من قبل .

٢ — كذلك نقر بأن يتمتع ملوك بوهيميا فى المستقبل بحق شراء وبيـــع الأراضى والقلاع وغيرها من الممتلكات أو الحصول عليها كهدايا من الأمراء.

٣ — ونقر أيضا — بمقتضى هذا المرسوم — أن يمتد هذا الحق ليتمتع به بقية الأمراء الناخبين — دينيين وعلمانيين — ومن بعدهم ورثتهم الشرعيون، بنفس الشروط .

١٧ ـ قيام حلف الراين (١٢٥٤)

لما كانت التجارة — وهى الهدف الأول للمدن — لا يمكن أن تنتعش الا فى جو يسوده الأمن والسلام ، فقد اتفقت مدن وادى الراين على انشاء حلف فيما بينها بقصد حماية تجارتها ، وذلك بعد أن ترك الامبراطور فردريك الثانى المانيا وشأنها ووجه جهوده ونشاطه فى ميدان ايطاليا — صقلية وفيما يلى ، نص وثيقة قيام حلف الراين :

* * *

باسم الثالوث المقدس ، اجتمع قضاة ومعاونو بلديات وجميع مواطنى مدن مينز ، وكولونيا ، وورمز ، وسبير ، وستراسبورج ، وبازل ، وغيرها من المدن التى ارتبطت برباط حلف سلام مقدس ، فى ظل ولائها للمسيح الذى نادى بالسلام والخلاص وتقرر ما يلى :

أولا : لوحظ أنه منذ أمد بعيد يتعرض عـــدد كبير من مواطنيا للأذى والضرر والهلاك بسبب ما يتعرضون له من عنف وعدوان فى الطرق ، الأمر الذى يعود بالخسارة والضرر لا عليهم فحسب بل أيضا على غيرهم من الأبرياء دون ذنب جنوه . ولذلك نعتقد أن الوقت قد حان لتقرير وسيلة تضع حدا لذلك العنف وتعيد السلام الى أراضينا جميعا بطريقة سليمة عادلة .

ثانيا : لهذا نعلن على الملأ ، أننا اتفقنا — بمعونة السيد المسيح على القواعد الآتية لاقرار السلام والعدالة . فأقسمنا جميعا بالتبادل على اقرار السلام فيما بيننا لمدة عشر سنوات تبدأ من يوم ١٣ يوليو ١٢٥٤ . وشاركنا فى هذا القسم رؤساء أساقفة مينز وكولونيا وترير ، وأســـاقفة ورمز وستراسبورج ومينز وبازل ، فضلا عن كثير من كونتات ونبلاء البلاد التى شاركتنا فى هذا القسم . ووافقوا جميعا على الغاء الضرائب غير العادلة التى كنا نفرضها على التجار المارين بالطرق البرية والنهرية ، بحيث يتوقف جمع هذه الضرائب بعد ذلك .

ثالثا : ينفذ هذا العهد بحيث لا تستفيد منه القوى الكبيرة فحسب ، وانما تتمتع بالحماية أيضا القوى الصغيرة فضلا عن الكبيرة ، الى جانب رجال الكنيسة والرهبان ، والأهالى العلمانيين واليهود ، بحيث يعيشون جميعا فى ظل سلام مقدس . فاذا أخل أحدهم بشروط هذا الاتفاق فاننا جميعا نقف ضده بكل قوانا حتى نضطره الى الرجوع عن موقفه وتقديم ترضية مناسبة .

رابعا : أما بخصوص المنازعات والخلافات القائمة اليوم بين بعض أعضاء هذا الحلف ، أو التى ربما تنشأ بينهم فى المستقبل ، فانها تحل على الوجـــه الآتى : — تختار كل مدينة أو كل حاكم أربعة من الرجـــال الموثوق فيهم ، وتخولهم سلطة كاملة لحل الخلافات القائمة بطريقة سلمية أو قانونية .

* * *

١٨ - شروط السلم الذى أقره حلف الراين سنة ١٢٥٤

باسم الاله الأب ، اجتمعت فى ٦ أكتوبر سنة ١٢٥٤ مدن حوض الراين المتحالفة من أجل حفظ السلام . وقد عقدنا هذا الاجتمـاع فى مدينة ورمز وناقشنا بعناية كل ما يمت بصلة للسلم العام . وكان أن دفعنـا ولاؤنا لله وللكنيسة المقدسة للامبراطورية المقدسـة التى يحكمهـا الآن مولانا وليم (الهولندى) كما دفعنا الصالح العام للجميع - أغنياء وفقراء سواء - الى وضع القوانين التالية ، التى روعى فيها صالح الجميع : الفقراء والعظماء ، الكنسيين والرهبان والعلمانيين واليهود . وفى سبيل تنفيذ هذه المبادىء من أجل الصالح العام لن نضن بأرواحنا أو ممتلكاتنا ، ويشترك معنا فى ذلك الأمراء والحكام الذين شاركونا فى القسم :

١ - نقرر أننا لن نشن حملات حربية الا ما تفرضه الضرورة القصوى وذلك بقرار من مجالس المدن . ونتعهد بأن نتبادل المساعدة ونساعد بعضنا بعضا بكل قوة من أجل ازالة المتاعب التى نعانيها .

٢ - يتعهد كل عضو من أعضاء الحلف - سواء كان مدينة أو حاكما، مسيحيا أو يهوديا - بعدم تقديم طعام أو سلاح أو معونة من أى نوع الى من يعارضنا أو يهدد سلامنا ، كائنا من كان .

٣ - كذلك لا يجوز لأية مدينة من مدن الحلف أن تقدم قرضـا لمن يعتدى على الحلف ويهدد أمنه .

٤ - لا يجوز لمواطن فى أية مدينة تنتمى الى هذا الحلف أن ينضم الى المعتدى عليه أو يقدم مشورة أو معونة . فاذا فعل أحدهم ذلك وجب طرده من المدينة التى ينتمى اليها وعقابه عقوبة شديدة فى ممتلكاته بحيث يصبـح عبرة لغيره .

٥ - اذا لجأ فارس أثناء مساعدته لسيده الاقطاعى الذى يحاربنا الى مهاجمتنا أو التحرش بنا فى أى مكان خارج مدن سيده المسورة ، فانه يعتبر منتهكا للسلم ، ولذا فاننا سنوقع عليه عقوبة صارمة فى نفسه وممتلكاته ، أيا كان شخصه . فاذا ألقى القبض عليه فى أية مدينة سيعتبر أسيرا ويسجن الى أن يقدم ترضية مناسبة .

ونحن نرغب أيضا فى حماية الفلاحين ، وسنقدم لهم الحماية ضد أى عدوان اذا عاونونا فى حفظ هذا السلم . ولكن اذا حاربونا ، واستطعنا الظفر بهم فى أية مدينة ، فاننا سنعاقبهم بوصفهم مجرمين آثمين .

٦ — نرى أن تحطم المدن جميع القوارب النهرية ما عدا تلك التى تعمل فى المنطقة المتاخمة لها مباشرة ، وذلك حتى لا يجد أعداء الحلف وسيلة لعبور نهر الراين وتهديد المدن الأعضاء .

٧ — نقرر تعهدنا بتقديم كل معونة أو مساعدة ممكنة لحماية أى أمير أو فارس يساعدنا فى اقرار السلم ، أما من يأبى أن يقسم ويتعهد بالمحافظة معنا على السلم ، فانه يستبعد تماما من القواعد العامة لهذا السلم .

٨ — اذا احتفظنا فى مدننا بشخص كرهينة ، فاننا نتعهد بحمايته من أى عدوان ، وترك الحرية له فى دخول المدينة أو الخروج منها وقتما يشاء .

٩ — ولكن اذا حاول مثل هذا الشخص الهرب حانثا بأيمانه ، فان المدينة تنذره ثلاث مرات ، فاذا لم يعد فان صاحب الرهن له أن يقيم عليه دعوى أمام القضاة لاعادته .

١٠ — وقبل أى اعتبار آخر ، فاننا نحب أن نؤكد رغبتنا فى أن نعيش فى سلم مشترك مع الأمراء وجميع الأهالى فى اقليم الراين ، ونرغب فى أن يتمتع الجميع بحقوقهم كاملة .

١١ — يحرم على أى مواطن أن يسب الحكام والأمراء — حتى لو كانوا معادين لنا — والا تعرض للعقوبة ، لأننا مع كوننا نرغب فى ردعهم ومعاقبتهم على أعمال التهديد والعدوان التى يرتكبونها فى حقنا ، الا أننا نرغب دائما فى تحذيرهم أولا قبل أن نشن حربا عليهم .

١٢ — نقرر أن جميع الاتصالات الخاصة بهذا الموضوع يكون مركزها مدينة ميتز بين مدن حوض الراين الأدنى ، ومدينة ورمز بين مدن أعلى الراين . ومن هاتين المدينتين تتم جميع اتصالاتنا ومراسلاتنا . وأية مدينة من مدن الحلف يلحق بها أذى أو ضرر عليها أن ترسل رسلها على نفقتها الخاصة الى احدى هاتين المدينتين للتبليغ عما تعرضت له .

١٣ — نعد جميع الامراء والحكام والمدن بأنه فى حالة عقد مؤتمر فى أى

مكان ، فاننا نتعهد بارسال أربع ممثلين مزودين بكافة السلطات من مدنهم لبحث الامور المعلقة . وعلى هؤلاء المندوبين اخبار مدنهم بكل ما يتخذ فى ذلك الاجتماع من قرارات وكل من يصحب هؤلاء المندوبين الى مكان الاجتمـــاع يتمتع بحصانة ولا يجوز الاعتداء عليه أو تنفيذ حكم عليه قسرا .

١٤ ــ لا يجوز لمدينة أن تقبل كمواطنين أهالى غير مقيمين فيــها من أولئك الناس الذين اعتادوا أن يعيشوا خارج أســوار المدن عيشـــة غير مســـتقرة ...

١٥ ــ ونؤكد أنه اذا خرق عضو من أعضاء الحلف شروط الســلم ، فاننا سنتضامن ضده جميعا كما لو أنه ليس عضوا فى الحلف ، وذلك حتى نضطره الى التوبة وتقديم الترضية الكافية .

١٦ ــ ونعد بأن يخبر بعضنا عن طريق المراسلات بحقيقة أعدائنا ومن يتربصون بنا الدوائر ، حتى يمكن عقد اجتماعات فى الوقت المناسب تقــرر فيهـــا ما يتخذ لحماية أنفسنا منهم .

١٧ ــ نقرر أنه لا يجوز لأحد أن يقتحم ديرا للرهبان أو الراهبات مهما تكن الهيئة أو المنظمة التى ينتمون اليها أو يفرض نفسه ضيفا عليهم أو يطلب منهم طعاما أو أية مساعدة رغم ارادتهم . فاذا فعل أحد ذلك ، اعتبر خارقا لهذا السلم .

١٨ ــ تتعهد كل مدينة من مدن هذا الحلف بالعمل على اغراء المـــدن المجـــاورة لها لكى تقسم باحترام هذا السلم ، فاذا رفضت ذلك فانها تصبح خارجة عن دائرة هذا السلم ، بمعنى أن أيا من يعتدى عليها فى الارواح أو الممتلكات لا يعتبر خارقا لهذا السلم .

١٩ ــ على جميع أعضاء هذا الحلف ــ من المدن والحكام وغيرهم ــ أن يسلحوا أنفسهم ويستعدون للقتال استعدادا طيبا ، بحيث يمكن الاعتماد عليهم فى ساعة الخطر .

٢٠ ــ كل مدينة من المدن الواقعة بين نهر الموزل وبازل عليها أن تعد مائة قارب مسلح ، والمدن الواقعة وراء الموزل تعد خمسمائة قارب مزودة بالرماة المسلحين ، فضلا عن أنه يجب على كل مدينة أن تجهز نفسها بأقصى ما تستطيع تجهيزه من أسلحة للفرسان والجنود المشاة .

١٩ — مراسيم العصبة الهانزيو ١٣٦٠ — ١٢٦٤

١ — تتعهد كل مدينة من المدن المشتركة فى هذه العصبة بأن تبذل كل ما فى وسعها لتطهير البحر من القراصنة ، حتى يستطيع التجار أن يأمنوا على نقل بضائعهم عن طريق البحر .

٢ — أى فرد يطرد من مدينة من مدن العصبة بسبب جريمة اقترفهـا لا يصح أن تقبله وتأويه مدينة أخرى .

٣ — اذا خطف القراصنة أو اللصوص أحد المواطنين ، فلا يجوز فداؤه وانما يرسل حزامه وسيفه اليه ليكون ذلك نذيرا لمن اختطفوه .

٤ — واذا افتداه أى تاجر من الأسر ، فان هذا التاجر يتعرض لمصادرة جميع ممتلكاته فى كافة المدن التى تتبع هذه المنظمة والتى تتبع قانون ليوبك.

٥ — أى فرد يدان فى مدينة بالسرقة ويطرد من حماية القانون ، فان جزاءه يكون كذلك فى كافة مدن العصبة .

٦ — اذا حاصر أحد الأمراء مدينة ، فلا يجوز أن يساعد أحد ذلك الأمير فى عمله الا اذا كان الأمير سيده الاقطاعى .

٧ — اذا نشبت حرب فى البلاد ، فلا يجوز لمدينة أن تنزل الأذى برعايا وتجار المدن الأخرى النازلين فيها — سواء فى أشخاصهم أو بضائعهم — وانما تقوم بحمايتهم .

٨ — اذا تزوج رجل امرأة فى مدينة ، ثم أتت امرأة من مدينة أخرى وأثبتت أن الرجل زوجها ، فانه يجب قطع رقبة الرجل هذه الحالة .

٩ — اذا زوج الرجل ابنته أو ابنة أخيه لرجل من مدينة أخرى ، ثم ادعى فرد أن المرأة زوجته الشرعية ، دون أن يستطيع اثبات صحة دعواه ، تقطع رقبة المدعى .

الفهارس

١ ـ الاعـــلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(حـ)

(خـ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٢ ـ الأماكن والبقاع

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(جـ)

(حـ)

(خـ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

مراجع الجزء الأول

اكتفى المؤلف فى القائمة الآتية بأسماء المراجع التى أمكنه الرجوع اليها عند وضع هذا الجزء والتى تردد ذكرها فعلا فى حواشيه .

أرنولد (ت . و) : الدعوة الى الاسلام .

ترجمه الى العربية الأساتذة : الدكتور حسن ابراهيم حسن ، والدكتور عبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوى . (القاهرة ١٩٤٧) .

— برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثانى) .
ترجمه الى العربيه الدكتور زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٥٦) .

— برنارد لويس : العرب فى التاريخ .
تعريب الأستاذان نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد (بيروت١٩٥٤)

— سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية (جزءان — القاهرة ١٩٦٣) .

— سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية (القاهرة١٩٥٧)

— سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد أنيس : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة (القاهرة ١٩٥٦)

— لين بول (ستانلى) . العرب فى أسبانيا .
نقله الى العربية المرحوم الأستاذ على الجارم (القاهرة١٩٤٤)

— Adams (G.B.)
The History of England from the Norman Conquest to the Death of John (1066—1216) London : 1905.

— Atiya (A.S.) :
The Crusade in the Later Middle Age, London : 1938

— Baring-Gould (S.) :
Germany, London : 1886.

— Barker (B.) Clark (G.) Vaucher (P.) :
The European Inheritance (3 Vols.) Oxford : 1945

— Barraclough (G.) :
The Oxigins of Modern Germany, Oxford ; 1947.

— Baynes (N.H.) .
Constantine the Great and the Christian Church, London 1929.

— Bloch (G.) :
L'Empire Romain. Paris : 1931.

— Boyesen (H.H.) :
A History of Norway. London : 1900.

— Bradley (H.) :
The Goths London : Fifth Edition.

— Bryce (J.) :
The Holy Roman Empire, London ; 1907.

— Bury (J.B.) :
History of the Later Roman Empire (2 Vols) London, 1923.

— Cary (M.) :
A History of Rome down to the Reign of Constantine London, 1954.

— Chapman (C.E.) :
A History of Spain. New York ; 1931.

— Chapot (V.) :
Le Monde Romain. Paris 1927.

— Coulton (G.G.) :
The Medieval Scene, Cambridge ; 1931.

— Coulton (G.G.) :
Life in the Middle Ages, Cambridge; 1926.

— Davis (H.W.C.) :
Charlemagne, London ; 1929.

— Dawson (C.) :
The Making of Europe. London ; 1935.

— Deanesly (M.) :
A History of Early Medieval Europe. Longon ; 1956.

— Diehl (C.) :
History of The Byzantine Empire, Princeton, 1925.

— Diehl (C.), Marcais (G.) :
Le Mond Oriental de 395 a 1081. (Hist. du Moyen Age Tome 3) Paris ; 1936.

— Dill (S.) :
Roman Society From Nero to Marcus Aurelius. London ; 1925.

— Dill (S.) :
Roman Society in Gaul in the Merovingian Age. London. 1926.

— Dozy (R.) Stokes (F.G.):
Spanish Islam, London, 1931.

— Duchesne (L.) :
Histoire Ancience de L'Eglise (3 Vols.) Paris, 1923.

— Dudden (F.H.) :
Gregory the Great ; His Place in Hist. and Thought :
(2 Vols.) London, 1905.

— Eginhard, The Life of Charlemagne.
(Trans By A.J. Grant) London, 1926.

— Eyre (E.) :
Eutopean Civilization (Vol. 3. The Middle Ages) London 1935.

— Fichenau (H.) :
The Carolingian Empire.. Oxford, 1957.

— Fliche (A.) :
L'Europe Occidentale de 888 a 1125 (Hist. du Moyen Age. Tome 2) Paris, 1930.

— Fliche (A.) :
La Chretienté Medievale. Paris, 1929.

— Gibb (H.A.R.) :
The Damascus Chronicle of the Crusades. London, 1932.

— Gibbon (E.) :
The History of the Decline and Fall of the Roman Empire
(7 Vols.) Oxford, 1929.

— Gibbons (H.A.) :
The Foundation of the Ottoman Empire. Oxford, 1916.

— Glover. (T.R.) :
The Conflict of Religions in the Early Roman Empire
London, 1910.

— Crousset (R.) :
Historie des Croisades et du Royaume France de Jérusalem
(3 Vols.) Paris, 1936.

— Guizot (M.) :

Histoire de La Civilisation en France. Paris, 1868.

— Halphen (L.)

Etudes Critiques sur L'Histoire de Charlemagne. Paris. 1921.

— Hardy (E.G.) :

Studies in Roman History (2 Vols.) London 1910.

— Haskins (C.H.) :

The Normans in European History. Cambridge, 1915.

— Haskins (C.H.) :

The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge 1928.

— Hayward (F.) :

A History of the Popes. London, 1931.

— Hearnshaw (F.J.C.) :

Some Great Political Idealists of the Christian Era, London 1937.

— Hodgkin (T.) :

The History of England from the Earliest. Times to the Norman Conquest. London, 1920.

— Hodgkin (T.) :

Italy and Her Invaders (4 Vols.) Oxford 1896.

— Hubert (H.) :

Les Germains. Paris, 1952.

— Hug. (L.) Stead (R.) :

Switzerland. London, 1898.

— Kantorowicz (E.) :

Frederick the Second. London, 1931.

— Karsten (T.E.) :

Les Anciens Germains. Paris, 1931.

— Kats (S.) :

The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1955.

— Kleinclausz (A) :

Charlemagne. Paris, 1934.

— Lavisse (E.) :

Histoire France de Paris, 1911.

المشاركة والالتزام :

— Lodge (R.) :
The Close of the Middle Ages. London, 1922.

— Lot (F.) :
Les Invasions Germaniques. Paris, 1935

— Lot (F.) :
The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages. London, 1931.

— Lot (F.) :
Les Invasions Barbares (2 Vols.) Paris, 1942.

— Lot (F.) : Pfister (C.) Ganshof (F.) :
Les Destineen de l'Empire on Occident 395-888. (F.ndu Moyen Age). Tome 1. Paris, 1928.

— Mawer (A.) :
The Vikings. Cambridge, 1930.

— Miller (W.) :
The Balkans. London, 1908.

— Morfill (W.R.) :
Russia. London, 1908.

— Morfill (W.R.) :
Poland. London, 1863.

— Moss (H.S.) :
The Birth of the Middle Age. Oxford, 1947.

— Oman (C.) :
The Dark Ages, London, 1908.

— Oman (E.) :
The History of England (1377-1485) London, 1920.

— Orton (C.W.P.) :
Outlines of Medieval History. Cambridge, 1924.

— Ostrogersky (C.) :
History of the Byzantine State. Oxford, 1956.

— Paiter (S.) :
A History of the Middle Ages, New York. 1954.

— Perroy (E.) :
La Guerre de Cent Ans. Paris, 1954.

— Pirenne (H.) :
Mohammed and Gharlemagne, London 1924.

— Pirrenne (H.) : Renaudet (H.) Pirroy (E.), Handelsman (M.) Halphen (L.) :

La Fin du Moyen Age (2 vols.), Paris, 1931.

— Peole (R.L.) :

Illustrations of the History of Medieval Thought Learning. London, 1002.

— Rambaud (A.) .

Histoire de la Russie Depuis les Origines jusqu'a l'anne 1877, Paris, 1878.

— Rogers (J.E.T.) :
Holland, London, 1885.

— Rostovzeff (M.) :
A History of the Ancient World (2 vols.) Oxford, 1927.

— Runciman (S.) :
A History of the Crusade (3 Vols.) Cambridge, 1951.

— Stephons (H.M.) :
Portugal. London, 1891.

— Stephenson (C.) :
Mediaeval History. New York, 1943.

— Stevenson (W.B.) :
The Crusaders in the East. Cambridge 1907

— Tacitus : Germania (Trans. by G.F. Stout).

— Taylor (O.H.) :

The Mediaeval Mind (2 Vols.) London, 1958.

— The Monk of St. Gall : The Life of Chalemagne (Trans. by A.J. Grant) London, 1926.

— Thompson (J.W.) :

The Middle Ages (2 Vols.) London, 1931

— Tout (T.F.) :

The History of England (1219-1377) London, 1920.

— Tout (T.F.) :

France and England ; Their Relations in the Middle Ages and Now. Mandhester, 1922.

— Tout (T.F.) :
The Empire and the Papacy, London, 1924.

— Ullmanu (W.) :
The Growth of Papal Government in the Middle Ages. London, 1955.

— Ullmanu (W.) :
Medieval Papalism, London, 1948.

— Nasiliev (A.A.) :
Histoire de l'Empire Byzantine (2 Vols.) Paris, 1932

— Wallace-Hadrill (J.M.) :
The Barbarian West, London, 1952.

— Watts (H.E.) :
Spain, London, 1893.

— Winn (H.E.) Workman (H.B.) :
Wiclif, Oxford, 1929.

— Workman (H.B.) :
The Evolution of the Monastic Ideal, London, 1957.

— Zimmerman (H.) :
The Hansa Towns, London, 1389.

— The Cambridge Medieval History (8 Vols.) Cambridge, 1963.

— The Cambridge Ancient History (Vol. 10).

الفهـــارس

فهـرس الخرائط

صفحة

موضوعات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

— المغول وأوربا (٦١٦) — الفرسان التيتون (ص٦١٨)

صفحة